دار الكتب والوثائق القومية

أ. ب. كلوت بك

لمحة عامة إلى مصر



ترجمة وتحرير: محمد مسعود

تقديم: أ.د. أحمد زكريا الشلّق

هذا الكتاب

من الواضح أن كلوت بك وهو يؤلف هذا الكتاب كان يرى أن عليه أن يكمل الجهد الذى بذله علماء الحملة الفرنسية والمجمع العلمى المصرى الذى تأسس خلال بقائها فى مصر وأنجز مجلدات الكتاب الشهير « وصف مصر» فقد أشار إلى تقديره وإكباره «لجهود هذا المجمع ومجموعة المذكرات التى دونها والتى هى أثر علمى جليل وموسوعة نافعة» ، وكان يرى كذلك أن أحدا لايستطيع أن يكتب شيئا عن مصر دون الرجوع إليها . وقد أثبت كلوت بك أنه اطلع على مادونه الرحالة الفرنسيون من مصنفات عديدة ، مثل سافارى وفولنى وسونينى ، وكذلك اطلع على ماكتبه إدوارد وليم لين ، ومصنفات العلامة «منجن» الذى كتب سيرة محمد على ، ورأى مؤلفنا أن بها «نقصا وعيوب وأن بعضها أصبح عتيقا ولاتنطبق أخباره على حقيقة الوضع القائم فى مصر» .

لقد قدم المؤلف فى هذا الكتاب استعراضا موجزا لتاريخ مصر منذ العصر الفرعونى ، مركزا على الطبقات والفئات الاجتماعية والنظم القانونية والسياسية وطبيعة العلوم والأوضاع الاقتصادية . ووصل الكاتب بهذا التمهيد حتى حكم الأتراك ومجىء الحملة الفرنسية ليصل إلى عصر محمد على ، وهو صلب هذا الكتاب ، وهى الفترة التى عاصرها المؤلف وعايشها وكان شاهدا عليها ، ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب .

تصميم الغلاف: محمد عماد

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

أ.ب. كلــوت بك

لمحة عامة إلى مصر

دار الكتب والوثائق القومية

أ.ب. كلـوت بك

لمحة عامة إلى مصر

ترجمة وتحرير

محمد مسعود

تقديم

أ.د. أحمد زكريا الشِّلق

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

كلوت بك، أنطوني برتلمي، ١٧٩٣ - ١٨٦٨.
لمحة عامة إلى مصر/ أ. ب. كلوت بك؛ ترجمة وتحرير محمد مسعود. . القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ، 2011-
٦٥٤ ص؛ 24 سم.
تدمك 2 - 0790 - 18 - 977 - 978
١ - مصر. تاريخ
٢ - مصر. الأحوال السياسية
٣ - مصر. الأحوال الاقتصادية
٤ - مصر. الأحوال الاجتماعية
أ - مسعود، محمد (مترجم ومحرر)
ب - العنوان

٩٦٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١/٤٢٤٠

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0790 - 2

تقديم

كان للفرنسيين ، وربما لايزال ، شغف خاص بمصر ، وقد قدم العديد من المفكرين ورجال السياسة والدبلوماسية مشروعات - تغرى الحكومات الملكية فى فرنسا باحتلال مصر ، بل إن العديد من القناصل والتجار والرحالة والمغامرين ورجال الدين الفرنسيين ، صاروا يحبذون الفكرة لدى حكومتهم مدفوعين بفكرة تفكك الدولة العثمانية . والرغبة فى توطيد مركز فرنسا التجارى فى مصر وفى الشرق عموما ، غير أن إرهاصات الثورة الفرنسية صرفتها مؤقتا عن الغزو والاستعمار .

لقد كان هؤلاء يرون أن مصر هى أخصب بقاع الأرض قاطبة ، تنمو بها المحاصيل دون مشقة ، كما أنها بلد صحى المناخ ، ولايبعد عن شواطئ فرنسا الجنوبية كثيرًا ، ولاتستطيع دولة أوربية أن تنازع فرنسا فى احتلالها . . . وعندما قامت الثورة فى فرنسا وأعلنت الجمهورية ، أقدمت على غزو مصر بإرسال حملة بونابرت الشهيرة (١٧٩٨ - ١٨٠١) التى احتلت مصر نحو ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، لم يتهيأ للفرنسيين خلالها الاستقرار اللازم لتحقيق استراتجيتيهم ، للأسباب المعروفة التى أدت إلى فشل الحملة ، وعلى رأس هذه الأسباب المقاومة العنيدة من الشعب المصرى . ومن المهم التأكيد على أننا لاينبغى أن نبالغ فى الإشادة بأهمية الاحتلال الفرنسى للمصر من حيث اتصالها بالمدنية الحديثة أو نعتبر أن هذه الغزوة بمثابة نقلة حضارية لمصر من عالم العصور الوسطى إلى عالم الحضارة الحديثة ، فلا ننسى أن هذا الاتصال جاء قسراو فى إطار حملة عسكرية غازية وأنها ووجهت بمقاومة مستمرة ، كما أن المصريين أبدوا تحفظا خاصا تجاه الحداثة التى قدمها الغزاة على ظهور المدافع ، ويجب التأكيد على أن أعظم ماحققه الفرنسيون هو تقديم مصر للغرب ، أكثر من تقديم حضارة الغرب لمصر أو التأثير فى المصريين .

وفى المقابل ينبغى الإشارة الى أن الاحتلال الفرنسى لمصر قد أفادها بقدر ما ، ودون قصد ، ذلك أن وجه الحملة الحضارى لم يكن مقصوداً به تحديث مصر ، لكن انتفاع المصريين بالظروف التى أوجدتها الحملة كان بمثابة النفع الذى يأتى من الضرر ، أو التنبُّه الذى أثاره التحدى . . . كما أن الاطلاع على ما فى يد المحتلين من أدوات القوة والحضارة الحديثة ، كان قمينا بإثارة نوازع الفضول الذى يفضى إلى تشكيل وعى جديد . قد يتحول إلى حركة نحو التقدم .

وهذا التقدم هو الذى دفع محمد على باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٨) إلى أن يتجه نحو أوربا ونهضتها ليفيد منها ، عندما أراد أن يبنى فى مصر دولة حديثة ، وهو الذى دعاه لإنشاء ادارة حديثة وجيش عصرى واقتصاد جديد ، ومن هنا أقام مع أوربا ونهضتها جسورا واضحة أهمها استقدام الخبراء والمعلمين والفنيين للتدريس والتدريب فى مدارسه ومصانعه وجيشه ، وإرسال البعثات التعليمية للنبهاء من تلاميذ المدارس إلى مختلف دول أوربا للتعلم والاستفاده من منجزاتها ، ثم إقامة حركة ترجمة واسعة ونشطة لمختلف العلوم والفنون الأوربية إلى اللغة العربية . ومن الثابت أن مجىء كلوت بك إلى مصر عام ١٨٢٥ كان جزءا من سياسة محمد على « الذى سعى إلى أن يجلب إلى مصر التمدن والمعارف والصنائع الأورباوية ، فعندما رأى عظم ثمرة الارسالية الفرنسية فى هذا القطر وجه أنظاره نحو فرنسا» ورأى أن يأتى بأطباء فرنسيين للمحافظة على صحة جيشه ، ومن هنا جاء كلوت بك لتولى وظيفة «جراح باشى» مشترطا أن يكون حرًا فى العمل ، وأن يظل على ديانته المسيحية ، وألا يجبر على السير فى ركاب الجيش .

***

ذلك هو كلوت بك (نوفمبر ١٧٩٣ ـ أغسطس ١٨٦٨) مؤلف هذا الكتاب والذى يحمل اسم انطوان بارتلى ، وقد ولد لأسرة فقيرة فى جرينوبل بفرنسا وتعلم فى مدرسة خيرية بمرسيليا ، وبدأ فى ممارسة الطب والجراحة عمليا مساعدا لطبيب كان صديقا لوالده يدعى الدكتور «سابيه» ، حتى نبغ فى الجراحة ، والتحق بمدرسة الطب فى مونبليه ، والتى حصل منها على الدكتوراه فيما بعد (عام ١٨٣٠) . وقد عرض عليه أحد التجار الفرنسيين أن يقبل وظيفة جراح باشى فقبلها وجاء إلى مصر عام ١٨٢٥ وبلغ شهرة كبيرة بها حتى صار جراح محمد على الأول بين عامى ١٨٢٨ و ١٨٣٨ ، كما أن الباشا استعان به لتنظيم الخدمة الصحية ، فأسس مدرسة للطب فى مصر فى أبى زعبل فى فبراير ١٨٢٧ والتى نقلت إلى مكانها الحالى بقصر العينى فى أوائل عام ١٨٣٧ . وقد أتاحت لها إدارته المتصلة مدى اثنين وعشرين عاما حظا كبيرا من الاستقرار والتقدم ، وكان قوى الشخصية فتخرج على يديه جميع الأطباء فى مصر ممن درسوا فى القصر العينى ، كما بذل جهودا كبيرة فى ترجمة الكتب الطبية من اللغات الاجنبية إلى اللغة العربية . وقد استطاع كلوت بك هو وطاقم من زملائه من الأوربيين تدريب الكثير من الاتراك والمصريين فى القاهرة ليصبحوا جراحين فى الجيش ، كما صحب عام ١٨٣٢ عددا من خيرة تلاميذه المصريين إلى باريس للدراسة المتخصصة والتدريب .

وقد أذن له محمد على بالسفر إلى فرنسا عام ١٨٣٩ بعد زواجه ، وهناك أعد كتابه « لمحة عامة إلى مصر» الذى نشره فى باريس عام ١٨٤٠ ، ليعود فى نفس العام إلى مصر ويظل يمارس عمله حتى وفاة محمد على .

وما كاد عباس باشا (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤)يتولى مقاليد الحكم حتى كان أول أعماله إلغاء أكثر المدارس التى أسسها محمد على ورأى إبعاد الموظفين

الأوروبيين وفى مقدمتهم كلوت بك ، الذى بادر بتقديم استقالته فى ابريل عام ١٨٤٩ وقد قدرت الحكومة المصرية خدماته مدى خمسة وعشرين عاما للصحة والطب فى مصر ، فقررت أن يصرف له نصف مرتبه السنوى مدى حياته ، وبعد رحيله فقدت مدرسة الطب أهميتها حتى انتهى حكم عباس. وعندما تولى محمد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) عاد كلوت بك إلى مصر مرة أخرى وتولى إدارة مدرسة الطب وتحمل مسئولية تنظيم الادارة الصحية والطبية فى البلاد وأعاد الحياة الى مدرستى الطب والولادة . وصار المفتش العام للصحة فى مصر ، ومما يذكر له أنه وضع لائحة لتأسيس مدرسة جديدة للطب تكون ملحقة بمستشفى قصر العينى ، افتتحت فى سبتمبر ١٨٥٦ وفى خطبة افتتاحها دافع كلوت بك عن رأيه فى وجوب إدخال الدراسات العلمية فى مصر بواسطة لغة البلاد وعن طريق المدارس الوطنية ، هذا مع عدم اغفال تدريس اللغة الفرنسية للطلبة حتى يستطيعوا قراءة المراجع الفرنسية . والمعروف أن الرجل أثار غيرة منافسيه الألمان وغيرهم فكثرت دسائسهم ضده ، مع تقدم سنه وضعف صحته ، مما حال دون مواصلته النضال فى سبيل المحافظة على نظام المدرسة التى ارتبط تاريخها باسمه ، فاضطر إلى اعتزال العمل والعودة إلى وطنه عام ١٨٥٨ ، فقدر سعيد باشا جهوده وأمر بمنحه كامل مرتبه طوال حياته .

***

من الواضح أن كلوت بك وهو يؤلف هذا الكتاب كان يرى أن عليه أن يكمل الجهد الذى بذله علماء الحملة الفرنسية والمجمع العلمى المصرى الذى تأسس خلال بقائها فى مصر وأنجز مجلدات الكتاب الشهير « وصف مصر» فقد أشار إلى تقديره وإكباره «لجهود هذا المجمع ومجموعة المذكرات التى دونها والتى هى أثر علمى جليل وموسوعة نافعة» ، وكان يرى كذلك أن أحدا

لايستطيع أن يكتب شيئا عن مصر دون الرجوع إليها . وقد أثبت كلوت بك أنه اطلع على مادونه الرحالة الفرنسيون من مصنفات عديدة ، مثل سافارى وفولنى وسونينى ، وكذلك اطلع على ماكتبه إدوارد وليم لين ، ومصنفات العلامة «منجن» الذى كتب سيرة محمد على ، ورأى مؤلفنا أن بها «نقصا وعيوب وأن بعضها أصبح عتيقا ولاتنطبق أخباره على حقيقة الوضع القائم فى مصر» .

لقد كان كلوت بك من المؤمنين بعظمة محمد على باشا ، وربط بين جهود الحملة الفرنسية وجهوده ، وذكر أن محمد على « وضع يده على ماتركت فرنسا بمصر من التراث الثمين ، فكان بجلائل فعاله خير تعزية لمجدنا العسكرى وأجمل سلوان لعلمائنا الفطاحل . . ففى عصره نهضت مصر من كبوتها وهبت من سباتها . .»

لقد رأى كلوت بك أن له الحق ، وقد أقام بمصر خمسة عشر عاما ، تقصّى فيها أحوال أهلها وعاداتهم ، وفتش عن استعداداتهم وعبقريتهم ، وشهد أثناءها ـ كمتفرج أو ممثل – كل ما أدخل فيها من مستحدثات . ومن هنا كان يرى أن له الحق فى أن يدلى بشهادته ورؤيته .

لقد قدم المؤلف فى هذا الكتاب استعراضا موجزا لتاريخ مصر منذ العصر الفرعونى ، مركزا على الطبقات والفئات الاجتماعية والنظم القانونية والسياسية وطبيعة العلوم والأوضاع الاقتصادية . ووصل الكاتب بهذا التمهيد حتى حكم الأتراك ومجىء الحملة الفرنسية ليصل إلى عصر محمد على ، وهو صلب هذا الكتاب ، وهى الفترة التى عاصرها المؤلف وعايشها وكان شاهدا عليها ، ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب .

وقد قدم المؤلف فى البابين الأول والثانى لمحة عن طبيعة مصر الجغرافية . فكتب عن شكل الأرض وطبيعة الطقس والمناخ ونهر النيل والبحيرات ،

والمعادن والنباتات والحيوانات والطيور والأسماك ، والسكان وأعراقهم . أما الباب الثالث فقد خصصه للحديث عن السكان وتوزيعهم الديموجرافى . وكتب عن وسائل زيادة السكان وموانع الاصلاحات التى قام بها محمد على . والتى رأى أن من أهمها «وجود جيش كبير ومن المرغوب فيه لمصلحة مصر وتقدمها أن يعود العساكر إلى مزاولة الزراعة .»

أما الباب الرابع فقد اختص بالحديث عن الديانات والمذاهب ، فكتب عن الإسلام وقواعده وآدابه والعبادات . كما كتب عن اليهود والأقباط ، ثم تناول فى الباب الخامس التشريعات والقوانين ونظم العقوبات ، والنظام القضائى بشكل عام . واستمر فى الباب السادس يدرس أوضاع المسلمين وعاداتهم وطبقاتهم الاجتماعية ، ووضع الأسرة ، والرق والملابس ، والزواج والأثاث والرياضة والموسيقى والاخلاق . وقد بدا فى هذا الباب وكأنه يحذو حذو إدوارد وليم لين فى الحديث عن عادات المصريين وتقاليدهم وطبيعة حياتهم . ولم يغفل المؤلف أن يوضح أوضاع العناصر الأخرى من السكان كالعربان ، والأتراك ، والأرمن واليونانيين والسوريين ، ونشاط القناصل والتجار الفرنجة .

وفيما يتعلق بالحكومة والأنظمة السياسية فقد عالجه المؤلف فى الباب الثامن الذى تناول فيه وضع الحكومة وطبيعة الوظائف والموارد المالية وتكوين الجيش . وفى الأبواب الثلاثة الأخيرة تناول كلوت بك الأوضاع الاقتصادية ووضع التعليم ، مركزا على نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد على . فضلاً عن الشئون الصحية والأمراض الشائعة ، وهى الأمراض التى جاء كلوت بك إلى مصر لعلاجها .

وتكمن أهمية هذا الكتاب ليس فقط فيما قدمه من معلومات مهمة ، وإنما فى نظرة المؤلف المعاصرة لما رآه وشاهده بنفسه ، فضلاً عن ضرورة رؤية المجتمع

المصرى فى مرآة الآخرين ، وهى بطبيعة الحال تختلف عن رؤيتنا لأنفسنا . ونود أن نشير فى النهاية إلى أن كلوت بك له كتاب آخر عن تاريخ محمد على نشره فى مرسيليا عام ١٨٦١ ، فضلا عن كتاباته الطبية الخاصة بمدرسة الطب فى أبى زعبل ، والتى نشرها عام ١٨٣٢ . وإذ نشيد بإقدام دار الكتب المصرية لإعادة طبع هذا الكتاب المهم ، بمبادرة كريمة من رئيسها المؤرخ الكبير أد .محمد صابر عرب ، فإننا نتمنى أن يفيد منه الباحثون وعامة المثقفين .

والله ولى التوفيق

أد . أحمد زكريا الشِّلق

مارس ٢٠١١

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

تمهيــــــد:

لقد عم الاهتمام بمصر وشئونها فى هذه الأيام بلدان العالم جميعا. إن هذا القطر الـذى كان فيما سلف مـن الزمان مهد الحضـارة والعرفان قـد خيمت عليه منذ زمـن طويل عناكـب النسيان فظل خامـل الذكر حتى أواخـر القرن الأخير حيث جـاءت الحملة الفرنسيـة فمزقـت ذلك الحجاب ووجهـت نحوه أنظـار العالم مـن أقصاه إلى أقصــاه. ذلك لأنــه بعد أن فشلـت هذه الحملـة وانتهت بما هـو معلوم من النتائج التعسـة والعواقب السيئة ظهـر فى الميدان رجل ذو عبقـرية عاليـة فوضع يـده على ماتـركت فرنســا بمصر من التراث الثمين فكـان بجلائل فعـاله خير تعـزيـة لمجدنـا العسكرى وأجمل سلـوان لعلمائنا الفطاحل على ما ختمت مساعيهـم به من الخيبة والفشل. أجال ذلك الرجل نظره فيما أودعناه أرض الفراعنة مـن بذور الحضـارة ورويناه به من دمائنـا فتعهده بعناية حتـى طلع نبته وأثمـر. بهمته السامية. عـادت الآفاق فـرددت أصوات الأبـواق الفرنسيـة فى سهول الأهـرام وأبى قير وعكـا وعين شمس، كأنما ودت أن ترضـى أبطالنا فى أجداثهم الذين لقوا الحتوف فى هذه الميادين. فلقد عهـد إلى لفيف من الفرنسيين تعليم الجيوش الإسـلامية فنون القتال وتدريبها على طرائقنا العسكرية وأساليبنا الحربية ونشر عبقرية الأمة الفرنسية. فى الآن الـذى لاح فيه طالع السعـد الميمون بأفق الشرق. منـذ هذا العهـد نهضـت مصر من كبـوتها وهبـت مـن سبـاتها وحيت حيـاة طيبـة فأصبحـت من أقـوى العوامـل فى أهم مســألة تضـاربت بشـأنها صوالـح السيـاسة واختلفـت بسببها المذاهـب فى العـالم القديـم. إن مصر بجهودهـا

الذاتية ومركزها بالنسبة للأمم الأخرى أصبحت من خطر الشأن ورفعة القدر بحيث ظهر أن البلدان الجديرة مثلها بالتوسع فى بيان أحوالها والإحاطة بأطراف عاداتها أندر من الكبريت الأحمر.

وإنى لأعلم يقينا أن الاهتمام بمصر لم يكن وليد اليوم، وأن طائفة كبيرة من المصنفات النفيسة قد وضعت عنها غابرا وحاضرا باحثة فى أحوالها ومستوعبة أخبارها وحوادثها بل أن منها مؤلفا جليلا يسمو عليها سموا عظيما حتى أن الكاتب الذى تستفزه الرغبة إلى الكتابة عن مصر قلما يستطيع الإقبال على عمله قبل أن يؤدى إلى هذا المصنف مفروض الإتاوة من الإكبار والإجلال.

أريد به مجموعة المذكرات التى دونها المجمع العلمى المصرى، وهى أثر علمى جليل . بل موسوعات نافعة تستشف من خلال أسطرها عبقرية الرجل العظيم الذى رسم أسلوبها وخطط برنامجها واستطاع بمن استجمعهم حوله من ذوى الكفاءات العالية الوصول بها الى الغاية التى رسمها لها.

وفى الوسع أن نذكر بعد هذا المصنف العظيم الذى ليس هو الأول ولا الأخير من أعمالنا الجليلة الموجبة للفخر مصنفات أخرى لا عداد لها، جديرة ـ والحق يقال ـ بالإطراء والحمد، نذكر مما نشر منها قبل الحملة الفرنسية مصنف العلامة (سفرى) ورحلة (فولنى) التى برزت حقائق العلم ودقة الملاحظة منها فى ثوب قشيب من الإنشاء الذى تتفجر منه ينابيع الحماس والقوة، وكذا مصنف (سونينى) الجدير بالاعتبار لأسباب شتى. أما المصنفات الحديثة فنورد منها كتاب الرحلات للدوق (دى راجوز) فإن القسم المخصص منه لمصر يحتوى كثيرا من البيانات المفيدة والآراء العلمية الصائبة، وكتاب «رسائل فى الشرق» من إنشاء مؤلف تاريخ الحروب الصليبية وصديقه العلامة (بوجولا) وكتاب «رحلة دى كدالفين ودى بروفرى» وكتاب العلامة (و. لان) فى مجلدين عن أحوال المصريين وعاداتهم وأخيرا مصنفات العلامة (منجن) التى تحتوى سيرة محمد على وتاريخ حكمه مبنيا على بيانات وتفاصيل امتازت بالدقة والصدق.

وثمة مصنفات لاعداد لها أقل من تلك أهمية من حيث تحقيقها شئون مصر وتمحيصها وأطوار أهلها وعاداتهم، وإنما بالرغم مما توافر فى المصنفات التى نشرت حتى اليوم من المزايا والفوائد لايزال فى كل منها نقص

أو عيب. إما لأن البعض منها قد أصبح عتيقا لاتنطبق أخباره على حقيقة الواقع فى عهدنا لما يكون قد طرأ عليه من التبديل والتغيير، وإما لأن البعض الآخر لايتناول من أحوال مصر سوى الحوادث الطارئة والأحوال العارضة التى تزول بزوال أسبابها، وإما لأن هذه المصنفات لم تكن وقفا على مصر بل كل ما ورد عنها فيها عبارة عن موجز لايتناول إلا المهم من أحوالها، وهو مايؤخذ منه أنه لم يكتب عن مصر مصنف جامع لشتات أحوالها ملم بأطراف عاداتها وأننى لذلك تصديت لتأليف هذا الكتاب الذى أقدمه إلى جمهور القارئين سدا لما ذكر من الخلل وإتماما لما تقدم من النقص.

وقد أكون بما تخيلته فى نفسى من القوة والكفاءة عندما أخذت بتأليف هذا الكتاب مخدوعا بالأمانى. فسواء أخطأت فى هذا الحدس أم أصبت فلى، وقد أقمت بمصر خمسة عشر عاما تقصيت فيها أحوال أهلها وعاداتهم وفتشت طويلا عن استعدادهم وعبقريتهم وشهدت أثناءها كمتفرج أو ممثل كل ما أدخل فيها من المستحدثات ، كل الحق فى أن أباشر بنفسى السير على الخطة الموضوعة للوصول إلى الغاية التى جعلتها مطمح جهدى ومرمى عملى.

على أنه لم يتح لى أن أبدأ بمزاولة هذا العمل إلا منذ أشهر قلائل. وأول ما انصرف إليه خاطرى بادىء الأمر استهلال البحث الذى كنت أكتبه عن الطاعون بلمحة إلى مصر من الوجهتين الطبيعية والطبية. إلا أننى ما انتهيت من استجماع المواد اللازمة لذلك حتى ألفيتها ــ لإتساعها وكثرة عددها ـ متجاوزة الحد الذى رسمته لعملى. فآثرت حينئذ أن اتخذ منها أساسا لمصنف خاص آليت على نفسى إتمامه، لأن الاسئلة التى كانت توجه إلى عن مصر كلما رحلت إلى أوروبا باعثة على الدهش = الدهشة = والعجب. فلقد التقيت بكثيرين ممن اشتهروا بوفرة العلم وسعة الإطلاع وفرط الذكاء فاستخلصت من الأسئلة التى كانوا يوجهونها إلى عن مصر أن معلوماتهم عنها مبتورة مغلوطة غريبة فى ذاتها. بل إنها من الغرابة بحيث استقر فى خلدى أننى إذ قمت بتصنيف كتاب صغير الحجم ألم فيه بأحوال مصر إلماما عاما أكون قد قمت بعمل نافع مفيد.

ولست أنكر على القارىء أنه كان من أشهى الأمور إلى نفسى أن تتاح لى الفرصة لإطالة النظر فى هذا العمل وقتله بحثا وفحصا قبل الشروع فى تدوينه. لأنه بالحالة التى أقدمه بها إلى القراء مابرح بادى النقص جم العيوب. ولكن لما كان الوقت الحاضر من أوفق الفرص وأنسبها لنشره لأن

البحث فى حياة مصر ومستقبلها قد لاكته الألسنة كثيرا فى هذه الأيام وأصبح موضوع الجدل والمناقشة بين أرباب الصحف وأقطاب السياسة فى الأقطار الأوروبية قاطبة فقد سارعت إلى تقديم هذا المستند ضمن مستندات القضية المصرية التى أضحى الحكم فيها من أولئك الأقطاب قاب قوسين أو أدنى. ذاك هو الباعث الذى حملنى على التعجل بتحرير هذا المصنف. ورجائى من القراء وقد قدمته إليهم مبتورا منقوصا، أن يسحبوا عليه ذيل الإغضاء متجاوزين عن السقطات التى زالت فيها البراعة عند تحريره. وإذا كانت هذه أول مرة عهدت فيها إلى الطباعين مصنفا طويلا كان رائدى فيه العجلة فى إنجازه فما أحرانى بصفحهم وأشد حاجتى إلى تجاوزهم وعفوهم.

ولست بمتكلم عن التقسيم الذى راعيته فى هذا المصنف، وغاية ما فى وسعى أن أقوله أننى اتبعت فيه ما خلته أكثر انطباقا على وجوه الصواب من غير، وهو ما سيقتنع القراء به متى مروا بنظرهم على فهارس مواده. وأكرر القول بأن الغرض الذى أرمى إليه هو الكلام على جميع مايرتبط بمصر بأوفى ما يستطاع من البيان، مع رعاية الاختصار لضيق المجال الذى حددته بنفسى لنفسى فارضا عليها ملازمته وعدم تخطيه إلى ما بعده ومن ثم يبدو للناظر أثر عنايتى بترتيب المواد وتنسيقها فى مواضعها اللائقة بها.

ومما لاشك فيه أننى تصديت للبحث فى كثير من المسائل الخارجة عن دائرة اختصاصى. فلتحريرها وتدوين حقائقها قد استعنت بالمصنفات الجليلة التى قصدت للبحث فى كل منها مع رجوعى إلى الأخصائيين المعروفين من أصدقائى الذين آزرونى بآرائهم ونصائحهم فاستحقوا منى لذلك جزيل شكرى بعنايتهم.

وهنالك مسائل أخرى ، ولاسيما المسائل الحديثة، كان من غير المستطاع أن يتناولها بالبحث سوى الواقف على أسرار الأحوال الحاضرة للبلاد المصرية. ورجائى أنه إذا أضيفت هذه المسائل إلى ماسبق يتكون مجموع لايخلو من النفع والفائدة.

أما المسائل الجديدة التى سبقت الإشارة إليها فلا يسبقن إلى وهم القارىء أننى اتخذتها منوالا أنسج عليه المدائح فى إنسان أو شىء أيا كان. كلا فإن هذا المصنف لم يوص بتصنيفه أحد، ولم يهيمن على تدوينه أحد، فإذا عثر القارىء فيه بمدح اقتضاه الإنصاف والعدل فى حق الرجل العظيم الذى لايسعنى إلا الإعجاب به والشكر له فليثق بأننى لم أطاوع فيه هوى

النفس ولا مجرد المجاملة أو الأدب نحو الأشخاص. وإنني فيما كتبت قد احتفظت بحريتي كاملة فى الإعراب عن أفكارى بما اخترت لها من الألفاظ والعبارات.

وإذا كان الكمال لله وحده، وكان من الواجب التجرد عن الغرض واجتناب التحيز فى الكلام على الخير والشر والنفع والضر فقد توخيت فى إبداء ملاحظاتي على ما تبينته من النقص أو الفساد فى أمر ما الاستقلال المجرد فى الرأى وتحرى الصواب جهد الإمكان.

على أنه لايغرب على = يغيب عن = العاقل أن الوصول إلى الإصلاح لايكون أبداً من طريق التنديد والتبكيت ولا بوسائل الطعن الحاد والتشهير المعيب. فإنه من المعلوم حق العلم أن من يجعل حسن النية رائده فى طلب إصلاح العيوب التى يستكشفها. يمهد الطريق إلى هذه الغاية الشريفة ويوفر لها أسباب النجاح والفلاح بما يبديه من الآراء الصائبة والنصائح الصادقة المنبعثة من قلب سليم.

وقد أصبح حقا على بعد ذلك أن أعلن شكرى لمن تفضلوا فمنحونى عضدهم ومؤازرتهم بما وافونى به من النصائح والإرشادات النافعة أو قدموه إلى من المستندات النفيسة والبيانات المفيدة. وأخص بشكرى وثنائى العلامة (جومار) الذى بصفته أقدم أعضاء المجمع العلمى المصرى، وقف وقفة الحارس الأمين على التقاليد التى تربط فرنسا بهذا القطر برباطها الوثيق، والوسيط المخلص الذى استعانت به مصر الحديثة على الاستنارة بضوء الحضارة والعمران المنبعث من الديار الفرنسية.

ولقد تفضل ذلك العلامة فأشرف على تحرير القسم الجغرافى من هذا المصنف فضلا عن اننى من جهة أخرى مدين للعلامة (فيجرى) أستاذ النباتات بمدرسة القاهرة الممتلىء حماسا وعلما بشطر كبير من المواد المتعلقة بهذا العلم، وإن أنس لا أنسى المساعدة الجليلة التى وافانى بها العلامة (رجيس) مدرس التاريخ الطبيعى وأمين المتحف الخاص بهذا العلم فى مدرسة الطب أثناء تحريرى القسم المتعلق بالحيوانات من كتابى، ولا البيانات التى قدمها إلى العلامة (بونفور) ملاحظ أملاك صاحب السمو إبراهيم باشا عن النباتات التى أدخلت حديثا فى مصر. ومما أنا مدين به إلى العلامة (منجن) المعلومات القيمة التى أوردتها فى القسم التاريخى

والإحصائى مقتبسة من مؤلفاته التــى لامحيص لكل من يتصدى للكتابة على مصر عــن الاعتماد عليهــا والاغتراف مــن موردهــا العــذب السلسبيــل. وإن صدرى لينشرح لإنصــافه بهذا القــول ولاسيما وأن كتابــا كثيرين ارتضــوا لأنفسـهم نقل عباراته برمتها غير منسوبة إليه.

أما المهندس الحاذق (لينان) الملم تمام الإلمام بايدروغرافية = بجغرافية= مصر وتاريخها، والذى نيط به إنشاء القناطر الخيرية فقد كان لى خير معوان على إيراد البيــانات المتعلقة بهذه المســائل مشفوعــة بالأرقام والإحصــائيات الدقيقة.

أما (سريزى بـك) الذى سيبقى اسمه مخلدا فى مصر بما تــولى إنجازه من الأعمال الجليلة فإليه يرجع الفضل فيما أوردتــه من البيانات المستفاضة عن دار الصناعــة «الترسانــة» ومابنــى فيها مــن الجوارى المنشآت، ونقلتــه من المذكرات، والرسوم التى إليها رجعت فى إتمام هذا القسم من مصنفى.

أما العلامة (روزلليني) الذى تعرفت عليه بمصر ثم حظيت بلقائه فى (بيز) «بيشه» فهو الــذى أفاض على من سجل معــارفه الأثرية المعلـومات النفيسة التى أتممتها بالاقتباس من مؤلفات (شمبوليون).

وأما الآثار العربية فإن مايراه القــراء عنها فى هذا المصنف قطرة من غيث البيانـات التى وافانــى بها الماهر (ب . كوســت) من أوائل المهندسين الــذين انتظموا فى سلك خدمة والى مصر، ولقد قام فيها بأعمال هندسية جليلة وألف كتابا مفيدا فى الهندسة العربية.

ولقد ذكــرت أن السرعة كانــت رائدنا فى تحريــر هذا المؤلف وطبعــه، فمن البدهــى أن يتأثر القالــب الإنشائى الذى صنعناه فيــه بها، وأن تتسرب إليه الأغلاط عند مباشرة التصحيح المطبعى.

تمهيد تاريخي

العصر الفرعونى

العصور الجغرافية– العصور التاريخية– جدول بأسماء الأسر المصرية التى تعاقبت على مصر– من الأسرة الأولى فتح الملوك الرعاة – غارة الرعاة– الأسرة الثامنة عشرة – سيزوستريس– شوكة مصر فى الخارج على عهد سيزوستريس– الإدارة الداخلية – التجارة– غارة الأثيوبين – الحبشان– الأسرة السادسة والعشرون – الفتح الفارسى.

١– العصور الجغرافية

لاشك اننى أتجاوز الغرض المقصود من هذا الملخص الوجيز إذا أردت الإيغال فى تيه توقيعات الحوادث التى يضطر الباحث فى تاريخ مصر إلى تعيينها عند شروعه فى عمله. ومعلوم أن الكهنة المصريين أفسحو المجال للزمن فجعلوا وجود أمتهم فى الأعصر السابقة على التاريخ. إذ حددوا له عشرات الألوف من السنين زاعمين أنها كانت فى خلالها محكومة بالآلهة أو أنصاف الآلهة ـ أى الأبطال. فقالوا إن مدة حكم الفريق الأولى بلغت ٤٢٠٠٠ سنة منها ١٢٠٠٠ سنة كان الحاكم فيها الإله فتاح و ٣٠٠٠٠ سنة كانت الشمس هى المدبرة لشئونها، وتلت هذه المدة الأولى مدة تسلط أنصاف الآلهة الذين اتخذ اليونانيون منهم آلهتهم الاثنى عشر الكبار، وهم زحل والمشترى الخ. وإنى لأترك إلى غيرى العناية بإيضاح هذا المعمى وحل هذا اللغز، وإلى غيرهم مهمة البحث فى مطابقة تواريخ تلك الحوادث بتواريخ حوادثنا المستمدة من سفر التكوين.

٢– العصور التاريخية

إن أول حقبة تاريخية لمصر كشف عنها البحث والتمحيص هى التى تضمنها جدول الكاهن مانيتون المصرى لحصر الأسر المصرية المالكة.

فإن هـذا المؤرخ كان الكاهن الأعظـم لعين شمس وقد عاش قبـل الميلاد المسيحى بثـلاثمائة عام فناط بـه أحد الملوك البطالسـة تدوين تـاريخ لمصر القديمة. على أن يستخرجه من الأوراق المقدسة التى كانت موكولة إلى عهدته. ومن المعلوم أنه لم يخلص إلينا من عمله المفيد سوى الجداول الزمنية المبينة لمدد حكم تلك الأسر على يد بعض المؤرخين الأقدمين، ومع أن فى هذه الجداول بالحالـة التى هى عليها بين أيـدينا شيئا مـن التباين والخلل والنقـص فإنها تحدد على سبيل التـأكيد أو التخمين النقط الأساسيـة لتاريخ تلـك العصور المتراجعة فى القدم إلى أبعد مدى.

على أن العلـم الحديث قـد توصـل إلى انتـزاع أسرار الحقائق مـن الكتابـة الهيروغليفية، إذ عثر فى هذه النقوش التى جللت بها الآثار المصرية على مايؤيد غالـب البيانـات التى دونها الكـاهن مـانيتون، وأحيـانا على الـوسيلة التـى يستطيع بمقتضاهـا تصحيح الأغلاط التى فـرطت من المؤلفين الذيـن أخذنا عنهم تلك الجداول أثناء نقلهم إياها.

وها أنا ذا أقدم إلى القراء جدولا مختصرا لـلأسرات المصرية طبقا لما يؤخذ من القـائمة المانيتونية والاستكشـافات الحديثة العصرية. وإنـى لمقتصر فيه على بيان تاريخ جلوس كل أسرة منها وعدد مـن تعاقب على الحكم من ملوكها ومـدة حكم كـل فـريـق منهم على حـدة، وسـأورد بعـد ذلك أهـم الحوادث التاريخية للملوك الذين اشتهروا بجلائل الأعمال، أو بما كان لهم من الشوكة والاقتدار أو الحكمة والدراية أو غير ذلك من المزايا التى تنطق بها الآثار التى شادوها ولاتزال أطلالها خير شاهد على فضلهم ونبالتهم ورفعة قدرهم.

٣- جدول الأسر المصرية (١)

الأسرة الأولى الطينية الطيبية	٥٨٦٧	٨ ملوك	٢٥٢ سنة
الأسرة الثانية الطينية الطيبية	٥٦١٥	٩ ملوك	٢٩٧ سنة
الأسرة الثالثة المنفيسية	٥٣١٨	٨ ملوك	١٩٧ سنة
الأسرة الرابعة المنفيسية	٥١٢١	١٧ ملكا	٤٤٨ سنة
الأسرة الخامسة الألفنتينية	٤٦٧٣	٩ ملوك	٢٤٨ سنة
الأسرة السادسة المنفيسية	٤٤٢٥	٦ ملوك	٢٠٣ سنة
الأسرة السابعة المنفيسية	٤٢٢٢	٥ ملوك	٧٥ سنة
الأسرة الثامنة المنفيسية	٤١٤٧	٥ ملوك	١٠٠ سنة
الأسرة التاسعة الهرقليوبوليتية	٤٠٤٧	٤ ملوك	١٠٠ سنة
الأسرة العاشرة الهرقليوبوليتية	١٩٤٧	١٩ ملكا	١٨٥ سنة
الأسرة الثانية عشرة الطيبية	٣٧٠٣	٧ ملوك	١٦٠ سنة
الأسرة الثالثة عشرة الطيبية	٣٤١٧	٦٠ ملكا	٤٥٣ سنة
الأسرة الرابعة عشرة الأكزوتية	٣٠٠٤	٧٦ ملكا	٤٨٤ سنة
الأسرة الخامسة عشرة الطيبية	٢٥٢٠	——	٢٥٠ سنة
الأسرة السادسة عشرة الطيبية	٢٢٧٠	——	١٩٠ سنة
الأسرة السابعة عشرة ملوك الرعاة			
الأسرة الحادية عشرة الطيبية	٣٧٦٢	١٧ ملكا	٥٩ سنة
	٢٠٨٢	٦ ملوك	سنة (٢)
الأسرة الثامنة عشرة الطيبية	١٨٢٢	١٧ ملكا	٣٤٨ سنة
الأسرة التاسعة عشرة الطيبية	١٤٧٣	٦ ملوك	١٩٤ سنة
الأسرة العشرون الطيبية	١٢٧٩	١٠ ملوك	١٧٨ سنة
الأسرة الحادية والعشرون الصانية	١١٠١	٧ ملوك	١٣٠ سنة
الأسرة الثانية والعشرون البوبسطية	٩٢١	٧ ملوك	٢٠ سنة
الأسرة الثالثة والعشرون الصانية	٨٥١	٤ ملوك	٨٩ سنة
الأسرة الرابعة والعشرون الصائلة	٧٦٢	١ ملك	٤٤ سنة
الأسرة الخامسة والعشرون الأثيوبية	٧١٨	٦ ملوك	٤٤ سنة.
الأسرة السادسة والعشرون الصائية	٦٧٤	٩ ملوك	١٥٠ (٣)

(١) نقلت هذا الجدول من كتاب العلامة شامبوليون الذى ألفه عن مصر القديمة ونشرته «مجلة العالم العجيب» فعلى من يرغبون استقصاء تاريخ مصر القديم الرجوع إلى هذا المصنف الذى تناول هذا البحث بالإسهاب وشرحه شرحا مبنيا على الاستكشافات الأخيرة التى قام بها لأول مرة العلامة شامبوليون فيجاك

(٢) حكم مصر ستة من الفراعنة الطيبيين بالوجه القبلى، ولبث حكمهم مثل هذه المدة ـ أى ١٦٠ سنة

(٣) هذه الأسرة هى التى أخنى عليها الفرس فى سنة ٥٤٢

٤- من الأسرة الأولى إلى فتح الملوك الرعاة

أول ملوك هذه الأسرة هو (مينئى) الذى يسميه مؤرخو اليونان «مينيس» وهو الذى بدل الحكومة الاستبدادية الدينية بالسلطة الملوكية والمأثور أن الدلتا فى عهده كانت عبارة عن مستنقع وأنه شق للنيل مجرى آخر غير مجراه وأسس مدينة منفيس التى عثر الباحثون على أطلالها فى قرى منف وميت رهينة وأم خنان. وقد خلف (مينئى) على عرش الملك ملوك كثيرون مابرحت اسماؤهم وأعمالهم مجهولة حتى الآن ولم تترك أسراتهم للتاريخ من الذكريات المجيدة سوى ماشاده ملوكها من الآثار العظمى التى مابرحت موضع إعجاب السياح والعلماء وأرباب الصناعات والفنانين. وتبتدىء من الأسرة الثالثة منها تواريخ إنشاء أقدم الآثار فى العالم وهى أهرام دهشور وسقارة أما أهرام الجيزة الثلاثة فما هى إلا قبور الملوك الثلاثة الأول من الأسرة الرابعة. وإنشاء (لباريس) أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة فى إقليم أرسنوة (الفيوم) التيه الشهير فى الأزمان القديمة، وهو الأثر الذى كان إحدى العجائب السبع على ظهر المسكونة. والظاهر ان الغرض من إنشاء هذا التيه كان من أجل الأغراض وأشرفها . ألا وهو جعله دارا للندوة يجتمع فيها نواب الأقاليم المصرية كلما دعاها الى ذلك حادث خطيرى أو ضيق شديد لإبداء آرائهم فيما ينبغى ان تتخذه الحكومة من الوسائل لاتقائهما أو دفعهما . وهذا الأثر الجليل لم تبق منه اليوم سوى أطلال دارسة وآثار بالية.

٥- غارة عرب الرعاة

كان المصريون يطلقون لفظ (هكسوس) أى الرعاة على عرب الصحراء الرحل الذين ندعوهم اليوم باسم البدو أو العربان فإن هؤلاء الأقوام الباسلين = البواسل = الذين اعتادوا اقتحام أخطار الحروب واحتمال المشاق وصنوف الحرمان بما جبلوا عليه من التقشف فى المعيشة والتنقل من مكان إلى مكان تدفقوا على مصر من ناحية برزخ السويس فى عهد الأسرة السادسة عشرة فاستولوا على إقليم الدلتا ، وتناوب الحكم عليها ستة من كبار زعمائهم وظلوا قابضين على أزمتها ٢٦٠ سنة أبتدأت من سنة ٢٠٨٢ قبل الميلاد المسيحى. وفى عهد الرابع من أولئك الملوك الأجانب تقلد يوسف منصب الوزارة ودعا إلى مصر أسرة أبيه يعقوب الذى تناسلت منه الأمة اليهودية.

٦- الأسرة الثامنة عشرة

فتح ملوك الرعاة على المصريين أبواب الظلم وساروا فيهم بالجور والغشم. فكانوا إذا أطاعوهم يطيعونهم مكرهين غير ناظرين فيهم إلا أنهم قوم من البرابرة المتوحشين أعملوا أيدى التخريب والتدمير حتى أتوا على ماشيد من الآثار الضخمة والأعمال النافعة فى عهد الأسر السابقة ولم يطق الأبناء من خلائف الملوك الأقدمين الذين خلعهم الرعاة صبرا على هذا الضيم فانسحبوا فى أقاليم الدلتا وتمكن أحدهم وهو (أمينوف الأول) من إجلائهم عنها فلما استتب له الأمر فى ديار مصر ورست قواعد سلطته بها على الأسس الوطيدة أسس الأسرة الثامنة عشرة التى سطع نجمها وعلت كلمتها وأمتد رواق نفوذها على أرجاء مصر بحدودها القديمة.

ولقد تفرغ الأربعة الأول من ملوكها وهم (أمينوف الأول) و(تموتموزيس الأول) و(تموتموزيس الثانى) و(تمو تموزيس الثالث) لانتشال الأمة من وهدة الظلم التى أوقعها الرعاة فيه وكان هؤلاء فى مدة تسلطهم على مصر قد بثوا فى البلاد الفساد وأطلقوا أيديهم فيها بالتخريب والتدمير. فلما انبرى أولئك الملوك الأربعة لتجديد ماتخرب وإصلاح مافسد كان أول مانهضوا به من الأعمال أن أعادوا إلى الدين رونقه القديم وحفوا طقوسه بشارات التعظيم والتكريم وقووا أركانه بدعائم السلطة والنفوذ. وكانت القوانين القديمة قد سقط اعتبارها وزالت من بين الناس أسبابها فكان مما انصرفت إليه عنايتهم إعادتهم إياها إلى مقامها الأسمى ومرتبتها العليا. وكانت الترع والقنوات والجداول قد طمت بالتراب فحفروها من جديد كما أعادوا بناء المدائن التى دمرت والآثار التى عفى عليها . وما أغلب المبانى الشاهقة والآثار الباذخة التى ترى فى (الكرنك) و(مدينة آبو) إلا مظهرا من مظاهر تلك الهمة العالية والغيرة الدافقة للاحتفاظ بمجد الأمة وعظمة البلاد.

وقد امتاز الملك (تموتموزيس الثالث) المشهور باسم (موريس) على غيره بأنه الذى أنشأ فيما عدا المبانى المنجدة والهياكل المعظمة المسلتين المعروفتين بمسلتى الإسكندرية وأطلق اسمه (موريس) على البحيرة المعروفة الآن ببركة قارون التى تروى بمياهها أراضى إقليم الفيوم، وهى التى كان ماء فيضان النيل فى الزمن القديم يخزن فيها لتروى به الأرض أيام التحاريق، فكان ذلك سببا لخصب الشطر الأكبر من أراضى مصر الوسطى.

٧- سيزوستريس

بعد أن أرست الأسرة الثامنة عشرة قواعد النظام والسعادة فى الداخل رفعت لواء شوكة مصر فى الخارج وأيدت سيادتها على الأقطار المجاورة لها كافة. وأشهر ملوكها الذين امتازوا بفتوحاتهم وأعلاهم همة وأبعدهم صيتا هو (رمسيس الثالث)، ولعله الثانى المعروف بـ (سيزوستريس) فقد استأنف هذا الملك الفتوحات التى بدأ بها اسلافه، ووسع نطاقها حتى ترامت أطرافها إلى باطن الأقطار الهندية واستعان بما استفاده من الغنائم العظيمة على أثر انتصاراته الباهرة التى فدح فيها الأمم المغلوبة بالإتاوات البالغة والكلف الباهظة على إنجاز كثير من جلائل الأعمال العامة الفائدة وهو الذى تعزى إليه فكرة توصيل النيل بالبحر الأحمر، وشاد من جليل الآثار ما يتحلى الآن به جيد الديار المصرية كآثار أبو سمبل والدر ووادى الأسبعة فى النوبة والقرنة والمدينة . أى مدينة آبو بالقرب من القرنة وجزء من هيكل الأقصر والبهو الكبير ذى العمد فى قصر الكرنك. قال (شامبوليون) الشاب: «إن هذا الأثر الأخير لأفخم بناية شادتها يد الإنسان».

ففى عهد سيزوستريس بلغت مصر إلى أوج السعادة والهناء داخليا والشوكة والهيبة والاقتدار خارجياً.

٨- شوكة مصر فى عهد سيزوستريس

نذكر فيما يلى الممالك والأقطار التى كانت تعترف بسيادة فرعون عليها أو بحكمه فيها وهى: بلاد النوبة والحبشة وسنار، وكثير من أقطار جنوب افريقية والأقوام الرحالة النزالة = النازلة = فى صحارى شرق النيل وغربه وبلاد الشام والعرب ومملكتا بابل ونينوى، وشطر كبير من آسيا الصغرى وجزيرة قبرص وبعض جزر الأرخبيل اليونانى والأقاليم التى تتألف منها الآن المملكة الفارسية.

٩- غارة الأثيوبيين الحبشان

بلغت هذه الحقبة قصارها = أقصاها = من العظمة والمجد والشوكة على عهد الأسرة الثامنة عشرة كما ذكرنا . إلا أن الأحباش بقيادة (سبكون) قائدهم أخنوا على هذه العظمة وجعلوا الصرح الشامخ الذى رفع ذراه الملك (سيزوستريس) أطلالا دارسة وأثرا بعد عين، ولكن لم يلبث الأثيوبيون أن طردوا من مصر على يد (استيفيناتى) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين.

١٠ الأسرة السادسة والعشرون وفتوحات الفرس

لو أن مصر استطاعت ان تقى نفسها شر الاتصال بالأجانب، أو لو كانت طبيعة وجه أرضها وشكل سطحها من الوجهة الحربية بحيث يصدان عنها الغارات الأجنبية لما بقى شك فى قدرتها على صيانة وجودها وإطالة أمد حياتها بما كان مسنونا لها من الأنظمة العالية والقوانين الحكيمة لتدبير مرافقها ومصالحها من كل نوع. ولكن مصر لاتملك من وسائط الدفاع الطبيعية عن كيانها مايكترث به أو يعتمد عليه. فقد قال الحكيم (فولتير) فى ذلك «إنه كان يكفى من يحب أخذها أن يهم بالغارة عليها لتطيب له». فهى بهذا الوصف فريسة سهلة ولقمة سائغة جذبت إليها من جميع النواحى عظماء الفاتحين الذين طالما طمحت أنظارهم إلى خيراتها الزراعية وموقعها الجميل بين ثلاث من قارات العالم، وحيث لايفصل بين بحرين من بحار الأرض سوى برزخ لايتجاوز طوله بعض الفراسخ، فافتقارها إلى الوسائل الطبيعية للدفاع عن كيانها كان على الدوام موضع الضعف منها.

ولقد أدرك واضعو قوانينها القديمة هذه الحقيقة من بادىء الأمر وحسبوا لعواقبها الحساب فحرموا على الأمة المصرية باسم الدين كل إتصال بالأجانب أو اختلاط بهم خشية أن يستفز هذا الاختلاط هؤلاء إلى محاولة الوقوف على أسرارها والعلم بمواطن ضعفها فينشطوا إلى فتحها وامتلاكها . وطالما لبث فريق الكهنوت عزيز الجانب رهيب المقام بكثرة عدده وامتداد نفوذه واستقرار صولته. فإنه كان يحول دون كل إتصال بالأجانب فأمنت البلاد شرهم ووقت نفسها عاقبة أطماعهم ولكن ملوك الأسرة السادسة والعشرين رأوا أن يلقوا عن عاتقهم نير النفوذ الكهنوتى ويستبدوا بالأمر فمهدوا السبل لذلك الإتصال الذى كانت عاقبته شرا ووبالا على مصر إذ بلغ بأحدهم وهو الملك (أبساميتيك الأول) أن إتخذ لنفسه جندا من الإغريق والكاريين واليونانيين المجمكين فأغضب طائفة الجند المصرى الذين انحاز سوادهم الأعظم عن هذا الملك ومنحوه أكتافهم = وولوا عنه = قاصدين إلى بلاد الحبشة فحرمت مصر بذلك من حماتها الطبيعيين.

وحدث أن الملك (وافريه) من خلائف (أبسامتيك) اقتدى به إذ اتخذ جندا من الأجانب فساءت سمعته وقبح ذكره بين أمته ثم أخطأ خطأ غليظا إذ أغضب (نبوخذ نصر) ملك آشور بمهاجمته إياه فى دياره أخذا بناصر اليهود وتأييده لهم عليه. فلما غلبه (نبوخذ نصر) أغار على مصر وأيد فيها

(أمازيـس) الذى كـان قد ثار على الملـك (وافريـه) واغتصب منـه صولجان الحكم.

وبقى (أمـازيس) قـابضا على زمـام البلاد زمنـا طويـلا نشرت السعادة والهنـاء فيـه أجنحتهما عليهـا. فقد روى المؤرخـون أن عـدد المدن الآهلـة بالسكـان بلغ فى عهـده إلى عشرين ألف مـدينة. وزار مصر وقتئـذ الحاسب الشـهير (فيثاغـورس) [1] والحكيم المقنـن (سولـون) غير أن (أمازيـس) لم يرافقـه اليمن والتـوفيق حتـى النهاية. لأنـه رأى بعينيه قبـل وفاتـه هبوب العاصفة التى تحيفت بلاده وأخنت على استقلاله. فإنه أغضب زعيم الإغريق الذيـن كانـوا فى خدمته فلـم يكن منه إلا أن استفـز (قمبيز) ملـك الفرس إلى مهاجمة مصر والاستيـلاء عليها فعمل (قمبيز) بـرأيه. إذ رحل مـن فوره إلى مصر. ولكن (أمازيس) لقى حتفه قبل وصـوله بزمن يسير فلم تنشب سوى معركة واحدة فاز الفرس فيها على المصريين عند (بيلوز) ففتح لهم هذا الفوز أبـواب مصر فـولجوا فيهـا واستبـدوا بحكمهـا بعـد أن استبعـدوا ملكهـا البسامنيتـى وأهلكوا ولـده. وأصبحوا منذ سنـة ٥٢٥ قبل الميـلاد أصحاب القول النافذ والكلمة المسموعة المطاعة فى أرجائها.

(٢)
ديانة قدماء المصريين

مبدأ التوحيد- الثالوث- الأعلى- الآلهة المختلفة- أوزريس وإيزيس وهوروس- تيفون إله الشر- تقمص الأرواح- عبادة الحيوانات- المدن المخصصة لهذه العبادة- التقسيمات الدينية لمصر.

١١- لم تكن ديانة المصريين كما وقع فى وهم الكثيرين بناء على روايات مؤرخى الإغريق والرومان فظة غليظة تستدعى الاحتقار لسقوط منزلتها وخساسة قدرها بقيامها على عبادة بعض الحيوانات والنباتات. فإن تلك الديانة التى قامت قواعدها على أسمى مبادىء علم ما وراء الطبيعة وأشرفها جوهرا كانت تمثل الطبقة العامة بالحركات الرمزية التى كان الكهان وحدهم يملكون أسرارها، وما كان للشعب أو الأجانب أن تشرئب أعناقهم إلى استكناهها.

وكان مبدأ التوحيد قوام العلم الإلهى وعماده عندهم وبمقتضى قواعد هذا العلم كان (آمون رع) الكائن الأعلى الذى يشتق منه كل شىء فى الوجود فكان يمثل مبدأ التذكير بذاته ويمتزج به مبدأ التثليث من طريق الاتصال والاختلاط بالآلهة (موث) وقد تولد من هذا وذاك الإله (خونس) الذى تم بوجوده الثالوث الأعلى.

وهذا الثالوث الإلهى هو الذى توالدت منه آلهة مصر الذين مثلوا فى بادىء الأمر بجميع أرجاء الكون مظاهر الربوبية التى لاحد لها ولا غاية وكان ترتيب درجات الآلهة يتناول تقسيمها إلى فرق ثلاثية أى جماعات تتألف كل جماعة منها من مبدأ مذكر وآخر مؤنث وثمرة اتحاد المبدأين واجتماعهما.

وكان يلى (آمون رع) الذى طالما عبده العابدون باسم (خنوفيش) جملة آلهة انتحلها الإغريق لأنفسهم بعد أن بدلوا من أسمائها بأسماء جديدة نذكر منها (بوتو) إلهة الليل التى كان لها عند المصريين نفس الصفات التى وصف الإغريق بها آلهة الليل عندهم . و(نيث) إلهة الحكمة التى كانت عبادتها قائمة الشعائر فى (صائيس) بالوجه البحرى. و(فتاح) إله الخلق والإنشاء والإيجاد من العدم وكان يشغل فى ترتيب درجات الآلهة المصرية المرتبة الثالثة من

مراتب الربوبية و(خنوفيس) الذى كن يمثل وفى فيه بيضة بارزة هى التى نتجت عن الإله (فتاح) ، إشارة الى معنى الخلق والإبداع والمادة الأولى. والمفهوم من عقائد قدماء المصريين أن هذا الإله كان أول ملوكهم، وأن مدينة منفيس الملوكية كانت معهد عبادته. وكانت حفلات تكريس الملوك وتتويجهم تقام بالهيكل الفخم الذى شيد بتلك المدينة إجلالا له. و(هاتور) وكانت عند قدماء المصريين بمنزلة الزهرة عند الإغريق وكانت مدينة منفيس مقر عبادتها أيضا. (فريه) إله الشمس، وكان عند قدماء المصريين بمثابة (هليوس) عند الإغريق ،وكانت شعائر عبادته تقام بمدينة هليوبوليس، و(توت) وكان فى مصر بمثابة (هرمس) فى بلاد اليونان فإنه هو أول من كشف النقاب لبنى الإنسان عن أسرار المبادىء الأولى للعلوم والفنون والتجارة وكانت مدينة (هرموبوليس) مقر عبادته ومهبط وحيه، وكان البجع طائره. و(بشت) وكانت تعبد فى (بوباستيس) أى تل بسطة وكان القط حيوانها المقدس.

وكان الثالوث الذى ينتهى إليه تدبير الأرض مؤلفا من (أوزريس) و(إيزيس) و (هوروس) وهو الذى على أثر قيامه بتدبير شئونها تم خلق الإنسان، وما القسم الأول من حوادث مصر فى العهد القديم سوى تاريخ المدة التى استوى هذا الثالوث فيها على العرش متصرفا فى أحوال العباد وإذا سلمنا بأقوال (بلوطرخس) كان (أوزريس) العنصر الفعال فى خلق الكائنات وتوالدها و(ايزيس) المادة الأولى المفعولة لسائر الكائنات الخاصة.

ومن اتحاد (أوزريس) بإيزيس أى من اتحاد العنصر المنتج بالمادة نشأ العالم أو الكون واستقر نظام كل شيء فالعالم هو الابن الواحد للألوهية وقد أطلقوا عليه اسم (هوروس) وإنما كان إلى جانب مبدأ النظام والالتئام الذى يمثله (أوزريس) (إيزيس) و(هوروس) مبدأ الشر والفساد الذى كان يمثله (تيفون) أخو (أوزريس) وخصمه اللدود.

وكان المصريون يعتقدون أن (أوزريس) بعد أن أفاض على مصر نعمة المدنية والحضارة وأنشأ مدينة طيبة ذات المائة باب أحب أن يغدق هذه النعمة بالسواء على أقطار الأرض جميعا فزار الشعوب التى رفعت الهياكل لعبادته بأسماء مختلفة. فلما عاد من رحلته الطويلة تدلهت(نفتى) زوجة أوزريس وأخته فى حبه وأوهمته أنها (إيزيس) زوجته فرزق منها بأنوبيس فلما رأى تيفون أنه تدنس بعار هذه المخزاة أراد أن يغسله عن نفسه فنصب لأوزريس المكايد يريد بها اغتياله، وقد بلغ من ذلك إربه إذ سلبه الحياة كما

سلبها من هوروس وألقى بأشلاء جسمه في الفرع الصانى من نهر النيل ويقال إن هذا الحادث سبب كراهة قدماء المصريين لهذا الفرع، ولقد كانوا يعتقدون أنه لما ألقيت تلك الأشلاء فيه بثت فى مياهه مزايا الخصب والبركة.

وكان أوزريس قد عاد من جهنم وتسمى بعد بعثه باسم (سرابيس) فرد إلى ابنه (هوروس) الروح وجهزه بالسلاح لقتال (تيفون) الذى لم يلبث أن قهره (هوروس) وتغلب عليه وكاد يفتك به لولا أن (إيزيس) أنجته من الهلاك وظل مختبئا فى الكون منذ هذا الحين يبث فيه الفساد فيضطرب حبل نظامه وتتنزل صنوف المحن والمصائب.

وكانوا يصورون (أوزريس) فى الهياكل بأشكال مختلفة سنتكلم عليها فى الفصل الخاص بالآثار القديمة، ولكنهم كانوا يعبدونه غالبا فى صورة ثور أسود، ومن هنا اشتقت عبادة العجل (أبيس) الذى كانوا يعرفونه بسمات خاصة هى الشامة المربعة البيضاء وسط الجبهة وازدواج شعر الذنب والتواء أسفل اللسان بشكل العقدة.

وكان المصريون يعتقدون بتناسخ الأرواح ويرجعون إلى هذا الاعتقاد فى القول بخلود النفس وانتقال الروح بعد فناء الجسم إلى حيوان آخر يوشك أن يولد وعودتها بعد ثلاثة آلاف عام لتنبت من جديد فى الهيئة البشرية وتستأنف الحياة لمدة أخرى.

وبالرغم من استقرار قواعد الديانة المصرية على الأسس الوطيدة فإن العلماء الباحثين لم يتبينوا من أسرارها الكامنة إلا النزر اليسير. لأن الكهان والمكرسين استأثروا بمعرفتها دون عامة الشعب. فلم تلبث العقيدة الدينية أن انحرفت عن جادتها وتحولت فى نفوسهم إلى عقيدة غليظة دعامتها التسليم بتعدد الآلهة إلى ما لاحد له من العدد ، فمن معتقداتهم الباطلة الكثيرة التى جرت فى مصر مجرى الحقائق ماكانوا يبذلونه من مظاهر الإجلال والتعظيم للحيوانات التى كان أحراها = أجدرها = فى نظرهم بالتبجيل والتكريم السنانير والاخنمون والكلاب والبجع والذئاب والتماسيح. وكانوا لهذا السبب يتعهدونها بالعناية التامة ويقومون على تغذيتها فى الهياكل وينفقون فى سبيل ذلك الأموال الطائلة.

وكانوا إذا نفق أحدها ينفقون عن سعة فى تنظيم جنازته وتشييعها ويحملون من أجله شارات الحداد. ويعاقبون بالإعدام من يتعمد قتلها ويطبقون هذه العقوبة على من يقتل خطأ سنورا أو بجعة.

وذكر ديودورس الصقلى أن أحد الرومان فى عهد البطالسة قتل سنورا غير عامد ولامتربص فلم يستطع أحد أن ينقذه من أيدى الشعب الحانق الهائج، بالرغم مما كان لدولة الرومان فى ذلك الزمان من الصولة والهيبة وامتداد النفوذ والسلطان. وكانت المدن الكثيرة مخصصة لعبادة الحيوانات. فالعجل (أبيس) كان يعبد بمدينة (منفيس) والعجل (مينفيس) فى عين شمس والجدى فى (منديس) والسبع فى (ليونتوبوليس) وتمساح بحيرة (موريس) فى مدينة مسماة باسمه، والذئب فى (ليكوبوليس) إلخ. وكان سبب تكريم الحيوانات هذا التكريم الدينى معروفا. إلا أن الكهان كانوا يسرونه ويحرصون على مواراته حتى لقد ذهب رحالة الإغريق المذاهب البعيدة من الحدس والتخمين فى تأويله فكانوا يرجعون به تارة إلى ما تؤديه تلك الحيوانات من الأعمال النافعة وطورا إلى مايتوافر فيها من الصفات المختلفة لتكوين الرموز والعلامات المومأ إليها.

ويؤخذ من أقوال القديس (كليمنتس) الإسكندرى أن أماكن العبادة من الهياكل المصرية كانت خالية من التماثيل وان رمز الربوبية فيها كان عبارة عن حيوان مقدس يوضع فى مكان بعيد عن الهياكل ويسدل عليه حجاب حتى لاتدركه الأبصار.

وكانت مصر مقسمة إلى مناطق دينية لكل منطقة عبادة خاصة بها تتناول إلها واحدا أو ثالوثا إلهياً. وعلل (ديودورس) الصقلى هذا التقسيم بأن أحد الفراعنة السابقين أراد أن يمهد لنفسه سبيل الحكم على القطر المصرى كله فابتكر لإصابة = لتحقيق = هذا الغرض حيلة ترمى إلى تفريق شمل الأمة وتصديع ألفتها ليمنعها من الاتحاد والعمل على تقويض سلطته ألا وهى تقسيم مصر إلى مراكز خص كلا منها بعبادة مغايرة لعبادة المراكز الأخرى وحرم عليها بعض الأغذية وعمل على تطبيق المثل المشهور «فرق تسد» فنال مبتغاه من التحكم فى شئونها وذكر (ديودورس) الصقلى ان هذه الحيلة جاءت بالمراد إذ استحكم الشقاق بسببها بين أهل المراكز المتجاورة لتعييرهم بعضهم البعض بالتقصير فى القيام بالفروض نحو معبوداتهم. على أن الهياكل كانت بالرغم من ذلك التخصيص تحتوى مع الرمز الربانى الخاص بعبادتها رمزا آخر يمثل (آمون رع) الإله الأكبر لمصر بأسرها.

وإذ لم يكن من قصدى الإسهام فى الكلام على ديانة قدماء المصريين لانفساح مجاله وتشعب أطرافه فإنى أحيل القارىء الراغب فى استقصاء هذا الموضوع على المصنفات المطولة التى ألفت فيه، ولاسيما المصنف الجليل الذى ألفه شمبوليون.

(٣)
حالة قدماء المصريين وحكومتهم وقوانينهم

الطبقات الاجتماعية- طبقة الكهان- طبقة الجند- طبقة العامة- الملك- الحكومة- القوانين.

١٢- الطبقات

كان عدد سكان مصر أيام عزها فى عهد الفراعنة يتراوح بين خمسة الملايين وسبعة الملايين من النسمات. وكانوا ينقسمون إلى ثلاث طبقات كبيرة، وهى طبقة الكهان وطبقة الجند وطبقة العامة. وكانت العامة منقسمة إلى فريقين، فريق الفلاحين وفريق التجار. وكان القانون يقضى على الأبناء ان يزاولوا صناعات أبائهم ويمارسون مهنهم. فكان هذا من أعظم بواعث استقرار الأقسام الكبرى للهيئة الاجتماعية على وتيرة واحدة.

١٣- الكهان

كان زمام حكومة مصر فى مبتدأ الأمر بيد رجال الدين، ثم تحول منهم إلى قبضة الجند، إلا أن رجال الدين ظلوا مع هذا محتفظين بكثير مما كان لهم من الامتيازات قبل هذا الانتقال. ففى عهد الفراعنة وكان لهم من الهيبة ورفعة المكان فى نفوس العامة مايرجع تعليله إلى أمور شتى منها سعة الثروةوبسطة الجاه ومنعة الجانب. وكانت ثروتهم تتألف من الأراضى الواسعة والاتاوات التى يؤديها إليهم الأتقياء والمتدينون أصنافا من الحاصلات لانقدا كريما وكان أفراد الأمة بأسرها على تفاوت درجاتهم فى سلم الاجتماع من أكبر كبير حتى الملك نفسه إلى أصغر صغير.. لايعفى أحدهم من تلك الأتاوات. ولم يقتصر الكهان على جباية الفرض والضرائب من الأحياء وحاصلات الأرض بل كانوا يفرضونها على الموتى ويجبونها من أهليهم. لأنه لما كانت المقابر ملكا لهم لاينازعهم عليها منازع فإن الجثث المحنطة (المومياء) كانت لاتغيب فيها إلا بإذن منهم، وكانوا يحصلون عليها رسما معينا فى كل عام.

وكان لطبقة الكهان مشاركة فى الإشراف على شئون الوطن وتداخل فى مرافقه ومصالحه. فما أشهرت حرب أو أبرم صلح أو اتخذ تدبير بشأن الزراعة أو الإدارة الداخلية أو المنافع العامة أو تقررت خطة فى شأن خطير إلا ورجع فيها إلى مشورتهم. فإذا أبدوا فيه رأياً مسددا فلا يسع الحكومة إلا أن تتخذه دستورا لها لن تحيد عنه قيد أنملة.

وكان الملـك إذا أفضى إليه بصولجان الحكـم لا يعترفون به إلا إذا تـولوا بأنفسـهم إجـلاسه على العرش بعد أن يعقدوا مجالسـهم ويـوافقون فيها على إسناد الكـرسى إليه. وكان الكـاهن الأعظم يلى الملك فى رفعـة المنصب وشرف القدر ونبـاهة الذكـر. وكان الكهان يمارسـون الطب والعلوم الفلكيـة. وكان تحنيط الأجســام من الأعمال الكثيرة الداخلـة فى دائرة اختصاصهم. وكـانوا بالجملة الظافرين فى مصر دون غيرهم بنعمة التفقه فى العلوم ومدارستها من حساب وهنـدسة وغيرها . وليـس هذا بـالأمر المستنكر. لأن أعمال التـاريخ كانـت فى بلد كمصر يغير الفيضـان فى كل عام شكـل سطح أراضيهـا وينقل حدودها من مكان إلى مكان ويثير ثـائرة المنازعات بين الملاك كانت على مكان مكين من الأهمية فليس بدعا أن تكون لهم عناية تامة بعلم الهندسة يحددون به حصة كل مالك من الأرض بمقتضى قواعده الدقيقة التى تصيب دائما ولا تخيب أبداً.

وكانت طائفة الكهنوت ذات طبقـات مختلفة .فكان يلى كبار الكهان الكتبة المقدسـون المنوط بهم إدارة الحاصـلات الكهنوتيـة وموارد إيـراد الهياكـل الدينيـة ثم تتبعهم كبـار الأنبياء فالأنبياء فحـراس الهياكل. فكتبـة القرابين الذين كانوا موكلين بدمغ الحيـوانات المخصصة للقربان بميسم خاص بهذا الغرض ثم يتلوهـم كهان المدن فالمكلفون بتقديم القرابين الجنـازية. فالمنوط بهم إحـراق البخور أمـام الآلهة فـالمعتمدون لإهـراق الخمـور، فملاحظـو الهيـاكل فـالخدم كـالبوابين والـرسـامين والمغنين والحانوتيين على تفـاوت درجاتهم وتباين أعمالهم.

وكان الكهنـة شديدى العنـاية بملابسهم لاعتبـارهم إياهـا المظهر الأول لكرامة الوظائف المعهودة إليهم وكان أغلب لباسهم الثياب البيضاء من نسيج الكتان. إذ كـان لايؤذن لهم بحمـل غيرها مـن الثياب. وكـان من الـواجبات المفـروضة عليهـم على ماذكـره (هيرودتس) المؤرخ حلـق رؤوسـهم وإزالـة الشعر برمته منها ومن سائر منابت الشعر فى الجسم.

١٤- طبقة الجند

وكانت طبقـة الجند الثانية فى تـركيب طبقات الأمة المصريـة، ولكنها حلت المحل الأول والمرتبة العليا بعد أن ثل (مينيس) رئيسـها عرش السلطة الدينية وقوض أركانها. وكـانت ذات أملاك واسعة النطاق بعيدة الأرجـاء لكثرة عدد

أعضائها. فقد كان الجيش المصرى فى وقت الصلح يعد نحو مائتى ألف جندى، وكان وقتما زار هيرودتس القطر المصرى يتجاوز أربعمائة ألف منقسمين إلى شطرين كبيرين تبعا للأقاليم التى وكل إليهم الذود عن حماها يتألف أحدهما وهو قسم (الكاليزيريين) من مائتين وخمسين ألف، والآخر وهو قسم (الهرموتيبيين) من مائة وخمسين ألفاً.

وكان فى الجيش المصرى المشاة الثقيلة والمشاة الخفيفة والمقاتلة فى مركبات القتال، والمأخوذ من النقوش الأثرية أنه كان خلوا من كتائب الفرسان. وكان سلاح المشاة الرمح والسيف المقوس والبلطة والنبال والدرقة. وكانت المركبات تجرها الخيل، لكل مركبة منها جوادان ويعلوها المقاتلة مسلحين بالبلط ومعهم النبال يرشقون بها العدو. وكان كل جيش منقسما إلى جملة فيالق ولكل فيلق عمله الخاص به. وكان الملك القائد الأكبر للجيش، ولكنه كان ينتدب للقيادة العليا أحد أبنائه أو من يقع عليه اختياره من كبار القواد.

١٥ - طبقة الشعب

أما طبقة الشعب فكانت تشمل من لاعمل لهم فى الطبقتين السالفتين، وكان أفرادها كثيرى العدد يعيشون فى اليسر والرخاء مما تخرجه لهم الأرض من ثمراتها أو من مزاولة الصناعات وممارسة التجارة.

والظاهر أن طبقة الشعب كانت فى وقت ما حاصلة على حقوق سياسية مهمة. إذ كان لها أن تشترك فى انتخاب الملوك ومبايعتهم، ولكنها أمسكت شيئا فشيئاً عن التداخل فى هذه الشئون فلم يسمع عنها أحد أنها اهتمت بالمسائل العامة إلا إذا انقرضت أسرة ملكية ومست الحاجة إلى استخلاف أسرة أخرى على عرش الملك بدلا منها فإنه كان يجوز لها وقتئذ أن تنظر فى الأمر وتعنى به. على أن هذه الميزة انتزعت منها فيما بعد فلم يبق لها من الحقوق سوى حق النطق بالأحكام الغريبة فى القضايا التى كانت ترفع إليهم فى موضوع سير الملوك بعد وفاتهم.

١٦ - الملك

كان الملك الذى يخلص له الملك بالوراثة تبعا لقاعدة أحقية الأكبر فالأكبر من الأبناء الذكور يبايع ملكا عند توليته، ويوافق الكهان فى الاجتماع الذى يعقدونه لهذا الغرض بمدينة (منفيس) على الإفضاء بزمام الملك إليه. وكان

زعيم السلطة التنفيذية هو المنوط به أثناء السلم أمر المحافظة على القوانين وأثناء الحرب الدفاع عن الوطن والذود عن حياضه. وكان يشترط فى توليته أن يقسم بالطاعة التامة للقوانين المعينة لكل ساعة من ساعات نهاره عملا من الأعمال المعهودة إليه. وكان عند ابتداء السنة الزراعية يثير الأرض بيده فى حفلة علنية فيمسك بالمحراث ويحرث به على ملأ من رعيته أول خط من خطوط الزراعة. وكان فى أثناء الحرب يقود بنفسه إحدى المركبات يحارب العدو فيها وسط جيشه.

وكان الشعب المصرى وثيق الارتباط بملوكه . شديد الكلف بهم. فإذا مات ملك لبس أثواب الحداد اثنين وسبعين يوما وأغلقت أبواب الهياكل أثناء هذه المدة وعكف الأهلون على الصلاة والدعاء إلى الآلهة. وعلى أثر انقضائها يعرض تابوت الملك على ملأ من قومه عند مدخل قبره ليوجه إليه كل منهم مايعن له من التهم بدون أن يكون هذا الحق المخول لجميع أفراد الأمة على السواء مانعا أحد الكهان من الوقوف إلى جانبه ليخطب فى الناس ذاكرا محامده مثنيا وشاكرا ومثوبا ، فإذا تلقى الجموع المحتشدة كلامه بالموافقة والاستحسان كان حقا للملك الميت أن يفوز بنعمة الدفن فى قبره، أو بالإعراض والاستياء حرم منها.

ومما ينهض دليلا على قوة تأثير هذه العادة واستقرارها فى النفوس مايلاحظ حتى الآن من أن أسماء بغض الملوك المنقوشة على ماشادوه من الآثار الضخمة قد محيت محوا تاما إشارة إلى عدم الرضى عنهم. وقد زعموا أن التهيب من الأحكام الجنازية التى كان جمهور الشعب يصدرها على الملوك كان وازعا لهم عن الإفراط والتفريط ، ورادعا عن مجاوزة حد الاعتدال فى سيرهم بين الرعية. ولكننى أرانى مع هذا عاجزا عن تعيين الحد الكفيل بأن يتهيب حكم الأعقاب أناس لم يكترثوا قط بمسلك معاصريهم نحوهم ازدراء بهم وتنقيصامن أقدارهم.

١٧- الحكومة

كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات يرأس كلامنها رئيس عهدت إليه شئونها الإدارية والدينية والمدنية والعسكرية والمالية. قال العلامة (شامبوليون فيجاك) فى مصنفه البديع «مصر القديمة» إن الجمعيات السياسية كانت تعقد علنا بأمر الملك أو بمقتضى القانون. إما لحادث طرأ أو فى شأن خارق للعادة وإما لتقدير أموال الجباية وتعيين أنواعها ، وإما لتحويل أزمَّة الملك

والسلطان من قبضة ملك إلى ملك آخر، ولاسيما حوزة أسرة إلى أسرة أخرى. فكان كل إقليم من تلك الأقاليم يبعث بمن ينوبون عنه فى الجمعية العمومية من النواب والوكلاء، وكان قصر التيه (اللابيرانت) مكان اجتماعاتهم للأغراض المتقدمة.

١٨- القوانين

ليس ما نعلمه عن التشريع عند قدماء المصريين موثوقا بصحته ولا مقطوعا بمطابقته حقيقة الواقع. وغاية ما انكشف لنا من أمره أنه عدل وحور مرارا على أثر الغارات المختلفة التى منيت بها البلاد المصرية. على أن هذا لايمنعنا من ذكر بعض الأحكام القانونية نقلا عن (هيرودتس) و(ديودورس) الصقلى فقد ذكرا أن المصريين كانوا يعاقبون الحانث يمينه بالإعدام، وكانت الشريعة المصرية تسلم باليمين الحاسمة فى كثير من الأحوال الخطيرة وتفرض على كل مصرى الاحتياط لدرأ الجرائم والمطالبة بعقاب مرتكبيها فالذى يرى أمرءا قد أدركه الخطر مثلا ثم لا يسعفه بدرئه عنه على قدر طاقته كان كمن يأثم بقتل نفس عامدا متعمدا ويعاقب كالقاتل. وكان فرضا على المصرى الدفاع عن نظيره ضد من يعتدى عليه ويريد به السوء وحمايته من غضبه. فإذا استطاع ان يثبت بالدليل القاطع عجزه عن موافاته بالمساعدة والإسعاف طالبه القانون باستكشاف المجرم والتعريف عنه والقيام بمقاضاته أمام المحاكم. فحق المقاضاة باسم العدل كان إذا من القواعد المقررة عندهم والواجبات المفروضة على جميع أبناء الوطن بالسواء. وكان شاهد الجريمة الذى يمتنع عن الشهادة يعاقب ضربا بالقضبان ويحرم الغذاء ثلاثة أيام وصالا وكان المدعى موجه التهمة إلى أحد، إذا ثبت أنه قصد بها الوشاية يجازى بالعقوبة المقررة للمتهم إذا ثبتت هذه التهمة قبله. وكان المذنب الذى لاتدركه التهمة فى حياته لايستطيع الفرار منها عند مماته إذ كان يكفى أن ينبعث صوت صادق بتوجيه التهمة إليه لتحرم جثته الدفن فى القبر الذى أعد له.

وكان القصاص العقوبة الشائعة لمن يقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق. فن يقتل أباه جزاؤه الإحراق بالنار. أما الوالدون الذين يقتلون أبناءهم فكان عقابهم أن يعانقوا جثتهم ثلاثة أيام بلياليها. وكان جزاء منتهك العرض التمثيل به وعقاب الزانية جدع الأنف والزانى الضرب بالقضبان.

ومن أغرب قوانين مصر القديمة ذلك القانون الذى يسوغ السرقة ويجيزها إلى حد استتبع الاعتراف باللصوص كطائفة ذات زعماء ورؤساء يديرون شئونها ويدبرون أمورها. وكانت الطريقة المتبعة عندهم أن يتلقى هؤلاء من اللصوص مايسرقونه من المال والمتاع ثم يردونه إلى أصحابه مقابل التنازل لهم عن ربع ثمنه، ومتى حصلوا على هذه الحصة جعلوها قسمة بينهم. وقد أجاز القانون المصرى عقب استيلاء الإغريق على الديار المصرية زواج الأخ بأخته.

١٩- العلوم

اختص الكهان أنفسهم بمدارسة العلوم والبحث فيها . ولقد ذكرت العلوم التى أخذوا منها بالقسط الأوفى. لذا أدع الإسهاب جانباً فى الكلام عليها. ومااستطيع ذكره فى هذا الموضوع أن المصريين كانت لهم الباع الطولى فى العلوم الطبيعية والرياضية وفيما اتقنوا صنعه من مناطق فلك البروج دليل على إلمامهم بأهم الحوادث الفلكية. ولقد أنشأوا للكهان فى عين شمس وبعض أمهات المدائن مدارس خاصة كانوا يعكفون فيها على رصد الكواكب ودرس = ودراسة= أحوالها. وأشار المؤرخ سترابون إلى هذا الموضوع فقال إن المصريين كانوا أول من قام بترتيب الزمن وتقسيمه بحسب دورة الشمس لا القمر . إذ حسبوا للسنة إثنى عشر شهرا ولكل شهر ثلاثين يوما ثم ضموا إليها خمسة أيام وهى أيام النسىء التى سموها الأيام السماوية، وكانت السنوات عندهم نوعين نوعا يسمى بالسنوات الشمسية المؤلفة من ٣٦٥ يوما وربعا ونوعا يسمى بالسنوات المدنية أو المبهمة المؤلفة من ٣٦٥ يوما فقط. وكان تقهقر هذه السنة أو المبهمة فى التى قبلها يؤدى إلى فرق شهر واحد فى كل مائة وعشرين سنة وفرق سنة ذات ٣٦٥ يوما فى كل ١٤٦٠ سنة، وكانت تعرف هذه المدة الطويلة عندهم بالسوتيقية. وقد توصل المصريون قبل غيرهم إلى تحديد السنة الشمسية بالدقة والضبط على أثر رصدهم شروق هالة الشعرى اليمانية. وكانوا لايقسمون السنة إلى أربعة فصول كما هى الآن. بل إلى ثلاثة فقط كل فصل منها ١٢٠ يوماً.

٢٠- الزراعة والصناعة والفنون والتجارة

كانت الزراعة قوام حياة مصر وملاك وجودها الذاتى ولم تكن أعمالها كثيرة المشاق إذ كانوا يبدأون بها عقب انصراف مياه الفيضان. ذكر

هيرودتس:أن الفلاحين كانوا ينثرون البذور عندئذ على الأرض ثم يطلقون مواشيهم لتطأها بأقدامها فتدفن البذور وينتظرون بعد ذلك أوان الحصاد لمباشرته. والمصريون القاطنون فيما يلى (منفيس) جنوبا كانوا يحصلون من مزارعهم على أوفر الثمرات بأقل مجهود فى العمل، لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى إثارة الأرض أو شقها بالمحاريث أو قلبها بالفؤوس . كانت زراعة الحبوب أهم مايعنون به من صنوف الزراعة لأن أرضهم كانت تجود بالمحصول الوافر منها.

أما الفنون والصناعات فقد ارتفعت عندهم إلى الأوج الأعلى من الاتقان والإحسان . ولست بذاكر شيئا هنا عن المبانى الضخمة والآثار المنجدة التى شادوها فى كل بقعة من بقاع مصر، لأننى سأفرد لها بحثا خاصا متى حان وقت الكلام عن الآثار المصرية القديمة . إلا أننى لا أجد مندوحة منذ الآن عن تذكير القارىء بما كان للمصريين من البراعة والحذق فى صناعة المعادن على الطرق والأساليب الكيميائية وانهم بلغوا من الإتقان فى التمويه بالمينا وصناعة الخزف والزجاج البسيط والملون وغيرهما الشأو الأبعد، وأنهم شادوا المصانع الكبيرة لعمل السلاح والآنية على اختلافها، وأن أكثر حذقهم كان فى صناعة المصوغات والجواهر على تباين أشكالها وعمل الآثاث المنزلية والمنسوجات المشهورة بالمتانة والجودة. ولما كانت مصر غنية بحاصلاتها الطبيعية والصناعية فلابد أن تكون من البلاد البارعة فى ممارسة التجارة وترويجها.

٢١ ـ قمبيز

قمبيز – خلفاؤه – الأسرات الملوكية الوطنية الأخيرة

اقترن فتح الفرس للبلاد المصرية بالغلظة والقسوة فى معاملة الأهلين وإطلاق يد التدمير والتخريب فى الآثار الباذخة. فإنهم ماالحترموا العادات المرعية ولا صانوا المعالم الدينية بل أخنوا على المعابد وسلبوا مافيها. وكان لاهم لملكهم (قمبيز) سوى اضطهاد الشعب وإيذائه فيما يحرص عليه من العقيدة الدينية. إذ ذبح بيده العجل (أبيس) كى يقيم الدليل للمصريين على أنه لم يكن إلها، وأنه لو كان كذلك لدفع عن نفسه ماحاق به. ولم يكتف بفتحه ديار مصر بل عداها إلى بلاد الحبشة وأنفذ فى الصحراء جيشا ضخما لإخضاع سكان واحة (آمون) ولكنه فشل فى الأمرين لأن الجيش الذى وجهه الى الآمونيين هلك فى رمال الصحراء ومات هو غما وكمدا بعد هلاكه بقليل.

٢٢- خلفاء قمبيز

فى عهد داريوس بن هستاسب أحد خلفاء قمبيز بمصر أحس المصريون بانفراج الكربة وعاد إليهم مافقدوه من الطمأنينة فى عهد هذا الفاتح الظالم الغاشم فشيدت الهياكل الدينية لآلهة مصر تحت رعاية ذلك الملك الجليل ولايزال أحدها وطيد الدعائم شديد المقاوم فى الواحة الخارجة. وكان مما صرف داريوس إليه همته تمهيد طرق المواصلات بين النيل والبحر الأحمر، على أن المصريين لم يلبثوا أن نقموا عليه فى آخر أيام حكمه وهبوا إلى الثورة فأخضعهم (أركزرسيس) خلفه وألزمهم ملازمة الطاعة له ولكنهم ثابوا = رجعوا = إلى الثورة ثانيا فى أيام ابنه فأرهقهم من المظالم والمغارم بأكثر مما فعل أسلافه انتقاما منهم وتنكيلا بهم. على أن المصريين لم يثنهم عن عزيمتهم فشلهم المتوالى فى تحقيق مرادهم. إذ تمكن زعيمهم (أميرته) عام ٤٠٤ قبل الميلاد من رد استقلالهم المسلوب إليهم . فيكون الفرس قد تملكوا مصر فى هذه المرة مائة وعشرين عاما.

٢٣- الأسرات الوطنية الأخيرة

كانت الأسرة الثامنة والعشرون وهى الأخيرة من الأسر المصرية مقتصرة على الزعيم (أميرته) السابق الذكر ولم تتجاوز مدة حكمها ستة أعوام إذ خلفتها أسرة منديسية الأصل هى الأسرة التاسعة والغشرون المعروفة بالمنديسية، وقد بلغ عدد ملوكها خمسة لم تتعد مدة حكمهم إحدى وعشرين سنة ، ثم خلفتها الأسرة الثلاثون المعروفة بالسبينية، وكانت مؤلفة من ثلاثة أمراء بلغت مدة حكمهم ثمانية وثلاثين عاما. وفى عهد الأخير منهم وهو الملك نقطنبو (الثانى) أى سنة ٣٣٨ قبل الميلاد استولى الفرس ثانيا على مصر. وكان حكمهم فى هذه المرة قصيرا جداً لم يتجاوز سبع سنوات أخنى على دولتهم فى ختامها الإسكندر الأكبر باستيلائه على مصر فى السنة التالية ـ أى فى سنة ٣٣١ قبل الميلاد.

٧- البطالسة

الإسكندر الأكبر- اللاغيون- حضارة البطالسة- الاحتلال الرومانى

حرر الإسكندر الأكبر مصر وخلصها باستيلائه عليها من ربقة العبودية. فان المقدونيين لم ينتهوا من فتحها فى سنة ٣٣١ من الميلاد حتى طرح هذا الفتح عليها شعاعا جديدا من نبراس الحضارة والعرفان أكسبها بهجة وبهاء ولقد أفاض عليها ذلك البطل نعمة من أجل النعم بتخطيطه فيها مدينة تجارية فى موقع أحسن اختياره لها بما خصه الله به من صواب الرأى وسلامة الذوق، ولم تلبث هذه المدينة عقب إنشائها أن صارت درة فى تاج مدائن العالم وثغوره، وبعد وفاته التى أعقبتها تجزئة فتوحاته وتقسيمها بين قواده آلت مصر إلى واحد من هؤلاء فاستلم زمامها واستوى على عرشها باسم (بطليموس سوطر) فبطليموس هذا هو أول ملوك الأسرة الثانية والثلاثين من الأسر الملوكية المصرية ، وتعرف باللاغيين وقد بلغ عدد ملوكها إثنى عشر ملكا وملكة واحدة ظل حكمهم قائما على أوثق القواعد وأحكمها مائتى عام وأربعة وتسعين عاما، وهاك أسماء هؤلاء الملوك الذين تعاقبوا الحكم على البلاد من تلك الأسرة.

بطليموس سوطر	المتوفى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد
بطليموس فيلادلف	المتوفى سنة ٢٤٧ قبل الميلاد
بطليموس افرجيطه	المتوفى سنة ٢٢٤ قبل الميلاد
بطليموس فيلوباطور	المتوفى سنة ٢٠٤ قبل الميلاد
بطليموس ابيفان	المتوفى سنة ١٨٠ قبل الميلاد
بطليموس فيلوميطور	المتوفى سنة ١٤٥ قبل الميلاد
بطليموس افرجيطة (الثانى)	المتوفى سنة ١١٦ قبل الميلاد
إسكندر الأول	المتوفى سنة ٨٨ قبل الميلاد
بطليموس سوطر الثانى	المتوفى سنة ٨١ قبل الميلاد
إسكندر الثانى	والمتوفى سنة ٨١ قبل الميلاد
بطليموس أوليت	المتوفى سنة ٥٢ قبل الميلاد
بطليموس دنيس	المتوفى سنة ٣١ قبل الميلاد

ولم يكن حكم البطالسة وتسلطهم أثناء هذه المدد إلا نسيجا من حوادث متضاربة ومكائد عائلية وفتن داخلية لهذا كانت ولايتهم خالية من الفوائد التاريخية.

على أن مصر بلغت فى عهد البعض منهم شأوا بعيدا من الرفعة والتقدم والرفاهية. فلقد انفتحت أبواب الرواج لتجارتها وأصبحت الممر الوحيد لحاصلات الهند الى بلدان البحر المتوسط، وسطعت أنوار العلوم بسناء يخطف الأبصار. وكان تقدمها وإتساع نطاقها فى الإسكندرية مما يذكر مقترنا بالدهشة والإعجاب، فعلوم الفلك والطب والفلسفة سما بها الإسكندريون إلى الأوج الأعلى سموا لاتزال ذكراه مدونة بحروف لاتمحى فى تاريخ تقدم العقل البشرى.

ولقد رأت مصر فى ذلك العصر كيف اندمجت فيها مدنيات جملة من الشعوب بانفتاح أبوابها لليونان واليهود والأشوريين والرومان وامتزاج أخلاق هذه الشعوب وأفكارهم ودياناتهم وعقائدهم الامتزاج الذى تولدت منه مدرسة اشتهرت بالعلوم الفلسفية، وانطوت تحت لوائها العقيدة المصرية المبنية على تعدد الآلهة بعد أن حورت تحويرا خفيفاً مكنها من الحيلولة دون انتشار الديانة المسيحية التى كانت وقتئذ قريبة العهد بالظهور.

ولكن لم تلبث أسرة البطالسة أن سطت عليها أيدى الفساد وترتب على احتدام نار الفتن الأهلية فى أيام الأخيرين من ملوكها أن تطلع الرومان إليها وتداخلوا فى شئونها وكان (قيصر) قد تغلب وقتئذ على (بومبيوس) فمر بالإسكندرية حيث عاون (كليوباترة) على استلام زمام الملك. وكانت هذه الملكة قد اقترنت أثناء الحرب الأهلية بانطوان ثم ماتت معه فى معركة (أكتيوم) فأصبحت مصر عقب ذلك على عهد الامبراطور أغستوس إقليما تابعا للدولة الرومانية.

الحكــم الرومانــــى

السيــاسة الــرومــانيــة – الديــانــة المسيحيــة فى مصر – المنازعــات الدينية – الأقباط يدعون العرب إلى الإغارة على مصر.

٢٥ – كانت سياسة الإمبراطور اغتوس نحو مصر قائمة على أساس الحزم والتبصر. وهى مما يســاق دليلا على معرفة هذا الملك الحاذق بــأحوال البلاد وإلمامه بدخـائلها . فهى من هــذا الوجه جديـرة بالتدبر وإمعــان النظر فيها حتى فى هذه الأيام. وذلـك لأنه كان يوجد فى عهد الرومــان كما يوجد فى زمننا مسألــة شرقية فى الغــاية القصــوى من الأهميــة، وكان لابــد من طــرح هذه المسألة على بســاط البحث والتمحيص وإعداد الحل العملى لها طبقــا لما ذكره (تاسيتوس) فى عبارته الفخمة باللغة اللاطيلية وهى :

كان الإمبراطور (اغستوس) يرى فى امتلاكه مصر مصلحة حيوية لدولته. لأنها فضــلا عن أهميــة مــوقعها الجغــرافى كــانــت وفيرة الخيرات الزراعيــة فاتخذها هذا الامبراطور مستودعا للحبوب اللازمة لرومية = لروما = وجعل عليها حــاكما أوكل إليه مهمــة موافاة العاصمــة الرومانيــة ـ وهى عــاصمة العــالم وقتئذ بما يكفــى مــن الحبوب لتمــوين سكــانها قبـل انقضاء شهــر أغسطس من كل عــام وفرض عليه جعل أملاكه الخاصــة ضمانة للقيام بتلك المهمــة على أحسن وجــه وأتمه فكــان إذا بــدا منه تقصير أو عجــز صــودرت أملاكه وضمت إلى أموال الحكومة.

ومن هذا نــرى أنه كان لامندوحــة للدولة الرومــانية من العنايــة باتخاذ الوسائل الكفيلة بــاستدامة امتلاك إقليم بلغ ذلك المبلــغ من الأهمية وخطورة الشأن.

ولقد استحدث الامبراطــور أوغستوس لإصابة = لتحقيــق = هذا الغرض سابقة لم يلبث خلفاؤه أن اقتدوا به فيها وهى أن لا يعهد بالإدارة العليا لمصر إلى أحد مــا من سلالة الأعضــاء فى مجلس الشيوخ. لاسيما إذا كــان من ذوى الجاه والنفوذ ، فعهدها إلى فارس بسيط من الفرسان الرومانيين يأتمر بأمره حكام الأقاليــم والمديريات المختلفة وثــلاثة جيوش منبثة فى أرجــاء القطر إلى حدوده الجنوبيــة . وكان والى مصر كثيرا ما يبدل بغيره خشيــة أن يصبح له من القوة والسلطــان مايمهد له السبيــل لاغتصاب الحقوق التى جــاء ليمثل الإمبراطور فيها.

ومن جهة أخرى فإن الامبراطور أغستوس لم يمنح الأمة المصرية حقا ولا حرية مما اعتاد الرومانيون منحه الشعوب المغلوبة على أمرها. نعم إنه احترم عاداتهم المدنية والدينية ولكنه ضن عليهم بما يمهد لهم الحصول على حريتهم السياسية، وهناك أمران عاليان من الأوامر التى أصدرها يشهدان صراحة بما كان يخالجه من النيات فى هذا الصدد. إذ قضى فى أحدهما بحرمان أشراف المصريين من التوجه إلى رومية للانتظام فى سلك مجلس الشيوخ ، وحتم فى الثانى على أعضاء هذا المجلس وعلى الفرسان الرومانيين ألا يهبطوا مصر إلا بإذن من الإمبراطور.

وكان يهم الدولة الرومانية إسعاد مصر بتنمية ثروتها لعلمها بما تجنيه من الثمار وتستفيده من المزايا بذلك. فلا عجب إذا عنيت بإصلاح ترعها القديمة وحفر ترع جديدة غيرها . واتسع نطاق التجارة البحرية وبلغت الإسكندرية من رفعة الشأن وسعة الثروة ماجعلها الى عهد إنشاء مدينة القسطنطنية المدينة الثانية على وجه المعمورة.

ولقد ظلت مصر أيام تسلط الرومان عليها مسرحا للفتن الداخلية والمشاغبات الأهلية ومحطا لأنظار الطامعين حتى لقد سارعت بفتحها زنوبيا، ملكة (تدمر) وسرعان ماردها بعد ذلك الامبراطور (أورليانس) إلى حظيرة السيادة الرومانية، ودخلت إليها الديانة المسيحية فى عهد الإمبراطور (دومسيانوس) وانتشرت فيها انتشارا عظيما بالرغم من اضطهاد الرومان لها بما اتخذوه من الذرائع القاسية لأخذ المسالك عليها، ولقد كان هذا الحادث الدينى سببا لإعطاء مصر مسحة جديدة من الشهرة فإن أقليم (طيبائيد) أصبح آهلا بالرهبان، وقضى الإيمان الدينى بتقديس صحاريها المترامية الأطراف، وأختصت مدينة الإسكندرية بشطر كبير من الحركة الدينية فى القرون الأولى من التاريخ الميلادى. وكان (آريوس) قسا لهذا الثغر والقديس.(أطناسيوس) خصمه اللدود الذى لايمل مناصبته العداوة، ثم صار بطريقاً لها فنشأ عن المنازعات الدينية فى مصر مانشأ عنها بالشرق المسيحى لذلك العهد من المعارك التى سالت فيها الدماء وفاضت الأرواح.

ولما قسم قسطنطين المملكة إلى قسمين كبيرين جعلت مصر فى القسم الذى اتخذته القسطنطينية عاصمة له، ولكن الدولة الأخيرة المعروفة بالدولة السفلى كانت قد أفسدتها الفتن الداخلية ونال منها الضعف واشرأبت نحوها أعناق المطامع من كل جانب. فلم تستطع أن تحفظ فى قبضتها ذلك الإقليم

ولا أن تدفع عنه عادية العدوان على أن الفتن الدينية والانقسامات المذهبية قد عجلت بخسارته قبل الأوان الذى كان يتوقع حدوثها فيه.

وكان سواد الشعب المصرى قد انضم إلى فرقة اليعقوبيين، وانفصل بهذا الانضمام عن الكنيسة البيزنطية. فتولدت لهذا السبب فى نفوس المصريين اليعقوبيين (الأقباط) الضغائن على الحكام الأورام القابضين على أزمة أمورهم . وبالغوا فى نفث ما فى صدورهم من كامن الأحقاد عليهم إلى حد أنساهم ماتتطلبه ديانتهم من العناية بمصالحها. فإن بنيامين بطريرك الأقباط وبعض ذوى الجاه والنفوذ من المصريين لم يترددوا فى استدعاء المسلمين أعداء الديانة المسيحية إلى مصر. وكان هؤلاء قد استولوا وقتئذ على قسم من بلاد الشام مفضلين الرضوخ لحكم المسلمين على البقاء تحت سيطرة إمبراطور القسطنطينية ، وقد تلقى المسلمون إلتماسهم با لمسارعة إلى قبوله والمبادرة بتنفيذه. إذ استولوا على الديار المصرية عام ٦٤٠ من الميلاد ـ أى فى أيام الإمبراطور هرقل أو هيرقليوس.

(٩)

حكم الخلفاء والسلاطين من المماليك

٢٦- استولى العرب بقيادة عمرو بن العاص على مصر، وكان الأهلون يشدون أزرهم ويمدونهم بما يلزمهم فى زحفهم من المؤن. فلم تلبث الإسكندرية أن وقعت فى حوزتهم. أما نهبهم هذه المدينة وإحراقهم مئات الألوف من المصنفات التى احتوتها مكتبتها الثمينة فإن شهرته تغنى عن ذكره- أما سبب الإحراق فراجع إلى أن عمرو بن العاص استشار الخليفة فى شأن هذه الكتب وتنقيلها = ونقلها = للمسلمين فأجابه: «إنه إن يكن مافيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله، وفى الحالتين ينبغى إحراقها» فأحرقها عمرو تنفيذا لهذا الأمر وتلاشت بذلك دار كتب اللاغيين وحرمت العلوم والآداب دررها الثمينة[١] ولكن عمرا إذا سلك بهذه المناسبة المسلك الذى تستدعيه الشدة فى التعصب للإسلام فقد سلك مسلك الكرم والتسامح حيال المسائل الأخرى. فلقد أفاد البلاد المفتوحة مزايا لاحصر لها نذكر منها إنشاؤه مدينة الفسطاط واتخاذه إياها عاصمة لمصر وحفره الترعة المعروفة بترعة أمير المؤمنين للإيصال بين النيل والبحر الأحمر.

على أن الولاة بعده لم يستنوا بسنته ولم ينهجوا فى هذا الصدد سبيله. فإنه بعد أن تملك الأمويون فالعباسيون مصر استقل بالأمر فيها أحمد بن طولون رأس الدولة الطولونية التى لبثت عهدا قصيرا قابضة على زمام الأحكام . ومن أعمال هذا الأمير الحصون التى أقامها حول الإسكندرية ولاتزال آثارها باقية حتى الآن.

وخلف الطولونيين فى الأخذ بزمام الحكم الدولة الإخشيدية التى قامت

---

(١) كان الوهم السائد بأوروبا فى القرن التاسع عشر أن عمرو بن العاص هو الذى أحرق دار كتب الإسكندرية بناء على أمر من الخليفة عمر بن الخطاب، وبلغ من شيوع ذلك الوهم فيها أن الكتب المدرسية كمعجم (لاروس) الصغير مثلا فى مفردات اللغة الفرنسية كانت تعتبر كلمة (عمر) مرادفة لكلمة (الجهل) ولكنها عدلت عن هذا التعريف المبنى على الجهل والتعصب منذ أقام علماء أوربا الدليل القاطع على عدم وجود مكتبة ما فى الاسكندرية وقت استيلاء عمرو بن العاص عليها فإن هذه المكتبة احرقت للمرة الثانية فى سنة ٣٨٩ من الميلاد ــ أى قبل فتح الإسكندرية على أيدى المسلمين بأكثر من مائتى وخمسين عاما وكان احراقها بفعل المسيحيين أنفسهم يوم هاجموا هيكل السرابيوم (رواق الحكومة أو مدرسة الاسكندرية) الذى كان عمود السوارى قائما وسط صحنه وقتلوا أهله من الكهان المصريين الذين أبوا التدين بالنصرانية ثم احرقوه وقد عثر مجلس الاسكندرية البلدى منذ سنوات على أثر الدخان بجدران ذلك الهيكل أثناء قيامه بالحفر لاستكشافها . هذا وقد زار الرحالة المؤرخ يوسيفوس الإسكندرية فى خلال القرن الخامس من الميلاد ـ أى بعد احتراق مكتبتها للمرة الثانية وقبل ظهور الإسلام فلم يشر بكلمة فيما ذكره من معاهد تلك المدينة عن دار كتبها العظيمة.

بأعباء الأمر ردحا قصيرا من الزمن وليت الأحكام بعدها الدولة الفاطمية (سنة ٨٨٢ ميلادية) وهى التى رتعت مصر خلال حكم الخلفاء الأولين منها فى بحبوجة النعيم والهناء، وتأيدت شوكتها وامتنع جانبها وأنشئت مدينة القاهرة التى ما عتمت أن أصبحت عاصمة الملك ونبع العلوم والعرفان. وأصل مؤسسى هذه الدولة ورافعى صرحها وناشرى لوائها من ضاحية فاس بالمغرب الأقصى هرعوا إلى مصر منها حاملين من آثار الحضارة العربية التى سطعت أنوارها على آفاق الأندلس إلى ذلك العهد ما كان سببا لفيوض أنوار العلوم والفنون فى أنحاء الأقاليم المصرية . غير أن المتأخرين من خلفائها انتابهم الفساد وتحيفهم الضعف فزالت دولتهم وثل عرشهم وثل صولجان الملك من يدهم إلى عهدة الأيوبيين (سنة ١١٧١ من الميلاد).

ولقد سطع نجم الأيوبيين على أفق الصعود، وعلا حتى بلغ إلى الأوج فى عهد الأول من سلاطينهم، وانتشر ذكرهم فى الخافقين مقرونا بهيبة الجند وشدة البأس، وكان الصليبيون قد تغلبوا على المسلمين فى ربوع الشام فآل أمرهم إلى الضعف والتدابر والتخاذل حتى كادوا فى الوقت الذى ظهر فيه صلاح الدين أول السلاطين الأيوبيين يردون موارد الفناء والتلاشى فرفع من شأن الإسلام، وجدد مايلى من قوته وهيبته بما أتيح له من الفوز وعقد لوائه به من الانتصار.

وفى عهد أسرة هذا السلطان سمت مصر إلى الأوج الأعلى من العلم والعرفان واتسع نطاق تجارتها حتى عادت إلى ماكانت عليه فى عهد البطالسة من الرواج ونفاق السوق وتوثقت الروابط التجارية بينها والهند من جهة وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

وكان من حظ الأيوبيين أن تمت لهم الغلبة على الصليبيين. إذ فازوا عليهم فى حروبهم كافة. وعلى عهد الأخير من سلاطينهم نزل القديس لويس (الملك لويس التاسع) إلى بر مصر فأسر فى معركة فارسكور التى دحر الصليبيون فيها وقد طالبت فرنسا المماليك بحساب هذه المعركة بعد ستة قرون من الزمان.

وقد آل تراث الأيوبيين - إذ تأذن الله بإنقراض الملك منهم - إلى المماليك البحرية (سنة ١٢٥٠) وكانت الدولة العباسية ببغداد قد أشرفت على الفناء ثم ثل عرشها فى أوائل حكمهم فلجأ إلى مصر من بقى على قيد الحياة من أسرة

الخلافة فيها فاعترف المماليك بسلطتهم الدينية وصارت القاهرة مقر الديانة الإسلامية ومهبط وحى الخلافة، وحلت فى ذلك محل بغداد إلى أن تغلب على مصر سلاطين آل عثمان فانتزعوا من آخر الخلفاء العباسيين بمصر السلطة الدينية ليعززوا بها سلطتهم السياسية.

وخلف المماليك البرجية المماليك البحرية (سنة ١٣٨٢) فلم يؤثر عنهم من الأعمال إلا ما سنوه فى مدة تسلطهم من الأنظمة التى بنوا عليها صرح نفوذهم وأقاموا دعائم شوكتهم فإن التاريخ لم يذكر مثالا للطبقة الارستقراطية التى تألفت منهم بفعل أحد السلاطين الأيوبيين من سلالة صلاح الدين، فإن هذا السلطان أراد أن يذهب مذاهب الملك فى جلال المظهر مع الحرص على الذات فأساء من حيث أراد أن يحسن وأخطأ من حيث ظن أنه يصيب. وذلك انه اشترى إثنى عشر ألف مملوك من الجراكسة والأباظية والمنجريلية وبعد أن دربهم على الحركات العسكرية والفنون الحربية ألف منهم جندا لم يلبث أن صار أشد الجنود الآسيوية الأصل بأسا وأقواهم بطشا. وكانت سلطة مواليهم قد آلت على توالى الأيام إلى حوزتهم فغلبوهم على أمرهم وتصرفوا فى أحوال الدولة على ماشاءت أهواؤهم، ثم لم يلبثوا أن أسقطوهم عن عروشهم واختاروا السلاطين لهم من بينهم وأخذوا يؤلفون برسم أنفسهم فرقا من المماليك على الوجه الذى ألفته بمقتضاه فرقهم فتضاعف عددهم وحصلت لهم العصبية الكفيلة بالقدرة على تنفيذ أحكامهم والتغلب على من سواهم.

وطريقة جلبهم إلى مصر أنهم كانوا وهم فى مقتبل العمر يباعون فى أسواق النخاسة بيع الأرقاء ثم ينقلون إلى ذلك القطر الذى قدر لهم أن يقبضوا على زمام أحكامه بدون أن تربطهم به صلة وطن ولا آصرة قرابة.

ولم يكن عجبا أن يعاملوه وأهله معاملة البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة على أمرها إذ لم يكن يعنيهم من شأنه وشأن أهله سوى التفنن فى ضروب ابتزاز الأموال واستدرار الخيرات، فتطوروا بطور الحضارة والترف، وألفوا النعيم ونضارة العيش، وبلغوا فى ذلك الغاية حتى أصبح حكمهم القائم على أساس التوحش والهمجية سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والاحتلال والمكايد المراد بها تعزيز الأطماع الذاتية وتفشى وسائل العنف والقهر بما يؤدى إلى سفك الدماء وإفاضة الأرواح لتحقيقها.

(١٠)
حكـــم الأتـــراك والمماليـــك

حكومـة مصر فى عهد الأتـراك — على بك – السيـادة الخياليـة للباب العالى على مصر – الاستقلال الحقيقى للمماليك.

صارت مصر فى سنة ١٥١٧ ـ أى أيام السلطـان سليم الأول إقليما تابعا للدولة العثمانية . ولقـد أيقن هذا السلطان عقب استيلائه عليهـا أنه سيتعذر على حكومتـه لبعد مصر من مقـر السلطنة إظهـار سطوتها وتعزيـز سلطتها فيها.. وكـان من جهة أخـرى فى حاجـة إلى مداراة المماليك واستمالتهـم إليه ليأمن من جانبهم فابتكر لإدارة شئـون البلاد أسلوبا أحكم تدبيره بحيث إذا طبق أفضى إلى تحقيق متمنـاه من ذلك. فإنه جزء السلطة العـامة أجزاء جعل كل جزء منها وقفا على طائفة من طـوائف المماليك وفرقهم وأتم ذلك على وجه يقتضى مراجعة الدولة العلية وتداخلها كلما اختل التوزان والتعادل بين قوى تلك الأجــزاء.

أما شئـون الحكومة ومنـاصبها فقد عهـدت إلى ديوان أعضـاؤه مـن كبار المماليك وزعمائهم ، وأما الإدارة المحلية فقد نيطت بأربعة وعشرين بيكا منهم هم رؤساء تلك الفرق والطوائف وزعماؤها.

وكان لهؤلاء أن يجبـوا الفرض والضرائب الجزئيـة، فيأخـذ الديـوان منها حصة تعدل الجزية السنوية التى يجب دفعها إلى الباب العالى. وكان للسلطان فى البلاد وال بـرتبة البـاشا يمثله فيهـا لدى أهلها وحكـامها وكـانت تنحصر مهمته فى إبلاغ الأوامـر التى يتلقاها مـن السلطان إلى الديوان وإيصـال مبلغ الجزيـة إلى خزينتـه وصيانـة البلاد مـن الإعتـداء الخارجى ومقـاومة نمـو الأحزاب وتفاقم خطرها.

وألفـت فرق مـن مستحفظان الانكشـاريـة والأسباهيـة بقيادة رؤسـاء يسمون بالوجاقلية لتأييد الباشـا والذود عن حقوقه واختصاصاته. ولكنهم بالنظـر لاعتيادهم فى مصر خصـب العيش وأخـذهم بمذاهـب أهل الحضر فى الترف والنعيم ذهبت منهم البســالة فنشأوا على كراهية المغامـرة التى جعلت انكشـارية القسطنطينيـة من أولى البـأس والشدة، ونجـم عن هـذا وذاك أن

احتفظ المماليك بعصبيتهم ولم يفقدوا شيئا من صولتهم، وكان لأعضاء الديوان أن يرفضوا أوامر الباشا ويمسكوا عن المصادقة عليها بشرط توافر العلة والمبرر بل كان فى قدرتهم العمل لإقعاده وعزله من منصبه.

ومن ثم تضاءلت على توالى الأيام سيادة الباب العالى على مصر وأصبحت ضيقة النطاق حتى صارت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة.

وفى سنة ١٧٦٦ رفع على بك أحد البكوات المماليك على الدولة العثمانية لواء العصيان وأحجم عن دفع الجزية وطرد الباشا المعين من قبلها ، وضرب النقود باسمه ودحر الجيش العثمانى فى جميع المعارك التى اشتبك معه فيها. وبايعه شريف مكة سلطانا على مصر، ولكن بعض حاشيته كادوا له ففشلت ثورته وأخفق سعيه. على أنه لم يكن هناك شك فى أن السلطة العثمانية بمصر كان قد انصدعت من جراء هذه الثورة صرحها المشيد وتزعزعت أركانها فأصبحت عرضة لخطر السقوط والزوال فقد سهل على المماليك منذ هذا الحين إقعاد الباشوات ونفيهم بلا معارض ولامشاق، وكان هؤلاء يشعرون بضعفهم وحرج مركزهم إلى حد أنهم كانوا إذا وصل إليهم بلاغ يدعون فيه إلى التنحى عن منصب الولاية ومغادرة المدينة بادروا من فورهم إلى الطاعة فغادروا قصورهم المشيدة بلا ممانعة ولا محاولة مقاومة، وخلف من بعد على بك خلف تفوقوا عليه فى الاحتياط وحسن التدبير وصدق النظر فإنهم بالرغم من إتصافهم مثله بفضيلة الفتوة والبسالة والإقدام اتقوا مزالق المناداة باستقلالهم ولم يطفروا إلى هذه الغاية البعيدة التى كانوا يعرفون أنه يسوء الدولة العلية ذكرها. لاسيما وانهم يعتقدون أن ما هم فيه من الاستقلال الفعلى يغنيهم عن إعلان استقلالهم الاسمى. بل تظاهروا باحترام الدولة وإجلال الأوامر الواردة عليهم من السلطان مع التجافى عن تنفيذها.

وكانوا فيما عدا ماتقدم ينتقصون الجزية السنوية ويقصّونها من أطرافها متقدمين إلى الخزينة بالأعذار الوجيهة كزعمهم أنهم أنفقوها فى مصالح الدولة وتأييد شوكتها وبلغت الجرأة أحيانا بهم إلى التوقف عن دفعها بالمرة متذرعين بباطل الأعذار وفاسد المدعيات. وماكان فى وسع الباب العالى تجاه هذا العبث إلا أن يغمض الطرف ويجر ذيل الإغضاء عليه علما منه بما يعقب

التحفز لإصلاحـه أو قمعه من النتائج الخطيرة بـالنسبة له. ومن ثـم اتجهت سياسته إلى غـاية واحدة هى إلقـاء بذور التدابر والانقســام بين المماليك مع إتخاذ الوسائل لمنع تغلب حزب على حزب حتى لا يتمكن الحزب القوى الغالب من تأييـد شوكته وتوطيـد سلطته على وجه تتم بـه الوحدة ويتوافـر النظام . وكانــت هذه السياســة سيئة العواقـب على الأمة المصريـة التى كانـت تسوء أحـوالهاعلى الـدوام ويضطرب حبـل شئـونها كلما سـادت الفوضــى وعـم الاختلال وتحسن كلما ارتكـزت السلطة على أسس وطيدة مـن الهمة والهيبة والنظام.

الحملــة الفرنســاويــة

الغرض مـن هذه الحملـة- النزول في ثغر الإسكنـدرية- واقعـة الأهرام هـزيمة أبـي قير- نتـائجها- كليبر - الانتصـار في هليـوبوليـس (عين شمس)- منو - الجلاء- نتائج القمع الفرنسي.

١٢- لما وصل بونابـرتة إلى مصر ووطئت قدماه ثراهـا في أول يوليو، سنة ١٧٩٨ كـان يتصرف في شئونها ويقبـض على زمـام الحكـم فيها إثنـان مـن البكوات المصريين أي المماليك.

أما العلة التي لأجلها ألفت حكومـة الدركتوار الحملة التي عهدت رئاستها إلى ذلك القائد الخطير من ٣٦٠٠٠ مقاتل وأنفذتها إلى ضفاف النيل لاحتلاله. فهي أن المماليك كانوا يتصدرون للتجـار الفرنسيين بالإحراج والمغارم حتى علت أصواتهم بالشكوى والاستصراخ. غير أنه كان هناك سبب أشرف مغزى من قصر إنزال العقوبات بهؤلاء المعتدين وتصريف السطوات فيهم ردعا لهم عن الافحاش في المظالم والمغارم وهو ان القوة الإلهية كانت تدفع بالفرنسيين الى التدفق على البلاد الإفريقية من غير أن يستطيعوا لها صدا .فلم يسعهم إلا أن يطاوعوا هذه القـوة القاهرة. فلقد جال بخاطر الملك لـويس الرابع عشر أن ينفذ اقتراحـاً رفعه إليه الـوزير (لبنتز) لـلاستيلاء على مصر، وطرحـت هذه المسألة على بساط البحث والمناقشة في وزارة (الدوق دى شوازول) فلما عاد بونابرتة من إيطاليا حبذ فكرة (لبنتز) وصفق لها استحسانا معتقدا أنها من الأغراض السامية الجديرة بالعمل على تحقيقها. وبلغ من تحمسه لتلك الفكرة أنه قال ذات يوم في حديث لـه: «إن الشهرة لاتكتسب إلا في الشرق» ولقد أيقن بصواب هذا الرأي يوم قال لـه كليبر في أبي قير: «أيها القائد: إنك لكبير كهذه الدنيا» وأدرك أنـه لم يخطيء حينما أقبل على بلاد الأهرام يلتمـس منها المجد والفخر ـــ أي الطلسم الـذي يربـط بالنـوع البشري كله حظـوظ القطاحـل والعبقريين.

على أن نابليون شرح في جمل قصيرة الغـرض السياسـي الذي كـان يرمي إليه بتنظيم حملته على مصر فقد قال:

«إن الغرض الأول من حملة الفرنسيين على مصر هو رضخ شوكة الانكليز فى الشرق الأوسط. إذ لا طريق غير وادى النيل للجيش الذى يناط به أداء هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الأحوال فى الهند. وكان لابد فى إصابة هذا الغرض من حلول مصر محل (سان دومنج) و(الانتيل) والتوفيق بين حرية العناصر السوداء ومصالح صناعاتنا. وكان بدهيا أن يفضى الاستيلاء على مصر. إلى ضياع جميع المستعمرات الانكليزية فى أمريكا والهند وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا فى مرافىء إيطاليا وجزيرة (كورفو) وجزيرة (مالطة) والإسكندرية صار البحر الأبيض المتوسط لامحالة بحيرة فرنسية هذا الحلم اللذيذ لم يتحقق - ويا للأسف - قط!

وإذا كنت لا أقصد فى هذا المقام إلى إيراد تاريخ الفتح الفرنسى لمصر فإنى أقتصر على القول بأن الإسكندرية وقعت فى قبضة الفرنسيين عقب يومين من نزولهم إلى البر، ولم يقم بونابرته فى هذا الثغر إلا الوقت الكافى لترتيب الحكومة وتنسيق أنظمتها ثم سار من فوره زاحفا على القاهرة، وكان مراد بك قد عاهد نفسه على أن يشطر الجيش: الفرنسى بصارمه البتار كما تشطر البطيخة بالسكين. يقول بونابرته : فلما كان الثالث عشر من يوليو حمل مراد بك بفرسانه المصريين فلم تلبث شدة حملاته أن تلاشت عند اصطدامها بأركان مربعاتنا المنيعة فلما رأى المماليك ماحل بهم من الفشل والعجز أخذوا يفسرون خططنا الحربية التى لم تكن قبلا معروفة عندهم بقولهم إن مشاتنا كانوا لتلاحمهم وتراكنهم بعضهم إلى بعض كالبنيان المشيد يحيط به سياج من الحراب. ثم احتفظوا بقواهم كلها رجاء المدافعة شبرا شبرا من مدينة القاهرة فربضوا بين النيل والأهرام يتربصون بنا السوء، وزعموا فى لغو كلامهم وحديث خرافتهم أنهم سيشهدون فى هذا المكان انكسار شوكتنا وأفول نجمنا ولكن خاب فألهم وطاش سهمهم لأن واقعة الأهرام جاءت حاسمة بانتصارنا وخذلانهم فإن جيشهم الذى حشدوه بإمبابة مؤلفا من ستين ألف مقاتل أشفى على الهلاك والتلف إذ انجلت المعركة عن موت عشرة آلاف من المماليك قتلا فى ميدان المعركة أو غرقا فى النيل فمعركة ٢١ يوليو أفضت إلينا بزمام مدينة القاهرة وبالتالى القطر المصرى كله من أقصاه إلى أقصاه.

ولكن لم تنقض أيام عشرة على هذا الفوز المبين حتى مر على سواحل أبى قير رسم الدونغة الفرنسية وذهبت ضياعا بتلاشيها النتائج الباهرة التى كان من المنتظر أن يفضى نجاحنا إليها قال نابليون فى مذكراته (المجلد الثانى) «لقد كان لخذلاننا بواقعة أبى قير تأثير كبير فى شئون مصر. بل فى شئون العالم كله فإنه لو قدرت النجاة للدوننمة الفرنسية ولم يدركها ما أصابها لما لقيت الحملة على الشام عقبة ما فى طريقها بل لتوافرت الوسائل لنقل مدافع الحصار إلى ما وراء الصحراء ولما فشلت الجيوش الفرنسية عند أسوار عكا. أما وقد دمرت تلك الدوننمة ومحى رسمها فقد أقدم الديوان (أى الحكومة العثمانية) على محاربة فرنسا فخسر جيشنا بذلك سندا قويا وتحولت الحال فى مصر إلى نقيضها وأنقبض رجاء نابليون فى التوسل بنتائج الحملة على مصر إلى تأييد شوكة فرنسا وسلطانها فى الغرب».

ولم يكن فى استطاعة جيشنا بمصر التفكير فى الاحتفاظ بفتوحاته وقد انقطعت المواصلات مع فرنسا على المثال المتقدم، وانصرف خاطرها إلى ماوقع بها من النكبات والمحن فى إيطاليا وألمانيا فلم يسع كليبر الذى كانت قيادة الجيش قد آلت إليه إلا أن يتخذ الوسائل للجلاء عن وادى النيل وأن يراعى بذل ما فى الوسع للاحتفاظ بما أصابه من الشرف والمجد على أثر ظفر بونابرته بالأتراك فى أبى قير ذلك الظفر المبين الذى انمحى به عار انكسارنا البحرى فيها وعودته إلى فرنسا. فقد عقد كليبر مع الأتراك فى العريش إتفاقية تعهد فيها بالجلاء عن القطر المصرى فى ظرف ثلاثة أشهر وأخذ الباب العالى على نفسه أن يقدم إلى الجيش الفرنسى ما يكفى من السفن لنقله بأسلحته وأمتعته إلى فرنسا ، ولكن حدث فى نفس الوقت الذى هم الفرنسيون فيه بمغادرة القاهرة أن بعث الأميرال (كيث) إلى الجنرال (كليبر) بلاغا ذكر فيه أن انكلترا لاتقبل من الجيش الفرنسى التسليم إلا إذا ألقى السلاح من يده وترك ماله من السفن والذخائر والأمتعة. فكان جواب كليبر على هذا البلاغ أن نشره على جنوده وذيله بالجملة الآتية موجها فيها الخطاب إليهم: «أيها الجند إن مثل هذه الوقاحة لا جواب عليها إلا بالانتصار فتهيأوا للقتال».

وكان على الجيش الفرنسى لكى يبقى محتلا الديار المصرية أن ينازل جيشا مؤلفا من سبعين ألف عثمانى وأن يدحره ويشتت شمله. وهو ماقام به

التسعة آلالاف من الفرنسيين فى واقعة عين شمس الخالدة الذكرى. ولكن بينما كان الجنرال كليبر يطارد فلول الجيش العثمانى فى الشام كان سكان مدينة القاهرة قد ثابوا = هبوا = إلى الثورة وأخذوا يفتكون بالفرنجة من أهلها ويحصرون فى أحد القصور مائة وثمانين فرنسيا نيطت بهم المحافظة على العاصمة المصرية.

ولقد قاوموا يومين متتابعين الحملات الموجهة إليهم من جموع الأهلين الذين كان يؤيدهم نحو الألف من الجند وأشرف أولئك من عندهم لولا أن فصيلة من جيشنا الظافر جاءت فى أنسب الأوقات لنجدتهم وتخليصهم من حرج موقفهم. على أن وجود جيوشنا وحضور الجنرال كليبر لم يكونا كافيين لإخماد تلك الفتنة لأن الثائرين لم يفيئوا = يرجعوا = إلى السكينة ويلتمسوا من القاهرة رحمة بهم إلا بعد أن أحرقت أحياء برمتها من المدينة وأصبحت خرابا يبابا بعد أن كانت عامرة زاهرة.

ولما اضطر كليبر للأسباب المتقدمة أن يحتفظ بالديار المصرية صرف همته إلى توثيق أركان شوكته وإقامة معالم نفوذه وسلطته. ومهد له السبيل إلى هذه الغاية فوزه على الأتراك فى عين شمس وتخلصه منهم فضلا عن ائتمانه جانب الانكليز الذين روعهم انتصار الفرنسيين فى واقعة (مارانجوا) فانصرفوا عن الاهتمام بمصر إلى الاشتغال بشئون أوروبا. وتحالف كليبر على الاثر مع مراد بك فآلت إليه بمقتضى هذا التحالف السلطة فى أقاليم الوجه القبلى. ولكن كليبر لم يلبث بعد استتباب الأمر له ثانيا أن اعتدت عليه يد أثيمة إذ سقط قتيلا من يد مجرم نفث فيه العلماء روح التعصب والاعتداء.

لقد كان كليبر القائد الفرنسى الوحيد الذى فى استطاعته الاحتفاظ بمصر لأنه كان يؤثر فى نفس الجنود بفضائله النادرة وسمعته الحسنة فيبث فيهم الشجاعة والثقة، ولم يوجد بين من عهدت إليهم أزمة الأمور فى مصر من هو أهل لإضاعة فتوحاتنا فيها كالقائد الذى خلفه بعد قتله وهو الجنرال (منو).

ولم يكن هذا القائد ممتازا من الوجهة العسكرية بشىء من الاستحقاق والفضل، كما لم يكن له من الوجهة الإدارية نصيب ما من الدراية والكفاءة. فإنه أغضب كبار الضباط الذين كانوا أوسع منه دراية وأجدر منه بالحلول فى مركزه ودأب على السير فى خطة مناقضة للخطة التى رسمها سلفه. دع إنه من

جهة أخـرى لم يرض الأهالى الـوطنيين إذ كان يبهظ كـواهلهم بمستحدثـاته المستهجنة الغربية. وكـانت إجراءاته العسكرية تستـدعى لطيشها وتجردها مـن الصواب السخـرية والهزء حتـى أن سواد الجيـش كثيرا ما استهجنهـا وأغفل القيـام بها، فكان بديهيـا أن تضيع مصر من فـرنسا على يد مثـل هذا القائد.

ولقد أدرك الانكليز حقيقـة هذه الحال فاحتلوا مـن فورهم ساحـل البحر بجهة أبـى قير فى قوة عظيمـة وسيروا ستة آلاف مـن الهنود (السيبـاى) إلى القصير فـأخذوهـا وعززوا قـوتهم بجيش آخـر مـن الأتراك فـألزمـوا بهذه الوسائل العسكريـة القائد «منو» الغبى الغافل بتسليم الإسكنـدرية إليهم ثم بالتأهب لمبارحة الديار المصرية على عجل.

فإنه مـا وافت نهاية سبتمبر سنة ١٨٠١ حتـى كانت بقايـا جيش الحملة الفرنسية تستعد للرحيل من مصر عائدة إلى الديار الفرنسية.

وأنه لمن الأعمال النـافعة تقييـد حوادث الفتـح الفرنسـى لمصر وتدويـن النتائج التى أفضى إليها ولكن أرانـى فى هذا المقام مضطراً إلى الاقتصار منها على الحوادث والنتائج ذات الصيغة العـامة فأول هذه النتـائج أن انتصارات الفرنسيين أدت إلى ثل عرش المماليك وتقويض أركـان دولتهم وأقامت الدليل الساطع على ضعـف هؤلاء المستبدين الغاشمين وهيـأت للمصريين الوسائل لتكوين وحدتهم المالية وتوسيع نطـاق أفقهم. فلاح لهم شبح أوربا من خلال الأعمال والمشروعـات البونـابرتيـة وسكنـت فورة تعصبهـم للديـن على غير المؤمنين به. وكان القـائد الفرنسى قد خلـب بفعاله الباهـرة عقولهم السريعة التأثر بالمؤثرات (١) فإن ما أبـداه من الحكمة فى تسامحه والمهـارة فى احترامه ديانه الأمة المغلوبة وعاداتها بـث فى نفسها الاستعداد لتوثيق الصلة فيما بعد

(١) سيشغل نـابليون أو السلطان الكبير كما يسميه الشرقيـون مركزا ساميـا فيما يدون من الحوادث العامـة ببلاد المشرق فكثيرا ماسمعت المصريين يذكرونه بعبارات الحماس والإعجاب وحدث أننى سافرت سنة ١٨٣٤ إلى السـويس فى مهمة فنزلت فى بيت كان نـابليون قد نزل به للاستراحة. ولم يكن قد طرأ عليه أقل تغيير حتـى الفراش الذى قام فيه فلم أشـأ أن يؤتـى إلى بفراش غيره. وكان صاحب البيـت وقت نزولى به صـاحبه على عهد ذلك القائد العظيـم وكان يخيل لمن يحدث هذا الشيخ الجليل أن نضرة الشباب تعـاوده كلما أخذ يروى ما رآه أو سمعه عن السلطان الفرنسـى. ومن قوله: «لم يكن بونابـرتة عدوا للمسلمين إذ كان فى استطاعته لـو أراد أن يقلب جميع المساجد بسن الإبـرة ولكنه لم يفعل ذلك فليبق اسمـه كبيرا بين أسماء عظماء الرجال، ثم كـان يختم كلامـه بقوله: «ولقـد أكدوا لنا أنه فى سـاعة موتـه هناك على صخرة البحر الكبير التى تمكن إثنى عشر ملكا من ملوك النصارى مـن إرسـاله اليها وتكبله بالإغلال فيها بعد أن سقود شرابا منوما رأى المقـاتلون الذين اجتمعوا حولـه روحه وقد وقعت على حد السيف فليسترح فى أمـان وسلام » وقد نقل إبراهيم بـاشا إلى اللغة التركية تـاريخا مختصرا لنابليون ونشر هذا التاريـخ بعنوان «تاريخ نـابليون الشهير «امبراطور فرنسا» ضمن مجموعة عنوانها «دفينة أسرار حكام أوربا» أى كنز أسرار ملوك أوربا.

بينها وأوربا، والانصراف نحو المدنية الغربية لتلتمس = لتقتبس =منها بالنظم الحديثة لتدبير شئونها.

ولقد كان فى الوسع إجراء هذا الإصلاح لو بقى احتلال الفرنسيين لمصر وظلت سلطتهم قائمة فيها. فإن بونابرته كان قد وضع بالفعل أساسه وأنشأ = وأخذ = يرفع أركانه بقصدة إيقاظ القومية العربية المصرية من سباتها، وبذل فى هذا السبيل ماتيسر له من الجهود التى كانت باكورة ثمارها استحداث الدواوين فى المدائن الكبرى وأمهات القرى، وهى عبارة عن المجالس البلدية التى ألفت من كبار الشيوخ والأعيان لترجع الحكومة إليها فى معضلات المسائل ومختلف الشئون الخطيرة فكان لايبرم أمرا حقيرا أو خطيرا إلا بعد إطلاعها عليه وإبدائها رأيها فيه. وكان كل مجلس منها يبعث إلى القاهرة مندوبين عنه لتشكيل الديوان الوطنى الكبير منهم وهذا الديوان هو الذى كان يمثل القطر المصرى تمثيلا عاما ولاقى الفرنسيون نحو هذا الإصلاح وغيره التعضيد والتأييد وعطفوا على مصالح مصر المادية وتعهدوا بالعناية ترعها الثمينة وأحاطوها من جهتى البحرين الأبيض المتوسط والأحمر وناحية الصحراء بسياج من الاستحكامات والحصون.

١٢- حكومة محمد على

حالة مصر بعد رحيل الفرنسيين - الباشا والمماليك والألبانيون والإنكليز- تغلب المماليك- انقسامهم وتخاذلهم- الألبانيون تحت قيادة محمد على يطردونهم من القاهرة- محمد على - شهرته- مبايعة الشيوخ له واليا على مصر ومصادقة الباب العالى - مساعى وتدابير الإنكليز والمماليك ضده- نزول الانكليز فى الوجه البحرى وفشلهم- الحرب ضد الوهابيين- إبادة المماليك - دسائس الباب العالى- فشل هذه الدسائس- ترتيب الجيوش النظامية- فتح بلاد العرب وكردفان وسنار- ثروة مصر وشوكتها- حرب موره- دسائس الباب العالى الجديدة ضد محمد على - الانتصارات فى حمص وبيلان وقونيا- تداخل الدول بين الباب العالى ومحمد على- اتفاقية كوتاهية آخر مساعى السلطان محمود- الانتصار فى نصيبين- الحالة الحاضرة - مقصد محمد على- جعل حكمه ولاية وراثية.

٢٩–لما أكرهت غلطات الجنرال منو جيش الحملة الفرنسية على التنحى عن فتوحات (بونابرته) و(ديزه) و(كليبر) ووقعت مصر ثانيا فى قبضة الباب العالى فاحتلتها جيوشه التى كان أساسها فرقة مؤلفة من أربعة آلاف ألبانى والجيوش الإنكليزية التى أنزلها إلى البر الأميرال (كيث) وجماعات المماليك. وكان مما تطاولت إلى معرفته الخواطر عقب رحيل الفرنسيين: أى فريق من هؤلاء ستخلص مصر له فى النهاية هل هم أولئك الولاة الذين تبعث بهم الأستانة ليمثلوها فى مصر ؟ أم المماليك سادة البلاد من قبل وأصحاب المصالح الكثيرة فيها؟

أما المماليك فقد عانوا فى حروبهم مع الفرنسيين ما حملهم الخسائر الفادحة فى الأنفس وجعلهم يعجزون عن تعويضها خصوصاً وقد أصدر الباب العالى الأوامر بمنع تصدير الأرقاء من الجركس كيلا يتمكن أولئك المماليك من سد ثلم تلك الخسائر، وليتيسر له الخلاص من عسفهم وتحكمهم فى أمور البلاد. هذا فضلا عن أن التعليمات للولاية على مصر بعد رحيل الفرنسيين كانت قاضية بإبادة بقية المماليك والتعفية على آثارهم حتى لاتقوم لهم فيما بعد قائمة .

وكان هذا الوالى المسمى محمد خسرو باشا يشغل فى الحكومة العثمانية منصب الصدر الأعظم وكثيرا مالفت إلى شخصه وهو فى هذا المركز السامى أنظار الدول الأوربية بما جهر به من العداء لمحمد على. ولقد بدأ هذا الوزير بتنفيذ الأوامر التى زودته بها حكومته ولكنه لم يقم دليلا فى تطبيقها على شىء من الحصافة والمهارة المنتظرة من مثله. لأنه عجل بمحاربة المماليك الذين كان، زعيماهم الكبيران عثمان البرديسى ومحمد الألفى يتنافسان على الاستئثار بالحكم والسلطة . فلم تلبث الجيوش التى سيرها لقتالهم أن عادت من ميدان القتال بالفشل والخذلان.

وكان محمد على الذى سيرى القارىء فيما بعد أنه سيقوم بدور خطير على مسرح هذه الحوادث قائدا لفرقة الألبانيين فى ذلك الجيش التعس. فلم يستطع لبعده يومئذ عن ميدان القتال الاشتراك فيه وذلك لأن الرئيس الذى عهدت إليه، رياسة الحملة كان ناقما عليه. فاتهمه لدى خسرو باشا بسوء النية، وأنه قصد بتخلفه إلقاء مسئولية الهزيمة عليه، ولم يكن هذا الوزير من الذكاء

وحضور الذهن بحيث يستطيع سر هذه الوشاية فأقسم أن ينكل بالزعيم الألباني ويورده شر الموارد. وكان مما بعث به على اعتزام الكيد له غير ماتقدم أنه بدأ يخشى جانبه، إلا أن محمد على استطاع بذكائه وفرط احتياطه أن يوقى نفسه شر ما ينصبه له أعداؤه من المكايد. فلقد استدعاه خسرو باشا ذات ليلة فلم يجبه إلى دعوته هذه لعلمه بأنه إذا أجابه إليها فإن الموت ملاقيه لامحالة عنده. ثم اغتنم فرصة استياء عساكره وغيرهم من الألبانيين بسبب التسويف فى دفع مرتباتهم فانضم معهم إلى المماليك وفتح لهم بمحالفته إياهم الطريق إلى القاهرة، والتحق بعد ذلك بعثمان البرديسى للزحف على خسرو باشا ، وقد ظل يطارده حتى ضيق عليه الخناق فى دمياط وأسره فيها بعد استيلائه عليها واستاقه إلى القاهرة حيث تولى إبراهيم بك مراقبته فى أسره (سنة ١٨٠٢).

ولما انتهت أنباء هذه الحوادث إلى علم الباب العالى بادر بإرسال على باشا الجزائرلى إلى مصر ليخلف خسرو باشا فى منصبه ويعاقب الذين خلعوه من كرسى الولاية غير أن الجزائرلى لم يكن أسعد طالعا ولا أوفر حظا من سلفه فإنه لما استشعر فى نفسه العجز عن إخضاع المماليك والألبانيين بالعنف والقهر لجأ إلى الحيلة والخدعة والدسيسة فلم يفلح، وانتهى الأمر به إلى الوقوع فى أيديهم وكان مما أسخطهم عليه التجاؤه إلى هذه الذرائع الخسيسة فى مغالبتهم فقتلوه شر قتلة بأمر رؤسائهم.

على أن المماليك لم يلبثوا بعد ذلك أن دب بينهم دبيب الانقسام واختاروا الشتات بدل الألفة. فذهبت مزايا فوزهم أثناء اتحادهم بددا. وكان محمد الألفى قد ذهب إلى انكلترا ليسأل حكومتها التدخل فى شئون مصر دفاعا عن مصالح البكوات المصرلية ثم عاد منها عقب قتل الجزائرلى باشا بقليل، ونزل فى أبى قير فداخل عثمان البرديسى الخوف من أن يرى هذا الخصم الذى ينافسه على النفوذ والكلمة مؤيد الجانب من إحدى الدول العظمى فيما ينتظر أن يهم به من اغتصاب زمام السلطة من يده بعد أن تكبد فى سبيل الحصول عليه صنوف المشقة والعناء.

وكان محمد على يذكى فى نفسه نار الحقد والبغضاء على محمد الألفى منذ حالفه على التنكيل بخسرو باشا، ولم يكن انتهاجه هذه الخطة عن غير علة.

فإنه لما ذهب محمد الألفى إلى انكلترا ليدعـوها إلى مد ظل حمايتها عليه ضد خصومه لم ينل منها الوعد بهذه المؤازرة إلا بعهود عاهدها على القيام بها من شأنها أن تعـرض حياة مصر الاستقلاليـة فى المستقبل الى خطر مـؤكد كبير. وقد حاول البرديسى التخلـص من خصمه بما نصب له من المكـائد وبث من المصائد. ولكنـه لم يفلح فى مناوأتـه والكيد له. لأن الألفـى كان قد تمكـن من الفرار إلى الوجه القبلى حيث بذل الهمة فى تكويـن حزبه وتأليف القلوب حوله من جديد.

وقـد انشـق المماليـك لهذا السبـب على أنفسهـم فـانقسمـوا إلى حـزبين متعاديين لكل حزب منهم زعيم وكان خليقـا بهما الاقتداء بمراد بك وإبراهيم بك فيما فعـلاه قبل وصول الحملة الفـرنسية من اقتسام البـلاد بينهما حتى لاينازع أحدهما الآخر ويعمل على التنكيل بـه والكيد له ولكنهما بدلا من ذلك أخذا يتقاتلان ويفنيـان ـ فى معارك لا فائدة تجنى من ورائها ــ ما بقى من القوة العسكـرية المملوكيـة فكانـت نتيجة فعلهما أن ازداد الألبانيـون جرأة وقحة وصـلابة.

وكان عثمان البرديسى حتـى هذا الوقت مطمئنا إليهـم وواثقا بهم، وكان لهم مـن المتأخـر مـايربـو على مـرتبـات ثمانية أشهـر فـأخذوا يصيحـون ويصخبون مطالبين بحقوقهم، وتهددوا البيك بـالثورة عليه إذا لم يوافهم بها على الفور فـأنشأ البرديسى يسترضيهم إذ فـرض الفرض الفادحـة على أهل القاهـرة ليسد بها تلك الثغرة فكـان سوء طريقته فى ذلـك باعثا على تذمـرهم واستيائهـم وتجردهم وتحفـزهم للثـورة. وجاء الألبـانيون بقيـادة زعيمهم محمد على لحصـار قصره وقصور غيره من الأمراء المصرية. فلم يتمكن عثمان بك من تسكين ثائرتهم ودفع غائلتهم. ولم يسلم من أيديهم إلا بفضل بسـالته الذاتية إذ إنه برح القاهرة فى سنة ١٨٠٤ ولم يعد إليها إلى أن وافته منيته.

ولقد دبـر محمد على هـذه الثورة الفجائيـة بلباقتـه وحذقـه واكتسب بها عطف العلماء ومـودتهم فتمكن من استمالـة الأهلين إليه والفوز بثقتهـم فيه واعتمادهـم عليه فى الملمات والقبض على ناصية السلطة.

وأول خطوة خطاهـا بعد استتباب الأمر أنه أراد إعادة خسرو بـاشا الذى كـان لايـزال أسيرا إلى منصـة الولايـة على مصر. غير أن بقيـة الـزعماء مـن

الألبانيين لم يشاطروه هذه الفكرة. فوجهوا خسرو باشا إلى رشيد وأنزلوه منها فى سفينة سافرت به إلى الآستانة. فلم يعارضهم محمد على فى فعلهم، ولكنه أصر على رغبته فى جعل زمام الولاية بيد أحد الباشوات الأتراك، ولذا عمل على تعيين خورشيد باشا محافظ الإسكندرية واليا على الديار المصرية فتألب الشيوخ وزعماء الجنود وأجمعت آراؤهم على تعيينه فى منصب القائمقامية للوالى وصادق الباب العالى فى سنة ١٨٠٤ على تقليدهما هذين المنصبين.

ومنذ هذا التاريخ ظهر تأثير محمد على ظهورا بينا فى شئون مصر، وعلت كلمته فى إدارة أحوالها ولهذا كان مما لا يخلو من الفائدة إيراد الظروف التى أفضت به فى المستقبل إلى العظمة ورفعة الشأن.

ولد محمد على سنة ١٧٦٩ بقولة من الثغور الصغيرة فى الروملى، وقد توفى عنه والده وهو صغير السن فكفله أحد الأغوات من سكان تلك البلدة وبدا له فيه من مخايل البسالة والذكاء ما حمله على إحاطته بعطفه ورعايته. إذ زوجه من قريبة له ذات ثروة وخصب من العيش فتفرغ للتجارة وبرع فيها وربح من المال ماشرف به قدره وعظم خطره ورمى من أجله بالأبصار فلما أغار الفرنسيون على مصر وهم الباب العالى بالتعبئة وتسيير الجيوش لدفع عادية هؤلاء المغيرين عنها صدر الأمر إليها بأن تقدم بلدة قولة من أهلها فصيلة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل فاندرج محمد على فى سلكها وعين بكباشيا عليها. وحضر واقعة أبى قير فامتاز فيها بالبسالة والإقدام، وكوفىء على ذلك بتعيينه سارى جشمه (أى قائدا للألف) وكان لايزال بهذه الرتبة وقتما ناط به خسرو باشا الزحف لتعقب المماليك وقتالهم عقب جلاء الفرنسيين عن مصر. وفيما سبق إيراده شهدنا كيف حاول هذا الباشا بعدئذ الإيقاع به وكيف ان محمد على، وقد أصبح بحيث ينبغى له الحرص على كيان ذاته استطاع فى زمن قليل وبفضل الظروف التى عرف كيف يستثمرها وينتفع بها الحاكم المتسلط على مصر والمتصرف فى أمورها.

وكان مركز خورشيد باشا بعد تنصيبه فى الولاية محفوفا بالخطر والحرج. فقد كان عليه أن يحارب المماليك من جهة ويتقى شر طغيان عساكره من جهة أخرى. ولم تكن هذه المهمة العسيرة تتفق مع ضعف قدرته

وعجز حيلتــه ونقص الــوسائل بين يديــه . فلقد كــان الألبانيــون الهائجون لايكفون عن تعقبه بمطالبهم ملحين محلفين. خصوصا ما تعلق منها بالمتأخر من مرتباتهم وأعطياتهم حتى اضطر إلى الشدة والعنف بإثقال كواهل الناس بصنــوف المغارم والفــرض سدا لتلــك الخلة. فســاءت من جــراء هذا الفعــل سيرته وتلوثت سمعته – وانبثت فى الأفئدة كراهته. بينما كانت القلوب تجتمع على محبــة محمد على وتتعطــر الأندـيــة بذكــره. لأنــه كان مــن جهة فى قتــال متواصل مع المماليك يدفع عن الأهلين عاديتهم ويرد مظالمهم وكان من جهة أخرى يقف موقف الوسيط المسكن لثائرة الفتن العسكرية التى كثيرا ما ارتاع من أهوالها سكان العاصمة وأصابهم من جرائها النكال والخسائر.

وكان خورشيــد باشا شديــد الخوف من الزعماء الألبانيين، فسعــى لدى الباب العالى سعيه للخلاص منهم باستصدار أمره إليهم بالعودة إلى أوطانهم فكان محمد على أول من جهر بعصيان هذا الأمــر، ثم لم يلبث أن تظاهر أمام أعيان المدينة. وشيوخها بالرغبة فى الرحيل عنها ومغادرة الديار إلى الأبد. وإذ كانوا يعتقــدون أنه الوحيد الذى يذب عــن حماهم ويزود عن حقوقهــم ـ فقد أسرعوا بالسعى لــديه ليقنعوه بالعدول عن عــزمه. فلما استشف بهذه الحيلة حقيقة شعورهم نحوه وأيقن أنه منبعث = صادر = عن ميل صحيح إليه وثقة عمياء به ربض فى مكانه مترقبا سنوح الفرصة لاستثمار هذه الحالة النفسية فى مصلحته فما هــو إلاآن لاحت له الفــرصة المتمنــاة. إذ حدث أن فريقــا من عساكر– خورشيد باشا عاثــوا فى العاصمة بالنهب والهدم والتحريق وضروا على الأهالى ضراء الأسد على فريسته حتــى عمت الشكوى وعلا الصراخ وأدت هذا الحال بالشيوخ إلى عقد اجتماع قرروا فيه عزل الباشا بعد أن بدا لهم من عجزه عن حفظ الأمن فى البلد ماعانوا مشقته وحاق بهم ضرره وبايعوا محمد على واليا عليهم بدلا منه ـــ بالرغم من صدور الأمر السلطانــى بإسناد ولاية جدة إليه ـــ رغبة من الحكومــة العثمانية فى إقصائه عن مصر على كــل حال، فرفــض محمد على فى بادىء الأمر مــا عرضه عليــه الأهلون من تقلد الــولاية ولكنه لم يسعه إلا إجابة رجائهم بــالقبول نظرا إلى إلحاحهم وشدة رجائهم. وفى يوم ٩ يوليــو سنة ١٩٠٥ ورد من الباب العــالى الأمر المؤذن بهذا التعيين والموافقة عليه.

أغرى الشيـوخ محمد على بتقلـد زمام الأحكـام وهم بما لـهم مـن النفوذ الدينى والسلطة التقليدية كانوا بالبـداهة نواب الأمة ووكلاءها . فلا عجب إذا رسخت قدماه فيها من مبتدأ الأمر.

على أنه فوق ذلك كان من صدق النظر وحسن التدبير وتمام الدراية بحيث استطاع وقاية سفينته من الارتطام بصخـور المصاعب المالية التى اعترضت أسـلافه. وغير خـاف أن الحاجـة إلى المال كان يـذكى نـارهـا جشع الجنـد وشراهتهم. وكان محمد على فـوق هذا وذاك مؤيد الجانب من الأمـة منذ رأته رأى العين يطوف بأرجاء القـاهرة ويجوس خلال الديار لتوطيـد دعائم الأمن فيها ملقيا القبض على المعتدين والناهبين من عساكره تارة وطورا معاقبا لهم بيده العقاب الصارم.

وكان حجم الاحترام والتوقير للشيوخ مبالغـا فيهما إلى حد عدم المسارعة بمكاشفته إيـاهم بما يراه من صعـوبة الحالة وحرج الموقـف. فكان يضعهم بذلك فى مركز يرون من الواجب عليهـم فيه المبادرة بتدبير الوسائل لدرء تلك الحاجة. وكانت مصلحتهم وقتئذ مماثلة لمصلحته ومندمجة فيها لأنه لما كانت قوته مستمدة من مؤازرتهم له فلا عجب إذا تطوعوا لجباية مايضطر كرها إلى فرضه على الأهلين من الفـرض التى لو باشر جبايتها بنفسـه قبل أن يحصل على موافقتهم واستحسانهم لكانت سببـا فى تسوئة = تشويه = سمعته وبث كراهته فى نفس الجمهور.

وغنى عن البيان أنه لو لم يستوثق محمد على من تأييد الجمهور له لسقط تحت أعباء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها. فـإنه ماكاد يسقط خورشيد باشا من منصـة الولاية حتى عرض محمد الألفى عليه، وكـان قد أعاد تنظيم حزبـه وأهبه = وجهزه = بما يلـزم من عـدد القتال ، الانضمام إليه لمكـافحة الوالى الجديد. دع أنه أوفـد رسلا من عنده إلى قبطان باشا الـذى كانت سفنه راسية فى مياه الإسكندريـة ليعاهدوه بالنيابة عنـه على الخضوع للباب العالى إذا عاونهم على إخـراج محمد على مـن مصر. وكان معتمـدو انكلترا يؤيـدون جانـب الألفى فى هذه المفاوضـة وبلغ من أمرهـم فى الانتصار له وتعزيـزهم مبدأه أن تهددوا الأميرال العثمانى بـالإغارة على مصر إذا ظلت هذه الـولاية فى قبضة الألبـانيين ومحمد على. ووصفوا هؤلاء يـومئذ بما شاءوا مـن أوصاف

التحقير التــى تحط من قــدرهم وتــزرى بشرفهم ، ولكــن المسيو (دروفتــى) قنصل فرنســا بالإسكندرية وقف لــدى قبطان باشا وقفة المدافــع عن محمد على، فكان عملــه هذا فــاتحة السياسة الحاذقــة التى لم تكــف حكومتنــا عن انتهاج سبيلها حيال محمد على.

ومع أن مساعى محمــد الألفى وأعوانه من الإنجليز قــد انتهت بما ذكرناه من الفشل فــإنهم أصروا على متابعتها حتى النهــاية وكان الألفى قــد وعدهم بتسليم ثغــور مصر إليهم إذا نجحت مشاريعــه بمساعدتهم وبنت الحكــومة البريطانية على هذا الوعد ماشــاءت من القصور والعلالى فسألت = فطلبت = من الباب العالى على لسان سفيرها بالآستانة إعادة زمام الأحكام إلى المماليك على شرط أن يكون الألفى زعيمهم الأول. ولم تقف تلك الحكومة عند هذا الحد بل تهورت فى مناصرته إلى حد الرضى بضمانة مال الجزية التى تعهد بأدائها فى كــل عام إلى الخزينــة السلطــانية، فــوافقت الحكــومــة العثمانية على هــذه الاقتراحات والمطــالب وأنفذت إلى مصر أسطــولا بقيادة أميرال آخر نيطــت به مهمة العمــل على إعادة المماليــك إلى دست الحكم وتسليــم محمد على فــرمان تعيينه فى ولاية سلانيك فتظاهر محمد على فى إبان الأمر بالانقياد للدولة ولكن الشيوخ والعســاكر منعوه من مغادرة الديار.

وكان البكوات المحاربون لعثمان البرديسى ــ وهم الذين ظلوا متمسكين بسياسة مراد بك ـ أى بالبقاء على الولاء لفرنسا لايستطيعون طبعا أن يقفوا مكتوفى الأيدى تجاه مافــاز به خصمهم الألفى من تأييــد الانكليز وعضدهم . وقد رأوا أن الخطر الــذى يتهدد محمد على أصبح منهم قــاب قوسين أو أدنى فاستشعروا بــالحاجة إلى التقرب منه. وكــان قنصل فرنسا يــوالى محمد على بنصائحه ويؤيده بمشورته ويعمل على نصرته فانتزع من جيش لوائه وكتب إلى سفير فرنســا فى الآستانة أن يؤيد محمــد على لدى الباب العالى ويدافع عنه وينصره على شانئيه = كارهيه =.

أما قبطان بــاشا فإنه مــا وقف على حقيقة الأحوال فى مصر حتــى أيقن أن الخصومات التى قسمت المماليك أحزابــا متعادية أصبحت حائلا منيعا دون إعادتهم إلى ما كــانوا عليه من الصولــة ورفعة الشأن فكان ذلك مــن البواعث القوية التــى حملت قبطان باشا على السعــى لتحوير سياسة حكــومته نحو

محمد على ولقـد ظهر أثر هـذا السعي حينما أرسل الباب العـالى إليه فرمـانا بتثبيته فى ولاية مصر على شرط أن يوافى الخزينة السلطانية بأربعة آلاف كيس من المال ـ أى بثلاثمائة ألف من الجنيهات.

خرج محمـد على سالما من هذه الأزمـة. فرأى أن سلطته تزداد فى كـل يوم رسوخا واستقرارا وحدث أن عثمان بك البرديسـى ومحمد بك الألفى توفيا فى وقت واحد تقريبا إذ كانـت وفاة الأول فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦ ووفاة الآخر فى ٣٠ ينايـر سنة ١٨٠٧ فتركـا له المجـال خاليـا والميدان بـلا منافـس ولا مناظر. وفى السنة نفسها أى سنة ١٨٠٧ عز على الإنجليز أن يروا الباب العالى يصالح محمد على ويتفق معه وأن تستقيم الأحوال فى مصر. ذلك لأنه كان من مصلحتهم أن تستمر فوضى المماليك فيها ليصطادوا فى مائها العكر. فأنزلوا فى الإسكندريـة جيشا ما برح التـاريخ حافظـا ذكرى فشله وخذلانـه فإنهم ماكـادوا يستولون على هذا الثغـر فى ١٣ مارس سنة ١٨٠٧ حتى هـزموا شر هريمة بمدينة رشيد فى الحادى والعشرين منه، وفى بلدة حماد فى الثلاثين منه وسبب هذا الانحدار المتعاقب أن المماليك الـذين كان الانكليز قد وضعوا فيهم ثقتهم تخلفـوا عن تأييـدهم وضنوا عليهـم بعونهم إذ أخذ بعضهـم يفاوض الوالى للصلح معـه بينما كان البعض الآخر يطاردهم الجنـود فى الوجه القبلى عقب خذلانهم المتكرر فى معارك متتالية ، ولقد لبثت الجنود البريطانية محتلة الإسكـندرية سـتـة أشـهر ثـم اضطـروا إلى الجلاء عنها فى ١٤ سبتمبر سنـة ١٨٠٧.

وكان الموسيو دورفتى قنصل فرنسا خير معوان لمحمد على على تذليل هذه المصاعب بما كان يقدمه إليه من الآراء السديدة والنصائح النافعة وهو الذى يرجع إليه الفضل فى رسم خطة الدفـاع التى جاءت بتلك الثمرات الطيبة ولقد أضاف محمد على ما أحرزه باجتهاده وحسـن توفيقه من الفخر العظيم فخرا آخر أحرزه بكرمه وتسامحه . فإنه رد إلى الانجليز جميع الأسرى من جنودهم بدون أن يطالب بفديتهم كما جرت العادات.

ولم يكن من سياسة الباب العـالى أن يترك لوالى مصر فرصة للعمل فى ظل الأمن والطمأنينة بالسلطة المخولة له التـى أحرزها بهمته وأمرته الدولة مرارا بحشد الجيـوش وتسييرها لمحاربـة الوهابيين، وهـؤلاء الوهابيـون خوارج

مبتدعون فى الإســلام يريدون على حد قــولهم الرجوع بهذا الديـن إلى حالته الأولى من الســذاجة والتقشف، وقــد ظهروا بـدعوتهم هذه فى أواســط القرن الثامــن عشر فاستولــوا بعد زمن قليـل على بلاد العــرب- كافة وأخضعــوها لمذهبهم . وكانت المدينة ومكة، وهما الحرمان الشريفان فى الإسلام، قد سقطتا فى قبضتهم فنهبوا مافيهما من وافر الأموال ونفيـس الأعلاق. وكانت القوافل التى تذهب بالحجاج إليهما لأداء مناسك الحج تخشى أن يسوقها الوهابيون بعصا التنكيـل إلى مايـراد منها بـل كثيرا ما كـانت تقصر بهم الـوسائل عـن الوصول إلى الغرض المقصود من رحلتهم فكـان العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه فى اكتئاب وانــزعاج وحرج لهذا السبب، وكان فى قـدرة الوهابيين لما لمسوه فى نفـوسهم من العزة وبـالكثرة والعصبية لمذهبهم المستحـدث إرهاب السلاطين والأمراء أصحـاب السطوة والنفوذ فيما يلى حدود جـزيرة العرب. ومن هــذا انهم كانـوا يتهددون ولايــة بغداد بـأن تطأ جنـودهم قـاصيتها = أرضهــا = وتتكـل بأهلهـا حينما وصلـت الأوامـر السلطانيـة إلى محمـد على بالمبادرة إلى محاربتهم ورد الأمور إلى معاهدها = ما كانت عليه = فى الجزيرة العربية.

وبدهــى أن هذه الحرب كـان لابد أن تخلى مصر من حـاميتها العسكـرية وتكشف جوانبها لأخطار الغارة عليها من الأعداء المتربصـين بها السوء، فكان من وجــوه الحكمة وأصالة الـرأى وأحوال الدهــاء أن يحتاط لدرئها بــإرساء شوكتــه على أوطد القواعــد . وقد اتفــق فى هذا الحين أن عاد المماليـك إلى تقلد الســلاح وبرزت حشــودهم لقتــال محمد على (سنــة ١٨٠٨) فدرأ بحكمتــه بلاءهم وعاجلهم بقوته الساحقة فأباد فريقا منهم ووقع بالفريق الآخر أنكأ العقوبة وعرض عليــه زعماء بيت الألفى مؤازرتهم على أعدائهم ولكنــه ماكان لمثله أن يحفل بوعودهم أو يستنيم إلى عهودهم. بدليل أنهم ما كادوا يتأكدون الأنباء المتعلقــة بالحملة الـوهابية ويـوقنون أن البـلاد ستصبح خاليــة من جنودهــا حتى تآمروا على خيــانته والكيد لــه ومداهمته . ولقد عللـوا أنفسـهم بالظهور عليه متى حرم معاونة رجاله وأوليائه وأهل طاعته. ولكنه سرعان ما استكشف سر مؤامرتهم فوقر فى نفسه أن المســألة بينه وبينهم مسألة حياة أو موت. فلجأ إلى حق من حقوقه الشرعيــة والطبيعية. ألا وهو حق الدفاع عن

النفس والحرص على الحياة.

رأى أنه مهدد الجانب منهم فعول على اتخاذ الوسائل لدرء هذا الخطر عنه وقرر أن يكون اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٨١١ يوم الفتك واستئصال شأفتهم . فدعا المماليك إلى القلعة ليشهدوا حفلة تولية ابنه طوسون باشا قيادة الحملة على الوهابيين فأجابوه إلى دعوته وأدى المطاف بموكبهم إلى مضيق لم يستطيعوا فيه الحركة فإذا به المأزق الذى زجوا إليه بلطف الحيلة للافتراس بهم . وفى الواقع فإنهم ما كادوا يتوسطونه حتى أخذهم الألبانيون برصاص بنادقهم من غير شفقة ولا رحمة. ولقد فشا خبر هذه المجزرة بالقاهرة حتى عم انحاءها فتلقاه أهلها واجمين ولم تنقض أيام بعد ذلك حتى تناول الفتك سوادهم الأعظم فى مديريات هذا القطر.

وقد بقيت منهم بقية صغيرة لجأت إلى بلاد الحبشة (لعلها النوبة) فلما باد سواهم صدر أمر الوالى بالإمساك عن مطاردة الذين فروا منهم أو ل وهلة. وعلل ذلك بأنه يريد محاربة الجماعة لا أفرادها.

ولقد نظم فى سلك خدمته بعض الذين بقوا منهم على قيد الحياة وأباح لهم التمتع بما كانوا يملكونه من الثروة الثابتة والمنقولة. بل بالغ فأجرى على نساء القتلى وأولادهم الأرزاق والأعطيات التى تجعلهم فى نجوة عن = تغنييهم = ذل السؤال. وعليه فقد أصاب محمد على فى يوم واحد الغرض الذى طا لما اشرأبت إليه منذ أكثر من قرنين أعناق السواس فى الدولة العثمانية بدون أن يصيبوا منه هدفا.

طال أمد الحرب مع الوهابيين وتعددت مصاعبها وتعاقب فيها الانتصار والانكسار . فلما انقضت ست سنوات من معاناتها ضعفت شوكة الوهابيين واصطلم أمرهم. على أن إبراهيم باشا لم يكن قد استسلم الوهابيون إليه أو عفروا له خدودهم فاضطر محمد على أن يتولى بنفسه حملة جديدة ضدهم ولكنه بينما كان مشتغلا بالزود عن حرمة الإسلام وحرمة الإيمان كان الباب العالى يبغيه الغوائل ويحفر له الحفائر. إذا اعتنم فرصة غيبته فقلد لطيف باشا ولاية مصر بمقتضى فرمان أصدره السلطان سرا وأمر قهارمة دولته بتكتم خبره.

أما لطيف باشا فصنيعة من صنائع محمد على وعبد من عبيد إحسانه ونعمته. فلما اتصل بهذا الجاحد لأنعم مولاه منطوق الإرادة الشاهانية عمل فى الخفاء على استمالة الأفئدة إليه وتكوين حزب له. غير أن محمد بك الذى كان قائما بإدارة شئون الحرب فى حكومة الوالى قد فطن لذلك. فاستدرجه بحسن الحيلة إلى إعلان نيته والجهر بعزيمته على ملأ من الناس، ولما لم يبق شك بعد اعترافه فى اقترافه رمى عنقه فى ديسمبر سنة ١٨١٢.

ومما لا مراء فيه أن الحروب فى جزيرة العرب كلفت الوالى الكلف الفادحة من المال والرجال، ولكنها عادت عليه ولاشك بمزايا جزيلة وفوائد لايستهان بها فإن أنباء ظفره بالوهابيين نشرت بين الناس فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية سيرته مقرونة بحسن الذكر وطيب الأحدوثة، ومهدت له السبيل فيما بعد لتأليف جيشه النظامى الذى بنى عليه دعامة صولته وشهرته.

ومنذ أن جاءت الولاية على مصر إلى محمد على منقادة وأفضت إليه بمقاليدها لم تغب عنه لحظة واحدة أهمية النظام العسكرى وفن التدابير الحربية عند الأوروبيين. فكان أول ماقرطس فيه سهام همته ونشاطه أن تفرغ فى سنة ١٨١٥ لتشكيل الجيوش النظامية. إلا أن هذا السعى لم يلق النجاح المرجو. وحدث أثناء ذلك من الهرج والنزوع إلى الانتقاض بين الجنود الأتراك والألبانيين ماكاد يقضى على صرح شوكته بالانهيار لما استشعروا به من كراهية تنسيقهم بحسب النظام الجديد فاضطر الى تأجيل هذا المشروع مع اتخاذ ما يقوم من الوسائط مقامه، ثم لم يلبث بلطف حيلته أن تخلص من العصابات الثائرة بإنفاذ رجالها لفتح بلاد العرب وسنار وكردفان فاستفاد بهذا التدبيرفائدتين جليلتين أحداهما إتقاء شر تمردها والثانية التذرع بها إلى فتح بلدان جديدة وضمها إلى مصر.

وقد تم إخضاع سنار وكرفادن لمصر وإلحاقهما بها خلال سنة ١٨٢٠- وفقد محمد على فى سنار ابنه إسماعيل باشا بموتة شنعاء على أثر مكيدة دبرها له زعيم من أهالى ذلك الإقليم وقد أخذ الدفتردار بك صهر الوالى بثأر الفقيد إذ نكل بالأهالى أشد تنكيل. ولما امتدت فتوحات محمد على إلى أبعد الآفاق وتناولت الأطراف القصية من الارض انكب على تنمية ما احتوته أملاكه الواسعة من موارد الثروة وينابيع الخير فوحد نظام الملكية وأدخل زراعة

القطن وعضدها وأصلح أساليب فلاحة الأراضى المصرية واستثمارها ووسع نطاق التجارة فنمت موارد ايراده بسرعة لذلك السبب. وكان قد حان الوقت بعد ذلك لتنظيم الجيش فأنشأ فى أسوان ميدانا للتعليم درب فيه جملة من الجيوش على مقتضى النظام الأوربى ونجح فى ذلك نجاحا لا مطمح بعده لمستزيد بفضل مثابرته وحسن إدارة المسيو سيف (سليمان باشا).

وقد استدعى إليه من فرنسا القواد والضباط والأطباء وأنشأ المدارس والمستشفيات والمصانع، وكان ملما بأسرار سياسة الباب العالى عالما بمقاصدها ومراميها فلم يستنم فى وقت من الأوقات إليه ولم يعتمد فى جلائل الأمور عليه ولم يعمل قط لتعزيز مصالحه ليقينه أنه مهما بذل من النفس والنفيس فى خدمته فإنه لن يحترمه أو يخشى جانبه إلا بمقدار ما يأنس من قوته. وأنه إذا ضعفت يوما قواعد سلطته وانحلت عرى دولته ولم يعد من اشتداد القوة بحيث يخشى بأسه ويرهب جانبه فإن الديوان السلطانى يقف تجاهه بين أمرين. إما أن يصرفه عن منصة الولاية بشىء من مظاهر التكريم والتعظيم وإما أن يبادر بإرسال خلف له فتعزيزه جانب نفسه بمظاهر القوة والبأس كان فى أسبابه ألصق بالمطامع السياسية منه بالضرورات الحيوية.

وفى الواقع فإنه لم يمض زمن حتى انبرى لتعيين مركزه حيال الدولة العثمانية بأن وقف أمامها وقفة الشبيه بالمستقل وتصرفاته.

وهذه الوقفة كان الباعث عليهاقوة الشعور الفطرى بحفظ الذات لا الميل إلى الاستزادة من البسطة فى الامتلاك والتوسع فى التسلط كما زعم البعض ومعلوم أن الرجل العبقرى ذا النية السليمة = الحسنة = والسريرة الطيبة كان لا يسعه أن يسلك من الباب العالى إلا الخطة التى سار محمد على عليها وبلغ أقصى المدى.

ولقد أخذت العلائق بين مصر وأوربا بعد ذلك تقوى وشائجها حتى لقد أصبح الغرب مطمع أنظار محمد على لايكاد يصرف عنه لفتاته وآماله فى النهوض ببلاده، وسما به حسن الظن فيه ورغبة الاعتماد عليه فى تحقيق هذه الأمنية إلى أن ينوط به وضع أحكم النماذج لإمضاء الإصلاح فى مملكته وإرسال القوَمة على تنفيذها من أبنائه. ولم يقف ذلك المصلح الثابت الجأش الوطيد الإيمان الذكى الفؤاد عند هذا الحد من الشوق الشديد إلى السمو بهذا

القطر نحو شرائف = أشرف = الرتب بين أمم العالم بل أخذ يرسل إلى باريس برسم التعلم فى مدارسها الشبان المسلمين. على أن ينقلبوا بعد تلقيهم العلم إلى أوطانهم لبث ما اقتبسوه منه بين مواطنيهم فى أرجاء الديار المصرية.

ولقد كان مكبا بكل همته على العمل لإنجاح هذه المشاريع الشريفة حينما وكل السلطان إلى عهدته قمع الثورة اليونانية فى حرب كادت تذهب فى أوروبا برونق سمعته، ولكنه كان لا يسعه إلا الانقياد لأوامر أمير المؤمنين فأنفذ فى بادىء الأمر مددا صغيرا إلى ساحات القتال حتى إذا لاحت لوائح الخطر على الدولة العثمانية من جراء تلك الثورة الهائلة اضطر إلى مضاعفة هذا المدد بتعبئة الجيوش الكثيفة وتهيئة عدد القتال حتى اجتمع لديه وقتئذ عشرون ألفا من الجنود النظامية، ولو أنه امتنع عن تسيير هذه القوة كلها أو بعضها ضد اليونان لجر إلى نفسه مقت المسلمين جميعا واستنزل عليها سخطهم. وفى السادس عشر من يوليو سنة ١٨٢٤ تحرك الأسطول المصرى مؤلفا من ٦٣ سفينة شراعية ومائة نقالة تنشر مختلف أعلام الأمم الأوروبية إلا الأمة الفرنسية قاصدا على شبه جزيرة مورة مقلا ستة عشر ألف رجل من المشاة النظامية وسبعمائة جواد وأربع فرق من رجال الهندسة وهذا غير مدافع الحصار والميدان.

وعهدت قيادة هذه الحملة إلى إبراهيم باشا فكان أول ما نهض به من الأعمال تقليم أظافر الثورة فى جزيرة قنديا وقمع الخوارج فيها. وكان فى معاركه بموره موفقا للنصر المبين كثير الرفق بأهلها من اليونان بارا بالإنسانية. وهذه حقيقة لاريب فيها رغم ما أذيع من نقيضها تشويها لسيرة ذلك القائد فإنه لم يخالف قط فى قتالهم القوانين المرسومة للحرب عند الأمم المتمدينة. على أن الحرب فى بلاد اليونان ختمت بشر خاتمة للدولة العلية إذ أفضت الى تدمير الدوننمة المصرية فى واقعة (نافارين) وزوال رسم الدوننمة العثمانية على بكرة أبيها.

ولا يسع المتصدى إلى الكلام على الثورة اليونانية أن يفضل إلا الإشارة إلى ما عومل اليونانيون به من التسامح والكرم أثناء قتال المصريين لهم.. لأنه بينما كان ولاة المملكة العثمانية ما عدا محمد على يفحشون فى سوء معاملتهم ويسومونهم خطة خسف إجابة لداعى التعصب فقد كان والى مصر يحوطهم

بعنايته ويحفهم برعايته.

خذ مثلا على قبح سيرة أولئك الولاة ما ارتكبه والى عكا من تدميره لكنيسة جبل الكرمل وأخذه نصارى الشام بوسائل الشدة والعنف وماجناه والى قبرص من ملاحقته المصريين من أهلها على الاحتفاظ بعقيدتهم المسيحية بالقتل والاضطهاد والزج فى السجون حتى لقد سالت من جراء ذلك فى جميع أرجاء المملكة دماء الأبرياء، ثم قارن بما كان حاصلا فى مصر فإنك لاتلقى صعوبة ما فى استنتاج الحقيقة الآتية: هى أن اليونانيين ظلوا متمتعين برعاية محمد على بل بلغ من الأمر أن اخذت أسر المنكوبين منهم بتلك الاضطهادات فى بلاد الدولة العلية تفد على مصر زرافات وشتى فتجد فيها الحرز الحريز والملجأ الأمين والمقام الطيب للعيش فى ظل الهناء والنعيم.

على أن كارثة نافارين لم تفت فى عضد محمد على ولم تكسر من شكيمته . كلا بل أنها كانت له خير معوان على الاستفادة وتقدير قوته وصلابته وبسالته بالنسبة لغيره من الجيوش. لهذا سارع إلى سد ما ما أحدثته الخسائر الفادحة فيه من الثغرات العديدة وأخذ العدة للحوادث المستقبلة بإنشائه بالإسكندرية فى وقت قصيرجداً دوننمة جديدة جاءت أعظم وأفخم من التى دمرت فى واقعة نافارين .

وفى بداية حروب محمد على فى شبه جزيرة موره كان االباب العالى قد وعده بالشام جزاء ما يقدمه من الوزر = العتاد = له. إلا أن الحكومة العثمانية لم تف بهذا الوعد مقتصرة على إعطائه جزيرة قنديا. وكان محمد عى ينفس من جهة أخرى على عبدالله باشا والى عكا وأكبر ولاة الشام بعض الأمور، ومما هو جدير بالذكر عن هذا الوالى أن السلطان غضب عليه فى سنة ١٨٢٢ ثم عفا عنه برجاء من محمد على. فبدلا من أن يعرف له هذه اليد لجَّ فى إظهار العداء له وانتهز لذلك كل نهزة = فرصة = فمن ذلك أنه كان يمنح عضده = مساعدته = للمهربين على حدود مصر ويدلى إلى سكان الشرقية بالمال لجر المنافع بواسطتهم إليه، واستدرج ستة آلاف منهم إلى هجرة مواطنهم للسكنى فى ولاية عكا فكتب محمد على إليه ملحا فى ردهم إلى أوطانهم فكان جوابه أنهم لما كانوا من رعايا السلطان فسواء عليهم أقاموا بمصر أو بالشام. فرأى محمد على فى هذه اللهجة ما أثار كامن سخطه وأوجب تذمره فكتب يقول له

بأنه إذا لم يوجه بهم إليه حضر بنفسه لأخذهم جميعا زائدا عليهم واحدا . وكان يعلم من جهة أخرى ما اعتزمه الباب العالى من مهاجمته وقتاله فاغتنم فرصة الحادث المتقدم ليتقى شر هذه النية حتى لا يكون تنفيذها على غرة منه.

وفى الثانى من نوفمبر سنة ١٨٣١ تحرك نحو الشام جيش مؤلف من ٢٤٠٠٠ جندى من المشاة وأربع أورط من الفرسان وأربعين مدفعا من مدافع الميدان وأكثر منها عددا من مدافع الحصار وعقدت لإبراهيم باشا القيادة العامة على هذا الجيش. فما هى إلا أيام حتى وقعت مدائن غزة ويافا وحيفا فى حوزته. أما عكا وهى التى لم يوفق نابوليون لأخذها أثناء حملته على الشام فقد قاومت إبراهيم باشا ستة أشهر وصالا. إذ استولى عليها فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣١ وكان الرأى العام فى الآستانة قد بدأ يوقن أن من المستحيل أخذ ذلك الثغر فلما انتهى إليه خبر ذلك الفوز أعلن فى الأوامر الشاهانية اعتبار محمد على عاصيا على الدولة وخارجا على الملة. وكان قد بدىء بتسيير جيش كبير لقتال ابنه إبراهي. ففى ٨ يوليو سنة ١٨٣٢ مزق إبراهيم فى حمص فيلقا كبيرا من فيالقه وألحق به الهزيمة . وكانت واقعة حمص هذه المعركة الأولى من المعارك التى التحمت فيها جيوش شرقية مدربة على الطراز الاوربى. وقد بلغت خسارة الأتراك فيها ألفى قتيل وألفين وخمسمائة أسير ولم تتجاوز خسارة المصريين مائة قتيل وقتيلين وأقل من مائتى جريح. وبهذه المناسبة كتب إبراهيم وقد أخذته نشوة التحمس إلى والده ما يأتى: «ولا أتردد فى القول بأن مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف من أشباه هذه الجنود لن يكترث بهم ولن يخفق لنا فؤاد بالخوف منهم».

ولم يمض زمن طويل بعد واقعة حمص حتى هزم إبراهيم فى بضع ساعات الجيوش العظيمة التى سيقت لقتاله فى مضائق بيلان تحت قيادة الصدر الأعظم حسين باشا فاستولى على هذه المضائق التى فتحت له أبواب جبال طوروس. وفى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٣٢ فتك فى قونيا بالجيش العثمانى الجديد المؤلف من ستين ألف مقاتل تحت قيادة رشيد باشا فى حين أن جيشه كان أقل من ثلاثين ألفا وأسر هذا القائد.

وقد فتح إبراهيم فى قونيا له طريق الآستانة. فلما رأت الأمم الإسلامية هذا

الأمر أجمعت على دعوة محمد على إلى الأخذ بزمام الدولة فلو أنه أراد إسقاط الأسرة العثمانية من علوة عرشها لفعل لوعرض فى هذا السبيل عارض، ولكنه كان معتدلا فى مطالبه. إذ لم يطلب بعد هذه الانتصارات المتوالية إلا ماطلبه قبلها من إعطائه ولاية الشام. وكان ابراهيم باشا قد بلغ إلى كوتاهية أى أنه صار على مسافة خمسين فرسخا من دار الخلافة فارتاع السلطان لهذا النبأ وانهدَّ ركنه وفقد صوابه وتولاه اليأس فلم يجد سوى أن يلقى بنفسه فى أحضان روسيا ملتمسا منها الذود عن حياضه فانفذت هذه الدولة إلى الآستانة جيشا مؤلفا من عشرين ألف مقاتل لوقايتها من عادية المصريين فكان من ثمار هذا التداخل عقد معاهدة (انكيار أسكله سى).

وكانت الأزمة خطيرة والمسألة آخذة فى التحول من الصيغة الشرقية المحضة إلى صيغة أوروبية - أى دولية . فإن الدول الأوروبية وفى مقدمتها فرنسا التى كان المسيو (ميمو) وكيلها فى الإسكندرية يؤيد محمد على تداخلن فعلا بين هذا الوالى والسلطان محمود. فكانت نتيجة تداخلهن أن تنازلت الدولة العليا لمحمد على بضمانتهن عن بلاد الشام وإقليم آطنه مقابل اعتراف بالتبعية إليها وتعهده بدفع جزية سنوية إلى خزينتها تعادل الجزية التى كان يدفعها ولاة الشام السابقون . وكان تحرير الاتفاقية بذلك فى ١٤ مايو سنة ١٨٣٣.

ولقد كان إلحاق سوريا بمصر من الأمور الضرورية لتأمين الأملاك التابعة لوالى مصر، وإذا كان من الحقائق التى لامراء فيها ماينجم من الفوائد والمزايا للمدينة بوجه عام من جعل مصر مقر دولة مستقلة . فمن البديهى ان لايستطاع الوصول إلى هده الغاية إلا بضم سوريا إلى مصر . وأن نظرة واحدة فى طبوغرافية القطر المصرى من الوجهة الحربية لتنهض دليلا على أن الأمن والسلامة من غارة المغيرين عليه كان من المتعذر إذا لم يكن من المستحيل توافرهما خصوصا من ناحية برزخ السويس مالم يكن ذلك الانضمام أمرا واقعيا. وليس فى هذا القول أثر من المبالغة ولا التهريف. فإن جميع المغيرين الذين أغاروا على مصر (ماخلا عرب الغرب من الفاطميين ورجال الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت) مثل قمبيز ملك الفرس والإسكندر والعرب فى صدر الإسلام والأيوبيين والأتراك. إنما طغوا عليها من ناحية الديار السورية

فلم يكن بمستطاع مع هذه الحالة صيانة القوة الحيوية لمصر المستقلة من عادية المغيرين إلا إذا تناولت حدودها حدود سوريا، وتم الإجماع على أن حدود مصر الحقيقية لم تنته ببرزخ السويس بل بجبال (طوروس).

يؤخذ مما سلف أن محمد على أراد بالحرب التى أضرم نارها فى سنة ١٨٣١ أن يخطط الحدود الطبيعية للدولة العربية الجديدة وكان يتبقى له ليكسب العمل الجليل الذى قام به صفة الدوام والاستمرار ـــ اللذين هما فى السياسة قوام جلائل الأعمال وملاكها أن يعمل لتوثيق أركان الأسرة التى ستحظى بالقبض على زمام هذه الدولة الفتية المترامية الأطراف الى أقصى مدى.

أما السلطان محمود فكان لما دب فى نفسه من الحنق على والى مصر لايفكر إلا فى أمر واحد. ألا وهو العمل لإسقاطه من علوة مجده وأوج شوكته وكان لايكف تحقيقا لهذه الأمنية عن بث الفتن فى البلاد السورية ونسج الدسائس التى قضى إبراهيم باشا فى تلافى خطبها سنوات متعاقبة، فقد كان ذلك السلطان يصدم مصالح محمد على بمصالح الدول بمنحهن من المعاهدات التجارية ما كان يرجو من وراء تطبيقه فى مصر إثارة مصاعب وخلق مشاكل من شأنها أن تحرج مركز ذلك الوالى أيما إحراج . وبعد انقضاء خمس سنوات فى صراع خفى بين التابع والمتبوع كان الثانى منهما فى أثنائها قد تمكن من إعادة تنسيق جيشه وتجديد أسطوله قديرا على سرعة . ولم يتوان. فقد سير فى بداية سنة ١٨٣٩ إلى الشام السر عسكر حافظ باشا الذى لم تلبث جيوشه أن تحطمت عند أول ارتطام لها بصخرة الجيش المصرى فى واقعة نصيبين الشهيرة الخالدة الذكر.

ومنذ عام طرأت فى الشرق حوادث لم تكن منتظرة، وكلها من الأسباب التى جعلت تحقيق أحلام محمد على وإصابته الغرض الذى كان يرمى إليه أمرا محتوما . نذكر منها وفاة السلطان محمود فى الوقت الذى تمزق جيشه فيه كل ممزق، وانحياز الدونانمة العثمانية إلى محمد على واضطراب السياسة الأوروبية لهذا الحادث المفاجىء والكوارث التى نزلت بالدولة العثمانية لاستمرار الحالة فيها على وتيرة واحدة، ومانشأ عن ذلك كله من الشك فى استقرار السلام العام على قاعدة ثابتة.

ومن المسائل المسلـم بها لبداهتها أن محمد على. وهو ذلك الـرجل العظيم أنقذ مصر مـن شر الفوضى ولقحها بلقـاح الحضارة العصرية ووثـق أركانها بقـوة عسكريـة هـائلة يـرجع إليهـا فضـل استقلالها، واستكمـل الشروط الجغرافية لهذا الاستقلال بفتحه الديار السورية ومده أفق مصر إلى القاصية من حـدود هذه الديـار . فماذا كان ينقص الدولـة المصرية الحديثة التـى هى ابتكار فكره وصنع يده وثمار الغرس الذى كان قد غرسه ..؟ كان ينقصها أمر واحد ألا وهو ضمانة الاستقرار والاستمـرار والأمن فى المستقبل لها . ثم كان يعوزها من جهة أخرى جعل حياتها قيد ضمانة المعاهدات المصدق عليها من الدول، وأن يفضى بالسلطة العليا المحدثة من العدل إلى محمد على وحصرها فى سلالته لـلاحتفاظ بها وصيانتها مـن الضياع . ذاك هو ماطلبـه محمد على وذاك مايقتضيه العدل، وتستـدعيه الحضارة. بل ذاك ماستخولـه إياه قوة الشىء الواقع وهو ما يسمو الأمل إلى اقامة الدليل عليه فى أكثر من موضع من هذا الكتاب.

محمد على وأسرته

أرى من اللائق أن أعّرف القراء بالأسرة المجيدة التى أصبح حظ مصر مرتبطا بها إرتباطا لافكاك له.

ذكرت فيما سبق أن محمد على ولد فى سنة ١٧٦٩ ببلدة قوله. فهو يبلغ من العمر الآن الحادية والسبعين.

وهو ربع القامة لايتجاوز ارتفاع قامته خمسة أقدام وبوصتين بدين الجسم دموى المزاج عصبيه الى الدرجة القصوى. كان شعر رأسه ولحيته فى إبان شبابه على شىء من الصهوبة. مكشوف الجبهة بارزها وفى حاجبيه نتوء ظاهر. أما عيناه فكستينائيتا اللون فى صفاء ووضوح وغائرتان فى الحاجبين. متوسط حجم الأنف فى سعة وانتفاخ عند المنخرين. صغير الفم. ملتوى الشاربين فى طرفيهما أبيض شعر اللحية فى غير كثافة ويتألف من مجموعة هذه الملامح فيه سحنة محبوبة جذابة للدرجة القصوى، ووجه تبدو فيه نضرة الحياة وعلائم الحركة والقوة، وله عينان نفاذتان شيمتهما البحث والتنقيب، وفى منظره العام مايدل على دقة الفكر ورقة الشعور وشرف الميول.

ولمحمد على يد صغيرة جميلة مفتولة الأصابع، وقدم صغيرة كذلك وهو حسن الخلقة تنم مشيته على الوثوق بالنفس وتدل على مايطلب فى الجندى من الضبط والنظام العسكريين. إذا سار دفع إلى الأمام طرف القدمين محترزا عن تحريك جسمه إلا بمقدار ماتقضى الضرورة به فى نطاق ضيق تكاد تتلامس جوانبه، وإذا وقف وقف مستقيما واضعا إحدى يديه فى الأخرى وراء ظهره ومما يحسن بنا فى هذا المقام ذكره لأنه غير امألوف عند الأتراك ميله الى الرياضة والفسحة بداخل حجرته. وهو إذا وضع عمامته على رأسه جعلها منحرفة قليلا إلى الجانب الأيسر منه، ومع أنه يكره التحلى بعلامات الشرف والرتب ويرغب عن لبس الثياب المزركشة بأسلاك الذهب على العادة الشائعة عند العثمانيين فهو شديد الحرص على نظام ملابسه وهندامها. وبالجملة فإنه فى أحواله وأطواره وسلوكه ومعاملته يتوخى السهولة

والبساطة فى رفعة قدر وعزة نفس، وهو مسلك العظماء والكرماء.

ومحمد على سريع الخاطر حاضر الذهن شديد الإنفعال لايستطيع أن يكتم ما تتأثر به نفسه من الشعور = المشاعر = المختلفة، ومن ثم كان مطلق الحرية فى القول. حريصا عى الصدق فيه بعيدا عن التكتم بقصد المكر والخديعة غيورا على كل ما له مساس بالكرامة . صادق الوعد بعيدا عن مظان الغدر. طلق اليدين يدفعه حب البذل أحيانا الى السرف. وهو لطيف المعشر حلو الحديث بلا تكلف.. شديد الرفق بأبنائه. يعيش معهم فى داره على البساطة والتقشف كأنه أحد أفراد الطبقة الوسطى. أما رقة الإحساس فبالغة من نفسه إلى الدرجة القصوى، ولولا أننى شاهد عيان لفضائلة العالية لتعذر على أن أقدم إلى ذهن القارىء فكرة ماعنها أو عما انطوى عليه قلبه من العطف والرحمة والبر بالناس أجمعين.

لايصرف العزاء عن فؤاده ـ مهما حسن ـ أثر الحزن على فقد ولد له. وقد كان هذا شأنه كلما اتصل به نعى قرين له فى الحروب. فإن عينيه كانتا تهميان بالدموع لسماع هذه الأنباء. شديد العطف على مستخدميه وكل من ارتبطوا معه برابطة التعارف يبالغ فى عطفه عليهم إلى حد الحنان الأبوى، وقلما يقر القرار الأخير على إنزال العقوبة بأحد لأخذه بالعفو فى أغلب الاحوال الهفوات والهنات إلى ما عظم منها فى زوايا النسيان.

شغف بالمجد والفخار فلم يشغله من أمر نفسه حسن الذكر فى حياته فقط . بل أيضا بعد وفاته. ومن عادته حب الإطلاع على ما يكتب فى الصحف فتراه يشدد على المترجمين بالعناية فى نقلها إليه ليلم بما تتضمنه من مختلف الآراء والانباء وكثيرا ما يقرأها بنفسه. وهو لا يعبأ بما يذاع عنه من الترهات والأباطيل .لأنه يرى همته فوق الأقوال والتخرصات.. ومن شيمه مواصلة العمل طوال النهار. فإذا عمد إلى فراشه لينام لاتغمض جفناه منه إلا قليلا إذا أن نومه مضطرب تتخلله اليقظة من حين إلى آخر. وفى الساعة الرابعة بعد نصف الليل يغادر سريره ويلبس ثيابه ويتهيأ لمباشرة الأعمال فأول ما يتلقى منها التقارير العديدة التى تصل إليه من رجال الحكومة فيملى على النواميس مايعن له من الأجوبة عليها، ثم يتفرغ لعرض الجيوش فزيارة الورش والمعامل والمعاهد المختلفة فيتفقد فيها الأعمال الجليلة التى جعلها أسس الرقى لبلاده وأمته.

ومما يؤثر عنه من الفضائل والمحامد صدق التمييز وسلامة الذوق فى الأعمال واستقامة الحكم وصواب الرأى وسرعة الخاطر فى المناقشات المعضلة والمسائل المختلفة. حتى التى لم يسبق له أن يطرقها ببحث أو تمحيص. ومتى انتهت المناقشة تبين أن الصواب كل الصواب فى رأيه . وفى تاريخ حياته السياسية الطويلة البراهين الكثيرة على ذلك.

وهو بارع فى الحساب مع أنه لم يسبق له أن درس العلوم الرياضية ، ومعلوم أنه لم يبدأ تعلم القراءة إلا فى الخامسة والأربعين من عمره. وهذا بلاشك أجمل ما يذكر من تاريخ حياته. على أنه لم ينفق فى الحصول على غرضه من التعليم وقتا طويلا ولا عناء كثيرا. وما كاد يضرب بسهم فى القراءة والكتابة حتى تفرغ لدرس التاريخ، وكان أهم ماشغله منه تاريخ الإسكندر ونابليون بونابرته. ومع أنه غير ملم بلغة أجنبية ما فقد بلغ من حدة ذكائه وثقابة فكره أن يستطلع بمجرد النظر فى عيون محدثيه من الأوروبيين مضمر رغباتهم قبل أن يتم المترجمون نقلها إليه، ومن أبعث الأمور على سروره التحدث مع الأوربيين والمتعلمين والمتنورين وهو يعالج معهم أرقى المسائل وأعضلها فيدرك حقائقها بدقة تشهد له بالبراعة.وطول الباع.

وهو شديد التمسك بدينه من غير تعصب ولاتنطع، ولقد أظهر دواما من التسامح نحو الأديان جميعا ماهو مشاهد بالعيان، واتخذ من الوسائل ما كفل للمسيحيين الاحترام والتوقير وأولى البعض منهم مودته ووضع فيهم ثقته ورفعهم إلى شرائف الرتب وسلمهم مقاليد الحكم والقيادة وأنعم عليهم برتبة البيكوية ولكى يتغلب على ما تحكم من التقاليد الباطلة فى نفوس حاشيته وشعبه الذين كانوا ينفسون عليه عطفه على الأجانب تدرع بالشجاعة والإقدام لمكافحة تلك النزعة فيهم.

ومحمد على سهل الأخلاق يتحرى البساطة ـ كما قلت ـ داخل بيته فتراه فيه يقطع فراغ وقته بلعب الشطرنج أو الدامة، وهما اللعبتان اللتان برع فيهما وفاق على النظراء والمنافسين.. وكثيرا ما كان يلعب متواضعا مع الضباط ذوى الرتب الصغيرة وأحيانا مع الجنود. ولقد فزت بشرف اللعب معه بلعبة الورق. فما وجدت منه إلا الإيناس والعطف والمجاملة. ومن أحب الملاهى إليه ركوب الخيل. فإذا ركبها أحسن الاستواء عليها وأظهر الخفة والرشاقة فى الركض بها.

ولم أطرق حتى الآن باب الكلام على مزايا محمد على وفضائله فى الحروب. والذى أجمله فى هذا الموضوع إن فى تاريخ حياته الذى علمنا منه كيف خرج من صفوف الجيش ووصل ببسالته وفضله واستحقاقه إلى أسنى المراتب وأعلاها مايغنينى عن الإفاضة فيه. على أنه فى وسعى أن أثبت هنا أن من أبلغ تلك الفضائل التى تحلى بها وفاق على عظماء الرجال البسالة التى كثيرا ما كانت تدفع به الى الاستهتار بالنفس فى اقتحام الأخطار سواء فى ميادين الحروب أو فى أحوال المعيشة اليومية.

وغنى عن الذكر جهله معنى الخوف. فإنه فى بدء حياته العملية كثيرا ما اقتحم الأهوال وغامر بحياته، ولقد شهدته العام الأخير متأهباً، مع تقدمه فى السن ، للرحلة الى جهة فازوغلى بالسودان - أى لقطع مسافة لاتقل عن ستمائة فرسخ بينها وعاصمته متخللا شعاب النيل التى أرتطمت بها سفينته فألقى بنفسه فى الماء وسبح فيه حتى إذا بلغ إلى البر سالما امتطى إحدى النياق وقطع بها أجواز الفلوات تحف به الأخطار والمصاعب الكبار من كل جانب.

ومما أكبر شأن محمد على ورفع مكانته الأزمة السياسية الحالية التى لفتت نظر أوروبا إلى الشرق فإنه لم يمر وقت من حياة هذا البطل حفت به فيه أشباه هذه الحوادث الخطيرة . ولاريب أن نفوذه الذى أخذ يمتد أفقه شيئاً فشيئا قد ترامى إلى الأطراف البعيدة بحيث شمل الأقطار الأوروبية بأسرها فهو الآن كالرومانى فى أيام شوكة رومية يحمل الحرب أو السلم فى إحدى ثنيات ثوبه، فيه الآن قد نيط التوازن الدولى بالبلاد الأوربية. ولقد تمكن من خلال هذه الحوادث الجليلة من أن يرفع نفسه - بحذقه العملى وحسن تدبيره وكرم تسامحه واعتداله - إلى مستوى فحول رجال أوروبا وأوسعهم خبرة وأشدهم عارضة . ولقد أقام الدليل — بما امتاز به كل سياسى صحيح الرأى فى العهد الذى نعيش فيه الآن - والذى خففت فيه رايات السلام من العقل والرصانة . على أن صدق رويته وبعد نظره فى العواقب لم يكونا فى شىء من الحياء والاستكانة، وإنه بما وهب من سعة الحيلة قد أيد بثاقب فكره المستمد من حسن فطرته ذلك المثل القديم الذى جاء فيه «إن ترد السلم فتجهز للحرب» فهو وحده يرسل نظره القصى فيدرك به مغبات الأمور وهو وحده

الذى إذا عنت حاجة انبرى لقضائها. ولا يخطرن ببال أنه يجد فى أحد وزرائه عضدا أو سندا . نعم إن جملة منهم لا يختلف اثنان فى كفاءتهم وقدرتهم على إمداده بالنصائح الرشيدة والمنشورات الصائبة ولكنهم إذا رأوا أنفسهم فى موقف محفوف بمثل الصعوبات والمشاكل الحافة بالموقف الحاضر لايجرأون على تحمل مسئولية رأى قاطع أو الإقرار على عمل جازم . فمحمد على لايجد خير العون والوزر إلا فى نفسه، ولايتلقى الوحى إلا من حدة ذكائه وطيب سريرته.

ولسنا بمبالغين إذا أكدنا أن محمد على من فحول الرجال وأنه أكبر من أنجبهم الشرق وامتازوا بالعبقرية العالية.

إبراهيم باشا

إبراهيم، باشا هو بكر أبناء محمد على. فمن الافتراء المحض ما أشيع من أنه ابنه من طريق التبنى. وكان ميلاده ببلدة قوله فى سنة ١٧٨٩ أى بعد زواج والده من والدته بعامين.

فإبراهيم باشا يناهز من العمر الآن الحادية والخمسين وهو ربع القامة طول قامته خمسة أقدام وبوصتان. متين البنية. جيد الفصوص. شيبته قبل الأوان متاعب الحروب ومشاقها بعد أن كان شعر رأسه ولحيته أشقر جمريا ، مستطيل الوجه طويل الأنف مستدق أزرق العينين فى وجهه أثر الجدرى.

مزاجه دموى صفراوى، ومن ثم جاء ميله إلى الجد بالرغم من تفرغه فى بعض الأحيان إلى شيء من المطايبة وحب الضحك. جهورى الصوت لم تتوافر فيه لهذا السبب ماتوافر فى والده من السماحة والهشاشة حتى أنه إذا أقبل عليه أحد شعر بما يسقطه فى نفسه ولو لم يلق فى استقباله شيئا من الجفوة والصلابة والمكروه.

تلقى إبراهيم التربية التى كانت تعطى فى زمنه إلى الأمراء من أبناء المشرق. فهو ملم باللغات التركية والفارسية والعربية يتكلم ويقرأ ويكتب بها من غير عناء. دع إحاطته بتاريخ أمم المشرق واضطلاعه به الاضطلاع التام.

وما ناهز السادسة عشرة من عمره حتى عهدت إليه قيادة الجنود وإدارة بعض الأقاليم . فإذا زج ـ وهو فى مقتبل العمر ـ إلى ميدان العمل فمن السهل

الحكم بأن مزاولة الأعمال الحربية والإدارية كانت عنده من الأمور المألوفة وانه بما اكتسبه من الخبرة قد أحاط بتفاصيل أعمال الحكومة فى مصر وعنّت له فيها آراء كثيرة تنطبق على الحقيقة والعمل.

وفى سنة ١٨١٦ سلم إليه زمام الحملة على الوهابيين فقام بها قياما حسنا بانتصاراته المتعاقبة عليهم. وقد قوبل بالقاهرة فى عودته بما يقابل به الظافرون والفاتحون. ولما شرع والده فى إدخال النظام الأوربى على الجيش كان هو أول المقبلين على تعلم قواعده والعمل بمقتضياته. فكان يحضر التمرينات والمناورات العسكرية التى أكسبته من البراعة ما جعله جديرا بتقلد القيادة العليا للجيش، وقد أحاطه علمه بكل شىء من ذلك لافرق بين أصغر الجزئيات وتحريك السلاح وحركات الجيش الشديدة الصعوبة.

وكان حينما عين قائدا عاما للحملة ضد بلاد موره قد برع فى ذلك براعة تامة . وفى خلال هذه الحملة أضلت الصحف سواء السبيل فى الحكم عليه وإبداء آرائها بشأنه لغيرته الدافقة على قضية تحرير الأمة اليونانية فإنها مثلته لقرائها فى جلد الضوارى المفترسة السافكة الدماء . مع أنه يصعب جداً إيراد حادث واحد حقيقى يمكن الاستناد عليه فى توجيه التهمة إليه بارتكاب الشدة والقسوة ضد أحد . ثم إن الميل إلى الفظائع لايتفق أبداً مع ماعرف عن إبراهيم باشا من البسالة المقرونة بالتؤدة والكرم.

ولقد كانت حملة موره له بمثابة مدرسة تلقى فيها الدروس النافعة. فإنه زج بها فى أحرج المراكز. ولما كان النصر فى المعارك السالفة حليفا له على الدوام، وكان يعتقد أنه القابض على ناصية الفوز يتصرف فيه كيف يشاء فقد تولد فى نفسه لهذه الأسباب شىء من الصلف والخيلاء لم يلبث أن تلاشى بتأثير تلك الدروس التى زادته حنكة وتجربة بتصويره الحرب لناظره فى أوضاع وأشكال لم تكن معلومة له من قبل. ولقد سره كل السرور ما شهده من الجنود الفرنسية إذ قد أتاحت له الفرصة التعرف بالجنرال (ميزون) والجنرال (سبسيانى) وكثيرين من الضباط الفرنسيين الذين أيقنوا عقب الاختلاط به بكفاءته العالية ودرايته بالشئون العسكرية على أنه أستفاد الفوائد الجليلة مما لقيه فى طريقه من المعاثر والعقبات. وكان الاعتقاد الشائع فى الشرق وقتئذ أن فرسان الأتراك أحكم نظاما وأرفع شأنا من فرسان

الأوربيين. فما عتم إبراهيم أن تحقق بنفسه فساد هذا الرأى، واعتقد أن الفرسان إذا نزلوا فى ميادين القتال صفوفا وألفوا من صفوفهم فرقا زحفوا للقتال جماعات متكاثفة بمقتضى تدبير حربى دقيق فإنهم يحصلون فى تلك الميادين على نفس المزايا والفوائد التى يحصل عليها المشاة العاملون بمقتضى الحركات المبنية على العلم والدقة. لهذا لم يلبث عقب عودته إلى مصر أن صرف همته إلى تنظيم الفرسان ورغب فى أن تكون تحت يده الأسلحة الأساسية فكانت نتيجة عمله تشكيل فرق المشاة والرماحة وفرسان الدراغون والفرسان المدرعين.

وبعد عودته من اليونان بقليل بدأت الحملة على سوريا وغنى عن البيان أن فتحه لهذه البلاد وانتصاراته التى فاز بها لما يرفع شأنه ويؤيد ما اشتهر عنه من البسالة وسعة المعلومات العسكرية.

ولما أتم الفتى بالسلاح بدأ بفتح آخر لم يكن بأقل من الأول سهولة ولا أدعى إلى الشرف والفخر. وأريد به تنظيم البلاد المفتوحة . فإنه لكى يصل إلى هذا الغرض قرر القيام بأعمال ذات مساس بالسياسة العالية إذ وحد أنظمة الحكومة وراعى أصول المركزية لإدارتها فتنقت = فتخلصت = بذلك من صغار الزعماء والرؤساء الالتزاميين الذين كانوا يسيرون بين الناس بالجور ويذكون، فى تلك الولاية الواسعة الكثيرة الخير والبركة نار الاحتلال والفوضى. وجرد جميع القبائل من السلاح عندما أيقن أنهم لا يستخدمون سلاحهم هذا إلا فى قتل بعضهم بعضا وتهديد الأمن والنظام العموميين. فبهذه الأعمال وبما قرن تنفيذها به من الحزم والثبات نشر ألوية الأمن على ربوع الشام بعد أن حرم منه أهلوه أحقابا طويلة فبفضل محمد على وثبات حكومته تمتعت بهذه النعمة جميع البلدان التى مد عليها رواق حكمه.

ولقد عرض لإبراهيم باشا أن يقمع فى بلاد الشام جملة من الفتن والثورات، ولاسيما ماشب ضرامه منها بمدينة نابلس وجبل الدروز. وكانت فتنة هؤلاء على أشد ما تكون من الهولة والفداحة، وشهدنا بالعيان قمعها فاستطعنا أن نرى عن كثب ما أيد حسن ظننا فى إبراهيم ورفقه با لمغلوبين. وليس فى وسع أحد أن ينحى عليه باللوم بحجة أنه ارتكب أمرا يخالف مقتضيات الإنسانية فإنه لم يعمل قط ما يستهدفه للوم اللائمين.

وكان جم الرحمة بالرغم مما أذاعه المفترون والقائلون عنه ووجهوه إليه من تهم دل على فسادها أن أربابها لم يجسروا على الإعلان عن أنفسهم. فإنه غير خفى ولا بمكنون اهتمامه المتواصل بإنشاء المستشفيات وغيرها من المعاهد المقصود بها محض البر والإحسان. ومن فضائله التى عرف بها تعلقه بمن يأنس فيهم الخير من الناس وصدق وفائه فى مودته إلى الحد الذى تسقط معه الكلفة، وبغضه الشديد لمن يتقرب إليه من حاشيته بالتملق والمداهنة. وإذا أطريت صفة من صفاته النفيسة فإنما أطرى ما عهدته فيه بنفسى من الدأب الغريب على العمل وحدة الذهن والشغف المطلق بالترتيب والاقتصاد والنظام. وإنك تراه لما عالجه من صنوف المتاعب وعاناه من أنواع المشاق لايحفل بوسائل الوقاية لنفسه أو العناية بها حتى استمكنت منه الآلام الروماتيزمية بمعيشته كمعيشة الجندى البسيط فى المعسكر ونومه على الأرض بالرغم من الصقيع والمطر والبرد. وما من جندى فى جيشه إلا وهو يحبه حبا مفرطا ويخلص له حتى لكأنه يؤثر فى عساكره تأثيرا يجذبهم إليه بقوة سحرية لادافع لها.

وفيما عدا تلك الصفات العسكرية امتاز إبراهيم بفضيلة لايستهان بها فى أمير سيقبض يوما على صولجان الحكومة المصرية ألا وهو حبه للزراعة . فإنه ما التمس الراحة من فراغ وقته أثناء الحروب التى عهدت إليه قيادة الجيوش فيها حتى كان همه الوحيد الاشتغال بالزراعة دون غيرها وتشجيعه من يهتمون بشأنها.

وآخر واقعة فاز إبراهيم فيها بالنصر المبين كانت واقعة نصيبين. وقد استقرت بهذه المعركة الولاية العامة على مصر والشام لمحمد على وذريته من بعده، ومما لاريب فيه أن إبراهيم سيقوم بأعبائها خير قيام متى دعاه الحظ أن يخلف فيها والده العظيم.

أمراء الأسرة المحمدية العلوية

إن ثانى أبناء محمد على هو طوسون باشا المولود فى (قوله). اشتهر هذا الأمير بالكرم والبذل اللذين ذهب فيهما مذهب الإسراف. والكرم عند الشرقيين من الفضائل الرئيسية، فليس بغريب أن يكون طوسون باشا محبوبا عند الناس . ولقد توفى عن ابن له هو عباس باشا المولود فى سنة ١٨١٣ وهو الآن

حاكم القاهرة ومحافظها.

ورزق محمد على وهو فى (قوله) من زوجته والدة إبراهيم وطوسون ابنا ثالثا هو اسماعيل باشا الذى مات فى حرب (سنار) بلا عقب ،ورزق منها أيضا ابنة تبلغ من العمر الآن أربعين سنة يقال إنها تشبه والدها كثيرا فى صفاته الجثمانية والنفسية ،وهى الآن أرملة عن زوجها محمد الدفتردار بك. وكانت كثيرة التعلق به فلم تتزوج بعد وفاته تكريما لذكراه وإعرابا عن أسفها لفراقه. وهى تقضى الآن حياتها فى عمل المبرات التى هى أجمل حلية للنساء وتستميل الناس إلى محبتها بفيض إحساناتها وعميم خيراتها.

ورزق محمد على فى مصر عددا كبيرا من الأبناء أكبر من بقى منهم على قيد الحياة سعادة سعيد بك المولود فى سنة ١٨٢٢. وقد امتاز هذا الأمير بمحاسن الخصال وكرائم الشيم وهو جميل الخلقة لولا أن فى عينيه آثارا من مرض أصابهما شائع فى مصر بين الأطفال . وقد اعتنى بتربيته والده على أقوم المبادىء وتنشئته التنشئة الحسنة فإنه بعد أن تلقى اللغات الشرقية تفرغ لدراسة الرياضيات والرسم والسباحة، وتعلم كل ما يطلب تعلمه من ضباط البحرية.

وقد تدرج فى مراقى هذا السلاح بعد الامتحان والاختبار. يجيد التكلم بلغتنا = بالفرنسية = كما يجيدها أحد أبنائنا ويبدو منه كثيرا ماهو معروف عن شمائل الفرنسيين، والمنظور له أن يكون فى يوم ما على رأس البحرية المصرية كوزير لها أو قائد عام لأسطولها (أمير البحر).

أما الباقون من أبناء محمد على فهم بنت ولدت فى سنة ١٨٢٤ وحسين بك المولود فى سنة ١٨٢٥ وحليم بك المولود فى سنة ١٨٢٦ ومحمد على بك المولود فى سنة ١٨٣٣.

وهؤلاء الأمراء جميعا على شىء كثير من حسن الخلقة وجمال الصورة واتقاد الذهن وحدة الذكاء. وليس من المستطاع لأحد غيرى ـــ بالنظر لمخالطتى إياهم الزمن الطويل واختبارى أخلاقهم ـ الحكم على ماتوافر فيهم من حلاوة الشمائل ورقة العواطف ومحامد الخصال التى يتحلى بها الأطفال.

ولإبراهيم باشا ثلاثة أبناء البكرى منهم أحمد بك المولود فى سنة ١٨٢٥

وهو شديد الشبه بوالده ولكنه سيكون أقل منه بدانة جسم. وقد تعلم تعلما راقيا متينا وفيه من سلامة الذوق وصواب الرأى مالايتوافر عادة فى أمثاله سنا ، وقد عنى إبراهيم باشا بتنشئته حتى أنه كثيرا ماكان يصطحبه فى رحلاته، ومن أبنائه الآخرين إسماعيل بك المولود سنة ١٨٣٠ ومصطفى بك المولود سنة ١٨٣٢ وهما طفلان تبدو عليهما مخايل الذكاء والنجابة على أن صغر سنهما يحول دون النطق بحكم صحيح فى شأنهما.

أما عباس باشا بن طوسون وهو الذى سبقت الإشارة إليه الآن فقد أخذ عن والده كثيرا من طرائقه وخلاله، وهو شديد الشبه به وقد مزج هذا الأمير منذ نعومة أظفاره بالأعمال العامة. إذ عين مفتشا عاما لأحد الأقاليم. أما الوظيفة التى يشغلها الآن وهى محافظ القاهرة فمن أهم الوظائف وأعلى المساند العظيمة، وهو يقوم بأعبائها على مايستوجب الارتياح من تصرفاته. ومن الخطأ قول القائلين أنه يخاصم ابراهيم باشا على مسألة الوراثة فى دست الملك، إذ المعلوم بعكس تلك التخرصات أنه شديد التعلق بعمه هذا الذى لايتوقع أحد أن ينافسه منافس بطريقة جدية على تولى الأحكام واستلام زمام الأمور فى مصر فإن حق الولادة يؤهله بالطبيعة لذلك. فضلا عن أن الجيش والرأى العام بقوته العظيمة وصيته الذائع وسيرته الطيبة بانتصاراته المتتابعة لمن خير الذرائع وأشدها فعلا لإسناد ذلك المنصب إليه.

وإنى لأقتصر فى الختام على المرور ببقية أعضاء الأسرة المحمدية العلوية العديدين مرا سريعا إذ لايتوقع أن يكون لهم نصيب فى استلام مقاليد الحكم وهم جميعا أبناء أخ محمد على مثل أحمد باشا حاكم مكة البالغ من العمر أربعين عاما وإبراهيم باشا من قواد الجيش وإسماعيل باشا حاكم حلب البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة، وحسين بك البالغ اثنتين وأربعين سنة وهو لايقوم بوظيفة ما وهناك إثنان من أبناء إخوته لايزالان فى غضارة الشباب ومقتبل العمر.

الباب الأول

لمحة طبيعية
الوضع والشكل والحدود
والأقسام الجغرافية

١- الوضع والشكل والحدود

أول مايتبادر إلى الذهن عند إلقاء النظر على أحد المصورات الجغرافية العادية لمصر أن ما يطلق عليه هذا الاسم يشمل كل القسم الشمالى من أفريقية بين الشلال الأول للنيل جنوبا والبحر الأبيض المتوسط شمالا وصحراء ليبية غربا والبحر الأحمر شرقا. وهذا وهم فاسد. لأن مصر لم تكن فى الواقع سوى الوادى الضيق الذى ينزل النيل منه منزلة الشريان من أحد أعضاء الجسم.فإنها تتبع تعرجات هذا النهر وتنفسح انفساحا يتمادى فى الانفراج بعد تفرع النهر ويظل كذلك إلى أن تختلط مياه فرعية بمياه البحر المالح.

تلك هى حدود مصر الصحيحة، وهى تنحصر فيما بين الدرجتين ٢٤ و٣٢ من العرض الشمالى ودرجتى ٢٨ و٣١ من الطول الشرقى ويحدها جنوبا بلاد النوبة - التى يفصلها عنها الشلال الأول وشمالا البحر الأبيض المتوسط الذى تصافيه سواحلها على مدى سبعين فرسخا تبتدىء من (تابوزيرس) «برج العرب» إلى النهاية الشرقية من بحيرة المنزلة حيث أطلال (الفرمة).

وبعض الجغرافيين يزجون بحدود مصر إلى أبعد من هذه الجهة بعشرين فرسخا - أى إلى العريش ثم إلى سلسلة جبال ليبية فى الغرب وسلسلة جبال العرب فى الشرقى السلسلتين. وفيما بين هاتين حيث تكفان عن التوازى بانصراف أحداهما إلى الشمال الشرق وتنحصر مصر فى امتدادها الطويل كله حتى القاهرة والأخرى إلى الشمال الغربى فالتى إلى الشمال الغربى تنتهى إلى سواحل البحر الابيض المتوسط والتى إلى الشمال الشرقى تندمج بجبال بلاد العرب ثم بسلسلة الجبال السورية.

٢- الأقسام الجغرافية

اشتهـرت الديـار المصرية عنـد الشرقيين بـاسـم مصر، واستمـد اليونـان اسمها مـن كلمة كانت تطلـق فى غابر الأزمـان على النيل. وقد أصابـوا فى هذا الاختيار لأن مصر لم تكن فى الواقع إلا مجرى هذا النهر الذى يخترقها بعد أن أوجدها من العدم.

وجزء وادى النيل الذى تتكون منه مصر يبلغ طول امتداده أكثر من مائتى فرســخ. وقد اتفق الجغرافيـون على تقسيمه إلى ثلاثة أقســام: أعلى وأوسط وأدنى. فـالأعلى ويسمى الصعيـد والأوسط ويسمـى مصر الوسطـانية هما أراضى شفتى = ضفتى = النهر التى تحف بها من الجانبين سلسلتا الجبال اللتان سبق الكـلام عليهما، وتبتدىء مصر العليا عند الشـلال الأول وتنتهى مصر الوسطـانية عند القـاهرة. وهما تـؤلفان بتعاقبهما واتصـالهما شريطا متعرجاً يختلف عرضه بين فرســخ واحد وأربعة فراسخ إلا فى الجزء الأوسط فإنه يتعلق به جزء آخر من الأرض اهليلجى الشكل قابل للزراعة ومنحصر فى سلسلة جبـال ليبية وهـو الذى يتكـون منه إقليـم الفيوم المعـروف الغنى بزروعاتـه . أما مصر السفلى التى سماها العرب بالبحيرة أو الـوجه البحرى فعبـارة عن سهـل منبسط مثلـث الشكل رأســه دُوَيْـن القاهـرة عند الجهـة المعروفة ببطن البقرة أى المكان الذى يتفـرع ماء النيل فيه إلى فرعين، وإحدى زاويتى قـاعدتـه عند بـرزخ السويـس والأخرى عنـد برج العـرب وضلعاه محدودان شرقا وغـربا بـالصحراء، ويمتدان بمـؤازرة فرعـى النيل اللـذين تتكون بينهما تلـك المنطقة التى طبقـت شـهرة خصوبتهـا الخافقين وسماها اليونان بسبب شكلها الدالى باسم الدلتا.

٣- المسطح

يقدرون مسطـح القطر المصرى بنحو ألف وستمائة فـرسخ مربـع منها مائتان وخمسة وأربعون فرسخـا فى مصر العليا ومائتان وخمسة وخمسون فى مصر الوسطـى والبقية فى مصر السفلى. والمسطح الكلى ينقسم بـالتفصيل على المثال الآتى:

أرض قابلة للزراعة	١٠٠ فرسخ مربع
أرض غير قابلة للزراعة أو غير مزروعة	٢٠٠ فرسخ مربع
النهر والترع	٣٦٧ فرسخا مربعا
الأراضى الرملية	٦٨ فرسخا مربعا
الجزر الموجودة فى النهر	١١ فرسخا مربعا

(٢)

شكل الأرض وتكوينها الجيولوجى

الأرض القابلة للزراعة- شكلها- التكوين الجيولوجى للأرض القابلة للزراعة- الطمى- أشكال الأرض القابلة للزراعة- الجبال- شكلها وارتفاعها وانحدارها العام- تكوينها الجيولوجى- الصحارى- تكوينها- الواحات- شكل الصحراء.

٤- الأرض القابلة للزراعة وشكلها

لم تكن مصر الأصلية إلا ذلك الوادى الذى يخترقه النيل كما أسلفنا فى ملاحظاتنا السابقة ولكنها ذات صفات خاصة تميزها عن الأودية المعتادة.. فإن الأودية التى تجرى فى وسطها الأنهار الكبرى ممهدة تلتمس المياه فيه مجرى تنحدر عليه إلى الأمام ولكن الحالة فى مصر من هذا الوجه على النقيض من ذلك فإن شواطئها أكثر ارتفاعا من بقية الأرض التى تنحدر منها انحدارا يزداد كلما ابتعدت عن مجرى النيل فنتج من تكون الأرض على هذا الشكل أن ماء النهر إذا ارتفع فوق ضفتيه طغى على الأراضى المتدة منهما وانتشر فيهما وربما غمر المنطقة المزروعة.

٥- تكوين الأراضى القابلة للزراعة

إنه لانحدار أرض القطر المصرى انحدارا خفيفا نحو الشمال تندفع مياه النيل فى مجراه حاملة معها عناصر الطمى الذى جعل المصريون يروون للرحالين اليونانيين أن مصر كانت فى عهد (مينيس) وهو الملك الأول من ملوكها حتى بحيرة (موريس) عبارة عن مستنقع كبير جداً. وقد ثبت بالعلم

الصحيح مايؤيد هذه الرواية. لأن الأراضى القابلة للزراعة فى مصر تكونت برسوب طمى النيل وتراكمه بعضه على بعض بتوالى الأعوام.

وما الطبقات السفلى منها إلا حيوانات بحرية متحجرة وأحجار خفاقة وحصى مستديرة وحمم وصخور بركانية متكاثفة وأحجار يشبية ومواد بركانية أخرى كانت على الراجح تغطى مياه البحر زمنا ثم أخذت تسوقها المواد الطميية الواردة مع مياه النيل شيئاً فشيئا.

على أن توارد هذه الرواسب النيلية وانتشارها أمران تؤيدهما الحقائق العلمية المتفق على صحتها. ومن الأمثال فى هذا الموضوع أن مدينتى رشيد ودمياط كانتا فى عصور غير بعيدة مغمورتين بمياه البحر الأبيض المتوسط فأصبحتا الآن مفصولتين عنه ببضعة فراسخ وكذا فإن الأراضى أكثر ارتفاعا عند ضفتى النهر منها عند سفوح الجبال. وما ذلك إلا لأن مياه الفيضان بتعاقبها على مر الأعوام تترك من المواد الرسوبية فى الجهات المجاورة للنهر أكثر مما تترك فى الأماكن البعيدةو منه. ومما يؤيد صحة هذا الحادث الجيولوجى ببرهان أسطع وحجة أقطع انطمار أساس المبانى القديمة حتى أصبحت الآن مغطاة بالأراضى الزراعية. ومع أنه من المتعذر تحديد نسبة النمو التدريجى الدورى لارتفاع الأرض بطريقة مؤكدة فقد أدت الأبحاث الدقيقة للعلماء الجيولوجيين فى الحملة الفرنسية إلى تقدير تلك النسبة بأنها - على وجه التقريب - مائة وستة وعشرون ملليمترا فى كل قرن من الزمان.

ثم أن طبقات الأرض الزراعية لم تكن متساوية الأعماق فى كل الجهات لأن زيغ النيل زيغاً مستمرا عن مجراه وسرعة سيلان مياهه فيه من البواعث الحقيقية لذلك فحيث تجرى هذه المياه بسرعة عظيمة تندفع المواد الطينية معها ولاتجد من الوقت مايكفى لرسوبها فى مكانها وحيث تركد يكون رسوبها عظيما.

٦- طمى النيل

الطمى الصرف الذى تتكون منه الأرض الزراعية فى مصر يتألف بحسب التحليل الذى قامت به اللجنة الفرنسية مما يأتى:

أولاً: الألومين الذى يدخل فيه بنسبة ثلاثة أخماس.

ثانيا: كربونات الجير بنسبة تزيد فيه على الخمس قليلا.

ثالثا: كربونات الجير بنسبة العشر.

رابعاً: خمسة أجزاء الى ستة فى المائة من أوكسيد الحديد الذى يكسب الماء لونه الأحمر المعروف أيام الفيضان.

خامسا: جزءان إلى ثلاثة أجزاء فى المائة من كوبات المانيزيا.

سادسا: بعض ذرات حجرية متناهية فى الصغر والانقسام الى حد أنها تبقى معلقة فى الماء.

ومما يجىء به النيل أثناء الفيضان مقدار عظيم من الرمال القاقية (من ملح القاق أو دب الملح المسمى عند الإفرنج بالكوارتز) فالغليظ منها يهبط إلى قاع النهر فيسبب ارتفاعه وغير الغليظ ينتشر بغير انتظام على الأراضى المجاورة ومايتبقى بعد هذا وذاك يندفع بقوة جريان الماء إلى البحرفيساعد بتراكمه وتراكبه بعضه على بعض على امتداد الدلتا وتقدمها شيئاً فشيئاً فى البحر الملح.

٧- أشكال الأرض الزراعية

الأرض الزراعية فى مصر يتغير شكلها تغيرا دوريا محسوسا فى كل سنة ولقد وصف عمرو بن العاص فاتح مصر هذا التغيير وصفا دقيقا فى كتاب كتبه إلى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين حيث قال:

«مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر. يكنفها جبل أغبر ورمل أعفر. يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر. له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها. حتى إذا عج عجاجه وتعظمت أمواجه لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب وصغار المراكب. فإذا تكاملت تلك كذلك نكص على عقبه كأول ما بدأ فى شدته وطما فى حدته.

فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه. يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى إذا أشرق وأشرق سقاه من فوقه الندى وغذاه

من تحته الثرى فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه. فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء فإذا هى زبـرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء».

وفى الواقع فإنـا نرى الأرض فى بادىء الأمر ولا شية = علامـة = فيها من الزرع إلا ما كان مـن جهات متفرقة هنا وهناك تروى بالحيلـة بل قد صارت ماحلة قاحلة = جرداء = وتشققت أخاديـد يختلف عرض كل أخدود منها من ستة إبهامـات إلى قدم وعمقه من خمســة أقدام إلى ستة وتجف شيئـاً فشيئاً بحيث يصعب على الناظر أن يقتنع بـأن الثمار اليانعة والمحصولات الوفيرة. ذلـك هو أول طـور مـن هـذا الجفاف يعقـب فى كـل سنـة تلك المزروعـات السندسية ذات الأطوار التى تتقلب فيها أرض الزراعة فى مصر.

أما الطور الثانى فهو طور الفيضان الذى يجعل الوادى كله بمثابة بحيرة جسيمة قد انتثرت على سطحها القرى والآكـام والأشجار حتى يخيل للرائى أنها أرخبيل انثرت جزره فى البحر انتثارا يقضى بالعجب.

أما الدور الثالث فأقصر مـن الدورين السابقين لأن الماء لا ينحسر فيه عن وجه الأرض حتـى تمتص حـرارة الشمس مـاتشبع بـه بطنها مـن الرطـوبة فيسارع الفلاح إلى انتثـرت البذور عليها وتعليل النفس بعـد ذلك بمحصـول وافر فى الموسم المقبل.

أما الـدور الرابع فيتبـع الأدوار السابقـة بغتة بحيث لايكـاد يشعر المرء بوقـوفه، ذلـك هو دور الإنبـات الذى يكســو وجه القطـر بحلة مـن سندس أخضر.

وأما الـدور الخامس وهو الأخير فهـو تحمل النبـاتات بالأزهـار وامتلاء الحقول بـالسنابل وهذه التغييرات والأدوار لاتقـع فى وقت واحد بكـل جهات القطر على السواء. فـإن الجهات الأكثر قربا من المدار هـى أسرعها إلى إهداء تلك المناظر لأعين الناظرين.

٨- الجبال وأشكالها

يبدو للمتأمل أول وهلة أن الطبيعـة وضعت الجبال حفاف القطر المصرى لوقايته مـن رمال الصحراء وهى قاحلة ماحلة جـرداء. إذ لاسبيل لمياه النيل

المخصبة إليها. كما أنه من النادر أن ترويها مياه الأمطار. على أن الأمطار إذا نزلت مرة فإنها لاتكفى للإنبات، وتلك الجبال تبدو للناظر من جانبى النهر متصلة الأجزاء وتزيد فى عرضها كثيرا على ارتفاعها والتى منها إلى شرق النيل أقرب إليه من التى إلى غربه بل كثيرا مايتكون منها الشاطىء. أما الجبال الغربية المعروفة بسلسلة جبال ليبية فأكثر بعدا من ضفة النهر بل تكون من البعد أحيانا بحيث تغيب عن نظر الناظر الواقف على ضفة النيل. والجبال الأولى — أى التى إلى الشرق تطل برؤوسها على النيل بينما ترى الجزء الأوسط منها عموديا والجزء الذى عند القاعدة متراجعاً إلى الوراء بشكل قوس مقعر وترى فى إتجاهها الطولى آثار خطوط يخيل للرائى معها أول وهلة أنها رسمت أو حفرت فى أزمان سابقة بقوة التيارات المائية التى يكون ذلك التقتعر والحالة هذه نتيجة من نتائجها.

٩ -ارتفاعها وانحدارها العام

يبلغ ارتفاع سلسلة الجبال العربية فى الجهة التى يتكون فيها جبل المقطم مائتى متر تقريبا . ولكن ارتفاعها يزداد بالتدريج كلما تقدمت إلى الجنوب . ففى إقليم أسيوط مثلا، وهذا الإقليم على مسافة ستين فرسخا من القاهرة، يبلغ أربعة الأخماس من أعظم ارتفاع لها وهو ستمائة إلى سبعمائة متر. وهى تبلغ هذا الحد الأقصى من الارتفاع فيما يلى مدينة طيبة (الأقصر) بقليل وتستمر مرتفعة بقدره الى أمد ثم تنحدر بالتوالى حتى الشلال الأول حيث تصير عبارة عن أكام صغيرة تعود بعد مسافة طويلة إلى ماكانت عليه من الارتفاع فى مصر الوسطى.

والمسلم به بوجه عام أن سلسلة جبال ليبية أخفض ارتفاعا من سلسلة الجبال العربية، وإنما يمكن التأكيد بأنها تعادلها فى متوسط ارتفاعها ، والذى جعل الناس يذهبون إلى الحكم بانخفاضها تأثير المنظر فقط فإنها لفرط بعدها عن النيل يخيل للرائى أنها أبخرة متكاثفة لاتميزها العين المجردة وأنها لأفق مصر من ناحية الغرب كأحد جوانب الإطار الذى يحيط بالصورة.

أما الجبال التى تتجه من شرق المقطم نحو البحر الأحمر وبرزخ السويس فتذهب على الدوام صاعدة مرتفعة. وهذا بخلاف مايشاهد فى سلسلة الجبال

الليبية فإنها تذهب منحدرة بلا انقطاع من موقعها تجاه القاهرة. فمن هذه البيانات يستطيع القارىء أن يتخيل ماهو الانحدار العام للجبال التى شق فى وسطها وادى النيل ويعلم أنه عبارة عن ميلين يتجه أحدهما من الجنوب إلى الشمال تبعا لمجرى النهر والآخر من الشرق الى الغرب وبامتزاجهما ببعضهما ينشأ الميل الاكبر الذى يتجه خطه من الجنوب الشرقى الى الشمالى الغربى ثم ينعطف قليلا نحو الغرب.

١٠- التكوين الجيولوجى

المحتمل أن شلالات النيل لم تكن إلا الدرجات الأخيرة لانحدار السلسلة الجبلية الأولى التى انساق النهر فيها ولاختراقها وجعلت مجراه متعرجا بما ينطبق على اتجاه السلسلة الأولى نفسها وهذه السلسلة التى يمكن اعتبارها ممتدة من الشلال الأول فى اتجاه الخليج الشرقى للبحر الأحمر تتوافر فيها صفات الأرض الناشئة عن التكوين الأول فإنك تجد فى شمالها الرخام السماقى وفى الجنوب الصخور الصوانية. أما حجر الشطف فيشغل المواقع التى بين هذين الطرفين وفيما بين الشمال وفى هذه الأجزاء الوسطى توجد صخور مختلفة تتألف بوجه عام من الاسباث الصفيحى.

وتفضى الأرض الأصلية أو الأولى إلى الأرض الثانوية فى اتجاه يوازى على وجه التقريب الاتجاه الذى وصفناه للسلسلة الأصلية وتكوين الأرض فى شمال الخط غربى النهر حتى قرب شواطىء البحر الأبيض المتوسط كتكوين الأرض الثانوية. لأن المادة الحجرية غالبة فيها بما يتخللها من حجر القاق والبودنج اللذين يشاهدان دواما بين الأحجار الثانوية والأحجار الأولية.

وفى تلك الجبال الجانبية الجرداء التى سبق الكلام عليها الآن قطاعات طولية وحلوق تفتح للمسافرين والتجار منافذ الصحراء يصلون منها . إما إلى البحر الأحمر شرقا وإما إلى الواحات غرباً.

١١- الصحارى وتكوينها

تتكون صحارى مصر من الأراضى الرملية القاحلة الممتدة فيما يلى سلسلتى الجبال اللتين ذكرناهما قبلا.

ويحتوى وجه الصحارى رمالا غليظة مختلطة بالحصى الرفيع المستدير

والرمل. أما الرمل فيتكون من حبوب قاقية فقط غير مختلطة بمادة أخرى، والظاهر أنها كانت فى العصور الماضية مغطاه بالماء. وهى تتجمع فى بعض النقاط على شكل كثبان مختلفة الهيئات. والنواة الأولى التى تتراكم الرمال عليها هى النباتات والأجسام الصلبة وأغلب الجبال الصغيرة تتكون على هذا المثال إلا جبالا تغيرت أوضاعها بفعل الرياح التى تدفعها بلا انقطاع فى اتجاه هبوبها. فإذا وجد من الجبال مابقى فى مكانه فإن الأشكال التى تتشكل بها بفعل تيارات الرياح المختلفة تتشابه بحيث لايمكن تمييزها عن القمم المستديرة التى تتألف منها.

١٢-الواحات

الشطر الأعظم من الصحارى فى الدرجة القصوى من القحولة، فإذا وجد بها أثر لنبت فإنما هو أثر الأدغال والأعشاب أو مياه الأمطار النادرة وتترك شيئاً من الماء فى ثنيات الأرض وينمو فى الأماكن الواطئة التى تجتمع فيها هذه الرطوبة بعض النباتات وتظهر بعض الحشائش والأعشاب ولكن أثر هذه الخضرة لايلبث أن يزول بدنو، الصيف.

وهناك جهات أخرى قليلة العدد أراضيها قابلة للزراعة على مدار السنة بسبب ماتحتويه من الينابيع المائية وتسمى تلك الجهات بالواحات. والواحة كلمة مصرية قديمة معناها المكان أو البيت ولقد شبهوها بالجزر الخصيبة متناثرة فى بحار واسعة من الرمل ، وخمس من تلك الواحات تابعة لمصر وهى كلها فى صحراء ليبية الأولى. منها الهابط من الجنوب إلى الشمال الواحة الخارجة الموجودة فى منطقة طيبة ويفصلها عن القطر المصرى مسافة أربعين فرسخا وتمتد بمؤازرة = بمحاذاة = النيل على طول خمسة وعشرين فرسخا تقريبا وكان القدماء يسمونها صحراء (مانيا) وعلى مسافة عشرين فرسخا منها توجد الواحة الداخلة التى يقرب طولها من اثنى عشر فرسخا وعرضها من عشرة فراسخ.

وإذا استمر الهابط فى هبوطه إلى البحر الأبيض المتوسط التقى فى طريقه بواحة فرافرة الصغيرة الواقعة على مسافة خمسة وسبعين فرسخا من أرض مصر. فواحة برية (بارفا) على مسافة خمسة وثلاثين فرسخا من مصر الوسطى ويبلغ طولها ثمانية فراسخ وعرضها خمسة . ثم واحة سيوه

المعروفة فى قديم الزمان باسم واحة (زفس آمون) والمشهورة برحلة إسكندر الأكبر إليها لزيارة هيكل هذا المعبود بها. وهى كائنة مع الفيوم على خط واحد من خطوط العرض تقريبا وتفصلها عن مصر مسافة مائتى فرسخ وطولها خمسة فراسخ فى عرض أربعة . وتحتوى الواحات بوجه عام أراضى فى الغاية القصوى من الخصوبة وفيها يزرع قصب السكر والبن والقرمز والنيلة.

١٣- منظر الصحراء

تحدث الصحراء فى نفس من يشهدها أول مرة تأثيرا شديدا ظاهرا فإنها تستفز النفس لتخيل الخواطر السامية والأفكار الكبار. ولا عجب إذا اختار المسيحيون فى القرون الأولى، للانقطاع عن الناس وطلب الزهد فى الدنيا، تلك الأرجاء البعيدة التى يتيسر للمتعبد فيها أن يكون على اتصال روحانى مع معبوده وأن يتفرغ للتأمل العميق فيما هو منبسط تحت نظره من عظمة الكون الذى لاحد له.

وكل ما ابتكرته قرائح الشعراء وسطرته أقلام الكتاب المفكرين فى اتساع الأوقيانوس انفساح أرجائه وترامى أطرافه الى أبعد مدى ينطبق على الصحراء فإن مايستشعر به المرء فى عزلته وسط الصحراء يسمو على مايستشعر به منه وهو على متن الماء. لأن المنقطع عن المخلوقات فى الصحراء يظل دواما تحت تأثير من السكون الشامل لايقدر أحد غيره ممن لم يتأثر به أن يوضح ماهيته ويستطلع كنهه، ذلك لأن سكون الصحراء صمت لايتخلله همس ولايذهب بجلاله صوت لجّات الماء فى الاقيانوس. فإن أول مايستشعر المرء به وهو فى وسط السهول التى لاغاية لأفقها والبيداء التى تشبه بألوانها البيضاء المزدوجة بوهج ذكاء مدى فسيحا من الأرض جاله البرد، إنما هو الشعور بالاستقلال والتمتع بحرية لايجاريها فى بعد المدى غير تلك الآفاق التى لاتدركها الأبصار هناك يتمثل للمفكر حال الإنسان الأول بعد الخليقة فيشعر بأنه مثله سيد الكون وأنه الملك المتسلط عليه، وأنه يستنشق نسيم الصحراء بما لا يحيط به الوصف من السعادة والهناء فتنشرح باستنشاقها الصدور التى اعتادت ثقل الجو ورداءة الهواء فى الأماكن الآهلة بالسكان.

(٣)

الطقس والآثـــــار الجويـــة

الفصول – درجة الحرارة –السراب– الـرياح– الـخماسين– النسيم– الضباب– السحـاب– الندى– النقطة– الـرطوبـة– العثير– الإعصار– المطر– الثلج– البرد– الأرصاد الجوية.

١٤– الفصول

لم يكن ابتداء الحر والبرد وغيرهما ومدة بقائها ومواعيد انتهائها فى القطر المصرى مماثلة لها فى أقاليمنا (الفرنسيـة) المعتدلة. فإن البرد فى مصر يكاد يكون عديم الأثـر . خصوصا فى الجهات المجاورة للمدار. وليـس بين الربيع والخريف فرق لشدة تشابههما . فهما فى الحقيقة فصل واحد تبلغ مدته ستة أشهـر وإنما ينقسم إلى قسمين بفصـل الصيف الـذى تتسلط فيـه الحرارة الشديدة.

١٥– درجة الحرارة

إن ما يذكـر بوجه عام عن الحرارة فى مصر مبالـغ فيه كثيرا على أن درجة الحرارة فى الأقاليم التى يتألف منها هذا القطر لم تكن متماثلة إذ منها ماتزيد هذه الـدرجة فيـه عليها فى جملة مـن الجهات والأصقـاع الأوربية الجنـوبية كأسبـانيا وإيطـاليا مثـلا. وهناك بيـان لمتوســط درجة الحرارة فى المنـاطق المختلفة.

فى الدلتا، تبلـغ درجة الحرارة عادة فى ثلاثة أشهـر الشتاء من ١٢ إلى ١٤ فوق الصفـر ، وفى أشهر الربيـع من ١٦ إلى ٢٤ وفى الصيـف من ٢٤ إلى ٢٦ وأحيـانـا إلى ٢٨ و٢٩ وفى الخريف مـن ٢٤ إلى ٢٨ فـإذا أضفنـا درجتين إلى درجة الفصول المتقـدمة وقفنا بالتقريب على متـوسط درجة الحرارة فى مصر الوسطـى. ويرى الصاعـد فى الوجـه القبلى أن الحرارة تزداد بالتـدريج كلما أوغل فيه صعـودا. ففى أسيوط الواقعة فى الـوسط تقريبا مـن إقليم الصعيد يرتفع ميـزان الحرارة إلى ٣٤ درجة، وفى أسوان وهو الحد بين مصر والنـوبة إلى ٣٦ وأحيانا إلى ٣٨.

ومن مميزات درجة الحرارة فى القطر المصرى الاختلاف الذى تتأثر به أثناء الانتقال من النهار إلى الليل. فإنه لايوجد بلد على ما أعهد بلغت فيه مفاجأة ذلك الانتقال مثل هذا المبلغ، والسبب فى ذلك أن ريح الشمال التى يلطف هبوبها حرارة الجو تلطيفا عظيما تهب عادة عند الغروب فتلطف الجو الذى لايلبث أن تنحط درجة حرارته إلى أقل مما كانت عليه فى النهار بما يتراوح بين ثمانى درجات واثنتى عشرة درجة. وإلى هذا السبب يرجع الفضل فى أن الإنسان إذا تنفس هواء الليل لا يعترضه ذلك الاختناق الذى يغشاه فى غير مصر من البلدان. ثم إن السماء فى تلك الليالى تبدو صافية الأديم ساطعة النجوم لصفاء الجو وخلوه من الشوائب فيحلو استنشاق نسيمه المنعش والتمتع بمزاياه التى نظم شعراء الحب فيها قصائد المدح والتمجيد.

١٦- السراب

سبب الظاهرة الغريبة المعروفة بالسراب أن حرارة الجو تؤثر فى حدوثه. وبيان هذا التأثير أن الارض إذا سخنتها الشمس تسخينا كافيا خلال النهار ظهرت من بعد فرسخ تقريبا كأنها محدودة بما يشبه الفيضان العام. وتبدو القرى الواقعة فيما يلى هذه المسافة كأنها جزر فى وسط بحيرة عظيمة يفصلها عن الرائى متسع من الماء صغير أو كبير. وهذا الماء الخيالى يعكس صور المرئيات الواقعة فى أفقه كما تعكسها البحيرة الحقيقية. ولكن كلما دنا المرء من إحدى القرى التى تظهر فى وسط الماء ابتعدت حافة البحيرة الوهمية وظهر له أن الماء الذى يحول بينه والغرض الذى يسعى إليه يضيق شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ من الضيق قصاره تلاشى بالمرة وتولد فى الحال بجهة أخرى بالنسبة لمجموعة جديدة من المساكن بعيدة عن الأولى أو لأى شىء موضوع وضعا بارزاً فى المسافة المقصودة. ولم يغب عن الذاكرة ماسببته هذه الظاهرة من الخيبة واليأس لعساكرنا أثناء سيرهم بالصحراء بين الإسكندرية والقاهرة إذ أصابتهم من العطش بما كاد يؤدى بحياتهم أجمعين.

١٧- الرياح

أفاض (فولنى) فى الكلام على الرياح وهبوبها بمصر إفاضة لايسعنى معها إلا إيراد بعض ماقاله فى هذا الموضوع: «حينما تقرب الشمس من

مناطقنا تتجه بمصر الرياح التى كانت فى قسم الشرق إلى الشمال وتثبت فيه فإذا كان شهر يونيو هبت باستمرار نحو الشمال والشمال الغربى. وفى يوليو تستمر على الهبوب نحو الشمال باختلاف فى اليمين واليسار بين الشمال الغربى والشمال الشرقى. ومن آخر يوليو حتى أواسط سبتمبر تعود الرياح إلى الشرق وتهب منه بدون أن تستقر فيه أكثر مما تهب فى أى إتجاه آخر إلا الشمال. وكلما مرت الشمس من مدار إلى مدار اشتد اختلاف الرياح واقترن هبوبها بصوت شديد. ويستمر هذا الهبوب من الشمال والشمال الغربى والغرب وتلبث على هذه الحال أشهر ديسمبر وينابر وفبراير التى يتألف منها فى مصر كما فى بلادنا فصل الشتاء وعندئذ تدنوأبخرة البحر الأبيض المتوسط المتراكمة المتثاقلة بفعل برودة الهواء من البر فيتكون منها الضباب والمطر.

«وفى أواخر فبراير ومارس ـ أى عندما تعود الشمس نحو خط الاستواء يكون هبوب الرياح من الجنوب أكثر منه فى أى وقت آخر وفى الشهر الثانى منهما وشهر أبريل تكون الرياح جنوبية بحتة وجنوبية شرقية وجنوبية غربية. وقد تختلط بالرياح الغربية والبحرية والشرقية والأخيرة من هذه تتحكم فى آخريات أبريل. وفى مايو تتسلط مع الريح الشمالية على مملكة البحار».

الخماسين

تهب رياح الخماسين حوالى الاعتدال الربيعى وهى شديدة ويكون هبوبها من الجنوب واسمها مشتق من عدد (خمسين) لأنها تلبث نحو الخمسين يوما وأطلق العرب عليها أيضا اسم السموم.

وأفاض فولنى وغيره من الرحالين فى الكلام عليها بما يغنينى عن الإسهاب فيها وكل ما ذكره بشأنها أن السماء تصطبغ، متى هبت بلون ضارب إلى الحمرة وأن الجو لايلبث أن يصبح كأنه قد امتلأ بضباب من العثير = التراب الناعم = وأن الحرارة الشديدة تجفف العرق المنفرز من البشرة وأن ميزان ريومور للحرارة يرتفع أحيانا إلى عشر درجات وأنه يتعذر التنفس على الإنسان حتى يشعر بألم عام فى جسمه وضعف يتناول أعضاءه وأن هذه الأعراض كثيرا ما تستتبع الرمد الصديدى والصداع والسكتة المخية

والدوسنتاريا الحادة.

وبتأثير تلك الرياح المشئومة تزداد أحوال المرضى خطرا وشدة . وإذا كان هنـاك وباء فـاشيا فنسبـة الموتى بـه تزداد إزديـادا عظيما. وكثيرا ما تبلـغ الخماسين من الشـدة والخطر مـايحمل المرء على التصـديق بما يـروى من إخنائهـا = فضائهـا = في الصحراء على قـوافل بـرمتها وجيـوش بعددهـا . وعدتها غير أنـه لمن حسن حظ الإنسان أن الخماسين لاتهب بشـدة وخطورة إلا خمس مرات أو ستا في الخمسين يوما التي تلبث أثناءها. ونادرا ما تتجاوز مدة هبوبها في كل مرة أربعا وعشرين سـاعة أو ثماني وأربعين. ولقد فوجئت مرارا بهبوب الخماسين فكـانت تثير من حولي إعصـارا من التراب والحصى لولا الحيطة للفرار منها في الوقت المناسب لألحقت بي الأذى من غير ريب.

والشـائع بين الجمهـور في مصر أن الخماسين تهب على وتيرة واحـدة في اليوم الثانـي من عيد الفصح كـل عام، وهو اعتقاد مبنـي على الخطأ المحض والظن الفاسد فإن عيد الفصح لايقـع في تاريخ معين من كل سنة . في حين أن للخماسين بداية دورية لاشك فيها، وهي وإن وقعت في مواعيد متفاوتة قليلا يحوم وقوعها دواما حول موعد الاعتدال الربيعي.

١٩- النسيم

في ليلة اليوم الذي ينتظر فيـه هبوب الخماسين يبرح الأهلون من مسلمين ويهود ومسحيين دائرة المدينـة لاستنشـاق النسيـم في ضـاحيتهـا، وهـم يعتقدون أنهم يتقون بهذه الوسيلة شرور الـرياح الخماسينية التي تهب من الجنوب.

٢٠ الضباب

يتكون الضباب في فصـل الشتاء وفي أوقات نادرة غير معينـة، ويبلغ من الكثافة أحيانا مبلغا يتعذر معه تمييز الأشياء على بعد بضـع خطوات . ويخيل للمرء في هذه الحالة أنه أصبـح تحت سماء باريس أو لندرة ذات الضباب. إلا أن هذه الظـاهرة الجويـة قليلة المكث قصيرة العمـر لتحلل الضبـاب سريعا بتأثير حرارة الشمس الشديدة في مصر.

٢١- السحب

وفى ذلك الفصل تتلبد السماء بالسحب التى لاتلبث أن تتبدد وتختفى غالبا قبيل الفجر. وهى تمر عادة من الشمال إلى الجنوب ويتقدم ظهورها أحيانا البرق والرعد اللذين كثيرا ما ينزعج المصرى منهما لما وقر فى نفسه من سوء الاعتقاد فيها، ويحدث أحيانا أن يعترى الأجنبى مثل هذا الانفعال برغم إرادته فيحن إلى وطنه ويأسف عليه.

٢٢- الندى

نادرا ما يتساقط الندى فى الشتاء ولكنه يكثر فى الصيف، وعلى الخصوص فى الوجه البحرى أثناء هبوب الرياح من الغرب والشمال متحملة بالأبخرة، المتصاعدة من مياه البحر الابيض المتوسط . ولكنها لا تلبث أن تختفى بهبوب الرياح .لأن هذه الرياح لاتلتقى فى مرورها إلا بالصحارى القاحلة.

٢٣- النقطة

يطلق المصريون اسم «النقطة» على الندى الذى ينزل فى ليلة ١٨ يونيو من كل عام، وهم يستبشرون بها وينسبون إليها خاصية تنقية الهواء ومنع الأمراض وخصوصا الطاعون.

وبدهى أن نزول النقطة لاتأثير له معينا فى ذلك الوباء وغاية ماهنالك أن نزولها يتفق مع اشتداد الحرارة التى إليها وحدها ينبغى أن ينسب التأثير الذى نسب خطأ إلى النقطة، وقد أشار قدماء المؤلفين إلى عادة تم نسيانها اليوم. وهى استطلاعهم نتيجة الفيضان من خير عميم أو عكسه بوضعهم قطعة من الطين المجفف تحت تأثير النقطة وفعلها فتدل درجة ابتلالها بالماء على ماسيكون من درجة الخير المنتظر من وراء زرع الأرض.

٢٤-الرطوبة

الرطوبة فى الوجه البحرى شائعة باستمرار، وهى بلا شك حاصلة من مجاورة البحر وطبيعة الأرض بسبب انخفاضها وامتلائها بالمستنقعات أو أيضا بسبب غزارة الندى الذى يتساقط عليها. وهى تأكل المعادن جميعا، وعلى الخصوص الحديد. إذ سرعان مايعلق الصدأ بها وبسببها يتعذر جلاء الأسلحة والأدوات الفنية التى لاتلبث أن تفسد فى زمن قصير مع مايضارعها من الأمتعة الفضية والثياب المزركشة بأسلاك الذهب والفضة إذا لم تتخذ

الوسائل لوقايتها من فعلها الضار. وهى تقل كلما تقدم المرء نحو المدار وتبلغ أقصى شدتها أيام فيضان النيل ـ أى فى الأيام التى يزداد سقوط الندى خلالها.

٢٥- العثير

بمجرد انقطاع الرطوبة الحادثة عن الفيضان والندى تجف الأرض ويتفتت سطحها ويتحلل الى عثير يكفى هبوب النسيم أو الريح اللطيفة لاستثارته فى كل ناحية. وهو من النعومة والدقة بحيث ينفذ فى الأماكن كلها حتى المحكمة الغلق. والمصريون يصفون سهولة نفوذ العثير فى كل مكان بقولهم من طريق المبالغة «أنه ينفذ حتى من قشرة البيض» ومن السهل الوقوف على فعله الضار بالنباتات التى يتراكم عليها ويجففها وبالحيوانات وعلى الخصوص الإنسان. فإنه يمنع خروج العرق من بشرته لانسداد مسامها، ويتعب تنفسه بتسربه إلى الرئتين ويفسد الآلات الدقيقة وغيرها حتى الآلات المستعملة لغزل القطن ونسج المنسوجات الحريرية والكتانية.

٢٦- الإعصار

قليل من البلاد يثور العثير فيه كما يثور فى مصر على شكل إعصار تحركه الرياح، فإن هذا الإعصار الرملى يتكون كأساطين عظيمة تدور حول نفسها وترتفع فى الجو عموديا حتى تبلغ السحاب وتظل أحيانا واقفة فى مكانها ولكن تسير فى العادة بسرعة شديدة مدة بضع دقائق حتى تلتقى بشجرة أو جدار أو بيت أو مرتفع من الأرض فتنكسر قوتها وتهبط متساقطة فى نفسها.

٢٧- المطر

من الأوهام الشائعة أن السماء لاتمطر فى مصر أبداً ، وهو وهم أذاعه بعض المتأخرين الذين لم يزوروا القطر المصرى إلا زمن الجفاف التام والواقع أن السماء تمطر كثيرا فى الوجه البحرى، وتبتدىء هذه الأمطار عادة فى شهر أكتوبر وتستمر فى شهرى نوفمبر وديسمبر ، ولاتنتهى إلا فى شهر مارس.

وفى هذه المدة يندر أن تنقضى أسابيع من غير مطر. بل غالبا ما يشاهد المطر متماديا أياما متعاقبة، وفى كل عام تبلغ مرات المطر من خمس وعشرين

إلى ثلاثين. أما فى القاهرة فلا تزيد تلك المرات عن نصف العدد المتقدم مع قلة الأمطار .وفى سنة ١٨٢٥ أمطرت السماء بالقاهرة ثمانية أيام وصالا مطرا أفضت.شدته إلى سقوط منازل عديدة ووقوع أضرار مختلفة. أما فى الوجه القبلى فالأمطار نادرة جداً ، وهى لاتظهر فيه إلا بعد أزمان مديدة. على أنه قد شوهد بين القاهرة وقنا نزول مطر شديد مسبوق بالبرق والرعد. وفيما يلى قنا يعد نزول الأمطار من الحوادث الخارقة للعادة. على أنهم يذكرون أن المطر نزل هاميا فى مدينة اسوان. ويذهب بعضهم إلى أن المزارع العديدة التى أنشأتها عناية الوالى قد أثرت فى طقس القطر المصرى. فسببت تواتر الامطار السنوية وطول مكثها . وليس لهذا الرأى فيما نرى أساس من الصحة يمكن الاعتماد عليه. إذ بمقارنة جداول الحوادث الجوية التى عملت خلال الثلاث سنوات التى أقامتها الحملة الفرنسية بمصر بالجداول التى يجدها القارىء فى نهاية هذا الفصل يستنتج أنه لم يحدث فى طقس مصر تغير محسوس أو انقلاب ظاهر خلال الأربعين سنة الماضية. فإذا عدد أيام المطر التى سجلت أثناء الحملة الفرنسية بلغ متوسطها فى كل سنة من ١٥ إلى ١٦ يوما بينما أنها لم تبلغ فى خلال الخمس سنوات الأخيرة من ١٢ إلى ١٣ يوما.

٢٨- الثلج

إذا كان الثلج نادر السقوط فى الوجه البحرى فسقوطه أندر فى الوجه القبلى. على ان الفرنسيين الذين كانوا بمدينة قنا فى السنة الثامنة للجمهورية شهدوا سقوط ثلج غزير فيها ، وقالوا أن حبوبه كانت تعدل فى حجمها مالايقل عن حجم البندق الكبير. وحدث بعد ذلك أن سقط الثلج مرارا فى أزمان متفاوتة متباعدة، وكان من الكثرة سنة ١٨٢٨ بحيث استطعنا أن نملأ به فى أبى زعبل بعض الآنية. بل قد شهدنا سقوط ثلج بحجم صغار الجوز وعلمنا أنه ألحق بالناس فى الأرياف ضررا بليغا إذ جرح الكثيرين منهم وقتل بعض الحيوانات.

٢٩- البرد

أما البرد فى مصر فأثر جوى أندر وقوعا من الثلج. هذا فضلا عن أنه لم ير إلا فى شطوط البحر أو فى نقط تبعد عنها بفراسخ قليلة. ونزل البرد فى سنة

١٨٢٣ بثغرى الإسكندرية ورشيد، وامتد إلى جهة العطف فأخذ الطاعنون فى السن مـن أهل هـذه الجهات ينقبون فى ذاكـرتهم عن حـادث من هـذا القبيل حصل فى ماضى حياتهم فذهبت جهـودهم فى هذا السبيل سدى واتفقوا رأيا على أنهم لم تقع أعينهم قط على شىء من هذا النوع.

٣٠ ـ وأظننى أحسن صنعا إلى الذين يودون التحقق بالدقة من أمر درجة الحرارة فى القطـر المصرى بإيـراد الأرصـاد الجويـة التى قـام بها الموسيـو (ديتوش) الصيدلى المفتش فى خدمة سمـو الوالى أثناء خمس سنوات متتابعة. فإذا قورنـت هذا الأرصاد بالتى قـامت بها فى القاهرة اللجنـة العلمية للحملة الفرنسيـة يتبين أن الطقس فى مصر لم يطرأ عليـه تغيير محسوس منـذ نحو أكثر من أربعين عامًا.

وهناك على طريـق المثل الأرصاد الترمومتريـة التى قامت بها تلـك اللجنة محولة إلى درجات سنتغرادية فإنها تبين أن درجة الحرارة:

فى يناير قد بلغت إلى	١٣,٣
وفى فبراير قد بلغت إلى	١٤
وفى مارس قد بلغت إلى	١٧,٥
وفى أبريل قد بلغت إلى	٢٢,٢
وفى مايو قد بلغت إلى	٢٤,٣
وفى يونية قد بلغت إلى	٢٨,٦
وفى يولية قد بلغت إلى	٣٠,٢
وفى أغسطس قد بلغت إلى	٢٩
وفى سبتمبر قد بلغت إلى	٢٨,٣

وفى الجداول الآتية مقنع بأن متوسط ما كـان يعطيه الترموتر من الأرقام عن تلك المواقيت يقرب من الأرقام التى دل عليها فيما تقدم.

ومن السـهل الحكم بطـريق الاستنتاج ـ طبقا للمعلومـات المتقدمة ـ على شـدة الحرارة فى الأمـاكـن المعرضـة للشمـس. ففـى أسـوان أى فى الحدود القصـوى للصعيد يـرتفع ميـزان سنتغـراد من ٦٠ درجـة إلى ٧٠ فى الرمـل

والشمس، وفى القاهرة إلى ٤٥ درجة فى الأولى و٥٠ فى الثانية.

مذكرة ـ الأرقام التى فى الأعمدة المحصورة بين عنوانى (الرياح) و(حالة الجو) تدل على مقدار الاختلافات الجوية التى وقعت خلال كل شهر ويستدل من هذه الأرقام على سرعة تغير الآثار الجوية لطقس القطر المصرى.

٣٢ ـ ينابيع النيل

قام بعض الملوك فى الأزمان القديمة وفى مقدمتهم (سيزوستريس) و(قمبيز) و(الإسكندر الأكبر) و(البطالسة) و(قيصر) و(نيرون) بأبحاث كثيرة عن ينابيع النيل لاستكشافها إلا أن جهودهم فى هذا السبيل ذهبت ضياعا ، وإلى فشل مسعاهم ضرب الأقدمون مثلا على المشروعات التى لا تؤدى إلى نتيجة بقولهم: «بحث عن ينابيع النيل».

ولقد كان هذا الفشل نصيب الرحالين المتأخرين فإنهم رغم ما بذلوا من الجهود لاستكشاف ينابيع النيل لم يوفقوا حتى الآن إلى تكذيب ذلك المثل. والرأى المسلم به والمجمع عليه أن ينابيع النيل فى جبال القمر وأنه بابتعاده عن هذه الينابيع المعينة له على سبيل الحدس والتخمين يتكون منه ما يسمى بالبحر الأبيض ثم يلتقى به شرقا بإقليم سنار على مسافة مائة وثمانين فرسخا من أسوان البحر الأزرق الذى ظن بعض الرحالة أنه النيل نفسه فالنهر المعروف باسم (تانار) و(أرقابوراس) هو الأخير من روافده. وفيما بين هذا النهر والدلتا ـ أى على مسافة أربعمائة وخمسين فرسخا لا يتلقى النيل ماء ما من أى رافد آخر. قال همبولدت: «إن هذا هو المثال الوحيد لنهر فى التاريخ الهيدروغرافى للكرة (الأرضية).

٣٣ ـ الشلالات

اشتهرت شلالات النيل عهدا طويلا شهرة ملأت الخافقين وفاقها فى الشهرة منها الشلال الأول فإن (شيشرون) و(سنكة) لم يترددا فى ذكر ما يفهم منه أن هذا الشلال قد بلغ من العظم بحيث كان يصل خريره إلى مسامع جميع السكان الذين يجاورونه فيصم آذانهم. وقد ذهبت الآراء فى بيان أهمية ذلك الشلال إلى مثل هذا المذهب فى المبالغة فى عهد قريب منا.

والشلال الأول، وهو الوحيد الذى نتصدى للكلام عليه ـــ بالنظر إلى أن

الشلالات الأخرى غير موجودة بالقطر المصرى ـ مكون من جبل كان يعترض النيل فتمكن النيل من قطعه فى جهات متعددة منه يلتمس لمائة منفذا إلى الأمام، وفى الواقع فإنك ترى مجرى النهر على مسافة نحو فرسخين منه تعترضه أهداف = صخور = كبيرة من الجرانيت يرتفع بعضها عموديا إلى علو شاهق ويتكون من البعض الآخر جزر كبيرة أو صخور مبعثرة هنا وهناك ولكثرة هذه العوائق تندفع مياه النهر وتتمزق بشدة عند مرورها عليها فتتألف منها شلالات تتساقط مياهها من مرتفع إلى منخفض ومن هذا إلى غيره. ويسمع من بعيد صوت المياه متكسرة على الصخور أو متساقطة فى الهُوِىّ أو مرتفعة كالاعصارات الرملية. والمرور من ذلك الشلال شديد الخطر على القارب. ولهذا السبب اتخذ لها ممر على الضفة اليسرى لوقايتها من العطب. وفى أثناء الفيضان تغمر المياه تلك الصخور بأسرها ، ولكن السفن تستطيع فى أيام التحاريق الصعود فيه جذبا بالحبال كما تستطيع النزول مدفوعة بقوة التيار.

٣٤ـ مجرى النهر

يجرى النيل من الشلال الأول إلى الشمال على مسافة مائتين وستة عشر فرسخا حتى إذا بلغت المسافة بينه والقاهرة فيما يليها شمالا تفرع إلى فرعين يتجه أحدهما نحو الشمال الشرقى والآخر نحو الشمال الغربى ويظل مواصلا السير على هذين الاتجاهين إلى البحر الأبيض المتوسط فيتكون من أحدهما فرع دمياط ومن الآخر فرع رشيد مارين بهاتين المدينتين بعد أن يقطع كلاهما نحو خمسين فرسخا من نقطة تفرعهما.

ويتكون مجرى النيل كله من الرمل والطين. وعرضه وعمقه يختلفان بحسب الأماكن التى يمر بها فتراه تارة ضيقا عميقا وطورا يتسع حتى يبلغ من العرض ربع فرسخ، ويمكن فى هذه الحالة عبوره خوضا على امتداد عرضه.

٣٥ـ ضفاف النيل

كلما تقدم الإنسان نحو الشلال الأول ارتفعت ضفتا النيل، وصار ارتفاعهما فوق منسوب مياهه محسوسا. ويبلغ هذا الارتفاع أيام التحاريق بمصر العليا ٣٥ إلى ٤٠ قدما. وبالقرب من القاهرة ٢٥ إلى ٢٠ ثم يذهب

منخفضا بالتدريج إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث يتلاشى بالمرة فى شواطئه. غير أن مياه النيل أثناء إرتفاعها تذهب بكل أثر لدرجات هذا الارتفاع. إذ كثيرا ما تسمو حتى تبلغ إلى المسطحات العظيمة الارتفاع وتغمرها. ولما كانت ضفاف النيل خاضعة فى كيانها لطبيعة الأرض وشدة التيار وكيفية اصطدام المياه بها فإنها تبدو تارة مقطوعة قطعا عموديا وطورا منحدرة كثيرا أو قليلا. وليست تلك الضفاف كضفاف أنهار أوربا مرصعة بالأشجار والنباتات المائية. كلا! فإنك ترى عليها على أبعاد متفاوتة أشجار النخل واللبخ والتوت فيسر النظر بمرآها. وأكثر ما يكون وجودها فى المسالك الموصلة إلى المساكن أو حول السواقى حيث تقى بظلها الوارف من حر الهجير الرجال والحيوانات العاملة على رفع المياه من النهر المبارك لرى الأرضين بها.

ويمر النيل بجميع مدن القطر المصرى تقريبا وأمهات قرى الوجه القبلى وجزء من مصر السفلى وتقوم على ضفافه الكفور والعزب المشيدة فى نقط متقاربة بعضها من بعض، وهو ما يجعل للبلاد منظرا يستهوى النظر ويمهد للمسافر سبيل الحصول منها على الحاجيات اللازمة لمعيشته اليومية.

٣٦ - أمطار النهر

النيل كغيره من الأنهار المحصورة بين المدارين تزداد مياهه سنويا عقب الانقلاب الصيفى. وقد اتجهت الخواطر إلى استطلاع أسباب هذا الحادث السنوى المنتظم الباعث على الخصب. لأن ما انتحلوه من الأسباب له ولايزال مستقرا فى الاخلاد ليس من الصواب فى شىء. فقد كانوا يذهبون إلى أن السحب التى تجتاز جو مصر مسوقة بقوة الرياح الشمالية تتجه نحو جبال السلسلة الأثيوبية حيث تتراكم ثم تستحيل إلى مطر يفضى باجتماع مياهه بعد سيلها من السفوح والمنحدرات المختلفة إلى ارتفاع مستوى النيل الارتفاع السنوى المعهود.

وذهب هذا الاعتقاد بالقوم إلى حد الزعم بأن رياح الشمال بغض النظر عما تسوقه من السحب تسبب أيضا ارتفاع النيل ويستند أرباب هذا الرأى على أن تلك الرياح تدفع بمياه النيل نحو الجنوب أعلى إلى اتجاه مضاد لمجراها فيؤدى هذا الدفع الذى يصدها عن سبيلها إلى بلوغها من الارتفاع حدا يؤدى

إلى فيضانها على الأرضين التى حولها. وهو مذهب بيِّن الفساد بدليل أن رياح الشمال لاتهب إلا فى الوقت الذى يبدأ مستوى النيل فيه بالارتفاع فى مصر ذاتها ـ أعنى فى شهر يوليو. أما فى الخرطوم ـ أى المكان الذى تكون فيه من إنضمام النهر الأزرق والأبيض فإن ارتفاعه يبتدىء منذ شهر أبريل. فليس من الممكن القول بأن رياح الشمال تأتى إلى بلاد الحبشة وسلسلة الجبال الأثيوبية حيث تنبثق مياه روافد النيل جميعا بالأبخرة التى يعزى إليها ازدياد مياه هذا النهر. على أن هناك رأيا يكاد يكون حاسما فى الموضوع لموافقته الصواب وهو أنه لا سحاب من السحب الخفيفة التى تشاهد بمصر مارة فى اتجاه الشمال إلى الجنوب يصل إلى النوبة فضلا عن الحبشة، ذلك لأن السحب تتبدد قبل أن تبلغ إلى دنقلة. فمن الواجب إذا تعليل ارتفاع مياه النيل من غير هذا السبيل.

وفى سنار تجىء أشهر أبريل ومايو ويونيو بأمطار لا انقطاع لها والريح تهب بتلك المنطقة فى اتجاه الجنوب الشرقى. فإن السحب تتراكم يوميا قبيل الظهر فى هذه الجهة من الأفق فينقضى المساء كله والليل حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل والطقس مزعج غير محتمل وتكون للرياح زمجرة هائلة وللرعد قصف يصم الآذان وللمطر هطول شديد لاينقطع، ويستمر هذا الطقس فى سنار إلى آخر يونيو، ولا تنتشر الأمطار فيها إلا إذا عم الفيضان. ولكن لوحظ أن هذه الأمطار لا تسبب ارتفاع المياه بل تساعد على تغذيتها فقط وتنمية ايرادها مدة ما من الزمن (١) وليس فى هذا أيضا ما يصح أن يكون تعليلا لذلك الحادث.

أما الرأى الراجح المسلم به لانطباقه على الصواب فهو أن ارتفاع الماء فى النيل ناشىء من السحب المتكونة من أبخرة الاقيانوس الهندى والمندفعة بقوة الرياح الجنوبية الشرقية إلى ناحية الحبشة حيث تحجزها الجبال المرتفعة من السلسلة الأثيوبية فلا تلبث أن تستحيل إلى مطر ينصب عليها.

والمياه الأولى التى ترفع نهر النيل تمر بالخرطوم فى أوائل أبريل ـ كما ذكرت آنفا ـــ ولا تظهر الزيادة فى حجم مياه النهر بالقاهرة إلا فى النصف

(١) ما ء الفيضان فى سنار لاينسكب على الأراضى كما فى مصر بل يظل فى مجراه.

الأخير من يونيو، وهو ما يؤخذ منه أنها تقضى نحو ثلاثة أشهر تقريبا فى قطع طريق طوله أربعمائة وثمانون فرسخا وهو طريق تقطعه فى شهر واحد وكسور إذا كان التيار سريعا، وسبب بطء المياه الأولى للفيضان فى الوصول إلى القاهرة استنفادها فى الطريق قبل وصولها إلى مصر العليا ومصر الوسطى وانصراف بعضها إلى جهات مختلفة كثيرة وارتشاح البعض الآخر فيحرم النهر بهذا وذاك من مياهه الأولى قبل أن يبلغ فى سيره إلى الصعيد ومصر الوسطى.

ثم أن مياه النيل لا تزداد زيادة مطردة التدريج والانتظام أبدا، فإنها غالبا ماتزداد بغتة ازديادا عظيما ثم تقف فتنقص أو تزداد من جديد ويتفق أحيانا أن يكون تدرجها فى الزيادة سريعا، وفى مصر الوسطى والوجه البحرى تبتدىء المياه بالارتفاع فى أواخر يونيو أو أوائل يوليو لتبلغ الحد الأقصى من ارتفاعها فى أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر ثم تهبط منخفضة أثناء التحاريق فى مارس وأبريل ومايو.

٣٧ـ الفيضان

يظن من لا يعرف القطر المصرى إلا بالاسم أن النيل يفيض على الأرض فيغمرها كما غمرتها مياه الطوفان. والحقيقة أن الفيضان يعم الأرضين فى كل مكان بترع الرى والقنوات المشتقة منها وهى التى بواسطتها يذهب الماء إلى الأراضى البعيدة. على أن الفيضان قلما يكون عاما لأن المياه تتوزع على مسطحات من الأراضى يختلف ذرعها = مساحتها = كبرا أو صغرا وتحيط بها الجسور التى يندفع الماء من بعض جهاتها ليرويها. والأراضى التى تروى بغمر المياه لها قليلة . لأن الفلاح المصرى لا يكل إلى النهر شئون رى أراضيه على ما يقتضيه الجزاف.

٣٨ـ قطع الخليج

إذا بلغ النيل من الارتفاع إلى الحد المناسب لرى الأرض بمياهه وهو ما يحدث بين ١٥ و٢٠ أغسطس احتفل فى القاهرة احتفالا باهرا بفتح الخليج الذى يختزنها من جانب إلى الجانب الآخر، وانطلقت فيه المياه وسرت فى الفروع المشتقة لتروى قسما عظيما من الأراضى الواقعة على الضفة اليمنى من فرع دمياط. وفى ليلة يوم ذلك الاحتفال العظيم تضىء الأنوار كل ناحية

وتطلق فى كبد الجو الأسهم النارية بأشكال ورموز مختلفة، ويسمع دوى المدافع وعزف الموسيقى وأنغام المغنيين، وترى بجوار الخليج مئات الزوارق مزينة بالأعلام ومضاءة بالمصابيح وهى تروح وتغدو متقابلة متدابرة على وجه الماء. فإذا كان نهار اليوم التالى للمياه هدفا للمدافع وألقى فى النيل قربان على مثال البشر فلا يلبث الجسر أن يتهدم بتأثير المقذوفات فتنطلق المياه فى الخليج بدوى عظيم(١).

٣٩ـ تيار ماء النيل

لم يكن انحدار الأرض التى يجرى النيل عليها بين أسوان والبحر عظيما فإن ارتفاع هذا الانحدار فى النقطة التى تبعد عن مصب النهر بنحو مائتين وخمسين فرسخا وعن مدينة أسوان شمالا بنحو خمسة فراسخ يبلغ ٤٥٣ قدما فوق مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط. ويبلغ فى طيبة (الأقصر) الواقعة على نحو مائة وثمانين فرسخا من مصب النهر ٢٥٧ قدما وفى أسيوط على مسافة مائة وخمسة وعشرين فرسخا ٢٨٧ قدما، وفى القاهرة حيث يبعد عن ذلك المصب بنحو خمسين فرسخا فقط ٤٠ قدما أثناء الفيضان من جهة الشرق. وتبلغ سرعة جريان ماء النيل ثلاثة أميال فى الساعة وقت الفيضان وميلين فى وقت التحاريق. على أن هذه السرعة تقل بسبب ما تصادفه المياه فى طريقها من العوائق المختلفة كمنعطفات النهر أو ضيق عرضه أو اتساعه أو

---

(١) زعم بعض المؤلفين المتقدمين أن المصريين كانوا فى العصور السابقة يقدمون فى مثل هذا الاحتفال قربانا للنيل فتى وفتاة حليا بالأزهار. ولكن هذا الزعم قوبل بالتكذيب من المحققين الذين ينكرون شيوع مثل هذه العادة الوحشية فى أمة بلغت من الحضارة والمدنية ما بلغته الأمة المصرية. وهم يذهبون إلى أن المؤرخين الذين اتهموا الأمة المصرية بمثل هذه التهمة الشنعاء (وهل أشنع من تضحية النفوس البشرية) قد جرهم إلى السقوط فى هذا الخطأ شيوع عادة تماثل العادة الشائعة الآن وهى إلقاؤهم فى النهر قبل فتح الخليج مثالا من البشر مكللا بالازهار على أنه مع ثبوت أن عادة إلقاء القرابين البشرية فى النيل لم تعمل الأمة المصرية بها فى عهد اليونان والرومان على الأقل. فقد روى العلامة ابن عبدالحكم أنه لما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص جاءت إليه الأقباط وقالوا: «إن لنيلنا سنة لا يجرى إلا بها وهى إذا كان الثانى عشر من بؤونة عمدنا إلى بكر مليحة ناخذها من أبويها غصبا ونزينها ثم نلقيها فى النيل فى مكان معلوم عندنا» فقال عمرو: «هذا لما يكون فى الإسلام أبدا» فمكث النيل من بؤونة لغاية سبعة عشر توت لم يزد فيها. فهم أهل مصر بالجلاء عنها، فلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستشيره فى الامر فكتب أمير المؤمنين بطاقة وأرسلها إليه وفيها وافق على الخطة التى سلكها عمرو بن العاص والثبات الذى أظهره حيال المصريين فيما جروا عليه من تلك العادة. وقال ان دين الإسلام جاء ليقضى عليها وعلى أشباهها من العادات الوثنية ثم أمره متى قرأ هذه البطاقة بان يلقى فى النيل الورقة المرفقة بها وهى رسالة منه إلى هذا النهر كتب فيها ماياتى:

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد وآله. من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر المبارك».

«أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله تعالى هو الذى يجريك فنسال الله أن يجريك».

فالقاها فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد الذى هو سابع عشر توت فأجرى الله تعالى النيل من ليلته ففرح أهل مصر بإبطال هذه العادة السيئة.

غير ذلك مما يكون سببا لازدياد سرعته حينا وانخفاضها حينا آخر.

٤٠ـ حجم المـــاء

سواء فى زمن الفيضــان أو فى وقت التحاريق يـذهب قسم عظيم مـن مياه النيل ضياعا فى البحر الأبيض المتـوسط، ويتعذر رى متسعات كبيرة متفرعة من الأرض لهذا السبب ولبعد قاع النهر وعدم توافـر الوسائل الصناعية لرفع مياهـه إلى الضفتين والاستفادة بها فى الزراعة. وفى الحســابات الدقيقـة التى قام بها المهندس (لينان) بيان أحجام الميـاه التى يسوقها النيل فى مجراه كل أربع وعشرين ساعة من أيام الفيضان أو التحاريق.

	متر مكعب
أيام التحاريـــق	
حجم المياه التى تجرى فى فرع رشيد	٧٩٥٣٢٥٥١٧٢٨
حجم المياه التى تجرى فى فرع دمياط	٧١٠٣٣٨٤٠٦٤٠
	١٥٠٥٦٦٣٩٢٣٦٨
أيام الفيضـــان	
حجم المياه تجرى فى فرع رشيد	٤٧٨٣١٧٨٣٨٩٦٠
حجم المياه التى تجرى فى فرع دمياط	٢٢٧١٩٦٨٢٨٤٨٠
	٧٠٥٥١٤٦٦٧٤٤٠

ومــن المناســب إلى حد مــا فى هذا المقــام التكلــم على سد النيـل (القناطـر الخيرية) ولكننــى آثرت. ارجـاء الكلام عليـه فى الفصل الـذى عقدتـه لذكـر الأشغال العمومية الحالية ، ولهذا أحول نظر القارىء إليه.

٤١ ـ المقياس

لما كـان فيضان النيـل السنوى مـن الشئـون الحيويـة لمصر فقد شعـر المصريون فى كل عصر بالحاجة إلى قياس ارتفـاعه . فقدماء المصريين أنشأوا المقاييس العديـدة فى نقط مختلفة من مجراه ليعلموا مقدمــا من قياس ارتفاع مياهه إذا كانت نهاية هذا الارتفـاع صالحة للزراعة أو غير صالحة لها، وكان أحد تلك المقاييــس فى مدينة (منفيس) والثانى فى (فيلـة) بأسوان[1] ولاتزال آثاره بـاقية حتـى الآن. أما الآن فـا لمقياس الـوحيد مـن هذا النــوع فى القطر المصرى هو الموضـــوع فى الزاوية الجنـوبية مـن جزيرة الـروضة تجاه مصر

(١) الصواب فى جزيرة الفنتين تجاه أسوان.

العتيقة، وقد أطلق العرب كلمة المقياس عليه، وهو عبارة عن عمود من المرمر الأبيض قائم وسط بئر مربعة تتصل بالنيل بفتحة فى قاعها الذى ينزل إليه بسلم مثبت الدرج فى جدرانها ، والعمود ذو ثمانية أوجه ومقسم ستة عشر قسما كل قسم منها ذراع، والذراع المصرية تنقسم إلى ستة أشبار. قياس كل منها أربعة أصابع، وعليه فهى تعدل بتقدير علماء الحملة الفرنسية ٠,٤٥٠ ملليمترا.

وبنسبة حركة النيل ارتفاعا وهبوطا إلى هذا التقسيم يعلم أن هذا النهر الذى لا ينخفض أبدا إلى أقل من الذراع الثالثة فى المقياس يصعد بمقدار ٢٤ إلى ٣٠ إصبعا فوق الذراع السادسة عشرة أعنى أنه يغطى أعلى العمود فيدل بذلك على بلوغه من الارتفاع إلى النصاب الذى يرجى منه الخصب والخير العميم.. الذراع أى ثلاثة وعشرين قدما. وأثناء ارتفاع مياه النهر يطوف ويحصل وفاء النيل ببلوغه إلى ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة أرباع، ويقوم المنادون فى القاهرة لتبشير الأهلين بأنباء هذا الارتفاع فى المقياس(١).

ومقياس الروضة بالقاهرة أنشىء فى أيام سليمان بن عبدالملك الخليفة الأموى سنة ٩٧هـ وجدده فى سنة ١٩٠هـ المأمون الخليفة العباسى ونقش فى عمودها، يشير إلى ذلك وأمر بترميمه بعدهما المستنصر بالله الخليفة العباسى، وضرب عليه قبة فوق عمد عليها المماليك أيام الحملة الفرنسية إلا أن مهندسينا قاموا بترميمها وجعلوا البناية المقياس بابا خارجيا نقشوا فيه بالعربية والفرنسية ما يشير إلي هذا الإصلاح

٤٢ ـ انحسار الماء

تبذر الأرض فى مصر بعد انحسار مياه النيل عنها . إما بالوسائل الصناعية أو الوسائل الطبيعية. ولا تلبث البذور بعد نثرها بأيام أن تنبت وتنمو وتكسو الأرض ثوبا زاهى الألوان. لأن الأرض وإن لم تكن صالحة بذاتها للزراعة تتأثر بمياه النيل التى تحمل فى غضونها عناصر الخصب

(١) ترجع عادة النداء تبشيرا بالنيل وبلوغه من الارتفاع الحد الذى يتوقف عليه أمل الأمة المصرية أو يأسها إلى الأعصر الواغلة فى القدم. ولقد هم العرب بإبطالها إبان الفتح، لأنه كان كثيرا ما يحدث أن لم يبلغ الفيضان إلى الحد الذى يتم به رى الأرض ويرجى معه المحصول الوفير والغلة الكثيرة أن يستسلم أن الأهلون إلى اليأس والقنوط على وجه يضطرب معه حبل التجارة ويختل ميزان الأعمال ولم يجرؤ العرب مع سداد رأيهم على استعمال القوة لمكافحة تلك العادة ومعارضة الرأى العام فيها لما كان المصريون يولونه للمقياس من الاحترام يكاد يكون فى نظرهم فرضا من فروض الدين.

والخير والبركة. وفى سنى الفيضان العالى تبلغ المياه أحيانا إلى حدود الصحراء والجهات التى لا تصلح تربتها للإنبات فإذا بالإقحال وقد تحول إلى خصوبة وبالنباتات وقد أتت أكلها كل حين.

٤٣. مياه الرشح

لا تخصب الأرض فى مصر بتأثير فيضان النيل وحده. إذ لو صح عكس ذلك لما أمكن زرعها إلا مرة واحدة ولتعذر على النباتات بلوغ الحد الأقصى من نموها. فإن المياه الراشحة لمن أهم عوامل الإنبات ورشحها يحدث بمرورها فى باطن الأرض خلال الطبقات الخفيفة المجاورة للطبقة الصالحة للزراعة.

وسبب ارتشاح هذه المياه التى تسمى أيضا بمياه النشع ضغط ماء النيل على ضفتيه وانحدار الأرض وتخلخل موادها. ويختلف تأثير هذا الضغط تبعا لمقدار حجم ماء النيل قلة وكثرة، وبمجرد حصوله عقب ارتفاع الماء يحدث على الشاطئين تياران يتبعان فى سيرهما اتجاهين متضادين فينفذ الماء من الشاطئين شيئا فشيئا، ويتغلغل فى باطن الأرض حتى يبلغ إلى قواعد الجبال الحافة بالقطر المصرى شرقا وغربا فتصده عن النفوذ منها موادها الصخرية الصلبة.

هذا وليس لسطح النيل مستوى تقف عنده مياهه إلا إذا بلغ الارتشاح إلى منتهاه، ولم يعد للماء قدرة على السريان فى باطن الأرض إلى أبعد مما وصل إليه. وأثناء التحاريق تسرى المياه الراشحة مسرى معاكسا لمسراها الأول أى أن المياه التى تشبعت الشواطىء بها وتشربتها أثناء الفيضان تعود من الأماكن التى وصلت إليها لتنسكب فى النيل عند هبوطه بسبب التحاريق، وبذا تكون الأراضى التى بلغت إليها المياه الراشحة بعد غيرها من الأراضى آخر ما ينحسر الماء عنه، أو بعبارة أخرى آخر ما يجف.

أما المياه التى تملأ الترع أيام الفيضان وتبقى محجوزة فيها بالسدود بعد أن يقل حجم مياه النيل فإن ارتشاحها فى الأراضى المجاورة لها يبقى مستمرا حتى بعد أن يكف النهر عن إمدادها بمياهه. ويستفيد الفلاحون بالمياه الراشحة فى الزراعة باستعمال السواقى فى رفعها ورى الأرض بها. والسواقى كثيرة فى الأراضى الزراعية، وسيأتى الكلام عليها بالإفاضة فى

القسم الخاص بالزراعة.

٤٤ـ أنــــواع ميــاه النيــل

يكدر ماء النيـل فى وقت الفيضـان، ثم ترسب المواد الطينيـة التى يحتويها فيصفـو شيئـا فشيئا ، وهـو مقبـول فى الـذوق ولا يعطل وظـائف الهضـم وبالنظر إلى خفته يمكن الشرب منه إلى حـد الشبع من غير أن يصيب الشـارب ضرر. وينفرز من الجسم بسهولة عن طـريق المسام عرقا ومن أحد السبيلين بولا. وقد أيـد التحليل الكيمى = الكيميائى= الرأى القائل بنقـاوته العظيمة وخلوه مـن الشوائب وصلوحه التـام لتهيئة الأطعمة والفنون الكيميـة. وفيه غنى عن مياه الأمطار والماء المقطر الذى يتعذر الحصول على المقادير الوفيرة منه حيث يندر الوقود لتقطيره.

ولم يقتصر القدماء على تكريم النيل لطيب مائه فقط بل لما أسندوه إليه من الخصيات = الخصائص = والمزايا الكثيرة. فقد ذكـر (بليناس) من فضـائله إزالة العقـم فى النسـاء، ولعل هـذا هو مـا بعث (بطليموس فيـلادلفوس) على موافاة ابنتـه (برينيس) زوجة (أنطيـوخوس) ملك الشام بماء النيـل لتشربه دون غيره. ولايزال النـاس إلى هذا العهد يكرمـون هذا الماء إكرام القدمـاء له، والمعروف أن ســلاطين القسطنطينية كـانوا يعنون على الـدوام بادخـار ماء النيل فى قصورهم برسمهم وأفراد أسراتهم لتفضيلهم إياه على غيره من أنواع المياه.

بحيــرات مــصر

ترتيبها ـ بحيرة مـريوط ـ بحيرة المعدية ـ بحيرة ادكـو ـ بحيرة البرلس ـ بحيرة المنزلة ـ بركة البلح ـ سبخة بردويل ـ بحيرة عامر ـ بحيرات النطرون ـ بركة القارون أو القرن ـ وادى بحر بلا ماء.

٤٥ـ يعدون فى مصــر عشر بحيــرات منها تتصل بالبحر الأبيض المتوسط هى:

١ ـ بحيرة مريوط أو (مريوطيس) القديمة.

٢ ـ بحيرة المعدية أو بحيرة أبوقير.

٣ ـ بحيرة البرلس.

٤ ـ بحيرة المنزلة.

٥ ـ بحيرة البلح.

٧ ـ سبخة (بروديل) أو بحيرة (سيربون) القديمة. أما الثلاث بحيرات التى لا تتصل بالبحر فهى:

٨ ـ بحيرة عامر.

٩ ـ بحيرات النطرون.

١٠ ـ بركة القارون أو بحيرة (مريس) القديمة.

٤٦ ـ بحيرة مريوطيس أو مريوط

بحيرة مريوطيس أو مريوط وهى أولى البحيرات الواقعة على قاعدة الدلتا بترتيب الوضع من الغرب إلى الشرق. ممتدة بين برج العرب والإسكندرية. وكانت أراضى ضاحية هذا الثغر تستمد منها الخصب. لأن ماءها كان إلى القرن السادس عشر عذبا فراتا تسوقه إليها الترع المشتقة من النيل. وحدث على أثر إهمال حكومة المماليك العناية بالشئون العامة أن جف ماؤها. وكانت حينما هبط الفرنسيون مصر سهلا فسيحا من الرمل تجتمع فى جزئه المنخفض الأمطار وتستقر فيه شطرا كبيرا من الشتاء ، ولكن الجيش البريطانى العثمانى قطع فى ٤ ابريل ١٨٠١ جسور ترعة الإسكندرية من الطرف الغربى لبحيرة المعدية فانتشرت مياه البحيرة، وهى كمياه البحر الملح فى شدة الملوحة، فى بحيرة مريوط من ثلاث فتحات أو أربع، وكانت جافة وقتئذ كما ذكرنا ، واستغرق امتلاؤها بها ستة وستين يوما، وكان من نتائج هذه الفعلة الشنعاء أن غرقت أربعون قرية وعم الماء الأراضى الزراعية المحيطة بها(١).

٤٧ ـ بحيرة المعدية

أطلق عليها هذا الاسم انتحالا من الممر الواقع فى الطريق بين الإسكندرية ورشيد، وكان يوصل هذه البحيرة بالبحر الملح. وهى واقعة بين أبى قير وبحيرة أدكو. تكونت من عهد حديث وماؤها ملح أجاج. ويشغل قناة الماء

(١) أمر محمد على بسد الفتحة التى تصل بحيرة مريوط بالبحر فلم تعد هذه البحيرة تلقى سوى مياه الامطار وما يفيض من ماء ترعة المحمودية. وهذه المياه تغطى سطحها فى زمن الشتاء ولكنها تتبخر فى الصيف. وبالنظر لتشبع قاع البحيرة طويلا بمياه البحر ترى عليه طبقة ملحية سميكة يخيل للناظر أنها طبقة من الجليد، والملح الذى يتبلور بهذه الطريقة ينتج به، وقد فكر الوالى فى الاستفادة من أرض مريوط بجعلها صالحة للزراعة.

التى بينها والبحر الملح مكان مصب فرع كانــوب القديم تقريبا ولايزال يوجد على اللسان الـرملى الفاصل بين ذلك المضيـق والبحر الأبيض المتوســط آثار جسر طوله ثلاثة آلاف متر قطعه هذا البحر فى سنة ١٧١٥ فكان ذلك سببا فى طغيان مياهه على بحيرة المعدية التى يبلغ مسطحها ١٤٠٠٠ هكتار.

٤٨ ـ بحيرة ادكــو

سميت كـذلك باســم قرية على سواحلهــا. وهى واقعة بين بحيرة المعـدية وفرع رشيد ويمدها النيل بمياهه. كانت فى عهد الحملة الفرنسية جافة تقريبا لأن جسور الترع التى تمتلىء بمياهها لم تكن قد فتحت منذ زمن طويل. ولقد انكسر أحد هــذه الجسور فى سنــة ١٨٠٠ ولكن طغيــان الماء كان مـن الشدة بحيث ارتفع مستواه فيها فوق مستــوى سطح البحر الملح بنحو ٥٠ إلى ٦٠ سنتيمترا. إذ فتحت فى ذلك الجسر فـوهة بلغ عرضـهـا نحو ٥٠ مترًا ومسطح هذه البحيرة أقل من ٣٢٠٠٠ هكتار بقليل.

٤٩ ـ بحــيرة البرلس

تشغل بحيرة البرلـس قاعدة الدلتـا ، وتمتد بين نهايتى فرع النيـل. وهى قليلة العمـق تتلقى المياه مـن الترع المختلفة وتتصــل بالبحر بفتحـة. ويبلغ طولها ٢٥ فرسخا تقريبا وسطحها ١١٢٠٠٠ هكتار.

٥٠ ـ بحيرة المنزلــة

تمتد بحيرة المنزلة بين دمياط وأطلال (بيلوز) وأعظم امتداد لها يقرب من ٨٤٠٠٠ متر وأقلـه ٢٢٠٠٠ متر ومسطحهــا ١٨٤٠٠٠ هكتـار. وتتصــل بالبحر المالح بفتحتين إحداهما تسمى (الديبة) والأخرى أم (سراج) وقد تبين أن هــاتين الفتحتين كانتــا مصبــى فرعــى (منــديــس) و(تنيس) فى الأزمــان القديمة. وطعم مائها لاتتقزز النفس منـه كما تتقزز من طعم ماء البحر. ولذا فإنه فى أيام فيضـان النيل يكون صـالحا للشرب بسبب إنصباب ماء النيل فيه وامتزاجه به عن طريق ترعة بحر مويس.

٥١ ـ بركة البلح

يطلق هذا الاسم على المستنقعات التــى تكونها مياه بحيرة المنزلة فى الجزء الجنوبى منها ، وهى تشغل من الأرض ما مسطحه ١٣٠٠٠ هكتار تقريبا.

٥٢ـ سبخة بردويل

سميت بحيرة (سيربون) الواقعة شرقى أطلال (بيلوز) وفى جوار العريش بسبخة (بردويل) ولايزال وصف (استرابون) و(ديودورس الصقلى) لها منطبقا على حالتها الحاضرة فقد قال ديودورس أن فيالق برمتها من الجيوش هلكت لجهلها بحقيقة هذه المستنقعات العميقة التى تغطيها الرياح بما تسفيه عليها من الرمال فيختفى فى الظاهر ما تحتها من الهاويات العميقة إلى أن قال: «وهذا الرمل الطينى تسوخ الأقدام فيه بثقل الأجسام شيئا فشيئا. فكأنه يغرر بالمسافرين. إذ يستدرجهم إلى السير عليه فإذا أوغلوا فيه وشعروا بخطئهم تعذر عليهم إنقاذ أنفسهم مما تورطوا فيه عن جهل واغترار. وكان كل جهد يبذلونه فى هذا السبيل جاذبا للرمل إلى الجهات المجاورة فينتهى الأمر بأولئك المسافرين التعساء إلى الاختفاء فى غياهب تلك المهاوى. ومن ثم جاءت تسمية ذلك السهل الطينى باسم (باراتروم) الذى معناه باللغة اللاتينية «المهواة».

٥٣ـ بحيرة عامر

هذه البحيرة قريبة من منتصف برزخ السويس والظاهر أن مياه البحر الأحمر كانت فى الأزمان السالفة ممتدة إلى موقعها وكانت الترع القديمة توصل بينها والنيل.

٥٤ـ بحيرات النطرون

على مسيرة اثنتى عشرة ساعة غربى بلدة (الطرانة) فى الوجه البحرى واد يحتوى الجزء الواطىء منه أغوارا أطلق عليها اسم بحيرات النطرون. والنطرون مادة ملحية حجرية تتكون فيه. وعدد هذه البحيرات عشر تنتهى حافاتها بخلجان صغيرة يرتشح الماء منها فتتكون منه عيون يتسرب الماء منها جداول صغيرة تنصب فى قاع تلك الأحواض وحافاتها مغطاة بطبقة من النطرون.

ولامشاحة فى أن قاع هذه البحيرات أوطأ من مجرى النيل. بل من مستوى البحر الأبيض المتوسط، والرأى الراجح يعلل وجود المياه فيها بمياه النهر الراشحة من الأرض على مسافة عشرة فراسخ تقريبا ، وهى المسافة التى

تفصلها عن واديها. والمحقق أن الارتفاع فى البحيرات متعادل، وأنه يطابق بنسبة عكسية ارتفاع الماء فى النيل. إذ من الثابت المحقق أن مياه النهر الراشحة ترفع مياه البحيرات إلى أعلى منسوب لها خلال فصل الشتاء والأشهر الثلاثة التى يفعل الارتشاح فيها فعله.

والأملاح المختلفة التى تحتويها تلك البحيرات هى الموريات (الكلوريدات) والكربونات وسلفات الصودا . فإن هذه المواد التى تنشأ عن تبخر الماء تتجمد فتصبح صالحة للانتفاع بها فى التجارة.

ومياه اثنتين من تلك البحيرات لونها ضارب إلى الحمرة بتأثير مادة نباتية حيوانية فإذا تباخرت بالصناعة فإن الملح البحرى أول ما يتبلور يحجز ذلك اللون الأحمر ، ويكتسب رائحة عطرية مقبولة فى الشم لقربها من رائحة الورد.

وبالقرب من بحيرات النطرون أديرة قبطية عديدة.

٥٥ـ بحيرة مريس أو بركة قارون

بحيرة قارون أحرى من بحيرات مصر بالالتفاف والبحث من العلماء المحققين. ذلك لأن شهرتها منذ قديم الزمان وما أحرزته مصر من مزايا وجودها يجعلها فى مقدمة ما امتاز هذا القطر به من الميزات الجديرة بلفت الأنظار.

تشغل بحيرة مريس قاع واد عظيم مستدير الشكل يتكون كما قلنا سابقا من سلسلة جبال ليبية بمؤازاة = بمحاذاة = مصر الوسطى وهذا الوادى هو الذى كان معروفا بإقليم أرسنوة عند قدماء المصريين ويعرف الآن بإقليم الفيوم. أطلق العرب عليه هذا الاسم اشتقاقا من كلمة (بيوم) أو (فايوم) ومعناهما فى اللغة المصرية القديمة (المكان ذو المستنقعات) وما تبقى من البحيرة القديمة يسمى فى أيامنا ببركة أو بحيرة قارون أو القارون. فإلى هذا الحوض العظيم ترجع القصة الخرافية المعروفة فى علم (الميثولوجيا) وهى أن (قارونا) هذا كان دليل الموتى على نهر (ستكس) يوصل ظلالهم إلى الجحيم. وقد كان قدماء المصريين فى الحقيقة يجتازون جزءا من البحيرة ليودعوا إحدى المقابر هناك توابيت موتاهم. فكانت هذه العادة سببا لاستنباط تلك

الخرافة الوهمية التى كانت ذات شأن فى مذهب تعدد الآلهة عند اليونان والرومان. ولقد فسر الأقدمون وفى مقدمتهم المؤرخ (هيرودتس) أصل بحيرة مريس تفسيرا مبنيا على الخطأ وكثيرا ما خدع المتأخرين من علماء الجغرافيا. وما برح هذا التفسير عالقا بأذهان العامة ومستقرا فى أخلادهم. ولكن العلم الحديث مجمع على رفضه وعدم الاعتداد به. إذ يؤخذ من رواية ذلك المؤرخ اليونانى أن الملك (مريس) حفر بحيرة الفيوم ليتخذها خزانا يخزن فيه ما يفيض من مياه النيل فى أثناء الفيضان ليرده فيما بعد إليه إذا ظهر أن فيضانه لم يكن كافيا لرى الأراضى الزراعية. ولكن البداهة تأبى التسلم بإمكان حفر تلك البحيرة باليد العاملة لأنه لو تيسر هذا العمل فعلا لاستدعى نقل أحد عشر مليار متر مكعب من التراب والحجارة والصخور. وأيد (هيرودتس) قوله بأن هرمين عظيمين جدا نصب على قمة أحدهما صنم عظيم كانا مرتفعين فوق سطح الماء. ومما يرجح هذا القول أن الملك مريس انتهز فرصة الوضع الطبيعى لوادى الفيوم وانخفاض قاعه بكثير عن قاع نهر النيل ليوصل إليه ماء هذا النهر، وأنه أنشأ الهرمين قبل الشروع فى هذا العمل الجليل. وميسور أيضا افتراض أن هذين الهرمين كانا موجودين قبل عهد الملك (مريس).

ولم يكن مسطح بحيرة (مريس) التى لا تشغل بركة (قارون) منها الآن سوى القاع العميق أقل من ستين فرسخا مربعا. وكانت مياه النيل ترد إليه بترعة تعرف الآن بالبحر اليوسفى وقد اتخذ لها منفذا فى سلسلة جبال العرب. وكانت ذات فروع وجداول تتشعب فى أراضى الفيوم الصالحة للزراعة حتى إذا أخصبتها بالرى انطلقت نحو تلك البحيرة فسكبت فيها الفائض من مائها. ولم يتفق الباحثون على كيفية استفادة مصر بما كان يرد إلى هذا المستودع العظيم من مياه النيل. وزعم (هيرودتس) فى هذا الصدد أن البحر اليوسفى الذى كان يجلب إليه ماء النيل خلال ستة أشهر من السنة كان يردها إليها فى أثناء الستة أشهر الباقية منها. والأقرب إلى البداهة أن ذلك الماء كان ينصرف من بحيرة (قارون) بواسطة الترعة المعروفة اليوم باسم بحر بلا ماء(١).

(١) نحيل القارىء إلى المذكرة التى نشرها العلامة جومار عن بركة القارون فى المصنف العظيم الذى ألفه عن القطر المصرى. فإنه قد بحث فى المسائل المتعلقة ببحيرة مريس بحثا مدققا يعززه ما عرف عن هذا الباحث المتضلع من الكفاءة والاقتدار.

٥٦ـ البحر بلا ماء

إن البحر بلا ماء المتصل بالطرف الغربى من بحيرة (مريس) يتقدم نحو الشمال فى وسط الصحراء بمجاذاة مجرى النيل فيمر من بحيرات النطرون على مسيرة ساعة ونصف منها. وكانت تقضى بعد ذلك إلى بحيرة مريوط. ومجرى البحر بلا ماء الذى أطلق عليه الآن الاسم بالنظر إلى جفافه تدل الدلائل على أن جزءا منه حفر بيد الإنسان فإنه كان فى الحقيقة تابعا لبحيرة (مريس) أو بعبارة أخرى بحيرة تالية لبحيرة مقدمة. فإذا كانت قوة الإنسان تستحق الإعجاب والثناء لعمل أنجزته فإنما هو هذا العمل. ويبلغ إتساع الوادى المعروف بالبحر بلا ماء ثلاثة فراسخ من إحدى ضفتيه إلى الضفة الأخرى. وهو الآن لا يحتوى أثرا ما من الينابيع وإنما فيه الكثير من الأخشاب والحيوانات المتحجرة.

الباب الثانى

التاريخ الطبيعى
(المواليد الثلاثية)

(١)

المعـــادن

التكون المعدنى والجيولوجى للجبـال - الأحجار الجصية - الأحجار الكلسية - الجرانيت أو الصوان - المواد المجلوبة بالتيارات - الليديين أو الحجر الأسود اليشى - الحجر الأبرشــى - السليسى بالعقيق، الحصى - الأبـرش الأخضر المصرى - مناجـم الرخام - حجـر الزمرد ـــ الخشب المتحجر - التحجرات الحيوانية - الأحجار المختلفة - المعادن - الكبريت - زيت البترول - الجبس - الفحم الحجرى - النطرون النتر - الشب.

١ ـ يمكن تقسيـم المعـادن فى مصـر إلـى قسمين عظيميـن. يشمـل أحدهـما المعادن المتعلقة بالتكون الأصلى للأرض ، والثـانى المعادن التى أولدتها الحوادث والآثار الطبيعية التى ينسب إليها تكون الشطر الأكبر من أرض مصر.

٢ـ التكون الجيولوجى والمعدنى للجبال

يتألـف أول هذيـن القسمين مـن المعادن التـى تحتويهـا سلسلتا جبـال العرب وليبية. وفـى هـذه الجبـال مـا هـو جديـر بـاستقصـاء علمـاء المعـادن مـن أنـواع الأحجار الجصية والكلسية والصوانية.

٣ـ الجرانيت أو الصوان

تـوجـد بضـواحـى أسـوان تلك الأنـواع المختلفـة مـن الجرانيت الـذى طبقت شهرته الآفاق فـى العصور القديمة، حيث كان يعرف باسـم (سيينيت) وفى تلك الجبـال المعـدنية أنـواع مختلفـة منـه نـذكـر منها السيينيـت الـوردى، والسيينيـت الرخـامى الوردى والأصفـر، والسيينيت الـرمادى والأبيض والأسـود، والسيينيت الـرمـادى الوردى، والسيينيـت المعـرق والأسـود، والصخـور الـورقية الـرخـاميـة

(نبيس) وأصناف الجرانيت الأبيض والقاقى. وما أغلب الكتل الكبيرة الصوانية التى تركها المصريون لنا كالمسلات والتماثيل العظيمة إلا أنواعا من السيينيت الأحمر. وهناك تماثيل كثيرة وآثار رمزية أصغر من تلك حجما، وهى مصنوعة من السيينيت الأسود أو الرمادى. وتنوع ألوان هذه المواد التى كان يستعملها المصريون فى شئونهم الهندسية القديمة لما يسترعى النظر بحسن التوفيق بينها فيؤثر فى نفس الناظر أجمل تأثير وأحسنه.

٤ـ الأحجار الجصية

تتألف منها الجبال التى بين أسوان وجنوب مدينة إسنا ببضع الفراسخ ـ أى على مسافة يبلغ طولها نحو العشرين فرسخا تقريبا. وترسو طبقات تلك الأحجار على سائر الطبقات متصلة من ناحية الجنوب بالجرانيت ومن ناحية الشمال بالجبال الحجرية. ويفصلها عن الجرانيت كتل بودنج غليظة. وهذا الحجر الذى يشبه فى تركيبه وشكله - كما هو مذكور فى مذكرات المجمع العلمى الفرنسى بمصر - بعض أنواع الأحجار الجصية الشائعة فى البناء ببعض جهات فرنسا، وإنما يختلف عنها بأن حبوبه أغلظ من حبوب هذه وأكثر ضلوعا واحتواء على جزيئات الميكا. وألوانه المميزة له إما رمادية أو ضاربة للصفرة. والطبقات الجصية فى المحاجر الكبرى بجبل السلسلة عند الجهة الوسطى من سلسلة هذا الجبل الحجر الجصى فيها جيد الصنف، ويتألف من طبقات سميكة متراكبة بعضها على بعض. أما الجهة الشمالية من الجبل والجهات العليا منه فإن طبقات الجص فيها أقل سمكا من تلك وأضعف اتصالا بعضها ببعض. على أن تطابقها يمتاز بخصية = بخاصية = المؤازرة أو ما يقرب منها. والأحجار الجصية اختارها قدماء المصريين لإقامة مبانيهم العظيمة لسهولة استخراجها ولأن نقلها ميسور لا كلفة فيه لقرب المسافة بين مناجمها والنيل وهذا فضلا عن سرعة فعل أدوات النحت فيها. فهذه الأسباب هى التى جعلتهم يؤثرونها على ما عداها من الأحجار.

٥ـ الأحجار الكلسية

إن الجبال فيما يلى الأراضى الجصية شمالا وشمالا بشرق كلسية برمتها. وأهرام الجيزة وسقارة شيدت بالأنواع المختلفة من الأحجار المستخرجة منها.

٦ـ المواد المجلوبة بالتيارات إلى مصر

تتضمن الأودية والحلوق العرضية التى تقطع خطوط الجبال الحافة بمصر عند اتصالها بالوادى الأصلى أراضى تكونت فيها بتأثير التيارات. والباحث فى مادة الأراضى يجد أنها عبارة تارة عن مواد هشة لاتلاحم بينها وطورا عن طبقات من البودنج أو البساميت السريع التفتت. وبعض تلك الأراضى قاقى المادة والآخر مؤلف من مواد أجنبية ويوجد بينها حجر الليديين أى الحجر اليشى الذى منه الفاتنة المعروفة منذ قديم الزمان باسم البازانيت وأحجار البازلت الأخضر والأسود ذات الأهمية العظمى فى بناء الآثار العجيبة.

ولاتزال توجد فى جهات مختلفة من القطر المصرى. وعلى الخصوص فى الأراضى الرملية بودنجات يشبيه الشكل ونوع اليشب المعروف بالزلط المصرى. أما الأبرش الرملى الشبيه بالعقيق الذى يوجد بأسوان فهو من الأحجار الجديرة بالالتفات والعناية. فتمثال (ممنون) الذى بلغ من الشهرة قديما أبعد مبلغ انما نحتت أحجاره من هذا الأبرش الذى ترجع إلى تركيبه الخصية العجيبة التى امتاز بها وهى ترجيع الأنغام عند شروق الشمس[١].

٧ـ الأبرش المصرى الأخضر

هذا الأبرش أجمل الأحجار الموجودة على وجه الأرض، ويوجد بالوادى الذى بين الصعيد والبحر الأحمر، ويسمى باسم المدينة التى يفضى هذا الوادى إليها وهى القصير، وهو نوع من البودنج متكون من قطع مستديرة من الجرانيت والرخام وصخر أخضر اللون يشبه كثيرا التروسيلكس ويمتاز بصلابته وبهاء ألوانه المختلفة. ولم يكن الأبرش وافر المقادير فى القطر المصرى. بل يمكن القول بأنه أصبح الآن غير موجود بالمرة، وقد صنعت به فى إيطاليا جملة قطع فنية وهو معروف فيها عند الصناع الإيطاليين باسم: Beccia Verde d'Egitto وإنما نحت تابوت الإسكندرية الشهير فى قطعة من هذا الحجر الصخرى.

(١) إن الحادث الغريب الذى جعل لتمثال ممنون تلك الشهرة العظيمة فى الأعصر السابقة أيدته شهادات عديدة من اناس جديرين بالثقة والاحترام. فهى إذن مما لا يعروه الشك ولا تتناوله الريبة وقد حاول بعضهم تاويله على أوجه شتى اقربها إلى الاحتمال التأويل الذى قدمه المسيو دى روزبير فى مذكرته عن التكوين الطبيعى لمصر. وقد لاحظ فيه أن الجرانيت والأبرش غالبا ما يحدثان صوتا عند شروق الشمس. أما تمثال طيبة فقد قال المسيو روزبير إن أشعة الشمس كانت إذا أصابت هذا التمثال العظيم جففت الرطوبة الحادثة عن الندى المتساقط أثناء الليل على سطحه وبددت أيضا معها الرطوبات المتجمعة فى ثنايا ذلك السطح غير الصقيل فينجم عن استمرارهذا العمل أن حبات أو صحائف الأبرش السالف الذكر تتأثر بفعل الأشعة الشمسية فتنفجر فى الوقت.

٨ـ محاجر الرخــام

كان للرخام المصـرى منذ قديم الزمـان شهرة ذائعة فى الأفاق، وقد استخرجه الاقدمون من محجر واقع بين البحر الأحمر والنيل فى منطقة المنيا على مسافة أربعين فرسخا من النهر و١٥ فرسخا من البحر. وكانوا قد شادوا بالقرب منه مدينة سموها مدينة (البستروپوليس) أى مدينة الرخام وذاك المحجر هو الذى استخرج منه الرخام الذى صنعت به أجمل الآنية القديمة التى لاتزال نعجب بها حتى اليوم.

وهناك محجر آخر للرخام على مسيرة ثمانى ساعات من بنى سويف فى مصر الوسطى، وقد استكشف منذ سنوات وهو عظيم الاتساع، والرخام المستخرج منه من النوع الجيد وله على غيره ميزة جليلة وهو امكان نقل الكتل التى تقطع منه بأقل كلفة بالنظر إلى قربه. وقد بدأ الوالى باستخراج الرخام منه لينتفع به فى المسجد الذى يشتغل بتشييده بقلعة القاهرة.

وهذا الأثر الدينى الجليل قائم على أعمدة عديدة من الرخام كل عمود منها قطعة واحدة كما أن جدران المسجد مكسوة كلها بألواح من هذا الرخام النفيس.

٩ـ أحجار الزمــــرد

كان الأقدمون يعنون عناية تامة بالبحث عن الزمرد المصرى، ويطرون مزاياه ويفضلونه على الأحجار الكريمة، وإن لم يشغل قط المرتبة الأولى بينها. وهم إذا مالوا إليه فإنما هو لصفاء لونه. قال بليناس: «إن البصر إذا اعتراه التعب وجد الراحة بالنظر إلى الزمرد، ولا شىء غير هذا الحجر يريح العين بلطف لونه وصفاء مادته» فلا عجب إذا انصرف الأقدمون إلى التختم بالزمرد ليتمكنوا من النظر إليه كل حين إراحة لبصرهم وشرحا لصدورهم.

ومناجم الزمرد بضواحى مدينة (بيرينيس) وهى ثغر بحرى على شواطىء البحر الأحمر أسسه الملك (بطليموس فيلادلف) على نفس خط العرض الذى عليه مدينة أسوان. وتلك المناجم فى الجبل المعروف الآن باسم (زبارة) وقد عثر عليها حديثا الموسيو (كايو) وكان الزمرد معدن آخر على الضفة الغربية للنيل بالقرب من طهطا إحدى مدائن الصعيد.

١٠ـ الخشب المتحجر

فى الصحارى المجاورة لوادى النيل كثير من الأخشاب المتحجرة متفرقة هنا وهناك ، وهى تلفت النظر بما تحفظه من أشكالها وألوانها الأصلية. وعلى مسافة فرسخين ونصف خلف جبل المقطم واد رملى يحتوى - فى متسع من الأرض مساحته فرسخ مربع تقريبا - نباتات متحجرة أصلها غابة تحجرت فى هذا المكان ويؤخذ من شكلها أن الأشجار الغالبة فيها كانت النخل والجميز والغاب الهندى ومنها ما يبلغ الثمانين قدما طولا، وأنها احترقت فى الأزمان القديمة فتحولت إلى الحالة التى تشاهد الآن عليها.

ويحتوى وادى بحر بلا ماء أخشابا متحجرة أيضا، وكذا وادى التيه الذى يخترق الصحراء العربية من ضاحية القاهرة إلى سواحل البحر الأحمر على مسافة ٢٥ فرسخا فوق ثغر السويس.

١١ـ الحيوانات المتحجرة

تحتوى الأحجار الكلسية والجصية كافة تقريبا كميات عظيمة من الأصداف والأسماك الحفرية، وكثيرا ما تكون هذه الحفريات مندمجة بالبودنج. غير أن قلة تماسك الأسمنت الذى يضم عناصر هذه الأجزاء يعرضها أحيانا للانفصال والتبدد، وهذا هو علة وجود تلك الأصداف الحفرية مبعثرة عند سفوح الجبال وفى وادى القبور الواقع تجاه مدينة طيبة (الأقصر). وفى الصحراء المجاورة للأهرام أصداف كثيرة من هذا النوع يسميها الأهلون «قرون آمون».

وإذا حفرت الطبقات العميقة من أراضى القطر المصرى، ولاسيما فى الوجه البحرى ظهرت كتل كبيرة من الأصداف والحيوانات البحرية الحفرية. وظهورها البرهان الساطع على أن البحر كان إلى عهد غير بعيد يغمر تلك الجهات الواسعة من أراضى القطر المصرى. وفى وادى التيه أصداف تشبه قطع النقد وبعضها لايزيد حجمه على حجم العدسة.

١٢ـ الأحجار المختلفة

ومما يحتويه وادى التيه أيضا الحجر الصالح لطحن الحبوب (حجر الطاحون) وحجر اليهود الذى يشبه الزيتون شكلا وحجما. وفى جبل البرام الواقع شرقى أسوان باتجاه إلى الشمال منها نوع حجر تصنع منه الأوعية

التى يهيأ فيها الطعام وتعرف هناك بالبرام. وهذا هو السبب فى إطلاق اسمها على ذلك الجبل.

١٣ـ المعادن

أرض مصر لا معادن فيها .فإذا وجد فيها شيء منها فإنما هو آثار معادن لا تصلح ولاتفيد. وليس للحديد أثر بالمرة فيها، وغاية ما يعلم عن أمره أن النيل تحمل مياهه بعض ذرات منه، وأن بالقرب من أسوان نوع من الأحجار الجصية يدخل الحديد فى تركيبها . وقد عثر على النحاس فى جبل البرام استكشفه الموسيو (كايو) الذى استكشف أيضاً معدنا للرصاص بالقرب من منجم الزمرد فى جبل (زبارة).

١٤ـ الكبريت وزيت البترول والجبس

مفروض من باب الحدس والتخمين أن براكين منطفئة ومناجم للكبريت موجودة فى الجزء الواقع من سواحل البحر الأحمر تجاه أسوان، فقد عثر الموسيو كايو فعلا على معدن للكبريت قريب من الأماكن التى كان الزمرد يستخرج منها قديما فى الجبل المشهور باسم جبل الكبريت، وعلى سواحل البحر الأحمر عند الدرجة الثامنة والعشرين من العرض الشمالى جبل الزيت وبأسفله عين لزيت البترول. وفيما عدا هذا وذاك توجد فى جهات مختلفة من القطر المصرى مناجم للجبس عديدة وغنية بهذا الحجر، ولكن الجبس الذى يؤخذ منها من الصنف العادى الشديد الكثافة ولونه ضارب إلى الرمادى.

١٥ـ الفحم الحجرى

لو أن مناجم الفحم الحجرى موجودة فى مصر لعادت عليها بالفوائد الجليلة والمنافع الجمة بالنظر إلى قلة الاخشاب فيها، وليس ثم ما يدل على أن الأقدمين وقفوا على مناجم للفحم فى مصر واستخرجوه منها . وقد بذل علماء الحملة المصرية جهودا كثيرة لاستكشافها ، ولكنها ذهبت ضياعا كالجهود التى بذلت فى سبيل ما أمر به محمد على من البحث عن مناجم الفحم.

والذى يصح استنتاجه من الشكل الجيولوجى للأراضى فى القطر المصرى أن جميع الأبحاث التى ستعمل فى المستقبل لاستكشاف الفحم الحجرى لن تؤدى إلى نتيجة يحسن الوقوف عليها كالتى قام بها الباحثون المدققون حتى

الآن للوصول إلى هذا الغرض.

١٦- النطـــــرون

سبق لنا الكلام على النطرون المستخرج من البحيرات الشهيرة «بحيرات النطرون». وكان الراسخ في الأذهان إلى وقت وصول الحملة الفرنسية إلى مصر أن مناجم النطرون خاصة بهذه البحيرات لا تتعداها إلى غيرها. وهو وهم بيِّن الفساد فلقد استكشف النطرون فى جهات كثيرة من القطر المصرى منها الوادى الواقع فى الوجه القبلى على مسافة خمسة فراسخ من إسنا فإن النطرون يستخرج منه كما يستخرج من تلك البحيرات ومنها سواحل بحيرة (مريس) وبعض ضاحية الإسكندرية بالقرب من بحيرة مريوط وبرزخ السويس، وهذا فضلا عما تجلبه قوافل طرابلس الغرب ودارفور معها من تلك المادة.

١٧- النتـــــر

تعتبر المواد الملحية التى تحتويها أراضى القطر المصرى بمقادير وافرة من الخواص البارزة التى تميز هذا القطر على غيره من الأقطار. ففى الحقيقة توجد مناجم عديدة للملح الحفرى. ومنها ما يوجد فى الأراضى الحجرية التى يتكون منها قاع بركة قارون. فإن سطح هذه الأراضى يحتوى مقدارا من العناصر الملحية عظيما إلى حد لا يندر معه مشاهدة الجدران بعد الأمطار وقد اكتست بالمواد النترية. إلا أن هذا لا يشاهد غالبا إلا فى الاطلال المتراكمة حول المدن حيث يوجد النتر بمقادير وافرة.

واستخراج النتر صناعة واسعة النطاق، ويكون على البارد بتأثير الشمس وحدها فى حين أن استخراجه فى أوربا يستدعى استخدام النار.

وطريقة استخراجه على ذلك الوجه يكون بإلقاء ما يجمع من أنقاض المبانى القديمة فى أحواض عريضة قليلة العمق فيتحلل النتر بواسطة الغسل بالماء. فإذا تمت هذه العملية سيق الماء إلى أحواض أخرى أقل عمقا من السابقة فيتباخر بتأثير حرارة الشمس فى درجة ٤٠ إلى ٥٠ ويبقى النتر متبلورا. وقد أنشئت بالقاهرة أحواض متسعة للنتر. وأنشأ لمحمد على فيما بعد السنيور (رافى) الكيمى = الكيمائى = الإيطالى هذه الطريقة فى سنة ١٨٢١ أحواضا مثلها فى الجيزة وسقارة ودندرة وكوم أمبو حيث تكثر أطلال المبانى وأنقاضها.

١٨ـ الشــب

منذ قبض محمد على على زمام الديار المصرية استكشفت مناجم للشب بلغ هذا الحجر فيها كثرة تجاوزت حاجة الاستنفاد المحلى تجاوزا استدعى تصدير ما يفيض منه إلى الخارج.

١٩ ـ وليس فى مصر شىء من المعادن الأصلية. ذلك لأنها بلد زراعى قبل كل شىء، فإنه يبدو واضحا للناظر أن الطبيعة أرادت حرمانها مزاولة الصناعة لكى تنقطع إلى الزراعة فلم تجمع فيها الأسباب لمزاولة الصناعة كالفحم الحجرى والحديد والنحاس، وهى مقومات الآلات الصناعية ومدارها التى تدور عليه.

(٢)
النباتـــــات

مقدمة ــ عموميات ـ نباتات الصحراء ـ النباتات الصالحة للزراعة فى القطر المصرى ـ حدائق شبرى والروضة ـ حدائق الشرق ـ الغابات ـ تبليد نباتات أوروبا الجنوبية ـ النباتات الأجنبية التى ادخلت حديثا فى حدائق أصحاب الأشجار الأهلية ـ الأشجار الأجنبية ـ الأشجار الأهلية الفاكهة ـ الأشجار الفاكهية والنباتات التى أدخلت حديثا ــ النباتات الحبوبية والنجيلية ــ الحبوب غير النجيلية ـ الخضر والنباتات البقلية ـ النباتات الليفية النسيجية ــ نباتات الصباغة ـ النباتات ذات البذور الزيتية ـ النباتات الكلأية ـ النباتات الأخرى النافعة ـ أزهار الزينة ونباتاتها ـ المراعى فى الصحراء والواحات ـ النباتات الطبية.

٢٠ ـ مقدمـــــة

لم يوف مؤلفو الأزمان القديمة والعصور الوسطى (١) الكلام على نباتات مصر. وأول من حصر نباتاتها وضبطها هو العلامة النباتى الشهير (دوليل) الذى كان مرافقا للحملة الفرنسية ، ولم يكن عمله الخطير جامعا لشتات النباتات المصرية ولا مستقصيا وصفها، ولكن لما تمكن محمد على من تقرير قواعد الأمن والنظام فى القطر المصرى والصحارى المجاورة له، وفيما بين

(١) فى الأزمان القديمة هيرودتس وسترابون وديودورس الصقلى وبليناس وفى القرون الوسطى بروسبيرالبان والعرب، وبعد ذلك ليبى وفورسكال وغيرهما.

مصبات النيل والنوبة العليا استطاع علماء المواليد الثلاثة الجوس خلال هذه الأرجاء بلا خوف على حياتهم لإتمام العمل الذى بدأ به العلامة (دوليل). وهم إذا عجزوا عن حصر النباتات كلها واستقصائها بأبحاثهم فما ذلك إلا لأنهم كانوا يخافون على أنفسهم مغبة الإيغال فى الصحراء فجاء عملهم لهذا السبب ناقصا مبتورا.

ولما أنشئت مدرسة الطب فى أبى زعبل عهد تعليم علم النبات إلى أحد تلاميذ الأستاذ العلامة السنيور (فيفانى) الجنوى. ألا وهو السنيور (فيجارى) الذى كان فوق إحاطته بأطراف العلوم يميل كل الميل إلى علم النباتات أحد فروع علم المواليد الثلاثة، ولهذا نراه منذ اثنى عشر عاما دائبا مواصلة الجد فى البحث والتحقيق والاستقصاء فى أرجاء مصر المختلفة. وقد وصفت وصفا مستفاضا فى كتاب العلامة فيفانى. كما استكشف ما لا عداد له من النباتات الذائعة فى الأقاليم المختلفة. وقد قام العلامة فيجارى بأبحاث مهمة وتجارب خطيرة فى الزراعة ، وإليه معظم الفضل فيما التقطناه من المعلومات التى زينا بها حواشى هذا الفصل الموجز. على أننا لم نكتف بهذا الإيجاز. بل توسعنا فى جملة من موضوعاته فى الفصل المعقود خصيصا للزراعة المصرية.

٢١ ـ عموميات

النباتات الخاصة بأرض مصر محصورة العدد، فنباتات جهات الأهرام مثلا تتفق مع نباتات الأطلانطيق = الأطلنطى = التى ذكرها فيفيانى. أما نباتات الجهات المقابلة لتلك أى جهات شرق وادى النيل فتتفق مع نباتات بلاد العرب التى ذكرها العلامة (فورسكال) وأصلها من الصحراء. ثم اختلطت بنباتات الجهات المجاورة لضفة النيل.

وإذا اتجهنا نحو الشمال الغربى فى جزء الصحراء الممتد على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط فإنا لانلبث أن نجد فيها النباتات الخاصة بحوض هذا البحر.

وإذا واصلنا السير فى الصحراء إلى الحدود المتاخمة لبلاد الشام فإننا نجد فيها النباتات الخاصة بمنطقة فلسطين، وقد اجتازت تلك الحدود لتدخل مصر وتستقر فيها.

ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الموضوع أن النباتات الشائعة فى ضواحى غزة والعريش وبلبيس هى عين النباتات التى وصفها العلامة (أوليفييه) ضمن النباتات السورية الأصل. ومفهوم أننا فيما سبق من القول نقصد النباتات الحشيشية السنوية ونصف السنوية لاغيرها.

وإذا اتجهنا فى وادى النيل جنوبا حتى نبلغ إلى الدرجة السادسة والعشرين من العرض الشمالى فإننا نرى النباتات وقد اتخذت شكلا خاصا غير شكلها فى الجهات الأخرى، لأن أصلها من النباتات النوبية الطارئة على القطر المصرى.

٢٢ـ نباتات الصحـــــراء

أنواع النباتات الخاصة بمصر توجد منعزلة بالصحارى القاحلة وقليل منها يوجد فى الأودية التى تتخلل سلسلة جبال المقطم وأنواعها الخاصة المجاورة لضفاف النيل والترع والبحيرات والمستنقعات بالوجه القبلى قليلة محصورة العدد أيضًا.

وليس لنباتات الحقول من الوجهة العلمية شأن خاص يستدعى الاهتمام بها لأننا إذا ضاهيناها بمقابلها من نباتات أوربا ألفينا الأنواع التى تتألف منها قليلة بخلاف نباتات الصحراء والأودية المتغلغلة فى سلاسل جبال العرب وليبية. فإنها حرية = جديرة = بعناية علماء النبات وتوفرهم على البحث فيها. على أن فيها من الخصائص ما يجعلها بنباتات جبال الألب أشبه منها بالنباتات المصرية البحتة.

والأنواع النابتة فى الرمال تكاد تكون كلها سنوية أو نصف سنوية. أما التى تبقى قائمة على سوقها أكثر من هاتين المدتين فنادرة جدا، ويذكرون من هذا النوع صنفين من السنط الشوكى.

ونباتات الصحراء ترى فى الأصقاع المنعزلة المنخفضة أرضها انخفاضا محسوسا عن الأرضين = الأراضى = المحيطة بها الشبيهة بأودية أهليلجية الشكل أبعادها طولا وقصرا أو تتجه بوجه عام من الشرق إلى الغرب مع ارتفاع الأرض الحافة بها من الشمال والجنوب.

وتبدو الصحراء لعين العالم النباتى كبسيط أرض انتثرت فى أرجائه جزر

صغيرة غير متناسقة تحتوى مختلف النباتات وتلك الجزر الخصيبة المجللة بالأعشاب الخضراء مراتع الغزلان التى ترتاد المراعى لغذائها.

والنباتات العطرية منتشرة فى الصحراء، ومنها ما هو من صغر الحجم وكدرة اللون بحيث يتعذر على حديد = قوى = البصر تمييزه بعضه عن بعض، على أن فى منظر بعض تباتات الصحراء ما يسبب الاغترار والخطأ فمن ذلك أن السائر فيها كثيرا ما يخيل له من بعيد أنه يرى شجرة باسقة فإذا ما يراه فتاة قد بدت لناظره فى شكل الشجرة، وكثيرا ما يتفق له بسبب السراب أن يرى قمم الأشجار تعلو فوق سطح الماء والحقيقة أن شيئا من ذلك غير كائن ولا بصحيح وإنما هو السراب المغرر الخادع.

والماء باختراقه وجه الأرض فى الشتاء حيث يندر هطول الأمطار يرسم فيها خطوطا كما يفعل الحراث، وتكون فيه ذرات قليلة من الطين وأوكسيد الحديد وبذور مختلفة. فإذا اجتمعت هذه المواد المختلفة فى الجزر الأرضية الصغيرة التى تكون فى العادة أوطأ مما حولها من الأرض وجاء ت الرياح حاملة إليها من الجهات القصية بذورا أخرى فإن هذه البذور وتلك لا تلبث متى حان ميعاد الإنبات فى فبراير غالبا أن تنبت وتنبثق أوراقها وتزهر فى مارس أو أبريل. وفى شهر مايو يقف نمو النبات ، وفى يونيو وبقية الصيف لا تقع العين إلا على سهول قاحلة جرداء.

ولون نباتات الصحراء أخضر ضارب إلى البياض عادة وأنسجته جافة لايجرى فيها من العصارة النباتية إلا النزر اليسير وهى جميعا على وجه التقريب من النبات ذات الفلقتين الوبرية الخشنة الملمس وترتفع على سطح الأرض قليلا ولها جذور عميقة خيطية الشكل تمتد بعيدا فى باطن الأرض.

وأكثر الشجيرات شيوعا فى الصحراء على الحالة الطبيعية شجيرة السيال المعروفة عند العرب بالسيالة، وسماها العلامة دوليل (أكاسياسيال). وهى قليلة الارتفاع تكاد تكون عديمة الورق ذات شوك طويل يشبه فى لونه بياض الفضية[1] أما فروعها فمغطاة ببشرة - أى غلاف خشن يشبه ملمسه ملمس قروش السمك، ولونها أحمر غامق، ونادراً ما تزهر وتكون تلك الشجيرة

(١) جاء فى القاموس المحيط للفيروزبادى فى مادة «سال» السيالة كسحابة نبات له شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن.

محاطة عادة برمل رفيع جدا يجتمع عند أصلها ثم يرتفع شيئا فشيئا إلى نصف ساقها. ويتفق أحيانا أن يغطيها الرمل فتكون الآكام الصغيرة التى تنشأ منه أصلا للكثبان الرملية الكبيرة.

ونادرا ما يشاهد النخل فى الحالة البرية. عل أنه يصادف أحيانا كذلك فى الصحراء وفى أودية المقطم. وعندئذ يكون قصيرا تحيط به أصول السعف المقطوع أو الذابل منثنية أو متدلية وقد حف بها الشوك، ويرى فى قمتها السعف الأخضر منبثقا باهت اللون خشن الملمس. وهذا الصنف من النخل لا يأتى بزهر أبدا وإذا أزهر بفلتة من فلتات الطبيعة فإن ثمره يكون رديئا، وقد اعتاد الغربان وحشرة شبيهة بالجعل إتخاذ سعف هذا النخل أو كارا لها.

٢٣ـ الأرض الصالحة للزراعة فى القطر المصرى

اشتهرت مصر فى كل زمان بفرط خصبها وجودة حاصلاتها ووفرة غلاتها. وهذه المزايا ترجع بلا ريب إلى ثلاثة عوامل: الأرض والطقس ومثابرة الفلاح على العمل.

ومن العبث التحدث بنعم أرض مصر وخيراتها العميمة، والقول بأن الفضل فيها يرجع إلى النيل وفيضان مائه. فلقد سبق لى من الكلام فى هذا الموضوع ما يجعلنى فى غنى عن تكراره، وغاية ما يصح لى الإفاضة فى موضوعه الطمى. فإن الطمى لا يكفى وحده لتكوين التربة الصالحة للإنبات إلا إذا مزج بالرمل بواسطة الحرث.

أما الأراضى الكثيرة الرمل فلا تناسب من النبات إلا الخفيف الجذور رفيعها الذى يستطيع النفوذ بلا جهد فى هذا النوع من الأرض. أما الأرض الطينية الطميية التى تتألف منها الأرض القابلة للزراعة فى القطر المصرى فمختلطة فى كل مكان بالمواد الملحية التى تعاون على نمو النباتات الكبيرة.

وطقس مصر يساعد بحرارته فعل مياه النيل وتأثيرها المخصب. فليس بغريب إذن أن نرى الحقول الفسيحة وقد أزينت بالأزهار. ويتم العمل فى الحقول الزراعية بقصارى ما يتصور من السهولة فى أقصر وقت وبأقل ما يمكن من الأيدى العاملة.

وإذا كانت عوامل الطبيعة ومؤثراتها قد جاء ت منقادة إلى ملاك الأطيان فى

مصر لتكون تحت تصرفهم فى خدمة أراضيهم فهم وحدهم المسئولون عن مقدار ما تنتجه هذه الأراضى من الثمار والمنافع قلة وكثرة. ومما لا شك فيه أنهم إذا استحكم فيهم الجهل أو استناموا إلى الدعة والكسل فلم يهبوا من رقادهم ليعملوا على تنمية موارد رزقهم ولم يستخدموا تلك الهبات الطبيعية للبلوغ إلى ذلك الغرض فإنهم يفوتون على نفوسهم المال الكثير والخير الوفير.

أما إذا كانوا على إرث من الذكاء والاجتهاد فإنهم ينتفعون به فى مرافقهم ويرفعون شأنهم بإنماء ثروتهم، وهو ما نشاهده منهم اليوم والحمد لله.

وفى الواقع فإن مصر إذا شوهدت الآن وقد بسقت فيها الأشجار فى كل مكان، وبدا من منظرها بضواحى القاهرة والوجه البحرى ما يشبه الغابات فإنما يرجع هذا الفضل إلى ذلك الرجل العبقرى الواضع يده على زمام أمورها والآخذ بها إلى أسمى المنازل ومعالى الرتب. فلقد غرس هذا الوالى حفظه الله فى سنوات قليلة بالوجه البحرى وحده ستة عشر مليونا من الأشجار وأنفق إبراهيم باشا الأموال الكثيرة على إنشاء المزارع والمغارس فى أرجاء وادى النيل. فبعنايته المتواصلة ورعايته العالية غرست خمسة ملايين وألف وخمسمائة وأربعة وثلاثون شجرة من خمسة وعشرين نوعا من أنواع أشجار الغابات وخمسمائة واثنان وثمانون ألفا ومائتان وخمس عشرة شجرة من واحد وأربعين نوعا من أنواع الفاكهة تنقسم إلى سبعمائة وأربعة وثلاثين صنفا مختلفا. وكان عدد أنواع الأشجار الخاصة بالقطر المصرى قبل بضع سنوات لا يتجاوز اثنى عشر نوعا . كما كان لايوجد بها من الشجيرات التى لا يتجاوز ارتفاعها القدمين سوى ثمانية عشر نوعا، وكانت هذه الأشجار والشجيرات بأنواعها المذكورة متفرقة على ضفاف النيل أو مبعثرة هنا وهناك حول السواقى.

٢٤ـ حدائق شبرى = شبرا = والروضة

مما يساعد على تقدم زراعة النباتات والأزهار قيام الوالى وابنه الكريم إبراهيم بإنشاء الحدائق الفخمة فى بعض جهات القطر. وأهم هذه الحدائق انفساح مدى وحسن تنسيق حديقتى شبرى والروضة. والأولى منهما بقرب النيل على مسافة فرسخ واحد تقريبا من القاهرة شمالا، ويوصل إليها منها طريق واسع مستقيم مظلل بالأشجار الحافة بعطفيه. وتحتوى هذه الحديقة دارا

خلوية أنشأها الوالى على نمط المبانى البيزنطية (الإسلامبولية) وجمع بداخلها من الرياش الجميل والأثاث الثمين مايلفت النظر بحسنه تنسيقا فى الوضع وسلامة ذوق فى الاختيار.

وبطرف الحديقة المقابل لهذا القصر الجميل الجليل أنشأ محمد كشكا ظريفا وهو عبارة عن بناية مربعة ذرع = طول = محيطها ألف قدم، وأقام فيها الأعمدة من الرخام والمرمر الشرقى وجعل بداخلها نافورة جميلة من رخام إيطاليا (كرارى) ينبثق منها الماء المستمد من النيل بواسطة إحدى السواقى فيظل المقيم بجوارها يستشعر بطراوة طويلة يسكن إليها. ويضاء القصر والكشك أثناء الليل بجهاز من الغاز الأيدروجينى يقوم على إدارته وتعهده آلى = عامل = ماهر من الإنجليز.

والطباق متوافر بين جبال الحديقة وجلال المبانى الضخمة التى تحتويها، ففى الحديقة ما لا يعد ولا يحصى من صنوف أشجار الفاكهة الغضة والأشجار المجلوبة من الخارج، وهى ثمينة القيمة بندرتها وعدم وجود ما يضارعها والنباتات العطرية التى يتألف من مجموعها على اختلاف أشكالها وألوانها مايجذب النظر أمثالها بالحدائق الأوربية ويسهل المواصلات بين أطرافها المتنائية.

أما جزيرة الروضة التى ضربت بخصبها الأمثال من قديم الزمان فيرجع فضل تنظيمها وتنسيقها إلى حضرة إبراهيم باشا . فإن هذا الأمير الجليل ما كاد يضع يده على أرضها بالشراء من أربابها حتى جعلها قسمين كل قسم منهما حديقة قائمة بذاتها ، فالحديقة الأولى نسقت بحسب الأسلوب الإنجليزى والأخرى بمقتضى الطريقة الفرنسية ووكل أمر الحديقتين إلى إثنين من مهرة البستانيين وهما تجمعان الآن أغلب النباتات الأوربية والأمريكية والهندية.

٢٥ـ حدائق الشرق

إن شهرة الحدائق الشرقية غنية عن البيان. وقد أذاعت مفاخرها بيننا قصص ألف ليلة وليلة فإذا تخيلناها على ما وصفت به فى هذه القصص خيل لنا أننا نستنشق رياها = ريحها = العطر. والسبب فى أن العرب خصوا الحدائق بعنايتهم الفائقة راجع إلى كونهم سكان قفار قاحلة تتسلط عليها حرارة الشمس المدارية فلا جرم إذا رأوا فى انبثاق النبت وتكاثف الخضرة

معجزة من المعجزات فحصوها = فعدوها = فى انبثاق النبت وتكاثف الخضرة معجزة من المعجزات فخصوها بالإطناب فيها بشعرهم والإشادة بما تمده من الظلال الوارفة، ويجرى فيها من الماء السلسبيل المنعش بطراوته، بل لاعجب إذا رأوا فيها النعمة السابغة حفهم الله بها من فضله والنعيم الذى لا يدانيه نعيم فى الوجود، بل لا غرابة إذا وضعوا الجنة فى وسط ما طمحت إليه آمالهم واشرأبت إليه أعناقهم من غضارة العيش والسعادة فى ذلك النعيم المقيم.

وليس فى حدائق الشرق ما يجعلها شبيهة بالحدائق فى البلاد الأوربية. إذ إنها خالية من أثر التجانس والتناظر المبنيين على دقائق العلم والفنون الهندسية. ولا شىء يذكر الجالس خلالها بما ازينت به حدائقنا من الأزهار التى نسقت أوضاعها على أحسن مثال، ولا بما امتازت به الحدائق الإنجليزية من لطف التركيب فى الجمع بين أقسامها المنسقة وأنواع نباتاتها المرتبة. إذ غاية ما يشاهد فى تلك الحدائق إنما هو أشجار الفاكهة مزاوجة لأشجار الزينة ومجاورة لها بلا نظام معروف ولا نسق مألوفا فترى أغصان هذه ملتفة بأغصان تلك لم يشذبها مشذب التقليم، ولم تباشرها يد التنميق والتنظيم. وكثيرا ما يحدث لهذا السبب أن تتداخل الأغصان فى الأغصان. وتتشابك الأشجار بالأشجار فتتدلى أغصانها الملتفة إلى الأرض لثقلها فلا يستطيع أحد أن يمر من تحتها إلا إذا أحنى جسمه أو حبا على الأرض حبوا. بل يخيل له أن هذه الأوكار النباتية الطرية التى يكاد يكون السلوك فيها متعذرا انما جعلت للعزلة وتبادل الأسرار الغرامية.

وفى حدائق مصر ترى أشجار الليمون والبرتقال والتين والجميز والنخل وغيرها متزاحمة متلاحمة، وأزهارها تفرش الأرض ببساط تتضوع منه الروائح العطرية والمياه المتشبعة خلالها منبثقة فى النافورات ومتدفقة الأحواض ثم منسابة بأطراف الحديقة فى جداول تتلوى تلوى الأفعوان فتروى أصول الأشجار، والكشوك = الأكشاك = الجميلة بين هذه الأشجار الباسقة تمتد فوق قبابها أغصان النباتات الغضة مرصعة بالأزهار الزاهية الألوان.

ويميل الأتراك جميعا ـ ماداموا على شىء من الثروة ـ إلى إنشاء الحدائق على هذا المثال. وتكون حدائقهم أحيانا بداخل المدن، وفى وسطها الدور لسكنى نسائهم ، ولكنها تنشأ غالبا فى الضواحى والأرياف. وأجمل الحدائق الريفية فى القطر المصرى ما كان منها بالدلتا، ولاسيما بالفيوم.

٢٦ـ الغابات

زعموا أن مصر كانت تحتوى قديما غابات كثيرة. ولو قيل لنا أن هذه الغابات كانت فى الأرض القابلة للزراعة من الخصوبة بحيث لا يفكر أصحابها فى أن يجعلوها كلها أو بعضها - فى حال ما - غابات لايستفيدون من وراء تعهدها إلا الحطب الجاف. ولكن بعض المؤلفين يذهبون إلى أن الجبال الحافة بوادى النيل يمنة ويسرة كانت فيما سلف مجللة = مغطاة = بالأشجار. وهذا الزعم كسلفه فى الخطأ والفساد لأن مجرد نظرة إلى تلك الجبال تكفى للإقناع بأنها لم تكتس فى يوم ما بما لا ينبت عادة إلا فى الأراضى الزراعية، وأنها جبال جرداء لا يستطيع النظر أن يلتقى بقشة واحدة على سطحها القاحل.

فلو فرض وجود تربة فيها كتربة الأرض الخصيبة فإنه ينبغى أن تظل آثارها باقية حتى الآن، إذ لايمكن التسليم بإمكان تجريد الجبال منها. يضاف إلى ما سبق أن هذه الجبال لاتنزل عليها الأمطار ليقال إن مياهها جرفتها وذهبت بها. على أنه بافتراض أنها كانت مغرسا لأشجار الغابات فإن الأمطار التى تهطل عليها لاتكفى لريها وإنباتها فضلا عن أنه كان من الواجب أن يبقى منها بعد اندثارها آثار ماثلة حتى الآن. والمعلوم أن الآثار الغابية التى بقيت على مر الأجيال إنما هى آثار شجر الجميز وأشجار أخرى من التى لا طاقة لها على النمو والبقاء إلا فى الأراضى العميقة التى يوافيها ماء الرى كل حين.

ليس فى القطر المصرى من الغابات الطبيعية سوى ما يتألف من أشجار النخل. والغابات من هذا القبيل كثيرة العدد فى القسم الشرقى من الوجه البحرى - أى فى مديرية الشرقية ثم فى الطريق الموصل من العريش إلى الصالحية من جهة وإلى بلبيس من جهة أخرى. وفى ضواحى القاهرة غابات نخل كثيرة بعضها بالجيزة فى مواقع مدينة (منفيس) القديمة بالقرب من بلدة (أم خنان) وهناك غابات نخل أخرى فى (بركة الحج) بالقرب من (الخانقاه) حيث هزم الصدر الأعظم بانتصار الجنرال كليبر عليه الانتصار المبين فى الواقعة المعروفة بواقعة عين شمس.

٢٧ـ تبليد نباتات أوربا الجنوبية

إن طقس مصر وطبيعة أرضها يتفقان تمام الاتفاق مع تبليد النباتات الجنوبية فى نصفى الكرة الأرضية وتجنيسها بما تقتضيه الطبيعة فى مصر

فمن المستطاع والحالة هذه ـ باتخاذ مصر نقطة وسطى بين هذين الطرفين ـ الوصول إلى تبليد النباتات الهندية فى البلاد الأوربية.

ومن طبيعة النباتات في مصر سرعة النمو، وهو ما يشاهد بنوع خاص فى نباتات أوربا الجنوبية . فلا غرابة إذا عاشت هذه النباتات فى الديار المصرية أقل مما تعيش فى بلادها الأصلية، وهى تأتى بثمار وفيرة ولكن صغيرة الحجم غير لذيذة الطعم. نعم قد تمكن العارفون من تحسين نوعها بعملية التطعيم، ولكن ينتهى الأمر بها دواما إلى التغير والفساد بعد سنوات قليلة.

ومثل هذا يقال عن النباتات البقلية التى أدخلت على الزراعة المصرية. فإن البذور التى تؤخذ منها تكون رديئة بوجه عام.

ومن هذا القبيل أن البطاطس الأوربى إذا زرع فى أرض مصر أتى بمحصول وفير جدا. ولكنه إذا زرع فى السنة التالية من بطاطس هذا المحصول فإن محصوله يكون أقل من هذا كمية وأردأ صنفا. وكذا بذور البنجر الأوربى تعطى فى السنة الأولى محصولا عجيبا. حتى أن البنجرة الواحدة كثيرا ما يبلغ وزنها كيلو جراما وتكون كثيرة المادة السكرية، ولكنها إذا زرعت فى السنة التالية من بذور المحصول الأول أعطت نباتا كثير الورق ولكنه عديم البذور تقريبا وقليل السكر.

ومن المحتمل أنه بمضى الزمن يمكن الوصول إلى أحسن من هذه النتائج باستئناف التجارب وتدوين الملحوظات وتطبيق ما تهدى إليه من وسائل العناية والتعهد.

٢٨ ـ النباتات الأجنبية التى أدخلت فى حدائق أصحاب السمو

من هذه النباتات شجرة (القاقللى) الهندية وهى منتشرة حسنة النمو

وشجرة (ترمينااليا) الهندية، ويزرع منها الآن صنفان كبيران.

وشجرة (سرسيس سليكستروم).

وشجرة (الميس) البروفنسية.

وشجرة (التنكا) الهندية.

وشجرة (الصندل) الأبيض.

وشجرة (الاثل).

وشجرة (البن).

ولم تتبلد هذه الشجرة الأخيرة إلا بعد صعوبات جمة. على أن منها الآن بضع شجيرات نمت نموا حسنا . بعضها فى الحدائق الخاصة بابراهيم باشا وقد بلغت من النمو فى الأرض الطلقة من إثنى عشر إلى خمسة عشر قدما، وهى تثمر مقدارا عظيما من حبوب البن. والمرجح أن نجاح زراعته يكون أضمن فى الوجه القبلى منه فى الوجه البحرى لأن هذه الجهة تشبه بموقعها من خطوط العرض وبطبيعة أرضها طبيعة أرض بلاد اليمن.

وشجرة الغاب الهندى، وقد تحسنت بالتبليد تحسنا صارت به على شىء كثير من الحسن، وقد انتشرت فى كل مكان ولاتزال آخذة فى الانتشار.

ثم الشجيرات من الفصيلة الجبهانية.

والفصيلة الآسية ومنها أصناف نادرة المثال.

والفصيلة الغارية، ومنها شجرتا القرفة والكافور وغيرهما.

وفصيلة خانق الكلاب، ومنها الجوز المقىء وأصناف أخرى غيره.

والفصيلة الزاروندية، ومنها شجرة الفانيلا التى تنجح نجاحا تاما كنبات طفيلى ينمو على أشجار التوت الكبيرة.

والفصيلة الشنينية (ومنها نبات تلومبيوم سبيسيوزوم) الذى يزين أحواض الماء هو والبشنين المصرى.

وشجرة (طاليا ديالباتا) وتوجد بين هذين النباتين المائيين.

وقد بعث الاستاذ العلامة (دوليل) هذا النبات الأخير مع نباتات أخرى من حديقة نباتات مونبلييه.

وشجرة (فيلولاكاديوئيكا) وتنمو نموا عظيما ويعظم حجمها وشجرة (كونفولفولوس بتاتا) ومنه بطاطة اليمن التى تنجح زراعتها فى مصر نجاحا باهرا ، وستكون فى عداد بقولها المهمة.

وشجرة (كوبر ستوس سميرفيرنس، لينيه) المعروفة عند العرب بالسرو.

وهى فى مصر كثيرة، وتزرع على حافات المسالك وأعطاف الطرق، وتنمو

بسرعة بالغة . حتى أن ارتفاعها ليبلغ من ست أقدام إلى سبع فى السنة الثانية لغرس بذورها، والشرقيون لا يتخذون هذا الشجر كما يتخذه أهل أوربا رمزا للحزن وزينة خاصة بالمقابر.

وشجرة (بينوس هابنسيس، ميلر) المعروفة عند العرب بالصنوبر والتنوب.

والمهمة مبذولة لتكثيره.

وشجرة (موروس ألبا، لينيه) المعروفة عند العرب بالتوت البلدى.

وشجرة (موروس نيجرا، لينيه) المعروفة عند العرب بالتوت الشامى.

وقد غرست فى هذه الأيام ثلاثة ملايين شجيرة بالوجه البحرى على مسطح من الأرض مساحته عشرة آلاف فدان. وأشجار التوت تورق فى شهر يناير ويبلغ ورقها حد النمو فى منتصف فبراير والطقس فى مصر موافق لها كل الموافقة . لأنه لا يمضى على غرسها زمن طويل حتى تنمو نموا حسنا.

أما التوت الأسود - أى التوت الشامى فإنه يجنى منها ويباع بالطرقات ويحب الأهلون أكله.

وشجرة (أوليا أوربيا، لينيه) المعروفة بشجرة الزيتون.

والظاهر أن هذه الشجرة وجدت فى مصر منذ الأعصر القديمة، ولايزال إقليم الفيوم المعروف بخصبه يحتوى القدر الوفير منها وقد بلغ بعض هذه الأشجار من النمو مبلغا يخيل للرائى معه أنها غرست قبل الفتح الإسلامى لأن الاعتقاد سائد بأن شجر الزيتون لم تهيأ له المزارع منذ ذلك الوقت حتى الآن.

٢٩ – ومع أن أرض مصر تلائم زراعة شجر الزيتون ملاء مة عجيبة، إذ إنه لا ينقضى على غرسها ثلاث سنوات حتى تأتى بثمارها الوفيرة، فإن هذه الشجرة الثمينة أهملها العرب وطرحوها فى زوايا النسيان. ولم يتعذر على محمد على إدراك ما ينجم من المزايا الجليلة عن زراعة الزيتون فى مصر خصوصا وأن هذه الزراعة تكفيها مؤونة جلب الزيت من الخارج كما تفعل حتى الآن، وتؤدى إلى الشعب المصرى غذاء جديدا فوق ما اعتادوه من الأغذية فتراه لهذه الأسباب باذلا الجهود العظيمة لإعداد مزارع الزيتون وتنمية أشجاره فيها. ولابراهيم باشا فى حدائقه الكثيرة نحو مائة ألف عود من الزيتون. وزيتون مصر مشهور بكبر الحجم وكثرة اللحم.

وشجرة (سلكس سبسراتا، ولدنوف) المعروفة بشجرة الصفصاف.

وشجرة (سلكس بابيلاتيكا، لينيه) وهى نوع آخر من الصفصاف.

وهذان النوعان كثيرا الانتشار، ومنهما تتخذ الحكومة الفحم الذى تستعمله فى صناعة البارود.

وشجرة (أولموس كميستريس) المعروفة عند العرب بشجرة الدردار أو الغرغاج.

وشجرة (ميرتوس كومونيس) المعروف بالمرسين.

وهى تزرع بالحدائق وتباع أغصانها لليهود لمصلحة لهم فيها أيام أعيادهم.

وشجرة (تمركس جليكا ـ تمركس أورينتاليس، لينيه) المعروف بالأثلة والطرفة.

وتزرع هذه الشجرة خصيصا لأجل ظلها. وتوجد عادة حول السواقى ومن خشبها يتخذ الفحم، ومن نتوءاتها تستخرج الصبغة السوداء وتستعمل هذه النتوءات أيضاً فى دبغ الجلود.

٣٠ـ الأشجار الأجنبية

تحتوى الحدائق، ولاسيما حدائق حضرة إبراهيم باشا فى جزيرة الروضة:

شجرة جرافة البراغيث (بتولا ألبا، لينيه).

وشجرة الميس البروفنسى (سلتيس أستراليس، لينيه)

وشجرة اللوز أو البدام (ترميناليا كتابا، لينيه).

وشجرة الأرخوان، أو شجرة يهوذا (سروى سيليجستروم، لينيه).

وشجرة جوزة الزنج (ستركوليا بلاتانيفوليا).

وشجرة اسفندان الجميز (آسر بسودو بلاتانوس، لينيه).

وشجرة اسفندان الدلب أو الساج أو الجنار (آسر بلاتانوئيد، لينيه).

وشجرة اسفندان الغيطان أو الجرستق (آسر كمبسترا، لينيه).

وشجرة الاسفندان ذات ورق لسان العصفور (آسر نيجوندو، لينيه).

وشجرة فيلاريا ذات الأوراق العريضة (فيلاريا لاتيفوليا، لينيه).

ومن الأشجار التى فى حدائق الوجه البحرى:

شجرة الدلب الشرقى (بلاتانوس أورينتاليس، لينيه) وهى كثيرة الانتشار.

وشجرة لسان العصفور (فراكسينوس أورموس، لينيه).

وشجرة المران (فراكسينوس اكسلسيور، لينيه).

وشجرة (روبينيا بسودو اكاسيا، لينيه).

وشجرة الفول الأمريكانية (جليد ستشياثيا كنتوس، لينيه).

وهناك أصناف اخرى مختلفة أدخلت حديثا ، ومنها تتخذ الزرابى المحيطة بالحظائر.

وشجرة الحور أطلق عليها العلامة لينيه اسم (بوبوليس ثريمولا).

وأنواع مختلفة من شجرة السرو وهى: (دستيكا، بندولا، أوريزونتالس) وهى عديدة.

وشجرة الصنوبر الغابى (ثويا أورينتالس، لينيه) وهذان النوعان منتشران انتشاراً عظيما فى الحدائق.

وشجرة القرو (كركوس) وهى نادرة الوجود.

وهذه الأشجار كلها زراعتها ناجحة ، وتنقل من الحدائق إلى المزارع الواسعة.

ولوحظ أن النباتات الليفية تتبلد بسهولة متى أعتنى بها فى أول الأمر. ووجه العناية بها أن توضع فى أمكنة ملائمة لها ومظللة . على أن تكون الأرض خفيفة رطبة وافرة مواد النماء. فإنه بمراعاة هذه الشروط تنبت البذور وتنمو النباتات ويتيسر بعد مضى ثلاث سنوات وضعها فى الحدائق فتنمو نموا سريعا مطرداً.

ومما يستدعى الدهشة أن الزيزفون وشجر الغاز الكرازى لايوجدان حتى الآن فى مصر، وأن شجرة الشاهبلوط الهندية لا أثر لها فيها بالمرة.

وشجرة البان (مورنجا أولئيفيرا، لينيه) وهى شائعة فى النوبة واليمن وثمرها محمود، وهو على شكل الجوز، لما توافر فيه من الخواص الطبية.

وقد أدخلها إبراهيم باشا منذ نحو خمسة عشر عاما، ومنذ هذا الحين

انتشرت انتشارا عظيما.

٣١ـ أشجار الفواكه الأهلية

شجرة اللوز (اميجدالوس كومونيس).

الصنفان اللذان يثمران اللوز الحلو واللوز المر يزرعان بمصر، ولكنهما قليلا الانتشار وثمارهما متوسطة النوع.

وشجرة الموز (موزا براد يزياكا).

لا توجد إلا فى الوجه البحرى ومصر الوسطى على أنها لا تستنبت إلا فى الحدائق، وإذا زرعت فى الأرض البراح= الجالية = تعرض جذعها الحامل لأوراقها الكبيرة لصدمات الرياح. والتين الموزى بعيد النوع . إلا أن ثمره لايزال نادرا. وبالتالى مرغوبا به ولذا لا يرى إلا فى موائد الاغنياء.

شجرة البلح أو النخلة (فينكس دكتيليفيرا).

يطلق المصريون على أنثى هذا الشجر «النخلة» وعلى الذكر «الذكر» والنخل منتشر فى جميع أصقاع مصر العليا ومصر الوسطى. وينمو فى الواحات وحدود الصحراء، وقد وجد بمصر فى كل زمان بدليل أن تيجان الأعمدة فى الآثار القديمة محلاة برسوم تمثل سعفه منضما. وهو ينمو بغير تعهد ولا أقل عناية ولا تدبير زراعى سابق غير أنه إذا أريد الحصول منه على الثمار الجيدة الوفيرة فلابد من إرواء أرضه والعناية بتقليمه فى كل عام، وتجتمع أشجار النخل فى الغالب على شكل غابات عظيمة تعد فيها بمئات الألوف. ومنظرها يؤثر فى النفس لما فيه من الهيبة والجلال وإذا جاس الإنسان خلالها خيل له أنه سائر تحت قباب هيكل عظيم مهيب. بل إذا نظر تلك الجذوع العارية السامية إلى ارتفاع ستين أو ثمانين قدما ظن أنه يرى تلك الأعمدة الرشيقة التى أذاعتها هندسة القرون الوسطى فى مبانيها المنظمة وآثارها المتحدة . إذ تجد مجموعات الأوراق العريضة السميكة المتوجة للأعمدة متزاوجة متعانقة. فيتكون منها ما يشبه تقوس القباب وتوافرت به وجوه الشبه على النمط السالف.

ولأشجار النخل أربعة وثمانون صنفا يميزها بعضها عن بعض اللون والشكل والحجم والنوع. ومن حيث اللون يمكن تقسيم تلك الأشجار إلى ثلاثة أقسام . القسم الأول النخل الذى يثمر البلح الأحمر، والثانى النخل ذو البلح

الأصفر والثالث النخل ذو البلح الضارب إلى البياض.

وإذا كانت النخلة منعزلة لايجاورها نخل آخر بدت للرائى رشيقة الشكل، وانه لما يروق للعين أن ترى وسط السيف = الزعف = المتفرع من رأسها أعذاقا جسيمة من البلح معلقة بأسفل تلك الأوراق، وكثيرا ما يبلغ وزنها بضعة قناطير من البلح. والبلح كما هو معلوم ثمر جيد حلو المذاق وافر مواد التغذية. وأصنافه كثيرة مختلفة وما يرد منها من الصعيد والواحات أحلاها مذاقا وألذها طعما.

ويبتدىء نضجه في الوجه القبلي في أواخر يونيو، وفى الجهات الأخرى بعد ذلك بشهر على وجه التقريب. وهم لا يدعونه ينضج على أمه - أى على شجرته. بل يقطفونه قبل أوان النضج ويحفظونه عندهم مدة من الزمن يبلغ فيها إلى الدرجة الملائمة من النمو ثم يباع بعد ذلك في المدن حيث يتطعم به كل الناس على السواء. وهو غذاء اقتصادى في متناول يد الفقير. فالبلح من هذه الوجهة نعمة من نعم الله أسبغها على سكان أهل مصر . وليس كل البلح يؤكل طازجا بل منه ما يعجن كعجين الخبز ويستنفد على هذا الشكل خلال السنة.

ومن البلح تستخرج ثلاثة أشربة، وهى الشراب المعروف بالعرقى ونوع من الخل والشراب المعروف بالدبس أورب البلح.

ولم يكن النخل من الأشجار المباركة لثماره فقط. بل أيضا لما ينتفع به في المعيشة من أجزائه التى يتكون منها جميعا. فإنه ما من جزء من أجزائه إلا وتبنى عليه مصلحة وتستمد منه منفعة. فبالأوراق تصنع الحصر للجلوس والقفف للمصالح البيتية، ومذبات = مضارب = طرد الذباب التى كثيرا ما تجلب إلى أوربا كأداة من الأدوات الغريبة وبالأغشية التى تغلف السعف عند عراجينه وتعرف باسم الليف تصنع الحبال اللازمة في مرافق الزراعة ومنافع النقل وغيرهما.. إلخ وبالفروع المتصلة بها أعذاق = سباط = البلح تصنع الحبال الطويلة المتينة وقد يخلط بها ورق السعف فتكون الحبال المصنوعة على هذه الكيفية ملساء ناعمة. وينتفع بالفروع في وضعها بين الأخشاب التى تسقف بها المنازل فتنزل منها بمنزلة ألواح الخشب ومنها تتخذ الأقفاص للطيور والأسرة والكراسى وغيرها.

والطرف الغليظ من العرجون ينزع من النخلة وهو كثير الألياف فإذا دق بجسم ثقيل تفككت أليافه وصنعت منها المكانس لتنظيف البيوت.

وإذا أدركت النخلة - أى بلغت أوان الإزهار فإن عضو التأنيث يتولد منه نوع من الليف يزيد سمكه على سمك شعر الخيل ، ويصلح فى الحمامات لدلك الجسم به مع الصابون.

وجذوع النخل تستعمل عادة مكان العروق الخشبية فى العمارات وغيرها من الأعمال التى تستدعى استعمالها. وتلك الجذوع تنثنى بسهولة إذا كان خشب النخل الذى اتخذت منه لايزال طريا، ولكنها تجمد شيئا فشيئا فتزداد صلابة ومقاومة على توالى الأيام.

أما نوى البلح فيصلح للوقود عند بعض ويعطيه آخرون للجمال غذاء لها.

ومما تقدم يتيسر للقارىء أن يستنتج أنه قلما يضحى الناس بنخلة. بالنظر إلى توافر تلك المنافع فيها، فإذا قطعت نخلة من أصلها فذلك لأنها لا تحمل ثمرا ومتى قطعت وجد بأعلى جذعها الذى هو متلقى أعذاق البلح مادة صالحة للتغذى بها طولها نحو القدم وتسمى قلب النخلة أو لبها أو الجمار. وهى مؤلفة من طبقات قشرية متراكبة بعضها على بعض بيضاء اللون لينة المجس تشبه فى مقاومتها اللوزة الطرية كما تشبهها فى طعمها. والعرب يحبونها ويشتهونها ويتهادونها وهى ذات قيمة جليلة ومقدار عظيم فى نظر المهدى إليه.

ومعلوم أن النخل لا فروع له إلا السعف الطويل الذى يتفرع منها متقوسا ومنثنيا إلى أسفل من طرف الجذع، وينتظم وضعه حوله على خمسة أو ستة صفوف. وفى كل سنة يقطع الصف الأسفل منها وأثر هذا القطع ظاهر فى محيط جذع النخلة بأصول السعف البارزة والمتجهة من أسفل إلى أعلى، وبواسطة هذه الأصول يمكن تحديد عمر النخلة إذ كل صف منها تتألف منه دائرة حول الجذع يعدل سنة منه وليس ببعيد أن يوجد من بين النخل ما يبلغ عمره بحسب هذه القاعدة عدة أجيال.

ومن السهل - بالتأمل السطحى - معرفة أنه من المتعذر الصعود فى نخلة إلى أعلاها بنفس الطريقة التى يصعد بها فى الأشجار الأخرى. لهذا ترى المصريين يتحيلون على الوصول إلى قمة النخلة بوسيلة خاصة بهم، وهى أنهم يعقدون حول جسمهم وحول جذع النخلة حبلا متينا فى جزء منه بعض العرض

يجعله أشبه شيء بالمقلاع، ثم يستندون جلوسا إلى هذا الجزء ويرتكزون بأرجلهم على أصول السعف الناتئة بسبب قطعه، ويستعينون بهذا الوضع وبواسطة أيديهم أيضا على الصعود على الشجرة برفع الجزء الملامس للجذع من الحبل إلى فوق. وهم يعتمدون على هذه الطريقة في النزول كما صعدوا.

شجرة الدوم أو المقل (كروسيفير اطيبانيكا) وثمرة «البهش».

تختلف عن النخل المعتاد بنعومة جذعها وانقسامها إلى طفيين = فرعين = عظيمين ينقسم كلاهما إلى فروع أخرى. ويختلف ثمر الدوم اختلافا عظيما عن النخل - أى البلح، ولكنه مثله فى تعلقه بالأعذاق ويعدل حجمه حجم البرتقالة باستطالة قليلة وعدم تجانس فى الشكل. ويحيط بثمر الدوم غلاف ضارب إلى الحمرة توجد من تحته مادة اسفنجية سكرية المذاق ولكنها تافهة الطعم. ويلى هذه المادة فى وسط الثمرة نواة غليظة. وشجرة الدوم تأتى أكلها من هذا الثمر مرتين فى كل عام، وهى غير معروفة بالمرة فى الوجه البحرى ولا فى مصر الوسطى، ويبتدىء وجودها فى الأرض الواقعة على مسافة ٧٠ فرسخا من القاهرة حوالى طهطا، ومن المؤكد أنها أبعد من أن تعدل النخل فى منافعه ومزاياه الكثيرة.

شجرة الجميز (فيكوس سيكوموروس) أكبر أشجار القطر المصرى حجما وأغلظها جذعا، ويظهر أنها من أشجار مصر الأصلية. بدليل ما ذكره عنها قدماء المؤرخين، وأن توابيت الموتى (المومياء) مصنوعة بخشبها، وتبلغ من النمو أحيانا ما يجعل محيط جذعها من عشرين إلى ٣٠ قدما. ويكون هذا الجذع قصيرا جدا فى الغالب وتمتد فروعه فى اتجاه يكاد يكون أفقيا فتلقى على الأرض ظلا وارفا.

أما لون أوراقها فأخضر جميل يظل ثابتا طول السنة .لأن ما يذوى منها لا يسقط من منابته إلا إذا نبت مكانه ورق جديد. فشجرة الجميز على هذا الاعتبار من الأشجار العميمة النفع فى بلد حار الطقس كمصر.

أما ثمره فتينى ذو أنواع مختلفة، والغريب فى أمره أنه لا يتدلى من الأغصان كثمر الأشجار الأخرى بل يرى ثابتا على الجذع الأصلى والفروع الغليظة ، ولون هذا الثمر أصفر لا يختلف شكله فى شىء عن شكل التين العادى، إلا أنه لا يعدله فى حلاوته ولذة طعمه، ويبتدىء نضج هذه الثمار فى

شهر يوليو ويعجل نضجها بعد بلوغها الحد الطبيعى من النمو بقطع الجزء الأعلى منها فلا تمر أيام حتى ينضج تماما ويجمع فيؤكل.

والمشهور عن خشب الجميز أنه لايعتريه الفساد، ولدينا قطع مشغولة منه منذ العصور القديمة. فإذا بها حافظة لكيانها. ويتخذ من هذا الخشب الآن القواعد التى ترسو المدافع عليها.

وشجرة المشمش (برونوس أرمنيكا).

وشجرة الخوخ أو الإجاص (اميجداليس برسيكا).

يبلغ من الارتفاع حدا لا بأس به. إذ كثيرا ما يصل إلى ٣٦ أو ٤٠ قدما ويجفف الثمر ليمزج ببعض الأطعمة الأخرى فيطيب طعمها. وأشجار الخوخ فى مصر قليلة. ويتم نضج ثمارها حوالى شهر مايو.

وشجرة البرقوق (برونوس دومستيكا) وهى فى مصر على أنواع مختلفة.

وشجرة الكمثرى (بيروس كومونيس).

وشجرة التفاح البلدى (مالوس كومونيس).

وشجرة السفرجل (سيدونيا فولجاريس).

والأشجار التفاحية السالفة الذكر لا تبلغ من النمو فى مصر ما تبلغه منه فى أوربا ولا تكون ثمارها بجودة هذه وطيبها.

وشجرة التين (فيكوس كاريكا).

وهى قليلة الانتشار والموجود منها ثلاثة أنواع التين البرشومى وتين بوليزان والتين البلدى وثمار هذا الأخير جيدة حلوة المذاق.

وشجرة التين الهندى (كاكتوس أوبونتيا) ويسمى بالتين الشوكى.

وهى منتشرة فى مصر، وتزرع لعمل الزرابى حول الحدائق، وتؤكل ثمارها التى يحيط بها قشر مجلل بالأشواك الرفيعة.

وشجرة العناب (زيزيفوس فولجاريس).

وخشبها صلب جدا يصلح فى العمارات ونجارة الآثاث وتنمو أشجار العناب عادة بين الأشجار المغروسة حول السواقى.

وشجرة الخروب أو الخرنوب (سيراتونياسيليكا) وهى نادرة الوجود بالقطر

المصرى ولا ترى إلا فى بعض الحدائق.

شجرة النبق (راموس سيينا كريستى).

شجرة فى شىء من الكبر وضخامة الحجم ذات ثمر صغير يشبه التفاح فى شكله، وحبة العنب الكبيرة فى حجمه وطعمه حريف إذا كان أخضر فجا لذيذة إذا بلغ النضج وصلح للأكل، والمصريون مغرمون بأكله، ولعل هذا لأنه هو الذى كان معروفا فى الأزمان القديمة باللوتس على قول هوميروس الشاعر اليونانى. وأشجار النبق منتشرة فى كل مكان بالقطر المصرى.

وشجرة الرمان (بونيكاجراناتوم).

والموجود منها نوعان: يسمى أحدهما بالرمان فقط ويمتاز بحلاوة ثمره والآخر بالرمان الحجازى وثمره حامض الطعم فى حلاوة.. وقشرة النوع الأول حمراء والثانى حمراء قاتمة.

وهذا الشجر حلية الحدائق وزينتها فى الوجه البحرى ومصر الوسطى. وهو شائع فيهما إلى درجة أن بلادا برمتها لايشتغل أهلها بغير زراعته.

والبرتقال أنواع كثيرة منها نوع لون لحمه فى حمرة الدم وهو نادر الوجود يسمى برتقال الداسين.

شجرة الليمون البلدى (ستروس مديكا):

وثمره كثير صغير ممتلىء بالماء (العصارة) ذو مادة صمغية لزجة. أما الليمون الكبير فقد انتشرت شجراته بالتطعيم. والليمون الحلو محبوب من المصريين ولكنه قليل، ولقلته لا يستطيع الفقراء الحصول عليه.

وشجرة المخيط (كورديميكا).

وشجرة عالية يبلغ علوها عادة ثلاثين قدما، وتأتى فى شهر مايو بزهر زكى الرائحة أما ثمارها فغير لذيذة الطعم.

وشجرة المخيط الرومى (كورديا كريناتا).

وهى أصغر حجما من السابقة وأقل ارتفاعا ولكن ثمارها أجود وألذ طعما.

وشجر العنب (فيتيس فينيفيرا).

كانت أعناب مصر وأنبذتها ذات شهرة فائقة وصيت ذائع فى الأعصر القديمة، وكان الرومان يهتمون بها جد الاهتمام .حتى أنهم نقلوا بعض أعوادها إلى إيطاليا لتبليدها فيها. ثم جاء الفاتح الإسلامى بعد ذلك بمبادئه التى تحرم شرب النبيذ تحريما قاطعا. فأثر تأثيرا بالغا فى زراعة الكروم وأدى إلى إهمالها وإغفال العناية بها.

على أن الفاتحين سمحوا ببقاء بعض الأشجار فى الحدائق للتفكه بثمرها دون اعتصار النبيذ منها. فكان من حظ إقليم الفيوم تصدير الأعناب إلى أسواق القاهرة والإسكندرية.

والعنب البلدى جيد لذيذ الطعم بذوره صغيرة الحجم قليلة العدد إلى حد أنه لا يوجد منها سوى بذرة واحدة فى كل حبة . بل إن هناك نوعا من العنب لا بذر بالمرة فى حبوبه وهو مشهور عند المصريين باسم العنب البناتى.

ومنذ خلصت مقاليد الأحكام لمحمد على وانتهت أزمتها إلى يده عادت زراعة الكروم إلى شىء من سابق انتشارها وتقدمها .فإن سمو الوالى وحضرة نجله قد أدخلا فى مصر زراعة أنواع العنب كافة المعروفة فى أوربا وبلاد اليونان فنجحت بأجمعها تقريبا نجاحا باهرا. وحتى الآن لم يحاول غير الأوربيين استخراج النبيذ منها، ونبيذهم هذا جيد النوع ولكنه كثير الكحول.

وللشرقيين عادة فى العنب وهى جمع قطوفه خضراء غير تامة النضج واتخاذ ورقه للطعام يحشونه بالأرز واللحم.

٣٢- أشجار الفاكهة والنباتات التى أدخلت حديثا

من هذه الأشجار والنباتات:

الأناناس (برومليا أناناس).

هذه الشجرة مع انتشار زراعتها لم تفلح فى مصر لأنها تأتى فيها بمحصول قليل جدا من الثمر.

وقصب السكر (سكاروم أوفيسناروم) ويسمى أيضا بالقصب الحلو.

ينمو نموا تاما حسنا فى القطر المصرى، ولكن زراعته لم تزل غير واسعة النطاق ولا موفية بحاجة البلاد من السكر فتضطر إلى استجلابه مكررا من

البلاد الأوربية، ومع هـذا فـإن بعض السكر المصرى يصـدر إلـى الحجاز ومكة وبعض جهات بلاد العرب.

وأوسع منطقة لزراعة قصب السكر فى ضواحـى الريرمـون فى قرى الـوجه القبلى.

وأوان نضـج القصب حـوالى شهـرى نوفمبـر وديسمبر، ويصـل من الارتفـاع حينـذاك إلى عشـرة أقدام أو اثنـى عشـر قدمـا ومتـى بلغ هـذا الحد من النضـج قطـع وعصـر فـى المعمل الـذى انشـأته الحكومـة هنـاك واستخـرج منـه السكـر وشراب الروم.

شجرة الكراز (برونوس سيراسوس)

حاولـوا إدخالها وتبليدهـا فى مصـر فنمت فـى أرضها نموا حسنا ولكنهـا لم تأت بأقل ثمر، ومن المحتمل أن يتمكن العـاملون من إعطاء مصـر أشجار تثمر الكراز إذا اجتهدوا فى تبليد اشجار الكراز المالطية بدلا من أشجاره المستوردة من أوربـا الوسطـى. لأن شجر الكـراز المالطى معتـاد على درجـة حرارة تقـرب كثيرا من درجة الحرارة فى القطر المصرى.

شجيرات الشليك (فراجاريا)

إنه لعدم وجود جبـل ما فى مصـر يحتوى أشجـار الغابات لايـوجد فيهـا من شجر الشليك إلا النـوع البرى منه، وقد أصبـح الباعة الآن يبيعون فـى الطرقات ثمـره بعد أن كـان مجهولا مـن الآكليـن أو كان علـى الأقـل نادرا جـدا على عهـد المماليك.

شجرة القشدة أو القشطة (أنوناسكواموزا)

أصل هـذه الشجرة من أمـريكا وكانـت نادرة جدا فيمـا سبق لاتوجـد إلا فى بعض الحدائق. أمـا الآن فقد أصبحـت أكثر انتشـارا. وهـى متـوسطة الارتفـاع وثمرها كثير الشبه بتفـاحة ثمر الصنوبر . لونها أخضر جميـل ولحمها لين جدا يشبـه فــى شكلـه وطعمـه السكرى ورائحتــه المحبـوبـة شكـل القشـدة وطعمهـا ورائحتها . ولهـذا سميت بـذلك الاسـم. ويتخذ الفحـم من خشبهـا كما يتخـذ من أوراقهـا مسحوقـة بعد تجفيفهـا لـزقة تـوضـع علـى العين إبـان الاصـابة بـالرمـد الصديدى.

شجرة الجوافة (بسيديوم بروميفيروم).

اشتهرت هذه الشجيرة فى مصر حتى أصبحت معروفة من الجميع وهى ذات ثمر وافر كثير.

شجرة الجوز (جوجلانس رجيا).

هذه الشجرة التى هى من أشجار البلاد الباردة فى مصر لم تزرع قبل محمد على وهى تنمو فيها نموا حسنا ولكن ثمرها قليل وإذا أدخلت زراعتها فى هذا القطر فما هو إلا لخشبها دون ثمرها.

شجرة البابايا أو نخلة العجور أو الباباز (كاريكا بابايا).

ترتفع هذه الشجرة كثيرا وتضخم وتأتى بثمر جيد وأصلها من أمريكا.

شجرة الفستق (بستاشيافيرا).

هذه الشجرة ذائعة الانتشار وتأتى بثمر جيد جدا.

٣٣ـ النباتات الحبوبية النجيلية

القمح أو الحنطة (تريتيكوم ساتيفوم).

اشتهرت مصر بحبوبها منذ الأعصر القديمة إذ كانت تمون بها بلاد اليونان وايطاليا حتى لقد اسماها الشاعر (ناسيتوس) بخزائن رومية. ومنذ تعددت فيها صنوف الزراعات وشغلت بزراعتها شطرا كبيرا من الأرض ضاق نطاق زراعة الحبوب بالرغم من أن هذه الزراعة ما برحت شاغلة المرتبة الأولى بين صنوف المزروعات المصرية.

وقد غالى الكثيرون فى تقدير محصول القمح المصرى فأبلغه بعضهم إلى ٥٠ أو ٦٠ فى المائة والبعض الآخر إلى ١٠٠ فيها. والحقيقة أن متوسط هذا المحصول لا يتجاوز ١٥ إلى ٢٠ فى المائة. وإذا تجاوز هذه النسبة فى بعض السنين التى تمتاز بوفرة المحصول فى الجهات الملائمة لزراعته فإنه لا يتجاوز ٢٥ وتارة ٣٠ أو أربعين فى المائة.

والقمح المصرى جيد الصنف وأجوده ما كان من الوجه القبلى. وسوقه = أعواده = قلما يزيد ارتفاعها على قدمين أوقدمين ونصف. وهذه السوق غليظة وصلبة تعلوها بوجه عام سنبلة وافرة الحبوب. وأرض مصر لا تنتج سوى

القمح. وغنى عن البيان أن القمح فيها على جملة أنواع تختلف عن بعضها بلون الحبة وشكلها وصلابتها.

القمح العربى (تريتكوم ترجيدوم).

الشعير (هورديوم فولجارى).

بينما تتطلب زراعة القمح الأرض الرطبة الكثيرة مواد الخصب، تكفى الأرض الرملية لزرع الشعير ويختلف متوسط محصوله فى الفدان الواحد من ٥ أرادب إلى ١٢ اردبا.

وتعطى حبوب الشعير بوجه عام غذاء للخيل، ودقيقه إذا مزج بدقيق الحنطة صلح أحيانا لتهيئة الخبز. وفى القاهرة يصنع النشاء مستخرجا من الشعير والقمح والأرز.

الذرة (سور غوم فولجارى).

تزرع بمقادير عظيمة جدا لأنها لا تستلزم عناء الحرث الكثير ولا ميثاق الرى بالماء ويختلف محصولها فى الفدان الواحد من ١٥ إلى أربعين أردبا. ويبلغ ارتفاع ساقها إلى ٨ إلى ١٠ أقدام. وعلى دقيق الذرة المعول فى تغذية الفلاحين إذ به يصنعون خبزهم ويفضلونه على الخبز المصنوع بدقيق الحنطة بالرغم من حموضة طعمه ورداءته. وسوق الذرة بعد جفافها تصلح وقودا لأفران الجير (القماين) كما تصلح لإقامة الحواجز وتغطية سطوح المنازل وبناء الأخصاص والأكواخ الصغيرة.

يسمى المصريون الذرة العادية بالذرة الصيفية لأن بذورها تبذر عادة فى آخر مارس، وهناك صنف آخر من الذرة يزرع فى فصل الخريف ويسمى بالذرة البيضاء (سورغوم سرنوم) والذرة العويجة.

الذرة الشامية (زيامابيس).

أطلق هذا الوصف عليها لورودها من الشام ، وحبوبها صفراء اللون وأكبر حجما من حبوب الذرة البلدية، ويؤخذ منها محصولان فى السنة الواحدة، الأول فى الصيف والثانى فى الشتاء. وقد اعتاد الفلاحون قطع كيزان الذرة طرية قبل تمام النضج والتغذى بها بعد شيها على النار ويتخذ من دقيق هذه الذرة خبزا

أجود من خبز الذرة البلدية السالفة الذكر. ومحصول الفدان الواحد منها يبلغ أحيانا إلى ١٤ أردبا.

الدخن (سورغوم سكاراتوم).

الدخن «نوع آخر» (بانيكوم ملياسيوم).

الدخن «نوع آخر» (برميزتيوم تيفوئيديوم).

الأرز (أوريزاساتيفا).

ذهب بعض المؤلفين إلى أن الأرز كان مجبولا = طبيعيا = من قدماء المصريين، وبحث غيرهم في عكس ما ذهب هؤلاء إليه. والرأى الراجح هو أن الأرز كان لايزرع قديما فى مصر. بدليل أنه لا يرى مرسوما على آثارها فى حين يرى القمح والشعير مرسومين عليها. والمحقق أن العرب هم الذين أدخلوا زراعته بعد أن جلبوه معهم من بلاد الهند.

وتستلزم زراعة الأرز الأراضى الواطئة الطميية. هذا ما دعا إلى الاقتصار فى زراعته على الوجه البحرى. وفى ضواحى دمياط ورشيد يزرع من الأرز أجود أصنافه. ومتى تم حصد الأرز وهيىء للاستنفاد خلط بالملح البحرى الجاف لصيانته من الفساد وحفظه زمنا طويلا.

ومنذ استلم محمد على زمام ولاية مصر أدخل زراعة الأرز فى أقليم سنار.

٣٤ ـ الحبوب غير النجيلية

من هذه الحبوب:

الحلبة (تريجونيلا فينوم جريكم).

الحلبة نبات كلأى يحبه المصريون، وهم يتغذون به. إذ يأكلون منه الساق والورق ومنابت الحبوب. وهم يحمصون هذه ويتخذون منها شرابا كقهوة البن ويصنعون منها مستنبته نوعا من الطعام يدخل العسل فى تركيبه.

الفول (فاباساتيفا) أو الفول البلدى.

الفول أحد الحاصلات الوفيرة فى القطر المصرى، وتبذر بذوره فى الحقول والغيطان الفسيحة، وحبوبه فيه أصغر حجما منها فى أوربا. ولكنها أجود صنفا وألذ طعما. ويتخذ المصريون منها طعاما يعتبر من أطعمتهم الأساسية

فإذا كانت طرية أكلوها بالملح أو جافة كغذاء للماشية والدواب كالبقر والجمال والحمير.

وكان كهان الهياكل فى الأزمان القديمة يعتبرون الفول غذاء غير طاهر بسبب ما كانوا يشهدونه فى زهره من البقع السوداء التى كانوا يقولون إنها تشبه شارات الحداد وعلاماته.

الجلبان (لاتيروس ساتيفوس).

البسلة (بيزوم أرفنس).

يزرعان فى الوجه القبلى وتعطى حبوبها للجاموس والجمال.

الحبة السوداء (نجيلا ساتيفا).

العدس (أرفوم لنس).

كان عدس مصر مشهورا فى الأزمان القديمة ، وكان الرومانيون يسمونه «عدس بيلوزه» وهو لايزال منتشر الزراعة غزير المحصول فى مصر ولونه أصفر برتقالى جميل.

الترمس (لوبينوس ترمس).

حبوبه مرة المذاق لا تصلح غذاء إلا للإنسان، وإنما ينبغى قبل أكلها أن تنقع فى الماء الملح. وساق الترمس ليفية، ولهذا تتخذ وقودا فى المصالح البيتية وغيرها.

الحمص أو الملانة (سيسر أريكتيوم).

يسمى المصريون هذا النبات بالحمص وهم يأكلون حبوبه خضراء ويسمونها عندئذ بالملانة. أما إذا جفت فيأكلونها بعد تحميصها على النار وتعطى سوقها للمواشى.

اللوبيا (دوليكوس لوبيا).

تزرع اللوبيا فى الوجه البحرى وسوقها قصيرة وحبوبها بيضاء الشكل ذات نقطة سوداء فى سرتها ، ويوجد بأطراف الصعيد الأعلى نوع آخر من اللوبيا مستدير الحبوب صغير الحجم يعدل حجمه حجم الفلفل الأسود وقد سماه لينيه باللاتينية (فازيولوس مونجو) ويسميها الأهالى «الماسح».

٣٥ـ الخضر والنباتات البقلية

الخبيزة (مالفاسافستريس، لينيه).

الخبيزة «نوع آخر» (مالفافرتيسلاتا، لينيه).

الباميا (هيبسكوس اسكولانتوس، لينيه).

الرجله (بورتولاكا أو لراسيا، لينيه).

السبانخ أو الإسفاناخ (سبيناسيا أو لراسيا).

السلق (بيتا فولجاريس).

تؤكل هذه الخضر مسلوقة أو مطبوخة باللحم.

الملوخيا أو الملوكية (كوركوروس أو ليتوريوس، لينيه).

أما الخبيزة التى لا تنمو فى أوربا إلا بالحالة البرية فتزرع بمصر فى الحدائق والحقول والأهاون يفضلونها على الاسفاناخ ويستنفدونها أكثر مما يستنفده الأوربيون.

أما الباميا وتعرف عند العامة باسم (الجومبو) وفى أمريكا باسم (كالالو) فمن الخضر اللزجة ، وتستنفذ بكثرة مدة نحو ستة أشهر من كل سنة وهى طعام نافع جدا.

أما الملوخيا فمن البقول التى يحبها المصريون أيضا كما يحبون الباميا وهى شديدة اللزوجة وتافهة الطعم. وتبلغ فى نموها ارتفاع قدم إلى قدمين وزهرها أصفر جميل يسترعى النظر. وتجفف أوراق الملوخيا لتحفظ برسم الطبخ فى فصل الشتاء، وإذا وضعت بعد جفافها فى الماء المغلى لانت وصارت كما لو ألقيت فيه وهى خضراء. وتطبخ الرجلة والاسفاناج والسلق بالطرق المتبعة فى طبخ النباتات المشار إليها.

البصل (الليوم سيبا).

الكراث (آاليوم يورروم).

الثوم المعتاد (آلليوم ساتيفوم).

إن بصل مصر المشهور بالجودة منذ الأعصر القديمة يستحق حتى اليوم

هذه الشهرة. وهو أصغر حجما من بصل أوربا ولكنه ألذ منه طعما. ويستنفد في مصر بمقادير عظيمة ومحصوله في الوجه القبلي أوفر منه في الوجه البحري.

والكراث ينمو في مصر نموا عظيما ويؤكل كما هو في ابانه ولكنه إذا كبر حجمه وغلظ طبخ وأكل كما تؤكل الخضر السالفة الذكر.

وزراعة الثوم غير منتشرة في مصر.

الكرفس (أبيوم جرافيولانس، لينيه).

البقدونس أو المقدونس (بيوم بتروسيليوم، لينيه).

الهندباء (شيكوريوم انتيبوس، لينيه).

الخس (لكتوكاساتيفا، لينيه).

الرشاد (ليبيديوم ساتيفوم، لينيه).

والكرفس لايزرع إلا في حدائق الوالي، والمصريون يأكلون جذوره ولكنهم لايأكلون أوراقه.

والمقدونس نادر جدا في مصر.

والخس يجود في أرضه وينمو نموا حسنا ويؤكل نيئا ويوجد بالأسواق طول فصل الشتاء.

الجزر (دوكوس كاروتا، لينيه).

اللفت (براسيكا نابوس، لينيه).

القلقاس البلدي (آرون كولوكازيا، لينيه).

البيارون، البشنين، النيلوفر (ننفيا كابروليا رادكس).

الفجل (رافانوس ساتيفوس).

والجزر المصري صغير جدا شديد الحمرة كثير الأوراق حريف الطعم.

واللفت غير منتشر الزراعة ويؤكل في مصر بنفس الكيفية التي يستنفد بها في أوربا إذ يخلل في الخل.

ويطبخ القلقاس كما يطبخ اللفت.

أما البيارون أو النيلوفر أو البشنين فمعروف منذ القدم. وهو نبات مائى يغطى بعد انقضاء فيضان النيل سطح الترع بأوراقه الكبيرة التى تنبعث من وسطها أزهار بيضاء أو ضاربة إلى الزرقة جميلة الشكل. ويؤخذ من أقوال المؤرخ هيرودتس أن ثماره كانت أحب الأغذية إلى المصريين وهى لاتزال حتى الآن مرغوبا فيها .

ويستنفد الفجل بمقادير عظيمة جدا، ولأوراقه عروق غليظة يحبها المصريون ويفضلونها على الجذور.

الكرنب (براسيكا أو لراسيا، لينيه).

القرنبيط.

القرنبيط الأسود (بروكوليس).

الخرشوف (سيناراسكوليموس، لينيه).

والكرنب لاتنجح زراعته بمصر نجاحها بأوربا .

والخرشوف يظهر فى أسواقها من شهر فبراير.

الشبت (أنيثوم جرافيولانس، لينيه).

الطماطم، الباذنجان القوطه (سولانوم ليكوبرسيكوم، لينيه).

يأكل المصريون الطماطم نيئا وناضجا وكذا الخضر الأخرى.

القرع الطويل (كوكوربيتا لاجنيابنا، لينيه).

القرع الإسلامبولى (كوكوربيتا بيبو، لينيه).

القرع المغربى أو الأوزى (كوكوربيتابوليمورفا، لينيه).

الخيار (كوكوبيس سانيفوس، لينيه).

الباذنجان (سولانوم مليونجيرا، لينيه).

نباتات الفصيلة القرعية شائعة الاستعمال فى طهى الأطعمة.

وفى القطر المصرى نوعان من الباذنجان أحدهما أبيض ويسمى بالباذنجان الأبيض والآخر بنفسجى اللون ويسمى بالباذنجان الأسود، والمصريون يأكلون الباذنجان نيئا ومطبوخا كما يأكلون الخيار نيئا ويخللون الكبير الحجم منه فى الخل.

الكراويا (كاروم كارفى، لينيه).

الكزبرة (كورياندروم ساتيفوم).

الكمون (كومنيوم سينينوم، لينيه).

الأنيسون (يمبينلا أنيزوم، لينيه).

الفلفل الأحمر (كاسيوم فروتسانس، لينيه).

وأثمار هذه النباتات المختلفة تدخل فى الطعام كتوابل.

ملونا أو القاوون أو الشمام (كوكوميس ميلو، لينيه).

البطيخ (كوكوربيتا سترولوس).

القاوون فى مصر أصناف عدة ، وقاوون الوجه القبلى أحسنها. أما مايزرع منها فى ضاحية القاهرة فقليل الحلاوة.

أما البطيخ وهو الثمر المرطب للبدن والفاكهة التى تفضلت العناية الإلهية فأسبغت نعمتها على البلاد الحارة فمنتشر الزراعة كثير المحصول فى مصر. وكان معروفا فيها منذ الأعصر القديمة، ولفوائده ومزاياه عنى العرب بزراعته وتعهدوها بالتحسين تعهدا متواصلا. وإن ننس لا ننس ما أفاد البطيخ به جيش الحملة الفرنسية فى رحلته من الإسكندرية إلى القاهرة حينما اشتد على الجنود القيظ وأخذ العطش منهم كل مأخذ، وكان العساكر يسمونه كقدماء المصريين بالبطيخ المقدس تنويها بفوائده ومزاياه.

ومنذ بضع سنوات أدخلت إلى مصر زراعة كل ما يزرع بأنحاء أوربا من صنوف الخضر فلم تلبث أن انتشرت فيها.

والخضر كثيرة وشائعة فى حدائق القاهرة . حيث تبلغ من النمو حدا لا بأس به ، ولكنها مع حسن منظرها شديدة اللزوجة تافهة الطعم غالبا. ونباتات الخضر تذبل أوراقها أحيانا، وهذه الأوراق عريضة السطح ملساء ذات لون أخضر فاتح وهى سريعة النبت والنمو.

٣٦ـ النباتات النسيجية

التيل أو القنب (كانابيس سانيفا، لينيه).

تيل سيام (أورتيكا نيفيا).

كان التيل قبل عهد محمد على لايزرع إلا فى الوجه القبلى للانتفاع ببذوره فقط ، وكان الناس يتخذون من هذه البذور غذاء أو شرابا مخدرا يسمى بالحشيش ولكن الباب العالى عمم زراعته تعميما عظيما ليتخذ من سوقه الخيوط الضرورية لصنع حبال السفن وقلوعها. أما القماش للباس وغيره فلم يصنع من التيل . لأن أهل مصر يفضلون عليه القماش المصنوع من الكتان.

أما التيل السيامى فقد بعث به أخيرا إلى العلامة (فيجارى) العلامة (دوليل) الأستاذ فى (مونبلييه) ليدخله فى زراعة مصر. وقد نجح العلامة فيجارى فى ذلك نجاحا باهرا يحمل على الاعتقاد بأن زراعته ستنمو وتنتشر انتشارا عظيما.

القطن (جوسيبليوم فيتيفوليوم، لينيه).

زراعة القطن من النعم الجزيلة والموارد الفياضة بالثروة التى أصبحت مصر مدينة بها لمحمد على. ومعلوم أن شجرة القطن كان يزرعها أهل مصر فى حدائقهم باعتبار كونها من شجيرات الزينة وظل هذا شأنها حتى أخرجها محمد على من زاوية النسيان وجعلها فى مقدمة موارد الثروة المصرية. وسأتكلم على هذه الشجيرة ببيان أوفى فى الصفحات التى سأبحث فيها عن الحالة الحاضرة للزراعات فى القطر المصرى.

الكتان (لينوم أوزيتا تسيموم، لينيه).

هذا النبات من أقدم ما زرع فى القطر المصرى إذ كان المصريون القدماء يتخذون منه الأنسجة المشهورة التى كانوا يصدرونها إلى جميع أنحاء العالم. ومنه يصنع المصريون الآن الأقمشة التى يلبسونها.

كتان زيلاندة = نيوزيلانده = الجديدة (فورميوم تيناكس).

لم تبذل حتى الآن الجهود الكافية لتبليد هذا النبات بالقطر المصرى. إذ لم يصل إلى مصر فى الحقيقة منه سوى نبتة واحدة أرسلت من حديقة مونبلييه ولكنها ماتت. وقد يتأتى من زرع هذا النبات نفع جليل لمصر، ولهذا يحسن استئناف التجارب لتبليده مادام هناك من البوادر ما يحمل على الجزم بنجاحه والحصول منه على النتائج المرضية. وفعلا فإن طقس القطر المصرى قريب من طقس زيلاندة الجديدة، وقد دلت التجارب الأخيرة الكثيرة على صلاحية تربته

لإنبات وإنماء ما يجلب إليه من النباتات الجديدة لزرعه فيها.

٣٧ ـ نباتات ألوان الصباغة

القرطم، العصفر، الأحريض (كرتاموس تنكتوريوس، لينيه).

إذا بذرت بذوره فى وقت انحسار ماء الفيضان عن الأرض ففى الاستطاعة حصده فى مارس بدون أن يستلزم عناية ما ولا تعهدا فى أدوار نموه، وبعد جفاف أوراقه تسحق وتجمع إلى بعضها على شكل رغيف من الخبز. ويستخرج من بذور القرطم زيت شائع الاستعمال بين عامة الأمة. أما سوقه فتتخذ بعد جفافها للوقود. وزراعته أكثر شيوعا فى مصر الوسطى منها فى غيرها.

الفوة (روبياتنتكتوريا، لينيه).

تزرع الفوة فى مصر منذ بضع سنوات، وكانت تستخرج سابقا فى جزيرة قبرص وهى فى مصر لا تأتى حتى الآن بمحصول يكفى للتقدير إذ كل محصولها تستنفده معامل الحكومة وفابريقاتها.

البليخاء، الليرون، الأسليخ (ريزيدا لوتيا، لينيه).

الحناء، القيفرس (لاوسونيا البا).

تجفف أوراقها ثم تسحق فيكون منها ذلك المسحوق الذى تستعمله النسوة فى تلوين بعض أجزاء أيديهن وأرجلهن ليصير لونها كلون الجوز الكابلى، وفى جهات عديدة من القطر المصرى تصنع السلات من فروعها الصغيرة بعد جفافها. وشجرة الحناء لايحتاج نموها إلى الرطوبة.

النيلة، النيل، النيلج، العضليم، السمانى، انديقون (انديجوفيرا أرجنتيا، لينيه).

النيلة الصينى (بوليجونوم تنكتوريوم، لينيه).

تذر بذور النيلة عادة على ضفاف النيل، وتزرع بوجه خاص فى الوجه القبلى والفيوم، ويظهر أن القوة الملونة فى النيلة المصرية مثلها فى النيلة الأوربية وإن كانت المادة المجهزة فى معامل النيلة المصرية أقل نقاوة وصفاء منها فى تلك.

والفضل فى إدخال زراعة النيلة الصينية إلى القطر المصرى راجع إلى

العلامة الأستاذ (دوليل) من مدينة (مونبلييه) بفرنسا. ويأمل الموسيو فيجارى الموكل بزراعتها أن يتمكن بما أخذه من بذورها فى العام الماضى من توسيع نطاقها ، وأن يباشر أعمال استخراج المادة الملونة منها بعد ذلك.

طرنشولى، الغبيرة، الغبيراء (كروتون تنكتوريوم).

ينمو هذا النبات وحده فى الغيطان.

٣٨ـ النباتات الزيتية

تكلمنا فيما سبق على بعض النباتات التى يستخرج الزيت من بذورها ونقول الآن إن الزيت يستخرج أيضا من بذور الكتان ويسمى بالزيت الحار (الزتحار) وبذور القطن والغبيرة والتيل ويسمى زيت التيل. والفول السودانى ويسمى زيت فول سنار. وبذور الشلجم زيت الشلجم. وبذور أبى النوم ويسمى بزيت أبى النوم، وبذور الخروع ويسمى بزيت الخروع. وبذور السمسم ويسمى بزيت السيرج (الشيرج).

٣٩ ـ النباتات الكلأية.

٤٠ ـ نباتات نافعة مختلفة.

٤١ ـ نباتات الزخرفة والزينة.

٤٢ ـ مراعى الصحارى والواحات.

٤٣ ـ النباتات الطبية الأهلية والأجنبية.

(٣)
حيوانـــــات مصـــر

٤٤ـ عموميات

لما كانت أرض مصر متكونة مما حمله النيل ولايزال يحمله من الطمى فأول ما يتجه الظن إليه أنها كانت قبل هذا التكوين عبارة عن خليج للبحر الأبيض المتوسط يوازى البحر الأحمر من اتجاهه ويشبهه فى امتداده وأن حيواناتها لهذا السبب لم تكن أصلية ـ أى خاصة بها ـ وأن ما فيها من الكائنات

الناشـــر : حذفنا أسماء بعض النباتات من الكتاب نظرا لأنها لم تعد تزرع فى مصر وليست معروفة لنا الآن.

الحيوانية إنما انتقلت إليها بالمهاجرة المتتالية من الأصقاع الأخرى، وأن هذه المهاجرة كان يتسع نطاقها بتغلب الأرض على الماء على أثر رسوب الطمى بعضه فوق بعض.

وفى المأثور من روايات الأقدمين ما يكفى لتأييد هذه النظرية التى يعززها من جهة أخرى المقارنة بين الحيوانات التى حنطت بمصر فى الأزمان السابقة ولاتزال محفوظة فى المقابر فى عدد يتجاوز الألوف والحيوانات الموجودة الآن فى هذا القطر. أما تعيين الجهات التى بدأت المهاجرات منها فلايزال من المسائل العسيرة الحل، وإنما يؤخذ من توافر الشبه بين أغلب حيوانات مصر قديما وحديثا والحيوانات الخاصة ببلاد البربر أن نقطة تلك البداية هى هذا القسم من بلاد إفريقية الشمالية.

وهذا القول ينطبق بنوع خاص على الحيوانات الثديية والشطر الأكبر من الأفاعى.

اما الطيور فقد اتفق علماء الحيوان على التسليم بأن مصر كانت فى كل زمان طريق صلة وانتقال لتلك الحيوانات التى اعتادت أن تهجر بلادها إلى البلاد البعيدة مرتين فى كل عام ذهابا وإيابا. وهذا هو السبب الذى جعلنا نجد فى مصر أنواع الطيور الأوربية وجملة طيبة من أنواع الطيور الخاصة بآسيا ماعدا طيور قليلة العدد يدخل عدم وجودها فى باب المستثنيات المثبتة للقاعدة. أما الطيور الأخرى التى لاشك فى أنها من الطيور المقيمة لا الرحالة فإنها تعيش وتموت فى هذا القطر بدون أن تتخطى الحدود التى تعيش فى نطاقها.

ولست أقصد من أيراد أسماء الحيوانات التى اتخذت مصر مقاما لها أو ممرا تسلك منه إلى الأقطار النائية الإبغال بعيدا فى دائرة علم الحيوان فإننى إنما أقصد تعريف القارىء على وجه سطحى بخصائص كل نوع إذا عن لنا فيها ما يفيده الوقوف عليه منها، وتصحيح الخطأ فى بعض الآراء الشائعة بشأنها.

وإنى وإن توخيت فى إيراد تلك الأسماء عدم إزعاج القارىء بجفوة الترتيب والتبويب ووحشية الألفاظ الفنية الاصطلاحية. لاسيما إذا كان من طبقة الظرفاء الذين لا أشك فى أنهم سيكونون صفوة المطلعين على هذا الكتاب فقد بدا لى

أن أجعل هذا العمل مرتبا بحسب الطرائق العلمية حتى لا يكون من جهة أخرى دون ما ينتظره منا رجال العلم.

الحيوانــات الثدييــة

الحيوانــات الأهلية الداجنــة: الحصان ــ الحمار ـ البغل ــ الجمل ـ الثور ـ الجاموس ـ الغنم ـ الماعز ـ الكلاب ـ السنانير.

الحيوانات المتوحشة: الذئب ـ الثعلب ـ ابن أوى ـ الضبع ـ الخنزير البرى ـ فرس البحـر ـ الدركاس ـ الدامـان ـ القرد ـ القنفذ ـ النمـر ـ قط النهر ـ الفار ـ الأرنب.

الحيوانات الأهلية الداجنــة

٤٥ـ الحصان

للخيل فى مصـر أنواع عديدة منها النوع العربى الأصيل الوارد من بلاد العرب ، والنوع الشامى الذى تستخدمه قبائل الكرد وعنيزة، والنوع الوارد من داخل آسيا وأوروبا ، والنوع المجلوب من دنقلة. وقد اختلطت هذه الانواع ببعضها فكان نسلها خليطا مختلفا، على أنهم يتخذون للطلوقة غير الجياد العربية الكريمة الأصل، فإن هذه الجياد إذا نزت على أفراس قوية انجبت نوعا من الجياد كبيرا قويا تام استدارة الأعضاء ، وهو الذى يتألف منه النوع المصرى الحقيقى.

فالحصان المصرى أطول قامة من الجواد العربى ورأسه أحسن وضعا من رأسه ورقبته أجمل منقارا وأدق الاستدارة وعيناه يطير منهما شرر النشاط والحماس ومنخراه أعرض وأوسع من منخريه = أى الحصان العربى = وسوقه أدق وأصلب وأكثر أعصابا من سوقه، ومشيته أدل على النبل والعزة والجلال، والجواد العربى الأصيل يرى على الدوام صغير الجسم نحيله مجردا من الهيئات المحبوبة فى النظر بسبب ما يتكبده فى معيشته من العمل الكثير والمشقة البالغة والحرمان المتلف وما يلقاه من الهوان فى أيدى أناس هم أقرب إلى الهمجية منهم إلى الحضارة وأبعد عن أن يعنوا بما يملكون من الحيوانات. ومع هذه العوارض فإنه لايزال من الإقدام والشدة بحيث يرى صاحبه فيه عند الحاجة أنه خير ذخر وأثمن كنزله.

والمفهوم أنه لا يوجد بمصر خيل طويلة القامة، ولهذا السبب لايستطيعون تحميل خيولها بالفرسان الثقيلة.

وأمم الشرق تستخدم الخيل بدون أن ينشأ عن استخدامهم إياها ضرر ما. لأن طاعة هذا الحيوان عندهم ليست بأقل من طاعته عندنا . بل هم لا يعذبونه بما نعذبه نحن به من بتر ذيله مثلا وهو الأمر الذى يحط من قيمته ويثير أعصابه فهو عند الشرقيين الذين يجهلون هذه العادات وأمثالها لايثور ولا يجمح بل ينقاد لمطالب صاحبه بإقبال عجيب مهما بلغ من حدته الطبيعية وميله إلى الحرن والعبوس.

٤٦ ـ الحمار

يخطىء من يخلط بين الحمار المصرى والحمار الأوربى . فإن الحمار فى بلادنا ليس إلا حيوانا ضعيفا ضئيلا مرذولا سيىء الغذاء محروما من العناية يعامل بالقسوة من غير رحمة. أما فى مصر فإنه حيوان كبير حسن الخلقة خفيف المشية يجمع فى حركاته اللطف والحدة معا . وهذا هو السبب الذى جعل أثمان الحمير المصرية غالية لاسيما إذا جمعت إلى ما وصفته فيه من حسن الشكل والنشاط والقوة. وتستخدم الحمير بطريق التفضيل على غيرها فى الأسفار البعيدة بأطراف الصحراء مع الجمال محملة بالأمتعة الثقيلة والبضائع الكثيرة.

وأجمل الحمير وأعلاها قيمة الوارد منها من الجهات الجافة والأصقاع الحارة كالصعيد. أما التى تستنسل فى الوجه البحرى فأحط مرتبة من هذه فى جميع الوجوه.

٤٧ ـ البغل

بدهى أن تنتج مصر أصناف البغال كما تنتج أجمل أصناف الخيل والحمير. والبغال فيها مطلوبة جدا. إذ منها ما يعدل ثمنه ثمن كرائم الخيل. وأصحابها يمتطونها لقطع المسافات البعيدة ويتخذون لها من السرج والعدد ما يتخذ للحمير عادة على وجه التقريب. أما البغلة فأسلس قيدا من البغل وأقوى على احتمال التعب، ولذا تفضل عليه ، وسيرها العادى الخبب، وهم يعودونها هذا

السير بطريقة ميكانيكية وهـى أن يجمع اليد الأمامية والرجل المقابلة لها من خلف بواسطة حبل بحيث أن حركة اليد الأولى منهما تستدعى حتما حركة الرجل الخلفية.

٤٨ ـ الجمال

إذا أريد إطلاق لفظ «الجمل» على ذلك النوع من الجمال التى يتقوس ظهرها بحيث يكون سنامين فلنبادر إلى القول هنا بأن هذا النوع من الجمال غير موجود بمصر مطلقا. وإنما الموجود نوعان مختلفان يسمى أحدهما الجمل وهو عظيم الارتفاع عجيب القوة ثقيل المشية، ويخصص لحمل الأثقال والثانى يسميه العرب بالهجين وهو أصغر حجما من الأول وأنشط حركة وأسرع سيرا.

وبالرغم مما كانت الجمال تقوم به من جلائل الأعمال فى الأزمان الماضية فقد كان المصريون ينظرون إليها بعين الاحتقار والتصغير. فساروا فى ذلك على عكس العرب الذين يحبونها حبا جما ويجلونها ويقدرونها. على أن الجمال بصرف النظر عن نقل الأثقال وقطع أجواز الفلوات تفيد صاحبها من جهة أخرى فوائد جليلة. فإن وبرها من أهم ما يتجر به من أصناف البضاعة ومنه يتخذ العرب بيوتهم وينسجون ثيابهم وسجاجيدهم. وهى إذا خلط بعرها بالقش المقطوع ثم جفف فى الشمس كان منه وقود فى غاية من الصلاحية والفائده. ولبن النياق من الألبان التى يقدرها الأعراب قدرها لما يستفيدون به من منافعة.

٤٩ ـ البقر

البقر الداجن فى مصر لا يختلف فى شىء عن البقر الأوربى، وهو يستخدم فى أعمال الزراعة وفى كثير من المصالح المختلفة. أما ما ذكره بعض المؤلفين الذين كتبوا عن مصر من جمال هذا الحيوان وجودة لحمه فلا يسبب = يصيب = شاكلة الصواب كله. ومن المحتمل أنه كان فى الأزمان القديمة ممتازا بكبر حجمه وجمال شعره ونمو قرنيه فإذا صح ذلك ـ وهناك ما يدعو إلى ترجيح صحته بالنظر لما كان له عند الأقدمين من الاحترام والتقدير ـ وفى هذه الحالة يسلم بأنه قد طرأ على نوعه بعض الفساد فصار إلى ما صار إليه. فإن البقر المصرى على ما هو مشهور الآن قد صغر جسمه إلى أن بلغ حد الوسط فى أجسام الثيران. كما صغر أيضا قرناه بوجه عام. وليس فى لون شعره الذى

يشبه لون شعر بعض الضوارى ما يلفت النظر بوجه ما. كما أن جودة لحمه أبعد من أن تستحق الشهرة التى سمعناها عنها، فإن ألذ لحوم الأبقار طعما وأقومها لصحة الأكل لحوم الثيران الموجودة فى الأصقاع الشمالية من الكرة الأرضية لا فى البلاد الحارة منها.

وفى مصر نوع من البقر يسمى ببقر الوحشى (الخيس) وهو يقرب كثيرا من حمار الوحش على ما ذكره أحد كبار المؤلفين - إذا لم يكن هو حمار الوحش نفسه - ويقوم الغرب أحيانا بتربية أبقار صغيرة من هذا النوع فى الخلوات لأنهم يكونون قد أصابوها فى أثناء مطاردتهم لما هو أكبر سنا، والجلود المتخذة منها جيدة مرغوب فيها.

٥٠ - الجاموس

الظاهر أن الجاموس ليس بمصرى الأصل. إذ لم تشاهد صورة له على الآثار القديمة. كما أنه لم توجد له جثة محنطة ضمن المومياوات. ويذهب البعض إلى أن العرب هم الذين جلبوه إلى مصر بعد الفتح الإسلامى، وإقليم هذا القطر أرضه يناسبه تمام المناسبة. فإنه قد تناسل فيها بسهولة تامة ونما جسمه وتحسن شكله وارتفعت قامته، ووبر الجاموس المصرى قليل ولون جلده رمادى يشبه لون الحديد. ويميل كثيرا إلى السباحة فى الماء ميلا يتبادر معه إلى ذهن من لم يألفه أنه من الحيوانات البرية المائية ، ولم يكن منظره مخيفا ولا مزعجا بل هو فى الحقيقة هادئ الطبع سلبى القيادة وليس فيه ما فى الجاموس الأوربى - وعلى الخصوص جاموس رومانيا من سرعة الخوف المقرون بحب الافتراس - وتعطى الجاموسة فى اليوم الواحد من أربعة عشر إلى ستة عشر رطلا من اللبن الجيد. ولم ينتفع المصريون حتى الآن بما فى الجاموس من القوة العجيبة باستخدامهم إياه فى أعمالهم البيئية. أما لحمه فجيد جدا ولاتأكله إلا الطبقات الواطئة من الشعب.

٥١ - الضأن

الضأن جزء من الثروة فى مصر، وهو فيها كثير العدد مصون الأصل، وذكور الضأن لا تخصى كما هو الحاصل عندنا، وصوفها من النوع الجيد الناعم. أما النعاج فأحسن من النعاج الأوربية من جهة أنها تلد أكثر منها. إذ

تحمل فى كل سنة مرتين فى كل حمل رأسان دفعة واحدة، وأصل هذا النوع من بلاد البربر.

وفى مصر أنواع اخرى من الضأن جلبت إليها من سنار وكردفان واليمن وهى تلك الخراف الكثيرة شحم الذنب المرتفعة القامة الرديئة نوع الصوف، ولكنها مع ذلك كثيرة اللحم جيدة الشحم. ومنها أيضا تلك الخراف القصيرة الوبر فى صلابة وبر الغزلان والأيائل، وفى بعض أجزاء جسمها نمو شحمى يمكن الاستفادة به من وجوه كثيرة.

٥٢ ـ الماعز

أصل الماعز المنتشر فى مصر السفلى من بلاد الشام، ويتميز بتقوش ذيوله وصغر قرونه وطول آذانه فى هبوط وتدل وصهوبة لون شعره بوجه عام، ولبنه جيد غزير شائع الاستعمال وتتألف منه بداخل المدن قطعان صغيرة يقودها الرعاة فى الطرقات والأزقة، فإذا أراد أحدهم شراء شىء من لبنه حلب أمامه على منظر منه وهى كالنعاج شديدة القابلية للضراب والحمل. لأنها تعطى فى السنة حملين فى كل حمل رأسان غالبا وثلاثة رءوس أحيانا وأربعة فى الأحوال الاستثنائية.

أما ماعز الصعيد فمن نوع آخر غير المتقدم. لأنه أصغر قامة وأطول قرونا وأكثر نشاطا وأسرع حركة وأطول وبرا وأنعمه وأغزره ، وهو إذا اعتبرنا هذه الخصائص أقرب شبها بماعز ولاية أنقره.

ويستورد من سنار نوع من الماعز قصير القامة جدا وقصير الشعر يخترق ظهره كله خط أسود بينما لون بقية الشعر فى الجسم كله إما رمادى وإما مائل إلى الشقرة.

٥٣ ـ الكلب

لا أدرى أيستحق الكلب المصرى أن يدرج فى عداد الحيوانات النافعة أم لا، فإنه بطباعه وعاداته يكون تارة أليفا أنيسا وطورا وحشيا نفورا، وذلك تبعا لوجوده بلا صاحب فى المدن أو الخلوات . حيث يأنس على حدود الصحراء بالثعالب وبنات آوى. على أنه فى الحالتين المتقدمتين يعرف بمميزات واضحة فى شعره فإنه فى حالة حيرته التامة يكون طويل الشعر فى لون يقرب من لون

شعر الحيوانات الضارية، ويعتمد في غذائه على ما يتركه الضبع وابن آوى من فضلة فريستهما . فإذا عز عليه الغذاء هجم على أخيه وافترسه ليشبع نهمته.

أما فى المدن حيث يرى كثير الانتشار فإنه يأوى إلى بعض الأحياء طوائف مختلفة ويستقر فيها ويتخذها موطنا له. فإذا طرأ عليها كلب من طائفة أخرى اجتمعت عليه كلابها وهاجمته ودفعته. فإذا لم ينج بنفسه نهشته نهشا. وتلك هى معاملة هذه الكلاب للكلاب الأوربية الأصل إذا التقت بها فى الطرقات. ومع أن الكلاب مدنسة فى نظر المسلمين فإنها تجد منهم فى مصر عناية خاصة. إذ يخصها الآكلون بفضلات طعامهم كما هو المشاهد منهم فى جهات عديدة من تركية أوربا ، ومما يحق لنا ملاحظته وتوجيه النظر إليه بهذه المناسبة أن داء الكلب فى هذه البلاد غير معروف من أهلها كما هو معروف من غير المصريين بالديار المصرية لما تجده الكلاب من الشفقة عليها والعناية بأمرها.

وخلاصة القول أن الكلاب المصرية من نوع خاص تناسل على توالى الأجيال بدون أن يختلط بأى نوع آخر من الكلاب. فليس من المستغرب إذا رأينا التشابه متوافرا بين صفاتها ومميزاتها وصفاتها ومميزاتها فى المومياوات التى يعثر عليها بالمقابر الصغيرة والمقابر الكبيرة.

٥٤ ـ القط أوالسنور

فاز القط بمصر فى كل زمان بامتيازات تكاد لا تقف عند حد كما يثبته تكريم الأقدمين له، وما هو فيه الآن من الحظوة والقربى. وكان المتشرعون فى الأزمان الحالية يفرضون على العامة ذلك التكريم لاعتبارات سياسية كما أن وارثى ملك الفراعنة من المسلمين لم ينحرفوا عن هذه الجادة لبعض الاعتبارات والتقاليد الدينية. فقد روى أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يحب القطط بدليل أن قطا نام يوما على كم ثوبه ففضل أن يقطعه كيلا يزعجه من نومه، ولعل هذا هو السبب فى محبة المسلمين للقطط اعتقادا منهم أنها من نسل القط الذى لقى ذلك الرفق والإكرام.

وللقط فى مصر أن يدخل فى كل مكان. فهو يغشى الحرم كما يغشى المسجد وينساب فى بيت الفلاح كا يهبط بيت الشيخ. وله موضعه من مجلس القاضى كما له مثله من مجلس الأغا. وكان موت القط أيام الفراعنة يستدعى حزن أصحابه وحدادهم عليه. وكانوا يعبرون عن أسفهم عليه بمظاهر خاصة

منها قيامهم بتحنيط جثته وتشييعهم جنازته بالإكبار والاجلال فى أسمى مجالى الاحتفال، أما الآن فقد اقتصروا على احاطته بعناية يمازجها الرفق فى أثناء مدة حياته، وبالملاطفة والتعهد أثناء مرضه حيث يعالج فى مستشفيات خاصة أو ما يشابهها من المنشآت التى أقيمت بالأموال المرصودة على البر والإحسان.

يؤخذ مما تقدم أن القط عومل فى مصر بالإكرام والاحترام . بينما الكثير من الحيوانات الأخرى لاحظ لها من البقاء فى هذه الدنيا إلا الجوع والألم والموت فى آخر الأمر بشر ما تلاقيه الأرواح من صنوف الفناء والتلاشى من عالم الوجود.

٥٥ـ الذئب

زعم بعض علماء التاريخ الطبيعى أن الذئب لا أثر له بمصر - وهو زعم فاسد - إذ فى جملة جهات منها نوع من الذئاب يختلف عن النوع الأوربى بقصر شعره. على أن الذئب المصرى أقل انتشارا من الثعلب والضبع، ولعله من النوع المعروف فى لغة العلماء باسم «كانيس انثوس» أو النوع المعروف عندهم باسم «كانيس فنس» كما ذكره (بروس).

٥٦ـ الثعلب

الثعلب المصرى أصغر حجما من الثعلب الأوربى وأذناه سوداوان وأرجله كأرجل الحيوانات الضارية ولون بطنه أسمر يزداد ميلا إلى السواد كلما تقدم فى العمر. وهو يوغل فى الخلوات يبغى القنيصة، ويدنو من المساكن ليفاجئ فيها الدجاج والحيوانات الداجنة فيفترسها.

٥٧ـ ابن أوى

تعيش بنات أوى أسرابا عديدة بأطراف الصحراء وتأوى إلى الخرائب والأطلال وتتغذى بجيف الحيوانات وهريرها أثناء الليل محزن مستطيل .

٥٨ـ الضبع

هذا النوع من الحيوانات المفترسة شائع فى مصر شيوعه فى الشام والسواحل الشمالية لإفريقية ، وطباعه وعاداته معروفة فلا حاجة إذن إلى

الإفاضة فيها. ويمكن استئناسه إذا أخذ صغيرا وعود الإقلال من أكل اللحم.

٥٩ ـ الخنزير البرى

يظهر أن هذا الحيوان نوع مستقل بذاته، وهو بالنظر لدنسه أصبح فى منجاة من مطاردة الصيادين له، وهذا هو صاحب انتشاره فى جهات الوجه القبلى حيث يكثر فساده، إذ من عادته الانسياب فى الغيطان المزروعة ذرة ويشاهد فى الغالب أسرابا كل سرب منها مؤلف من خمسين إلى ستين. وأكثر وجوده على سواحل البحيرات والبحر.

٦٠ ـ فرس البحر

هذا الحيوان الهائل الجسم الذى يعتقد الناس وجوده فى كل مكان من مصر يخترقه النيل لايشاهد فيها إلا عرضا. والحقيقة أن موطنه ومستقره بلاد النوبة العليا. على أن هناك روايات تؤيد مشاهدة بعض الناس له حتى بالجهات القريبة من دمياط فقد ذكر (بروسبر البان) أنه صاد مرة فرسا منها فى هذه الجهة وأنه شوهد بالقرب منها فى سنة ١٨٣٦ وأنه أصاب المزروعات بتلف بالغ، وظل نحو العشرين يوما يفتك بها حتى اختفى فلم يعد يراه أحد. وقد زعموا أن فرس البحر كان فى زمن مضى منتشرا بالقطر المصرى وهو زعم لم يقم عليه دليل ولذا لاينبغى التعويل عليه.

٦١ ـ الغزال

يكثر هذا الحيوان الجميل الظريف على حدود الصحارى المتصلة بمصر ويمكن التذكير بما تفنن فيه شعراء العرب من ضروب الإطراء فى محاسنه من دقة أعطاف ورقة حركات وسواد عينين.. إلخ.

وهو يتغذى بالأعشاب الصغيرة التى تنبتها الصحراء، وقد يطرق فى الليل أحيانا الأراضى المزروعة ليأكل من نباتها ويرتوى بعذب مائها. وقد برع عرب البدو فى مطاردته على أفراسهم الخفيفة. فيتمكنون بهذه المطاردة أحيانا من إعيائه وأخذ الأطراف عليه وقنصه فى نهاية الأمر. ولهم فى اصطياده وسائل مختلفة فهم يصيدونه إما بالبندقة وإما بالصقر أو الكلب. وتؤخذ صغار الغزلان حية فلا تلبث أن تأنس بالإنسان وتألفه بالرغم من نفورها الشديد فى حالة التوحش. وفى دارى بالقاهرة جملة منها تأنس بى وأنس بها وتتناسل فى كل

عام. أما الدركاس وهو في مصر اسم لبقر الوحش فأعلق ببلاد النوبة منه بالقطر المصرى، ومن الحيوانات الداخلة في فصيلة الغنم نوع من الخراف يبدو من ارتفاع جسمه أن أصله من النوع المعروف بالخروف الأفريقى.

وتتمة لهذا البيان الذى قصرناه على ذكر الحيوانات الثديية أذكر حيوانا نادرا جدا من الحيوانات المجترة هو بحجم الجدى وقد وجدته في الصحراء المجاورة للضفة الشرقية من النيل تجاه أسيوط ولم أجد لنوعه ذكرا في الكتب المصنفة.

٦٢ـ الدمان

هو المعروف عند اليهود باسم الشازان، والمشهور عند العامة بخروف إسرائيل أو دمان إسرائيل، وأول عالم أورد ذكره هو العلامة (بروس) وقد عرفنا به إذ قال إنه قصير القامة أصهب لون الشعر في سمرة خفيفة والحيوانات المفترسة تتخذ في الغالب منه غذاء ها.

٦٣ـ القرد

ليست القرود التى في مصر ـ ويتنقل أصحابها بها من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى ـ مصرية الأصل بل مجلوبة من سنار وبلاد العرب. فمن الخطأ المحض ما زعمه بعض المؤرخين من أنها مصرية، وأنها وجدت بمصر منذ العصور الخالية استنادا على ما استكشف في المقابر الاثرية من القرود الكثيرة المحنطة، والحقيقة أن القرود التى يطاف بها من الأنواع المعروفة بأسماء الميمون والتتارى والماجو.

٦٤ـ القنفذ

يختلف نوع القنفذ الموجود بمصر عن النوع الشائع بأوروبا في لون جلده ولكن يماثله فيما عدا هذا عادات وطباعا..إلخ.

٦٥ـ الدروال

هذا الحيوان لم يشاهد نوعه إلا في القطر المصرى. وهو فيها يغشى الدور فيقتل الطيور ويفتك بها أذرع فتك ، وفيه شراهية غريبة إلى البيض.

٦٦ـ النمس

الاسم الخاص بالنمس هو (اشنومون) وفـأر فرعون. وهو منتشـر فى أرجاء القطـر المصـرى كـافة وفـى الاسـتطـاعـة اسـتئنـاسـه لأنـه لطيـف بطبيعتـه. فـإذا استـؤنس أفـاد صـاحبـه بإبـادتـه الفيـران الكبيرة والصغيرة لما فـى فطـرته مـن الشـره الشديـد إلـى التغذى بلحمهـا. ولكنه يضـر مـن جهة أخـرى ضـررا بالغـا لضراوته بالحيوانات الداجنة التى تسوقه غريزته إلى الفتك بها.

والنوادر المأثورة عـن النمس كثيرة. حقا أنـه يبيد التماسيح وهـى فى بيضـها بل ويفتش فى الرمل عن هذا البيض وينهش صغار هذا الحيـوان متى نفقت عن بيضـها، ولكـن مالا يستطـاع التسليم بصحته لظهـور أثر المبالغـة عليه أنـه يغتنم فرصة انفتـاح فكى الورنة الكبيرة فينفذ مـن بينهما إلى معدتها ويمـزقها تمزيقا ويسبب بهذا الفعل موتها.

وفـى القـوانين المصـريـة القـديمة نصـوص صـريحـة تقضـى بحماية النمـس وتوصـى به، وهـذا ما جعل الأهليـن فى ذلك العهد البعيد يوافونـه بحاجتـه من الغذاء ويكرمونه ويحتفلون به إذا مات.

٦٧ـ القط النمرى

فى مصـر نوعـان من القط النمـرى، أحدهمـا يجاور المستنقعـات ليتغذى بما يصيده من الطيور التى تألفها. وحجمـه يعدل ثلاثة أضعاف حجم القط، ويسميه علماء التاريخ الطبيعى «فليس شوس» والثانـى نادر الوجود جدا يسمونه «فليس لنكس».

٦٨ـ اليربوع أو الدرص أو ذو الرضيع

فـى مصر نـوعـان يختلفان اختلافـا بينـا فى حجـم الجسـم واكتساء الأرجـل بـالشعر أو تجردهـا منه. وفـى الحالـة الأولى يكـون اليـربوع مـن النوع الصغير المعروف عند علماء الحيوان باسم «ديبوس هرتيبوس» وفى الحالة الثانية يسمونه «ديبوس ساجيتا» والنوعان يتفقان فى أن الرجلين فيهما أطول من اليدين وأدق منهما ولهذا تراهما يثبان بسهولة وثبا يقطعـان مسافة بعيدة بعدا مناسبا وليس بين الحيـوانات القارضـة حيوان أكبر أسنـانا من اليـربوع، ولا أعظم قـدرة منه على القرض حتى أنـك إذا وضـعت يربوعا فى قفص مـن الخشب الصلب وأخذت

الحيطة حتى لا يفلت منه فانه لا يلبث أن يقرض خشب القفص ويفر منه مستردا حريته. أما إذا كان القفص حديداً فإنه لا يستطيع إتلافه كما يتلف القفص الخشبي.

وقد خلط بعضهم فأطلق اسم اليربوع على حيوان قراض = قارض = بحجم الفئران الكبيرة فى أوربا هو الكثير الانتشار فى جهة الأهرام. ويقال أن فى النوبة نوعا من هذا الحيوان ولكنه أقل حجما منه بمقدار النصف.

٦٩- الفـــأر والسيسى

هذان الاسمان يشملان أنواع الفيران التى يكثر فى مصر وجودها. ولكن من بين هذه الأنواع نوعين جديرين بالبحث وهما فأر الإسكندرية الذى توطن سواحل أوربا الجنوبية وتبلد فيها وهو نفس الذى يسميه الإيطاليون بفأر السطوح، ثم الفأر الشوكى وهو الذى وبر ظهره خشن الملمس وخاز ليد اللامس.

٧٠- الأرنـــب

يختلف الأرنب المصرى عن الأرنب العام المعتاد بلون شعره وطول أذنيه ورجليه الخلفيتين، وهو فى نظر المسلمين غير طاهر ولهذا يمسكون عن أكله ولا يطاردونه لصيده كما يطارد النوع المعتاد فى فرنسا وفى جميع الأصقاع التى ينتشر بالتناسل فيها.

الطيـــور

الطيـور الداجنــة

الدجاج ـ الدجاج الهندى ـ الحمام ـ الأوز.

٧١ ـ الدجاج

لا يختلف دجاج مصر عن دجاج أوربا إلا بحجم الجسم. فإن حجمه لا يتجاوز حجم هذه كبرا. ومما يستدعى البحث فى طباعها والبحث عن غرائزها بنوع خاص أنها لا تميل إلى احتضان بيضها. حتى لقد لجأوا فى مصر إلى التفريخ الصناعى وهو فيها شائعه = شائع = بحيث يمكن التوكيد بأنه لم يكن فى بلد ما أعم انتشارا منه فى القطر المصرى، لاسيما وأن الوسائل المتخذة للتفريخ لا تقتضى إيقافه زمنا بحكم الفصول كما هو المشاهد فى البلاد الأوربية. وأبسط تجربة يمكن القيام بها لبيان الشذوذ الذى ذكرته الآن فى أمر الدجاج المصرى والدجاج الأوربى هو أن ينقل إلى مصر بعض الدجاج عرف عنه فى أوربا الميل إلى احتضان بيضه وأن ينقل إلى فرنسا فى الآن نفسه بعض الدجاج المصرى فإذا أدى هذا النقل إلى فقدان الأولى خصية الإحتضان وإكتساب الثانية لها فلا يكون السبب لذلك سوى تأثير الطقس، وفى هذا الحادث الغريب ما يستدعى الاهتمام بدرس أسبابه.

ويوجد بالفيوم وبندرة نوع من الدجاج أكبر حجما من الدجاج المعتاد وأطول أرجلا منه.

٧٢ ـ الدجاج الهندى

جلب الدجاج الهندى إلى مصر منذ سنوات قلائل وتربيته فيها سهلة وانتشاره مطرد سريع.

٧٣ ـ الحمام

يربى الحمام الداجن الشبيه بحمام أوربا فى مصر بعناية ونجاح، وله أنواع عديدة كما للحمام الصغير البرى المرغوب فيه كثيرا للذة طعمه. وهو يفضل على النوع الأول من حيث إنه غير مستأنس يتحرى غذاءه فى الجهات البعيدة فلا يكلف صاحبه فتيلا ولا نقيرا. وفى مصر قرى يكاد لا يوجد لأهلها شاغل سوى تربية هذا الصنف من الحمام.

٧٤ـ الأوز

النوع الأصلى من الأوز هو الرمادى لون الريش. وقد أدخل الأوز الأوربى إلى مصر حديثا. أما البط الأهلى فقليل الانتشار بخلاف البط البرى الذى يشبه لون ريشه لون الصلب، وهو يربى مع بقية الحيوانات الداجنة فى المنازل.

الطيور الجارحة

الحدأة ـ الصقر أو البازى ـ العقاب ـ العقاب الصياد ـ النسر ـ نوعان من الحدأة ـ الباشق ـ الصقر الشاهينى.

٧٥ـ الحدأة الرخمية

الحدأة من نوعى «آريان» و«جريفون» والحدأة الرخمية المعروفة بدنجاجة أو فرخة فرعون من الجوارح الشائعة فى مصر، وهى لا تستقر فى مكان واحد بل تهاجر فى أوقات دورية إلى القارة الأوربية وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط.

٧٦ـ الصقر أو البازى

فى مصر سبعة أنواع من البزاة والشواهين وهى كلها صقور:

الصقر الحاج ـ الصقر الرمادى ـ الصقر الصغير ـ اليؤيؤ ـ الصقر الأرقط ـ الصقير الأرقط ـ الكوين. وجميعها من الطيور الشاردة الرحالة(١).

٧٧ـ العقاب

أنواع العقاب أربعة وهى: العقاب العادى الرحال ـ العقاب الملوكى الشارد ـ العقاب الصارخ الرحال ـ عقاب طيبة المقيم.

ويوجد من هذا الأخير فى الشام بل وعلى سواحل بلاد البربر.

٧٨ـ العقاب الصياد

أنواع هذا العقاب وهى العقاب الصياد ذو الذنب الأبيض والعقاب الصياد المعروف باسم حنا الأبيض والعقاب الصياد القصير المنقار لم تكن نادرة الوجود فى القطر المصرى لأنها تجد غذاء ها وافرا فيه على ضفاف نهر النيل وسواحل البحر وشطوط البحيرات.

---

(١) جاء فى حياة الحيوان تقسيم الصقور إلى خمسة أصناف: البازى والباشق والبيدق والزرق. وفرخ البازى يسمى الغطريف.

٧٩ـ النسر

وعادة الانتقال غريزة في النسر والباشق فإنهما يظهران بالقطر المصرى فى مواعيد دورية مختلفة من السنة.

٨٠ـ نوعان من الحدأة

وما سبق من الكلام على النسر ينطبق على الحدأة الملوكية والحدأة السوداء.

٨١ـ الحدأة المعروفة باسم الأنيون

إن هذا النوع من الحدأة طير فريد فى نوعه، وهو يعيش مقيما فى القطر وربما كان ينبغى حسبانه ضمن الطيور الشاردة.

٨٢ـ الباشق

يعرف الباشق العادى فى القطر المصرى بأنه من الطيور الرحالة فليس بمستغرب أن يستكشف علماء التاريخ الطبيعى بعض أصناف له بالنظر لاختلاف ريش هذا الطير الجارح.

٨٣ـ الصقر الشاهينى

البومة الكبيرة (غرندوق) ـ البومة المتوسطة (الدوق المتوسط) البومة القصيرة الشوشة ـ هامة سافنيى ـ المصاصة الصغيرة ـ المصاصة سكويس.

هذه الطيور الليلية الضعيفة الأجنحة الرخوة الريش فى قلة اتصال وتلاحم لا تستطيع الطيران لقطع المسافات الطويلة، وهو ما يؤخذ منه انها تقيم فى هذا القطر ولا تنتقل منه بالرحلة إلى قطر آخر. ولكن ظهور النوع المعروف منها باسم «ستركس اسكولافوس» فى انجلترا وبعض جهات أوربا مع أن مأواه الخاص القارة الأفريقية يناقض ذلك الرأى المبنى على الملاحظات الفسيولوجية.

٨٥ـ الخفاش والوطواط

تأوى أصناف لا حصر لعددها من الخفاش والوطواط داخل الأهرام والمقابر الفرعونية القديمة والمغاور والهياكل القديمة والأشجار الجوفاء، والصنف المعروف منها باسم الخفاش الأصهب أكبر الأصناف الأخرى حجما.

وقد قسم علماء التاريخ الطبيعى أصنافه أقساما تختلف عن بعضها بعلامات ومميزات خاصة، وتلك الأصناف هى: «دينوبوم» و«ريمولوف» أى الذى

كحدوة الحصان و«نيكتير» و«زافيان» و«مولوس» و«نيكلونوم» و«روسيت» أى الأصهب.

٨٦ - عصافير الشوك

إن معظم أنواع العصافير الصغيرة التى ينطلق عليها هذا الاسم، وهى خاصة بأوربا، تظهر عادة بمصر فى الأوقات الدورية لهجرتها. فلسنا فى حاجة إذن لتعدادها وإنما اقتصر من باب الاستثناء على ذكر بعض أنواعها كالنوع المعروف بدقة منقاره مثل عصفور سيكسيكولا والعصفور الأصهب الصادح...إلخ.

وكلها دقيقة المنقار، وكذا العصفور ذو الطوق الأشقر اللون من نوع العصافير ذات المنقار المخروطى الشكل والقنابر المعروفة باسم «بيفاسيسى» و«ايزابللينى» و«الحسون» «الكوكو الأمريكى» الرمادى اللون و«الفينيجيل».

ثم العصفور الأسبانى الذى يختلف اختلافا كبيرا عن العصفور الأوربى العادى. ويظهر أنه فى رحلاته وشروده لا يحيد عن طريق واحد و«الشوالة» العظيمة الانتشار فى شبه جزيرة إيطاليا، ثم العصافير المشقوقة المنقار كخطاف سافينى وقنبرة البرك التى تظهر عرضا فى إقليم بروفنس بفرنسا ثم العصفور الأسبانى الذى يختلف اختلافا كبيرا.

أما الغربان فأنواع. منها الغراب النوحى والسقاو، وهذا الأخير هو الذى نراه يعلو المنازل فى القاهرة ويتنقل فيها انتقال السيد المالك ويوغل حتى يبلغ إلى مصر العليا وهو من نوع البضاء الألمانى وهو مسرول بالريش الأخضر الضارب إلى الزرقة ويخيل للناظر أنه طير من طيور المنطقة المحصورة بين المدارين.

ومن أنواع الطير النوع الملتصق الأصابع وهو يجتمع أسرابا كثيرة العدد ويعتبر من الوجهة الحيوانية الخاصة بهذا النوع الصلة بين افريقية الغربية وأفريقية الشمالية المتصلة بالبحر الأبيض المتوسط، ثم الأنواع المعروفة بأسماء «ميروبس سافنيى» و«ميروبس ايباستر» و«ميروبس فيريدس». وهذا الأخير هو الذى نراه يتقلب تقلبه الجميل فى الهواء فوق غيطان الذرة وبالقرب من أشجار السنط التى يأوى إلى أغصانها المتكاثفة، ثم النوع الرفيع المنقار الذى منه

الهدهد وهو لا يختلف فى شىء عن نظيره بأوربا.

٨٧ ـ الطيور المتسلقة

لا أذكر من هذه الطيور سوى الشرشق المعروف بالشقراق ومقطع الظهر وهو من القواطع التى تمر بمصر مرا ولا تقيم فيها. أما النوع المعروف باسم «كوكسيزوس يزانوس» فهو والكوكو العادى من الطيور المقيمة بالقطر المصرى.

٨٨ ـ الطيور التى من نوع الدجاج

يشمل هذه الطيور اسم «جنجا» أو «الجونية» أو «الجونى» وهى كثيرة بالقطر المصرى وتعيش على حواف الصحراء وكثيرا ما تتقدم أسرابا عديدة نحو الحقول المزروعة، وتقصد إلى ضفاف النهر لترتوى بمياهه وهى على أنواع منها:

الجونية القطاة.

الجونية لشتنستين.

الجونية التى ذيلها كالمقراض.

وهى جميعا من الطيور المقيمة وتختلف عن بعضها قلة وكثرة. أما السمانى أو الهى أو السلوى فيكثر فى بعض الأوقات، وهو يقطع فى رحلته المسافات الطويلة بحيث يرى فى الجهات المتعارضة من سطح الكرة الأرضية.

وهناك نوعان مختلفان كل الاختلاف من طير اليمام لا يمكن إغفالهما وغض النظر عنهما، وهما من نوع اليمام أو الشفنين العام المألوف الذى يمر بالبلاد مرا ولا يقيم بها ولحمه لذيذ مطلوب، ونوع اليمام المقيم ذى اللحم القليل غير المقبول فى الذوق. ويمام هذا النوع يشبه كثيرا يمام بلاد الغرب المطوق، لولا أن الجزء الأسفل من بياضه كدر ناصع كبياض ذلك اليمام المغربى.

٨٩ ـ الطيور المعروفة بطول سوقها

إذا تصدينا لإيراد أصناف هذه الطيور الداخلة فى فصيلة أبى مغازل بما هو معروف عنها من التفاوت فى الحجم والاختلاف فى الشكل فإننا نزج بأنفسنا فى بيداء لا أطراف لها من الأسماء وهو ما يخرجنا حتما عن موضوعنا ويذهب بنا بعيدا عن أفقنا. لا سيما وإنها جميعها عين مايشاهد من أنواعها فى الأقطار الأوربية مما يعرف عنه الميل دواما إلى الرحلة والانتقال من

مكان إلى مكان. ولكنا نذكر منها عصفور الزقزاق المعروف بسواد الرأس والزقزاق البلدى (المسلح) وجراى الصحراء فانما .

ومما تسرنى الإشارة إليه الطير المعروف بأبى منجل أو أبى حنس، وهو نوع من اللقلق ومن أشهر الطيور الطويلة المنقار، وكان مقدسا عند قدماء المصريين ومحترما منهم، وقد وجدت جثته محنطة فى المقابر المصرية القديمة بعناية تامة واحتياط بالغ ، وصورته ترى ضمن النقوش الهيروغليفية.

ولم يكن ذلك الطير منتشرا فى القطر المصرى الآن انتشاره فى الأزمان السابقة فإذا شوهد فإنما فى الجهات التى يصعد منها إلى الشلالات ويكون فى صغره مجرد الرقبة من الريش فإذا كبر كساها الريش الكثيف على طول امتدادها .

وسأتبع هذه القاعدة فى الكلام على الطيور ذوات الكف كالبجع وأنواع البط والأوز.

٩٠ - الكلام على الحشرات

توجد الحشرات كلها على تعدد أشكالها فى مصر إلا القليل منها. فحشرة أبى دقيق أقل أصنافا فى هذا القطر من ذوات الأجنحة العمودية ، والحشرات الليلية من هذه (عفريت الليل) أكثر انتشارا من الحشرات النهارية. وتعزى هذه الكثرة إلى الشمس وتأثير أشعتها الشديدة الحرارة فى قطر لا يتسع فيه الظل ولا يمتد إلى مسافات بعيدة، ثم إلى النباتات المتسلقة التى تأوى ما لا حصر لعدده من الكائنات العضوية الصغيرة الحجم ، ويحتوى النيل بعض الحيوانات المفصلية من الطائفة القشرية وبعضا آخر من الطائفة العلقية. أما الحشرات من طائفة أبى ريالة فتخرق دائما مياه النهر وتلعب على ضفتيه. بل كثيرا ما ترتفع الألوف المؤلفة منها فى الفضاء وترحل مهاجرة إلى الأصقاع النائية كالطيور المختلفة وأبى دقيق.

أما الجراد وهو الحرجول أو الحرجل الذى كان فى العهد القديم من البلايا والآفات التى منيت مصر بها فلا يزال يرى فى أريافها أكثر عددا منه فى جميع البلدان. بينما ترى الطيور الآكلة للجراد تعيش فى البلاد كطيور مقيمة لارحالة ولا مهاجرة.

وما الحشرات العنكبوتية من جميع الأشكال والألوان التى إذا لسعت كانت لسعاتها عظيمة الخطر شديدة الضرر تأوى إلى الرمال والخرائب وتندس فى كل شيء حتى فى حصيرة السمر التى تفرش بها الحجرات. وهناك دودة صغيرة من نوع النمل المعروف باسم أبى على «ميرميليون» تثقب الأراضى المتحركة ثقبا على شكل القمع وتفعل فيها ما يفعله هذا النوع من النمل فى أوربا من التربص بالحشرات الأخرى للوثبة عليها والفتك بها واتخاذها غذاء تشبع به نهمتها.

٩١ـ الأصداف البحرية

الأصداف البحرية كالقواقع والشنج والركبة والودع قليلة الكمية فى مصر إذا قيست بما يعيش فيها من صنوف الحيوانات العضوية. والصدف المعروف فيها باسم «هليكس أريجولاريس» هو بوجه التقريب النوع الوحيد المعروف منها. ولا حصر لأشكال هذا النوع وألوانه لكثرتها.

وتحتوى مياه النيل الكثير من الأصداف المعروفة فى العلم بأسماء «أونيو» و«أيريدين» و«القورنى» كما تعيش على ضفافه «قواقع المستنقعات».

وفى الوجه القبلى وحوالى الشلالات توجد أنواع المحار الاسواقى المعروفة بالاثيرية التى يرجع فضل استكشافها إلى العلامة (كايو) وترى مندمجة فى القطع الصخرية. وتوجد أنواع من القواقع الحلزونية الصغيرة والودع متفرقة هنا وهناك.

٩٢ـ الهوام والأفاعى الرحالة

الهوام الداخة فى طائف الأفاعى كثيرة العدد فى القطر المصرى، وبعضها وهو الشطر الأصغر يسكن مياه النيل أو يأوى إلى ضفافه، والبعض الآخر يقيم فى المدن والحقول وأطراف الصحراء.

والتمساح ويسمى أيضا بالورل النيلى أشهر ما يسكن النيل من الهوام ولكنه لا يألف إلاجهات الوجه القبلى ولا يهبط ما يلى: بلدة جرجا شمالا وهذا هو السبب فى عدم رؤيته من النيل بجهات الوجه البحرى إلا نادرا فى أيام الفيضان العالى وهو يصل إليها مسوقا بتيار النيل.

والتمساح وإن لم يكن من الحيوانات التى تعيش فى الهواء والماء لتجرده من

عضوى التنفس - أى الرئتين يعيش فى الماء وعلى وجه الأرض ويتنفس الهواء الطبيعى. ولكنه إذا برز إلى البر ثحلت = بطأت = مشيته وتعطلت حركاته بخلافه فى الماء فإنه يبدو سريع الحركة كثير النشاط، وهذا ما جعله يخاف على حياته ويشعر بأنه لا يأمن عليها إلا إذا بقى فى الماء فتراه إذا سمع همسا لجأ إليه واحتمى به. وفيه تبلغ ضراوته الحد الأقصى. فكثيرا ما إذا عثر بإنسان يفتك به ويقضى على حياته. أما فى البر فإنه لايملك القدرة على الأذى ويطشه فيه لايخشاه حتى الطفل الصغير.

والتماسيح كثيرة النسل. فالأنثى منها تعمد إلى الرمل تودعه بيضها التى تنقب فى الميعاد بفعل حرارة الشمس. ويبلغ طول التمساح عادة وقت خروجه من بيضته سنتمترين ثم ينمو إلى أن يبلغ من الطول نحو الخمسة أمتار أو الستة، وقد شوهد منها ما بلغ طوله إلى عشرة امتار.

وتتخذ التماسيح مساكنها بأطراف الجزر والأماكن التى تستطيع الالتجاء منها بسهولة إلى النيل، وتعيش أفواجا مجتمعة وتخرج للصيد بإرشاد زعيم لها وإذا نامت قام أحدها بالحراسة والمراقبة. فترى أثناء النهار مطروحة على جزر النيل مستشرقة الشمس المتلظية أو مخرجة رؤوسها من الماء فترى متحركة بتأثير دفع التيار.

وفى القطر المصرى أنواع مختلفة من التماسيح كان نوع منها فقط موضع إجلال قدماء المصريين الذين كانوا يغالون فى تمجيده إلى حد دفع بسكان مصر الوسطى إلى عبادته. لاسيما وإنهم كانوا وهو صغير لا يخشون منه ضررا بل كانوا يستأنسونه ويألفونه.

وكان ماء الفيضان يسوق التماسيح إلى تلك الجهة. فإذا رآها المصريون اعتبروها بشرى خير وبركة وأدوا إليها مراسم التكريم الدينى وبلغ من حفاوتهم بها وإكرامهم لها أنهم كانوا يحلون أذانها بالذهب والأحجار الزجاجية كما يحلون أرجلها بالأساور الذهبية. وقد وجد الكثير منها محنطا فى المقابر على هذا المثال.

ونقتصر هنا على ذكر الأفاعى الأخرى التى بالقطر المصرى وها هى:

السلحفاة الرخوة النيلية الكبرى أو الرق واسمها العلمى «تريونكس»

وسماها المصريون «الترسة».

ورن البحر واسمـه العلمى «تويـنمبيس» ويعرف أيضا بـاسم «مونيتـور النيل» حيوان شـديد الخوف سـريع الانكمـاش. إذا رأى أحدا يـدنو منـه صفر صفيـرا حادا . خصـوصا إذا كـان من ضوارى الماء كالتمساح وهو بذلك يخدم الإنسان خدمة جليلة لأنه يخطره بوجود هذا الحيوان.

الحردون المعروف عند الأقدمين باسم «ستلليون».

والضب المجهول أعضاء التذكير.

والوزغ أو البرص أو سام أبرص.

ومنه نوعان شهيران أحدهما الحلقى.

والحرباء القصيرة.

والسقنقور، وهو على تسعـة أنواع بأقل تقدير، والفرق بينـه وبين الورل من وجوه . منهـا أن الورل برى لا يأوى إلا بالبـرارى والسقنقور لا يـأوى من الماء، ومنها أن ظهر الورل أصفر أغبر والسقنقور مدبج بصفرة وسواد.

أما الورل وجمعه أورال وورلان فله سبعة أنواع مختلفة وهو والضب والحرباء وشحمة الأرض والوزغ كلها متناسبة.

وثعبـان الرمـل، ومقر بعضه فـى الـوجـه البحرى والبعـض الآخـر فى إقليـم طيبة.

والحية وتطلق على الذكر والانثى وانما تميز بقولهم حية ذكر وحية أنثى وهى على أنواع. الرقشاء والرقطاء بنقط أو خطوط سوداء وبيضاء.

وثعبان جهة الأهرام.

والأفعوان نوعان ـ الأفعوان ذو القرنين والهاج ـ وهـو معروف بشدة خطره وقد قام فورسكال بتجارب عديدة على تأثير سمه فقال إنه سم قتال لا محالة.

والضفـدع والشفـدع ـ أى صغيـر الضفـدع ، ومنهـا نـوع يعـرف بـاسـم سافينيى تراه مذكورا ومرسوما فى كتب العلوم الطبيعية.

الأســـماك

٩٣ـ عموميات

إن أسماك النيل وهي الجيدة التي أتصدى لذكرها هنا يتألف منها على قلتها مجموعات يهم القارىء العلم بها لما يستطلعه من أحوالها وعاداتها وتراكيبها العضوية.

وهذه الأسماك المختلفة فريقان، فريق يقيم باستمرار في أماكن معينة والفريق الآخر من القواطع يتنقل من مكان إلى مكان في مواعيد مختلفة من السنة. وربما بلغت الرحلة به إلى الأرجاء القاصية من الأرض. ومن الأسماك النيلية ما يجيء من أعلى جهات النيل حتى يبلغ إلى مصبه. فإذا جاء موعد الفيضان في سبتمبر من كل عام أخذه الأهالي فكان لهم من الغذاء الطيب الوافر. ذلك لأنهم يلتقطون منه المقادير العظيمة في الأرض التي يغمرها الماء بعد انحساره عنها وعودته إلى مجراه. وبحيرة المنزلة القريبة من دمياط كثيرة الأسماك تصاد منها الأسماك بمقادير وافرة جدا فيتجر بها الصيادون ويصدر منها إلى جزر الأرخبيل وبلاد اليونان.

وقد زعموا أن الأسماك القواطع الرحالة تحتوي أجسامها علامات مؤكدة تدل على هجرتها. والذي أجمع عليه العارفون بأحوال الأسماك وسلموا به أنها في الوقت الذي تتجه فيه إلى مصبات النيل يصيبها بالجانب الأيسر من رأسها جرح أو أثر اصطدام. بينما التي تصعد في النيل من مصباته إلى أعلاه يكون ذلك الأثر في الجانب الأيمن منه، وبحسب الرأي الأول يكون الأثر ناشئا من أن السمك يدنو من الضفة اليسرى للنيل اجتنابا لقوة دفع التيار، وبحسب الرأي الثاني أن هذه الضفة تكون إلى يمينه.

نعم إن أحد المؤلفين المتأخرين الضليعين في هذا الفرع من علم الحيوانات وهو الذي أخذنا عنه هذه البيانات ذكرها في كتاب له، ولكنه لم يذكرها من قبيل التعميم على الأسماك القواطع كافة . بل جعلها مقتصرة على بعض أنواع. فقد قال بالحرف الواحد: إن السمك لا تهمه سرعة التيار الذي يلقي فيه بنفسه من غير أن يتحرى الطريق الذي يلائمه اتباعه. بل إن هناك حاجة تدفعه إلى

الحركة وترشده إلى الطريق، وهى حاجة الانضمام إلى أفراد طائفته. فتراه لهذا السبب يسارع فى الوصول معها إلى هذا الوسط الملائم لتوافر بواعث الطبيعة بالتزاوج. ومتى تم له ذلك وأراد العودة إلى الوسط الذى اعتاد الإقامة به والذى أقصاه عنه مؤقتا ذلك الاحتياج الغريزى فإنه يدنو من الشاطىء لمقاومة التيار الذى تفوق سرعته السرعة الطبيعية. وبهذه المناسبة وحدها تحدث الجراح التى ترى على جانبى رأسه لأعلى الجانب الأيمن منه فقط. وهو ما يثبت أن السمك فى صعوده للنيل إلتماس الأوبة إلى موطنه يسير بلا تمييز تارة إلى اليمين وطورا إلى اليسار وسط الاعشاب النهرية والأحجار التى تجد فيها بينه غذاء.

٩٤ـ أسماء بعض أسماك النيل

هذه الأسماك هى:

الكرشرة اسمها العلمى «نريهس لاتس».

ونوع جميل يشاهد فى البرك التى يكونها النيل بالقرب من رشيد ولحمه لذيذ واسمه «خروميس بوتيه».

ونوع كان يسميه الأقدمون «لبيدوس» وهو من نوع «الباربو» واسمه العلمى «سبران لبيدوس» وكان فى عداد معبوداتهم.

وسمك آخر من نوعه استكشفه فورسكال وسماه «سيران النيل».

واللبيس وقد استكشفه (روبل).

ونوع يسمى «لنسك النيل» وهو سمك جميل فضى اللون ذهبى بريق البطن يوجد بنواحى طيبة فى أيام الفيضان.

ونوع آخر منه يسمى «منسسك ببيبه» ربما كان نوعا من أنواع السمك السابق.

ونوع منه يسمى «لنبسك طيبة» ويعرف عند المصريين باسم ابيبه.

سمك مورمير «اكسيرنك» وهو الذى ذكرت عنه البيانات الخاصة بهجرته من مكان إلى مكان، وكان قدماء المصريين يبجلونه ويكرمونه.

وهناك نوع من السمك اسمه العلمى «مورميروس» وهو أصناف كثيرة منها:

الصنف المعروف بالكلشفى، والصنف المعروف بالعرسة، والصنف المعروف بالجنفى.

والصنف الذى يسميه المصريون بالقشرة، ويشبه قليلا السمك المعروف باسم سمك الكراكى أو القشر..إلخ.

الجرى أو سلورس ذو الأذنين، وتسمى أيضا الشلبة، واسمها العلمى «سولوروس وريتاس».

الجرى أو سلورس أو الشلبة بأنواعها واسمه العلمى «سولوروس مستوس».

وهناك ثلاثة أنواع من الشلبة نوع منها لاهبى اللون يسميه الأهالى بالشلبة العربى، واسمها العلمى «هبيوفتالموس نيلوتيكوس».

وهناك خمسة أنواع من الأسماك الغليظة أحدها هو ما يسميه المصريون بالشال ويوجد محفوظا بالتحنيط فى مقابر طيبة.

وثلاثة أنواع من صنف آخر من الشال اسمها العلمى «سينودونتيس».

والنوع المعروف فى الصعيد باسم البجتل والبجاس، وقد يبلغ من الطول أحيانا خمسة أقدام ولحمه رخو تافه الطعم لا إقبال عليه.

والسمك المعروف باسم الدقماق ويسمى أيضا بالخنزير.

والسمك المشوك وهو سمك صغير الحجم يخشاه الصيادون كثيرا بسبب ما تحدثه أشواكه من الوخزات الضارة ، وبالنظر إلى هذه الخصية فيه سماه المصريون أبوشكه.

القرموط، واسمه العلمى «هيتيروبر انشوس انجيلاريس» وهو معروف بقوته الحيوية وشدتها إلى حد أن مظاهر الحياة تظل بادية عليه بعد اخراجه من الماء ولو هشم رأسه. وبه تتغذى الطبقات الفقيرة من الأهلين.

والرعد أو الرعاد. يسميه المصريون بذلك ، ولكن هذه التسمية لا تفى بما توافر فيه من الخواص الكهربائية الغريبة التى بواسطتها يوصل إلى أجسام الذين يلمسونه موجات كهربائية شديدة تضطرهم إلى التنحى عن الإمساك به فى الحال.

والحيتان المعروفة باسم حيتان سليمان، وهى أنواع. منها الحوت المعروف

بالنفاش أو اللفاش ، والحوت المسند إلى (راسكال) والحوت المعروف باسم الراعى واسمه العلمى هو «شراسينوس نيلوتيكوس» والحوت المسنن والحوت المعروف باسم (بس) وهو نادر الوجود لايرى إلا بالقرب من طيبة (الأقصر).

ومن أنواع السمك البارموزه وهو صغير الحجم كثير الألوان والجية، وهو كثير بالقرب من طيبة ولايهبط الوجه البحرى فى النيل والملش والسردين السابوغة. ومن أنواعه كذلك:

أبومنقار، واسمه العلمى «هيميرهميس».

البرنونى، واسمه العلمى «مولوس».

البطيش، واسمه العلمى «جيرينيدون فاسياتوس».

البطيط، واسمه العلمى «موجيل سينالوس».

الفهدة، واسمها العلمى «باربوس يرنس».

الفرخة، واسمها العلمى «موجيل ساليئوس».

الجورنتى، واسمه العلمى «تريحلا» وهو سمك منتظم الهيئة وفيه خاصية استنشاق مقدار من الماء وقذفه بقوة على الناس وهو لايرى إلا أيام الفيضان.

الجرجار أو الزقزوق، واسمه العلمى «يرستييوما بتنيى».

اللبيس، واسمه العلمى «لابيونيلوتيكوس».

الشبار، أو البلطى واسمه العلمى «ثيلابيا».

البياض، واسمه العلمى «باجروس بياض».

سكان مصر المختلفون

عموميات - الأقباط - المصريون المسلمون - البدو أو العربان - اليهود - اليونان أو الاغريق - الأحباش - الأثيوبيون - الأوربيون.

لا نتصدى فى هذا المقام للبحث فيما إذا كان سكان مصر الأول من الصينيين أو الهنود. لأن الكلام فى هذا الموضوع بناء على الحدس والتخمين مجازفة إذا أصبت كبد الحقيقة أحيانا تتعرض للخطأ غالبا لتعذر الرجوع بخصوصها إلى الأسس القويمة والمآخذ المقطوع بصحتها. ومن البديهى بالنظر إلى حقيقة تكون الأراضى المصرية واتجاه مجرى النيل من الجنوب إلى الشمال أن يتبادر إلى الذهن أن الشعوب التى كانت تقطن بلاد الحبشة والنوبة العليا والنوبة السفلى انتشرت نحو الشمال تبعا لإتجاه تكون أرض مصر وجريان النهر الذى يشقها. وهذا الافتراض الذى يتفق مع تعليل المؤرخ هيرودتس لهذا الموضوع يبدو أنه الأدنى إلى الصواب. لاسيما إذا أمعنا النظر فى سحنة التماثيل والصور المنقوشة فى جدران أقدم آثار الأول وهيئات أعضائها.

ولقد كانت مصر أكثر من كل بلد سواه، محطا لرجال الثورات البشرية والحوادث السياسية. فلقد أغار بالتتابع عليها أقوام الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك والأتراك والفرنسيين فنشأ عن امتزاج هذه الأمم بالجنس المصرى واندماج نوعيتها فيه بقدر ما ان تناول الطابع الأصلى للسحنة المصرية شىء من التغير والاختلاف عن أصله الأول.

وسكان مصر الآن يتألفون من أقباط وعرب ويهود ويونان وأتراك وجركس وأحباش وسودانيين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ومن جاليات أوربية.

٩٦ - الأقباط

درج المؤلفون دائما على اعتبار الأقباط وحدهم سلالة قدماء المصريين لايشاركهم فى هذه الصفة مشارك. واستشهدوا على هذا الرأى بما هو متوافر من جوامع الشبه المعينة بينهم والصور الهيروغليفية المنقوشة فى الآثار (١) ولكن خالف العلامة شامبليون هذا الرأى إذ وصف الأقباط وصفا جثمانيا بانسحاب الجبهة وسعة العينين فى سواد واتجاه قطاع الجفنين من أسفل إلى أعلى ومن

(١) وقف الكاتب الرحالة «فولنى» الذى زار مصر على أصل كلمة «قنط» التى تطلق باللغات الأوربية على الأقباط فقال: «أن كلمة قبطى العربية يظهر انها تحريف لكلمة «اجبتوس» اليونانية التى معناها «مصرى» إذ لابد من ملاحظة أن «يوتا» كان النطق بها عند قدماء اليونان وأن العرب بالنظر إلى عدم وجود حرف كما ينطق به امام ولا حرف الفارسى يبدلون من هذه الحروف بحرفين . أى القاف والباء العربية . فالاقباط والحالة هذه سلالة قدماء المصريين .

الداخل إلى الخارج ونتوء الخدين في ضخامة وارتفاع صيوان الأذنين وانبطاح الأنف انبطاحا خفيفا وغلظ الشفتين في ارتفاع وعرض الذقن واسوداد الشعر، وهم بوجه عام نحاف الأجسام يقل من بينهم السمين. هزيلو الأعضاء بشرتهم ضاربة اللون إلى الكدرة.

وهذه الصفات والمميزات لا تتوافر في الأقباط جميعا . لأن سوادهم الأعظم اختلطت أنسابهم بالأغيار . فمن اعتنقوا المذهب الكاثوليكي منهم شيبت أصولهم بأصول المسيحيين اليونانيين أو السوريين. بينما الأقباط من أهل المذهب اليعقوبي وهم أكثر الأقباط انتشارا في الصعيد فقد حفظت أنسابهم صريحة مصونة من تداخل الأعراق، وصينت مع عاداتهم وأخلاقهم السحنة المعروفة عنهم منذ قديم الزمان.

٩٧ـ المصريون المسلمون

لا يختلف إثنان في أن شطرا كبيرا من الأقباط اعتنقوا في أول عهد الفتح العربي الديانة الإسلامية طوعا أو كرها، فالتحم الغالبون بالمغلوبين واختلطوا بهم ولبسوا جلدتهم.

وقد دخل العنصر العبري في هذا المزيج بنسبة ضعيفة جدا ـ إذا قيست بالعنصر الأصلي ـ فنشأ عن ذلك أن صار المصري في العهد الحاضر أقرب شبها بشكل ملامحه وطباعه وأخلاقه إلى قدماء المصريين منه إلى العرب الصميمين الذين لا يوجدون بأشباههم الحقيقية وأصلهم الصميم إلا في بلاد العرب الأصلية.

ويختص المصريون المسلمون الذين يتألف منهم الآن السواد الأعظم من سكان المدن والأرياف ـ بل الذين أطلق عليهم اسم الفلاحين ـ بالصفات الجثمانية الآتية: عظم الجمجمة وقيام الوجه على قياس الزاوية القائمة تقريبا واستدارته على الشكل البيضاوي وتقوس الحاجبين وسواد العينين في غور ونتوء الشفتين وكثافة اللحية وسعة الصدر وضمور البطن وتقوس العمود الفقري واستدارة الأعضاء وقلة بروز المفاصل وصغر اليدين والقدمين وتوسط القامة واختلاف لون البشرة في الدكنة. ومع أن مسطح مصر صغير وعرضها قليل وأطرافها متقاربة فقد شوهد أن بياض بشرة سكانها على سواحل البحر الأبيض المتوسط يقرب من بياض بشرة الأوربيين، ثم يضرب إلى الدكنة شيئا

فشيئا فيصير فى مدينة أسوان كلون أهل النوبة .

٩٨ـ البدو أو العربان

تعرف القبائل الرحالة التى ترتاد الصحارى القريبة من مصر باسم البدو أو العربان. والعربان مرتفعو القامة بوجه عام ارتفاعًا مناسبًا وأعضاؤهم غير مستديرة كما هى فى العرب الفلاحين بل ضئيلة نحيلة. ولونهم الطبيعى قريب من اللون الأبيض الذى لفحته الشمس، ونساؤهم بارعات فى الجمال، وهم يفتخرون بصراحة أنسابهم وسلامة أصولهم من الشوب ويحرصون على هذه المزايا . فتراهم لذلك يجتنبون بما فى وسعهم مصاهرة أهل الأرياف.

٩٩ـ البرابرة

البرابرة جيل من النوبة السفلى انتشروا على ضفاف النيل بين جزيرة فيلة (أنس الوجود) والشلال الثانى على مسافة طولها مائتا فرسخ تقريبا ويميزهم عن المصريين لون البشرة. إذ تشبه فيهم لون خشب الجوز الكابلى. والفارق بينهم والجنس السودانى الأسود عظيم لما امتازوا به من الإخلاص والأمانة وعددهم فى القاهرة الآن من خمسة آلاف إلى ستة يزاولون جميعا أعمال الخدمة المنزلية . فهم للمصريين فى مصر بمنزلة أهالى مقاطعتى (أوفرنى) و(سافوى) للفرنسيين، ويرجعون كهؤلاء إلى مواطنهم الأصلية ليقضوا فيها آخر أيامهم بعد أن يجمعوا من ثمرات كدهم شيئًا من المال، ومع امتداد بلاد البرابرة ذلك الامتداد العظيم فإن عددهم فيها قل أن يتجاوز مائة وعشرين الفا إلى مائة وثلاثين ألفا من النسمات.

١٠٠ـ اليهود

احتفظ اليهود فى مصر بسحنتهم الأصلية أكثر مما احتفظوا بها فى بلد آخر، وهم يختلفون عن الأهلين ببياض ألوانهم وزرقة عيونهم أو لونها الرمادى وشقرة شعر لحيتهم ورءوسهم.

١٠١ـ اليونان أو الإغريق

أصل اليونان المقيمين بمصر من الأرجاء المختلفة ببلاد اليونان، وبعضهم مولودون فى هذا القطر ويعرفون بتقاطيع وجوههم ورشاقة قوامهم ولطف حركاتهم واختلاف ملابسهم عن ملابس بقية السكان.

١٠٢ـ السوريون أو الشوام

السوريون كثيرو العدد فى القطر المصرى، وهم أقل من اليونانيين فى حسن مظهرهم وانحدار غريزتهم إلى البسط والمطايبة. ولغتهم العربية ولباسهم لباس الرعية من أهل القطر.

١٠٣ـ الأحباش

يؤتى بالأحباش إلى القطر المصرى ليباعوا فيه بيع الرق. ويخصى البعض منهم فترتفع بهذه العملية أثمانهم. أما الحبشيات فأقل عددا فى مصر من الذكور والجهات التى يرد الأحباش منها إلى مصر سواحل البحر الأحمر وسواحل الأوقيانوس وداخل بلاد الحبشة وحدود بلاد السودان، وهم على ثلاثة أنواع.

الأول لونه كالمولدين. شعره متجعد فى ملابسه فلا يشعر لامسه منه بما يشعر به إذا لمس الصوف.

الثانى يقطن داخلية البلاد ولونه أنقى وأصرح من لون غيره وشعره طويل مرسل.

وهذان النوعان تنطبق أوصاف رءوسهما وتقاطيع وجوههما على المعروف من مقابلها عند العرب، وإنما فى دقة وتناسب لا يتوافران فى رأس العربى ولا فى تقاطيع وجهه. وهيئة أعضائهما مستديرة وبنيتهما رقيقة وتنقصهما القوة البدنية كما تنقصهما الهمة النفسية، على أنهما آية فى الذكاء والأمانة.

والنساء منهن يمتزن بالمحاسن الخلقية ورقة الأخلاق وحسن الطباع.

أما النوع الثالث من الأحباش فموطنه حدود إقليم (الجلا) حيث يضرب لون بشرتهم إلى السواد وشعورهم صوفية اللون والملمس وتقاطيع وجوههم تشبه تقاطيع وجوه السودانيين.

١٠٤ـ الأثيوبيون

أصل السودانيين الذين يصلون إلى مصر من بلاد دارفور وكردفان وبلاد الكاميل. والقبائل فى هذه الأقطار مختلفة يحارب بعضها بعضا فيأخذون الأسرى الكثيرين ويبيعونهم أو يقايضون عليهم، ويأتى تجار من النوبة يعرفون

بـالجلابة فيـأخذون هـؤلاء الأسرى إلى أسـواق النخـاسة بمدائـن مصر الكبـرى ليبيعـوهـم فيهـا. والسـودانيـون مـن تلـك الأقطـار تختلـف أشكالهـم الجثمـانيـة وصفـاتهم الطبيعية اختلافا عظيمـا. وهـم يختلفون عـن بعضهـم بالقـامة وشكـل الرأس وتقاطيع الوجه ولون البشرة ودرجة الفهم والذكاء.

١٠٥ـ الأوربيون

يتـألـف الأوربيـون النـازلـون بـالقطـر المصـرى، والـذيـن تشملهـم فيـه لفظـة «الإفـرنج» من جـاليـات تابعـة لأمم أوربـا وعلـى الخصوص إيطـاليـا وقد جـاءوا جميعا إلـى مصر وبلاد الشرق الأدنـى مدفوعيـن إليها بحـب الكسب من مـزاولة الأعمال التجارية. والقليلون منهم يتخذون هذا القطر مقاما دائما لهم ولأعقابهم، وأغلبهم يعودون إلى أوطانهم.

ولسـوف اغتنم الفـرصة فـى الفصـول المخصصة للكلام علـى الأمة وأخلاقهـا لذكر شيء عـن الأقوام المختلفة بالقطر المصرى مقرونا ببيـان مايجمعها بعضـها إلى بعـض من الروابـط والعلاقات وإيراد أهـم الصفـات الأدبية التى اختـص بها كل فريق منهم.

الباب الثالث

السكان والمساكن والمدن والقرى فى مصر

(١)
السـكان

سكان مصر فى العصور القديمة ـ السكان الحاليون ـ أسباب قلة السكان فى القطر المصرى ـ ما اتخذه محمد على من الوسائل لإنماء عددهم ـ الموانع التى تحول فى الوقت الحاضر دون ظهور أثر الإصلاحات التى قام سموه بها.

١ ـ سكان القطر المصرى فى العصور القديمة

محقق أن سكان القطر المصرى أيام مجده القديم كانوا كما فى جميع الممالك والولايات الراقية كثيرى العدد منيعى الجانب بكثرتهم. ولو سلمنا بما ذكره كل من استرابون وديودورس الصقلى لكان عددهم فى عهد الملك سيزوستريس، وفى أيام البطالسة يتراوح من سبعة ملايين إلى ثمانية. وقد بالغ مؤرخو العرب فى تعداد سكان القطر المصرى مبالغة أفضت بهم إلى زعم أن عدد سكان مصر كان إبان الفتح الإسلامى يناهز العشرين مليونا من النسمات، وأن عدد مدنها وقراها كان نحو العشرين ألفا.

وبعيدا عن الشك أن هذا التقدير مبنى على ما عرف به الشرقيون من المبالغة والإغراق. على أنه لا يبعد كثيرا عن الصحة وربما كان مصيبا لشاكلة الصواب إذا رجع فى تقدير سكان قطر ما على المتوافر فيه من الوسائل الطبيعية الكافية لقضاء حاجاتهم المعيشية . فيكون أولئك المؤرخون قد اعتمدوا فى تقديرهم على ما استنتجوه من اتساع أراضيها وطبيعة تربتها

ومقدار مساحتها القابلة للزراعة.

ولما كان مسطح مصر يعدل على هذا الاعتبار السدس من مسطح فرنسا، وكان بمثابة واد خصيب قابلة مساحته للزيادة كما هى قابلة للنقصان. فبالزراعة وحدها يستطاع توسيع نطاقها بإيصال مياه النيل إلى الصحراء لإخصاب رمالها. فإذا أحللنا محل الاعتبار هذه العناصر التى تتألف منها الثروة الداخلية للبلاد فإنى أرى قريبا من الاحتمال أن يكون عدد سكان مصر قد بلغ قبل هبوطها فى هاوية الانحطاط إلى نحو الثلث مما قدره أولئك المؤرخون من العرب.

٢ـ السكان الحاليون

فى بداية هذا القرن ـ أى فى عهد الحملة الفرنسية قدر عدد سكان القطر المصرى بما لا يتجاوز مليونين من النسمات. نعم لم يكن هذا التقدير مبنيا على شىء من الدقة والضبط . إذ قد ثبت بالإحصاء أن عددهم الآن يبلغ ثلاثة ملايين من النسمات.

ومن المستحيل الرجوع بهذا الرقم إلى مصدر صحيح وبيان مضبوط لحرمان مصر فى الوقت الحاضر من نظام تضبط بمقتضاه الأحوال المدنية لكل فرد من الأهلين، وانما التقدير عمل بحسب مايستنتج من الإحصاء التقريبى لعدد المنازل فقد ذهبوا إلى أن منازل مدينة القاهرة يحتوى كل منها ثمانية أشخاص ومساكن الأرياف أربعة على حساب المتوسط فى الجهتين. وقدر الذكور من السكان بنحو مليونين وأربعمائة ألف نفس. الثلث منهم على وجه التقريب صالح لحمل السلاح. أما مجموع السكان فيمكن تقسيمهم على الوجه الآتى:

المصريون المسلمون	٢٦٠٠٠٠٠
المصريون المسيحيون ـ أى الاقباط	١٥٠٠٠٠
العثمانيون ـ أى الأتراك	١٢٠٠٠
العرب ـ أى البدو	٧٠٠٠٠
السودانيون	٢٠٠٠٠
البرابرة	٥٠٠٠

الأحباش	٥٠٠٠
المماليك الجراكسة	٥٠٠٠
اليهود	٧٠٠٠
السوريون	٥٠٠٠
اليونان الرعية	٣٠٠٠
الأرمن	٢٠٠٠
اليونان الأفرنج	٢٠٠٠
الإيطاليون	٢٠٠٠
المالطيون	١٠٠٠
الفرنسيون	من ٧ إلى ٨٠٠
الإنجليز	من ٨٠ إلى ١٠٠
النمسويون	من ٦٠ إلى ١٠٠
الروسيون	من ٢٠ إلى ٣٠
الأسبانيون	من ١٥ إلى ٢٠
السويسريون والبلجيكيون والولنديون والبروسيون والدانيماركيون تقريبا	١٠٠

وأكرر القول هنا بأن هذه الأرقام ليست رسمية، وما قصدت بإيرادها إلا تصوير فكرة تقريبية عن السكان فى القطر المصرى.

٣ـ أسباب قلة عدد السكان فى مصر

لا يسع المرء إذا قارن عدد سكان القطر المصرى فى العصور القديمة به الآن إلا التساؤل ــ والحزن ملء فؤاده ـ عن أسباب النقص السريع الذى اعترى النوع البشرى فى بلاد خولتها الطبيعة كل العطايا والمنح. ولما كان هذا القطر محصورا بين صحراوين فهل يمكن القول للإجابة على هذا السؤال بأنه يتنازل شيئا فشيئا عن أراضيه ليحتلها ذلك المغير الذى لا يعرف للرأفة والشفقة معنى؟ وهل صحيح ما يزعم بعض علماء طبقات الأرض(١) من أن الناموس الطبيعى يقضى بأن تعمر جهات الوجه القبلى بالصحراء التى سبق لها أن وارت تحت رمالها شطرا كبيرا من إقليم طيبة القديم، وأن النوع البشرى قد طاردته فأخرجته من مواضعه وأماكنه القديمة تلك القوة التى لا

(١) راجع كوفيين فى خطابه عن التقلبات التى تناولت سطح الأرض.

غالب لها. هذا ما لا نعتقده، وإنما الذى نسلم به أن بنى مصر يستطيعون التغلب على الصحراء فإذا كانت هى الغالبة على أمرهم فما ذلك إلا لجمودهم وتراجعهم عن مغالبتها بما استنبط فى هذا العصر من ذرائع التقدم ووسائله.

الحياة فى مصر هى النيل والموت هو الصحراء. والنيل هو الذى أوجد مصر من العدم، فهو إذن روحها ولايزال كذلك. أما الصحراء فإنها إذا تركت إلى القوة التى تدفعها نحو الأرض الخصبة فإنها لا تلبث أن تلتهمها وتفنيها شيئا فشيئا فى ذاتها، ولكن النهر يستطيع التغلب على الرمال بإخصابه إياها بمياهه فمن الواجب للاحتفاظ بمصر الجميلة التى توغل بمقدار مائتى فرسخ فى البحار الرملية بل لتوسيع نطاقها، معارضة قوة الصحراء بقوة النهر ودفعها بها. ولاريب أن رفاهية مصر وزيادة عدد سكانها يتوقفان على حسن تدبير مياه النيل. بل هما مرتبطان وثيق الارتباط باتساع نطاق الرى وتعهد احواله، فلتتيسر موالاة هذه المصالح الحيوية الجليلة الخطر بالرعاية ومواصلتها بالمراقبة الدائمة لاغنى عن مشاركة القدرة للفكرة وإتحادهما معا وأن تكون الحكومة مصدر الاثنتين.

فمصر إذن أكثر البلاد احتياجا إلى تدبير أمورها بمعرفة حكومة عاقلة مدبرة. ووجودها المادى وحفظ كيان تربتها الزراعية وبالتالى نمو عدد سكانها يتطلب الهمة فى العمل والمثابرة عليه من القابضين على زمام أمورها. ولكن قضى الله أن لا يوجد على وجه الأرض بلد اختل نظام الحكم فيه منذ عشرة قرون اختلاله فى القطر المصرى. بل لا بلد شهد فى مدد قصيرة تناوب السلطات المختلفة مثله على استلام زمام أموره على ما عرفت به من شدة الهمجية والميل إلى التخريب مع الدعة والتهاون والغباوة فى إدارته(١).

وإذا بحثت عن أسباب نقص عدد سكان القطر المصرى منذ عهد عمرو بن العاص فإنك لاتلبث أن تتأكد رجوعها كلها إلى ما كانت عليه حكوماته من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع إلى الفوضى التى اغتصبت زمام الحكومة وتصرفت فى شئونها بالعبث والإفساد حتى ضاع

(١) الناشر: يقصد الكاتب الإشارة إلى السلطات وليس الشعب.

الغرض النافع المقصود منها.

فإذا كان فى مصر أسر شهـدت حقولها ومزارعها وقد علتهـا من الصحراء طبقة صيرتها غير صالحة للزراعة حتى اضطـرت أن تهجر مواطنها وأماكن عزهـا، وإذا وجدت أسر غيرها قد أنهكهـا الفقر المدقع وأضناهـا الجوع حتى كاد أفرادها يتلاشون عن آخـرهم للسبب المتقدم. فما الخطأ فى ذلك إلا خطأ السلطة ولية الأمر ، أو بعبارة أخرى خطأ حرمان البلاد من سلطة جديرة بأن تتحلى بهذا الاسم.

وإذا كانت الأوبئة على تعددها واختلافها قد تحيفت القطر المصرى وفتكت بأبنـائه أذرع فتك واتخذته لنفسهـا مستقرا ومقـاما، فمن ذا الـذى تقع على عواهنـه مسئوليـة الإهمال فى اتخاذ الوسـائل لدفـع ضررها إمـا بالصيـانة والوقايـة وإما بالمكافحة؟ بـل من ذا الذى يحاسب على جهلـه وغفلته فيكون إثمه غليظا وقصـاصه عليه عبرة ظاهرة للنـاس ومثلا مضروبا؟ إن على رأس تلك الحكـومات – إن وجدت – تقع أثقـال هذه العبرة، فإن لم تكن مـوجودة فقد حق للنـاس أن يرفعوا الصوت بـالشكوى والتذمر مـن سوء الحال وشر المآل.

ولقد نشأ عـن الفوضى الطويلة التى حلـت فى مصر محل النظام أن شيعا كثيرة من صغـار الزعماء استمدوا من قـوة الحسام ما انتحلوه أنفسهـم من حق التصرف فى نفوس الأهلين وإيرادهم موارد الهلاك. ومن أين كان لمصر أن تسترد صحتهـا وشبابها وقـوتها وقد ضيـق عليها الأنفـاس أولئك الألـوف المؤلفة مـن صغار الظلمة الطـاغين؟ ومن أين لـذلك البلد أن يـرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله إلا كمثـل المصاب بالبرص ليس لـدائه طب. إذ أصبح ميـدانا مستمـرا للحروب الأهليـة ومجالا تعبـث فيه شيـع الفاتحين الغـزاة بالخراب والفسـاد.

٤ ـ محمد على ووسائل زيادة عدد السكان

محقق أنه لإقـامة أركان سلطة قويـة فى بلد تدهور فى مثل هـذا الدرك من الانحطاط الأدبى والمادى، وإيجاد وحدة متينة العـرى حيث ذهبت وحدة كل

شيء بددا، بقوة الفوضى التى تعاقبت على مدى الأجيال، وتخويل هذه السلطة الجديدة من الحياة ما يكفى لضمان استمرار تأثيرها بانتقال التقليد بها من طريق الوراثة إلى سلالة أسرة واحدة، لايكون مثل هذا العمل الجليل على ما يتراءى لى إلا عملا ذا عبقرية ساطعة عجيبة والذريعة الفريدة لبعث مصر ثانيا إلى الوجود وزيادة عدد سكانها، وقد كان هذا قصارى ما يستطاع أن ينتظر من محمد على. بل لم يكن لأحد الحق فى أن يطالبه فى هذا الموضوع بأكثر مما عمل.

ومع هذا فإن خصومه وشانئيه لم يكفوا عن توجيه التهمة إليه بأنه استنفد قوى البلاد المصرية واستدر حلابها . بل ذهبوا إلى أنه قد أتى إثما غليظا لتنقيصه سكان هذا القطر بتأليفه من القوى العسكرية مالا تتسع للإنفاق عليه مالية البلاد.

فإذا كان من المسلم به لإعادة مصر إلى مجدها القديم وما كانت عليه من الحضارة والثروة فى سالف الأزمان من البدء قبل كل شيء بانشاء حكومة قوية على أسس وطيدة فلابد من غض النظر والتسامح حيال الوسائل التى استعان محمد على بها على تعزيز سلطته بالقوة التى تكفل لها الاستمرار.

وليس بغارب على فكر أحد أن مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» لمن المبادىء التى تحقق على البلاد المتوحشة التى يخضع كل شيء فيها لحكم الاستبداد الفعلى. بل والتى لاتزال كلمة الحق العام فيها من الكلمات المجهولة أو من اللغو الباطل، فمن عجز المنطق وقلة الذمة وسوء النية أن يراد جعل الوالى مسئولا عما يعتور الأمة من الآلام الوقتية ويصيبها من الأضرار الزائلة التى يؤدى إليها تنفيذ مشاريعه الكبار، وليست هذه الأضرار والآلام إلا نتيجة الأمراض المزمنة التى أخذ على عاتقه تطهير مصر من أدرانها وصيانتها من عواقبها الوخيمة.

نعم إن مصر قليلة فى عدد السكان الآن، ولكن ليس فى استطاعة الوالى ابتكار ما يؤدى إلى زيادة عددهم فورا. إذ من المقرر أن المدنية لاتبلغ إلى حد الكمال حتى فى أكثر الظروف والأحوال ملاءمة لها إلا بتأثير الزمن. ولم يقل أحد إن شعبا نهض من عثرته وبدل شبابا من هرمه وقوة من ضعفه بإحدى

وسـائل السحر . فمما يـدعو إذن لإكبـار محمـد على وتكريـم ذاته أن جعـل وسـائل التقدم والإصـلاح ممكنـة فى مصر، وأن يتخـذ منها قـوة تحل محل الضعف ويستمد منها حياة وعمرانا يقومان مقام الموت والخراب.

فمحمـد على لم يستنفد رجـال وادى النيل. بـل دأب على ما يـوجب كثـرة عددهم. ولقد كان نابـوليون يقول: «إذا انقضت عشرون سنة على مصر وهى بيد المماليك يتصرفون فى إدارتها على ما تشاء أهـواؤهم فإنها تكفى لخسارة ثلث أراضيهـا الزراعية وخرابها» ولكـن «محمد على» عرف بحكمتـه ودرايته كيف يوقى مصر شر هذا الـرأى. إذ شق الترع الكثيرة التى حملت إلى الجهات القصية مـن بلاد الأريـاف عناصر الخصـب والرخـاء، وأدخل التحسين على نظام الـرى فأصابت حسنـاته القفار والصحارى فـزادت محصولات مصر زيادة بـالغة، واستدعـى إليه الأطباء الأجانـب لاستئصال شأفـة الأمراض، وأنشأ مـدرسة للطـب ومستشفيات عـديدة، وكـان داء الجدرى قبل ولايتـه يحصد الثلث من عـدد الأطفال. فبما اتخذ من وسائل المكافحة والـوقاية زال هذا السبب الذى كان من أهم أسباب نقص السكان. إذ تقرر تلقيح المولودين وغيرهـم بالمادة الجدريـة، وحال بين الموظفين والتسلـط على الأهلين بالظلـم والعسف، وساد النظام التـام فيما خضع لحكمه من بلاد افريقيـة التى ظلت فيما سبق نهبا مقسما وفريسة بين القبائل التـى كانت كالكلاب المسعورة فى الشره إلى الغنائم . وساد الأمن وخفقـت ألوية النظام بحيث أصبح سـاكنوها متقلبين على مهاد الراحة والنعيم. بل أهنأ بـالا منهم فى أى بلد من أوربا ساد فيها النظام واستقر الأمن على أوطد أساس.

٥ ـ موانع ظهور الإصلاحات التى قام بها الوالى

إن قوات مصر العسكرية هائلة فى الحقيقـة، ولكنها لا تنهض دليلا يستند إليه القائلـون بأن الجندية المصريـة نظام داع إلى نقصان عدد سكـان القطر. فإن الفـلاح يجد فى الجيش الـذى هو أحد جنـده هناء ونعيما يبعـد أن يكون متمتعـا بمثلهما فى بيتـه، وعـدد الـوفيات بين الجنـود أقـل منـه نسبيـا بين الفلاحين. ومن جهة أخرى فإنه من المسمـوح به لرجال الجيش التزوج وهم فى الغالب متزوجون الآن.

ومن المرغـوب فيه لمصلحة مصر وتقـدمها أن يعـود العساكر إلى مـزاولة أعمال الزراعة، ولولا أن «محمد على» بحاجة إلى الـدفاع عن استقلاله ضد ما يلاقيـه من ســوء الإرادة والنية، بـل لو كـان من المسمـوح له أن يتخصــص للعناية بشئون الأقاليم الواقعة تحت حكمــه وأن يوجه إليها كل خاطره لكفاه الزمن القصير لينشر على أهليها أجنحة الهناء ويغدق عليهم الثروة واليسار.

ولقد تم اليوم إنشــاء الحصون ودور الصناعة وأقيمت المبانــى العمومية والأشغال الأساسيـة ودفع ما استلزمته الأدوات من النفقـات. فلم يبق إلا أن تقطف مصر ثمار المزايا المنتظـرة من الإصلاحات الحديثـة. إذ لم تبق الحياة السياسيـة لصاحب تلـك الاصلاحـات على محك البحث والمناقشــة من غير انقطاع. أما المصائب والآلام التى ما برحـت مصر تنوء بها فأوربا وحدها هى الكفيلة بـرفع هـذه الأصر عنها إذا أرادت أن تحســم المصاعـب الناشئـة عن المسألـة الشرقية حسما نهائيـا جازمـا [1]. فـإذا لم تكــن مصر حتـى الآن تستطيع السير بقدم ثـابتة فى طريق السعادة والمدنيـة فما ذلك إلا لأن الدول الغربية هى التى يرجع الأمر إليهـا فى تعضيدها التعضيد النهائى بوضع حد لما نجم من المتـاعب والمشاق عن بقـاء الحالة السياسية الحاضرة على مـاهى عليه بالنسبة لها مقرونة بما تتكبده من القلق الشديد على مصيرها.

---

(١) الناشر: إنها وجهة نظر المؤلف فى الفترة التى أصدر فيها كتابه.

(٢)
منازل السكنى والمبانى العمومية

منازل المدن - مظهرها الخارجى - باب الدخول - الشبابيك - الجديدة - السطوح - صحن الدار - حجر النساء - بيوت القرى - المساجد - الأسبلة والأحواض والحمامات - الأسواق والقهوات والوكائل.

٦ - منازل المدن

منازل المدن بوجه عام أفسح منها فى القرى وأجمل. وهذا الفارق لما يلفت النظر فى القطر الذى يشكو سكانه من أهل القرى الفقر ويعانون الفاقة على وجه يخيل معه أن الهناء والرخاء قد فارقا ربوعهم ليهبطا المدائن الكبرى ويسيرا فى ظل سكانها تبعا لهم وطوعا إرادتهم.

ومواد بناء المنازل فى المدن الأحجار العادية وحجر الجص. وهما يؤخذان من الجبال المجاورة لها، ثم من حجر الآجر المطبوخ بالنار أو المعرض لحرارة الشمس.

وليس لتلك المساكن غالبا سوى دور أرضى وطابق علوى، وقلما شيد فوق هذا الطابق طابق ثان، لأن كل دار لا يسكنها إلا أسرة واحدة. وسيدرك القارىء على أيسر وجه سر هذه العادة متى علم أن المسلمين نزعت بهم التقاليد إلى قصر الحياة البيتية على العزلة وقطع الصلة مع الأغيار. فهم يؤثرون أن تكون لكل منهم داره كى يستطيع إغلاق بابها عليه دفعا لكل صلة تترتب على المخالطة أو ما يستتبعها من المودة.

٧ - المظهر الخارجى للمساكن

لما كانت دور المسلمين مقتصرة على ما ذكر من المصلحة الذاتية فمن الطبيعى أن تختلف فى أسلوب بنايتها وتوزيع حجراتها ومظهرها الخارجى عن غيرها من المساكن، وأن يقصد بترتيب أوضاعها وتنميق زخرفتها إلى توفير الهناء الذى يتحرى أربابها أسبابه وجعلها . بحيث لا تصل إليها أشعة أبصار المتسمعين والمتسقطين. فإنه لم يراع فيها مثلا مجاراة أذواق الجمهور فى أن تكون على نمط من أنماط البناية الهندسية الصحيحة . فحوى أغلبها

لهذا النقص الفاضح مشيدا بحكم الجزاف والمصادفة فى شوارع غير معتدلة. ودور الأغنياء منها كثيرا ما يرتد الطرف عنها وهو حسير لقبح منظرها وحقارة مظهرها وخلوها من كل أثر للتناسق أو الزخرفة، ولكنها فى مقابل ذلك تحتوى من الداخل أجمل ما يقع البصر عليه من الزخارف وثمين الرياش، وربما كان لإغفال شأن المظهر الخارجى للمنازل سبب آخر غير قلة اكتراث أصحابها بميول الجمهور وأذواقه وهو اتقاء مطامع العظماء وأصحاب البطش بتزهيدهم فى التطلع إلى ما يستره القبح الخارجى من الجمال الداخلى. فلقد تبين الشرقيون بالتجربة الطويلة ما يتهددهم من الخطر فى أموالهم وأعراضهم إذا امتدت أنظار الأقوياء إلى ما وراء جدرانهم القبيحة من مجلس النفائس وثمين الأعلاق وجميل المقتنيات.

٨ـ باب الدخول

مداخل هذه المنازل أبواب واطئة جدا تفتح دواما إلى الداخل، وتتألف من دفة = درفة = واحدة بحيث إذا فتحت وقف نظر الناظر دون جدار قائم تجاه المدخل والى جانبه منفذ يوصل منه إلى داخل البيت. والأبواب فى هذا تغلق بعارضة متينة من الخشب تجرى فى مجراها ، فتمر بالباب كله على اتجاه العرض فإذا أريد فتح الباب أدخلت فى مجراها وإذا أريد إغلاقه سحبت منه وهناك أيضا مزاليج من أصناف مختلفة لا أرى فائدة من إيراد وصفها فى هذا المقام.

٩ـ الشبابيك الحديدية

لواجهات المنازل نافذات كبيرة ركبت فيها قضب حديد متشابكة ضيقة الثقوب تؤذن للهواء والضوء بالنفاذ إلى داخل الحجرات، ولكنها تحول دون رؤية ما وراءها من الأشخاص أو الأشياء. والطابق الذى يلى الدور الأرضى هو الذى توجد النوافذ به عادة، وهو بارز إلى الأمام بنحو قدمين أو ثلاثة أقدام فيتكون من هذا البروز شرفة مستورة لا يمتد البصر إلى ما وراءها. والمشربيات التى تركب عادة فى هذا الجزء البارز عبارة عن قطع صغيرة دقيقة من خشب المخروط تعشق بعضها فى بعض بحيث تتألف من مجموعها أشكال ورسوم متشابكة لطيفة المنظر. وفى بيوت الفقراء تتخذ حواجز النوافذ من البوص أو سعف النخل. أما دور الموسرين ففيما عدا الحواجز الحديدية توجد بها أبواب من الزجاج تحول دون نفاذ العثير = التراب الناعم = إلى الداخل.

١٠ـ السطوح

لما كـانت سقـوف المنازل فى مصر مسطحــة فقد استتبـع ذلك أن تكـون سطوحها مسطحة كـذلك، ومن ثم أطلق عليها هذا الاســم. وتحيط بالسطوح ذروة بارتفـاع الإنسان وتتخذ مناشر لتجفيـف الثياب المغسولــة. ولكنها فى الحقيقة معاهد خاصة لتريض النساء فى منـازلهن. خصوصا إذا كانت خالية من الحدائق والأفنيـة وإليها يصعد رب البيت وحـرمه وجواريـه لاستنشاق النسيم العليل فى الأصيل والتماس الراحة مـن عناء النهار، وتطلى السطوح - أى ظاهر السقوف عادة بمونة تتألف من رماد الأفران والجير والمصيص. أما فى منازل أصحـاب اليسر والرخـاء فتبلط بـالبلاط الحجـرى مقطوعـا قطعا صغيرة رفيعة جدا.

١١ـ صحن الدار

فى كل منزل غالبا صحن داخلى تتوافر فيه مزيتان: إحداهما إدخال الضوء والهواء فى حجرات الـدار، والثانية الاستفادة بما حـوله من الأمكنـة فى اقتناء الحيوانـات الداجنة كالـدجاج والمعز.. إلخ أو إيـواء حيوانات النقل كـالخيل والحمير أو حفظ الأمتعـة الفائضة عـن الحاجة، وقـد يجعل فيها الطـاحون والفرن والمطبخ ومسكن للخدم وحجرة استقبـال الزائرين (المنظرة) يتوسط ذلك كله بئر لاستقاء الماء اللازم للمرافق المنزلية منها.

١٢ـ حجرة النساء

يختص القســم الأعلى من الـدار بالنســاء. وهو يحتـوى بهوا كبيرا يشبه البهو الخاص بالاستقبال فى منازل الأوربيين، وكذا مخادع النوم لرب المنزل ونسائه وجواريه وغرفا أخرى..إلخ.

١٣ـ المميزات الخاصة

دور المسلمين كافة - إلا القليل منها - مشيدة على الطراز المتقدم ومقسمة بمقتضاه فإذا وجد اختلاف يسير فى الترتيـب بين دار وأخرى فإنما يرجع إلى التفاوت بين أربابها فى الهيئة الاجتماعية وجاهــة وثروة. فبيوت الأغنياء مثلا تحتوى الحدائق غـالبا وهى سرحهم ومـراحهم دون غيرها يختلفـون إليها لترويح النفس وتطييبها وتعوض عليهم لذة مـا يرجى من السرور بتنزهم فى الخارج، وتحتـوى مســاكـن العظماء أحيانـا صحنين وحـديقتين وبنـايتين

إحداهما للرجال والأخرى للنساء.

ودور المصريين مبلطة عامة ببلاط من الحجر. أما الاغنياء فيقوم المرمر فى دورهم مقام البلاط فى تلك وفيها الحمامات. وتبلط مناظرها بالقاشانى، وفى وسطها حوض ينبثق منه الماء. وفى الحجرات العليا أحواض من هذا القبيل ذات نافورات، وليس فى كل دار سوى مدخنة هى التى يسلك = يخرج = منها دخان المطبخ. أما بيوت الخلاء فعديدة. إذ لكل حجرة واحد منها. وزجاج الشبابيك لا ينفتح كما هنا بدفتين بل يرفع من أسفل إلى أعلى فيتحرك فى مجرى خاص به يمنة ويسرة ولما كانت التهوية من الأمور المهمة فى البيوت المصرية فالذى جرت عليه العادة فى مصر أن يفتح فى السقف فتحة يقام عليها منور متجه إلى الشمال (البحرى) فإذا ما أقبلت الريح من الشمال واصطدمت بهذا الحاجز هوت إلى داخل المنزل فجددت هواءه.

والنمط الهندسى الغربى هو المعمول به فى إنشاء جميع المنازل تقريبا بالقطر المصرى ،ولا يجهل أحد ما تحلت به هذه الهندسة البنائية من الرسوم الظريفة والزخارف الجميلة والتراكيب المنسقة والألوان الزاهية. وهو ما يصح معه القول بأن البيوت المصرية مدينة بجمال منظرها إلى الأجزاء التفصيلية التى هى أس ذلك النمط الهندسى وقوامه. ولقد سبق لى الكلام على رداءة مظهرها الخارجى. وهى من حيث توزيع أقسامها الداخلية حقيقة بمثل هذا الانتقاد. إذ لانظام بالمرة فى توزيع الغرف بل غالبا ما تكون بعض الحجرات أكثر ارتفاعا من البعض الآخر وغير قائمة على مستوى واحد وأن تكون كلها حجرات طابق واحد. وهذا الاختلال الهندسى مقصود بذاته. لأنه يساعد على العزلة التى يطلبها رب البيت. وهناك مخابىء كثيرة ليس من الممكن انشاؤها إلا إذا ضحى بالنسق الهندسى ووحدة التطابق فى المجموع.

ومنذ بضع سنوات طرأ اختلاف عظيم على أنماط هندسة المساكن فحل محلها النمط الإسلامبولى الذى هو عبارة عن مزيج من النمط اليونانى الفاسد والنمط العربى لارائد له من الذوق السليم. ولقد أنشئت مبا من الخشب طبقا لهذا النسق الجديد، وروعى فيها استبدال القواعد البيضاوية الشكل بنوافذ كبيرة مستطيلة واستعيض عن النقوش العربية الجميلة بصقل

أسطح الجدران صقلا متناسقا وهو مما ينبو عنه النظر وينبذه الذوق.

١٤ـ الحـــوانيت

فى الأدوار الأرضيــة من المنــازل الـواقعة فى الأحيـاء التجــاريــة حوانيـت التجارة ومخازنها . وهذه الحوانيت صغيرة جدا يختلف مسطحها من ١٢ إلى ١٦ قـدما عـرضا فى مثلهـا طولا، وليـس لها فى مقـدمها مكـان تعرض فيـه البضائع. وكـل ما هنـالك دكان مـن الحجر يحول بين الجمهـور المقبل على الشراء والدخول فيها فيضطر إلى البقاء خارجها.

١٥ـ منازل القرى

فى مدن الوجه البحرى فقط تشاد المنازل بالحجر والآجر، لأن الأمطار فيه كثيرة والمنازل تستلـزم الصلابـة والمتانـة أكثر ممـا تستلزمهما المنـازل فى الوجه القبلى لقلة الأمطار، ولا يستعمل فى بلدان الصعيد عادة إلا الآجر المربع المجفف فى الشمس والمبنـى من الطين وحده، وليس فيه مـدن كبيرة بل قرى صغيرة فقط فيها مساكن الفقراء، وهى فى أقصى ما يكون من الحقارة. لأنها عبارة عـن أكواخ لا تـرتفع فـوق سطح الأرض إلا ببضعـة أقدام وجـدرانها الهشة متخـذة من الطين الآجر النيـىء الذى اتخذ روث الحيوانـات لإلصاق بعضه ببعض. والضوء والهواء ينفذان فيهـا بفتحات صغيرة جدا، وأسقفها مغطاة بفروع الأشجار وسعف النخل. ويعيش الفلاح فى هذه الغرفة الضيقة مع ما يملكـه من الحيوانات الداجنـة. وفى عدد عظيم من القرى أبـراج مربعة الشكل للحمام ولكن جدرانها مائلة ميلا قليلا وقائمة فوق سطوح الأكواخ.

١٦ـ المساجد

المساجد هـى معابد المسلمين، وهى كثيرة العـدد منتشرة فى جميع أرجاء القطر المصرى لكثـرة ماشاد منهـا الملوك والأمـراء والأغنياء إظهارًا لـورعهم وتقواهـم. والقاهرة وحـدها فيها أكثر مـن أربعمائة مسجد تحتوى مبـانيها عادة بوابات ترتفع صفوفها حول صحن مربع فى وسطه حوض معد للوضوء والجانب الذى فيه المحراب والمنبر من المسجد يتجه صوب مكة المكرمة، وهو أفسح من الجوانب الأخـرى، وبه صفان أو أكثر من الأعمدة مـوازية للجدار الخارجـى ويتألـف منهـا الجزء الأمامـى مـن المسجد، وفى الجدار المتقـدم تجويف يسمى بـا لمحراب هو دليل الاتجاه نحو مكة بـالنسبة للمسجد وإلى اليمين من المحـراب المنبر الذى يصعـد فيـه الخطيب ليعـظ المصلين، وتجاه المحراب إلى الخلـف أدراج بسطت عليها نسـخ من القرآن ودكـة يقيم المؤذن

منها الصلاة. وفوق المساجد ترتفع المنارات فترتسم على صفحة السماء اللازوردية اللون كسهام محددة النصال، وهذه المنارات يدعو المؤذنون من أعلاها المؤمنين إلى الصلاة فى الساعات المقررة لها فتكسب المدائن الإسلامية طابعا خاصا تخلو منه المدائن الأخرى. وتكتسى جدران المساجد بنقوش هى آية الظرف والدقة والإتقان. ومعلوم أن نبى المسلمين لما أراد أن يطعن الوثنية فى قلبها الطعنة القاضية عليها شدد فى تحريم تصوير الكائنات الحيوية = الحية = ولو كان رسما بالقلم فكان هذا سببا فى ألا توجد على الآثار الإسلامية نقوش تمثل صور الإنسان أو الحيوان ذات الأشكال المختلفة التى تحير بمختلف تراكيبها اللب وتأخذ بمجامع القلب، وهى كلها لا تمثل سوى تشابك الأغصان وتضاهى = تماثل = الأوراق والأزهار على نمط بديع يشير إلى ما هنالك من الحذق والمهارة فى الصناعة.

وغالبا ما تعترى السياح الدهشة كلما زاروا هذه المساجد ورأوا ما هى عليه من اندثار تلك النفائس فيها شيئا فشيئا وتعذر عليهم التوفيق بين هذه الحالة وما يظهره المسلمون من التقوى والورع والتعلق بالدين واحترام المساجد. ولكن لنا أن نقول إن هذا الاحترام نفسه هو السبب فى إهمال شأن المساجد على الوجه الذى رسمناه لمبالغتهم فيه إلى حد أنهم يخشون أن مجرد الشروع فى ترميم العطب وإصلاح الفاسد يعد منهم افتئاتا وتعديا على تلك الآثار الجميلة . فهم يتركونها على حالها من الاندثار إلى أن تؤول إلى السقوط فإذا سقطت شرعوا فى بنائها من جديد.

١٧ـ الأسبلة والأحواض والحمامات

فى غالب الأمر يلحق ببناء المساجد منشآت للجمهور كالأسبلة وأحواض الماء والحمامات والمدارس والفنادق. أما الأسبلة فشائعة شيوعا عظيما فى جميع أرجاء القطر. إذ يوضع فيها الماء فى أيام الفيضان النيلى ليوزع على المحتاجين إليه. وهذه الأسبلة مستديرة الشكل وتحلى بالنقوش وفى نافذاتها الشبابيك المصنوعة من البرونز والأعمدة الرخامية والزجاج الملون والكتابات المحفورة. أما الأحواض فعبارة عن حوض يملأ بالماء وتعلوه قبة أو باكية، وكثيرا ما يكون بالقرب منه بوابة كبيرة تجعل لها منظرا أثريا. ويقضى طقس مصر بالاستحمام ، ويحتمه دين المسلمين، وهذا هو السبب فى وجود عدد كبير من الحمامات العمومية.

١٨ القهوات والأسواق والوكائل

من الخطأ تصور القارئ أن القهاوى فى الشرق تشبه القهاوى فى بلادنا بوجه ما من وجوه الشبه. فإن القهاوى المصرية عبارة عن غرف يحيط بها دكاكين من الحجر مغطاة بالحصر يجلس عليها المصريون للتدخين وشرب القهوة وسماع القصص، والقهاوى من هذا النوع كثيرة جدا.

أما الأسواق فليست إلا شوارع مغطاة على عطفيها = جانبيها = حوانيت صغيرة تتزاحم أقدام الناس فيها.

وأما الوكائل فبنايات كبيرة مخصصة لحاجات التجارة ، وهى عبارة عن أبنية مقامة حول فناء مربع يحتوى فى وسطه حوض ماء وحوله مخازن فسيحة مسقوفة بالحجر كيلا تؤثر فيها نار الحريق. أما الأدوار العليا فمقسمة إلى غرف وحجرات ينزل فيها الغرباء من التجار.

١٩ ـ المدن والقرى المصرية

يؤخذ مما ذكرته عن المساكن المصرية أن المدن التى تتألف منها لابد أن تكون على شىء من الجمال، ولكن الحقيقة غير ذلك. فإن الطرقات فى هذه المدن لا تحف بها منازل يرضى شكلها النظر أو يسر القلب. فضلا عن أنها غير خاضعة لقانون تنظيم يجعلها فى تعاقبها على خط مستقيم. لأن كل مالك متى شرع فى بناء منزل له أقامه على مايرضى هواه ويتفق مع مصلحته ولذا كان فى الغالب لا يهمه التوفيق فى الاتجاه بين واجهة منزله ومقتضيات الطريق العامة. فكثيرا ما تراه يجعل هذا المنزل مائلا على هذا الطريق لاقائما عليه وهذا فضلا عن أن الطرقات كثيرا ما تكون من الضيق بحيث تكاد مشربياتها المتقابلة تلتقى ببعضها فتمنع انطلاق الهواء فى الطريق وتحجب أشعة الشمس عنه. ثم إن الطرقات لم تكن مفروشة بالبلاط . فهى إما أن تغطى بطبقة كثيفة من العثير وإما بطبقة أكثف منها من الطين. وفى الحالين يكون المرور منها مكروها ومتعذرا. وهناك شوارع على شىء من الاتساع ولكنها جميعا معوجه تعترضها الأزقة المسدودة أو تتلاقى ببعضها على وجه المصادفة ومن غير ترتيب. فيتكون من مجموعها تيه يتعذر على من لم يكن قد ألف السير فيها التماس مخرج له منها.

وتنقسم المدائن إلى حارات أو أحياء تغلق كل حارة منها فى الغالب بأبواب كبيرة تعهد حراستها ـ كما هو الحاصل فى القاهرة ـ إلى حراس يظلون طول الليل فى موقف المراقبة، ولكل حارة من تلك الحارات اسم تعرف به. كما أن

لكل طريق اسما كذلك، ولكن هذه الأسماء لم تكن مكتوبة على جدرانها . كما أن المنازل لم تكن مرقومة بأرقام التعداد. أما الاستصباح = الضوء من المصابيح = العام فى الطريق فمجهول بالمرة وغاية ما هنالك من الضوء فى الليل ما يعلقه الأغنياء من الفوانيس على أبواب منازلهم فى أثناء الليل. ومواقع المدن والقرى اختيرت بمحض المصادفة وبدون رعاية شرط ما من الشروط التى تقتضيها قواعد الصحة التى يهملها سكان القطر وأهل القرى منهم خصوصا فيضرون بأنفسهم ضررا بليغا . فإنك تراهم يتركون المنازل يعمل فيها الفناء بلا اكتراث فتشقق جدرانها وتنتشل أحجارها فلا تلبث أن تصبح ملتقى لصنوف الحشرات والأفاعى، وهذا فضلا عن إغفالهم إزالة الأنقاض التى تتراكم على الأرض، وربما زادوا الطين بلة بإلقائهم عليها من غير كراهة ولاتقزز قمامات المنازل وقاذوراتها وما تعافه النفس من فضلات طعامها فيكون ذلك شر بؤرة تنبعث منها عناصر الأمراض الوبيئة.

(٣)
التقسيمات الأرضية

التقسيمات فى الأزمان القديمة ـ التقسيمات فى عهد المماليك ـ التقسيمات الحالية ـ المديرلكيات الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة.

٢٠ ـ التقسيمات فى الأزمان القديمة

كانت مصر على عهد الفراعنة مقسمة إلى ستة وثلاثين نوما – أى قسما أو مديرية، وكل نوم أو مديرية إلى مراكز صغيرة. وكان أربعة عشر من تلك الأقسام بالوجه البحرى واثنان وعشرون بالوجه القبلى. وحافظ البطالسة على هذا التقسيم فلم يدخلوا عليه تغيرا ما، فلما صارت مصر فى أيام أغسطوس قيصر إقليما رومانيا رأى أنها من الأهمية بحيث لا يليق أن تعهد إدارتها إلى حاكم واحد فجعلها اثنى عشر قسما فقط.

٢١ ـ التقسيمات فى عهد المماليك

أما فى عهد المماليك فكانت مصر مقسمة إلى خمسة عشر إقليما . تسعة منها فى الوجه البحرى وهى البحيرة ورشيد والغربية ومنوف ودمياط والمنصورة والشرقية وقليوب والجيزة، وثلاثة فى مصر الوسطى وهى أطفيح والفيوم وبنى سويف، وثلاثة فى مصر العليا ـ أى الصعيد وهى أسيوط وجرجا وطيبة، وحافظ بونابارته على هذا التقسيم فلم يدخل عليه تعديلا ما.

٢٢ ـ التقسيمات الحالية

أما محمد على فقد غير هذه التقسيمات برمتها. إذ قسم القطر أقساما إدارية رأى أنها أصلح لحصر السلطة وأدعى إلى تركيزها وتوحيد أعمالها. فجعلها سبع حكومات أصلية يقوم على تدبير شئونها المديرون، وقسم هذه الحكومات أو المديرلكيات = مديريات = إلى مقاطعات والمقاطعات إلى مراكز يحوى كل مركز منها عددا من القرى.

وقسم الوجه البحرى إلى أربع مدير لكيات ومصر الوسطى والوجه القبلى إلى ثلاث، وجعل عدد المقاطعات فيها كلها أربعا وستين مقاطعة وظهر من الإحصاء أن عدد القرى بلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة قرية.

وسأبين هنا مراكز المدير لكيات والمقاطعات التى تتألف منها والمدن الشهيرة والقرى المهمة التى تحتويها.

٢٣ ـ المدير لكية = المديرية = الأولى

تتألف هذه المدير لكية من أقاليم البحيرة وهى مقاطعات الرحمانية والنجيلة وشبرى ريس ودمنهور. وفى الطرف الشمالى الغربى من هذا الإقليم ثغر الإسكندرية. ومن أهم قراه أبوقير وديروط والطرانة ثم إقليم الجيزة ويتألف من مقاطعتى الجيزة والبدرشين، وفيها من المدن ميت رهينة (منفيس) ودهشور وسقارة.

أما القاهرة فلم تكن داخلة فى إحدى المدير لكيات، ولكنها توجد بحكم وضعها فى إقليم، الجيزة ثم اقليم قليوب، ويتألف من مقاطعات قليوب والمرج وبنها العسل وطحا. ومن قراها الشهيرة شبرى = شبرا = والخانقاه وأبوزعبل والمطرية.

٢٤ ـ المديرلكية الثانية

تتألف من إقليم منوف، وهى مقاطعات أشمون جريس والباجور وشبين الكوم ومليج وابيار، ومن قراها الشهيرة منوف، ثم الغربية وتتألف من مقاطعات فوه وزفتى وطنطا والجعفرية والشباسات والمحلة الكبرى ونبروه وشربين ودمياط. ومن مدنها رشيد وهى لاتدخل فى إدارة مديرى المحلة الكبرى.

٢٥ ـ المديرلكية الثالثة

تتألف من إقليم المنصورة، وفيه مقاطعات ميت غمر والسنبلاوين والمنصورة والوادى ومحلة دمنة والمنزلة ومن قراه الشهيرة فارسكور

والعريش والتينة بالقرب من أطلال الفرمة.

٢٦ـ المديرلكية الرابعة

تتألف من إقليم الشرقية، وهى مقاطعات شيبة النكارية والعزيزية وبلبيس وههيا وأبوكبير وكفور نجم.

أما أطفيح فتتألف من مقاطعة واحدة من أشهر قراها التبين.

٢٧ـ مديرلكية مصر الوسطى

هذه المديرلكية تشمل الفيوم وبنى سويف وتتألف من ست مقاطعات وهى فمن العروس والفيوم وبنى سويف، والفشن وأبوجرج. ومن قراها الشهيرة الزاوية وأبوصير الملق ومدينة الفيوم واللاهون ومعصرة دروة.

٢٨ـ الوجه القبلى والصعيد

ينقسم الوجه القبلى إلى مديرليكيتين تشمل الأولى بنى مزار والمنيا وزاوية موسى وديروط وملوى والقوصية ومنفلوط والدوير والشروق وأسيوط وسوهاج وطهطا وأخميم وبرديس وجرجا وفرشوط.

وتشمل الثانية مقاطعات قنا وقوص وإسنا وإدفو. ومن أشهر مدنها دندره ومدينة آبو.

(٤)

أشهر مدائن القطر المصرى حالا

الإسكندرية ـ أبوقير ـ رشيد ـ دمياط ـ دمنهور ـ الرحمانية ـ فوه ـ المنصورة ـ المحلة الكبرى ـ طنطا ـ المدن الأخرى فى الوجه البحرى ـ القاهرة ـ بنى سويف ـ الفيوم ـ فيديمين ـ المنيا ـ الأشمونين ـ منفلوط ـ أسيوط ـ أخميم ـ جرجا ـ قنا ـ قوص ـ إسنا ـ أسوان ـ السويس ـ القصير.

سأتوخى فى كلامى على أهم مدائن مصر الحالية المرور بها مرا سريعا، وسأبتدىء بالواقع منها فى الوجه البحرى ثم أتبع فى ذكر البقية ترتيبها بحسب مجرى النيل صعودا . وهذا الترتيب ينطبق على الطبيعة. إذ هو الذى يراها بمقتضاه السياح والرحالون الذين يزورون القطر المصرى.

٢٩ـ الإسكندرية

قال نابليون: «اشتهر الإسكندر بتأسيسه مدينة الإسكندرية وانصراف نيته إلى اتخاذها مركز دولته وعاصمة ملكه أكثر من اشتهاره بفتوحاته

العظيمة وانتصاراته الباهرة.

فقد كان مقـررا أن تصير تلك المدينة عاصمـة العالم بأسره، وهى حـرية بذلـك لوجـودها بين آسيـا وأفريقيـا واتصالها بـالبلاد الهنـدية والأصقـاع الأوربية. وميناؤها هو المرسى الوحيد للسفن على مدى خمسمائة فرسخ من السواحل الممتـدة من تونس أو قرطاجنـة القديمة لنهر النيل وميناؤها يسع أساطيل العالم بأجمعه وفى الميناء القديم تكون عرضة لعبث الرياح وهجمات الأعداء».

وموقع الإسكنـدرية فى درجة ٥ ، ١٣ ـ ٣١ْ مـن العرض الشمالى ودرجة ٣٠ ٣٥ـ ٢٧ْ مـن الطول الشرقى ، وقائمـة بالقرب من بحيرة مـريوط على البرزخ الذى بين القارة وشبه الجزيرة التى يتكون منها الميناء القديم والميناء الجديد. أما الميناء الجديد وهو الـواقع إلى الشرق فمتسع المدخل ولا أمن فيه على السفن إذا لجأت إليـه أثناء اضطـراب البحر. وفى النهـاية القصـوى من لسـان الأرض الـواقى له قلعـة المنارة، سميـت بذلك لأنها مشيـدة على المكان الذى كـانت به فى الأزمـان القديمة منـارة البطالسة. أمـا الميناء القديـم فإلى الغـرب من الأول وهـو حوض عميـق جدا إذا لجأت إليـه السفن أمنـت على نفسها عبث الأمواج بها، والبوغـاز المؤدى إليها يتعذر المرور منه على السفن الكبيرة التى جـزؤها الغـائص فى الماء عميق. وكان الـدخول منهـا إلى الميناء ممنوعـا ومحرما على المسيحيين قبل أن يتسلـم محمد على مقاليد الحكم. إذ كان لا يجوز لهم النـزول إلى البر إلا فى الميناء الشرقـى الشـديد الخطـر على السفن ـ كما قلنا.

وموقع الإسكنـدرية، وقد أحاط بها البحـر من جهة ورمل الصحـراء من جهـة أخـرى، يجعلهـا كـالجزيـرة. وليـس فى المدينـة الحاليـة شـىء مـن الإسكندرية القـديمة غير الاسم والأطلال الدارسة، وقـد لاحظ الكثيرون هذا الأمر. والذى خططها وأقام مبانيها بمقتضى الأوضاع والأوصاف التى عينها الإسكنـدر الأكبر هو بنفســه المهنـدس (دينوقـراطس) ويـؤخـذ من روايـة (بليناس) أن طول محيطها كان خمسة فراسخ تقريبا ، وأن عدد سكانها كان ٣٠٠,٠٠٠ مـن الأحرار ومثلهـم من الأرقـاء. وكـان يشقها مـن الشمال إلى الجنوب شارع طـوله ٢٠٠٠ قدم وعرضــه ١٠٠ قدم يقطعه فى زوايا قـائمة شـارع آخر مثله. وكانت أحياؤها محلاة بالمبانى المنجدة من القصور الباذخة والهياكل الفخمة والمدارس الجمنازية والمسارح التمثيلية..إلخ.

ويؤخـذ من أقـوال المؤرخين العرب أنه لما استـولى عمرو بـن العاص على الإسكندريـة كانـت مؤلفة مـن ثلاث مـدائن تسمى إحداهـا «منه» والثـانية «نكيته» والثالثة «الإسكندرية» ووصفها ذلـك الفاتح العظيم فى كتاب بعث به إلى أمير المؤمنين عمـر بن الخطـاب فقـال إنه وجـد بها ٤٠٠٠ قصر و ٤٠٠٠ حمام و ٤٠٠٠ ملهى وبناية عامة و ١٢٠٠٠ مخزن أو مستودع للتجارة.

وقبيل سنـة ١٢١٢ من الميـلاد المسيحى أحـاطها أحـد السلاطين ممـن حكموا بعد السلطان صلاح الدين بسياج طـوله الدائرى فرسخا يتخلله مائة برج ولايزال هذا السور قائما إلى الآن ورممه محمد على.

وقد سقطـت مدينة الإسكنـدرية من علـوة مجدها منذ فتحهـا المسلمون وهبطت إلى الدرك الأسفل من الحضيض فى عهـد المماليك. فليس بغريب إذن أن تكون فى أيام وصول الحملة الفرنسيـة إلى القطر المصرى واحتلالها إياها قريـة يأوى إليها القرصـان، وأن لا يتجاوز عدد سكـانها ٨٠٠٠ نسمة وأن تكون حصونها وقلاعها آيلة للسقوط وأن ينتـابها العربان فى كل وقت للنهب والسلـب. حتـى أن الإنسان كـان لا يستطيـع الخروج منهـا لزيـارة عمـود بـومبيوس (السـوارى) الواقـع على مسيرة عشر دقائق مـن المدينة مـن غير حرس يحرسونه.

ولم يطـل احتلال الفـرنسيين لمصر ليتمكنوا مـن إحـلال الإسكندريـة فى المرتبة الأولى التـى تجعلها حقيقـة بها بموقعها الطبيعـى على ساحـل البحر الأبيض المتوسط. وكل ما استطاعـوا أن يقوموا به فيها من الأعمال أن شادوا حـولها الاستحكـامـات اللازمـة لـوقـايتهـا مـن غـارة العربـان وتـرميـم الاستحكامات القديمة التى عملت فيها يد البلى والاندثار.

وما أن استتـب لمحمد على الحكـم على الديار المصريـة حتى أدرك بثـاقب نظره وصـائب فكره مـالها من الأهميـة العظمى مـن الوحـوش = الوجـوه= الحربية والبحرية والتجارية، وهى الأهميـة المستمدة من طبيعة موقعها كما ذكرنـاه. فإنها بلا مراء المفتـاح الحربى للقطر المصرى، وأول نقطـة يتصدى لها العدو المغير بهجماتـه. فكان فى الدرجـة القصوى من الأهميـة السهر على توطيد تلـك الحصون والاستحكامات وتعهدها بما يجعلهـا على الدوام مكينة البنيان وثيقة الأركان. ولاشك فى أن احتلال الانجليـز إياها سنة ١٨٠٧ ألقى فى نفـس محمد على الاعتقـاد بـأن أقل إهمال فى هـذا المصـدر ربما كان فيـه

القضاء على نفوذه ومكانته أبد الآبدين».

ومرفئا الإسكندرية هما الوحيدان اللذان على السواحل المصرية ، وإذا كانت الأساطيل ضرورية لصيانة استقلال القطر المصرى الذى لا تستطيع الدول الأوربية تهديده إلا عن طريق البحر. فالإسكندرية المرفأ الوحيد الذى تستطيع هذه الأساطيل اتخاذه مكمنا يتعذر الهجوم عليها فيه. فقد كان من الواجب اغتنام هذه المزية الطبيعية وهو ما لم يغفل عنه محمد على لأنه جعل الإسكندرية ثغرا حربيا وأنشأ بها دارا للصناعة (ترسانة) فارتفع لها شأن بين مرافىء البحر الأبيض المتوسط.

أما الأهمية التجارية لكل نقطة من نقط سواحل مصر على البحر الأبيض المتوسط فتابعة لسهولة المواصلات بينها والقاهرة التى هى المركز التجارى والصناعى والسياسى لذلك القطر وكانت الإسكندرية قديما تتصل بالجهات الداخلية من القطر بفرع النيل الذى كان واصلا إليها. فلما انسدت هذه الترعة بانهيال الأتربة فيها كان أول ما عنى الفاتحون العرب به إيصالهم إياها بالقاهرة بترعة أجاد المؤرخون الشرقيون وصفها. ولكن هذه الترعة لم تلبث فى أيام أن اندثرت كسابقتها وأصبحت لافرق بينها والخندق البسيط يجف الماء منها أثناء الشطر الأكبر من السنة، فنشأ عن ذلك أن فقدت الإسكندرية مكانتها التجارية التى آلت من بعدها إلى ثغر رشيد.

غير أن محمد على أبى أن يستمر هذا الغبن. فأعاد إلى الإسكندرية أهميتها الأولى بإنشائه ترعة تسير فيها السفن سماها بالمحمودية نسبة إلى السلطان محمود إجلالا وتخليدا لاسمه، ومنذ هذا الحين انحصرت دائرة التجارة فى الإسكندرية وجعل ناظر التجارة المصرية مقره فيها لهذا السبب، ولكى يباشر أيضًا مبيع الحاصلات الخاصة بالتصدير إلى التجار الأوربيين.

ولما نهضت الإسكندرية من عثرتها وعادت إلى نضرة شبابها الأول من الوجوه الثلاثة المتقدمة ازداد عدد سكانها بسرعة غريبة فوصل إلى ٦٠٠٠٠ نسمة الثلث منهم يعملون فى الأساطيل والمصانع نوتية أو صناعا. والثلثان الباقيان نصفهما – أى عشرون ألفا من الأهالى الوطنيين والنصف الثانى منه ستة آلاف من الأتراك وعشرة آلاف من اليهود والقبط وخمسة آلاف من الأوربيين. ولا يدخل فى هذا التعداد السكان الرحل — أى الذين يأتون إلى الإسكندرية لقضاء الأشغال أو لمجرد السياحة ثم يعودون إلى مواطنهم.

ولقد تغير منظر المدينة تغيرا محسوسا خلال السنوات الأخيرة. فلقد كانت المقابر الفسيحة بداخل المدينة فزحزحت إلى خارجها، وبعد أن كانت مستنقعات المياه الراكدة تتخللها جففت وردمت. أما الطرقات فمن المحقق أنها لم تفرش بالبلاط، ولكن العناية بنظافتها متواصلة وأنشئت على أعطافها = جوانبها = فى كثير من جهاتها المبانى المختلفة ودور الصناعة (الترسانات) والقصور والثكنات العسكرية والفاوريقات والمستشفيات..إلخ وهدم قسم عظيم من الأسوار التى كانت محيطة بها من ناحية البحر لتحل المبانى الجديدة محلها وتنمو المدينة النمو الطبيعى الذى كانت بحاجة إليه.

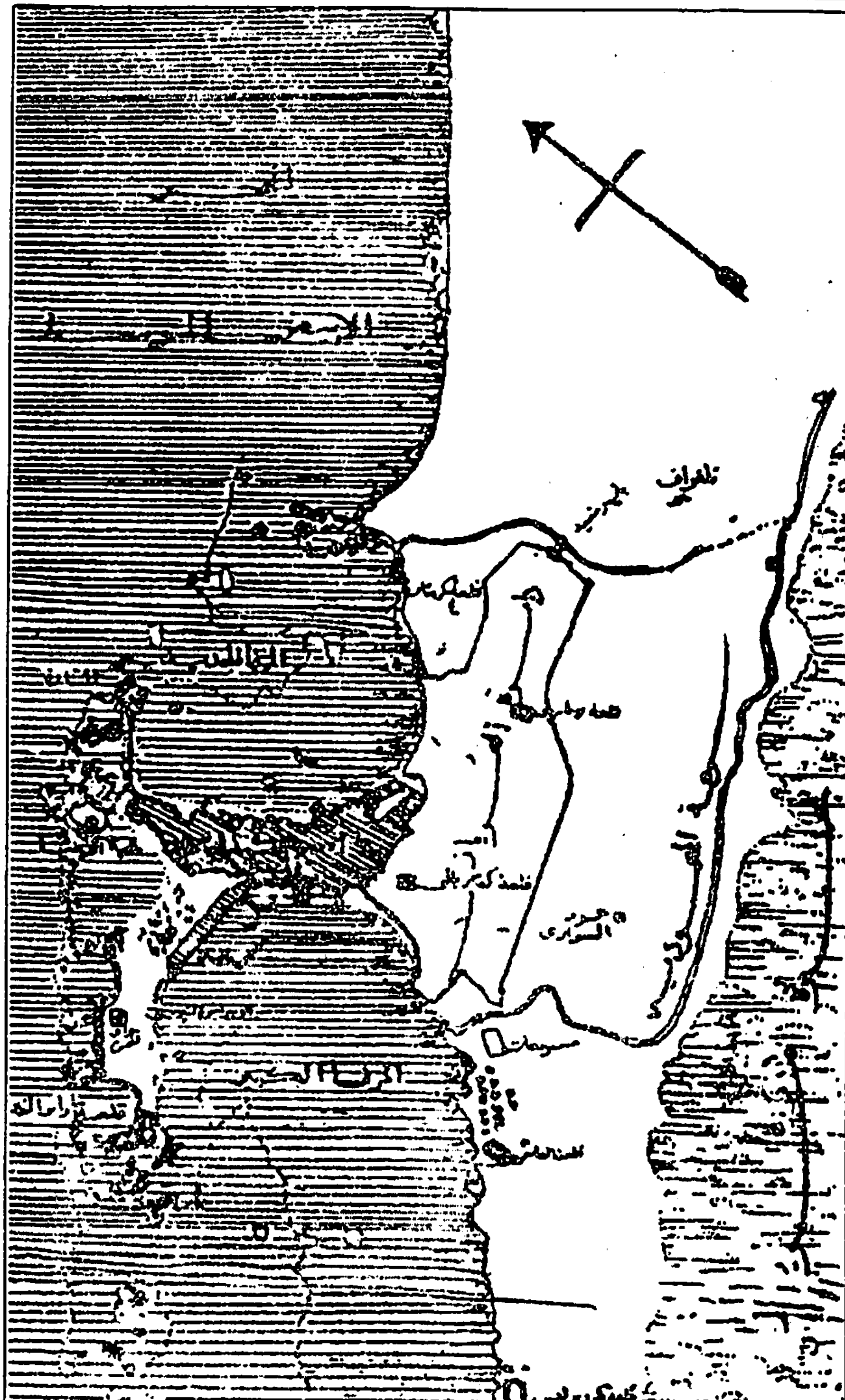
ودار الصناعة البحرية (الترسانة) مشيدة فى شبه الجزيرة المعروفة برأس التين كما شيد فيها قصر الوالى وجملة من المبانى المخصصة لمصالح الحكومة.

أما البرزخ الواصل بين رأس التين والأرض القارة. ففيه الحى الذى يسكنه الأتراك وهو مشيد على النمط المألوف فى المدن الإسلامية.

ويلى ذلك الحى حى الأوربيين، وكان بالإسكندرية فى الزمن السابق حى أفرنجى يسكنه الإفرنج - أى الأوربيون - فصار أرقى بكثير من بقية أحياء المدينة الآهلة بالوطنيين منذ ألقيت مقاليد الحكومة إلى عهدة محمد على واتخذ القناصل الجنراليون الإسكندرية مقرا لهم.

وفى سنة ١٨٢٤ نزلت الإسكندرية وافدا عليها من الخارج فكانت لا تقع عين الناظر فى الحى الإفرنجى إلا على بضع وكائل. أما الآن فقد انقلب هذا الحى رأسا على عقب وتغيرت معالمه. فامتد من وسط الميناء الجديدة إلى مسلة كليوباتره. وبجوار هذا الاثر الآن ميدان جميل مستطيل الشكل طوله ٨٠٠ قدم وعرضه ١٥٠ قدما. وقد شيدت المبانى الحافة به من كل جهة على الطراز الأوربى وبحسب تصميمات هندسية متقنة. ويملك سمو إبراهيم باشا بعض هذه المبانى الشاهقة ويسكن بعض قناصل الدول الكبرى البعض الآخر. ودار القنصلية الفرنسية منها تمتاز عن دور القنصليات الأخرى بمتانة بنائها وجمال هيئتها.

وداخل السياج المتكون من حصون المدينة أكمتان = تلاَّن = ارتفاع كل منهما مائتا قدم تقريبا وعلى قمة كل منهما طابية أنشأها الفرنسيون، ولاتزال إحدى الطابيتين تحمل اسم البطل (كفاريللى دوفالجا) القائد فى فرقة الهندسة والمتوفى فى حصار عكا ، وهذه الأكمة وهى أقرب الأكمتين من المدينة



خريطة الإسكندرية فى عهد محمد على باشا

عبارة عن مجموعة اكام من الانقاض يرجع تاريخ وجودها على الأرجح إلى زمن حكم العرب. أما الأكمة الأخرى المعروفة بكوم الدكة فصخرة حجرية تشرف على المكان الذى كان يشغله فى الزمن القديم أحد ملاهى التمثيل، وكانت المساكن التى حولها عششا وأكواخا حقيرة لبعض العربان. أما الان فبالنظر لما تبينه الأوربيون من جودة موقعها وحسن مناخها وموافقتهما لصحة المقيمين بها شيدت المبانى عندها، وأقيمت القصور فى وسط الحدائق الغناء.

والخرائب والأطلال منتشرة بضواحى الإسكندرية إلى مسافة كيلومترين منها وهى تدل صراحة على صدق ما رواه المؤرخون عن عجائب المدينة القديمة وتحفها وصحة ما قالوه بشأنها وأنه لم يكن مبالغا فيه، ولاريب فى أن مواد البناء التى شيدت بواسطتها منازل الحى العربى أخذت من هذه الأطلال الداثرة وكان أخذها من الطبقة الظاهرة على وجه الأرض دون الطبقات التى تحتها، وهذا هو السبب فى أن المنقبين عن الأطلال القديمة يعثرون كلما حفروا على مقابر وافرة منها ، وكثيرا ما يهبطون أثناء الحفر إلى عمق ستين قدما.

أما المبانى العامة التى بثغر الإسكندرية فهى دار الصنعة (الترسانة) وقصور سمو الوالى فى رأس التين، وهى تتألف من الحرم والديوان والحجرات الخاصة بمحمد على والمسافرخانة التى أعدها الوالى لضيافة وإكرام كبار الزائرين والمسافرين والسياح. وفى الإسكندرية مصلحة لمراقبة الشئون الصحية ومستشفيات أحدها للبحرية وهو المعروف بمستشفى المحمودية ويسع من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ مريض، وهناك مستشفى آخر للجنود البرية يعرف بمستشفى رأس التين ويسع من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ مريض وفى المدينة كلها نحو ثلاثين مسجدًا.

٣٠ـ أبوقير

إذا اشتط السائر الساحل شرقى الإسكندرية كان أول مايلتقى به فى طريقه قبل وصوله إلى بحيرة إدكو ساحل اشتهر بالواقعة البحرية التى ذهبت بثمرات الحملة الفرنسية وبفوز بونابرت على الأتراك فى السنة التالية التى أصيب فيها بذلك الفشل ـ أى على أثر عودته من بلاد الشام. فذلك

المكان ذو الشهرة المضاعفة الذى يثير فى نفس كل فرنسى لواعج الحزن كما يحرك فيها بواعث الفخار والمجد هو «أبوقير».

أما القرية المسماة بهذا الاسم فواقعة فى المكان الذى كانت فيه قديما بلدة (بوزيرس) المشهورة بهيكلها المشيد للإلهة إيزيس وبالأعياد السنوية التى كان المصريون يقيمونها به.

وأهمية موقع أبى قير من الوجهة العسكرية لا تذكر، ولولا أن سواحلها معرضة لهياج الأمواج لكانت أصلح موقع تنزل منه حملة أجنبية للإغارة على الديار المصرية. ولقد أدرك الوالى بثاقب فكره تلك الأهمية فأنشأ به حصونا واستحكامات جعلته أمنع من عقاب الجو، كما أيده الكثيرون من العارفين بحقيقة الحال.

٣١ - رشيد

مدينة رشيد واقعة فيمايلى بحيرة المعدية على الضفة اليسرى من الفرع الغربى للنيل. وموقعها على مسافة فرسخ ونصف من البحر المالح فى ملتقى ٢٥ ٣١° من العرض الشمالى بـ٥, ٨ - ٢٨° من الطول الشرقى. والسفر إليها برا باشتطاط الساحل وبحرا باجتياز ممر شديد الخطر عند مصب النيل. وهذا الممر أو البوغاز يفتحه التيار فى الكثبان الرملية المتكونة من رواسب النهر. وهو شديد الاختلاف، ومن هناك جاءت الصعوبة التى تعترض السفن فى اجتيازها إياه.

وبعد اجتياز البوغاز يرتسم فى باصرة الانسان منظر يفتن العقل ألا وهو منظر سهول الدلتا وقد فرشت ببساط طبيعى من سندس أخضر ونثرت عليه الحاصلات الذهبية اللون، ورسمت فيه صور غابات النخل، والقرى والمدائن تعلوها منارات المساجد ذاهبة إلى السماء كأنها سهام حادة النصال، وتلك السهول تمتد إلى أقصى مدى النظر فتنتهى إلى حيث ينتهى الأفق وتعجز الباصرة عن نظر ما والاه.

ويقول العرب: إن مدينة رشيد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى هارون الرشيد الخليفة العباسى. وقد حازت أهمية تجارية كبرى عندما سقطت الإسكندرية وتدهورت إلى الحضيض، ولكن التجار لم يلبثوا أن هجروها منذ

أنشئت ترعـة المحمودية وأعادوا إليها بـانشائها المزايا التى فقـدتها زمنا ما، وقد نقص عدد سكان رشيد للسبب المتقـدم نقصا محسوسا فهو لا يتجاوز الآن ١٥٠٠٠ نسمة. وهى مشهورة بمعامل الأرز فيها وبحدائقها الغناء التى يبالغون فى وصف جمالها وهى على نسق الحدائق الشرقية التى وصفتها فيما تقدم بما يزجى = يسوق = إلى ذهن القارىء فكرة صحيحة عنها.

ويبلغ ذرع = مساحة = مدينة رشيد نحـو الفرسخ طولا فى ربعه عرضا. ومما يلفت النظر فيها مسجد آية فى حسن البناء ومعمل لنسج القطن ومعامل لضرب الأرز منها واحد يدار بالبخار وثكنة فسيحة للجنود. وفى جنوب رشيد زاوية شهيرة بنيت على ضريح شيخ مشهور بالتقـوى والورع يعـرف عند الأهلين هناك باسم سيدى مندور، والذى يصعد فى منارة مسجد هذا الشيخ يرى منظرا عجبا يتناول ما ينتهى البصر إليه برا وبحرا.

٣٢ـ دميـاط

ثغر دمياط على الضفة الشرقية من الفرع الشرقى للنيل الذى كان معروفا أيام الفراعنة بالفرع (الفتنى) وهـو بعيد عن البحر الملح بنحو فرسخين وعن بحيرة المنزلة بنحو نصف فرسخ فى ملتقـى خط ١٥ ـ ٢٩ ـ ٢٩ْ من الطول الشرقى بـالخط ٤٣ ـ ٢٥ ـ ٣١ْ مـن العرض الشمالى. وليسـت الآن فى نفس الموقع الـذى كانـت تشغله أيـام الحروب الصليبية. والمدينـة التى هـاجمها الصليبيون مرارا حتى وقعت فى قبضتهم سنـة ١٢١٨ من الميلاد هى دمياط القديمة لا الحديثـة، ثم استولى عليها القـديس لويس سنـة ١٢٤٩ ولما ردها هذا الملـك إلى المسلمين فى مقابل إطلاق سراحـه هدمها هؤلاء وأنشـأوا المدينة الحالية على مسافة فرسخين من الأولى.

وضواحى دميـاط مشهورة بمزارع الأرز، أما هـى فإنها المستودع الكبير لأصنـاف أرز القطر المصرى، ولها بـالشام صـلات تجارية وثيقـة، وكانـت لمعامـل النسيج بها فى الـزمن السابـق شهرة ذائعة وصيـت بعيد. وقـد أبلغ بعضهم عدد سكانها إلى ٦٠ أو ٨٠ ألف نسمة. وهذان الرقمان مبالغ فيهما. لأن هذا العدد لا يتجاوز اليوم ٢٥ إلى ٣٠ ألفا فقط.

وأشهر مبانى دميـاط وأجملها المساجد وما شاده الوالى فيهـا من معامل الأرز ومستـودعاتـه، وقد أنشـأ سموه بها ثكنـات للجند ومـدرسة للمشـاه (البيادة).

٣٣ـ دمنهور

دمنهور أول مدينـة كبيرة يمر المسافر بها وهو متجه نحـو الغرب، وهى على مقربة من ترعة المحمودية ويتراوح عدد سكانها بين ٨ و١٠ آلاف نسمة.

٣٤ـ الرحمانية

مـدينـة صغيرة على النيـل وعلى مقـربة منهـا أطـلال مـدينـة (صـا) أو (صائيس) القـديمة، وبالقرب منهـا أيضا كانت مـدينة (نوقراطيـس) وهى الوحيدة التى فتح قدماء المصريين أبوابها من مدن القطر المصرى كله للتجارة مع الأجانب.

٣٥ـ فــوه

واقعة على النيل بين الرحمانية ورشيد تجاه فم الترعة المحمودية وكانت فى القـرن السادس عشر على مكـان من الأهميـة ولكـن قلت أهميتهـا وتلاشـى وجودها التجارى منـذ أن انسدت ترعة الإسكندرية التى كـانت واصلة بينها وهذا الثغـر وكانـت من بـواعث تقـدمها بما كـان يرد إليهـا بواسطتهـا من البضائع والأرزاق وقـد علا فى هـذه الأيام نجمهـا بإنشـاء سمو الـوالى فيها فاوريقة لصنـع الطرابيش على مثال المصنـوع منها فى تونس ومعمـلا لغزل القطن وطاحونا لضرب الأرز.

٣٦ـ المنصورة

واقعة على الضفة اليمنى من فرع دمياط، وتبعد عن هذا الثغر بنحو اثنى عشر فرسخا وقـد اشتهرت بانكسار الجيـش الفرنسى الصليبى الـذى كان يقوده ملـك فرنسا لويـس التاسع عشر المعروف بـالقديس لويـس، ولايزال يوجد بها فى ميـدان صغير مقابل للنيل المكـان الذى سجن فيه هـذا الملك بعد أسره. وممـا يرى فى المنصـورة غير ذلك أطـلال قبة يقـال إنها التى أمضـى القديس لويس تحتها معاهدة الصلـح القاضية برد ثغر دمياط والجلاء عنه. وفيما بين المنصورة ودمياط بلدة فارسكور التـى انكسر فيها جيش القديس لويس الأول مرة . فكان هذا الانكسار سبب خذلانه وحبوط آماله.

٣٧ـ المحلة الكبرى

يؤخـذ من أقوال بعض الجغـرافيين أن المحلة الكبرى الواقعة الآن بـداخل

الدلتا على مقربة من فرع دمياط تشغل موقع مدينة (سينوبوليس) أى (مدينة الكلاب) وهى على شىء من السعة وانفساح الجوانب. ومع أنها الآن فى غير ما كانت عليه سابقا من ارتفاع الشأن وجلال القدر فلايزال عدد سكانها متراوحا بين ١٦ و١٨ ألفا من النسمات، ولمعامل نسيج قماش التيل فيها شهرة فائقة ، وقد أنشأ سمو الوالى بها فاوريقة جليلة لغزل القطن ونسج الأقمشة.

٣٨ـ طنطا

يلقى الصاعد من بحرى القطر المصرى إلى قبليه عن يمينه بالنسبة للمحلة الكبرى مدينة طنطا. وهى مدينة صغيرة اشتهرت بتقاطر الجم الغفير من الناس إليها لحضور المولد الأحمدى . والسيد أحمد البدوى صاحب هذا المولد مدفون فى مسجد مشهور به، وهو من أشهر مساجد القطر المصرى وأجملها. ومن الكرامات المنسوبة إليه أن التوسل به يزيل العقم ويشفى الأدواء المستعصية..إلخ. وهذا الاعتقاد جعل المصريين يتواردون إليه من جميع أنحاء القطر المصرى، وهذا فضلا عن أن الحجاج الذين يقصدون إلى الحجاز يقفون بطنطا فى طريقهم لزيارة ضريحه.

والوقت الذى أجمع الناس على اختياره لزيارة السيد البدوى هو المولد الذى يقام فى كل عام إجلالا له، وهو أهم الموالد الثلاثة التى تقام عادة فى تلك المدينة ، والاثنان الآخران هما مولد سيدى عبدالعال ومولد الرجبية. وفى المولد الكبير تزدحم مدينة طنطا بالزائرين. إذ يقصد إليها التجار من بلاد تركيا وفارس والهند وبلاد كثيرة من إفريقية يحملون إليها معهم الأقمشة المطبوعة والمناديل والأقمشة الحريرية ولعب الأطفال والأوانى الصلصالية والخزفية وريش النعام والأرقاء.. إلخ للاتجار بذلك وغيره. وهم يعرضون هذه البضائع على الأنظار فى الوكائل وتحت الظلات التى كثيرا ما تشغل متسعا من الأرض طوله نحو الأربعة فراسخ على صفين متوازيين.

أما الذين يحضرون إلى المولد بقصد الزيارة لا الاتجار فإنهم يضربون الصواين والخيام بقرب المدينة فيجىء الحواة وبنات الهوى والراقصات والعازفون المتنقلون بالموسيقى ليطلعوا تلك الجماهير على فنونهم وصناعاتهم. وقد اعتادت الحكومة أن ترسل إلى طنطا فى أيام المولد أربعة

آلاف جندى لحفظ الأمن والنظام ، ولكنهم قلما يستطيعون منع اللصوص والمحتالين من استلاب الناس أموالهم بما هو معروف عنهم من الحيلة والتمويه والدهاء. وبانتهاء المولد الأحمدى تعود مدينة طنطا إلى سابق عهدها من السكون وتخلو طرقاتها وضاحيتها من الناس، وتصبح كأنها قفر بلقع ليس فيه ديَّار ولا نافخ نار.

٣٩ ـ مدائن الوجه البحرى الأخرى

مدائن الوجه البحرى الأخرى الجديرة بالذكر هى:

منوف ـــ قرية عظيمة بالقرب من رأس زاوية الدلتا ، وبها مسجد فيه أعمدة جميلة.

وإلى شرق فرع دمياط بالطريق الموصل إلى الشام القرى والبلدان الآتية: بلبيس ـــ حصنها نابليون بونابرت ـــ وبالقرب منها كانت توجد على عهد البطالسة مدينة (أونيون) التى أنشأ بها (أونياس) ابن أحد كبار الأحبار اليهود هيكلا عبريا على طراز هياكل أورشليم ، وفيه كانت تقام شعائر الديانة اليهودية.

الصالحية ـ بلدة واقعة فى وسط مديرية الشرقية.

وأبوزعبل والخانقاه ـــ اكتسبتا أهمية وشهرة فى العهد الأخير، وهما واقعتان فى الطريق من الصالحية إلى القاهرة على مسافة أربعة فراسخ من هذه ومثلها من النيل. أما القريتان فتبعدان إحداهما عن الأخرى بنحو نصف فرسخ، وفى كل منهما نحو ١٥٠٠ نسمة. وفى المسافة الفاصلة بينهما سهل عظيم غير مزروع يواجه صحراء برزخ السويس الذى حدثت فيه الواقعة بين جيش الصدر الأعظم المؤلف من ٨٠٠٠٠ مقاتل وجيش الفرنسيين المؤلف من ٩٠٠٠ مقاتل بقيادة (كليبر) ودارت الدائرة فيها على الجيش الأول. إذ دحره الجيش الثانى ومزق شمله. وفيه أيضا أقيم ميدان التعليم للجيوش المصرية النظامية، وأنشئت المدارس الأولى لأركان حرب الطوبجية، وكذا مدرسة الطب المشهورة باسم مدرسة أبى زعبل.

المطرية ـ بلدة من ضواحى القاهرة قائمة على أطلال عين شمس ـ إحدى مدن مصر القديمة الذائعة الصيت ـ وتحوى آثارا وأطلالا ذات علاقة

بالديانة المسيحية فى إبان أمرها كالبئر التى استقى منها الماء يوسف النجار ومريم والولد يسوع فى فرارهم إلى مصر، وشجرة الجميز التى آووا إلى ظلها. وهذه الآثار يجلها المسلمون والمسيحيون على السواء. والمطرية شهيرة بالمعركة التى وقعت بجوارها بين الفرنسيين والأتراك، وكان الظفر المبين فيها للأولين على الآخرين.

٤٠ـ القاهرة

تقع القاهرة فى ملتقى الخط ٢١ ٢ ٣٠ْ من العرض الشمالى بالخط ٣٠ ٥٨ ٢٨ْ من الطول الشرقى. وهى قائمة على سهل رملى وتبعد عن النيل بنحو ٤٠٠ تؤاز ، وعن رأس الدلتا بنحو خمسة فراسخ ونصف وعلى مقربة من السفوح الأخيرة لجبل المقطم. والقاهرة الأصلية وتسمى أيضا بالقاهرة العظمى تنحصر بين بولاق مرفأها فى الشمال ومصر العتيقة مرفأها فى الجنوب.

وتشغل مصر القديمة المكان الذى كانت فيه بابل مصر قديما. وكان عمرو بن العاص محاصرا لها حينما عششت حمامة على فسطاطه فلما بلغه هذا الخبر سر به واستبشر. فلم يشأ أن يزعجها بتقويض الفسطاط يوم عنَّ له الرحيل إلى الإسكندرية لفتحها ، ولما تم له فتحها وعاد اختط له عاصمة حول المكان الذى ترك فيه فسطاطه وسماها «فسطاط مصر».

ولم يكن من حظ المدينة الجديدة أن تتقدم ويتسع نطاقها فإن الصليبيين زحفوا عليها فى سنة ١١٦٧ بقيادة (آمورى) ملك أورشليم. فلم يكن من حاكمها حينما رآهم مقبلين عليها إلا أن أضرم فيها النار التى استمر ضرامها فيها خمسين يوما واضطر سكانها أن يلتجئوا إلى الريف المجاور لها وأن يجددوا مساكنهم حول القاهرة التى اختطها فى سنة ٩٥٨ للميلاد المسيحى جوهر القائد مولى المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين ، فارتفع شأنها بعض الشىء فحلت محل الفسطاط كعاصمة للديار المصرية. واتسع نطاقها وامتدت حصونها وزهت مبانيها بالزخارف الجميلة فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى. ذلك أصل مدينة القاهرة التى يسميها العرب «مصر» وهو الاسم الذى أطلق منذ ذلك الحين على عاصمة الديار المصرية.

والقاهرة أكثر امتدادا فى الطـول منها فى العرض. وتعتبر المدينة الأولى بين مدن الممالك العثمانية المحروسة بعـد الاستانة. إذ إنها تشغل من الأرض ما مسطحـه ٩٠٠ هكتار ويبلـغ محيطهـا ٢٥٠٠٠ متر وتكتنفهـا آكام تـرابيـة تكونـت بتراكم الانقـاض المتخلفة عن المبـانى المصريـة التى كثيرا مـا تشاد بالمواد الطينية والترابية(١).

وكان يحيط بـا لمدينة سور عظيم شــاده السلطان صلاح الديـن الأيوبى وجعل الأبـراج تتخلله على مسافـات متقاربـة. ولم يبق منه الآن ســوى جزء صـغير. لأن المدينة باتساع نطاقها ونموها الكبير من ناحيتى الجنوب والشرق ويخترقها على اتجاه طولها مجرى الماء المسمى بالخليج.

وفى القاهرة الآن ثلاثون ألف منـزل يقطنها نحو ٣٠٠,٠٠٠ من السكان. وهى مقسمة إلى حـارات يتجاوز عددها الخمسين. أهمهـا على ترتيب الاتجاه من الشمال إلى الجنوب حارات: الشعراوى والأزبكية والنصارى (وهى حارة الأقباط والأرمن والشـوام وغيرهم..إلخ) والروم (أى حارة اليـونان) واليهود والافـرنج والموسكـى وزويله والأزهـر والمؤيـد وباب الخرق وبـركة الفيـل والمغاربة وطيلـون = طولون = (وهذه الحارة أقـدم حارات مدينة القــاهرة) والرميلة وقره ميدان والقلعة.

وبالقاهرة أكثر من سبعين بابا بعضـها من الداخل وأهمها فى الجنوب: باب السيد وبـاب طيلون وباب السيـدة وباب القـرافة. وفى الشرق: باب الـوزير وباب الغـريب. وفى الغرب مـن جهة النيل: بـاب اللوق وباب النـاصرية. وفى الشمال: باب الحسينيـة وباب النصر وباب الفتـوح والبابـان الأخيران أثران هندسيان جليلان (وباب النصر يرجع تاريخ انشائه إلى عهد السلطان صلاح الدين) وباب الحديد.

---

(١) هذه الأكام مرتفعة ارتفاعا وافيا ، وقد أقام الفرنسيون أيام الحملة البونابرتية عليها استحكامات وقلاعا سهل بواسطتهـا التسلط على المدينـة عند الحاجـة. ولما كانـت تلك الأكـام حائلا منيعـا دون انبثاث الهواء فى أحيـاء القاهـرة وشوارعها وازقتها فقد كان فى نيتهم إزالتها. ولكنهم عدلوا عن ذلك لصعوبة هذا العمل وطول مايلزم من الزمن للقيام به. وقد كان إبـراهيم باشا أول من أقـدم على تنفيذ المشروع. إذ ازال اكمتين عظيمتين كان يبلغ ارتفـاع كل منهما نحو ٢٠٠ متر وكانتا تشغـلان فيما بين بولاق وفم الخليج مسطحا من الأرض مسـاحته كيلومتر مربع ، وظل العمـل قائما على قدم وساق نحـو خمس سنوات. فانتفـع بالتراب المرفوع فى ردم المستنقعـات الآسنة المجاورة للقـاهرة وسويـت الأرض به ومهدت تمهيـدا حسنا مكن أوليـاء الأمر مـن غرس الحدائق الغناء فى مكـانها. أما سمو الـوالى محمد على فقـد ازال أكمة عظيمة كانت تسـد طريق شبرى . وكانت تتلو الاكمتين الســالفتى الذكر، ولست بمتردد فى القول بـأن إزالة هذه الأكام كانت من أنفع الاعمال الجسيمة التى تمت على عهد محمد على والى مصر.

وشوارع القاهرة مثلها مثل سائر المدن الإسلامية معوجة كثيرة الالتواء والانعطاف والانكسار تقاطعها أزقة منها مالايتجاوز عرضه أحيانا أكثر من ثلاثة أو أربعة أقدام وعطفات لا منفذ لها.

وعدد الطرقات الأصلية – أى الكبيرة فيها يزيد على مائتين وأربعين طريقا. وهى غير ما يعترضها من الأزقة والعطفات وعددها ثلاثمائة من هذه ومثلها من تلك. وتتغير أسماء الشوارع غالبا ، ومن أكثرها أهمية شارعان يخترقان المدينة فى اتجاه طولها أحدهما هو الممتد من باب السيدة إلى باب الحسينية ويبلغ طوله ٤٦٠٠ متر ، والثانى يساير الضفة اليمنى من الخليج ابتداء من القنطرة الجنوبية المسماة بقناطر السباع إلى قرب باب الشعرية. وهناك خمس طرقات تقطع المدينة فى اتجاه العرض منها ثلاث تتجه من القلعة إلى النيل.

وفى القاهرة أربعة ميادين كبيرة هى: ميدان قره ميدان وميدان الرميلة بجنوب المدينة وميدان بركة الفيل فى وسطها ، وميدان الأزبكية فى شمالها الغربى وهذا الاخير هو أكبر الميادين وأفسحها . إذ يبلغ مسطحه داخل مسطح ميدان العرض العسكرى بباريس المعروف باسم (شاندومارس). وإلى الجانب الغربى من الأزبكية البيت الذى سكنه الجنرال بونابرت أيام الحملة الفرنسية. وتلك الميادين يغمرها الماء فى أيام الفيضان إلا ميدان الأزبكية الذى رفع سطحه بعض الشىء ومهدت أرضه وغرست فيه أشجار وجر إليه الماء بواسطة قناة.

وفى وسط المدينة أسواق كثيرة بعضها حقيق بالذكر كسوق الغورية. حيث تباع الشيلان الكشميرية والحرير الموصلى والأقمشة الواردة من الخارج، وسوق الأشرفية حيث تجار الورق، والخان الخليلى حيث تجار الجواهر والنحاس والسجاجيد، وسوق النحاسين وفيه تجار المصوغات وصناعها وسوق البندقانية حيث تجار العقاقير والخردوات، وسوق الحمزاوى وفيه تجار الجوخ وسوق السروجية حيث تصنع وتباع سروج الخيل وغيرها، وسوق السلاح وفيه يصنع السلاح ويباع ، وسوق الجمالية حيث تجار البن والتبغ الوارد من الشام.

أما شارع مرجوش الكبير (أمير الجيوش) فيباع فيه بالتجزئة أثواب

الأقمشة المنسوجة فى القطر المصرى وهناك وكالة الجلابة التى يباع فيها الأرقاء المجلوبون من وسط أفريقية.

وبالقاهرة أربعمائة مسجد. الكثير منها متخرب أو آيل إلى السقوط وأشهرها من جهة النمط الهندسى مسجد عمر بن العاص المبنى سنة ٢٠ من الهجرة (٦٤٠ من الميلاد) ومسجد الحاكم العبيدى المشيد سنة ٤٠٠ للهجرة (١٠٠٧ للميلاد) على عهد الفاطميين، ومسجد السلطان حسن شاه فى سنة ٧٥٧ للهجرة (١٣٥٤ للميلاد) أحد السلاطين المماليك المعروف بهذا الاسم. وقد قضى البناءون فى بنائه ثلاث سنوات. قال المقريزى: كان ينفق عليه فى اليوم ألف مثقال من الذهب. ومسجد طيلون = طولون = بنى سنة ٢٣٨ للهجرة (٨٥٠ للميلاد) بناه السلطان أحمد بن طولون، ومسجد المؤيد انشأه فى سنة ٨٢٠ للهجرة (١٤١٥ للميلاد) السلطان أبوالنصر المؤيد شيخ ومسجد السلطان قلاوون سيف الدين، ومسجد السلطان برقوق بنى سنة ١٠٧٠ للهجرة (١٦٥٥ للميلاد) ومسجد السلطان قايتباى بنى سنة ٨٧٠ للهجرة (١٤٦٣ للميلاد) ومسجد السيدة زينب سنة ٣٠٠ للهجرة (٩١٠ للميلاد) ثم مسجد الأزهر وهو أشهر المساجد على وجه الإطلاق.

وللمسيحيين على اختلاف شيعهم ومذاهبهم نحو ثلاثين كنيسة ومصلاة. أما اليهود فلهم عشر بيعات.

وفى الأحياء التجارية والصناعية نحو ألف وثلاثمائة وكالة.

وفى أنحاء متفرقة من القاهرة ألف ومائتا قهوة وثلاثمائة صهريج وسبعون حماما أشهرها بالاتساع وفخامة البناء وحسن الرياش حمام يزبك وحمام السلطان وحمام المؤيد وحمام الطمبلى وحمام مرجوش وحمام سنقر وحمام السكرية..إلخ.

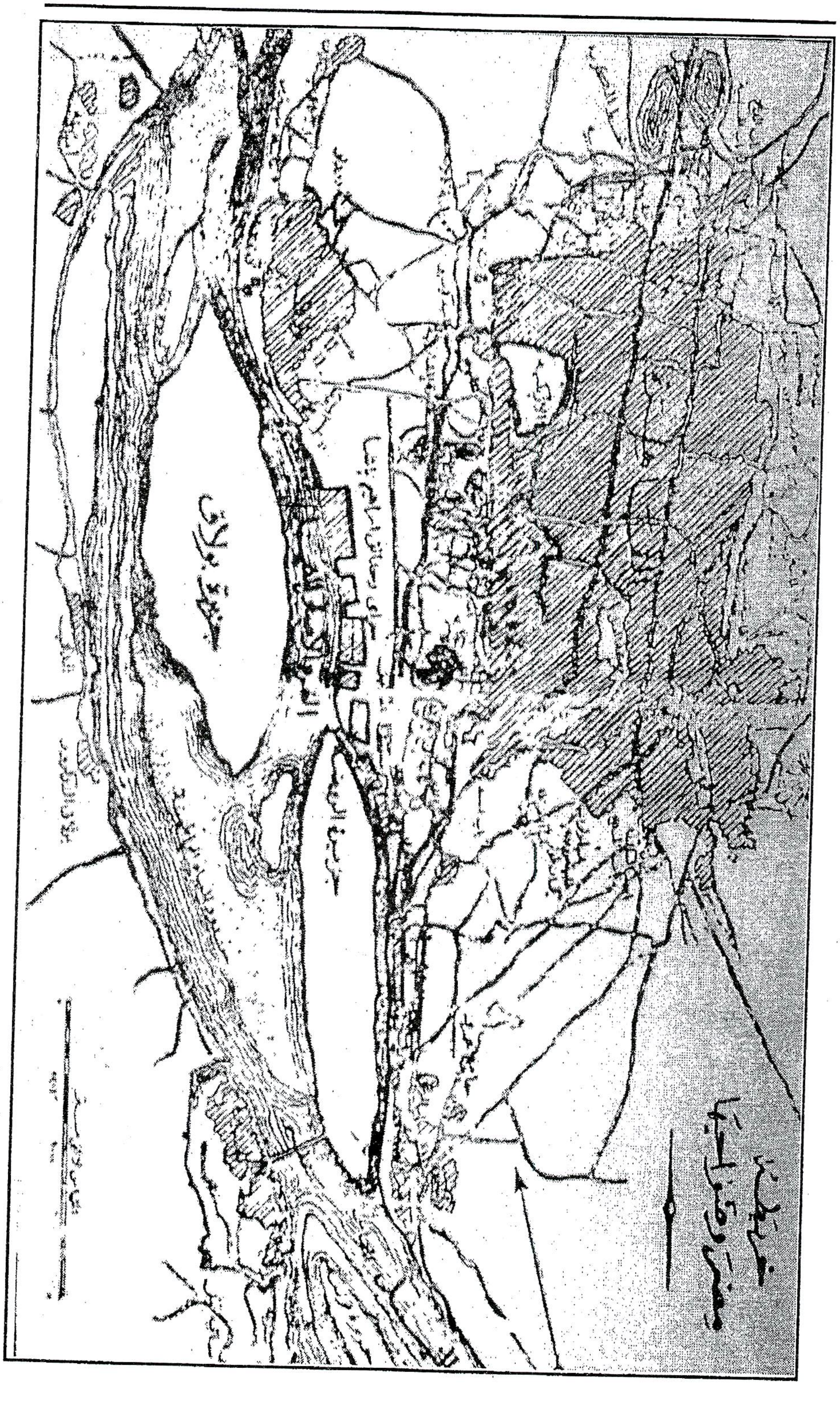
وفى ظاهر القاهرة ثلاث بقاع للمقابر شهيرة باتساع نطاقها. لأن مسطحها يشغل أكثر من ربع مسطح هذه المدينة. وهى القبه بحرى السور وترب قايتباى فى الشرق وترب السيدة أم هاشم فى الجنوب وفى هذه المقابر الواسعة قبور الخلفاء وبعضها آية فى الجمال الهندسى. أما مقبرة القبة فبها قبر الملك العادل وقبور أخرى لبعض السلاطين والبكوات المصرلية - أى المماليك.

ولم يكن بالقاهرة فى الزمن السـابق سوى مستشفى واحد هو المستشفى المعروف بالمارستان وسيأتى الكلام عليه فى غضون الفصل الخاص بالحالة الحاضرة للطب فى القطـر المصرى. وفى ميدان الأزبكيـة الآن مستشفى ملكـى جميل يحوى سبعمائة سرير نصفها للرجـال والنصف الآخر للنساء. ويتبع هذا المستشفى مدرسة للولادة ومستشفى للمجاذيب. كل هذا غير المستشفى العسكرى الفخـم المعروف بمستشفـى قصر العينى الـواقع فى الطـريق بين القاهرة الكبرى ومصر العتيقة قـرب المكان الذى كانت فيه عزبـة إبراهيم بك على ضفاف النيل. ويحوى هذا المستشفى ألفا وثمانمائة سرير.

وبالقـاهرة غير العدد العظيم مـن المدارس الخاصة أو الملحقة بـا لمنشآت الخيرية كـا لمساجد والأسبلة وأحـواض الماء مبان عديدة مخصصـة للتعليم والتربية. وفيهـا قصور جميلة وسرايات واسعـة .منها ما يملكه سمـو الوالى وكل مـن إبراهيم باشـا وعباس باشـا والدفتردار بك حول ميـدان الأزبكية ، وقصر إبراهيم باشا كجك (الصغير) الـذى يشغل من المدينة مكان السرة من الجسم، وقصور أخـرى لغيرهم كقصر محمود بك. لا أتصـدى للكلام عليها تقية = خشيـة = الإسهاب فى الموضـوع. وعلى ضفاف النيـل قصر لإبراهيـم باشـا وآخر للدفتردار بـك وهما مما يلفت النظر بـانفساح الأرجاء ورشـاقة البناء.

أما القلعـة فإلى الجنوب من القـاهرة على الجبل الأخير من سلسلـة جبال المقطم، وهـى تحكم المدينة، وقـد أنشأها فى مكـانها السلطان صلاح الـدين الأيوبى وليس لها فى الحقيقـة أهمية ما من الوجهة الحربيـة. لأن هناك جبلا آخر يتسلط عليهـا أنشأ محمد على فيه قلعة صغيرة تعوض مـا ينقص القلعة الأصلية من جـودة الموقع ومزيته والـوصول إلى القلعة بطريقين منحـدرين منحوتين فى الصخـر أحدهما واقـع إلى الشمال، ويفضى إلى البـاب المشهور بـاسـم بـاب العـزب الآخـر إلى الشرق ويـؤدى إلى البـاب المعـروف ببـاب الانكشاريـة. وقد دمـرت القلعة كلها تقـريبا فى سنـة ١٨٢٤ ميلاديـة عقب انفجار مخزن للبارود منحوت فى الصخر. فإن ما كـان بها من المبانى عامئذ سقط كله أو بعضه، ولكن «محمد على» لم يلبث أن أعاد بناءها كلها تقريبا.

وبالقلعة القصر المعـد لنزول الباشا كلما جاء إلى القاهـرة. وبها أيضًا بئر



يوسف الذى سمى كذلك نسبة إلى السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبى الذى أمر بحفرها فيها، وهى بئر مربعة الشكل منقسمة فى اتجاه العمق إلى قسمين ويبلغ طول عمقها ٢٨٠ قدما. وقاعها يستوى مع منسوب نهر النيل. وينزل إليها بسلم حلزونى فى نهاية القسم الأول منه ساقية ذات عجلات يديرها ثوران فيرتفع الماء من القسم الأسفل إلى هذه الساقية التى يرتفع الماء منها إلى ظاهر الأرض عند مدخل البئر بمثل الوسيلة المتقدمة، وإنما حفرت هذه البئر لدرأ خطر قلة الماء فى القلعة إذا أصاب البوابات (العيون) التى تحمل ماء النيل إليها عطب أو قطعت فى جهة ما من جهاتها بفعل فاعل. على أن بالقلعة صهاريج عديدة يكفى واحد منها بضعة آلاف من الرجال سنة كاملة. وبالقلعة أطلال دارسة لقصر السلطان صلاح الدين الأيوبى والعمل بها متواصل الآن لإنشاء مسجد كبير بها أمر بإنشائه سمو الوالى، وفيها أيضا دار للصناعة ومسبك لصب المدافع ومعمل لصناعة الأسلحة ومصانع لإعداد معدات الفرسان والمشاة ولوازمها ومطبعة ودار لضرب النقود يصنع من النقود الذهبية فيها كل سنة ما تعدل قيمته خمسة ملايين من الفرنكات.

وتبتدىء حركة الأعمال فى القاهرة منذ الساعة السادسة من الصباح وتنتهى عند اشتداد القيظ فى ساعة الزوال. فيسود السكون ويظل سائدا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر. ولقد أجمع الرحالة الذين كتبوا عن مصر على غرابة ما تقع عليه الأنظار من المرائى فى الشوارع والأسواق والميادين لاختلاط الأهلين على تعدد أجناسهم وتباين لباسهم. وذكر كل منهم ما شاء أن يذكر من متناقضات تلك المناظر الغريبة. فوصف الغنى صاحب الجاه بملابسه الفاخرة المزركشة بالذهب إلى جانب الفقير ذى الثياب الرثة والأطمار البالية وصاحب العمل مارا بخطوات سريعة أمام المتعبد الزاهد الذى يتمطى بلا اكتراث فى الطريق . فتأتى إليه النساء اللائى امتلأت رؤوسهن بالخرافات وباطل المعتقدات ليلمسنه ويربتنه للتبرك به اعتقادا منهن أن هذا الفعل سوف يذهب بأمراضهن، كما وصف أولئك الناس من الأمم العديدة والأديان المتخالفة والمذاهب والشيع المتباينة بالأوصاف الجثمانية والملابس الغريبة يتخلل هذه الجمع النساء اللائى يشبهن الطيف المبهم والسر الغامض، وقد تغطين بأرديتهن وأخفين ملامح وجوههن إلا ما

كان من عيونهن كى يهتدين بها إلى السبيل. دع ما هنالك من اختلاط الحمير بهذا الجمع الكثيف تشق زحامه بدافع من استفزاز السائق الشاب النشيط المتحمس إياها بالضرب تارة والوخز أخرى، إلى جوارها الجمل البطىء النهضة الذى يشعر ثقل مشيته بشىء من الوقار، وعلى مقربة منه جواد الثرى مطهما بأحسن ما تطهم به الدواب ومحلى بأجمل ما تحلى به من مظاهر الأبهة والجلال، إلى جانبه البغلة التى تحمل الشخص الفقيه البصير بعلوم الشريعة تسير الهوينى بخطوات منضبطة القياس لا تزيد على ما يريده الراكب ولا تنقص عنه، إلى جانب ذلك كله الحواة والمشعوذون يدخلون على المارة السرور والدهشة بغريب ألعابهم وحيلهم. والقصاصون متصدرين فى القهوات لرواية القصص والحوادث على مسامع المختلفين إليها من ذوى البطالة والمغرمين بالتدخين، وينضاف إلى هذه الغرائب ما يتركه فى النفس من أثر المنظر الخاص الذى تطبعه القاهرة فيها بشكل بيوتها ذات السطوح المنبسطة وشوارعها الملتوية تلوى الثعبان فى انسيابه وما لا حصر له من منارات المساجد. فإذا مثلت فى خاطرك هذه المناظر مجتمعة كان لك أن تتخيل صورة هذه المدينة وتعتقد أن لا مدينة سواها على وجه الأرض تشبهها فى طابعها العربى الخاص إلا ما كان من المدائن التى ورد وصفها فى حكايات ألف ليلة وليلة. أما بلدة بولاق فإلى الشمال من مدينة القاهرة يفصلها عنها سهل ضيق. موقعها على ضفة النيل، وهى تقوم للقاهرة فى علائقها التجارية مع الوجه البحرى مقام المرفأ ، وبها معامل لصنع الجوخ وغزل القطن ونسج الأقمشة ومسبك لصهر الحديد وورشة لبناء السفن النيلية ووكائل ومخازن ومستودعات كثيرة للتجارة ، وكذا قصر لإسماعيل باشا توجد به الآن مدرسة الهندسة.

يمصر العتيقة مستودعات للحبوب يعرفها العامة باسم شون يوسف وهى عبارة عن سبعة أفنية مربعة مبنية الأسوار بالآجر. وفى هذه الأفنية أكداس شاهقة من القمح والعدس والفول وغيرها من الحبوب.

٤١ ـ بنى سويف

بلدة بنى سويف واقعة فى ملتقى الخط ١٥ ٥٢ ٢٨ْ من الطول الشرقى بالخط ١٢ ٩ ٢٩ْ من العرض الشمالى وكانت تعرف قديما باسم

(بتـوليمائيدون) وسميـت باسمهـا الحالى الذى معنـاه بتفسير أهلها «بنـى السيوف» نسبـة إلى واقعة بـالسـلاح الأبيض كـانت هـذه المدينة ميـدانا لها. ويقرب عدد سكـانها الآن من ٦٠٠٠ نسمة، والحركة التجارية فيهـا أكثر ما تكون نشاطا فى مصر الوسطى. وفيها مصانع السجاجيد الصوفية والأغطية والملاء القطنية التـى اشتهرت بها قديما ، وفيهـا الآن مصنـع مهم لـلأقمشة القطنية ، وموقعها بالقرب من أحد مصـاب البحر اليوسفى الذى يرسل ماءه إلى بلاد الفيوم. وإلى موقعهـا هذا يرجع الفضل فى أهميتها التجـارية التى ما برحت محافظة عليها حتى الآن.

٤٢ ـ مدينة الفيوم

أكبر مدائن إقليـم الفيوم الخصيب التربة، ومـوقعها فى مدخله، وقـد بنيت بأنقاض مدينة (كروكوديلوبـوليس) القديمة أى مدينة التماسيح وعلى شطر من موضعها. و(كروكوديلوبوليس) هذه هى التى بدل بطليموس فيلادلفوس اسمها باسم مـدينة أرسينوه تكريما لأخته وتخليدا لذكـراها. ويبلغ محيطها الآن نحو الفرسـخ ويخترقها فرع من البحـر اليوسفى. وكان أمـراء المماليك يقصدونها فى الأيام السالفة للنزهة والتماس الراحة، وعدد سكانها ١٢٠٠٠ نسمة.

٤٣ ـ فيديمين

أجمل قرى إقليم الفيوم على وجه الإطلاق، وهى مؤلفة من مجموعتين من المسـاكن، يسكـن الأولى المسلمـون والثانيـة الأقبـاط ، وتحيط بها أشجـار الفاكهة التـى يكسب تكاثف أغصانها وتشـابكها هذه القريـة منظرا جميلا. وإذا جاءهـا السياح أطلعهم أهلها على شجـرة زيتون قديمة يـزعمون أنها أم أشجار الزيتون كافة فى القطـر المصرى، ويقدرون لهذا السبب عمرها بعشرة قرون. وهى تأتـى كل سنة بمحصول تحسب زنته بـأربعمائة كيلوجرام من الزيتون. وهو ماجعل سكان فيديمين يحترمونها ويحافظون عليها.

٤٤ ـ المنيا

واقعة فى ملتقى الخط ٣٥ ٢٨ ٢٨° من خطوط الطـول بالخـط ٢٠ ٢٨ ٢٨° من خطـوط العرض الشمالى ومـوقعها على الضفة الغـربية مـن النيل.

وهى حسنة المبانى منتظمة بعض الشوارع بها جملة مساجد متينة البناء دقيقة الهندسة ، وفيها فاوريقة لنسج الأقمشة القطنية.

٤٥ـ الأشمونين

بلدة عدد سكانها من ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ نسمة وهى على الضفة اليسرى من النيل.

٤٦ـ منفلوط

بلدة على الضفة اليسرى من النيل عدد سكانها ٥٠٠٠ نفس.

٤٧ـ أسيوط

مدينة واقعة فى ملتقى الخط ١٧ ٢٣ ٢٨° من خطوط الطول الشرقى والخط ١٤ ١٣ ٢٧° من خطوط العرض الشمالى، وتحسب عاصمة الوجه القبلى. والأراضى التى حولها خصبة وزراعتها ناضرة وحاصلاتها وافرة. وهى قائمة على أطلال مدينة (ليكوبوليس) القديمة على مسافة ربع فرسخ من ضفة النيل. وحصونها كان يعتصم المماليك بها كلما زحزحوا عن الوجه البحرى وطوردوا إليها . ولذا ما برحت حافظة لشىء مما كان لها فى عهدهم من رفعة الشأن فإن شوارعها أعرض من شوارع المدن الأخرى وأنظف، وأسواقها عديدة رائجة، وبها مسجدان جميلان وقصر لإبراهيم باشا أنشأه حينما كان حاكما للصعيد، وحمام عام ملحق بمسجد أنشأه بها محمد بك الدفتردار، ومعملان أحدهما للغزل والآخر للنسج، وهى محط رحال القوافل التى تفد من السودان والنوبة وعدد سكانها ٢٠٠٠٠ نفس.

٤٨ـ أخميم

بلدة صغيرة على الضفة اليمنى من النيل عدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس. ألف منهم يدينون بالنصرانية، وبها فاوريقة للقطن وهى قائمة على أطلال مدينة (بانوبوليس) القديمة.

٤٩ـ جرجا

واقعة فى ملتقى الخط ٥١ ٣٤٥ ٢٩° من خطوط الطول الشرقية بالخط ٣٠ ٢٢ ٢٦° من خطوط العرض الشمالية، وقائمة بالقرب من أطلال مدينة (بطوليمائيس) القديمة وعلى الضفة اليسرى للنيل. وهى أكبر مدن القطر المصرى بعد القاهرة والإسكندرية، كما أنها من مدن الصعيد التى اتخذها المماليك ملاذا لهم ومعقلا عند مسيس الحاجة. وكانت فى عهد سبق عاصمة

الصعيد كله، وترى بها المساجد الفخمة الجميلة والأسواق الكبيرة ، وفيها الآن معمل لغزل القطن وتعداد السكان بين ثمانية آلاف نسمة وعشرة آلاف منهم ٥٠٠ يدينون بالنصرانية وفيها دير للمبعوثين الكاثوليك.

٥٠ـ قنا

كائنة فى ملتقى الخط ٣٠ ٢٤ ٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٢٠ ١١ ٢٦ من خطوط العرض الشمالية وقائمة على أطلال مدينة (كينوبوليس) القديمة بالضفة الشرقية من النيل، وعدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس تقريبا وإليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير، فهى ممر القوافل الذاهبة من القطر المصرى إلى بلاد الحجاز أو التى ترد منها إليه عن طريق القصير. والظاهر أنها كانت تصل النيل بالبحر الأحمر فى العصور السالفة بترعة لم يبق منها الآن أقل أثر. وفمها كان حيث توجد مدينة قنا الآن. وقنا مشهورة فى جميع أنحاء القطر المصرى بصناعة الخرزات (القلل) المشهورة فيها بالقلل القناوى، وبها معمل لنسج الأقمشة القطنية. وتجاهها بلدة (دندرة) القائمة على أطلال مدينة (تنتيرس) القديمة المشهورة بهيكلها الجميل الذى لايزال حافظا لكيانه حتى الآن.

٥١ـ قوص

كانت تسمى قديما (أبولينوبوليس بارفا) وهى صغيرة بالضفة اليمنى من النيل وحركة التجارة فيها لا بأس بها.

٥٢ـ إسنا

كانت تسمى قديما بمدينة (لاتوبوليس) وهى على الضفة اليسرى للنيل وحركتها التجارية لابأس بها وإليها تقصد القوافل الواردة من دارفور وسنار وتتخذها محطة لها، وفيها أكبر وأشهر سوق للجمال ويكتنفها من الآثار القديمة والأطلال الفرعونية ماسأفيض الحديث فيه بالباب المخصص للكلام على الآثار المصرية.

٥٣ـ أسوان

مدينة واقعة فى ملتقى ٣٩ ٣٤ ٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٦ ٨ ٢٤ من خطوط العرض الشمالى. وهى آخر مُدن القطر المصرى من جهة

النوبة وقد أكسبها موقعها فى كل زمان أهمية لا تنكر. فقد كانت فى الأزمان القديمة (واسمها وقتئذ سيين) معقلا حصينا وموقعا منيعا. وعنى العرب بتحصينها فلما سقطت دولة الفاطميين دمرتها القبائل النوبية التى احتلتها وأخنت عليها، وعندما استولى السلطان سليم على مصر جددها على الضفة اليمنى من النيل بالقرب من الشلال الأول، وهى قائمة الآن على منحدر من الأرض تتخلله أشجار النخل. ومبانيها محاطة بالمزروعات فكان منظرها لذلك آخذا باللب، وسكانها الآن ٤٠٠٠ نفس تقريبا كلهم من العرب والبرابرة والأقباط وبعض الأتراك الموظفين.

وتجاه أسوان جزيرة الفنتين الصغيرة، وعلى مقربة من الشلال الأول جزيرة فيله المشهورة بهيكل (أنس الوجود) وهى مع قلة اتساعها، إذ يبلغ طولها ١٣٠٠ قدم، ينبوع للآثار الثمينة لا ينضب معينه وبها بعض أشجار النخل وقسم منها مزروع. يبقى علينا أن نتكلم إجمالا على مدينتين لاتحسبان من مصر بالنظر لكونهما خارج نطاق وادى النيل ولكنهما تابعتان له. نريد بهما ثغرى السويس والقصير الواقعين على سواحل البحر الأحمر.

٥٤ - ثغر السويس

واقع فى ملتقى الخط ٥ ١٥ ٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٦ ٥٩ ٢٩ من خطوط العرض الشمالى. كان له فى الأزمان السالفة شأن خطير بسبب نقل البضائع الهندية. وكانت تسمى فى بادىء الأمر مدينة (أرسينوة) ثم سميت بمدينة (كليوبترید وبوليس) ولمرفأها الآن علاقات متواصلة بالثغور التى على سواحل البحر الأحمر، ومكاسب أهلها من التجارة مع بلاد العرب. وفريق من الحجاج الذين يقصدون إلى الحجاز ينزلون منها فى السفن. وكان لخط السفن التجارية الآتية من الهند إليها والذاهبة منها إلى الهند تأثير فى المدينة، إذ جعل لها فى العهد الأخير شأنا كبيرا دعا بفريق من الإنجليز إلى التردد عليها لمباشرة أعمالهم التجارية. وبينها والقاهرة الآن طريق ممهد تجرى فيه عربات من طراز الدليجانس لنقل السياح منها إلى هذه العاصمة. وفى السويس قنصل لانجلترا وعدد سكانها ١٥٠٠ نفس، ومع انها قريبة من القاهرة فإنها تختلف عنها بالمرة من جهة شكل مبانيها ومن جهة أخلاق أهلها وعاداتهم، وهى بالنسبة إلى الهند كالطليعة بالنسبة إلى الجيش.

وسنـرجع إلى الكـلام على هذه المدينـة فى الفصل الـذى سنعقده للكـلام على المواصلات الكبرى المنوى تنفيذها بين النيل والبحر الأحمر.

٥٥ـ القصير

قلت فيما سبق إن الوادى الممتد بين قنا والقصير هو الطريق الذى يسلكه الراغبون فى الوصول إلى هـذا الثغر، وللقصير مرفأ صغير على البحر الأحمر وتجارة لا بأس بها مـع سكان سـواحله، وهـى محطة مـن محطات السفـن الانجليزيـة ، وبها قنصلان أحدهما لإنجلترا والآخـر لفرنسا. وعـدد سكانها ١٢٠٠ نسمة وتتبع إداريا مديرية قنا.

المسافات بين بعض مدن القطر المصرى(١)

من القاهرة إلى الإسكندرية	٤١,٦	فرسخا
من القاهرة إلى رشيد	٣٨,٣	فرسخا
من القاهرة إلى دمياط	٣٦	فرسخا
من القاهرة إلى الصالحية	٢٤	فرسخا
من القاهرة إلى بلبيس	١٠,٨	فرسخا
من القاهرة إلى السويس	٢٨	فرسخا
من القاهرة إلى بنى سويف	٢٢,٢	فرسخا
من القاهرة إلى المنيا	٤٩,٢	فرسخا
من القاهرة إلى أسيوط	٧٣	فرسخا
من القاهرة إلى جرجا	١٠٠	فرسخا
من القاهرة إلى قنا	١١٩,٥	فرسخا
من القاهرة إلى طيبة (الأقصر)	١٣٠,٩	فرسخا
من القاهرة إلى إسنا	١٤١,٣	فرسخا
من القاهرة إلى إدفو	١٥٢,٢	فرسخا
من القاهرة إلى أسوان	١٧٤	فرسخا
من الإسكندرية إلى رشيد	١٢,٨	فرسخا
من رشيد إلى دمياط	٢٨,٩	فرسخا

(١) المسافات من القاهرة إلى البلدان التى فى الصعيد مأخوذة بحسب مجرى النيل.

الباب الرابع

الديانات والمذاهب الشائعة فى القطر المصرى

(١)

الإسلام وقواعده

القرآن - الوحدانية ورسالة محمد (عليه الصلاة والسلام) - الملائكة - البعث ويوم القيامة - الجنة - جهنم - المطهر.

١ - الإسلام هو الديانة الشائعة فى مصر انتشرت بها فى القرن السابع للميلاد المسيحى عقب فتحها على يد عمرو بن العاص قائد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكان المصريون قبل هذا الفتح - أى فى عهد الدولة اليونانية الشرقية يدينون بالنصرانية لا يعرفون غيرها لهم عقيدة، ولكنها كانت مهيضة الجانب منحلة العرى بما غشيها من افتراق أهلها شيعا متعادية ومذاهب شتى كالتى مزقت أحشاءها منذ القرون الأولى للميلاد فى بلاد المشرق.

والظاهر أن ما ترتب على هذا الانقسام من النزاع والجدل فى الدين كان قد أضجر المصريين ونفرت منه نفوسهم فلما فشت بينهم الدعوة إلى الإسلام أقبلوا عليه وأجابوا داعيه وبدلوا من عقيدتهم به ولم يبدوا فى معارضته مقاومة مبنية على الجد وصدق العزيمة.

وليس فى الآراء المتداولة عن الإسلام ولا فيما يسند إليه ما يطابق الصواب ولذا أرى فرضا عَلَيَّ أن أورد بعض الشىء عنه على الوجه الصحيح. لا أقصد بذلك تمجيد عقيدة لا أدين بها ولست من الدعاة إليها، وإنما أرمى إلى التعريف بها فى غضون الإشارة إلى قواعدها وآدابها وعباداتها مراعيا الإيجاز الكلى. إذ ليس فى مقدور أحد أيا كان النطق بحكم صحيح على أمة مستمسكة بالدين كالأمة المصرية إذا كانت البيانات التى عنده فى أوكد أسباب حياتها

العامة والخاصة مشوبة بالأغاليط والأوهام.

٢- القرآن

يعتقد المسلمون أن هذا الكتاب أثر لوحى إلهى أنزله على رسوله. وهو مصوغ فى لغة عربية مبينة، ومفرغ فى قالب يرى الأئمة والعلماء أنه نهاية الإبداع فى حسن المبنى ودقة المعنى وأن الإنس والجن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم ظهيرا فالقرآن فى نظر المسلمين أجل الكتب. ولذا تراهم يتلونه أو يسمعون ترتيله خمس مرات فى كل يوم. وبعضهم يحفظه عن ظهر قلب ومن لم يكن حافظا له فهو ملم بكثير من آياته وسوره الأكثر ارتباطا بشئون الحياة واتصالا بأحوال المعاملات.

وفى القرآن مائة وعشرون سورة (الحقيقة ١١٤) [١] يعتقد المسلمون أنها أوحيت على محمد خلال الثلاث والعشرين سنة التى انقضت قبل صعوده إلى الرفيق الأعلى ـ أى منذ بعثه وهو فى الأربعين من عمره.

٣- الوحدانية ورسالة محمد

القواعد الأساسية للإسلام بسيطة تنحصر فى أمرين: الاعتقاد بالوحدانية معبرا عنها بشهادة أن «لا إله إلا الله» وبرسالة محمد معبرا عنها بشهادة أن «محمدا رسول الله» فعلى مبدأ الوحدانية جمع محمد كلمة شعوب العرب وقبائلهم بعد أن كانوا قبله عاكفين على عبادة صنف من الأصنام هو أغلط وأفظع ما يمر بالخاطر من أصنافها . فوضع بذلك أساس ديانتهم ووثق أركان ملتهم.

وفيما جهر محمد به من الدعوة إلى الإسلام أن الدين عند الله كان ولايزال واحدا هو الدين الذى بعث لتجديده بوحى على لسان جبريل الأمين. وأن هذا الدين كان كلما طرأ ما يحرفه عن أصوله أويغير من أوضاعه أنزل الله كتبا على أنبيائه فى أزمان متفاوته بحسب وقوع هذا التغيير. فأنزل التوراه على موسى والمزامير على داود وغيرهما من الكتب على غيرهما من الأنبياء ثم أنزل الإنجيل على عيسى، وهذه الكتب كلها حق وصدق والقرآن آخرها فالواجب

(١) الناشر: نؤكد أن عدد سور القرآن الكريم هى ١١٤ سورة

اتباعه إلى يوم يقوم الحساب وهو كلمة الله ونوره، وباق إلى الأبد وغير مخلوق من أحد، وهو فى اللوح المحفوظ لايدخل عليه تغيير ولا يتناوله نسخ.

٤ ـ الملائكة

من تعاليم الإسلام أن لله ملائكة وكل إلى بعضهم الإشراف على نبى الإسلام فهم رقباء عليه، وأن جبريل موكل بإنزال الغضب والسخط على المغضوب عليهم وعزرائيل يقبض الأرواح فى النفس الأخير واسرافيل بالنقر فى الناقور يوم البعث والنشور.

٥ ـ البعث ويوم الحساب

يعتقد المسلمون بالبعث. فقد جاء فى القرآن «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» وبحسب هذا الاعتقاد يجيء الحساب ثالثا، وقد ذكر القرآن أيضًا «ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ان الله على كل شيء قدير».

وجاء فيه أيضًا: «فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا إنه كان فى أهله مسرورا».

٦ ـ الجنة

فى العقيدة الإسلامية أن من يصدع بما يؤمر به ويعمل صالحا يجزى جنات النعيم. فقد جاء فى القرآن: «والسابقون السابقون أولئك المقربون، فى جنات النعيم ،ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون».

ولم تكن جنات المسلمين مقتصرة على الملاذ المادية كما تذهب إليه أوهام العامة، بل تتناول من صنوف السعادات الروحانية شهود الحضرة الإلهية، وهو اسمى هذه السعادات يفوز بها من رضى الله عنهم فأنعم عليهم بهذه النعمة العالية. وقد ورد فى القرآن: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ،الذين ينفقون فى السراء والضراء

والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين.. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين».

٧- جهنم

فى تلك العقيدة أن ليس لأثيم أن يعتمد على بذل الصدقات وإقام الصلوات ذريعة لمحو ما أتاه من السيئات. بل يعذب فى نار الجحيم عشرة أضعاف ما عذب غيره ظلما وعدوانا.

٨- المطهر

كثرت استعارات الإسلام من المسيحية إلى حد قيل معه إن الدين الإسلامى لم يكن فى الحقيقة إلا إحدى الشيع المنشقة عن النصرانية. ذلك لأنه نقل ماورد برمته فى الكتاب المقدس عن التكوين وهبوط آدم من الجنة، وأن هبوطه هو ليكفر عن خطيئته ويتوب عن ذنبه ليجزى فى الآخرة خيرا. فقد جاء فى القرآن: «إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم».

وبمقتضى العقيدة الإسلامية أن الله يغفر لمن يموت مؤمنا قبل الندم على خطيئته ولكن هذه المغفرة لا تحق له إلا إذا كفر عنها وتاب فى مكان يعانى فيه صنوف الآلام، وهو الأعراف الشبيه بالمطهر فى النصرانية.

(٢)
آداب الإسلام

الفضائل - الصلاح والتقوى - القضاء والقدر - صلة الرجل بالمرأة.

٩- الفضائل

يحض القرآن على التمسك بعرى الفضائل وترك النقائص والرذائل واجتناب الكبائر، فهو والمسيحية فى تعزيز الآداب سواء. وأكبر الفضائل التى تحلى بها الإسلام وحافظ عليها المسلمون الزكاة. فالمسلم الذى حسن

إسلامه وصدق إيمانه هو الذى يؤدى زكاة العشر عن ماله يدفعها لذوى العوز والحاجة. وفى القرآن نصوص صريحة على تحريم الربا وحث على نسيان الإهانة وتحبيذ الصراحة فى القول والتواضع والكرم والعفة والصبر...إلخ.

١٠ـ التقوى

التقوى فى نظر المسلمين رأس الفضائل وعمادها إذ أن الله لا يقبل الطيبات من الأعمال ما لم تكن مقترنة بها. فمن أحب أن تتوافر فيه صفات التقى والصلاح وجب عليه الاحتراز من ارتكاب الخطيئة بجارحة من جوارحه السبع تقية أن تصير لصاحبها أبوابا تفضى به إلى نار الجحيم. أما هذه الجوارح فهى الأذنان والعينان واللسان واليدان والبطن والعورة.

١ ـ لايجوز التسمع لعزف الآلات الموسيقية ولا إعارة الأذن لسماع القبيح من كذب ونميمة وفاحشة ولاسماع الغناء والتغنى بالقرآن أو الصلاة.

٢ ـ يجب تنحية النظر عن المحرمات، فلا يجوز لمؤمن أن يطلع من رجل على مابين سرته وركبتيه، ولا لإمرأة أن تطلع من نظيرتها على ما بين سرتها وركبتها.

كما لا ينبغى للمسلم أن ينظر على السرة والركبة، بل ولا الظهر والبطن من محارمه. أما غيرهن فيكون من الإثم إطلاعه على أكثر من وجوههن وكفوفهن وأقدامهن. سواء أكان إلى ذلك مسوقا بدافع شهوة أم بغيره أو كانت المرأة المنظورة مليحة أم قبيح. شابة أم عجوزا. وهذه القواعد لا تسرى على الزوجة الشرعية ولا على الأمة.

ومن الواجب الإمساك عن التطلع إلى ما داخل دار الغير بالتسمع من وراء الأبواب أو النظر من خلال الشقوق والثقوب كما لا يجوز النظر إلى المسلمين بعين الازدراء والاحتقار.

٣ ـ ينبغى صون اللسان عن الكذب والغيبة والوشاية ومدح النفس والمراء وخلف الوعد ونقض العهد.

واللعن خطأ كبير ينتزع من مرتكبه ثواب ما أسلفه من حسنات. وإذا كان

متزوجا فقد انحلت عقدة زواجه .

٤ ـ رفع اليد بالإيذاء على أحد أو مدها للاستيلاء على طعامه ولمس النجاسات بها من غير ضرورة، كلمس الميتة أفعال مخالفة لمقتضى الشريعة الإسلامية.

٥ ـ يجب اجتناب مواقع الشبه، والدخول بلا إذن على دار الغير والاعتداء بالأذى كالضرب على قريب واتلاف سجادته أو حصيرته أو أى شىء آخر من متعلقاته.

٦ ـ أما خطايا البطن وأوزارها فتتقى بالامتناع عن تناول المحرم من الطعام والبعد عن الشره إليه والإفراط فيه.

٧ ـ أما خطايا الفرج التى تعاقب عليها الشريعة الإسلامية عقابا أشد صرامة من عقاب الخطايا الأخرى فهى اللواط والمواقعة فى أثناء الطمث والوضع..إلخ.

١١ـ القضاء والقدر

عقيدة القضاء والقدر لا تنتزع من المرء ـ فى دائرة الآداب والأخلاق والفضل وعدمه ـ كل إرادته ولا تستلب منه حرية تصرفه. ولقد غالى المتصدون للبحث فى القضاء والقدر عند المسلمين فى المسند إليهما من التأثير فى المقدور للمسلم من السلوك الذى يسلكه والشعور الذى يستشعر به. نعم إن اعتقاده بالقضاء والقدر قد أودع فيه غريزة الاتكال والرضا بما يأتى به الدهر من المحن وينزل من النوازل الخاصة والعامة، ولكن لاصحة لما زعمه الزاعمون منهم من أن ذلك الاعتقاد قتل فيه الشعور فأصبح لا يميز بين الحق والباطل بين الحالى = المتجر من الحلى= والعاطل = لابس الحلى= .

ليس فى التسليم بالقضاء والقدر ما يكبل المسلمين بأغلال الجمود أو يلزمهم ملازمة الثبوت والاستقرار. فإنهم وإن تلقوا ضمن مبادىء دينهم ما يفيد أن الحذر من القدر إدعاء بالخلود مطالبون دينيا بالنهوض إلى إطفاء الحريق إذا شب فى دورهم، ومغادرتها إذا كانت آيلة إلى السقوط لحادث ما كالزلزلة وغيرها واللياذ بالفرار من الفيضان وإتخاذ كل ما يعن لهم من الوسائل التى يمليها العقل وتحكم بها غريزة حفظ الذات.

١٢ـ صلة الرجل بالمرأة

نظمت الآداب الإسلامية علاقة الرجل بالمرأة على قاعدة احكم وأطبق على العقل مما يتبادر إلى الذهن أول وهلة. حقا إن تعدد الزوجات فى الإسلام مباح أباحته فى جميع بلاد المشرق ولكنه مقيد بحدود صريحة. إذ جاء فى القرآن: «وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا». وقد أصلحت الشريعة حالة المرأة فى الشرق، إذ قضت بأن لايتم زواج إلا بصداق من المال يدفع الرجل آجله إلى زوجته فى حالة طلاقها. وفى المواريث قضت تلك الشريعة بأن ترث الأخت نصف حظ الأخ وأن تعتق الأمة لمجرد وضعها بعد الحمل من مالك رقبتها.

ويحرم الإسلام الزواج بالوثنيات ولكنه يبيحه باليهوديات والنصرانيات وفى القرآن آيات تقرر فضل الرجل على المرأة على أن يكون مظهر هذا الفضل الرفق بها والذود عنها ، ومن هذا القبيل قوله: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا».

(٣)
العبـــادات

الصلوات اليومية الخمس ـ التطهر ـ المساجد ـ النظار والأئمة والمشايخ والخطيب والمؤذنون والقيمون ـ رمضان ـ عيد الفطر وعيد الأضحى ـ الحج إلى بيت الله الحرام ـ الأولياء ـ المذاهب الأربعة ـ القيام بترويض الدين عند المسلمين ـ الأغذية المحرمة ـ الواجبات الدينية المفروضة على النساء ـ مخالفة الآداب الشرعية ـ وصية القرآن بالتسامح نحو المسيحيين.

١٣ـ الصلوات اليومية الخمس

الصلاة هى الركن الأساسى من أركان الفروض الدينية فى الإسلام، وكل

مسلم مسئـول عن إقامتها وأدائهـا خمس مرات فى كل يوم. ومـن المعتقدات المقررة فى الإسلام أن ملكا يهبط فى الفجر من السماء فيظل مقيما حتى الظهر فيسجل أسماء الذين قاموا بفرض الصـلاة. فإذا أقبل الظهر طوى كتابه ولم يدون فيه أسماء المتخلفين عن أدائه، ويالشقاء هـؤلاء، ويا لشدة ما سيلقون من عذاب. على أن فى يدهم محو هذه السيئة بالصلاة والصوم فى غير المواقيت المفروضة.

وبعد الظهر يهبط ملك ثان يظل مقيما على الأرض إلى أن يأزف أوان العصر (حوالى منتصف الساعة الرابعـة بعد الزوال) ليدون أسماء المصلين كما فعل الأول ثم يهبط ملك ثالث لأجل ما بين العصر والمغرب فرابع وهو الاخير لأجل ما بين المغرب والعشاء الأخيرة (أى بعد غروب الشمس بنحو الساعتين).

جاء فى القرآن: «وسبـح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبـل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى».

.. «ومن حيـث خرجت فـول وجهك شطـر المسجد الحرام وحيث مـاكنتم فولوا وجوهكم شطره».

١٤ـ التطهـر

التطهـر قسم مـن أهم أقسـام العقيدة الإسـلامية. فـإنه لا يجوز لمؤمـن بحسب الدين الإسلامى أن يباشر فرضـا ما من الفروض الدينية إلا إذا تطهر من كل الأدناس الجثمانية. والتطهر ثلاثة أنواع: الغسل والوضوء والاغتسال. فالأول ما يـراد به إزالة دنس مـادى فى الجسم أو الثوب أو المكان الـذى تقام الصلاة بـه. ولإتقاء هذا الدنـس يأمر المسلمـون عبيدهم بأن يحملـوا معهم سجـادة صغيرة ليطرحـوها على الأرض متـى آن وقت الصـلاة ثم يصلـون عليهـا. أما مـن لم تكـن عنـدهم سجـادة فيتخـذون منهـا بديـلا أرديتهـم أومعاطفهم.

أما الوضـوء فهو غسل الوجه والفم والأنف واليدين والذراعين إلى المرفقين والقدمين إلى الكعبين والمتـوضىء يقـرأ فى أثناء وضـوئه بعض مـا تيسر من القرآن أو الدعوات.

أما الاغتسال فيكون من الجنابة والحيض..إلخ.

ولا خلاف فى أن هذا التطهر على وجوهه المتقدمة من أوفق ما سنته الشريعة الإسلامية لمقتضى العقل والحكمة. لأنها تفرضه على المسلم بمناسبة إقباله على أداء فرض من فروض دينه، فتمهد له بذلك وسائل النظافة والوقاية الصحية التى لا جدال فى مزاياها ومنافعها بالبلاد كافة والشديدة الحرارة منها خاصة.

١٥- المساجد

يكثر المسلمون من الحفلات الدينية والأعياد ويحتفلون بها بما يستطيعون من مظاهر الجلال. ولهم عناية خاصة بتعهد المساجد. إذ تراها على الدوام فى الغاية القصوى من النظافة. وليس بداخلها شىء من آثار الزخرفة والتأنق فلا كراسى ولا مقاعد مستطيلة، وغاية ما هنالك أن أرضها تفرش صيفا بحصير السمار وشتاء بالسجاجيد يجلس عليها المصلون فى وضع تستروح منه رائحة التواضع والتقوى. وتراهم قبل غشيانهم المساجد يخلعون أحذيتهم ونعالهم ثم يجلسون خاشعين. أما المساجد الكبرى فقد يرى الناس فيها، مع جلوسهم على الوضع المذكور، يتبادلون الأحاديث وربما يأكلون أو ينامون أو يزاولون عملا ما بدون أن يفوتهم قط أثناء ذلك إظهار الاحترام العظيم لتلك المعاهد.

وقبل وصول الحملة الفرنسية واحتلالها الديار المصرية كان من بين المساجد الكبرى جملة لا يسمح للنصارى ولا لليهود المرور أمامها على صهوات خيلهم فأبطل بونابرت هذه العادة وجادل فيها العلماء فألزمهم الحجة إذ قال لهم: «إذا كان ما تقصدون إليه بذلك المنع طلبكم الاحترام والتوقير لمساجدكم فلماذا لا ترمون إلى مثل هذا الغرض بالنزول عن دوابكم؟ وهل مما يقبله العقل والعدل أن يطالب المرء أجنبيا بما لا يطالب نفسه به من علامات التوقير لدينه؟». وعلى أثر هذه المناقشة لزم المسلمون حد الاعتدال فى معاملة الأجانب من هذا الوجه بل بلغ من تسامحهم معهم أن أذنوا لهم بغشيان المساجد لزيارتها والتفرج عليها من غير خوف عليهم. وإنما يؤسفنى فى هذا المقام أن ألاحظ على بعض الزائرين تغافلهم عن الاحترام الواجب عليهم نحو تلك الأماكن.

والجدير بالنظر والاعتبار فى أمر المساجد ما ألحق بها من المعاهد المختلفة التى لاخـلاف فى فائدتها كالملاجــئ لإيواء الغرباء والمســافرين والكتـاتيب العامــة والمدارس التى ينشأ فيهـا الطلبة على التفقـه فى الدين فيتخـرج منهم المؤذنون للمساجد والقضاة والنواب..إلخ.

وعدد المســاجد كبير جـدا فى القطر المصرى. بـل هو أكبر ممــا يلزم لـه فى الحقيقة، وهو فى القاهرة وحدهـا يبلغ إلى الأربعمائة أهمها الأزهر الشريف[1] وكلها عتيقة البناء جميلـة النمط الهندسى. والذى يشيد منهـا الآن قليل جدا وليس فى شــئ ما مــن حسن الانماط الهندسيـة التى كانــت مرعيـة فى عهد الخلفاء المتقدمين.

١٦ـ النظار والأئمة

يقوم بــإدارة كل مسجد نــاظر بيده الإنفاق على شئـونه من ريــع الأملاك المرصودة عليه، وإليه يرجع تعيين خـدام المسجد من الإمام إلى صغار الخدم الموكلين بنظافته. والعادة أن يكون لكل مسجد إمــامان يأتم الناس بأحدهما فى الصلوات الخمــس متى حلت مواعيـدها الموقوتـة. وليس لرجال الـدين فى الإسلام طائفــة خاصة ولا فرقة ممتازة على غيرهــا فى الهيئة الاجتماعية. لأن صفتهم الـدينية لم تكـن لاصقة بهم على الدوام كما هــى عند القســاوسة فى المذهب الكاثوليكــى، وإنما هى وقتية إذا شاء الناظر انتـزعها منهم فيفقدون مع مراكزهم صفة الإمامة. ولهم حق التزوج لايمنعهم عنه مانع إذ لا رهبانية فى الإسـلام. ولما كــانت الأجـرة التى يتقــاضونها فى مقــابل قيــامهم بــوظيفة الإمامة زهيدة جدا وهى قــرش واحد فى اليوم فإنهم يضطرون فى الانفاق على عيــالهم إلى مــزاولــة مهنــة أو الاحتراف بحــرفــة، فترى منهــم العطــاريــن والماورديين ومعلمــى الكتاتيــب. أما الـذيـن لا يقدرون منهــم على ممارســة الحرف أو لم يكونوا قد تعلموا حرفة خــاصة فيرتلون القرآن فى البيوت مقابل مال يتقاضونه من أربابها فى آخر كل شهــر وهــم يكونون فى الغالب من فقراء الطلبة فى الأزهر الشريـف.

---

(١) يشبه الجامع الأزهر فى مصر جامعة السوربون فى فرنســا، والطلاب من أهل الشرق جميعا يفدون عليه لتلقى العلوم الدينية والشرعية. ومما يدرس به علم الفلسفة على مذهب أرسطو واللغة العربية والتاريخ. وبداخل الجامع أروقة لسكنى الطلاب. رواق منها لكل من الأكراد والفرس والنوبيين والأتـراك والهنود والمغاربة والحجازيين..إلخ وهم جميعا يتلقون العلم على نفقة الجامع.

ومن أئمة المساجد تتألف الطبقة الوسطى من رجال الدين. إذ فوق درجتهم توجد درجة العلماء المتفقهين فى الدين والقائمين بوظائفه ومناصبه، والشيوخ أو المشائخ ويقومون بخطبة يوم الجمعة والخطيب يقوم فيه بالصلوات الخمس التى يؤديها الإمام بقية أيام الأسبوع. والمؤذنون ويدعون المؤمنين إلى الصلاة من أعلى المآذن والقيمون وهم صغار الخدمة فى المسجد.

١٧ـ رمضان

صيام رمضان من فرائض الدين الإسلام المتداولة الذكر فى أوربا لشهرتها. ويلبث شهرا كاملا. والمفهوم أن ليس فيه شىء من المزايا الصحية المتوافرة فى الصوم على الطقسين المسيحى واليهودى. لأن شهر رمضان لا يقع فى فصل معين من فصول السنة، وانما يطوف بها جميعا على التدريج ويتم دورة طوافه فى كل ثلاث وثلاثين سنة مرة. ولم يكن شهر رمضان عند المسلمين خلافا لما اتجهت إليه الظنون فى أوربا ـ شهر رفه ونعيم وتفرغ للمنكرات. بل هو شهر حرمان من الشهوات فى الغاية القصوى من الشدة. فإن كل مسلم بلغ الرابعة عشرة من عمره مطالب برعايته. فقد جاء فى القرآن: «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون».. «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر».

ونصوص الدين فى الصوم محترمة الجانب. إذ يتبعها المسلمون بدقة وانتباه ليس بعدهما وصف لواصف. نعم لاتخلو الحال من وجود أناس يجرؤون على مخالفتها ولكنهم قليلو العدد جدا . فضلا عن تسترهم على أنفسهم فى ذلك. ولم يكن الإمساك فى الصوم قاصرا على حرمان النفس غذاءها طول النهار من كل شراب وطعام. بل يتناول استنشاق الأرواح العطرية والتدخين والنشوق. وهناك فريق من المتشددين يحرصون دائما على لفظ اللعاب محترزين من ابتلاعه.

أما الحوامل فلا يطلب منهن الصوم وكذا المرضى والمسافرون، ولكن

القليل من هؤلاء يميلون - وهم فى حالة مرضهم أو سفرهم إلى الاستفادة من هذه الإباحة. بل إن هناك كثيرين من الأتقياء والصالحين يتمادى بهم الحرص على رعاية فروض الدين حتى فيما تباح مخالفته لمثل تلك الأسباب فيضنون على أنفسهم بقطرة الماء يرطبون بها أفواههم فى أثناء سفرهم فى الصحراء. حيث يشتد القيظ ويقاومون بذلك الأوار الشديد. ولقد شهدت بنفسى مرضى كثيرين فى بحران الحمى يأبون تعاطى الدواء المخفف لدائهم مؤثرين الموت على مخالفة واجب الصوم.

١٨- عيد الفطر والأضحى

يتلو عيد الفطر شهر رمضان ومدته ثلاثة أيام يحل أثناءها الفرح الشديد والهناء محل شدائد الصوم وما تخلله من صنوف الحرمان، ويتبادل المسلمون التهانى العيدية ويعفون بعضهم عن بعض.

أما عيد الأضحى فيتلو عيد الفطر بنحو ٧٠ يوما ويلبث أربعة أيام والغرض منه إحياء ذكرى إبراهيم الخليل. وعيد الفطر والأضحى هما الوحيدان من أعياد السنة اللذان ينقطع الناس فيهما عن مزاولة الأعمال.

١٩- الحج

من قواعد الدين الإسلامى الحج إلى مكة والوقوف على جبل عرفات. وكل مسلم مطالب بأداء هذه الفريضة لايعفيه منها إلا الفقر والمرض، وفى مذهب أبى حنيفة أن فى استطاعة القادر على الحج إذا لم يشأ أداء هذه الفريضة بنفسه أن ينيب عنه فى أدائها غيره - على شرط قيامه بنفقته كلها ولكن سواد المسلمين يغفلون القيام بشعائر هذا الفرض والحجاج الذين ينالون لقب الحاج بعد أداء فريضة الحج بزيارة مكة والوقوف على جبل عرفات يقصدون إلى الحجاز إما من طريق دمشق واما من طريق القاهرة، والعادة أن يجتمع مسلمو أفريقية وأتراك ألبانيا والروملى الذاهبون إلى الحجاز فى القاهرة ثم يقصدون منها إليه. أما الفرس وأتراك آسيا الصغرى فيجتمعون فى دمشق ومنها يوالون السير إلى الحجاز، وجرت العادة أن يطابق تحرك القوافل من القاهرة للحج فى السابع والعشرين من شوال، وقبل هذا التاريخ بأيام يحتفل بالمحمل، وهو صندوق مربع من الخشب توضع فيه نسختان من القرآن يرسل مثلهما إلى مكة فى كل عام.

وهذا المحمل مـع ما يتبعه من عفـش أمير الحج والصندوق المحتوى على صرة المال المرسل من قبل السلطان إلى الحرم النبوى وكذلك الكسوة الشريفة لستر الكعبة ـ وتشغـل فى القاهرة من الحرير الأسود ـــ فيطاف بها فى حفلة حافلة وموكب جليل بالسهل المعروف بالحصوة بحرى القاهرة ثم تتجه منه إلى بـركة الحاج التـى هى آخـر مرحلـة لاجتماع الحجاج بـرسم السفـر إلى الحجاز.

وينقســم هؤلاء الحجـاج إلى ثلاث قـوافل تتبـع إحداهما طـريق البر مـن الصحـراء وتسرى عادة فى الليـل فلا تقـف إلا الصبـح بعد شروق الشمـس بساعتين وتقضـى النهار فى مكانها . فإذا مـا أقبل الليل تحركـت للمسير من جديد فى الساعة الثانية بعد الغروب ويظل السفر برا مدة أربعين يوما تقريبا. أما الذين يخشون أخطار هذا السفر ومشـاقه فيسافرون إلى جدة عن طريق البحر الأحمر، بالنزول فى السفن المسافرة إليها من السويس أو القصير.

والمقرر أن يجتمع الحجاج فى مكة خـلال الأيام الأولى من شهر ذى الحجة فيزورون الحرم المكى الـذى فيه الكعبة. والكعبة بناء صغير يبلـغ طوله ٥٦ قدما فى عـرض ٤٨ وارتفاعه ٨٠. والمأخوذ من الروايـات العربية المصدر أن إبراهيم قام بالتضحية فداء لابنه إسماعيل فى جبل عرفات الواقع على مسافة ستة فـراسخ من مكة. وأن الحج لاتتـم شعائره إلا إذا صعد الحجـاج فى هذا الجبل إلى قمته وحضروا فى ليلة التاسـع من ذى الحجة الصلاة التى تقام بها، وفى اليوم التالى يقصدون إلى سهل منى ليختموا تلك الشعائر بتضحية الماعز والنياق..الخ ويقـدرون عدد الحيوانات ذات القرن التى تنحـر بهذه المناسبة من ثلاثين ألف رأس إلى أربعين ألفا.

وميعاد عـودة ركب الحج من مكة إلى القـاهرة فى أوائل شـهر صفـر التالى وتسمى هذه العودة بنزلة الحج. والعادة أن يجتمع أهل الحجاج وأصدقاؤهم ومعارفهم للقائهم بمظاهر الفرح والسرور غالبا وبعلامات الحزن أحيانا إذا علموا أن الذين جاءوا للتمتع برؤيتهم قـد لقوا حتفهم أثناء الطريق بسبب ما عانوه فيـه من أنواع المشاق وصنـوف الحرمان. أما الحجاج الـذين يصلون سالمين فيحـاطون بالرعـاية والاحترام ويرمقون بعين الإعجـاب. لأن الناس يعتبرونهم كأنهم طبعوا بطابع البركة والقـداسة، ولهذا يتوسلون بهم إلى الله

فى إجابة دعائهم وتحقيق متمناهم.

٢٠ـ الأولياء

الأولياء فى مصر كثيرون ولهم فى نفوس الأهلين منزلة رفيعة. إذ تراهم يجلونهم ويتبركون بهم فى حياتهم فإذا ماتوا أقاموا لهم الأضرحة وبنوا فوقها البنايات الحسنة. وليس لتقديس الأولياء وحسبانهم كذلك صيغ مخصوصة وإجراءات معينة كما هو عندنا .فإن الرأى العام هو المحكمة التى تقرر ولاية الولى بما يحدث فى نفسها من الأثر الناشىء عن استحسان فعاله واعتبارها متفقة مع ما ينبغى من الورع والتقوى ليكون وليا جديرا بالتكريم حقيقة. وغالبا ما يكون ذلك الرأى مخطئا فى حكمه فيصبح من لم يكن أهلا للولاية وليا ترمقه عين التجلة والاعتبار من جميع الأمصار. أما العلماء فلا يذهبون مذهب العامة فى ذلك بل لا يعتبرون وليا ما تقر هذه ولايته.

وليس المعتوهون والذين ألفوا العادات المستغربة وظهروا بالأحوال الشاذة التى تشبه الجنون بأولياء كما تتجه إليه ظنون البعض. حقا إن فى الدين الإسلامى ما يقضى برعاية جانبهم ولكنه لا يقيم لهم ولاية ولا يجعل لهم صفة تؤهلهم للتبجيل تبجيلا دينيا فإذا شوهد هنالك ما يخالف هذا المبدأ فهو مناقض للواجب ومضاد للقواعد الشرعية على الخط المستقيم.

٢١ـ المذاهب الأربعة

المذاهب التى يتمسك المسلمون بها فى عباداتهم أربعة: مذهب أبى حنيفة ومذهب الشافعى ومذهب مالك ومذهب الحنبلى، وأكثر هذه المذاهب شيوعا فى مصر المذهب الأول، وهو كذلك فى بقية أنحاء الدولة العثمانية.

٢٢ـ أداء فروض الدين عند المسلمين

الأمر الذى يدهشك من المسلم ثبات عقيدته ورسوخ إيمانه فى نفسه رسوخا لايتناوله شك أو تزعزعه قوة بالغة من الشدة مابلغت. فلعقيدته فى نظره من سمو الرفعة وجلال القدر ما يلقيه فى الدهشة والاستغراب من مخلوقات الأرض كيف لا يدينون بالإسلام؟ وقد جرت عادة المسلمين على تسميتهم إيانا بغير المؤمنين لأنهم يرون منا الإحجام عن أداء فروض الدين كما أنهم يسموننا بالكفار لأنهم لا يشاهدوننا مقبلين على الصلاة. وترى

المسلمين مستوفزين دائما للوثبة على من يهاجم دينهم بطعن أو انتقاد وعندهم كل مكان صالح لأداء فرض الصلاة. فالطريق العام وحقل الزراعة، والبيت الخاص بالسكنى سواء فى ذلك. وهم يصلون جماعة أو فرادى ولو فى وسط يختلطون فيه بالأجانب لا يلويهم عن ذلك مانع أو اعتبار ما.

وقد ذهب الناس فى أوربا إلى القول بأن المسلمين أخذت تنبث فيهم الميول الجانحة إلى ما يخالف الإيمان والعقيدة. أخذوا ذلك على سبيل الاستنتاج من مشاهدتهم بعض المسلمين لايراعون نواهى القرآن فيما يتعلق بتعاطى الخمور. إذ هم يتعاطونها جهارا نهارا. ومفهوم أن هذه النواهى أكثر ما يكون ملاءمة لصحة الناس من أهل المناطق الحارة كبلاد العرب وأفريقية التى إذا وجدت بها الخمور فانما تكون مما ورد إليها من البلاد الأجنبية لا مما صنع فيها.

٢٣ـ الأغذية المحرمة

من فضائل الديانة المحمدية وآثارها الحسنة فى النظام الاجتماعى عنايتها المتواصلة بتقرير جملة طيبة من الاحتياطات الصحية الجزيلة الفائدة. وهذه العناية وإن استوجبت أحيانا رعاية بعض التفاصيل الدقيقة واستدعت شيئا من العسف فى تحتيم ما جاءت به من النواهى لايسعنا إلا الحكم بصوابها من حيث المبدأ. وبما أنها تناولت المشروبات الخمرية فقضت عليها بذلك القضاء المبرم واعتبرت وسائل النظافة الخارجية للجسم من الواجبات الدينية التى يتحتم القيام بها كان لابد أن تتناول المطعومات أيضا. وفى الواقع فقد قررت فى هذا الشأن الخطير أصولا وقواعد لاخلاف فى صلوحها وفائدتها منها اعتبارها من مواد الغذاء النجسة التى يتحتم الإمساك عن تناولها، واليهود يشاركون المسلمين فى هذا الاعتبار، لحوم الخنزير والحصان والبغل والحمار والسلحفاة والفيل والضوارى على أنواعها والجوارح والأفاعى، ومما حرم تعاطيه غذاء لبن الفرس والحمارة ، وعلى كل حال فليس من الجائز استنفاد شيء بالأكل من أحشاء تلك الحيوانات وأعضاء تناسلها فإنها محرمة قطعا ومما شدد الدين الإسلامى فى تحريمه الدم. وهذا التحريم هو علة ذبح الحيوانات ـ أعنى قطع رؤوسها وما يرتبط بهذه الرؤوس من العروق تسهيلا لخروج دمها حتى إذا أكلت لاتكون محتوية أثرا ما من الدم. ويأكل

المسلمون بلا مانع دينى لحوم الصيد، ولكنهم لايقبلون كثيرا على لحوم الطير المصيدة لتعذر استنزاف دمها كله.

٢٤ ـ واجبات الدين للنساء

النساء المسلمات غير مطالبات بكل ما يطالب الرجل به من فروض الدين، فإنهن نادرا ما يذهبن إلى المساجد لأداء فرض الصلاة. ومع هذا فلم يرد فى الشريعة الإسلامية نص يمنعهن من الذهاب إليها للقيام به ولم يحرمه عليهن، ولكنها آثرت أداءهن إياه فى بيوتهن. ولما كان المسلمون يذهبون إلى اعتبار وجود النساء فى المساجد صارفا للخواطر عما يلائم صفة الطهارة والقداسة اللاصقة بالمعابد فقد حرموا على النساء بالفعل ما أباحه الشرع لهن فى المبدأ من الصلاة فى المساجد (١).

٢٥ ـ القرآن والتسامح نحو النصارى

اشتهر المسلمون فى أوربا بكراهتهم للمسيحيين وحقدهم عليهم فإذا كان سبب هذه الشهرة ارتكابهم فى أيام الحروب ضروب الفظاعة فى حق المغلوبين(٢) فمما ينبغى الجهر به أن مسئولية كراهتهم لا تقع على مبادىء الدين الإسلامى، كلا فقد دعا القرآن فى أكثر من موضع بالتسامح نحوهم كما تدل عليه السور الآتية:

«ومريم ابنة عمران التى أحصنت، فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين».

«وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب».

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم».

ومما ينبغى الجهر به فى هذا المقام أن تعصب العامة من الشعب كثيرا ما حال دون ظهور أى أثر لما كان يخالج الحكام من النيات الحسنة نحو المتمسكين بالديانات الأخرى غير الإسلام. ولكننا لا يسعنا إلا الجهر قبل انتهاء هذا الفصل بأن العرب الأصليين أكثر تسامحا نحو الذميين من

(١) الناشر: ليس صحيحا ما ذكره المؤلف من تحريم الإسلام لارتياد النساء للمساجد.
(٢) الناشر: هذه رؤية غير موضوعية للمؤلف فيما يتعلق بنظرة المسلمين للمسيحيين فى أوربا.

الشعوب الإسلامية الأخرى وأن المصريين يفوقونهم فى التسامح. إما لما جبلوا عليه من الرقة ودماثة الأخلاق، وإما لما سبق لهم من الارتباط بالأوربيين.

(٤)
الديانات الأخرى والمذاهب المختلفة

اليهود ـ الأقباط اليعاقبة ـ الأقباط الكاثوليك ـ اليونان المنشقون ـ اليونان الكاثوليك ـ الأرمن ـ الكاثوليك اللاطينيون ـ العداوات بين المذاهب المسيحية.

٢٦ ـ الديانات أو المذاهب الدينية الشائعة فى مصر بعد الإسلام هى الديانات والمذاهب التى يتمسك بها اليهود والأقباط والأرمن واليونان المنشقون والأقباط والأرمن واليونان الأرثوذكس والكاثوليك من المذهب اللاطينى. ويبلغ عدد المنتمين إلى هذه المذاهب المختلفة ٣٠٠٠٠٠ نفس.

٢٧ ـ اليهود

فى القطر المصرى نحو ٧٠٠٠ يهودى يقطن سوادهم الأعظم حيا خاصا بهم منهم ١٢٠٠ من القريين = القرائين = والباقون من الربانيين. ورجع إلى محمد على باشا الفضل فى استنقاذ اليهود مما كانوا يلقونه قبله من التصدى بالإهانة والاضطهاد. فقد منحهم حمايته وعضده كما منحهما غيرهم من أرباب المذاهب الأخرى. ولهم فى مصر ثمانى بيعات أى هياكل للعبادة.

٢٨ ـ الأقباط اليعاقبة

الأقباط المنشقون هم الشيعة الأكثر عددا والأعز فى مصر نفرا . إذ يعدون ١٥٠٠٠٠ نسمة تقريبا لهم ١٣٠ كنيسة وديرا فى أرجاء القطر ورئيسهم الدينى هو البطريك الذى يتولى كرسى البطريركية معينا من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وإليه يرجع الاختصاص بتعيين النظار المكلفين بإدارة الأديرة والكنائس. والمفهوم أن المذهب القبطى مقتصر على مصر لايوجد فى غيرها، ومن طقوسه الاعتراف والتناول الربانى بنوعيه. ولابد من التطهر

بالاغتسال قبل الجلوس إلى المائدة المقدسة ،وهم يختتنون كاليهود ومذهبهم مستمد من بدعة (أوتيكيس) المبتدع اليونانى من أهل القرن الخامس. والأقباط يذهب بعضهم مذهب الطبيعة الواحدة والبعض الآخر مذهب الإرادة الواحدة مع الطبيعتين.

٢٩ ـ الأقباط الكاثوليك

بالقطر المصرى ٥٠٠٠ قبطى على المذهب الكاثوليكى. ولم تدخل الكثلكة بين أقباط مصر إلا منذ عهد قريب. ولهم أسقف خاص بهم، وقساوستهم أسمى إدراكا وأوسع علما من القساوس اليعاقبة. والظاهر أن مذهب الكثلكة أثر فيهم فجعل لهم التفوق بالعلوم والمعارف على سائر المتمسكين بالمذاهب القبطية الأخرى.

٣٠ ـ اليونان المنشقون

اليونان المنشقون بالقطر المصرى ٣٥٠٠ يونانى ينقسمون إلى فرقتين الفرقة الأولى تتألف من اليونان المتناسلين فى القطر المصرى نفسه وهم السواد الأعظم، والفرقة الثانية من اليونان الذين وفدوا على هذا القطر بعامل حب الكسب من التجارة. والمفهوم أن يونان الفريق الأول منتشرون بالوجه البحرى وهم سلالة الجاليات القديمة، وانهم إذا تمذهبوا بالمذهب الانشقاقى فما ذلك إلا لاتصالهم بالقسطنطينية عاصمتهم السياسية القديمة وشأنهم كشأن الاجانب فى تبعيتهم من الوجهة الروحية إلى البطريك المعين من اسلامبول. ولهم بالقاهرة ثلاث كنائس وهى دير مار جرجس ودير القديسة كاترينة وكنيسة مارنيقولا.

٣١ ـ اليونان الكاثوليك

اليونان من المذهب الكاثوليكى يبلغ عددهم ٣٥٠٠ تقريبًا . سوادهم الأعظم من السوريين وهم تابعون منذ بضع سنوات إلى أحد البطاركة فى أحوالهم الشخصية.

٣٢ ـ الأرمن

يعد الأرمن فى مصر ٢٠٠٠ نفس تقريبا . أغلبهم تابع للمذهب المنشق ولهم قساوستهم وبطاركتهم وكنائسهم. ولفريق من الأرمن الكاثوليك هيكل

خاص لإقامة شعائرهم الدينية.

٣٣ ـ الكاثوليك اللاطين

الكاثوليك المتمسكون بالمذهب اللاطيني هم الجاليات الأوربية ويقيم شعائر هذا المذهب فى الكنائس اللاطينية آباء الأرض المقدسة ومتدينو القديس فرانسوا.

ولمبعوثى المذهب الكاثوليكى كنائس فى القطر المصرى، وقد عين قداسة البابا أخيرا أسقفا لهم فيه.

والمعاهد الدينية الكاثوليكية وضعت منذ زمن بعيد تحت حماية فرنسا، ومعلوم أن الملك فرنسوا الأول والملك لويس الرابع عشر شملا هذه المعاهد بوصايتهما ورعايتهما بأوامر أصدراها فى هذا الصدد.

٣٤ ـ العداوات بين المذاهب المسيحية

تشمل حكومة محمد على بحمايتها جميع الأديان والمذاهب على حد سواء بصرف النظر عما هو مستحكم بين بعضها البعض من أسباب العداوة والنفور. وليس فى هذه المساواة ما يبعث على الدهشة. فإن المسلمين يعتبرون تلك الأديان والمذاهب كلها مخالفة للإسلام، وبالتالى غير مؤمنة وبين العقائد الدينية المختلفة التى يدين بها غير المسلمين من المصريين تنافر غريزى وتحاسد وتباغض وتخاصم أفضى بها إلى الخلاف المستمر والتنابذ. ولكن هذه المقابح زالت الآن وصار لا أثر لها. لأن «محمد على» بما عرف به من النزاهة والبعد عن المحاباة لايؤثر أهل مذهب على أهل مذهب آخر ولا يناصره ضده وإذا كان هناك ضرر يلحق بتلك الأحزاب الدينية فإنما هو الضرر الناشىء من حملهم المسلمين بتلك الأفعال القبيحة على احتقار المسيحية والنيل من كرامتها. وكان هذا الضرر قبل أن يتسلم محمد على أزمة البلاد متفاقما . فقد كانت تلك المذاهب لانتقاضها على بعضها واستنفار الفساد بينها تتسابق فى شراء حماية الحكومة بأموال تنقدها إياها فلا يفوز بهذه الحماية منها ليغنم الامتيازات إلا من بلغ الحد الأقصى من المزايدة فى سوق الدلالة. وكان الإنسان لا يبعد أن يرى عندئذ أرباب الفتن والدسائس من المشايعين للمذاهب وقد توصلوا بقوة المال إلى تحقيق ميولهم الشريرة من

الفتك بأرواح خصومهم أو هدم كنيستهم أو استنزال السخط والاضطهاد عليهم وليس بعازب = ببعيد = على فكر أحد أن العداوات من هذا النوع إذا أطلق لها العنان كان من أخص نتائجها تزجية = سَوْق = فكرة محزنة إلى أذهان المسلمين عن فضائل الديانة المسيحية وآدابها[1].

(١) الناشر: اخالف رأى المؤلف.

الباب الخامس

الشريعة الإسلامية وإدارة العدل فى مصر

(١)

الشرائع والقوانين المدنية

الشريعة الإسلامية ــ البلوغ ـ الزواج والطلاق ـ الحقوق الأبوية ـ الأوصياء ـ المدينون والمفلسون ـ الحجر ـ التسليف على رهن ـ المحبة ـ الميراث.

١ـ الشريعة الإسلامية

ينبوع الشريعة عند المسلمين كما هو فى المدنيات الشرقية الدين وقوانينهم فى الشئون المدنية، والعقوبات مستمدة من القرآن، وحيث إن هذا الكتاب لم يقرر الأحكام بالتفصيل فى وجوه المنازعات فالقضاة يعتمدون فى تقريرها على الاسترشاد بما يأتى:

أولاً: السنة، وهى ما نسب إلى النبى قولا أو فعلا أو تقريرًا ـ أى ماحدث أمامه من قول أو فعل فأقره بالقول أو السكوت.

ثانيًا: الإجماع – أى أجماع الصحابة الذين توفى النبى وهو راض عنهم أو بعبارة أخرى هو المتفق عليه بالتواتر فى خلال الثلاثة قرون الأولى للإسلام ، ويرجعون فى العمل به إلى قول النبى «خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

ثالثا: القياس، وهو ما قررته العادة وجرى عليه الاصطلاح.

رابعًا: الاستقراء.

٢ـ سن الرشد

قررت الشريعة الإسلامية أن يكون بلوغ الرشد للذكر والانثى ميعاد بلوغهما الحلم ـ أى الثانية عشرة للذكور والتاسعة للإناث، هذا إذا جهرا بأنهما فى هاتين السنين قد بلغا الحلم. وأقسما على ذلك. فإذا لم يجهرا ولم يحلفا فإن سن الرشد لهما تكون ببلوغهما تمام الخامسة عشرة، وفى هذه الحالة يجوز للذكر الحر حق التصرف فى شئونه. فإذا مات أبوه فإن وصيه يتولى إدارتها إلى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، وإذا أمسك الرجل بزمام ماله فتصرفه فيه طبقا للقانون يعتبر صحيحا لا غبار عليه.

٣ـ الزواج والطلاق

رأينا فيما تقدم أن الشريعة الإسلامية حددت بأربع عدد الزوجات الشرعيات التى للمسلم أن يتزوج بهن ويتم الزواج شرعا بإيجاب وقبول فى حضرة الشهود وبدفع صداق للزوجة إما معجلا كله وإما معجلا بعضه ومؤجلا البعض الآخر ، والخيار فى الطلاق يرجع فى الأصل إلى إرادة الزوج. ولذا ترى العرب يسيئون استعمال هذه الحرية ويعبثون بها إلى حد أن بعضهم ربما تزوج وطلق خمسين مرة. أما الأتراك فالطلاق بينهم نادر جدا. وعلى كل حال فللزوج المطلق أن يرجع إليه زوجته فى الطلقتين الأوليين فإذا طلق ثالثة فلا تحل له إلا بعقد ومهر جديدين بعد طلاقها من الزوج المحلل.

٤ـ حقوق الأب

وللوالد الخيار فى تزويج أبنائه القاصرين لمن يشاء وعلى أى وجه يشاء بدون أن يكون لهم حق ما فى الاعتراض على سلطته. أما الأبناء البالغون فلا يمكن تزويجهم بغير رضاهم. وهذه القاعدة مستمدة من الاقتداء بمحمد فانه استشار ابنته فاطمة قبل أن يزوجها بعلى. وللوالد الحق فى إدارة أموال أبنائه القاصرين بدون أن تلحقه مسئولية فيما لو أدركها ضرر كالذى يحتمل وقوعه إذا رهنها تأمينا لدين عليه أو أنفقها فى احتياجاته الصحيحة.

٥ـ الأوصياء

للوصى من الحقوق على القاصر ما للوالد بالسواء ما عدا الحقين الأخيرين اللذين تقدم ذكرهما. وأقرب الأهل إلى والد اليتيم أحق الناس بالوصاية عليه،

فإذا لم يكن لهذا اليتيم ولى تؤول الولاية إلى قاضى الجهة التى يقيم فيها.

٦ـ المدينون والمفلسون

تبيح الشريعة الإسلامية حبس المدين حتى يعلن عجزه عن السداد. أما المفلس فيقع تحت طائلة الحجر الصحيح، ولا يجوز له التعامل مدنيا أو القيام بعمل ما يختص بأمواله إلا بتصريح من القاضى.

٧ـ الحجر

الذين يحجر عليهم هم: القصر والشيوخ المعتوهون والمجانين والأرقاء والمسرفون والمفلسون. ومع هذا فإنهم يعاقبون بالعقوبات المبينة فى الشريعة إذا ارتكبوا ما يجعلهم أهلا لها.

ولصاحب المال أيا كان حق التصرف فى ماله بالتنازل عنه لمن أراد على شرط أن لا يكون محجورا عليه.

٨ـ التسليف على رهن

وإذا سلف مالا فى مقابل رهن فإن النفقات التى تستلزمها صيانة الشىء المرهون تكون على ذمته، ويكسب دينه صفة الامتياز فى حالة وفاة المدين أو إفلاسه.

٩ـ الهبة

ولصاحب المال بمقتضى ماله من حقوق الملكية أن يهب فى حياته ما شاء من ماله إلى من يريد كائنا من كان. ولكن يبقى بيده الحق فى استرداد الهبة كلها أو بعضها، والشريعة تجيز له ذلك وإن تكن من جهة أخرى تستقبحه. ومع هذا فإن الهبة لا تتم فعلا إذا مات الواهب والموهوب إليه، أو كانت بينهما قرابة، أو كان الموهوب إليه لم يتسلم الهبة.

١٠ـ الوراثة

فى مصر كما فى بلاد الدولة العثمانية يرث الأبناء بالتساوى بما يتركه والدهم من الأموال فليس فيها ذلك الحق الذى يقضى بأن تكون الوراثة للأكبر فالأكبر من الأبناء. كما لا فارق ولا تمييز بين أبناء الزوجات الشرعيات وأبناء السرارى والجوارى، أما الأنثى فترث من مال الأبوين ما

يعدل نصف حظ الذكر. وإذا تـوفى المورث عن بنات فقط فبمقتضى الشريعة ترثن ثلثى التركـة سواء كن اثنتين أو أكثر عددا. أما إذا مـات المورث عن ابنة واحـدة فلها بمقتضـى الكتاب الحق فى نصـف ما تـرك والدهـا وفى الحالتين المتقدمتين يعود الثلث أو النصف الباقيان إلى البنات الوارثات أو الابنة الوارثة بعد التأكد من عدم وجود أقارب للمـورث توزع تلك الحصص الباقية عليهم. وإذا مات المورث عن والده ووالدته فإن سدس تركته يؤول إليهما فى حالة ما إذا كان لـه أبناء. أمـا إذا لم يعقب فيرث الاب ثلثى مـا ترك الابـن والأم الثلث الباقـى. فإذا كـان للمورث أخـوة فلا يصيـب الأم سوى السـدس مما تـرك ويؤول إليهم السدس الآخر . وليس للرجل أن يتصرف على سبيل الوصية فى أكثر من ثلث مـاله ، والواجب بعد وفاتـه سداد ديونه وما وصى بـه قبل كل شىء آخر

(٢)
الجنايـات والعقوبـات

سب الدين ـ القتل ـ الضرب والجرح ـ الزنا ـ السرقة ـ الردة.

١١ ـ سب الدين

فى الشريعة الإسلاميـة يقام الحد على من يسب الـدين بالقتل ويقـام هذا الحد أيضًا على قاطع الطريق..إلخ.

١٢ ـ القتل

عقوبة القتل القصاص ويملك تخفيفها ورثة القتيل باقتضائهم من القاتل مالاً يـدفعه فى مقابـل ما اجترمه وهـو دية الـدم. وحوادث القتل تكـاد تكون معدومة فى القطر المصرى.

١٣ ـ الضرب والجرح

تعـاقـب جنـايـة الضرب والجرح بـالقصـاص. العين بـالعين والسـن بالسن..إلخ.

١٤ ـ الزنـــا

يقام الحد على الزانى غير المتزوج بالجلد وعلى المحصن بالرجم.

١٥ ـ السـرقة

يعـاقب السـارق بقطع اليـد، ولكن ورد فى السنـة تطبيق هـذا الحد على السارق الـذى يسرق فى ظروف توجب التشـديد فى عقوبته وشهـود الزور فى الدعاوى المدنيـة يشهر بهم بين أهل وطنهم حتى يلحق بهم عـار زورهم. أما شهـود الزور فى الجنـايـات فيستوجبـون على أنفسهم عقـوبـة الجلد وقـد يعاقبون بنفس العقوبة التى تترتـب على شهادتهم لو نطق بها فى حق المتهم. وحد شـارب الخمر الجلـد وهذه العقـوبة وإن تكن مـرعية قـانونـا فى القطر المصرى لا يتأتى تطبيقها إلا فى النادر لندرة من يعاقرون بنت الدنان فى القطر المصرى.

١٦ ـ الردة

الارتداد عـن الديانـة الإسلامية جنـاية ليـس بعدها جنـاية ولذا يعـاقب مرتكبها بالقتل ما لم يحلف المرتد ثلاثا بأنه عاد إلى حظيرة دينه.

(٣)
نظـام القضـاء

القضاة ــ المحكمة ــ تنفيذ الأحكام ــ العقود العامة ـ المصـاريف القضـائية ــ القـانـون العسكرى ــ السلطـة الاستبـدادية التـى بيـد الباشوات ـ العقوبات ـ القضاء عند الافرنج.

١٧ ـ القضـاة

السلطة القضـائية مستمدة فى مصر من ولى الأمـر وحده. فهو الذى يرجع إليه اختيار كبـار القضاة وتعيينهم، وهؤلاء يبـاشرون تعيين من دونهم ممن يتولون مناصب القضـاء فى أرجاء القطر. وبناء على هذه القاعدة فإن السلطان الـذى هو ولى الأمـر يرسـل إلى مصر فى كل عـام قاضيـا كبيرا تمتد سلطتـه القضـائيـة بحيث تتناول هذا القطـر كله وتشمل رياستـه المشائخ والمدنيين والنواب وبالجملة أصحاب المناصب القضائية على اختلافهم.

وتتطلب الشريعة الإسلامية ممن يتولى القضاء صفتين أساسيتين. الفضيلة والعلم، وليس لعالم أن يرفض منصب القضاء إذا عرض عليه والقضاة قابلون للعزل من مناصبهم.

١٨ـ المحكمة

المحكمة هى التى يُنظر فيها القضايا بين الخصوم وتصدر الأحكام ولكل محكمة كاتب أو كُتاب يسجلون المرافعات. وليس للخصوم فى بلاد الدولة وكلاء يدافعون عنهم أمام المحاكم بل كل خصم يدافع عن نفسه بنصوص الشريعة. والمقرر بوجه عام أن شهادة الشاهدين تقوم مقام الدليل الكامل فى جميع القضايا إلا قضايا الزنا فإنه من المحتم لصدور الأحكام فيها من شهادة أربعة شهود تتفق شهادتهم اتفاقا تاما ولا تختلف فى شىء، ومن اعتراف الرجل والمرأة به مكررا أربع مرات فقط وإلا فلا دليل على وقوعه.

ولا تنهض شهادة الشاهد الواحد فى أية قضية دليلا على إثبات أو نفى، ولا تقبل شهادة النساء إلا فى القضايا المدنية والأحكام التى تصدر فيها. ولذا نادرا ما تستأنف. لاسيما وأنها إذا استؤنفت لا تلقى إلا تأييدا. وكل ما هنالك أن الأعوان الموكلين بالتنفيذ إما يوقفون تأثيرها أو يعدلونه. والتنفيذ يتم فى العادة فورا. وفى المسلمين نزعة إلى احترام أحكام الشريعة الإسلامية ولو داخلها بعض الخطأ أو كانت مبنية على شهادة شهود الزور.

١٩ـ تنفيذ القوانين

فى كتب القضاء الإسلامى، وفيما تقرر بالقياس أحكام صالحة ونصوص حسنة جدا. ولكن ينبغى لكى تأتى بالفوائد والمزايا المقصودة منها أن لا تصدر قوانين مناقضة لها فتذهب بأثرها النافع، وأن يحرص الحرص كله على تنفيذها. وهنا لا أتمالك من الجهر بسوء حالة القضاء فى البلاد العثمانية فأقول إنها فيها أسوأ منها فى كل بلد سواها، ولا سيما من جهة الحقوق المدنية المعرضة إلى أفظع ما يكون من صنوف العبث والاغتيال.

فإن القضاة يحورون من أحكامهم بحسب ما يرونه من مكانة المتقاضين محاباة لهم، أو بحسب ما يدلى هؤلاء إليهم به من المال فإنهم فى بعض الأحيان يبيعون أحكامهم بيعا لصالح من يتفوق على خصمه فى المزايدة. ومن

الفاضح بعد هذا وذاك تواتر شهادات الزور. فقد سبق أن قلنا إن شهادة شاهدين تقوم شرعا مقام الدليل .فليس أسهل على المدعى عليه أو المتهم من العثور على شاهدين يبيعان ذمتهما بالمال.

وقبل أن تسند الولاية إلى محمد على كان القضاء فى أشد من هذه الحالة اختلالا وظلما .إذ كان يقوم مقامه استبداد الباشوات والبكوات وصغار الرؤساء وغيرهم ممن يفتاتون على حقوق القضاء وضماناته لقضاء أوطارهم.

٢٠ ـ العقود العمومية

أعمال المأذونين فى العقود من اختصاص القضاة بمصر .فالقاضى هو الذى يتولى تحرير عقود بيع العقارات بين أفراد الملاك فى مقابل رسم يتقاضاه لايزيد على ٢٪. وهذه العقود ويسميها المصريون «الحجج»، مشمولة بختم القاضى وأصولها تبقى محفوظة ضمن أوراق المحكمة فى خزانة دفاترها.

٢١ ـ المصاريف القضائية

لاتتجاوز المصاريف القضائية بمصر أربعة فى المائة . لأن إجراءات القضاء بسيطة فى ذاتها ولا التباك فيها، فضلا عن أنها تنجز بسرعة. والمحكوم عليه فى القضية ـ أى الخصم الخاسر هو الملزم بدفعها فورا بالجلسة. ومفهوم أن ما يستفيده القضاة عادة من التصرف فى القضايا بحسب أهوائهم ومصالحهم كثيرا ما يبلغ مبلغا جسيما.

٢٢ ـ القانون العسكرى

لم يكن باستطاعة محمد على إدخال شىء من الاصلاح على حالة القضاء فى الشئون المدنية نظرا لارتباطها الارتباط الوثيق بالدين. وكان بلا ريب يعلم ما يعتور هذه الحالة من الخلل والنقص فترك حبلها على غاربها وتحامى التصدى لها خيفة الاعتراض والتهمة بالجنوح إلى المساس بالدين. ولكنه لما أتم تنظيم الجيش المصرى لم يتوان فى اتخاذ القانون العسكرى الفرنسى قانونا له، وزاد على ذلك أن أنشأ مجلسا مختلطا للتجارة دخل فى عضويته نواب عن الجاليات الأوربية.

٢٣ ـ سلطة الباشوات الاستبدادية

من المسلم به أن سمو الوالى اضطر فى ظروف خطيرة وأحوال ذات بال ولاسيما فى ابان ولايته حينما كانت سلطته غير راسية القواعد ولاوطيدة الأركان إلى تنفيذ الإعدام، بلا مداعاة ولا مقاضاة، فى بعض دعاة الفتنة من الألبانيين أو غيرهم. ومما لاريب فيه أن رمى عنق رجل واحد كثيرا ما يؤدى إلى انقاذ ألوف من الأرواح. ولست أتطلع بهذا القول إلى تحبيذ الأسلوب الذى يجعل حياة أحد الأفراد تحت رحمة أمير أو قيد إرادة زعيم. كلا بل أقدر مزايا الإجراءات القضائية الممهدة للأحكام عند الأمم المتمدينة وما توليه من الحماية والضمانة للهيئة الاجتماعية. ولكن إذا كانت الأمة أمة خيم عليها الجهل ورانت عليها الهمجية فلن يؤثر فيها من أساليب المعاملات إلا الشديد النكاية المكفول النتيجة المقصودة من الشدة والعسف. وفى مثل هذه الحالة لاجناح على الحاكم مادام الغرض الذى يسمو إليه تأييد قضية الحضارة ورفع شأنها.

ولقد جربنا فى بلاد الجزائر ما أيد يقيننا فى عدم الفائدة من المحاسنة والسير بمقتضى القانون ودفعنا إلى الاعتقاد بأنه لا غالب على أمر سكانها من القبائل المتوحشة المتعصبة سوى إقامة حكومة عسكرية ومجالس حربية بينهم. أما وسائل الرفق والحسنى التى يدعو إليها حب الإنسانية نحو أناس يجهلون الأماكن والأشياء والأشخاص فمن شأنها أن تؤدى إلى إراقة الدماء واستنزال الكوارث وليس كلاهما من الأمثلة = المثل = العليا التى ترنو إليها الإنسانية.

٢٤ـ العقوبات

رأينا حين الكلام على الحدود فى الشريعة الإسلامية ما هى أصناف العقوبات التى توقع فى القطر المصرى على المجرمين وقلنا إنها تنحصر فى الجلد والقصاص. ونقول الآن إن النساء لا تطبق عليهن. العقوبات التى تطبق على الرجال فهن لا يشنقن ولا ترمى أعناقهن بل يوضعن، إذا صدرت

الأحكام عليهن بالإعدام، فى الأكياس ويلقين فى الماء ليغرقن. والشنق ورمى الأعناق والخوزقة عقوبات الجرائم الغليظة. وكان الباشوات والزعماء فى الزمن السابق بما عرف عنهم من القسوة والجور يتفننون فى استنباط وسائل للتعذيب هى أفظع ما مر بخاطرى ومن ثم لا يسع أحد أن يتذكر ما ارتكبه أحمد باشا الجزار من الفظاعات حينما مثل بنحو الثلث من سكان عكا إلا ويقشعر بدنه فزعا وجزعا.

٢٥ـ القضاء عند الإفرنج

مفهوم أن الأوربيين فى الشرق ليسوا خاضعين للقضاء العثمانى. لأن الامتيازات الأجنبية تجعلهم فى منجاة من هذا القضاء وتابعين لقضاء قناصلهم. وقد أصبح من اختصاص القنصليات الفرنسية فى تلك البلاد ـ بمقتضى أمر جديد ـ النظر فى قضايا الفرنسيين. وحبذا هذه الطريقة. لأن اختصاص القناصل كان فى السابق مقتصرا على تحقيق القضية التى يتعلق النظر فيها بمحاكم فرنسا حيث يتعذر استدعاء الشهود. وهذه الحالة التى ما برحت مرعية بالنسبة للجاليات الأوربية الأخرى من شأنها أن تكفل للمجرم الفرار من العقوبة. وفى الواقع فإنك لاتزال ترى فى الشرق مجرمين ارتكبوا القتل يطلق سراحهم بالنظر إلى ماهنالك من تعذر محاكمتهم فى بلادهم.

الباب السادس

أخلاق المسلمين وعاداتهم

(١)
الطبقات الاجتماعية

اعتبارات عامة ــ الأتراك والعرب ــ الطبقات الاجتماعية عند المصريين ـ الطبقة الوسطى ـ العمال ـ الفلاحون.

١ـ اعتبارات عامة

من المقدور لمصر أن تحمل فى كل شأن من شئونها طابعا خاصا بها لا يشبهها فيه شىء بالبلدان والأقطار الأخرى. مثال ذلك أن تكون الهيئة الاجتماعية فيها لم يتمش فى الطريق الذى تمشى فيه هذا التكون بغيرها من البلدان ولاسيما الأوربية فى الأبحر والمدنية. فإن الأمم العربية تكونت على أثر تخلصها من الغارات والفتوحات، فهى إذن ثمرة اندماج الأجناس الغالبة بالأجناس المغلوبة على أمرها. وكانت تتكون من الفاتحين الغالبين فى مبدأ الأمر طبقة ممتازة، ثم قامت بينهم وبين عامة الشعب طبقة وسطى أخذ نفوذها يمتد شيئا فشيئا بما برعت فيه من العلوم والفنون والصنائع وبذلته من الجهود التى لا تعرف الملل فى إنجاز الأعمال حتى إذا بلغت إلى مستوى الطبقة الشريفة حصلت على المساواة بها فى الشئون المدنية أو هيأت بالأقل هذا الفتح الأدبى المبين الذى يظهر أن سيكون من حظ الهيئات الاجتماعية الحديثة القيام بمثله فى جميع أنحاء العالم.

فإن الشعوب القاطنة فى وادى النيل لم ينقصهم الفاتحون. إذ يظهر أنهم مقضى عليهم باستمرار التبعية والخضوع لغيرهم. ولسنا ننسى أن الطبقات الكهنوتية والعسكرية كانت واضعة نير العبودية فى أعناق تلك الشعوب، ثم

جاء الفتح الفارسى وتلاه الفتح اليونانى الذى لم يلبث أن حل محله الفتح الرومانى فالفتح العربى فحكم المماليك والأتراك. فلم يطرأ فى خلال هذه الأدوار ما يغير من شأن الأمة المصرية. لأنها ظلت رازحة تحت أثقال أولئك المغيرين حاملة نير تسلطهم وتحكمهم فيها. ولم يرد فى أخبارها السابقة ما دل على أنها كانت ذات أثر فى شئونها الخاصة ولا مداخلة فى مصيرها. (١)

٢ـ الأتراك والعرب

بالرغم من أن مؤسس الدين الإسلامى لم يجعل بين المسلمين فروقا اجتماعية تميزهم بعضهم عن بعض. وأنه لا يوجد فى الدولة العثمانية ما يشعر بوجود طبقات ممتازة، فإن فى مصر فريقين يختلفان أحدهما عن الآخر ـ بصرف النظر عما يربطهما من جامعة الدين ـ اختلافا حال دون اختلاطهما ببعضهما. أحدهما الفريق الذى بيده السيطرة والحكم يتمتع بما يرتبط بهما من مظاهر التعظيم والتكريم ويستقل بفوائدهما، والفريق الثانى هو المقضى عليه الخضوع والخنوع للفريق الأول ويصيبه عار ذلك وما يفرض عليه من الكلف الباهظة. ذلك الفريق هو العنصر التركى،وهذا هو العنصر المصرى العربى.

هذه الحالة القائمة فى مصر المشهودة من كل ذى عينين إنما هى نتيجة ماض موغل فى القدم إلى مدى أربعين جيلا. فمن المتعذر أن تتغير فجأة بوقوع ثورة فجائية. لهذا كان من الواجب الاحتراز من إلقاء مسئولية بقائها واستمرارها على عواهن محمد على باشا.إذ إن جميع العقلاء غير المتحيزين إلى الغرض يقرون بأن هذا الوالى قد بذل بالعكس كل ما فى وسعه لتغيير تلك الحالة أو تعديلها طبقا لمقتضيات الظروف. فمحمد على هو العثمانى الوحيد الذى عمل على رفع القومية العربية إلى المستوى الذى هى جديرة به، فإنه بدأ بنشر نعمة التعليم بين أفرادها. وأرسل إلى مدارس أوربا، وعلى الخصوص فرنسا، وجامعاتها طلابا من العرب لدراسة علومنا والاطلاع على أفكارنا والانطباع بطابع مدنيتنا. ثم انه ـ وهو أمر فى الغاية القصوى من الأهمية ـ ضرب الأتراك المتسلطين المعروفين بعزة النفس بالجيوش المصرية العربية التى ألفها من أبناء البلاد، وذلك بالرغم من خضوعهم لهم مدة ثلاثة قرون.

(١) : الناشر : نسى المؤلف الفترة الفرعونية التى كانت مصر فيها سيدة نفسها وسيدة منطقة البحر المتوسط . خاصة أيام الفراعنة العظام أمثال تحتمس ورمسيس .

ومن عادة الفوز فى الحروب إكسـاب الفائز احترام الغير وإحلاله شرائف الـرتب. وإن أنـس لا أنسى أن أقـول أن المجـد الذى يظفـر به المنتصر بحـد السنان تاج يعلو مفرق الشعوب المنتصرة ويرفع مكانتها ويعلى شأنها. وعلى هذا الاعتبار فإن الانتصارات الأربعة التى فاز بها محمد على ووثق بها أركان ملكه لابد أن سيكون لها أثر فعال فى إعادة القومية العربية إلى سالف مجدها. يضـاف إلى هـذا أن سمـوه عهـد فى مختلـف إدارات حكـومتـه إلى المصريين الوطنيين عددا عظيما من الـوظائف واختار من بينهم جميع ضبـاط جيوشه إلى درجة أمير الالاى.

٣ـ الطبقات الاجتماعية عند المصريين

ينقسم العنصر المصرى الأصلى إلى عدة طبقـات. الأولى منها طبقة العلماء وهم يتوارثون تقـاليدها وخططها عن الآباء والأجداد ويؤلفـون بذلك الطبقة العليا مـن الأمة. وكان لهم فى عهـد سبق تـأثير عظيم فى نفوس الأمـة وقيادة آرائهـا فكـانوا هـم الـذيـن يحرضـونها على الحركـات السياسيـة والفتـن ويصدونها عنها إذا أرادوا. غير أن الـوالى قلب صرح هذا النفوذ فجعـل عاليه سافله إذ انتـزع من أيديهم الأملاك الواسعـة التى ابتزوها من الأمـة بطريق الاستفادة بما جاءت عليه من جهل وأوهـام فاسدة. فأصبحوا لهذا الأسباب ولا شىء بيدهـم من السلطة وقوة التأثير لا على الأمة ولا على الحكـومة التى يمكن أن يقال إن الممسك بأعنتها إنما هو العنصر العثمانى.

أما الطبقة الثانية فتتألف من الملاك والتجار كبارا وصغارا وأفرادها قليلو العدد لأنها لا تحتـوى بوجه عـام إلا ذوى الثروات المتوسطـة. غير أن الأزمة التى تجتازهـا مصر الآن قد رفعت على مايظهر مـن شأنها وإلى ذوى النفوذ والجاه من أفـرادها عهـدت مراكز القيـادة الكبرى فى الحرس الوطنـى، وهو الحرس الذى أنشأه محمد على فى مدائن الوجه البحرى.

أما الطبقـة الثالثـة فطبقة العمال والصنـاع. وينقسم أربـابها إلى طوائف عديدة مختلفة تتولى بنفسها إدارة شئونها فى الدائرة التى تتبعها. ولها أنظمة خاصـة وعادات لا تتعداها ورؤسـاء أو مشائخ يقبضـون على زمامهـا. ومما يدخل فى إدارتها طائفة الخدم وهى كثيرة العدد جدا.

أمـا الطبقة الـرابعة وهـى تتألـف من المزارعين الفـلاحين فمنها يتكـون

الشطر الأكبر من الأمة، وستتاح لنا فرصة الكلام عنها مرارا فى هذا الصدد.

(٢)
الأســـرة الإســـلامية

السلطة الأبوية - احترام الزوجة لرب الأسرة - احترام الأبناء والدهم - السلطة بين الإخوة - احترام الصغار للكبار والمرءوس للرئيس.

٤ - يمكـن القول بـأن الأخلاق والعـادات فى الشرق لم يطرأ عليهما تغيير أساسى ما. فـإن الصفة المميزة للحضارة الشرقية ترجـع إلى أمرين: أحدهما احترام التقاليـد، والثانى استقرار الأفكـار والعقائد الدينيـة والعادات. ولهذا كـانت الحضـارة الشرقية مخالفـة لحضـارتنـا التـى يميزهـا عنها النشـاط والحركة والعمل المتواصل، والتخلص من استبداد القوانين القديمة والعادات التى أكل الـدهر عليها وشرب والوقوف فى المدارس على حركـة التقدم الحديث وعدم الثقة إلا بالحاضر وعدم الانصراف إلا إلى شىء واحد ألا هو المستقبل.

٥ - السلطة الأبوية

من الأسرة الشرقيـة يتضوع شذا التقـاليد القـديمة الذى يحبـب إلينا إلى الدرجة القصوى البحث فى شئونها، فـإن الاسرة الإسلامية قد حفظت كيانها المبنى على السلطة الأبـوية. وغير خاف أن مؤســس الديانة الإســلامية ولد فى قوم يفتخرون بأنهم من سلالة إبراهيـم عليه السلام، وعاشوا - ولا يزالون عائشين برمتهم تقريبا على البداوة الأولى فكان بدهيا أن يخص الأسرة بشطر واف من الأنشطة الـدينة. خصوصا وأن مهمة الأسرة عنـد الشعوب الشرقية على جانـب عظيم مـن الخطورة والأهميـة. ومن ثـم كان للسلطـة الأبويـة فى الشرق جزء من النفـوذ العظيم الذى كان لها فى عهد قيامهـا بين قبائل العرب وشعوبها.

وعلى هـذا الاعتبار فـالأب هو الـرئيـس الأعلى للأسرة ولـه بهذا الوصــف السلطة المطلقة على زوجته وأولاده وأقاربه إناثا وذكرانا. وكل هؤلاء مطالبون بالاحترام الجم له والطاعة لأوامره وحياطته بصنـوف العناية والرعاية. وهذه

السلطة الوالدية التي تخضع لها الأسرة برمتها شائعة في سائر الطبقات الاجتماعية للأمة ، وشأنها في أسر الأمراء، ومن ثم إنها في أسر المستضعفين والفقراء.

٦- احترام الزوجة لرب الأسرة

تعنى المرأة في علاقاتها مع زوجها بإظهار الاحترام الكلي له. فليس لها أن تظهر نحوه بما هو مألوف في الغرب من عدم الكلفة - أي الإشارة الوحيدة للتساوي بين الزوجين. فإنها في غالب الأحوال تقف أمام زوجها لتتلقى أوامره وتدعوه إذا دعته بياسيدي. ولها من العناية بشئونه والمداراة له مالا يصح أن يطلب من الخادم فضلا عن الزوجة. ومع هذا فإن قيامها بهذه الواجبات ليس مما يشق عليها لاعتيادها فناء ذاتها في ذات زوجها .فلا يكون همها في الحياة إلا اتخاذ الوسائل لنيل رضائه عنها والقيام بتوفير أسباب السعادة والهناء له.

وهذه الصفات المبنية على التواضع والإخلاص هي التي رأينا نساء العصور السالفة مقيمات عليها. كما يؤخذ من الحكايات الواردة في التوراة.

٧- احترام الأبناء لآبائهم

مفروض على الأبناء توقير أبائهم والطاعة لهم. لهذا تراهم يلثمون يمينهم ويؤدون إليهم من علامات الاحترام والخضوع مايدل على برهم بهم، ولا يجلسون في حضرتهم إلا إذا أذنوا بالجلوس لهم ولايتكلمون إلا جوابا على سؤال ويمسكون عن التدخين وشرب القهوة في حضرتهم(١) ولا تظهر على علاقتهم بهم مسحة من الحرية وارتفاع الكلفة إلا بعد زواجهم وكما يحترمون الآباء تراهم يوقرون الأمهات ويتحينون الفرص لإظهار عواطف الرفق بهن ومخاطبتهن بالقول الكريم.

٨- السلطة التي لأكبر الأبناء على إخوته

الروابط بين الأبناء يسوسها مبدأ رئاسة الكبير منهم على الصغير.

---

(١) مرتبة منه بمقتضى نظام الدرجات إذ كان بصفته واليا على مكة أول ولاة الدولة العثمانية وأشرفهم رتبة وأعلاهم مقاما ، وكان فوق هذا وذاك قائدا مكللا بأكاليل الفخر العسكري والفوز في الحروب ومع هذا فكان في حضرة والده يظهر نحوه من علائم الطاعة والاحترام ما تقضي الآداب الإسلامية به على الصغير نحو الكبير والمرءوس نحو الرئيس.

فالأصغر سنا مطالب بالطاعة والاحترام للأكبر سنا وللبكر حق الرئاسة فى الأسرة بعد الأب لأن هذا الحق يؤول إليه طبعا عقب وفاة رب الأسرة. وأفراد الأسرة جميعا يحترمون ما بينهم من أواصر القرابة ويقدرونها على حد اعتبارهم اليمين التى يقسمونها بحياة جد أو جدة أو أب أو أم..إلخ مما يجب عدم الحنث فيه وإذا لم يكن أحد هؤلاء على قيد الحياة فإنهم يحلفون بقبره.

٩ - احترام الصغير للكبير والرئيس للمرءوس

إن ما ذكرناه من الأخلاق البيتية أثر تأثيرا كبيرا فى الهيئة الاجتماعية الإسلامية، إذ جعل احترام الكبار ضربة لازب = حق واجب = على الصغار حتى أصبح هؤلاء لا يفرقون فى الاحترام بينهم وآبائهم وهم إذا خاطبوهم فى أمر أو حدثوا عنهم أطلقوا عليهم وصف الوالد أو الشيخ. ولم تكن الفروق فى السنين وحدها من بواعث التأثير فى الروابط الاجتماعية فإن للفروق فى الرتب والتفاوت فى الدرجات تأثيرا مثله، فمظهر طاعة الطبقات الدنيا صيغ أدبية خاصة ينمقون بها عباراتهم.

ومن هذا القبيل أنه إذا مر أحد من الأعيان أو ذوى الحيثيات بهم ألقوا من أيديهم الأدوات التى يدخنون بها أو انقطعوا عن أعمالهم ثم وقفوا ينتظرون باحترام أن يلقى المار الكريم العظيم عليهم تحيته. وإذا وجه مرءوس خطابا إلى رئيسه دعاه بالأستاذ أو السيد أو الوالد. أما إذا وجهه إلى نظيره سماه بالأخ، وهكذا بحيث يخيل لمن يشهد هذه المناظر أو يسمع هذه الأقوال أن المجتمع الإسلامى أسرة واحدة تربط أعضاءها جميعا قرابة عامة ضمن أسلوب يقتضى طاعة الأصغر للأكبر فى ظلال السلطة الأبوية الشاملة.

(٣)

الرق فى الشرق

الرق فى الغرب - الرق فى الشرق - الرقيق الأبيض - الرقيق الأسود - حالة الأرقاء - الأرقاء من النساء - ديانة الأرقاء - سلوك الأوربيين نحو أقرانهم فى مصر - أقوال مقتبسة من الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالرقيق والنخاسة وعتق الأرقاء.

١٠ـ الرق فى الغرب

إن سمو الأخلاق وارتقاء الآداب بفضل انتشار الديانة المسيحية أديا إلى استهجان مبدأ الرق وتحقيره فى ذاته واعتباره جريمة ضد الجنس البشرى كله. وقد جعلت الفظائع التى ارتكبت. سواء فى العصور القديمة أو الحديثة ضد التعساء الذين ساقهم الشقاء إلى السقوط فى هذه الهاوية اسم الرق ممقوتا ومبغضا عند الناس أجمعين. لذا سيكون من أكبر بواعث الفخار لهذا الجيل أن يقضى على تلك التجارة الشنعاء التى كانت ولاتزال تملأ أسواق النخاسين فى المستعمرات الأوربية، وأن يحرر أولئك الإفريقيين الذين نقلوا إلى أمريكا ليذوقوا بها عذاب الاسترقاق فى أحوال ينفطر لها القلب وتنهمر بسببها دموع ذوى الرفق بالإنسانية.

١١ـ الرق فى الشرق

إن حب الكسب الذى أوجد من العدم أسواقا للنخاسة فى المستعمرات وجعل هذه التجارة رائجة فيها أفضى بها إلى حالة من الأحوال التى تتقزز النفس عند ذكرها وتنبو الأبصار عن مشاهدتها. إلى حد أننى لا أود استعمال لفظة الاسترقاق للدلالة على الاستعباد الواقع فى بلاد الشرق من بعض الناس على إخوانهم فى الإنسانية. فإن هناك فى الحقيقة فرقا باليا بين الاستعباد الأمريكى والاسترقاق الشرقى. فعند الشرقيين لم يكن الرق من الأنظمة القاسية أو الحاطة من قدر الإنسان لأنهم لا يرون فى الرقيق متاعا أو شيئا ماديا كما كان الرومانيون فى قديم الزمان يرونه كذلك بحسب قوانينهم، كما أنهم لايتخذونه صنفا من الأصناف التى يجرى عليها التصدير والتوريد وتكون موضوعا للمضاربات فى طلب المزيد من الربح بالتصرف فيها بيعا وشراء ولا يعتبرونه بمثابة آلة يقدرون قوتها كما تقدر قوة الآلات بالأحصنة. فان المستعمر الغربى لا ينظر إلى العبد الأسود إلا من جهة قيمته المادية ناسيا أنه إنسان مثله ذو آداب وفضائل فيكون فعله هذا باعثا على تغيير ذاتيته وتحويل طبيعته.

أما المسلم فإنه على العكس مما تقدم يرى فى رقيقه إنسانا مثله لا يختلف عنه فى شىء ما . فلذلك يعامله بحيث يخيل للواقف على طرائق هذه المعاملة أن الرق الشرقى لم يكن الا تبنيا صحيحا للرقيق وأن هذا الأخير يندرج

باسترقاقه فى سلك الأسرة التى اشترته بمالها.

١٢- الرقيق الأبيض

بمصر فريقان من الأرقاء. فريق أبيض والآخر أسود، أما الفريق الأول فهم الذين أسروا فى الحرب أو باعهم أباؤهم ببلاد الجركس. والموجودون منهم فى أسواق النخاسة قليلو العدد منذ اتسعت فتوحات الروسيا حتى تناولت تلك الأصقاع. وكأن الله سخر هذه الدولة لمعاقبة أقوام القوقاز الذين درجوا منذ زمان بعيد على توريد النساء إلى دور الأغنياء فى الشرق بالرغم من الشرائع السماوية والوضعية المحتم إتباعها. وفى مصر بعض أرقاء من اليونان أخذوا أثناء حرب استقلال البلاد اليونانية.

١٣- الرقيق الأسود

أما الأرقاء السودانيون والحبشان فكثيرو العدد جدا وهم عبارة عن الأسرى الذين أسرهم أقوام أفريقية الداخلية وشعوبها أثناء الحروب التى يشب بينهم ضرامها. ولم يقل أحد إن هؤلاء الأرقاء باعهم أهلوهم للنخاسين. وهو ما يؤخذ منه أن الشعور بمقتضيات النواميس الطبيعية أعلق بأفئده أولئك المتوحشين منه بأفئدة الجراكسة الذين حاول بعض المتأخرين من الكتاب تصويرهم فى صورة يفهم منها أنهم سلالة من الأبطال على جانب عظيم من العزة والشرف وكرامة النفس.

١٤- حالة الأرقاء

ليست حالة هؤلاء الأرقاء فى شىء من الرداءة كما يتبادر إلى الخاطر أول وهلة. إذ كثيرا ما تكون هذه الحالة سببا فى ارتقائهم إلى مستوى لم يكونوا ببالغية لو جمدوا على حالتهم الأولى. فإن الأرقاء البيض يستطيعون الصعود إلى أعلى المراتب فى الهيئة الاجتماعية والحلول فى الوظائف الكبيرة والمراكز السامية، ومع أن الأرقاء السود قضى عليهم لونهم الأسود بمزاولة الأعمال الدنيئة. فإنهم يحظون من الهناء والسعادة والنعيم بما لم يخطر ببالهم أن يتوقعوا الحظوة به لو بقوا على فطرتهم الأولى، وهناك أمثال كثيرة يفهم منها أن كثيرين من السودانيين نالوا شرائف الرتب وبلغوا إلى أرفع المناصب وتحلوا برتبة البيكوية. فما الاسترقاق بالنسبة إليهم فى الحقيقة إلا حياة جديدة كتبت لهم فى لوح القدر ونجاة لهم من الموت. ذلك لأنهم بعد أسرهم

يذبحـون بلا رحمة بأيدى المتغلبين عليهـم إذا لم يتقدم النخاسـون لشرائهم بالمال.

قلنـا فيما تقدم أن الاسترقـاق فى الشرق سلم للتبنـى والاندراج فى سلـك أعضاء الأسرة. فـإن المسلم الذى يشترى رقيقـا فى سن الطفـولة يأخـذه من سوق النخاسين عـاريا من الثياب قذرا محرومـا من وسائل العنايـة اللازمة للأطفال. فهـو بشرائه إياه يلتقط طفلا مهجـورا ليقوم على تربيته لـوجه الله وطلب مثـوبته. ولا يقتصر على السلطة المادية التـى يخوله إياها حـق ملكيته ذلك الرقيق الصغير، بـل يؤيد هذا الحق بما يتخذه حياله مـن وسائل العناية بأمره والسهر على تـربيته. إذ يبدأ بتعليمه فروض الدين وإيقـافه على قواعد القراءة والكتـابة حتـى إذا شب وترعـرع وكل بـه أمر تعمير شبكـه أو تهيئة قهوته أو تجهيز فرشه - أى جعله إما شبكجيا أو قهوجيا أو فراشا. فإذا كان مالك الرقيق سريا غنيا اتخذه خزندارا له أو كاتبا أو سلحدارا أو كيخيا (قيما على شئونه) وربما زوجه بعد ذلك من إحدى جواريه غالبا ومن ابنته أحيانا.

وعلى هذا المثـال ترى أن الاسترقاق الشرقـى يتحول فى ظل هـذه الأخلاق الأبويـة التى امتـاز بها الشرقيون إلى صفة مغـايرة وجدنـاه إليه فى الـديار الأمريكية. دع أن فى الشريعة الإسـلامية نصوصا تقضى بحماية الـرقيق من جور مـولاه وتكفل له الاعتصـام من قسوتـه وعسفه وتظله بجنـاح الحماية والرعايـة الواجبتين على المؤمنين للضعفاء. ولم يكن اختلاف المعاملـة هو ما استوجـب دهشتى، فإن الاسترقـاق الشرقى يباين الاسترقـاق عندنا مبـاينة تشرف الأول وتفضلـه على الثانـى لاسيما وأنـه يحترم الكـرامة الإنسـانيـة ويؤيدها.

فالـرقيق فى البلاد الإسـلامية لايرى فى مركـزه الاجتماعى ما يغـض من كرامته ويحط مـن منزلته. بل إنه غـالبا ما يفتخر بانتمائه إلى بيت فلان من البكوات والباشوات ويطلق عادة على سيده لقـب الوالد، ويعلم علم اليقين أنه لن يبقـى إلى الأبد راسفا فى أغـلال حالته الرقية لأنه يرى أمامـه من الأمثال ما يحرك فى نفسه سـاكن الطمـع ويصرف أمله إلى الغايـات البعيدة والمقـاصد العالية. وحسبنا دليـلا على ذلك جماعة المماليك الذين وضعـوا أيديهم قرونا عدة على زمـام الحكم فى مصر. فـإنهم لم يكونـوا سوى أرقـاء اشتروا بالمال

لافرق بين السيد والمسود منهـم فعلى بك ومراد بك وإبراهيم بـك كانوا أرقاء حصلت عليهـم المساومـة فى أسواق النخـاسة وهـذا الصدر الأعظـم الحالى للدولة العثمانيـة الشيخ الفانى خسرو بـاشا لم يرق إلى منصبه السـامى إلا بعد أن بيع فى أسواق النخاسة واشترى بالمال. وكـذا كان خليل باشا وسـعيد بـاشـا ، وأحدهما صـهـر السلطـان محمـود، والآخر زوج أخـت السلطـان عبدالمجيد ووزيـر فى الباب العالى فإنهما من الرقيـق وصل بهما الجد إلى تلك الرتـب الشريفة والمسـاند الـرفيعة. والتقـط السلطان محمـود من شـوارع الآستانة حافظ الجركسى واتخذه سر عسكر لجيشه الأخير.

أمـا فى مصر فالسـواد الأعظم مـن كبـار الضباط فى الجيـش أرقاء فكـت رقابهم. وقد رأيت بعينى رأسى فى أسواق الجلابة بـالقاهرة أرقاء من اليونان انتزعـوا من وطنهـم فى الوقـت الذى كـان هذا الوطـن فيه على وشـك الفوز باستقلاله ثم رأيتهم بعد ذلك وقد احتلوا المناصب السامية فى النظامين الملكى والعسكرى. وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأن أسرهم، بصرف النظر عما سببه من الآلام لأهليهـم وعما كان هؤلاء يتمنونـه من مشاهـدتهم راتعين معهم فى بحبوحة الاستقلال التام ومتقلبين على مهاد الحرية، لم يكن مصابا حل بهم، بل نعمة سابغة وخيرا جزيلا.

١٥ ـ الرقيق من النساء

النساء اللائى يسترققـن ويدخلن فى حوزة مـن يشترونهن بالمال يتصلن بخدمـة حرمهم، وربما اتخذوهـن زوجات لهم أو زوجـوهن من أبنـائهم أو ضبـاطهم أو بعـض المنتمين إليهـم بعـد تجهيزهـم إيـاهـن بما يلزمهـن فى معيشتهن المقبلة من الأمتعة والأثاث. وسلاطين آل عثمان لايقترنون عادة إلا بجوارى الرق، وكذا الحال بالنسبة إلى سمو والى مصر وأبنائه.

وكثيرا مـا يشاهـد فى البيت الـواحـد الجوارى السود والجوارى البيـض ويتزوج مولاهن بجارية جركسية منهـن وأخرى حبشية وثالثة سودانية من بنات دارفور. ويرى فى هذه الحالة صـارفـا كل همته إلى العناية بهن وأبنائهن على وتيرة واحدة ونمـط لايتغير محافظا على العـدل بينهن، ويـنـدر أن يتخذ الأبيض جارية سوداء زوجة لـه أو أن تتزوج البيضـاء من عبد أسود فى الأسر

الكبيرة والبيوتات ذات الشأن.

١٦ـ ديانــة الأرقـــاء

من مستتبعات الاسترقاق فى الشرق ونتائجـه تحويل عقيدة الأرقاء ذكورا وإناثـا إلى العقيدة الإســلامية ولعل فى شغـف المسلمين وسعيهم المتـواصل لتحويل الناس جميعا إلى عقيدتهم الـدينية ما يعلل عدم إجازتهم للمسيحيين اتخاذ الرقيـق إناثـا وذكورا. واهتمامهـم بأمـر دينهم على هـذا المثال خليـق بالإعجاب من حيث دلالته على أن الشرقيين يرون فى أقاربهم أهلا لمشاطرتهم السعادة المقبلة التى وعد بها المؤمنون فى القرآن ويعترفون صراحة بالمساواة بين الناس جميعا أمام الخالق مساواة تسرى بـالطبع عليهم فى سائر شئون الحياة ومرافقها. وبالرغم مـن ذلك فإن المسيحيين يتمتعون فى مصر بأوسع وأعظم مما يتمتع به أمثالهم فى بقية بـلاد المملكة العثمانية فقد منحوا الحرية فى شراء الأرقاء من العبيد والجوارى وبيعهم، وتوسـع بعضـهم فى الانتفاع بـهذا الإذن فتمكنـوا، مع الاحتيـاط والحذر، مـن إدخال الجوارى الجركسيـات فى حرمهم.

١٧ـ معاملة الأوربيين للأرقاء فى مصر

أجيز لـلأوربيين بفضل ما أظهره محـمـد على من التسامح والتســاهل فى معاملتهم اقتناء الأرقاء كغيرهم. وأول ما يقع فى الخاطر عند سماع هذا القول أن الإرقاء إذا صاروا إلى حوزة الأوربيين ـ أى إلى قوم تنكر حكومات بلادهم الاسـترقاق وتعمـل على محو أثره وتقـول بإكـرام النزيـل ومنح الحريـة لمن يسألها، أصبحوا فى ليان = تسعة ورخاء = من العيش ورفاهه. وهو خطأ بيِّن ووهم فاسـد يسوق إليهما حسن الظن. فإن أولئك الأوربيين الـذين كلما عن لهم الكلام على المسلمين يلصقـون بهم عار التـوحش والهمجيـة ويقرنـون القول فى حقهـم بعلامات الازدراء والتحقير نادرا مـا يوفقون بين معـاملتهم الشـائنـة لأرقائهـم ومـا يتبجحـون بـه مـن الكلام الفـارغ فى عطفهـم على الإنسانية.

فإن الكثيريـن منهم إذا اقتنـوا الرقيـق سرعان مـا يهمون ببيعـه التماس الربح، أو المقايضـة عليه بغيره أو ببضاعة، ولقد يكون لمثـل هذا التصرف ما

يسوغه فى حدود معينة وأحوال خاصة وإنما على شريطة أن لا يكون القصد من البيع والمقايضة طمعا فى ربح. وأنه لمن والتناهى فى جفاء الطبع فك رقبة الرقيق الصغير السن مع العلم بعجزه، إذا ترك وشأنه، عن كسب ما يسد به الخلة من عرق جبينه. فعتقه وتلك حالته من القصور عن مداركة حاجة لمحض الرغبة فى الخلاص منه قسوة لا مبرر لها وجريمة فى حق الإنسانية لا تغتفر بل هبوط إلى درك الوالد الذى يطرد ولده من بيته من غير ما جرم أتاه.

أما بيع الرقيق القدير على كسب حياته بالكد فتجارة مزرية بالشرف حاطة من الكرامة. فإذا قيل إن من الافرنج من يزاولون هذه التجارة فإنا نقول نعم وقد وصموا الإنسانية بعار لا يمحى. ولسنا ندرى بأى حكم يقضى عليهم إذا أثبتنا هنا أن منهم من يبيعون جواريهم حاملات منهم فكأنهم بهذه الفعلة الشنعاء يلقون أبناءهم بأيديهم فى وهدة الاسترقاق بدون أن يزعهم وازع الضمير أو يردعهم رادع الترقق للإنسانية. وإن اللسان ليعجز عن وصف هذه النقائص الشائنة بل الآثام الفظيعة، وإن الافئدة لتمتلىء بالسخط والنقمة على مرتكبيها.

ولاشك فى أن الشرقيين إذا رأوا أولئك المتجرين بنسائهم وبما تحمله بطونهن من أبنائهم بعد أن عرفوا بعض الشىء من أمرهم ليحق لهم أن يشمخوا بأنوفهم ويفتخروا بهمجيتهم الفاضلة، ويحتقروا مدنيتنا التى دنسها أولئك الأشقياء بما لا يمحى على مر الأجيال من دناءاتهم.

وهذه المخازى لاتنفى وجود لفيف من الأوربيين يعاملون أرقاءهم عبيدا وجوارى بما تقتضيه المروءة من الرحمة والرفق ويعترفون بأبنائهم ممن ملكت أيمانهن من الجوارى ويترفعون عن ارتكاب المقابح واحترام الآثار الغليظة التى لا تتفق وأخلاقنا وديانتنا ومبادئنا الاجتماعية التى تتنزه عن تلك النقائص كلها.

ويدفع الطيش والنزق أحيانا بعض السياح الذين يزورون مصر إلى ارتكاب ما لا يقل عما ذكرته الآن من المخازى والمقابح .فإن البعض منهم يزورون أسواق الجلابين لمجرد الاطلاع على شىء سمعوا به ولم يروه ـ كما هو شأنهم فى كل أمر مستغرب ـ فإذا أعجبتهم سودانية أو حبشية أو غيرها

اشتروها بقليل من المال أيضا إرضاء لشهواتهم وجريا وراء أهوائهم حتى إذا قضوا منهن وطرا وظنوا أن من آيات الإحسان نحو هاته الشقيات البائسات اللاتى أطفأوا فيهن جمرة شهواتهم الزائلة أطلقوا سراحهن بالاعتاق ولكنهم نسوا أن تحرير الرقيق فى بلد لا تستطيع المرأة فيه أن تعيش إلا فى ظل الرجل وبفضل قيامه بنفسه على شئونها يدفع بها إلى أسوأ حالات الفقر والفاقة بل يلقى بها فى هاوية العهر والدعارة. فترى من ثم أن طيش بعض الرحالة الأوربيين، وهو طيش مبنى على حب الذات، كان سببا فى نظر المسلمين إلى أخلاقنا وعاداتنا بعين المقت والاحتقار.

وإنى لألفت النظر إلى ما ينجم من النتائج المحزنة عن مباشرة الغربيين للاسترقاق على الأسلوب الشرقى فانهم يضرون به الأرقاء ويسيئون إليهم فى معيشتهم وأخلاقهم ومستقبلهم، بينما المسلمون يعاملونهم بما ذكرناه من العطف واللطف والإحسان.

والواجب أن توسم النزعات المخجلة التى انحدر الأوربيون فى تيارها بين أمة لا تعرف شيئا من عاداتنا وأخلاقنا بالعار والخزى. وإلا اضطرت هذه الأمة إلى الوقوف فى موقف الاحتياط والتحفظ إزاء المدنية الغربية والاستمساك بالمدنية التى تفخر بالانتماء إليها، ومواصلة العمل لإثبات سموها على مدنيتنا فى الوقت الذى ينبغى فيه أن تكون لفظة الافرنجى محفوفة بمظاهر الكرامة والرفعة فى أعين المسلمين. ومن كبائر الإثم أن تستنزل على هذه اللفظة عبارات التحقير وأن تلوث بلوث الإهانة والتصغير بسبب فعال تلك الطائفة الخرقاء.

وأختم هذا الفصل بفقرات مقتبسة من كتب الشريعة الإسلامية يجد القارىء فيها بيانات مهمة تكشف الستار عن وجهة النظر الشرعية فى الاسترقاق وإنهاء الحرب . فإذا جاء الاسترقاق من غير طريقها كان ظلما وعدوانا وافتئاتا.

١٨ ـ مقتبسات فى الرق وتجارته والعتق

إذا أفضت الحرب إلى وقوع بعض المشركين أسرى فى قبضة المسلمين فلولى الأمر الحق فى إتخاذ إحدى الوسائل الأربع الآتية حيالهم:

أولاً: يجوز له قطع رقابهم ما لم يكونوا نساء أو أطفالا أو مصابين

بجنة..إلخ.

ثانيًا: يجوز له العفو عنهم وإطلاق سراحهم.

ثالثًا: يجوز المبادلة على غيرهم من أسرى المسلمين لدى العدو أو افتداؤهم بالمال.

رابعًا: يجوز له استرقاقهم.

فإذا اختار ولى الأمر وسيلة ما من هذه الوسائل الأربع فله أن يقوم على تنفيذها بشرط أن تكون أحسن الوسائل وأوفقها لمصلحة حكومته. فإذا استقر رأيه على الاسترقاق فقد وجب عليه أن يحسن معاملة أرقائه. فقد ورد فى كتب الشريعة ما مفاده أن جماعة من الأسرى من بينهم عباس قدموا يوم بدر إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمر النبى بكسوته على الفور ووجدت بالاتفاق والمصادفة ثياب لعبد الله لم تكن له بها حاجة فأعطيت إلى عباس فأخذها فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: رفقا بالضعيفين. أراد بهذا القول الإشارة إلى المرأة والرقيق. وجاء فى الأحاديث الشريفة أيضا ما يستفاد منه أن النبى سئل يوم بدر فيما ينبغى أن يعامل به الأسرى فأجاب: إن الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم فسأل عمر بن الخطاب: «يارسول الله أتضرب أعناقهم». فالتفت النبى إلى الحاضرين من المسلمين قال لهم مكررا: «إن الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم». فكرر عمر هذه الكلمات. فقام أبوبكر عندئذ وقال للنبى: يارسول الله إن هؤلاء بنوا العم والعشيرة والاخوان وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ففرح النبى وأمر بقبول الفدية. وبهذه المناسبة نزلت على رسول الله الآية الآتية: «ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم».

ولما طلب الرسول من عباس مائة أوقية ذهبا فدية ولم يطلب من قريب آخر سوى أربع وعشرين أوقية صاح عباس بما معناه: «إن هذه لإحدى آيات القرابة القريبة» فأنزل الله على النبى الآية الآتية: «يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم

ويغفر لكم والله غفور رحيم».

ولما كانت الحرية فى الإنسان أصلا والاسترقاق عرضا فإن حكم الديانة الإسلامية بتحرير الأرقاء فضيلة تستوجب الحمد. وهناك صنوف من الذنوب والمخالفات لايكفر عنها إلا بفك الرقاب. منها اليمين الكاذبة وفطر رمضان فقد قال الرسول: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار» ـ وقد أعتق النبى فى حياته ثلاثة وستين رقيقا ـ أى بقدر ما عاش من السنوات، وأعتقت عائشة ابنة أبى بكر زوجه تسعة وستين رقيقا أى بقدر ما عاشت من السنوات وأعتق أحد صحابته وهو ذو القرى وأصله من قبيلة حمير ثمانية آلاف رقيق فى يوم واحد وأعتق عبدالله بن عمر ألف رقيق وحكيم بن جزان مائة كانوا يحملون فى رقابهم أطواقا من الفضة وعبدالرحمن بن عوف ثلاثين ألفا وكانوا جميعا من أصحاب النبى.

والديانة الإسلامية تحبذ تحرير الرقاب وتحث عليه وتدعو إليه حتى إنها لتشترط على من يشترى رقيقا لكى يعتقه الوفاء بعهده بعد الشراء. فإذا أبى الوفاء بعهده عومل بما يلزمه الوفاء ولو بالإكراه البدنى ويجوز بل يجب على غير المؤمن أيضا إعتاق الرقيق ولو كان عدوا مبينا للمسلمين وسواء وقع الإعتاق من مسلم أو من غير مسلم فإن المعتق يظل مقيما فى ولاية مولاه. وبين المولى والعبد رابطة وثيقة من القرابة تجعل أولهما الوصى الطبيعى على الثانى فى حالة عتقه كما يكون الوالد وصيا.

وهناك طرق متعددة للعتق يقضى أحدها على المعتق أن يصرح كتابة فى حياته بإعتاقه رقيقه بعد وفاته. وإليك النص الذى ينبغى أن يكتب به هذا التعهد: «أنت حر لوجه الله بعد وفاتى» ويقضى الثانى أن يفتدى العبد حريته بمبلغ من المال يؤديه على دفعتين. وله أيضا بعد مساومته مولاه على هذا المبلغ أن يؤديه إليه أقساطا صغيرة، فإذا برئت ذمته منه أصبح عتيقا طليقا.والحالة الثانية من هاتين الحالتين لا تنطبق إلا على الجوارى فى حالة حملهن. أما إذا لم يكن كذلك فليس لهن أن يحصلن على حريتهن إلا بموت مالكهن.

(٤)
الرجـــال

انفصال الرجال عن النساء فى الهيئة الاجتماعيـة ـ الصفات الجثمانية للرجال ـ الصفات النفسية والعقلية ـ القناعة ـ الصدقة ـ الشجاعة والتوكل ـ حب المصريين أوطانهم ــ العيوب والنقائص: الجشـع، الانكار، الحسـد، كفران النعمة ــ الكسل ـ العزة الدينية ـ الجهل ـ العناد والتشبـث ـ الشجار والانتقام ـ المجون والمباسطة ـ الملابس القديمـة ـ ملابس المماليك ــ الملابس الحديثة ـ الحذاء ــ أفكار فى الملابس الحديثـة ـ مـلابس الفـلاحين ـ عـادات المصريين فى تدبير الشعـر واللحية..إلـخ ـ النظافة والـوساخة ـ استعمال الـوقت والاشغال ـ النـوم وكيفية الرقاد ــ عبارات النداء والتعجب والقسم.

١٩ـ فصل الرجال عن النساء

يمثل الدين الإسلامى مع ما تواكـب عليه من التقاليد الشرقية سدا منيعا فى الهيئة الاجتماعيـة بين الرجـال والنسـاء. فكـان من نتـائج هذا الافتراق أن صار لكل من فريقى الرجال والنساء فى مصر أخلاق وعادات خاصة ومتباينة إلى حـد يستدعـى بحثهـا واستقراؤهـا فى الرجـال مستقلـة عنها فى النسـاء والعكس بالعكس.

٢٠ـ الصفات الجثمانية

تنم سحنـة العربى وهيئتـه عن كرم المحتـد = الأصل =وصلابـة القلب وجفاء الطبع وشدة الرصانة. والمصرى المسلم وإن حمل الاطمار البالية تبدو متوافرة فى شخصـه أمارات السمو ورفعة القـدر. إذا وقف وقف مستقيما فى انحناء وبدا فى هيئـة الجندى وإذا سار اتأد = اطمأن = فى مشيتـه بلا تكلف كأنما يعـد الخطوات، وإذا تحرك تحرك فى سكـون ورباطـة حتى لقـد يخيل للناظر أنـه يضبط حركاته وسكناتـه ويدبرها. والحقيقة أنه لا يـرهق نفسه بعناء شـىء من ذلك لأنه يتحرك ويسكـن من غير تصنع ولا تعمل. وما يبديه الأوربى من الهزيمة فى الحركة والاسترسال فى الفرع والتبسط فى المجانة قلما يخل بنظام مشيتـه أو يستفزه إلى السرعة فيهـا أو يهز وترا من أوتـار نفسه. وهو إذا نظر كان نظره حادا يدل على الجد وبدأ وجهه من حوله معربا = معبرا

= بملامحه عن البأس والهمة. وهو مطمئن النفس لا يزعزع سكونها شيء ولذا تراه أكظم ما يكون لما ينتابه من الانفعالات الباطنية. ففيما وراء هذا الستار تعصف عواصف المؤثرات المختلفة بدون أن تحرك له ساكنا. وإذا تكلم تحرى الاقتصاد فى كلامه والاقتصار منه على ما يؤدى مراده بالضبط من غير لجاجة وبدت كلماته كأنها لا تخرج من فيه إلا وقد وزنت مرارا بمعيار الإمعان والروية. ومن عادته إذا حدث أن يرفع صوته عاليا فيخيل لسامعه أنه وهو يحدث قد ثارت بينه وبين محدثه ثائرة الجدل والخصومة.

٢١ـ الفضائل النفسية والعقلية

المصريون أقوياء الحافظة أذكياء بالفطرة لا يجدون صعوبة فى الاستظهار ولا عناء فى الفهم ولكنهم ـــ إما لعدم المبالاة وإما لضعف فى الذاكرة ـــ لا يتذكرون زمنا طويلا ما أسرعوا فى حفظه أول وهلة. وهم على شيء كثير من سلاسة الطبع، ودماثة الخلق. وهذا ما مهد لهم مزاولة الأعمال بهمة ونباهة على شدة ما بينها من التفاوت. ولسرعة انفعال نفوسهم بالمؤثرات تراهم على استعداد للتنافس والتبارى فى العمل فإذا استثيرت كوامن هذا الاستعداد ظهرت أهليتهم للقيام بجلائل الأعمال. ولاننسى ما هم مفطورون عليه من الحذق فى الأعمال اليدوية وأنهم يبدون فى أدائها مهارة نادرة مقرونة بالإتقان والإجادة.

وللمصريين نزعة إلى السرور واندفاع فطرى إلى المزح والمطايبة على وجه ينم عن الذكاء وحضور الذهن وسرعة الخاطر ولكنهم لايكادون يبلغون إلى سن الرجولة حتى يميلوا عما مالوا إليه بالظهور فى مظاهر السمت والوقار وملازمة الجد فى القول والفعل. ويرجع هذا التحول بلا ريب إلى تأثير المبادىء الدينية التى تتأصل فى نفوسهم كلما تقدموا فى العمر وازدادوا رزانة ورصانة.

٢٢ـ القناعة

القناعة من خصال المصريين التى تستوجب العجب والدهش، وإن القارىء سيقنع بهذه الحقيقة مما سأورده عن كيفية غذائهم. أما المسكرات فتعاطيها غير فاش بينهم وأما الطعام فيراعون فيه البساطة والتقشف

والإقلال. ومن الخصال المحمودة التى درجوا عليها احترامهم الخبز وصونهم إياه من الدنس لاعتقادهم وثوق الرابطة بينه والحياة، فهو فى نظرهم قوامها الذى لا تقوم لها بدونه قائمة. ولعل هذا ما حدا بهم إلى تسميته بـ«العيش» الذى يفيد معنى الحياة فى اللغة العربية. ولشدة حرصهم عليه واحترامهم له يدأبون على وقايته مما يدعو إلى تحقيره والحط من قدره. فتراهم إذا عثروا فى الطريق على شيء من فتات العيش سارعوا إلى التقاطه ولثموه ورفعوه إكبارا إلى رءوسهم ثم اختاروا لصيانته مكانا إذا اهتدت إليه الحيوانات استطاعت أن تأكله بدلا من بقائه عرضة لدوس الأرجل والتلطخ بالأقذار.

٢٣ ـ الصدقة أو الإحسان

المسلمون ميالون بوجه عام إلى البر بالفقراء والإحسان عليهم، لأن فى دينهم من التعاليم والمبادىء ما يجعل هذه الفضيلة فرضا واجب الاتباع. وثمة سبب آخر يدعوهم إلى البذل فى سبيل الصدقة وهو الرجاء فى الفوز بما أعد للمحسنين فى الآخرة من الثواب. وربما كان الباعث لهم على التصدق فى سبيل هذا المطلب أقوى منه فى سبيل العطف على المساكين والبر بالمعوزين.

أما الضيافة فمن أكثر فضائلهم شيوعا فى القطر المصرى وهى ـ حرية بالذكر والإطراء الآن. فالمسافرون وعابرو السبيل على اختلاف عقائدهم وتباين أجناسهم يلقون من المصريين فى كل زمان ومكان صدرا رحيبا ومثوى كريما. ومن شيم المسلم انه إذا جلس إلى الطعام وزاره أحد دعاه إلى طعامه وأشركه فيه. وسواد أفراد الطبقة الوسطى يتناولون طعام العشاء على أبواب منازلهم حتى إذا مر بهم أحد دعوه إلى مشاركتهم فى طعامهم.

وهم حينما تلاقوا بدت على وجوههم أمارات البشاشة والهشاشة وتبادلوا عبارات الانس والمودة ثم لا يلبثون أن يحافظوا على السكون ويلزموا التحفظ إذا التقوا بالأوربيين أو تحدثوا معهم.

٢٤ ـ الشجاعة والتوكل

ولد قطان = سكان = القطر المصرى تحت تأثير الضغط والعنف. فتراهم فى الاحوال المعتادة يظهرون الخجل ويتحامون التعرض للأخطار أو اقتحام

غمارها، ولكنهم إذا نـزل بهم نازل أو تهددهم خطر لاتلبث الشهامـة الكامنة فى نفوسـهم أن تهب من سباتها فيدرأون هـذه النازلة بشجاعة وهمة. وهم فى كل مـا يحيق بهم من الأحـزان والأرزاء يثقون بالله ويتوكلون عليه إتكالا لاتزعزعـه قوة بالغة ما بلغت. وإلى هـذه الثقة وهذا التوكل يرجـع رضوخهم لمقتضيات الظروف ورضاؤهم بما تجىء به الحوادث بـاعتبارها قضاء إلهيا لا مرد له وقـدرا ربانيا لا مفر منه. وهـم يقابلون المحن والمصـائب إذا نزلت بهم بعبارة تدل على ثباتهم إزاءها وصبرهم عليها وهى قولهم «الله كريم».

٢٥ ـ حب المصريين أوطانهم

لا يوجد بين مخلوقـات الله من يذهب المذهب البعيـد فى حب مسقط رأسه كالمصريين فإن الفلاحين لا يجدون للحياة معنى ولا لذة إذا ابتعدوا عن النيل الذى يطفىء ماؤه أوار عطشـهم ويروى أرضـهم أو حرموا النخيل الذى يكفى أن يهزوا اليهم بجذعـه ليساقط عليهم ثمـره فلا يتكبدون فى أكله أقـل كلفة. ومن ثم تسـمعهم إذا حـدثوا أوربيا عن وطنه يسألـونه عما إذا كان يجرى فى أرضه نيل كنيلهم أو ينبت فيها نخيل كنخيلهـم يعطيهم ما يشتهون من غذاء شـهى ومرافق أخرى.

٢٦ ـ الكسـل (١)

إذا ترك المصريون وشأنهم أخلدوا إلى البطالة والكسل وتراموا فى أحضان الدعـة والخمول أى أنه إذا لم تستفزهـم إلى العمل إرادة فعالـة وهمة نشيطة ولم تدفعهم إليه يد قوية آثروا قضاء حيـاتهم فى البطالة التامة. ولعل الباعث لهم على ذلك قلـة احتياجـاتهم وقدرتهم على قضاء مـا يستشعرون بـه منها وهم على مهـاد الراحة. ومن مظـاهر جمودهم على هذا السلـوك الشائن انهم قلما يفكرون فى المحافظـة على خصوبة الأرض التى يلتمسـون منهـا غذاءهم بالعمل المتـواصل فى فلاحتها واستخراج خيراتها. والحقيقة الثـابتة أن دولة المصلحـة لم تتغلـب فى نفوسهـم على مـا ألفتـه مـن الاستنامـة إلى الكسـل والسكـون فتراهم لهذا السبـب لا يهتمون مـن شئـونهم إلا بما يتعلق منهـا بحـاضرهـم غير ملتفتين إلى مستقبلهـم. وهـم يشبهـون لصـوص نـابلى لا

(١) الناشر: تعرض الكاتب للنقائض الموجودة فى عهده كظواهر اجتماعية فذكر منها الجشع والإنكار والحسد.

يحركون ساكنا إلا إذا عضهم الجوع بنابه. فالنظر إلى المستقبل لا يمتد عندهم إلى أبعد من الغد.

٢٧ ـ عزة الدين

من خصوصيات الديانة الإسلامية سلطانها الذى لا يُغلب على نفوس المستمسكين بحبلها وهيمنتها عليهم فى أقوالهم وأفعالهم، وتأثيرها فيهم تأثيرا لا يقوون على دفعه مهما أوتوا من صدق الإرادة ولطف الحيلة. ترى أن الواحد لم يتلق شيئا من دروس الدين تلقيا خاصا ثم مع ذلك سرعان ما تدرك مبادئه الأساسية وتنطبع عقيدته بالطابع الذى يبغى أهله أن يبقى منقوشا فى صحيفتها فلا يجد الشك مسربا إليها.

وترى المسلم لرسوخ عقيدته ووطود دعائم إيمانه لا يلبث أن يصبح مختالا بها فخورا بسموها على بقية العقائد. وينتهى الأمر به إلى الاعتزاز بانتمائه إلى ديانة يرى أنها تسمو على سائر الديانات وتفوقها فوقا عظيما فلا يسعه إلا أن ينظر إلى المتمسكين بغيرها بعين الاستخفاف والاحتقار.

٢٨ ـ الجهل

السواد الأعظم من الأمة المصرية هائم فى أودية الجهالة، وقد حاول بعضهم إسناد جهلهم إلى الديانة الإسلامية. وهو خطأ فاحش ومذهب باطل فإن فى القرآن آيات كثيرة تدل على شرف العلم والحض على تحصيله. على أنه غنى عن البيان ما بلغت إليه العلوم والفنون من التقدم والارتقاء فى عهد الحضارة الإسلامية ببغداد والأندلس.

والسبب الحقيقى لانغماس المصريين فى حمأة الجهل أن المماليك أطفأوا فى مصر نور العلم وهاضوا ركنه ودكوا معالمه حتى صار لايوجد الآن من المتنورين والمتعلمين من غير الذين نشأوا فى المدارس الحديثة وتلقوا بها مختلف العلوم من يلم بالقراءة والكتابة سوى النذر اليسير ومعلوماتهم مقتصرة على دراسة العلوم الدينية وحفظ بعض القصائد الشعرية.

٢٩ ـ التعنت وصلابة الرأى

التعنت من أخص النقائص اللاصقة بالمصريين فإنك ترى فيهم من

يؤثرون الجلد بمائة أو مائتى جلدة على تسديد المستحق عليهم من الضرائب الزهيدة. ومن النادر أن تجد أحدهم مقبلا بخاطره على دفع المال الذى عليه فإذا دفع أحدهم ـ بعد معاملته بهذه الاساءة التى يتحملونها بقدر ما تسمح لهم به قوتهم البدنية ما هو مطلوب منه ـ أظهر الأسف لأمر واحد، وهو أنه لو استطاع بدنه أن يتحمل من الضرب فوق ما تحمله لتخلص من دفع المال الذى لأجله يلقى هذه الإهانة.

والمفهوم أن لا وسيلة فى مصر غير الكرباج لإكراه الممولين على أداء الأموال المستحقة لجانب الحكومة وإقناعهم بالعدول عن الإصرار على عدم سدادها. ولقد كانت هذه حالهم على عهد (أميانوس مرسلانوس) فقد روى هذا المؤرخ أن المصريين يرون من بواعث الفخر والشرف أن لا يؤدوا ما عليهم من الضرائب إلى الخزينة إلا إذا ضربوا الضرب المبرح وعذبوا العذاب الأليم.

٣٢ـ المنازعات والانتقام

يميل المصريون من أهل الطبقة السفلى إلى المنازعات والمخاصمات التى يرجع سببها فى الغالب إلى الاختلاف على مصلحة لايبعد أن تكون تافهة غير جديرة بالاهتمام. والذى يرى المشاحنة وقد احتدمت نارها وتلظى سعيرها وتبودلت فيها ألفاظ السب والشتم واستنزلت اللعنات وتراشق الفريقان بسهام المخازى والمعايرة يتبادر إلى ذهنه أن الشجار لسوف يفضى إلى أوخم العواقب ولكنه لا يلبث أن يوقن أنها لم تؤد إلى شىء مما يخشاه والسبب فى ذلك أنه قلما ينقلب الشجار بين المصريين من التنابذ بالقول إلى التضارب بالأيدى، بل أنه سرعان ما تهدأ النفوس وتسكن ثورة الغضب فيها بعد تنازل أحد الخصمين عن حقه بقوله للآخر: «الحق على».

ويتفق أحيانا أن يتداخل بين الخصمين ثالث، ويجعل تمهيده للمقابلة قوله: «اللهم صلى على سيدنا محمد» فيكرر الخصمان هذه الجملة بصوت خافت ثم يقرآن فى سرهما ما تيسر من القرآن ويستأنفان روابط الود القديم بعد أن يتعانقا تعانق الوئام والوداد.

أما الانتقام أو الأخذ بالثأر فغريزى فى نفوس المصريين. وبين بعض العائلات عندهم آثار = ثارات جمع ثأر = قديمة يثأرون بها على تسلسل

الأعقاب وفيما سبق من الزمن كان الأخذ بالثأر بين قرى برمتها. وهو ما يصح القول معه أن الدم يجذب الدم، فإن أسرة القتيل يتحتم عليها الانتقام من أسرة القاتل ولكن القتل لحسن الحظ يكاد يكون مجهولا فى القطر المصرى.

٣١ - الميل إلى المجون والمطايبة

يميل المصريون بفطرتهم إلى المجون والمطايبة وهم كثيرا ما يبنونهما على النكتة ، لاسيما وأن اللغة العربية التى بها يتفاهمون تساعد على التورية والجناس والتحريف والتصحيف والكناية إلى غير ذلك مما ينمقون به الحديث ويكسبونه من الطلاوة ما يرتفع له حجاب السمع وتشتاق له النفس. وهم فى كل ذلك قلما يحرصون على الآداب أو يتصونون عن القبائح إذ يعبرون بفاحش القول عن الآراء التى يجفل من الانصات لها السمع الكريم. ونادرا ما تجد بين النساء حتى الفضليات منهن من يتحاشين تلويث كلامهن بالألفاظ القذرة ذات المعانى المعيبة.

٣٢ - الثياب

الملابس القديمة ـ الملابس التى كان المصريون يكتسون بها قبل سنوات قليلة تتألف: أولاً من القميص، ثانيا: من اللباس ـــ أى السروال، وثالثا: من الصدرية، ورابعا: من القفطان، وخامسا: من الحزام، وسادسا: من الجبة، وسابعًا: من البنش.

ولم يكن للزى الحديث (المودة) تأثير ما على طريقة الاكتساء عند المصريين الذين لم يطرأ تغيير ما على نظام ملابسهم كلها أو بعضها.

وتختلف الأقمصة الشرقية اختلافا بينا عن القمص عندنا . فهى عندهم تمتاز بفرط الطول والعرض إتساع القن (الكم) واسترساله إلى كاحل القدم. أما قمصان أفراد العامة فهى إما من الكتان أو التيل بخلاف أقمصة أصحاب اليسر فإنهم يلبسونها من قماش دقيق النسج يسمونه المغربى أو قماش الحرير، والقميص لا يحشى به داخل السروال كما هو الحال عندنا بل يسبل فوقه.

ويمتاز السروال المصرى بالسعة حتى ليخيل لـرائيه أنه جبة خيط الجزء الأسفل منهـا بحيث يترك فتحتين لخروج القدمين. وهـو سابـل إلى الركبتين ويثبت حول الجسم بتكة تجرى فى باكية وغالبا ما تحلى التكة بالزركشة التى تتفاوت بتفاوت أصحابها فى اليسار أما الصـديرى فيتخذ عادة من الجوخ أو القماش الحريرى أو القطنـى. وفوق هـذه الثياب كلهـا يفرغ القفطـان وهو لباس سابل إلى القدمين عريض الكمين.

أما الحزام فقطعـة من قماش الحرير يبلـغ عرضها مترا واحـدا فى ثمانية أمتار إلى عشرة طـولا يلف حـول الجسم عنـد الحرقفتين وأصحاب اليســار يتخذونه من الكشمير الثمين.

أما الجبة وتوضـع فوق المجاسد السابقة كلها فتبطن بـالفرو وإذا كانت للبس الشتاء يكون كماها أقصر من كمى القفطـان وتلبس فوقه مشقوقة من الأمام.

ويحمل بعـض الناس فيما عـدا الجبة ثوبـا أعرض منـه يسمونـه البنش وكماه واسعـان جـدا وطـويلان ومشقـوقـان فى نهايتيهما، ولايلبـس إلا فى الحفلات، ويختص رجال الشرع والعلماء بلبسه دون غيرهم من الناس.

ومع أن مصر من البلاد الحارة فإن لبس الفـرو شائع فيها شيوعا عظيما. ولم يكن شيوعه للخيلاء فقط بل للحاجة إلى الاكتساء بمعطف واسع عريض الأكمام ومبطن بالفرو. وسبب ذلك أن الطقس فى مصر ينتقل فجأة من درجة حرارة إلى درجة منـاقضـة لها فيجعل الشعور بالبرد شديـدا. وكرك السمور التركى عبـارة عن معطـف من الحريـر أو الجوخ لايلبسه إلا ذوو الحيثيـات وأصحاب المقامـات العالية ويكون محشـوا بالسمور..إلخ. وهـو معدود من شـارات الشرف ورفعة القـدر، والعلماء لا يكتسـون إلا به وإذا عين أحـد فى منصب خطير فإن علامة التقليد له فى هذا المنصب إلباسه كركا من السمور.

أما القلانس - أى مـا يلبس على الرأس فعبارة عن طربـوش من الصوف المصبـوغ بـاللون الأحمر تلـف حـولـه العمامـة. وتحت الطربـوش يضـع المصريون قلنسوة رفيعة يسمونها الطاقية الغـرض منها وقاية الطربوش من تأثير العرق والعمامـة شال من القماش الموصلى صوفا أو حريـرا ساذجا أو

مشغولا. ولايزال يوجد حتى الآن أناس يحافظون على الزى القديم ولهم طرائق عديدة فى حمل القلنسوة وتنسيق أوضاعها فإنهم يطوون الشال طيا ينطبق على اتجاه أحد قطريه ثم يلفونه بأسلوب معلوم حول الرأس مع جعل اللفات متشابكة بحيث يتكون منها فوق الجبهة ما يشبه خطين متقاطعين هكذا × واحيانا يجعلون اللفات متراكبة بعضها فوق بعض بحيث يتألف منها ما يشبه الشكل الحلزوني، وقد يكتفون بجعل الشال إلى أحد جانبى الرأس دون الجانب الآخر. واختلاف هذه الأزياء والأنماط يدل على حالة صاحب القلنسوة ويشير إلى مرتبة فى الهيئة الاجتماعية. فإما أن يكون موظفا دينيا أو عسكريا أو ملكيا.

وهناك وسائل أخرى لتسوية العمامة تدل على حال لابسيها . فهناك العمامة الخاصة بالعساكر والعمامة الخاصة بالتجار والعمامة الخاصة بالبحريين وغيرها كالتى على الطراز التركى أو الالبانى أو الأرناؤوطى أو التى يلبسها القاضى واختها التى يحملها المفتى.. الخ.

وكانت عمامات العلماء تمتاز بضخامة الحجم ، ويتكون منها حول رؤوسهم ما يشبه الكرة العظيمة. وكان بعضهم يحليها بوشاح من الكشمير أو الحرير الموصلى تهبط منه عذبتان أحداهما تمس الصدر وتبقى معلقة أمامه من ناحية إحدى الكتفين، وتمس الثانية الكتف الأخرى وتحف الاثنتان بوجه العالم والشيخ فتعطيانه هيئة الجلال والوقار التى عرفت عن رجال الدين منذ قديم الزمان.

وكانت ألوان العمائم فى الزمن الغابر تفيد فى التمييز بين طبقات الناس. فكان المسلمون يتخذون العمائم البيضاء أو الحمراء، والأشراف من آل البيت النبوى العمائم الخضراء، أما الرعايا من اليهود والمسيحيين فكان لا يباح لهم من العمائم الا أسود اللون أو أسمره أو بنفسجيه أو ما كان لونه أحمر غامقا.

ذاك كان نظام اللباس القديم ، وهو المسمى باللباس الطويل، وقد اندثر اليوم زيه ولم يعد يحمله من طبقات الناس سوى العلماء والتجار وكتبة المصالح وبوجه خاص الوطنيون من النصارى واليهود.

٣٣ ـ لبــاس المماليــك

لايزال يحمـل هذا اللبـاس بعض الـذين بقـوا على قيد الحيـاة من طـائفة المماليـك وهو يختلـف يسيرا عـن اللباس الـذى وصفتـه الآن. فإن قفطـان المماليك بدلا من أن يكـون مفرط الطول ينتهى عند الحزام فكأنـه صدرية لا قفطان. وكان الواحد منهم يلبس قفطانين أحدهما ضيق الأكمام جدا ينتهى عند الكوع. وكانوا يلبسون فيما عدا ذلـك سروالا من جوخ البندقية يحملونه فوق السروال الداخلى ويثبتونه عند الحزام بتكـة، وكان عظيم العرض سابلا إلى سمانة السـاق ويشبه غرارة كبيرة ذات ثقبين فى أسفلهـا وكانـوا يشدون بعد ذلك حزاما على وسطهم من الكشمير.

٣٤ ـ اللباس الجديد

إن الانقلاب الـذى طرأ على لباس المصريين يـرجع تاريخه إلى عهـد تنظيم الجيوش النظاميـة فى سنة ١٨٢٣ وكان نتيجة لهذا التنظيم، فكـانت العمامة أول ما حذف فى الجيش من ملابس الجنود، وفى سنة ١٨٢٦ أدخلت تعديلات أخرى. إذ تركوا اللباس العريض الهابط إلى الركبتين كما هو وأدخلوا صدرية ذات كمين توضـع فوقها سلطة من نوع مـا يلبسه عامة الشعب عندنا ، وإنما تختلـف عنها بـالسعة وانفتـاح الكمين وهبوطهما خلـف الجسم. ولم يلبـث المصلحون أن أدركوا مقدار ما تحدث هـذه الأكمام من الالتباك فى أثناء القيام بالحركات العسكرية فقضوا بحذفها وحذفت فعلا.

ولما كان الجيش فى القطـر المصرى الكل فى الكل الآن فقد كـان من المنتظر أن يسرى تأثير التعديلات التى تطرأ عليه ولقد سرى هذا التأثير فعلا فتناول اللباس القديم الشائع الاستعمال إذ أخـذ ذوو الحيثيات يجعلون ثيابهم على طراز الثياب العسكرية سواء أكانـت لهم أم لم تكن مناصب فى قيادة الجيش، وكان إبراهيـم باشا فى مقدمـة المقلدين فبدل العمامـة بالطربوش. فلـم يلبث الناس جميعا أن قلدوه ولبس الوالى نفسه عين اللباس الذى اتخذه لجيوشه.

والشرقيـون ميالـون إلى اتخاذ الثيـاب ذات الألـوان الفاتحة السـاطعـة كالأحمر والوردى والأبيض والبنفسجى..إلخ بقدر ميلهم عن الألوان الغامقة التى جعلـوها ميزة الـرعية مـن اليهود والنصارى. ولكـن الأذواق والعادات

تغيرت الآن من هذه الجهة تغيرا محسوسا إذ هجر الألوان الساطعة أفراد الطبقات العليا واعتادوا الآن لبس الثياب من الجوخ الأسود والأزرق والكستنى..إلخ وظل عامة الشعب محتفظين بالألوان الأولى.

وفى ظنى أن القلنسوة الحالية، وهى الطربوش بغير عمامة أصلح بكثير منه بها بل وأظرف شكلا. وأرى أن من غير المستطاع إدخال تغيير عليها فى زمن قريب. ولست أدرى بم يمكن تغييرها لو رغب فى هذا التغيير. فإن القبعة الأوربية ليست فى شكلها أظرف ولا أشرف من الطربوش حتى يمكن القول بالاستعاضة عنه بها. ثم إن المسلمين يمقتون القبعة إلى حد أنهم إذا أرادوا فى ثورة غضبهم قول ما يستفاد منه أنهم سيأتون أمرا نكرا قالوا بصوت التهديد أنهم سيلبسون القبعة. لأن لبس القبعة لايقل فى نظر المسلمين عن جريمة التنحى عن القومية والكفر بالدين.

وعلى كل حال فالذى نتمناه ونقترحه فى هذا الموضوع أن يجعل المصريون فى طرابيشهم رفرفا يظلل وجوههم بحيث تضاهى به القلنسوة التى يحملها جنودنا فى أفريقية. إذ مما تمس الحاجة اليه فى بلد كمصر يشتد فيها سطوع الضوء وحرارة الشمس وقاية العينين والجبهة من تأثيرهما الضار. غير أنى لازلت أشك فى إقبال المسلمين على العمل بهذا الاقتراح النافع . لأن الرفرف الذى أشرت إليه الآن يجعل الطربوش شبيها بالقبعة وهو ما يمقتونه ويتقونه بكل الوسائل.

٣٥ ـ الحذاء

لايلبس المسلمون عامة الجوارب. ولكن أصحاب اليسار منهم يستعيضون عنها بشىء من الجلد الأصفر يسمونه المزد. فإذا لبسوا هذا الشىء الذى لا هو بالجورب ولا هو بالحذاء دسوا أقدامهم فى حذاء من الجلد الأحمر أو الأصفر يسمونه بالمركوب، واللون الأصفر فى المركوب كان لا يسمح به سابقا إلا للمسلمين. أما المسيحيون فكان لا يسمح لهم إلا بالأحذية الحمراء اللون. وكان السواد اللون الأصلى فى أحذيتهم.

وفائدة لبس الحذاء والمزد معا عند الشرقيين أنهم إذا غشوا مجلسا أو مسجدا تركوا أحذيتهم مع ما يكون عالقا بها من القذر عند الباب وساروا

بالمزد على الحصر والبسط والسجاجيد بدون أن يمسها شيء من الأذى وبقيت أقدامهم مكسوة غير عارية.

٣٦ - أفكار وخواطر في الزي الحديث

بالرغم من أن الزي الجديد قد تناول اللباس المألوف بالتعديل والتغيير فإنه لم يفقد شيئا كثيرا من صبغته الوطنية لأنه جمع بعد تعديله إلى مزايا اللباس الأفرنجي أخص ميزات اللباس الإسلامي. على أنه لم يكن زيا مستحدثا فقد كان معروفا في ألبانيا والروملي ومألوفا عند أهليها فإذا اختاره محمد علي وفضله على غيره من الأزياء فما ذلك إلا لأنه طابق عنده ما كان يرمي إليه من حسن التدبير وسلامة الذوق. أما حسن التدبير فلأنه لو فرض على أفراد رعيته اتخاذه لباسا لهم لأثار غبار الاعتراضات من جهة رجال الدين وجر إلى نفسه كراهية الجمهور ونفوره. وإما سلامة الذوق فلأن الذين اعتادوا لبس الثياب الواسعة عرفوا مالها من المزايا على الثياب الضيقة وأنها تعوق حركة المفاصل ولو انساقوا بحكم التقليد إلى لبسها لاضجرتهم فقلقوا وتبرموا وربما أبرزهم القلق والتبرم إلى المترصدين للانتقاد في شكل يحملهم على الاستهزاء والاستخفاف بهم.

وما حصل من هذا القبيل في الآستانة دل على صدق نظر الوالي وسلامة ذوقه وسداد رأيه وسرعة خاطره فإن السلطان محمود قد ألبس جنوده شوار الجنود الأوربية بدون تحوير، وهو مؤلف من القميص الضيق ورباط الرقبة والبنطلون الضاغط على الفخذين والسترة الواصفة بضيقها للجسم والأحذية المغطاة فكان ذلك كله فيما عدا الطربوش نسخة طبق الأصل من الشوار المومأ إليه. وهو ماأستاء العثمانيون منه بانتقاده واستهجانه وتقبيح رأى مقترحيه والذين سعوا إلى تنفيذه بلا نظر إلى أن الجيش الذي ألبس ذلك الشوار الافرنجي جيش إسلامي. لايجوز له التشبه في زيه بالجيش المسيحي لاسيما وأن الأتراك يتضايق بهم اللباس الأوربي ولا يشعرون معه براحة حتى أنهم قلما يعنون لهذا السبب بأحكام ثيابهم أو طلب التأنق فيها أو صرف العناية بتدبيرها فكان هذا باعثا آخر على تحول ذلك الإصلاح السلطاني إلى موضوع السخرية والتهكم.

وليس من الإنصاف بالرغم مما تقدم إنكار ما لتطبيق الإصلاح المومأ إليه

من النتائج الطيبة بقضائه على الفروق التى جعلت المسلمين فى معزل عن أهل أوربا ، وصيرتهم أجانب عن هذه القارة وهم إنما يعيشون فيها. أما الاصلاح الذى قام به فكان من نتائجه أن قرب مسألة الخلف بين اللبسين المصرى والافرنجى بدون أن يؤثر فى نمطهما الأصليين تاثيرا ذاهبا بكيانهما. وهذا سيفضى حتما إلى دور من أدوار الانتقال فى موضوع اللباس يتم فيه التحول من غير صدام ولا احتكاك.

وأنماط الملابس، ولاسيما إذا كانت رمزا صحيحا للتقاليد الدينية والقومية كما هى عند المسلمين كثيرا ما تقيم بين الشعوب حواجز تتعذر إزالتها. فإذا نظرنا فى الأمر من هذه الناحية فلا يسعنا إلا الحكم بخطأ الإصلاح الذى قام به كل من الوالى محمد على والسلطان محمود. وبدهى أن الذين يسرهم بقاء القديم على قدمه لسوف يأسفون على مزايا الملابس الواسعة وفوائدها التى تجل عن الحصر، ولكن الذين ينظرون فى الأمر نفسه من الناحية العملية لسوف يرون أنهم عوضوا عن تلك المزايا الصورية والمحاسن الظاهرية بخير منها ألا وهو ما أثمره ذلك الإصلاح من النتائج الجليلة والفوائد الجمة المطابقة لمقتضيات الزمان والمكان من جهة والتى لا تخالف من جهة أخرى العقائد المستقرة فى النفوس.

هذا وفى النصوص الشرعية ما يحرم على المسلمين لبس الثياب الحريرية أو المزركشة بأسلاك الذهب، ويحظر عليهم التحلى بالذهب والفضة. ولكن صرامة الأوامر والنواهى الدينية فى هذا الموضوع لم تتغلب على ما هنالك من النزعة الطبيعية الشديدة الى التحلى والتجمل. ومفهوم أن الشارع أنس فى العرب الرغبة فى التجمل بالحلى والثياب الفاخرة فحاول، ولكن عبثا - أن يصدهم عن مناحى هذا الميل بما سنه من تلك النواهى الصارمة. ويقينى أن لا أمة من أمم الأرض قد شغفت حبا كالأمة الإسلامية بالتحلى بالذهب والأحجار الكريمة والثياب المزركشة واسرفت من مظاهر التزين والتجمل على أنواعها. ورغم هذا فإن المسلمين لا يحكمون الذوق السليم فى تنسيق زينتهم وترتيب أوضاع حلاهم، ولا يدرون كيف يوفقون بينها حتى لا تنبو الأنظار عن رؤيتها وتمج الأذواق شكلها لما استحكم فى أجزائها من التنافر وزال عنها من طلاوة التجانس والتشاكل فإنه لا يبعد فى بلاد الشرق الإسلامى أن يقع

نظرك على رجل يحمل صدرية مزركشة بأسلاك الذهب على ثياب رثة وأطمار بالية.ولا يقتنى المصريون من الثياب بقدر ما يقتنى الأوربيون منها عددا ولكن أثرياءهم وأصحاب اليسار منهم يكثرون منها ويلبسونها على التعاقب ويغيرون المجاسد أى الثياب التى تلى الجسد مباشرة مرارا فى الأسبوع الواحد. أما عامة الشعب فعلى عكس ذلك ولذا كانوا من أحوج المصريين إلى رعاية النظافة والعمل بقواعدها. والمصريون لايستعينون بالرماد فى غسل ثيابهم إذ يكتفون فى تنظيفها بالماء البسيط والصابون ولايحملون الثياب مثنية ولا مكوية.

٣٧ـ ثياب الفلاحين

ثياب الفلاحين فى الدرجة القصوى من البساطة، إذ تنحصر فى قميص وسروال من الكتان يعلوهما قميص أزرق سابغ يسمونه «العرى» يضبطونه حول الجسم بنطاق من الجلد أو القماش، وقلنسوة الفلاح صنف من طربوش أبيض أو رمادى يعرف باللبدة. وفى الشتاء يلبسون بدلا من العرى عباءة صوف واسعة الأكمام تسمى عندهم بالزعبوط.

وتختلف أشكال اللباس المصرى باختلاف الجهات. فسكان الوجه البحرى يستوفون فى ملابسهم شروط الصحة المتفقة مع أحوال الطقس فيه، وسكان الإسكندرية يتخذون جميعا ثيابا من الجوخ شبيهة بثياب المغاربة. أما القاهرة فالثياب فيها أخف منها فى الوجه البحرى والإسكندرية. غير أن الذين لا يستطيعون من أهلها اقتناء ثياب الجوخ يكتفون بالثياب القطنية. ومن غريب التناقض فى موضوع اللباس فى مصر أن سكان الوجه القبلى رغم شدة الحرارة يرتدون الاقمشة الصوفية حتى فى أشهر الصيف. ويقتصر الرجال والنساء فى ضواحى أسوان فى لباسهم على حزام من الجلد (الرهط) يضربونه على خصورهم فلا يستر من أجسادهم سوى العورة كالمشهود عند الأمم المتوحشة بالسواء.

٣٨ـ عادات المصريين فى تدبير الشعر

يرى المسلمون أن حلق الشعر فرض محتوم عليهم بحكم الدين. فهم يزيلونه برمته ولا يتركون منه سوى خصلة صغيرة وسط الجمجمة

يسمونها «بالشـوشـة» يعللون ذلك بأنهم إذا وقعـوا فى أسر العدو وسيقوا إلى الإعدام برمى الأعناق جذبهم العدو منها لكى يمضى فيهم حكمه فلا يلجأ إلى وضع يده المدنسة فى أفواههم أو يقبض بها على لحاهم.

وشعر المصريـن كشعر أقـوام المناطق الحارة غير غـزير. وخصـوصا فى اللحية. وهم يحلقون منه الجزء الذى فوق الفك الأسفل وشيئا من أسفل الفك تحت الشاربين ويغفلون الجزء المصطلـح على تسميته عندنا بالملـوكية وهى طريقة تسوية شعر اللحية كانت شائعة فى فرنسا على عهد الملك لويس الثامن عشر) ويحلقون تحت الذقن جزءا من اللحية وما يكون ناشزا من شعر الوجه ويدعـون اللحية تنمـو حتى يبلـغ طولها قبضـة اليد ويقصـون الشارب إلى مايوازى الشفة العليا ، وهم فى ذلك يخالفون الأتراك الذين لا ينقصون شيئا من اطرافه بالمقراض فينمو نموا عظيما.

وللحية احترام عظيـم عند الشرقيين، لأنها رمز الـرجولة والحريـة والقوة النفسية والبدنية. والقسم باللحية والشاربين (الشنب) يمين لايحنثون فيها. وإذا ذكر أحدهم بقلـة الفهم قالوا أن عد شعر لحيته مستطـاع. وهم شديدو العنـاية بها ، ويحرصـون على تعهدهـا بالنظـافة والطيـب لمكانتهـا عندهـم واحترامهـم إياهـا . فتراهم كلما اغتسلـوا أو توضـأوا نظفـوها بـالصابـون وضمخوها بالروائح العطرية وإذا كانوا فى بعض الأحيان يصبغونها بالحناء فما هو إلا لما رسخ فى اعتقادهم من أن سواد اللحية شطر من الجمال، وهم لا يعدلون عن صبغها إلا لاتقاء الفتنة ، ومع هـذا فعادة الصباغة آخذة بالزوال والاندثار الآن على توالى الأيام.

وقد أمـر الوالى محمد على بحـذف اللحية فى الجيش وحتمـه على الضباط والعساكر سواء. فأصبحنا الآن نرى قواد الجيش والباشوات وقد تساووا فى محو آثار هذه الحالة الطبيعية التى كانوا فيما مضى يهتمون بأمرها ، وعندنا أن إزالة اللحيـة سيذهب بـأحد السياجـات الكثيرة التى مابـرحت تحول بين الأوربيين والشرقيين، وهـى من الأهميـة بمكان لاينكـره إلا المكابـرون لأنها بإزالتهـا أحد الفـوارق والمتناقصـات التى مـن شأنها أن تجعـل الشرق على الدوام شرقا والغرب غربا تتحقق فكـرة إتحاد الشعوب واندماجها بعضها فى بعض إذا لم يكـن فى كل شىء فأقـل ما يكون فى الأخـلاق والحالات النفسية

العامة. وفى النظام الملكى لايربى الشـاب لحيته إلا إذا أذنه والده بإرخائها أو إذا حان وقـت زواجه. أمـا الأرقاء فيحـرمون تـربيتها. ولكـن إذا بلغوا سـن الكهولة وأحبوا إرخاءها أذن لهم سادتهم وأجابوهم إلى رجائهم.

ومن لالحيـة له يـرخى شـاربيه على كـل حال لأن الشرقيين يـرمون مـن لاشاربين لـه بأقبـح الصفات ويلصقون بـه العار، لـذا أنصح إلى الأوربيين الذين يجيئون إلى الشرق للسياحة بـأن يعنوا بهما ولا يتركوا الموسى تسطو عليهما.

وشـهدت بنفسـى نادرة مضحكة ذات علاقـة باللحية وإنى إذا تصـديت لـذكرهـا فى هـذا المقام فـلأزجـى إلى ذهن القـارىء فكـرة عن مبلـغ اهتمام المصريين بهذه الشارة التى يعدونها دليلا على كمال الإنسان ورجولته.

فى عام ١٨٣٤ كنت أطوف فى بعض بلاد القطر لأداء مهمة تتعلق بالتجنيد فلما وصلت إلى الزقازيق ـ وهى قريـة صغيرة من قرى الوجه البحرى واقعة على الضفة اليمنـى من بحـر مويـس ـ شـهدت قضيـة غريبـة كانـت اللحية سببها. ذلك أن شيخ البلد كان قد جاء برجل طاعن فى السن لينظمه فى السلك العسكرى فلم أوافق على قبـوله من الوجهة الطبية وكـان هذا يخوله الحق فى الحصول على الإذن، وقـد أعفى من الخدمة العسكـرية، بالانقـلاب إلى أهله. ولكنه لم يقف عند هذا الحد، بل دنا مـن المأمور وأخذ يشـخص فى شيخ البلد الذى جاء به لينظمه فى السلك العسكـرى وصاح قائلاً: «ألم أقل لك أننى غير صالح للخدمة العسكرية، ثـم التفت إلى المأمور واسمه حسن وقال: «انصت إلى قولى أيها المهـاب. إن شيخ البلد هذا خصمـى وقد حتم على مفارقـة الأهل والـوطن لأقضـى بقية حيـاتى فى ظـلال البنادق والسيـوف مع مجاوزتـى الأربعين من العمر. ولكى يضيب هذا الغـرض أكرهنى على إزالة لحيتى لأبدو صغير السن فى نظـر البكوات وما أنا كـذلك فى الحقيقة فكيـف استطيع الآن، وهى دليل مكانتى وشارة شرفى، أن أعود إلى بلدى سليب اللحية، إنى إن عدت إليه لاشك ذاهـب فريسة ضحك الصغـار وموضـع رثاء الكبـار فبحياة النبى اقض بينى وبينه بالعدل فإنك ابن إبراهيم صاحب العدل والبطش».

فتأثر المأمور بهذا القـول وسأل القاضـى الذى كان حـاضرا فى تلك الآونة

أن يدون حكمه فى الموضوع. وكان القاضى متربعا على سجادة يهز رأسه هزا خفيفا كعادة القوم هنا إذا فكروا وترووا ثـم نطق بالحكم الآتى ولم يكف عن هز رأسه: «جاء فى سورة المائدة» من القـرآن الحكيم ـ «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بـالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص» ـ ولكن لم يرد فيها شىء عن اللحية.

وكان شيـخ البلد والقاضى حينما طـرحت المسألة على القضـاء يتبادلان إشارات تفيـد التواطؤ بينهما على أمـر ما. فلما سمـع المأمور ذلك فكـر مليا وأخذ يمر بيـده على لحيته التى خطها الشيـب ثم قال: «الحمد للـه والصلاة والسلام على نبيه، حيث إن من المباح أن يقص أحـدهم لحية أخيه فقد حكمنا بأن تقص فى الحال لحية حضرة القاضى» ومعنـى هذا أن القاضى إذا أصبح ولا لحية له صار فى حكم المعزول يسخـر الناس منه. فما كادت هذه الكلمات ترن فى أذن القـاضى حتى اعتراه خوف شـديد واعتذر وابتهل وبـادر ينقض حكمه الأول منصرفا إلى تطبيق قاعدة «العين بالعين» السالفة الذكر.

وكان شيـخ البلد شديد التعلـق بلحيته فخشى أن يسطو المقـراض عليها وأن يذهب ضحيـة التهكم عليه من قومـه فالتفت إلى صاحـب الشكوى وهو ذلك الـرجل الذى أكـرهه على قص لحيتـه وقال له: «يـاخليل ياأخـى! هل إذا قصت لحيتى تنفيذا لحكم القاضى تنبـت لحيتك فى أسرع ما تنبت اللحى فيه عادة من الزمن؟ إن الأولى بنا التراضى والاتفـاق على أمر. قل لى ماذا يرضيك تعويضا لك عـن الضرر الذى ألحقته بك؟» فدارت المساومـة على تقدير قيمة لحية الـرجل حتى انحطـت على ستين قرشـا. أى ما يقرب مـن خمسة عشر فرنكا. ومع أن الرجل قد حصل بهذه الترضية على ما كان يبتغيه من العدل فى قضيته لم يشأ أن يعود إلى بلده بل ظل فى خدمة المأمور إلى أن نبتت لحيته.

والنصـارى من سكـان القطـر المصرى يجلون اللحيـة. بقـدر ما يجلهـا المسلمون ويتبعون فى تربيتها وتدبيرها والعناية بها عين الطريقة التى يتبعها هؤلاء. وأجمل اللحى وأوفاها حجما لحى القساوسة، لأنها أدعى إلى احترامهم وتوقيرهم. وإذا لم ييسر للمذهب الكاثوليكى فى الشرق الانتشار المرجو له فما هو إلا لأن قساوسه يجردون أذقانهم من اللحى.

وعادة المصريين من مسلمين ونصارى أن لايقروا بالطاعة لرؤساء دينيين لا لحية لهم إذ يقولون أنه لا فرق بينهم وبين الأرقاء فى الحرمان منها وبالتالى لا احترام لهم ولا مكانة فى النفوس.

وإذا كان قداسة البابا هو الذى استحسن تجريدهم من اللحى فإنك ترى المصريين من الطائفتين ينظرون إلى قساوستنا بعين الشفقة الممزوجة بالازدراء. ولست أدرى كيف سرى إلى كل هذا الشعور فإنى لا أتمالك هنا من الاعتراف بأننى لما ذهبت إلى روما وحضرت الصلاة التى أقامها قداسة البابا بنفسه فى حفلة فخمة أسفت الأسف كله من أن هذا الشيخ الجليل لم يضف إلى العلامات المحسوسة التى يقصد بها إلى توقيره وإجلاله التأثير الرهيب الذى يقع فى نفوس الناظرين لو أحاط وجهه بهالة لحيته البيضاء. وإنى لمعتقد بأن اللحية خير ما يليق بالوقار الكهنوتى ولست استبعد اليوم الذى يطالب فيه أحد الباباوات الذين سيخلفون البابا الحالى على الكرسى الرسولى الكرادلة والأساقفة بل أعضاء طبقات النظام الاكليروسى كله بإرخاء اللحى وأثق بافضاء الخطة التى تقتضيها كرامة الديانة المسيحية لدى الشرقيين إلى نتائج تستوجب الرضا والارتياح لاسيما وأن الشرقيين تؤثر فى نفوسهم المظاهر الخارجية أكثر مما يخطر فى بال الأوربيين.

وفيما عدا اللحية يعنى المسلمون بإزالة الشعر من جميع أجزاء الجسم التى ينبت فيها عادة، وهذه الإزالة تتم عندهم بطريقة من ثلاث إما حلق الشعر وإما نتفه - أى استئصاله وإما إسقاطه بعجينة مركبة من الجير وكبرتور الزرنيخ بحالته الطبيعية، وبعض العامة يحلون أيديهم وأذرعتهم بالوشم المعروف بالدق.

٣٩ - النظافة والوساخة

أدرك النبى أهمية النظافة فى بلاد حرها كنار تلظى ففرضها على أصحابه فرضا دينيا .فالمصريون يحرصون كل الحرص على تنظيف أعضاء التناسل ومواضع التبرز مرارا فى اليوم، ولايزاولون هذه العملية إلا باليد اليسرى باعتبار أنها الخاصة بالنجاسات، وأما اليد اليمنى فتستخدم فى الأعمال الطاهرة الشريفة كتناول الطعام والمصافحة..إلخ وهم يكثرون من

الاستحمام . وسنتكلم على هذا الموضوع فيما بعد.

ومن عادة المسلمين ألا يبصقوا فى حجراتهم ولا فى مساجدهم. فإذا كانوا فى حضرة غيرهم من الناس واحسوا بالحاجة إلى البصق أداروا وجوههم وبصقوا فى مناديلهم بأتم ما يكون من الاحتياط والحذر.

وهم يسمحون لأنفسهم بالجشاء على الطعام وأثناء الكلام بل وخلال الصلاة ويتجشأون بصوت مرتفع ينكره الأوربيون ويستاءون منه لجهلهم جريان عادة القوم به. والظاهر أن العرب نقلوا هذه العادة إلى أسبانيا فإنها لاتزال باقية ومعمولا بها حتى الآن.

وبالرغم من أن الدين الإسلامى قد فرض النظافة فإن الأغنياء كالفقراء كثيرا ما تحتوى ثيابهم القمل. وهم لا يخجلهم وجوده ولا يعنون بإبادته وتطهير أجسامهم منه. بل يقتصرون - بما جبلوا عليه من الدعة والخمول - على إمساكه بأطراف الأنامل وطرحه على الأرض بعيدا عنهم. ولدى أرباب اليسار أداة خاصة من الخشب فى شكل المغرفة يحكون بها ظهورهم ليخففوا عن أنفسهم آلام وخزها ولسعها. وقد نسب وجود القمل عند المصريين إلى الوساخة وحرارة الطقس واستعمال الثياب القطنية والإخلاد إلى الراحة والنعيم والإمساك عن المشروبات المتخمرة إمساكا تاما.

ومع أن المصريين يغسلون أفواههم مرارا فى اليوم الواحد فإن ذوى اليسار منهم الذين يراعون هذه القاعدة يصيب التلف أسنانهم أجمعين بخلاف الفلاحين فإن اسنانهم ناعمة البياض جميلة الشكل، وقد تكلم المؤرخ هيرودتس على الأطباء فى مصر أيام الفراعنة فذكر منهم طبقة كان همها الوحيد الاشتغال بعلاج الفم. وهو ما يؤخذ منه أن داء الأسنان كان شائعا فى القطر المصرى ومعروفا فى كل الادوار التى تقلب فيها، وإن من الخطأ المحض نسبته إلى تعاطى القهوة أو التدخين، وإنما السبب الحقيقى له هو النظام الغذائى الذى يتبعه الاغنياء بأكلهم اللحوم والخضر المهيأة بالسمن وتناولهم الأطعمة الحارة ثم الباردة بغير نظر إلى ضرر الانتقال المتعاقب من الحر الى البرد ومن البرد إلى الحر.

ولا يستعمل المصريون الفراجين الشعرية التى اعتدنا تنظيف أسناننا بها

لأنهم يخشون احتواءها شعر الخنزير وهو دنس فى شريعتهم، ولكنهم يتخذون لتنظيف أسنانهم جذورا ليفية لنبات يقال له الأراك ينمو فى سنار وبلاد العرب.

ولا يتولى المصريون بأنفسهم تقليم أظافرهم بل يتركون للحلاق أداء هذه المهمة بالمقراض وهم يستأصلون الأجزاء البارزة منها.

ومن عاداتهم، إذا تربعوا على الفراش، أن يشبكوا سوقهم بعضا ببعض وأن يمروا بيديهم على باطن القدمين لأنهم يحبون الشعور بالتأثير الذى تحدثه هذه الملامسة.

٤٠ - الحمامات

يفرض الدين الإسلامى على المسلمين الاستحمام بالماء الساخن لإزالة القذر. وشدة الحرارة فى بلادهم تجعلهم يستشعرون بالسرور والهناء كلما قاموا بهذا الواجب. فلا يدهش أحد مما يراه من إقبالهم على الحمامات وإكثارهم من الاستحمام.

ولقد رأينا فيما تقدم أن عدد الحمامات العمومية عظيم جدا فى القطر المصرى، وأنها فى الغالب ملحقة بأحد الأبنية الدينية. والموجود الآن منها فى القاهرة سبعون حماما بعضها مخصص للرجال دون غيرهم، والبعض الآخر للنساء وصغار الأطفال، والشطر الأكبر منها للرجال والنساء، على أن تخصص فى الصباح للرجال وبعد الظهر للنساء. فإذا كان الحمام مشغولا بالنساء علقوا ببابه قطعة من قماش الكتان أو الجوخ إشعارا للرجال بأنهم لايجوز لهم الدخول فى الحمام. وفى كل حمام خدم من الذكور لمباشرة تنظيف الرجال وغسلهم وخدم من النساء لأداء هذا الواجب نحو السيدات.

وواجهة الحمامات مزخرفة على النمط الذى تزخرف به المساجد. ويغلب اللونان الأبيض والأحمر فى هذه الزخرفة خصوصا حول المدخل. أما الحمام نفسه فيتألف من حجرات مبلطة بالرخام المختلف الألوان ويتلو بعضها البعض. وكل قسم منها تعلوه القباب مثقوبة بثقوب مستديرة ينفذ الضوء بواسطتها من خلال قطع متكورة من الزجاج. والجدران والقباب تبنى عادة بالآجر والمصيص على مستوى الأجزاء المرتفعة من الحمام ساقية لتغذية

القزان = الجزان = با لماء وهو يؤخذ أما من بئر أو من حوض فى أسفل البناء.

والقسم الأول الذى يمـر به راغب الاستحمام يسمى المسلـوخ ويحيط به صفف = مصـاطب = مفروشة للجلوس، وفيه يتجرد المستحم من ثيابه. وإذا كان يحمـل ساعـة أو نقودا أو سيفا عهـد حراستها عنـد دخولـه إلى حارس الحمام الذى يسمونه با لمعلم.

ومتى تجرد الإنسان من ثيابه جعل على وسطـه فوطة كبيرة ولبس قبقابا من الخشـب وقصد بعد ذلـك إلى مكان الاستحمام بواسطـة دهاليز عـديدة ضيقـة يعتاد بـا لمرور فيها التـدرج على الحرارة الأخيرة للحمام، وهى التـى لايطيقها المستحم إلا بهذا الانتقال التدريجى المتعاقب.

والحمام نفسـه عبارة عـن بهو كبير ذى قبـة عاليـة وأرضيـة مفروشـة بالرخام ، وفى وسطه حوض ماء ساخن تنبعث منه سحب من الأبخرة لاتلبث أن تتكاثف فوقـه ويستمر انبعاثها على الدوام فتختلط بالـروائح الزكية التى تحرق فى المبـاخر. وطـريقة الاستحمام أن يتمطـى المستحـم على قطعة مـن القماش بحافة الحوض ويسند رأسه إلى مخدة صغيرة ثـم يتخذ من الأوضاع ما يـراه الأنسب لحالـه والأوفق لراحتـه ومزاجه. وتكـون السحب العطـرية المنعقدة بتباخر الماء قد أحاطت بجسمه وأحـدثت شيئا من التمدد فى مسامه جميعا. وعقب برهة من الوقت يقضيهـا المستحم فى هذه الراحة اللذيذة تكون البشرة قد اكتست بطبقة خفيفـة من الرطوبة فيأتـى عندئذ أحد عمال الحمام ليبدأ عملـه بذلك الجسـم، ولكنه قبل الدلـك يضغط الأعضاء ضغطـا خفيفا متداركـا ويطويها طيـا رفيقا حتى إذا أكسبهـا المرونة الضروريـة فرفـع ما تحتـويه مـن المفاصـل ثم تصرف فى الجسـم بما يخيل معـه أنه بـأصابعـه السريعة يعجن اللحم الـذى يلمسه بها عجينا يراعى فيه الـرقة واللطف. وفى أثناء هذه العملية التى لم يقـل أحد أنها أفضت إلى حادث مضر لا يقتصر على فرقعة تلك الأعضاء بل يعدوهـا إلى الرقبة مرتين على الأقل. وحينما تتم الإلانة المفاصل على هذا المثال يحك الكعبين وباطنى القدمين بحجر خشن ذى مسام متخذ من الآجـر المطبوخ فيعمل عمل المبرد فى الحديـد ثم يدلك اللحـم بقطعة من الصـوف تسمى الكيس. وبتـأثير هذا الدلـك الشديد يخيـل للمستحم أن البشرة تنزع من مكـانها ولكن الحقيقة أن الأقذار هى التـى تنزع من البشرة

وتسقط بما غمر الجسم من العرق. ذلك لأن الجزيئات الصغيرة التي كانت تسد المسام ينتزعها الكيس من مكانها فيتكون من اجتماعها بعضها ببعض ما يشبه الشكل الاسطواني السالف الذكر. ومتى تمت هذه العملية شعرت بالبشرة وقد تناسق سطحها ونعمت نعومة الحرير ولا يستطيع المرء أن يتصور مقدار القاذورات والأوساخ التي تخرجها يد المدلك من جسم أكثر الناس نظافة — أي من جسم الذي اقتصر في الاستحمام على الحمامات المنزلية ولو تتابع استحمامه فيها.

ينتقل المستحم بعد ذلك إلى خلوة يصب ذلك الخادم فيها على رأسه رغوة من الصابون المعطر ثم يغسله بقطعة من ألياف النخل يسمونها بالليف. فإذا تم تنظيف رأسه وجسمه بهذه الطريقة ينزل في حوض ماء ساخن ثم يغطي رأسه وجسمه بعد الخروج منه بالبشاكير الكبيرة ويعود إلى البهو الذي تجرد فيه عن ثيابه، وهناك يطرح نفسه على طراحة يغطي فيها مرة أخرى بالبشاكير الجافة ويجفف الماء الذي كان على جسمه بها بالدلك مرة أخرى ويقضي في هذا الوضع نحو نصف ساعة مستشعرا النعيم والراحة، وتقدم إليه خلال ذلك القهوة أوالشبك للتدخين حتى إذا ما انتهى من ذلك كله لبس ثيابه التي يبخرها الخدم ببخور العود.

والعادة أن الإنسان إذا استحم على هذه الطريقة الشرقية شعر بهناء ولذة ونعيم يستحيل عليه وصفها. وغاية ما يقال أنه يستشعر بمرونة في الأعضاء ونشاط في الجسم لم يسبق له اعتيادهما بل يستشعر بأن حملا ثقيلا ألقى عن عاتقه، أو أن حياة جديدة فتح له بابها وفيها يتمتع مع الهناء والسعادة بحياة طيبة لايدرك قدرها إلا العقل والقلب كما تدركه جميع الجوارح.

وكثيرون من الناس يقصدون إلى الحمامات مرتين في الأسبوع كما يقصدها غيرهم مرة واحدة وأقل من مرة . ومنهم من يقتصر على الاستحمام في حوض ويغسل رأسه بماء الصابون المعطر. والاغتسال فرض على المسلمين كلما ضاجعوا نساءهم أو لحق بهم دنس من أي نوع ما.

ورسم الدخول في الحمام زهيد جدا. وفي متناول يد الناس جميعا فالفقراء منهم لا يعطون رسما لاستحمامهم أكثر من خمس بارات إلى عشر

أى من ثلاثة سنتيمات إلى ستة. وهم بهذا الرسم لا تدلك أجسامهم بالكيس ولا تغسل بالصابون.

أما أصحاب اليسار فيدفعون رسما للاستحمام الكامل من قرش إلى خمسة قروش - أى من خمسة وعشرين سنتيما إلى فرنك واحد وربع الفرنك على أن الدخول فى الحمامات أمر من الأهمية بحيث لايوجد ثرى إلا وفى بيته حمام خاص به.

وأعتقد أن الحمامات الشرقية مفيدة للصحة إفادة تامة، أولا لأنها كفيلة باستمرارالنظافة. وهو الأمر الذى لابد منه فى بلد تبلغ الحرارة فيه هذا المبلغ ويكثر العرق ويثور الغبار،. فيكون ذلك كله من بواعث القذارة، ثم إنها لما كان امتناع العرق فى مصر من أهم بواعث الأمراض فإن استعمال الحمامات يكون من هذه الوجهة نافع الأثر عظيم الفعل بإيقاظه على الدوام الوظائف الجلدية. وبدهى أن التجربة أثبتت للشرقيين فائدتها من هذه الجهة، ولهذا تراهم متى استشعروا بألم أو بضعف ولو خفيف فى الجسم أو بجفاف فى البشرة إلى غيرها من العوارض قصدوا إلى الحمام من فورهم وقضوا به بضع ساعات ثم كرروا هذه العمليات أياما متعاقبة.

وإلى الاستحمام فى الحمامات يرجع الفضل فى شفائهم من الأمراض الخطيرة كالأمراض الزهرية والجرب إلى آخر الأمراض الشائعة فى الشرق.

ومما لا ريب فيه أن انتشار الحمامات فى الشرق سبب من أهم أسباب نقص الأمراض الجلدية كالبرص وغيره التى كانت فى العهد السابق — بتفشيها بين الناس — تلحق بهم أضرارا كبيرة وتفتك بحياتهم وبناء على ما تقدم فإننى أعتبر أن الحمامات الشرقية من أقوى عوامل حفظ الصحة عند الشرقيين. وإنى أتمنى على الله المنى أن يشيع استعمالها فى البلاد الأوربية. لأن الحمامات التى انشئت بها حتى هذا اليوم ليست إلا تقليدا معيبا للحمامات الشرقية إذ توزيع أقسامها ردىء والانتقال فيها من الحر إلى البرد لا تراعى فيه شروط التدريج. هذا فضلا عن أن التدليك والتكييس ليسا فيها كما هما فى حمامات الشرق.

ومع انتشار الحمامات فى مصر السفلى فإنها غير معروفة فيما يلى مدينة

جرجا جنوبا . لأن الأهالى هناك مـن رجال ونساء يكتفون بالانغماس فى النيل المتـأثر بحـرارة الشمس والخروج منـه وحـرارة الطقس هنـاك تقوم مقـام الحرارة الصناعية الناشئة عن تباخـر الأبخرة من الماء الساخن فى الحمامات العادية.

٤١ ـ استخدام الوقت والأشغال

ينهض المصريـون مبكرين. إذ من واجـب المسلم الذى يهمـه أداء صلاة الصبح فى ميعـادها أن يستعـد لها عند بـزوغ الفجر فيلبـس ثيابـه ويهيىء نفسـه. وأول عمل يقوم به بعد أدائه فـرض الوضوء والصلاة أن يشعل شبكه = يدخـن البايب = ويتعـاطى قهـوته. وكثير منهم يكتفـون فى الصباح بهذا الشراب، ولكن غيرهم يميلون إلى تناول طعام الفطور.

والموسر المتصرف فى وقته يمتطـى بعد ذلك جـواده وينطلق بـه إلى منازل أقربـائه ومعارفـه لزيـارتهم أو إلى السوق لشراء بعـض اللوازم، ثـم ينتظر ساعـة العشاء متحدثا مـع صديق له ويتنـاول طعامه الأول قبل الظهـر ثم يدخـن ويشرب القهوة. وبعـد العشاء يدخـل إلى حرمـه حيث تسهـر زوجته وجاريتـه على إعداد ما تتـوافر به الـراحة لـه، وهناك ينام سـاعتين أو ثلاث ساعات وبمجرد ما يستيقظ من نومه يغسل وجهه ويعمل على كيفه.

وهذه الكلمة لا مقابـل لها فى لغتنا وإنما تدل على حالة بها تتوافـر الراحة والنعيم للعقل والجسم معا ويسكن الإنسان فيها إلى الدعة والتمتع بالسعادة وتقف الحياة العملية. فهو بالجملة نوع من السبات ترتاح النفس إليه وتكمل اللذة به تلك اللذة التـى لايفيد معناها إلا كلمة Far nienic عند الايطاليين ثم يدخن جملة شبكات ويتعاطى القهوة ويلعـب بلعبة الدامة أو الشطرنج حتى العصر حيث يعود إلى منزله لأداء الصلاة أو يذهب إلى المسجد للقيام بها فيه. وبعد انتهائه من ذلـك يخرج للنزهة راجلا أو راكبا ،ثم يعود قـافلا إلى منزله قبل غروب الشمس بسـاعة كى يتأهب لصلاة المغـرب وتناول طعام العشاء بعدهـا. وبعد العشاء يبرح منـزله مـرة أخرى إما إلى إحـدى القهوات لسماع القصص التى يرويها الشعراء، وإما إلى أحد الأصـدقاء للمسامرة معه ساعة من الزمان أو ساعتين وهو ينام عادة فى السـاعة الثامنة أو التاسـعة من المساء

ما لم تكن هناك حفلة خاصة كزفاف عريس مثلا فإنه يطيل السهرة أكثر من ذلـك. وربما يـدعوه جمال الطبيعـة فى الليـل إلى الصعـود إلى سطح منـزلـه ليستجلى مناظر السماء ويستنشق النسيم العليل.

تلـك هى حيـاة الـرجل الغنـى وهـى حياة مبنيـة على الـدعة والسكـون والتصون عـن الأعمال فإذا شئـت أن تصفها بـوصف مـا فقل إنها الـراحة المطلقة. والظاهر أن المصرى يمقت الحركة ويجتنـب السعى حتى إنه لا يرى فى السير للنزهـة باعثا من بـواعث اللهو، ولا يستطيع أن يتصـور كيف يجد الأوربيون لذة فى هذا النوع من الرياضة.

أما الذى يتولى مراقبة عمل ما أو إدارته أو يكون موظفا فى إحدى المصالح فإنه يذهـب فى الصباح إلى مقر عمله أو مركز ديوانه حيـث يقضـى النهار كله ويتناول فيه طعام الغداء ثم إلى داره.

وجماعة التجار يقضـون النهار كذلك فى حوانيتهم وهذه الحوانيت لاتوجد غالبا فى البيوت التى يسكنونها ولا فى الأحياء التى هم من أهلها.

أما الصناع فيبدأون أعمالهم مبكرين ومثلهـم الفلاحون فإنهم يخرجون إلى حقولهم فى الصبـاح ولا يرجعون عادة إلى بيـوتهم إلا فى المساء، والأعمال الزراعيـة ليست على جـانب عظيـم من المشقـة لأنهم يؤدونها ببـطء شديـد ويقضـون شطرا من وقتهم فى النوم لالتماس الراحـة مما يكون قد نالهم من العناء ويكونون فى نومهم غالبـا معرضين لأشعة الشمس، ولكنهم يقصعون = ينكمشون = فى أرديتهم أذا لم يكـن بالقرب منهم أشجـار يأوون إلى ظلها. ولقد اعتادوا حرارة الشمس حتى إنهم قلما يضجرون من زمن تأثيرها فيهم أثناء النوم أو يصيبهم من جرائها أقل ضرر.

٤٢ ـ النوم وطريقة الرقاد

إن الشعوب والأقـوام الساكنة بالبـلاد العثمانية بدوية الأصـل كلها على وجه التقـريب، فليست مسألـة النوم عندهـم من المشاغل الهامـة أو المسائل الخطيرة لأنهم بما اعتـادوه مـن تقويـض خيـامهـم فى كل لحظـة للظعـون والانتجاع لا يحوطون النوم بالوسائل الكفيلة بالراحة التى تستلزمها معيشة الإقامة فى البيوت الثابتة ، وقد ورث الأتراك والعرب الحاليون فى هذه المسألة

كما ورثوا فى غيرها من المسـائل مادرج عليه أجدادهم من الأخـلاق والنزعات والعادات فهم بوجه عام لا يعرفون استعمال الأسرة. نعم إن البعض منهم قد درجوا على استعمالها من سنـوات قليلة ولكنهم الفئة اليسيرة. والـذى جرت عليه عادة المصريين فى الرقاد أن يلقوا طراحـة أو جملة طراحات فوق البسط أو السجاجيـد ثم ينـامون عليهـا بثيابهم ويـزعمون أن هـذا الفراش الـذى يجهزونه فى بيوتهم كل مساء ويجعلونه لاصقاً بالأرض أصلح من كل طريقة سواها للرقـاد بسبب احتفاظ الفراش فى كل نقطة من نقطه وجهـة من جهاته بـالاستواء الأفقـى. ويقـولـون أيضا إنـه أقـل كلفـة من الأسرة وأبسـط فى الاستعمال، وإذ كانوا لايخصصون فى منازلهم غـرفا معينة للنوم بها فإنهم يطوون الطراحات بسهولة ويرفعونها لوضعها فى مكان آخر، وبذا يتصرفون فى الغرفة التى قضوا الليل فيها نوما لما يشاءونه من المصالح البيتية الأخرى.

وطـراحات الشرقيين محشـوة بـالقطن وليسـت بـذات سمك عظيـم. لأن المصريين يفضلـون الـزيـادة فى عـددها على المبـالغـة فى حشـوهـا. وسعـة الطراحات مـن طول وعرض وسمك مقـررة عندهم ومرعيـة فى كل مكان لأن تقديرها بنى على ما هنالـك من الضرورة لطيها ونقلها من مكان إلى مكان، دع أنه إذا كان الفرش مكونا من طراحات سميكـة فإنه يسد المنافذ ويكون باعثا على زيادة الحرارة.

وملاءات الأسرة عنـد الأغنياء تتخذ من الحريـر أو التيل الناعـم، وتكون الملاءة العليا متصلة بالغطاء.

وأصحاب اليسار فى المدن يخلعون قبل النوم الثيـاب التى كانت عليهم فى النهار فلا يبقى منها على أجسادهم إلا القميـص واللباس ثم يلبسون جلبابا يسمـونه بـالقفطان يشـدونـه على وسطهم بحـزام من الكشمير أو الحريـر ويخففون من القلنسوة مكتفين بطاقية بسيطة.

والكثيرون من الصنـاع والعمال لايملكون فى العـادة ما يفترشـونه أثنـاء نومهم غير السجـاجيد والأبسطة . والفقراء منهم يتـوسدون الحصر، والنوم عندهم ليـس من المسائل التى تستوجب قلـق البال. إذ أنهم يعمدون إلى رداء واسع يلفون أجسامهم به أو يفعلون مثـل ذلك بالغطاء الذى يبغون التغطى

به ثم يرقدون على الأرض. وقد اعتادوا جميعـا هذه الطريقة فى نومهم إلى حد أنه لما شرعت الحكـومة فى تنظيم الجيش على النسق الجديـد ارتأت ألا تعطى العساكـر فراشـا ما للرقـاد عليه مقتصرة على أسرة الميـدان التى كـان هؤلاء العساكر يفرشونها ببطانية صوف ثم ينامون عليها.

والظاهر أن المصريين ينـامون طوع إرادتهم. فالأغنيـاء منهم إذا أحبوا أن يجلبوا النوم بسهولـة كلفوا جواريهم أو خدمهم أو نساءهـم بكبس أقدامهم وسيقانهم فيفعل هـذا الضغط فيهم. فعل التنويـم المغنطيسى. وإذا اشتدت الحرارة عهدوا إلى عبيدهـم السهر طول الليل بجـوارهم ليذبوا بـا لمذبات عن وجوههم ما يسَّاقط عليها مـن الذباب أو ليروحوا على وجوههم با لمراوح ولهم طرق خاصـة للاستيقاظ من النوم فإنهم لا يستيقظـون على جلبة صوت أو جذب يد، كـلا! بل أن الخدم أو العبيد يدنون منهم بـاحتراس وحذر ويمرون بأيديهم مرا متداركا على باطن أقدامهم إلى أن ينتبهوا من نومهم مستشعرين بلذة هذا اللمس.

٤٣ ـ أصوات النداء والتعجب والاستفهام والقسم..إلخ

لما كان المسلمون شـديدى التمسك بالـدين فإنه غـالبا ما تراهـم فى أثناء محادثتهـم يرفعـون أصواتهم بـذكر الإلـه والنبـى والقرآن فى كـل من تلـك الأحوال. وهـم شديدو الميـل إلى القسم. فـلا يستشـهدون على ما يقـولون إلا بتلـك الكلمات التى هـى موضـع إجلالهم واحترامهـم وكثيرا ما ينطقـون فى الأيمان بكلمة «واللـه» وقبل أن يبدأوا بعمل أى شـىء يرون من الـواجب أن يقولـوا «بسم الله الرحمن الـرحيم» فإذا انتهوا منـه قالوا «الحمد للـه» وهم لايحدثون أبدا عن شىء فى المستقبل إلا إذا قـالوا [إن شاء الله] أو عن حادث وقع فى الماضى إلا وقالوا «الله أعلم».

والمسلمون أبعد الناس عن سب الأديـان وإذا سمعوا أحدا يسبها امتلأوا حنقا وغيظا. أما معجـم الشتائم عندهم فغنى بكثرة الألفـاظ. ومنها ما يندى الجبين خجلا عند ذكره. فهم يتقاذفون بمثـل لفظ «الخنزير» و«الثور» وهم يتظاهرون أحيانا بالبصق على الـذين يشتمونهم. لأن البصق فى نظرهم أبلغ

فى الإهانة والتحقير.

٤٤ ـ الخدم

اعتاد المسلمون الإكثار من الخدم وهؤلاء ينقسمون فرقا عديدة لكل فرقة اختصاص بحسب ما تزاوله من العمل. فمنهم الفراشون الموكول إليهم العناية بالشئون الداخلية فى المنزل وفرش الفراش..إلخ. ومنهم السقاءون الذين يحملون إلى المنزل ما يحتاجه من الماء، ومنهم الطباخون الذين يباشرون طهى الأطعمة، ومنهم الشبكجية الذين يجهزون الشبكات بوضع الدخان وتقديمها إلى المدخنين. ومنهم القهوجية والسواس الأولون لتقديم القهوة والآخرون لتدبير شئون الدواب. ولكل منزل بواب يحرس مدخله ويعرف الداخل فيه والخارج منه.

وجرت العادة بأن تكون رياسة الخدم للسقاء. وفى بيوت متوسطى الحال يكون لكل فراش من الفراشين رئيس مسيطر على أفرادها. والخادم لايؤدى سوى العمل الذى وكل به أداؤه والذى يعتبر أنه صناعة له لايجوز أن يتعداها إلى غيرها. وفى هذا من المضار والعوائق ما يجعل رب البيت مضطر دوما فى قضاء حاجته، ولو كانت تافهة، إلى الاعتماد على أناس مختلفين يعلم أحدهم ما لايعلمه الآخر. دع ما يستلزمه أيضا من استخدام عدد عظيم من الخدم والقيام بالانفاق عليهم جميعا. ولقد تغيرت هذه الحالة بعض الشىء إذ قل عدد الخدم كثيرا عن ذى قبل، واقتصر الناس على الاحتفاظ بمن لا يستغنى عنه منهم، وذلك بفضل سمو الوالى ونجله إبراهيم باشا اللذين نصبا نفسيهما للقدوة فى هذا الموضوع.

والمسلمون كثيرو الرعاية والعطف على خدمهم. إذ يتولون تغذيتهم وكسوتهم مع دفع الأجور المستحقة لهم. وليست هذه الأجور بالشىء الذى يستحق الذكر، ومع ذلك فإنهم يقومون بواجبهم خير قيام ويؤدون عن طيب خاطر الأعمال التى لم يكن القيام بها ـ وقد قسمت ذلك التقسيم ــ مما يستدعى الكلفة والمشقة. وإن خادما واحدا عندنا ليقوم بسهولة ومن غير ضوضاء بعمل أربعة أو خمسة من الخدم المصريين، ولذا نرى هؤلاء يعمدون

إلى الدعة والسكون ويميلون إلى البطالة والكسل ولايزاولون العمل بنشاط إلا بدافع الخوف من العقوبة.

ولا يتخذ الرجال ابدا لخدمتهم خدما من النساء ولا النساء خدما من الرجال، والعادة الأوربية الجارية على عكس هذا المبدأ، وهى من أخص عاداتنا وتسوء المسلمين كثيرا إذ يرون فيها العار والفضيحة كلهما.

والخدم المصريون شديدو الشره إلى النقود، وعادتهم أن يسألوا جميع المختلفين إلى منازل سادتهم، وخصوصا فى أيام الأعياد، هدية من المال يسمونها «العيدية» فإنك إذا خرجت من منزل بعد زيارة صاحبه جروا خلفك ليساعدوك على امتطاء جوادك أو بغلك ثم مدوا أيديهم لطلب المكافأة الصغيرة المعروفة عندهم بالبقشيش. والبقشيش عادة جائرة متبعة وهى فى ذلك كعادة Bona Manc الشائعة فى بعض الأقاليم الإيطالية. ويذهب الخدم المصريون المذهب البعيد فى المطالبة بالبقشيش لأنهم يتقاضونه فى مقابل ما يكونوا قد أدوه إليك أو أداه سيدهم من الخدم وبمناسبة ما تكون قد قمت به منها لأجلهم فإذا أقمت مثلا وليمة ودعوت إليها أصحابك فإنك ملزم بدفع البقشيش لخدمهم.

ولقد عدت بصفتى طبيبا أحد المرضى ولم أتقاض أجرة عيادتى له فما برحت غرفته حتى حوصرت بالخدم ولم أتخلص منهم إلا بإلقائى بعض النقود فى أيديهم. ولقد نهى سمو الوالى عن هذا لعبث وشدد فى أمره ولكنه كان متأصلا فى النفوس فلم يستطع اقتلاعه منها.

وكان من غير المسموح به للمسيحيين فى البلاد الإسلامية اتخاذهم الخدم من المسلمين لاعتبار القوم استخدام المسيحى مسلما إهانة للإسلام وسبة. ولكن مصر ظلت بعيدة عن هذه العادة التى دعا إليها التعصب ولولا تسامح المصريين فى هذه النقطة لوقع الأوربيون المقيمون بها فى أشد الحيرة والاضطراب بدون ريب.

(٤)

النســـاء

النساء المصريـات ـ وسـائل الزينـة ـ تـزجيج الحواجـب ـ تلـوين الجفون والأظافر والأصابع وباطـن القدم ـ الوسيلة الصناعية لتسمين العنق ـ الوشم ـ خفض النساء ـ النسـاء التركيات ـ سن البلـوغ عند المصريـات وحملهـن وشيخـوختهـن ـ الملابـس ـ النسـاء الغنيـات ـ التعديـلات الحديثة التى طـرأت على ملابـس النساء الغنيات ـ نساء العامـة ـ الميـزات الممنوحـة للنساء ـ زيارات نسـاء الحرم ـ مشـاغل النساء ـ آراؤهن فى حالتهـن ـ استحمام النسـاء فى الحمامات ـ حكـاية رواها نابليون ـ أخلاق العاهرات المصريات.

٤٥ ـ النساء المسلمات

النسـاء المسلمات، وهن الشطر الأوفى من جماعـة الجنس اللطيف فى القطر المصرى، متوسطـات القامة يلفتن الأنظـار إليهن بحسـن شكلهن ويشـاركن الرجال فى متانـة التركيب ووثوق الأركان، ويقاسمنهم مشـاق العمل الواجب عليهم وحـدهم أن يقومـوا به، وكثيرا مـا يعلون عليهم فى أدائه . وعمـودهن الفقرى مقـوس وأعضاؤهـن المختلفة مستديـرة منتظمة وأيـديهن وأرجلهن صغيرة شثنـة، وأعينهن واسعـة سـوداء سـوادا فاحما، ينقـدح منهـا شرر الحياة، تحيط بها أهداب طويلة تزيـد وجوههن حسنا وتبث فيها من الحلاوة ما يستهوى الأفئدة وأنوفهن صغيرة خفيفة الانبطاح وشفاههن سميكة قليلا وأسنانهن جيدة الاصطفاف ناصعة البيـاض تخالف ببياضها لون بشرتهن الضارب إلى السمـرة، تتفاوت سمـرته بحسـب ما إذا كـن من أهـالى الوجـه البحرى أو أقاليم مصر الوسطى أو الـوجه القبلى أو من أهالى المدن أو الريف. وأثداؤهن جيدة التكون حسنة الوضع وافية صلابة تحلى صدورا عريضة، لا قبل لها بالحيل الضارة التى يلجأ إليها السيدات الأوربيات لتحسينها.

أما مشيتهن ففى النهاية من الرقة والرشاقة والدلال، إذا مشين فبخطوات واسعة معينة المواطىء. وفى أوضاع أجسامهن ما يشعر بالجلال والفخامة وفى حركاتهن من اللطف والرشاقة والخفة ما يحرك ذكرى نساء العصور الغابرة وفى أصواتهن من العذوبة والرخامة واللين ما يستهوى السمع ويرتفع له حجاب الأذن خصوصا وأن عباراتهن فى أحاديثهن كثيرا ما تلابسها تلك العذوبة، فإنهن إذا وجهن الخطاب إلى أحد دعونه بقولهن «ياعينى» «ياروحى» «ياقلبى» إلخ ألفاظ الرقة والعطف. وإذا كان المخاطب رجلا أطلقن عليه اسم السيد أو الأخ أو غيرهما من الألفاظ التى تستروح منها رائحة الاحترام.

٤٦ ـ وسائل الزينة والتبرج

تهتم المصريات كثيرا بوسائل الزينة والتجمل لأنهن شديدات الطموح إلى الظهور فى المظهر الفاتن لعقول الرجال وقد استنبطن لإصابة هذا الغرض ألف وسيلة ووسيلة كلها من الغرابة بمكان. منها أنهن بدلا من تركهن الحواجب تنمو على طبيعتها يزججنها أى يرققنها بالإنقاص من عرضها حتى لا يبقى منها سوى خط رقيق جدا. ومنها انهن يكتحلن أى يصبغن باللون الأسود منابت شعر الأجفان ويستعملن لهذا الغرض مسحوقا أسود يسمونه الكحل أو الاثمد يضعنه فى إناء صغير من الفضة أو البللور يسمى المكحلة يدخلن فيها عند الاستعمال الميل (المرود) الذى يرفعن المسحوق به إلى الجفون فإذا تكحلن على هذا الوجه بدت أشفار الأجفان سوداء براقة، وإذا لم يسرفن من الكحل حصلن على نتيجة حسنة تبدو عيونهن بها فى أجمل ما يكون. ويضعن فى مكان يخترنه من الوجه الخال الصناعى كما يضعنه على الرقبة والنحر.

ويصبغن اظافرهن والأجزاء الناتئة من باطن سلاميات الأصابع وباطن القدمين وأطراف أصابعهما باللونين الأسود والأحمر. يحصلان عليهما بورق شجيرة الحناء. فإن هذا الورق إذا سحق وبل المسحوق فى الماء تكونت منه عجينة توضع على الأيدى بتقسيم فنى لايعلمه غيرهن. فإذا نزعت فى الصباح وجدت تاركة اثرا جميلا جدا، والمفهوم أن الغرض من هذه العناية أظهار بياض بشرتهن وحسن لونهن.

٤٧ ـ الوشم أو الدق

اعتاد نساء الطبقة الدنيا وشم شفاههن السفلى وأذقانهن وسواعدهن وأيديهن.

٤٨ ـ خفض النساء أى (ختانهن)

تعمل للفتيات المصريات عملية الختان أو الخفض متى ناهزن السابعة أو الثامنة، إذ يؤخذن إلى الحمام وفيه تؤدى تلك العملية الموكلات بها بواسطة مقراض ردىء. ولست أعلم أصل هذه العادة ولاسببها ، ولكن يظهر أن الغرض منها التلطيف من حدة شهوة المرأة المصرية لا ما يعزون إليها من الأسباب الصحية فإن بظر المرأة المصرية ليس أعظم حجما ولا أكثر انتشارا منه فى المرأة الأوربية. دع أن الديانة الإسلامية لم تحتم حذف هذا العضو من جسم المرأة . والمرجح أن هذه العادة كانت شائعة على عهد قدماء المصريين فوجودها الآن راجع إلى استمرارها على توالى الأجيال ومر الأزمان.

٤٩ ـ النساء التركيات

النساء التركيات أجمل نساء القطر المصرى على الاطلاق. لأن أغلبهن من الجوارى الجركسيات ومنهن طائفة السرارى والحظيات فى القصور ودور الأغنياء وبشرتهن ناصعة البياض وتقاطيعهن من التناسق والجمال بحيث يمكن القول بأنهن أجمل نساء الأرض طرا.

٥٠ ـ سن البلوغ عند المصريات وسن الشيخوخة

تبلغ نساء مصر سن الحلم فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرهن، ويصرن لهذا السبب أمهات فى الثانية عشرة وجدات فى الرابعة والعشرين وجدات لوالدات فى السادسة والثلاثين وجدات لجدات فى الثامنة والأربعين، وليس من النادر فى مصر أن يرى الإنسان نساء معاصرات للطبقة الخامسة من سلالتهن.

وبلوغ النساء المصريات الحلم فى تلك السن يؤدى غالبا إلى ذبول زهرة شبابهن. بحيث لايبعد أن ترى مصرية فى الخامسة والعشرين قد عراها من علامات الذبول والهرم مالا يعرو المرأة الأوروبية فى الخمسين من عمرها. وقد اجمع المؤرخون من قديم الزمان على سرعة قابليتها للحمل. والمصريات

اللائى يصبن بالعقم ينظر إليهن بعين الاحتقــار والامتهان، لذا تراهن دائبات على البحث عن الوسائل الكفيلة بحملهن، ودخولهن فى ديوان الأمهات.

٥١ ـ لباس السيدات الغنيات

نســاء العظماء وذوى الحيثيـات يمتــزن على ســـائر النســاء بما تجمــع ملابسهــن على تنوعهــا من أسبــاب الزخــرف والزينــة والتبرج من زركشــة بالــذهب والحريــر والكشمير ذى الألوان الساطعــة ومايتعلــق بكل ذلــك من التوشية وغيرها. وفيما يلى بيان الملابس المختلفة الخاصة بالسيدات:

قميــص مــن حريــر الموسلين أو القماش الـدقيـق السلك أو الكــرّيــب أو الأنسجة الثمينــة، ويكون إما أبيض وإمــا على ألوان كالــوردى والبنفسجى والأسمر والأزرق السماوى أو الأســود أحيانا. ويزركــش غالبا بــالحرير أو أسلاك ذهب لامعة ويكون فى العادة واسعــا جدا وعريض الأكمام وقد لايهبط إلى الركبة فيغطى الجزء الأعلى من الملبس الذى يتخــذ من التيل الدقيق السلك وإما من حرير الموسلين.

شنتيان عريض القماش ينــاط بالخصر بواسطة تكة تمر فى باكيــة بأعلاه ويربط من أسفــل بالساق ويهبط من موضــع ربط ســابلا الى القدمين فيكون أشبه شىء بالجونيلا.

يلك (أى ثوب) يلتصق بالقامة عند الحرقفتين فيصفهما إلى القدمين، وهذا الرداء مقور بحيث إن مكان النحر منــه لايغطيه ولايثبته فى مكانه إلا القميص وهو يحتوى أزرارا مــن أمامه تتلو بعضها بعضــا من فوق إلى تحت الحزام، ويكــون مفتــوحــاً من الجانبين مــن ابتــداء الحرقفتين، والكمان يــلاصقــان الذراعين ثــم يذهبان متسعين شيئا فشيئــا من الكوع ويهبطان حتــى يعادلا أسفل الثوب وقد ينتهيان عند المعصمين.

حزام يحيط بالوسط، وهو إما مــن الشــال الكشميرى أو مربع من حرير الموسلين أو من أى قماش آخر كالشيت بحســب تفاوت درجات اللابسات فى الثروة. فإذا كــان الحزام عبارة عن مربــع من الحرير فانــه يطوى على اتجاه أحد القطريــن ثم يوضــع على أسفل البطــن وتبقى زاوية من زوايــاه من خلف

الجسم، ثم يعاد بطرفيه إلى الأمام حيث يثبتان بعقدة أو مشبك. وبهذه المثابة يكون الحزام المحيط بالجسم غير ضاغط له فى أى جزء من الأجزاء التى يلامسها.

وتلبس السيدات فوق اليلك جبة من الجوخ فى فصل الشتاء، وينتهى كما هذه الجبة عند الكوع وتقور من الأعلى ولا تلتقى حافتاها فوق الصدر. ولذا تبقى مفتوحة على الدوام، وتكون إما سانجة بسيطة أو مشغولة بالتطريز وبعض السيدات يستعضن عن الجبة بلباس آخر معروف عندهن باسم «السلطة».

أما القلنسوة - أى لباس الرأس فعبارة عن طاقية حمراء صغيرة يلف حولها على شكل العمة منديل أو أكثر من قماش الكريب أو حرير الموسلين الأبيض أو المرسوم أو المزركش بصنوف الزخرف.

وفى مقدمة الطاقية تثبت صفيحة مستديرة مكورة يبلغ طول قطرها ثلاثة بهامات تقريبا وتسمى بالكور، ونساء الطبقة الدنيا يتخذن هذه الصفيحة من الذهب فقط.. أما نساء الأغنياء فيتخذنها كذلك مرصعة بالأحجار الكريمة.

وترسل شعور القسم الأمامى من الرأس مجعدة بشكل الخلقات أو الصدغين أو ترفع الى فوق بالشكل المعروف «بالباندو» والنساء المصريات كنساء أوروبا يجمعن شعورهن خلف الرأس ولكنهن بدلا من رفعه إياه عليه يرسلنه إلى الظهر ويعقصنه ضفائر صغيرة يختلف عددها من إحدى عشرة ضفيرة إلى خمس وثلاثين، ويهتممن الاهتمام كله فى أن يكون عدد هذه الضفائر فرديا ويدخلن فى تركيبها ثلاثة خيوط خفيفة من الحرير وتنتهى كل ضفيرة بحلية ذهبية أو بقطف من اللؤلؤ أو بقطعة نقد مثقوبة من الحافة. ومجموع هذه الضفائر منسقة على الوجه السالف يسمى بالصفا.

ثم أن المصوغات واللآلىء والأحجار الكريمة من الماس وغيره تكثر فى زينة تلك النساء، فيكون منها الأقراط فى الآذان والعقود العديدة والقلائد فى النحور والخواتم الساطعة الضياء فى الأصابع.

والسيدات المصريات بوجه عام لا يلبسن الجوارب. ومع هذا فبشرة أقدامهن من النعومة بما لاتختلف به عن بشرة أيديهن لأنهن يغسلنها غالبا

بالماء المعطر ويعنين بتنظيفها ويقلمن أظافرهن بالحناء. واللائى يبالغن منهن فى التأنق ويذهبن المذهب البعيد فى التبرج يحلين أصابع أقدامهن بما يحلين به أصابع أيديهن من الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة ويلبسن فى أقدامهن حذاء يسمونه (المزد) من الجلد الأصفر أو القطيفة المشغولة بالحرير أو القصب لاحافة له من الخلف، لذلك يرى الكعبان ظاهرين للعيان، ويقوم المزد فى أقدام النساء مقام الجوارب. لأنهن يبقينه بأقدامهن أثناء ذهابهن إلى الدواوين والسجاجيد. أما إذا أردن السير فى مكان آخر فإنهن يلبسن من الأحذية نوعا يقال له البابوج وهو حذاء من الجلد الأصفر طرفه دقيق ملتو إلى فوق، وإذا أردن الخروج وضعن أرجلهن وسيقانهن فى أحذية صغيرة من الجلد الأصفر صونا للساق من وقوع النظر عليها.

إن اللباس الذى وصفته الآن خاص بداخل الحرم، وهو فى بعض أجزائه على غاية الحسن. ولكن اللباس الذى تتغطى به النساء بين الجمهور يجعلهن شبيهات بالراهبات عندنا، أو بعبارة أخرى بمن يلبسن الثياب المعروفة بالدمينو فى مراقصنا.

فإنهن إذا أردن الخروج أفرغن على أجسامهن فيضا من الحرير الأسود يسمينه «السبلة» ثم يغطين هذا القميص بإزار واسع جدا من حرير الحبر (التافتا) ويسمينه بالحبرة. وهو يغطى الجسم كله. وهناك إزار آخر من حرير الموسلين يستر من وجه المرأة المصرية إذا لبسته، كل شىء إلا العينين وحبرة المتزوجات سوداء عادة بخلاف حبرة الفتيات اللائى لم يتزوجن فإنها بيضاء اللون، ونساء الطبقة الدنيا اللائى لايستطعن اقتناء الحبر من الأقمشة الحريرية يتخذن هذا اللباس من نسيج الخيط والقطن ذى الأرضية الزرقاء ويسمينه «الملاءة».

٥٢ ـ التغيرات التى أدخلت على ثياب نساء الأغنياء

إن الزى الحديث فى الثياب لم تصل عدواه إلى النساء المصريات ورجالهن. ومع هذا فقد أخذ اللباس المصرى، منذ سنوات قليلة، يتغير شيئاً فشيئاً بتأثير التحسينات التى أدخلت عليه- مثال ذلك لباس الرأس عند السيدات أصبح غير مثقل بالعمائم الكبيرة المرصعة بالجواهر، وهذا فضلا عن أن الصفا نفسه كاد يزول استعماله على أثر اعتياد النساء ضفر شعورهن

ورفعه فوق الرأس.

ولم تعد النساء يتركن القميص فوق الشنتيان كما كن يفعلن سابقا، كما أن اليلك لم يبق بطول اليلك الذى كان شائع الاستعمال قبلا. إذ أصبح كماه منتهيين عند المعصمين ولم يكن مقورا على الصدر بل صار يزرر فوق هذا الجزء من الجسم ويلتقى طرفاه به كما فى ثياب الأوربيات. أما الجبة فقد أصبح استعمالها مقصورا على الطاعنات فى السن وشاع استعمال الجوارب بين نساء الطبقة العليا وتركت الملابس المزركشة بالذهب فى زوايا النسيان وحل محلها نسيج حرير الموسلين الساذج..

وبالجملة فقد تمت هذه الإصلاحات وأدخلت على اللباس المصرى فجعلته مطابقا للذوق السليم ومانعا من الإسراف فى النفقة والاسترسال فى الزخرف الذى لامعنى له.

٥٣- نساء الطبقة الوسطى

يلبس نساء الطبقة الوسطى بدلا من قميص التيل قميصا من الحرير وحذاء يسمى بالمركوب يمكن أن يقال أن أقدامهن لاتشعرن فيه بضغط ما عليها.

٥٤- نساء الطبقة الدنيا

أما لباس نساء العامة فأكثر من اللباس السابق سذاجة. لأنه عبارة عن قميص واسع من القماش الأزرق عريض الكمين جداً يلبس فوقه قميص أبيض ولباس. وهن بوجه عام لايحملن الأحذية فى أقدامهن.

٥٥- مساكن النساء والحرم

فى منازل الأتراك قسم منفصل عن القسم الذى يسكنه الرجال أو الذى يجتمعون فيه . وهو خاص بسكنى النساء ويسمى «الحرم» والفكرة الشائعة عن الحرم فى أوربا لا أثر لها من الصحة ولا نصيب من الصواب. فإن هذه الكلمة مستعملة فى المعنى الذى يؤخذ من لفظ السراى أو القصر. والحال أن المسلمين يطلقون كلمة الحرم ليس فقط على المسكن الذى يقطنه النساء بل مايحتويه هذا المسكن من الساكنات ـ أى على المحل والحال.

وليس فى التقسيم الداخلى للحرم ما يعد خارجا عن القواعد المألوفة. فإنه

يحتوى - كالمسكن الخاص بالرجال - ديوانا أى غرفة تجتمع فيها النساء لمشاهدة بعضهن البعض وتستقبل الزائرات، ثم حجرة لكل منهن وغرفا تابعة لهذه الحجرات لسكنى جواريهن وخدمهن وحفظ حاجاتهن المنزلية. ورب البيت يجتهد بقدر الإمكان فى تجنب أن يكون لهذه الحجرات نافذات تطل على الشارع، ولذا تستمد الضوء والهواء من نافذات تطل إما على الحديقة وإما على صحن البيت، والنافذات ذات حواجز من الخشب المشغول بحسب الفنون المستظرفة فتحول دون نفوذ الأشعة الشمسية وأشعة أنظار الذين يحاولون استكشاف ما وراءها.

والفكرة السائدة فى أوربا عن الحرم أنه مهد للفسق والفجور وبؤرة للعهارة اتخذتها أمة فاسقة لتمتعاتها الشهوية العديدة والمضى فى تيار الفساد الذاهب بالعقل. وهذا هو الوهم الباطل بعينه. فإن الحرم يسود فيه نظام أساسه الشدة والقسوة وتنتشر عليه ألوية الصيانة الدقيقة.. وهذا وذلك مما يجعله أقرب فى الشبه إلى الأديرة الخاصة عندنا بالنساء.

٥٦ - الهيئة التى يتألف الحرم منها

لايذهب الوهم بالقارىء إلى أن المقصود بوجود النساء فى الحرم الاستعداد لإطفاء شهوات رب البيت .لأن حرم الرجل الغنى يقتضى التوسع فى المعيشة والاسترسال فى المظاهر ويتطلب وجود عدد عظيم من الخادمات للقيام بحاجات الخدمة الداخلية. وتكون هاته الخادمات عادة من السودانيات ، وهذا وحده يكفى لإدراك الحالة التى يصير إليها الحرم إذا جاز أن يتألف من السواد الأعظم من نسائه.

ثم أن لكل زوجة من زوجات رب البيت بلاطا صغيرا خاصا بها يتألف من جوار مخصصات لخدمتها بالذات يؤدين حواليها الواجبات المطلوبة من الخدم فى بيت أحد الرجال، ولكل زوجة كاتمة سر وخازندارة ووصيفة، ولكل منهن وظيفة موكولة إلى عهدتها فمنهن من توكل إليها الخدمة على الطعام أو تدبير شئون الثياب، ومنهن من تكلف بتجهيز القهوة أوالشبك وتقديمهما إلى الشاربات والمدخنات..الخ.

ومن بواعث الشرف للزوجة أن يكون عدد جواريها كبيرا. لأنها إذا خرجت

صحبنها وســارت هى فى طليعتهن افتخارا بـأنهن على كثرتهن من تـوابعها. وكان المماليك فى الـزمن السابق يرون أن الفخـر كل الفخر فى أن يسيروا وفى صحبتهم العـدد العظيم من الخدم والحشم إظهـارا لما كانوا فيه مـن الثروة والنعيم والصولة.

ولكـل من تلـك الجوارى الـلائى يشغلن لـدى الزوجـات تلـك الوظـائف المختلفـة طائفـة مـن الخادمات. فيـزداد بهذا النسـق عدد النســاء فى الحرم ويتضاعف بازدياد وتضاعف عدد خـادمات الزوجات وخادمات خادماتهن. ومن ثـم يمكن ان يقـال إن فى الحرم المؤلف من مـائتى امـرأة أكثر مـن مائة وخمسين يجهلن رب البيت. ولست فى حاجة إلى التأكيد بأن الحرم المؤلف من مائتى امرأة نادر جـداً فى أيامنا ، وأن أكابر موظفى الدولة وحـدهم هم الذين لايعجزهم الإنفاق على هذا القدر العظيم من النسـاء.

٥٧- المعيشــة فى الحـــرم

لاترى النساء المسلمات فى بقائهن بداخل الحرم شقاء وعذابا، لأنهن ولدن فى دائرته وبلغن فيه إلى سن الشباب بدون أن يعلمن أن على وجه الأرض مقرا لنوعهن. يخالف هذا المقر ولا طريقة للمعيشــة تناقض مادرجن عليه منها فى كنفه. فلقد كان الحرم المعهد الأول لألعابهن فى طفـولتهن وأفراحهن وآلامهن وآمالهن فتعاقـب الفرح والألم والعمل والراحة فى معيشــة الحرم الشرقى هو بعينه تعاقب هذه المؤثرات على مسرح الحياة الذى فتح العرب أبوابه لنسائه.

ولقد قيل بحق. وهو قول قالـه الحكماء منذ زمن طويل «أن العادة طبيعة ثانية». فمعيشة الحرم من هذا الوجه تنزل من النساء المسلمات منزلة العادة لأنهن إعتدن الحركـة فى حدود هـذه الدائرة فلا يخطـر ببالهن أن يتعـدينها ولهذا وقفت أفكارهــن ورغباتهن عند هذا الحد بدون تكلف وعنـاء لاعتبارهن إياه مما قضى به الزمن والديــن والعادة . وهن إذا بلغن سن الزواج وخرجن من حرم الأم إلى حرم الزوج أحاطت بهن الأفراح والمسرات الجديدة وواجهت أفئدتهن السعـادة المأمولة من الحيـاة الجديدة. لأن التربية التى تـربينها لم تضرم فى هذه الأفئدة ضرام الشهوات المخوفة. دع أن العنـاية التى يلقينها من أزواجهن تجعل الطريق الموصل إلى تلك السعادة سهلا ممهدا.

وكل ما يملكـه المسلم من حسن ونفيس يخصصه لحرمـه، وهو يميل إلى

إعطاء مسكن نسائه رونقا من الجلال والفخامة. بينما يكتفي بالمسكن البسيط لإقامته، ويقتصر في الزخرف ومظاهر الأبهة على اقتناء السلاح والخيل. ومع ما استقر في الأذهان من أن النساء المسلمات رقيق لأزواجهن فإن لهن كما بسائر البلاد نفوذا عظيما وبأسا شديدا . فكم من الحوادث السياسية كان الباعث عليها سرا كمينا = دفينا = في الحرم وكم من سلطان رضخ لما لا يستطيع مقاومته من رجاء حظيته المكرمة. فعين في منصب الوزارة من أشارت عليه برفعه إلى هذه المرتبة السامية أو رقى من شاءت ترقيته من ضباط البلاط.

فالاستفادة من سلطان النساء الحظيات ودالتهن على أزواجهن أمر لايحتاج إلى زيادة البيان. والسيدات المسلمات ، إذا تزاورن حصلن لأزواجهن أو لبعض أفراد أسرهن بلا كبير عناء فوائد جمة ومزايا جليلة يرجع في منحها إلى الزوجات صاحبات الهيمنة والسلطان على أزواجهن.

٥٨- امتياز النساء بالنجدة

في زمن الحرم تحترم النساء احتراما خاصا. فالمقاتل المغلوب على أمره ، إذا لجأ إلى الحرم واحتمى بحماه، لايصيبه ضير، وفي الأزمان السابقة كان مثل هذا الامتياز ممنوحا لهن بقصد الكرم والنجدة والإغاثة إذ لهن أن يحمين المحرم من توقيع الجزاء عليه والتنكيل به.

وبلغ من الأمر في عهد المماليك أن المجرم الذي يساق إلى الإعدام كانت تعصب عيناه حتى إذا الذي في طريقه بموكب لحرم أحد الأمراء اغتنم هذه الفرصة ليلمس طرف ثوب إحدى النساء السائرات فيه . فإن هذه الحركة التي يقصد بها الاستغاثة كانت تؤدي حتما إلى العفو عنه وإخلاء سبيله.

٥٩ - زيارة سيدات الحرم

لاتستقبل السيدات المسلمات من الرجال أحداً غير الزوج. فإذا اتفق ودعي طبيب إلى الحرم عني بتغطية المريضة بإزارها أو بأحد الأغطية الخاصة بها وحضر العيادة أحد الخصيان. وفيما عدا هذا فالحرم مفتوح على مصراعيه لجميع السيدات على اختلاف عقائدهن وأجناسهن. وإذا وقف الناس على كثير من تفاصيل الحياة بداخل الحرم وأسرارها فإنما جاء العلم

بها عن طريق المسيحيات واليهوديات اللائى تختلفن إلى الحرم الإسلامى.

وتستغرق زيارة السيدات أحيانا أياما متعاقبة. ومتى كان بالحرم سيدة أجنبية فإن رب البيت يرى من أخص واجباته عدم الدخول فيه مهما طال أمد زيارتها به.

٦٠ - أشغال النساء

لاتتلقى النساء المسلمات شيئاً ما من العقلية لاعتقاد المسلمين أن المرأة من جهة العقل والفهم أحط درجة من الرجل. ومفهوم أن الدين الإسلامى لم يفرض عليهن بسبب هذا الانحطاط رعاية الفروض الدينية المحضة رعاية كاملة. وذهب بعض العلماء إلى الشك فى أن لهن روحا. وهن يجهلن القراءة والكتابة، ولكنهن يحاولن بعض الأعمال كالتطريز والنسيج والوشى ويزاولن الخدمة البيتية بحذافيرها ويدخلن السرور على أنفسهن فى أوقات فراغهن بالألعاب المختلفة، وقد يستحضرن إلى حجراتهن المغنيات والعوالم للتسلى بهن، وسنتكلم فى الفصول الآتية على مايقمن به فى مجالى السرور والأفراح من آن إلى آن.

أما نساء الفلاحين فيرحن ويجئن طليقات من غير قيد، وكثيرا مايتفق أن يبعث أزواجهن بهن الى الأسواق لبيع الحاصلات المختلفة أو غيرها.

٦١- رأى النساء فى حالتهن

ما سمعت السيدات المسلمات أن السيدات الأوربيات يرثين لحالهن لما هن فيه من الاحتجاب وعدم البروز للجمهور إلا وقد اعتراهن الدهش، وقابلوا بالملاحظات المرة القارصة عواطف الرحمة والحنان التى لم يكلفن أحد بالإعراب عنها لأجلهن. فإن سيداتنا إذا سألتهن عن فائدة التزين والتجمل إذا كن مرغمات على سترهما عن الأنظار فضلا عن احتجابهن وراء الستار أجبن: «إنا إذا تزينا وتجملنا فإنما لأجل سيدنا ومولانا نفعل ذلك. أما أنتن فلغير أزواجكن من الرجال والنساء تتزين وتتجملن».

وإذا قال لهن أحد إن حالتهن تستدعى الشفقة لعجزهن عن الخروج والذهاب حيث يشأن أجبن على هذا العطف بقولهن: «إنكن لأسوأ حالا منا لأننا إذا شئنا أن نشترى شيئاً جاء التاجر إلى بابنا وعرض بضاعته علينا، أما

أنتن فلا بد لكن من الذهاب إلى حانوته» الخ.

٦٢- عادة الاستحمام في الحمامات

تذهـب النساء المسلمات غـالبا إلى الحمامات وحمامـات البخار هـذه أحد اجتماعاتهن المألوفة يأنسن فيه بعضهـن ويروين على مسامع بعضهن نتفا من حوادث الحياة المنزلية فيما يتعلق بأشخاصهن أو بما يتخذنه من التدابير للزواج.

٦٣- حكاية نابليون بونابرته

أورد نابليون بونابرته حكاية مؤامرة دبرت في أحد الحمامات العامة يلذ لي إبرازهـا في هذا المقام لما احتوتـه من الدليل على أن إقـامة ذلك الرجـل العظيم بمصر قد أدهشت العقول وحركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء، وكانت لجميع أهل المشرق عنوانا على تبدل الأحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثال.

قال: «تـزوج الجنرال مينو بـامرأة من رشيد وعـاملها معاملـة السيدات الفرنسيـات. إذ كان يمد إليها يـده كلما هم بالـدخول معها إلى غرفـة الطعام ويتحرى لها أوفـق المجالـس ويقدم إليها خير الأطعمـة وأشهاهـا، وكان إذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه وأعاده إلى مكانه. فلما روت تلك المرأة هذه الأمور على صاحباتها في أحد حمامات رشيد لاحت لهاته النسوة بـارقة الأمـل في تغير أحوالهن وعـاداتهن وحررن عـرضا قـدمنه إلى السلطان الكبير- بونـابرته- ليحمل أزواجهـن على معاملتهن بمثل مـا يعامل «مينو زوجته الرشيدية به».

٦٤- طباع النساء وأخلاقهن

يتعلـم النسـاء المصريات فيما يتلقينـه مـن التربيـة عـن أهلهن الطـاعـة والاحترام. وإذا كن لارابطة تربطهن بالرجال فمن النادر أن يستطعن التفرغ للتدابير والحيل الغـرامية، وبهذه المثابة كان شرف الأزواج بـالشرق في مأمن منه في الغرب. ولابد لنـا من القول هنا بأن النساء المصريـات. مع محافظتهن على فضيلة العفـاف واستمساكهن بعروتها الـوثقى إلى وقت زواجهـن حيث يلزمن بإقامة الدليل القاطع على بكورتهن لايلبثن أن يصرن بعد زواجهن أقل حرصا على كـرامتهن. ذلك لأن كرامـة النسـاء ـ أي العفة لم تكـن مرتكزة في

الشرق على قواعد وطيدة من الأخلاق. فإذا وقين أنفسهن شر العار، فما ذلك إلا لخشيتهن بأس أزواجهن لا لاحترامهن أنفسهن أو حرصهن على كرامتهن. وهذا هو السبب الذى جعل الأزواج يضيقون عليهن الخناق ويأخذون عليهن الأطراف بالدأب على مراقبتهن. علما منهم بأن صيانة شرفهم لاتتأتى إلا عن طريق اليقظة والانتباه فى المراقبة والحكمة فى التدابير والاحتياطات التى تتخذ لذلك.

وميل النساء المصريات شديد الى المضاجعة لانهن تربين فى ظل الدعة وعادة السكون والبطالة . فلا جرم إذا رغبن فى الكسل وطبعن على اللين والتفنج وأن لا يكون لهن هم سوى استهواء أزواجهن إلى الإعجاب بهن ومنهن من يعكفن على شئون البيت، ولكن إدارة هذه الشئون فى الشرق أقل صعوبة منها بكثير فى أوروبا.

وليس بالإمكان العثور فى مصر على امرأة متزوجة تعيش عيش الخليلة مع رجل آخر غير زوجها.

٦٥ - العاهرات

تحرم الديانة الإسلامية، كالديانتين الموسوية والعيسوية العهارة تحريما قاطعا مانعا، ولذا كان وجودها فى الديار العثمانية نادرا جداً ، ولكن مصر التى خالفت ممالك الشرق فى أكثر من حال من أحوالها العامة. ولاسيما فى ارتخاء حبل الأخلاق، تجاوزت الحد فلم تنتصر على قبول العهارة فى إجازتها بل كانت تجبى من العاهرات مبلغا جسيما يدفع سنويا لخزانة حكومتها، وكانت طائفة العاهرات فيها إلى عهد قريب منا طائفة معروفة ذات رؤوس يهيمنون عليها وأنظمة خاصة تسير على منهاجها. وقد عدلت الحكومة فى آخر الأمر عن جباية ذلك المال منها برسم خزينتها. بل وقررت منعها إزالة لوصمة وجودها وعار الاعتراف بها.

نعم لايزال يوجد حتى الآن عدد عظيم من النساء العموميات إلا أنهن يزاولن حرفتهن الساقطة الدنيئة سرا لاجهرا كما كان الأمر قبلا. ومع أن قرار الحكومة بصددها يرمى إلى غرض أدبى أخلاقى بحت. فما نذكره هنا مع مزيد الأسف أنه أفضى إلىالاتساع نقيصة أشد خزيا وعارا من نقيصة العهر ألا وهى اللواط. وليس من المستحيل تجاه تفاقم هذه المخزاة الجديدة أن

تنتبه الحكومة لها وتدرأ سوء مغبتها ، بعد أن يستقر فى خلدها أن غض النظر عنها مفض حتما إلى تجويز العهارة والرضا بوجودها.

والذى اعتقده أن هذه البلية الاجتماعية يعززها فى القطر المصرى العبث بالطلاق وإرخاء العنان للأزواج فى تطليق زوجاتهم أكثر مما يعززها المزاج الخاص الذى يحمل المصريات على الأفراط فى قضاء شهواتهن. فإن نظرة واحدة فى أحوال العاهرات تكفى للإقناع بأنهن بوجه عام من النساء المطلقات اللائى أنفن ذل المعيشة الزوجية وأبين ضيمها أو اللائى لم يستطعن بعد طلاقهن التزوج ثانيا فلم يجدن للارتزاق بابا مفتوحا غير المضى فى تيار العهر والفسوق.

٦٦ - الخصيان

يجدر بنا - وقد بلغنا إلى هذه النقطة من موضوعنا - أن نذكر شيئاً عن الخصيان الموكول إليهم حراسة الحرم ومراقبته. فإن الخصيان هم الرجال الوحيدون الذين يجوز لهم غشيان حجرات النساء باعتبار أنهم الحراس الذين أقامهم الأزواج على عفة أزواجهن . وليس ببعيد أن يراهم الإنسان فى الوقت نفسه وقد اكتسبوا ثقة الأزواج والزوجات للتغرير بالفريقين وإدخال الغش عليهما.

واستخدام الخصيان يرجع إلى الأزمان القديمة فى التاريخ. فقد روى أن الملكة سميراميس هى التى ابتكرت خصى الرجال واقتدى بها ملوك آسيا واحتفظ اليونان فى عهد دولتهم الأخيرة التى كان مقرها القسطنطينية بعادة اتخاذ الخصيان ، وكان أحدهم وهو الخصى (نرسيس) أكبر قوادهم بعد (بليزير) ورفع من شأنهم زمنا فى البلاد الإيطالية.

ومع أن الشريعة الإسلامية تحرم الخصى (الجب) فقد عكف المسلمون عليه وبالغوا فيه، بحيث يخيل للإنسان أن هذه العادة الوحشية ملازمة لتعدد الزوجات ملازمة لا مفر منها.

وفى بلاد آسيا وأوروبا لايفوز بامتياز الحصول على الخصيان واقتنائهم غير العظماء والأثرياء. أما فى إفريقية - ولا سيما فى القطر المصرى - فإنهم أكثر انتشارا لسهولة الحصول فيهما على العبيد اللائقين لعملية الجب.

٦٧ - معاهد الجب

عملية الجب لاتجرى الآن فى غير القطر المصرى فهذا القطر أصبح المورد التى تستورد منه الخصيان برسم حرم العظماء والأثرياء فى كل مكان. وصناعة الجب فيه رائجة رابحة يزيد فى ربحها شدة الإقبال عليها وغلاء ثمن التعساء الذين تجرى عليهم تلك العملية القاسية.

ومدينتا أسيوط وجرجا هما الوحيدتان من مدائن القطر المصرى اللتان تباشر تلك العملية الشائنة فيهما. ومن كان يخطر بباله أن الموكلين بمباشرتها جماعة من المسيحيين، وأنهم من رجال الاكليروس القبطى؟ هؤلاء الناس الذى أصبحوا عارا على الدين وخزيا ووصمة مزرية بالإنسانية موضوع احتقار السكان فى تينك المدينتين لما يترتب على الصناعة التى يباشرونها بغير رحمة ولا حياء من الجريمة فى حق المروءة والإثم الغليظ ضد الإنسانية.

وقرية زاوية الدير القريبة من أسيوط عاصمة السفاكين السفاحين الذين يقومون بعملية الجب. وهم يرتكبون جرمها الشنيع على نحو ثلاثمائة شخص فى كل عام ويختارون هذه الضحايا بين صغار العبيد الذين تختلف أعمارهم من ست سنوات الى تسع وتأتى بهم قوافل الجلابة من سنار ودارفور. ويباع هؤلاء التعساء بحسب ما يكون من حظهم فى الحياة بعد إجراء العملية عليهم وبحسب المزايا المتوافرة فيهم من ١٥٠٠ قرش إلى ٣٠٠٠.

٦٨ - عملية الجب

تعمل هذه العملية عادة فى فصل الخريف باعتبار أنه أوفق فصول السنة لنجاحها. ولا يقتصر القائمون بها على بتر عضو التذكير وحده بل يبترون بالموسى جميع الأجزاء البارزة المرتبطة به ثم يصبون فى الحال على مكان البتر شيئا من الزيت المغلى، ويركبون أنبوبة فى الجزء الباقى من مجرى البول وبعد إلقاء الزيت يلقون على مكان الجرح مسحوق الحناء ثم يدفنون الفتى المعذب على هذا المثال فى الأرض إلى ما فوق البطن وبعد أن يتركوه فى هذه الحالة أربعة وعشرين ساعة يستخرجونه من التراب ويدهنون مكان الجرح منه بعجينة من طين الابليز والزيت.

٦٩- تعظيم الخصيان

إن نحو الربع من الغلمان المساكين الذين تجرى عليهم هذه العملية الشنعاء لايعيشون بعدها. أما الباقون فيقضون حياتهم فى الضعف والآلام. نعم إن المسلمين يحوطونهم بكل ما هو مستطاع من الاحترام والرعاية والتكريم .. حتى أن كبير الخصيان فى الآستانة العلية مثلا يعد من أعاظم رجال الحاشية السلطانية، وأن السلطان محمود رفع أحد خصيانه إلى مرتبة الباشوية وعهد إليه قيادة جيوش الدولة ولكن الحقيقة التى لاريب فيها أن لا آية من آيات الشرف والترفيع ولاشارة من شارات الحظوة والفوز بالرعاية تعدل فقدان الرجل صفته الخاصة به وعلامته المميزة له على غيره.

٧٠ - العلامات المميزة للخصيان

بوجه عام يعرف الخصى بمظهره الخارجى وهيئة جثمانه. فإنه يكون أمرد سليب اللحية والشاربين وبجسمه ميل إلى السمن وفى صوته خنوثة. وتبدو عليه فيما عدا هذه الصفات، علامات التكبر فى كربة، ووجوم، وتشاهد فيه نزعة إلى الأذى والخوف وسرعة الغضب. وهى نتائج طبيعية لما يشعر به من سقوط شأنه وانحطاط مكانته بزوال أخص صفة للرجولة عنه. ويميل عادة إلى مظاهر الصلاح والتقوى، إذ يرى فى القيام بفروض الدين على وجه التشدد تعويضا له عما أصابه من النقص فى جثمانه. ومن الخصيان فريق يحبون الاجتماع بالنساء والسكون إليهن. بل أن فيهم من يتزوجون بهن.

٧١- منع الجب

إذا كانت ثمة جريمة نحسب أن الهيئة الاجتماعية بأسرها قد اشتركت فى ارتكابها، وأن لا جريمة تفوقها فظاعة وشناعة فإنما هى عادة إتخاذ الخصيان وبقاء هذه العادة حتى الآن..

ولقد حمل كبار الفلاسفة والمفكرين وبعض رجال الحكومات العاملين فى أيامنا هذه الحملة الشعواء على الاسترقاق وها نحن أولاء نرى أوربا تسير سيرا حثيثا فى الطريق المؤدى إلى إلغائه، ولكن عادة اتخاذ الخصيان فضيحة كبرى للطبيعة وهتك مخز لأستار النواميس الطبيعية والخلقية. والغريب مع هذا أننى لا أعلم أن بين الشعوب التى تتولى زعامة الحضارة العصرية من

استجمعوا قواتهم وجهودهم لمكافحة عادة إتخاذ الخصيان.

وتداخل أوربا اليوم فى شئون الدولة العثمانية ذلك التداخل الذى أصابها ببالغ الضرر من جراء ضغطها عليها بأثقال المصالح السياسية والمرافق الاقتصادية المختلفة كان يمكن أن يكون نافعا ومجديا وجديرا بثناء الإنسانية وشكرها لو كان الغرض منه إدخال الإصلاحات المطابقة لروح الحضارة والمدنية. لا التى يقصد بها تحقيق تلك الأغراض السياسية.

وليس من بين هذه الإصلاحات ماهو أوجب للحمد والثناء كمنع الجب وإتخاذ الخصيان .. وأتمنى صونا لكرامة أوربا وشرفها ووقاية لمجدها أن تفكر حكوماتها فى الحصول على هذا الإلغاء من سلطان تركيا ووالى مصر، وإنى لموقن أنه يكفى لتحقيق هذه الأمنية الشريفة أن تعرب تلك الحكومات لهما عن مقاصدها الخيرية نحو الإنسانية المعذبة لترى منهما الإقبال السريع على إجابة مطالبها ، وها هو محمد على المعروف بالمسارعة إلى اتباع النصائح النافعة والمشورات النبيلة لن يتوانى فى العمل بهذه النصائح وبذا لاتصبح مصر ميدانا لجريمة لايسع هذا الجيل بعد الآن أن يتهاون فى أمرها أو يتغاضى عنها.

(٦)
الزواج وتعدد الزوجات والطلاق

الزواج– تعدد الزوجات فى مصر– الطلاق– أسباب تعدد الزوجات والطلاق فى الشرق– تأثيرهما.

٧٢ - الزواج

فى بلد تجيز شريعته ، بلا قيد، تعدد الزوجات والطلاق لايمكن أن يكون الزواج عظيم الخطر، كلا ولا من المسائل لتى يتوقف عليها مستقبل الرجل والمرأة فى الحياة كما نراه.نحن. ففى الشرق لا يسيطر الحب على الروابط بين الزوجين. لأن احتجاب المرأة فى الحرم يحول دون معرفة الخطيب خطيبته التى ستربطه وإياها عقدة الزواج، - ولو بالنظر - بل غالبا ما يتم الاتفاق على تزويج اثنين من بعضهما بين أهليهما وهما لم يخرجا بعد من سن الطفولة. فإذا ما بلغا سن، الحلم قلما يستشار أحدهما فى أمر زواجه بالآخر.

فكان من المنتظر، فى هذه الحالة أن يتجلى الزفاف عن حبوط أمل وخيبة رجاء لايجد الزوج التعس للخلاص من ورطتهما غير حل عقدة الزواج بالطلاق. وفى هذا العهد بدا من جانب الأهل جنوح إلى تلطيف هذه الطريقة المنافية للصواب والعقل من وجوه كثيرة. إذ أخذوا يعدلون الآن عن خطة التشدد والتعسف ــ لا إلى جهة الرضا بأن يرى الخاطب المرأة التى اختطبها أو يحدثها ــ بل من جهة أنهم يعنون باستقصاء أحوال الخطيبين سنا وخلقا وخلقا.

وعندما يشرع فى الخطبة تذهب أم الخاطب فى لفيف من أهلها وقرابتها إلى بيت المخطوبة برسم الزيارة. فإذا وقع نظرهم عليها حفظوا ما بدا لهم من صفاتها جمالا ودمامة فضيلة ورذيلة حتى إذا عادوا إليه سردوا عليه ماثبت عندهم من أمرها. فإما أن يقبل على الزواج بها وإما أن يعدل عنه.

وفى الشرق لايمهر النساء الرجال بل الرجال هم الذين يقدمون إليها الصداق. وعند أصحاب اليسار والغنى يبلغ الصداق عادة عشرة أكياس (أى أكثر من ألف فرنك ومائتى فرنك) وهو أقل من ذلك للأيامى والمطلقات.

٧٣- تعدد الزوجات فى مصر

رأينا فيما تقدم أن الديانة الإسلامية تبيح التزوج بأربع نساء ومالا عد له مما تملك اليمين. ومعنى هذا أن الإسلام يقرر تعدد الزوجات ويدعو إليه. ومن الخطأ أن يظن أحد أن إباحة تعدد الزوجات معمول بها من جميع الناس فإن السواد الأعظم من المصريين يقتصرون على زوجة واحدة فقط، وإنه ليتعذر عليهم أن يعدوا هذا القدر مالم يكن عدد النساء فى مصر يتجاوز بكثير عدد الرجال.

والحقيقة أن عدد النساء فى هذا القطر يكاد يعدل عدد الرجال، وهو ما يؤخذ منه انحصار تعدد الزوجات فيه ضمن دائرة ضيقة جداً . لاسيما وان الإكثار من الزوجات يستدعى من النفقات الطائلة مالاقبل لأحد به ولا طاقة له عليه إلا إذا كان من أصحاب الثروات الواسعة، وهو ماجعل عادة تعدد الزوجات مقتصرة على أرباب الغنى وأصحاب المظاهر والحيثيات لاتتجاوزهم إلى غيرهم . ويتفق أن يكون للرجل من عامة الشعب زوجتان أو أكثر ولكنهن ينفقن فى هذه الحالة على أنفسهن من صفوة أموالهن . ومن

المسلم به أن متوسط عدد الزواج الـذى تتعدد فيه الزوجات بالقطر المصرى لايتجاوز خمسة فى المائة من مجموعه.

٧٤- الطــــلاق

من الأنظمة المرتبطة بتعدد الزوجات بروابـط عديدة الطلاق، وقد بلغ من الشيوع مبلغا فاضحاً مخزيا. لأنه إذا كان تحدد الطلاق يبيح للرجل الإمساك بقدر مايريد من الزوجات فإنه يستطيع بالطلاق التزوج بقدر ما يشاء منهن ـ على شريطـة أن يخلفن بعضـهن البعض فيتعـاقب استمتاعه بهن بتعـاقب الاقتران وتـواليـه، وتعـدد الزوجـات والطـلاق متحـدان فى طبيعتهما لانهما ناشئان عن أسباب بعينها، ولابد طبعا أن يفضيا إلى نتائج متشابهة ويعقبها آثار متجانسة.

ولقـد سبق أن، قلـت إننـى لا استبعـد وجود مسلمين فى القطـر المصرى تزوجوا وطلقوا خمسين مرة ولكن هـذا من النوادر التى لاحكم لها. والمألوف المعروف وجـود من تـزوجوا وطلقـوا عشر زوجات أو اثنتـى عشرة زوجة أو عشرين، ويخالف الأتراك المصريين فى ذلك فإنهم يحرصون على عقدة الزواج ويصونونها من الإنحلال أكثر من هـؤلاء. وتعدد الزوجات لايلجأ إليه كما لا يلجأ عنـدهم إلى الطـلاق إلا إذا كانا الـوسيلة الوحيـدة للخلاص مـن ضيق شديد.

٧٥ - أسباب تعدد الزوجات والطلاق

تمتاز الـروابط التى تصــل الرجـل بالمرأة فى الشرق بصفات خـاصة بها ومناقضـة على خط مستقيم للصفات المميـزة فى البلاد الأوربية، ولقـد أمعن الفـلاسفة النظـر فى هـذا التبـاين واقتفـى أثـرهـم فى ذلك كتـاب الصحـف والباحثون فى الشئون الفسيولوجية وذهبوا فى طرق الآراء متخبطين.

أمـا فى الغرب فقـد حـافظـت الشعوب جميعـا مـن الإغـريق إلى الغـولـو والجرمان إلى الرومان المحـافظة التامة على وحدة الزوجـة، وأما فى آسيا فقد أباحت شعوبها أجمعين من الفرس إلى الأتراك للرجل الاقتران بعدة زوجات..

ومفهوم أن روابط الرجل بالمرأة لكبيرة الأهمية عظيمة الخطر من الوجهة الاجتماعيـة ، وأنها سريعة التـأثير فى الأسرة وبـالتـالى فى الهيئة الاجتماعيـة بأسرها. فمن المفيد والحالة هذه استقصـاء الأسباب التى تجعل تلك الروابط

خاضعة لعوامل الاختلاف المترتب على اختلال البلدان وتباين الشعوب التى تسكنها.

والذى نعتد به فى هذا الموضوع أن السبب الأصلى لتعدد الزوجات جثمانى مادى بحت، فقد لاحظ العلامة الفيلسوف «مونتسيكو» أن بين النوعين الذكر والأنثى فى البلاد الحارة اختلافا طبيعيا وتفاوتا عظيما، قال: «إن النساء فيها يبلغن الحلم فى الثامنة أو التاسعة أو العاشرة من عمرهن، وهوما يجعل الطفولة والزواج يسيران فيها يدا بيد فتصبح المرأة التى تزوجت فى إحدى تلك السنوات عجوزا شمطاء ولن يتفق اقتران العقل عندها بالجمال. فإنه إذا تطلب الجمال النفوذ والسلطان أباهما عليه العقل، وإذا استطاع العقل الفوز بهما يكون الجمال قد تلاشت دولته وذهبت صولته. ومن ثم كان الواجب بقاء المرأة فى حكم أحد وتبعيته ـــ لأن العقل لا يجعل لها فى هرمها سلطانا ونفوذا بخل الجمال عليها بهما وهى فى غض الشباب وإبان الحسن. فمن بسائط الأمور إذن أن يترك الرجل امرأته ليتخذ بديلا عنها ـ لاسيما إذا لم يكن فى الدين مانع يحول دون ذلك وأن ينشأ عن فعله تعدد الزوجات».

واعتقادى أن ذلك المفكر العظيم قد كشف بثاقب نظره وصائب رأيه عن حقيقة سبب تعدد الزوجات وشيوع الطلاق فى الشرق.

الأطفال

العناية الأولى بهم ـ تربيتهم.

٧٦ ـ العناية الأولى بهم

الغرض الأول من الزواج فى مصر استبقاء النسل وتخليد الذكر، لذا كان مولد الأبناء من الحوادث الباعثة فى الأسرة على السرور والابتهاج. وعقم المرأة فى نظر المصريين غضب من الله عليها وباعث من بواعث نفور الزوج منها وعدم رضائه عنها. وبالجملة فاحترام المرأة عندهم يقاس بحسب قابليتها للحمل والوضع قلة وكثرة. والرأى المجمع عليه أن الرجل المستقيم لا يليق به أن يطلق امرأته لكونها لم تعقب منه سوى غلام واحد، ولاسيما إذا بقى هذا الغلام على قيد الحياة.

ولو لم يكن حب الأم لبنيها فى مصر كما فى غيرها من البلدان أطهر ما بثته

الطبيعة فى فؤادها من العواطف لكان من مصلحتها أن تتعهد هذا الحب بما ينميه ويقويه. فإن الامهات يبدين الكثير من الرفق نحو أبنائهن ويتجاوزن عن هفواتهم ويحطنهم بوسائل العناية والرعاية بل ويقمن على إرضاعهم بأنفسهم. والشريعة المحمدية تبيح لهن إرضاعهم حولين كاملين ما لم يأذن لهن أزواجهن بالفطامة قبل هذه السن. والقاعدة المألوفة أن يأذن الوالد بالفطام فى منتصف الثانية من أعمارهم. وفيما قررته تلك الشريعة من ذلك ما يطابق الصواب . لأن البلاد الحارة من البلدان التى يموت فيها الأطفال بالأمراض المعوية. فلبن الأم بالنسبة لهم من خير الأغذية الموافقة لهم والمناسبة لحالهم.

وإذا لم تكن الأم فى حالة من الصحة تسمح لها بمباشرة إرضاع وليدها فلها أن تتخذ له مرضعا . فإذا كانت المرضع إحدى جوارى البيت عدت لهذا السبب من أفراد الأسرة وكسبت حقوقا مؤكدة تظهر محسوسة فى احترام الأبناء الذين أرضعتهم وشكر أبائهم لها وحسن جزائهم إياها.

ولا يحمل الأطفال امهاتهم أو مرضعاتهم وهم فى نعومة الأظفار عناء كبيرا فى تربيتهم لهم لأنهم قليلو البكاء. ولو امتنع أهلوهم من وضعهم فى القماط كما نفعل نحن بأطفالنا لنموا وابتدأوا المشى على أقدامهم منذ الشهر السادس من عمرهم.

وهم يكونون فى الغالب ضعافا نحيلى الأبدان إذا ناهزوا الثانية أو الثالثة من أعمارهم ، وتتكور بطونهم كثيرا لرداءة الغذاء، ولا شىء فى ملامحهم وهم فى هذا الدور من حياتهم يبشر بأنهم سيكونون على شىء من جمال الصورة العربية وقتما يبلغون سن الشباب.

وأبناء الطبقة العليا لا يعتنى بحسن لباسهم، تتعمد والداتهم ذلك فإذا خرجن من دورهن واستصحبنهم نزعن من ثيابهم ما يمكن أن يحكم الناظر به على يسار أهلهم وقدرتهم وجاههم. وقاية لهم من عيون الحاسدين. أما أبناء الفقراء فيجردهم أهلهم من الثياب بالمرة . وكثيرا ما تشاهد الأمهات فى الارياف والمدن وهن حاملات لهم بهذا الشكل على أكتافهن.

٧٧ـ تربية الأطفال

فى الطبقتين العليا والوسطى يربى الأطفال بداخل الحرم حتى يبلغوا السابعة من عمرهم . وللتربية الأولى كما هو معلوم أو كما فى نفس المرء. فمن

البدهى إذن أن تترك التربية التى يتلقاها المسلمون على هذا الوجه أثرا عميقا فى حياتهم.

وغير منكور أن الأطفال يكتسبون فى داخل الحرم لين العريكة ودماثة الخلق فينتهى بهم الأمر إلى أن يشبوا على شىء من الرصانة والتحفظ والبعد عن نزق الطفولة وطيشها وألاعيبها. وفى الأسرات الغنية يعود الأطفال آداب المعاشرة والاجتماع على الأسلوب المقرر فى الدين الإسلامى. فلا يبعد أن يقع نظرك على غلام فى الخامسة أو السادسة من عمره يدهشك من سلوكه مالا تجده فى خلق الرجل الكبير أو المولى العظيم من الرزانة والسمت والوقار.

وتعمل عملية الختان للطفل وهو فى السادسة من عمره أو قبل هذه السن أو بعدها بيسير وفى الأوان نفسه أو حواليه يعلم الأطفال تلاوة القرآن وكتابة آية فإذا ناهز الثامنة أو التاسعة خرج من وصاية الحرم فإن كان أهله على شىء من الغنى والجاه جاءوا إليه بالأساتذة يلقون عليهم الدروس فى بيوتهم ويتصدى آباؤهم لإرشادهم إلى الواجبات والفروض الدينية من وضوء وصلاة ..إلخ.

والإسلام يقضى أن يتعلم الأطفال الصلاة فى السابعة من العمر ويدعو آباءهم إلى ضربهم إذا لم يقوموا بفروضها فى العاشرة من أعمارهم. ومتى أشرفوا على تمام الثانية عشرة عهدت إليهم بعض الأعمال العسكرية أو المدنية ليؤدوها بإرشاد بعض الحكام وملاحظتهم.

أما الأطفال من أهل الطبقة الدنيا فيرسلون عند بلوغهم السابعة من أعمارهم إلى المدارس العامة ـ أى الكتاتيب الملحقة بالمساجد ـ وفيها يتعلمون القراءة والكتابة ثم يخرجون منها لمزاولة التدريب على إحدى الصناعات بحيث لا يناهزون الثامنة من العمر إلا ولهم قسط فى الأعمال ومشاركة للعاملين فيها. وهم فى الأرياف يفيدون أهليهم فائدة جليلة بتسيير الماشية وإدارة السواقى والذين يتخصصون من الأطفال لدرس علوم الدين يباشرون تلقيها فى العاشرة أو الثامنة عشرة من عمرهم. وصفوة القول أن الأطفال يبكرون بمزاولة الأعمال ويربحون منها قوتهم.

الأغذيـــــة
وآداب الطعام

الغذاء– ألـوان الطعـام– الترتيـب المتبع فى تقـديمها– المشروبـات– قهوة البن– الشربات– الحشيش– الأفيـون– الوجبة – الآنية والأوعية المستعملـة للأطعمـة– آداب الطعـام– الاقتـداء بالأوربيين فى طـريقـة الأكل– طعام الفلاحين.

١- الغـــذاء

يتناول المسلمون كثيرا من الأطعمة التى اعتدنـا نحن تناولها. فهم يحبون من اللحوم لحم الضأن ويفضلونه على كل لحم سـواه. ويأكل أصحاب اليسـار، غير هـذا اللحم، اللحـم البقرى والفقراء اللحـم الجامـوسـى وسكان الصحـراء لحم الجمل أحيانا. ويمسك المسلمون جميعا عن أكل اللحـوم المحرمة كلحم الخنـزير والخيل والحمير الخ.. أما لحم العجول وصغار الضـأن فانهم لايتغذون به إلا فى النـادر.. لأن الشريعة الإسلامية توصـى نصوصـها بـالامتناع عن ذبح صغـار الماشية دفعا لما يخشى من انقراض أنواعها. أما الطيور فمن النادر مثولها على موائدهـم لأنهم ـ كما سبق لنا القـول ـ لايميلون إلى الصيد والقنـص لتعذر ذبح الحيوانات المصيدة بعد صيدها. وهم شديدو العناية باستنـزاف دماء الحيوانات المذبوحة للتغذى بها. ولكنهم لايجارون اليهود فيمـا يتخذونه من وسائل الاحتياط لهذا الأمـر.. فمن ذلك أنهم لايـرون ضرورة فى أن يكون القـائم بذبح الحيـوانات رجلا اقتصـر فى عمله على هـذه المهمة فـأصبحت صفة قـائمة به لاتتعداه إلـى سواه، ولا أن تكون المديه التـى يذبح بها جامعة صفات وخصائـص لاتتوافر فى سواها الخ.

ويكثر المصريون من أكل الطيور الداجنة والسمك، ولكنهم لا يعرفون من خيرات البحر، غير السمك، شيئا من الأنواع الأخرى كأنواع المحار والأصداف مع أنها لم تكن محرمة عليهم. ويحبون الألبان والبيض حبا جما، ويستنفدون المقادير الوافرة من البقول والخضر والحشائش على اختلاف أنواعها، ولا سيما الخباز (الخبيزة) والباميا والملوخيا (الملوكية) والباذنجان والطماطم والقرع والكرنب والعدس والفول والفاصوليا والترمس والبسلة. ومن البقول ما اعتادوا تناوله نيئا كالبصل والخيار والشمام والخس والرجلة (البقلة الحمقاء) الخ.. ومما يوجب الأسف اساء تهم الظن في البطاطس الذى لو أقبلوا على استعماله غذاء لهم لأفادهم فائدة لاتنكر.. وتدخل فواكه البلاد بنسبة عظيمة ضمن الأغذية التى يتناولونها.

وهم يطهون الأطعمة بالزبدة ويكثرون من ألوانها، ولكن العناية بالشطر الأكبر منها تكاد تكون معدومة.

ويجلب الزيت الذى يستنفد فى مصر من الشام واليونان، وعلى الخصوص من جزيرة كريد. وهو من الصنف الواطىء الذى لو وجد مثله فى أوربا لما استعمل فى غير الصناعة، على أنه تجلب إلى مصر أنواع من الزيت الجيد كزيت (بروفانس) وزيت (يوك) ولكن استعمالها لايتعدى الأوربيين والأغنياء من أهل البلاد.

وزيت الزيتون يعتصر فى مصر بمقادير قليلة جدا، لان أشجار الزيتون لاتزال - كما قلنا سابقا - نادرة الوجود بها.

ويستخرج الزيت أيضا من بذور الخس والسمسم. وفقراء المصريين يستعملون فى بعض الأحيان زيت بذر الكتان المعروف بالزيت الحار وهو شديد الدسم حريف الطعم بطبيعته وبما يختلط بالبذر من بذور الخردل.

والبهارات شائعة الاستعمال فى المطابخ المصرية فإن الفلفل الأسود والشطة والقرفة والقرنفل والحبهان الخ يستنفد فيها مقادير عظيمة.

ويكثر المصريون من استعمال الليمون . إذ هم يعصرونه على جميع ألوان الطعام تقريبا ويستخرجون الخل من البلح ولكنه ردىء النوع.

أما الخبز - الذى أشرنا فيما سبق إلى احترامهم إياه الاحترام العظيم. -

فهو عندهم كما فى أوربا أساس التغذية الذى تقوم عليه، ولكن الخبز الذى يعجنونه لايجارى خبزنا فى جودته وحسن صناعته. لأنهم يضيفون الماء الكثير إلى العجينة حتى تكاد تصير سائلة ويقللون من الخميرة وينقصون نضج الخبز الذى يختلف شكله اختلافا عظيما عن شكل خبزنا. فإنه عندهم أشبه بفطائر مستوية كبيرة.. ومنذ انتشر الفرانون الأوربيون فى القاهرة والإسكندرية وبعض أمهات مدائن القطر المصرى أخذوا يقلدونهم فى صناعتهم فجعلوا خبزهم بنفس الحجم المرعى فى أوربا.

٢- ألوان الطعام

من ألوان الطعام عند المصريين الحساء. وهو يعمل على طريقة واحدة تكاد لاتتغير، فإنه عبارة عن الماء الذى سلقت فيه دجاجة أو بعض أفراخ الحمام، على موائد الأغنياء منهم، أو قطعة من اللحم على موائد متوسطى الحال. وقد يضيفون إليه بعض الحشائش أو البقول وأحيانا نوعا من العجين المجفف يشوونه بالشعرية.

ومن الأطعمة التى يميل إليها المصريون ويفضلونها على غيرها شواء اللحم. ويظهر أنهم أتقنو هذا اللون وأجادوا فيه كل الإجادة.. وإذا شووا اللحم لا يشونه فى الأسياخ بل فى الأفران، بخلاف الأتراك والعربان فإنهم يشوونه فيها، وقد يشوون على هذه الطريقة خروفا بأكمله. وبعضهم يربطونه بحبل إلى قائمة منصوبة ثم يشوونه بتقليبه على جوانبه المختلفة فوق النار ويهيىء المصريون نوعا آخر من الشواء يسمونه « الكباب» وهو عبارة عن قطع صغيرة من اللحم تسلك فى أسياخ صغيرة.. وإذا كانوا لا يأكلون دهن الخنزير فانهم يرتبون تلك القطع فى الأسياخ بحيث تتخلل قطع اللحم الأحمر قطع من اللحم الدهنى، أما الطيور فتجهز بالزبدة فى طوة أو فى الفرن.

ويبتدىء المصريون الطعام بأصناف كثيرة تتألف من اللحم وحده أو مخلوطا بالخضر والبقول ، وأحيانا بالزبيب وعصير العنب.

وهم يميلون كثيرا إلى الأطعمة المحشوة ويضعون الحشو فى الطيور. بل وفى الخراف نفسها أو فى أجزاء منها ومن لحم البقر، ويحشون أيضا القرع الصغير أو الخيار الخ.

والأرز عندهم من الأطعمة الوطنية يأكلونه مفلفلا ، ويسمونه بالأرز المفلفل ويطهونه إما بالزبدة أو فى عصير اللحم (البهريز)، ويخلطون الأرز باللحم المفروم ثم يحشون به ورق العنب ويسمونه بالورق المحشى والضلمة.

أما الفطائر فعندهم شراهة عظيمة إليها. وهم يصنعونها على طرق مختلفة وأصناف متعددة لا تجمعها بفطائرنا رابطة شبه لأن فطائرهم ترجع، على اختلافها، إلي فطائرمسطحة مستديرة يضعون بداخلها اللحم أحيانا أو القشدة أو الجبن الأبيض أو المربى أحيانا أخرى. وعلى كل حال فالشرقيون لا يستطيعون مجاراة الأوربيين فى صناعة الفطائر أو تجهيز غيرها من الأطعمة.

وفى جميع الأحياء حوانيت تجهز فيها الفطائر مسطحة مستوية لتباع على الجمهور، ويميل العرب إلى المربات وهم يصنعونها من العسل المتوافر بمقادير عظيمة فى أنحاء القطر المصرى. ولم يعتد المصريون أن يأكلوا، قبل ألوان الطعام المعتاده شيئا ماعلى سبيل فتح الشهية مما يسميه الأوربيون (هوردوفر) ولكنهم يأكلون أحيانا السمك المملح المعروف بالفسيخ والبطارخ والصحناة (السردين) وبعض الخيار الصغير المخلل والزيتون الأسود وأنواع السلطات الخ. وهذه الأصناف التى تصف على المائدة ليؤكل منها خلال الأصناف. قلما تكون مقبولة فى الذوق لشدة ملوحتها أو لشدة حموضتها بسبب الخل. واذا كان الشرقيون لايجدون لذة فى طعم زيتنا الطازج فإنهم يجدون اللذة فى طعم زيتهم الذى اعتراه الفساد ويختم الطعام عادة بالفواكه التى تثمرها البلاد كالمشمش والخوخ والعنب والبلح الخ مما يقطف ويجنى عادة قبل أن ينضج على أمه، والمصريون يعللون أكلها كذلك بقولهم: إن الفواكه إذا قطفت بعد بلوغها النضج كان طعمها تافها.

٣- الترتيب المتبع فى تقديم أصناف الأطعمة

تقدم أصناف الأطعمة متتابعة بعضها تلو بعض. ولا توضع أبدا مع بعضها. ولكنهم لا يتبعون فى هذا الترتيب النظام المرعى فى أوربا لتعاقب الأطعمة. فإنهم بعد تعاطى الحساء يبدأون بشواء اللحم ويثنون بأصناف الخضر والفطورات متخللة أصناف اللحم. أما الأرز المفلفل فلا يؤكل إلا فى ختام الطعام.

٤-المشروبات

لايشرب المسلمون على الطعام سوى الماء صرفا. لأن الدين الإسلامى يحرم عليهم خمر النبيذ كما حرم عليهم جميع الأشربة المسكرة. وهذا التحريم فى الدرجة القصوى من الصواب والحكمة بالنظر إلى أن طقسا كطقس القطر المصرى يضر شرب المسكرات فيه بالصحة الضرر البالغ.

والمسلمون الذين يبيحون لأنفسهم شرب النبيذ وغيره من المشروبات المتخمرة قليلو العدد، وهم الذين وقع الاتصال بينهم والأوربيين فنقلوا هذه العادة عنهم. ومن النادر جدا أن تجد بين العرب من يتعاطى المسكرات بخلاف العثمانيين، ولا سيما الذين أصلهم من تركية أوربا، فإن تعاطى النبيذ عندهم شائع مألوف.

والمتعاطون للخمر من المسلمين لايتعاطونها باعتبار أنها منشط قد يفيد الشارب فائدة بدنية أو نفسية، كما هو المشاهد غالبا فى حالة التعاطى باعتدال وقناعة. وما السبب فى ذلك إلا أنهم يلتمسون بتعاطيه فقدان الرشد وضياع العقل بالسكر . جاهلين أن الغرض من تعاطى المشروبات لم يكن الحصول على حالة تقف فيها حركة الإدراك والمشاعر وتتعطل المواهب النفسية التعطل الذى لو شعر به أوربى لما راق له أبدا.

واستعمال العرق فى مصر أكثر شيوعا وأقل ضررا من استعمال النبيذ. والعرقى الذى ألف الناس شربه فى هذا القطر هو المستخرج من البلح، ولكنه ردىء النوع. وأجود أنواعه يجلب من بلاد الشام واليونان مصنوعا من العنب، لأنه يقطر مرارا ويكتسب قوة عظيمة (تتراوح بين ١٨ إلى ٢٥ وأحيانا إلى ٣٠ درجة) والذين يقومون باستقطار العرقى نصارى القطر الذين يستنفدون منه مقادير عظيمة جدا.

ولدى المصريين نوع من الجعة (البيرة) يسمونه (بالبوظة) وطريقة تحضيرها تقتصر على تخمير الشعير. وهى كثيفة القوام جدا كمدة اللون ذات طعم ردىء فى أفواه الأوروبيين، ولذيذ جدا فى حلوق أبناء البلاد.

٥- قهوة البن

قهوة البن هـى الشراب المختار عند المصـريين وضرورته لهم كضـرورة النبيذ للأوربيين. لأنهم إذا تنوقوه شعروا ببواعث الارتياح والسعادة والهناءة وتلذذ وا بطعمه رويدا متمطقين. والأغنياء والفقراء منهم سـواء فى المحافظة على تعاطيها صباحا وبعد كل طعام وأصحاب اليسار منهم يشربـون فى خلال النهار خمسة عشر فنجانا بل وعشرين فنجانا.

وصنف البن الذى يهيئون بـه قهوتهم فى غاية الجودة لأنهم يجلبـونه من مخا (ببلاد اليمـن) ويحمصونـه كمـا نحمصه نحـن تقريبا ولكنهـم يختلفـون هنا فـى كونهـم لايسحقـونـه بـالطـاحـون بل يـدقـونـه فـى الهـاون زاعمين أنهـم بـدقـه يستخرجون منه الزيت الذى هو الأصل الفعال فيه.

وطريقتهم فى تهيئة القهوة بسيطة جدا. إذ تقتصر على وضع الماء على النار فى إناء القهـوة (الكنكة) فإذا ما بـدأ الغليان رفعوا الإناء وأسقطـوا فيه المقدار اللازم من دقيق البن وحركوه فى الماء ثم أعـادوه إلى النار مع استمرار التحريك فإذا غلا الماء وفار رفعوا الإناء نهائيا وتـرك زمنا ريثما يتم امتزاج الماء بالبن ثم يفرق على الفنـاجين. وقهوة البن المجهزة على هـذا المثال لاشك فى لذتها وجودة صنعها . حتـى أن كثيرين مـن المغرمين بشرب القهوة يفضلـونها على المصنـوعة منها بحسب الأسلوب الاوربى.

أما أنـا فإنى مقتنـع بـأن فى الاستطاعة اذا اتبعنـا فى تهيئة القهوة الطـريقة التى استنبطها (دوبلـوا) أن تكون القهوة أحسن بكثيـر من التى تصنـع بـه على الطريقة الشرقية.

٦- الشربات

تعاطى المشروبـات المرطبة المعروفة بالشربات كثير الشيـوع فى مصر. ويقدم غـالبا بعـد تعاطـى القهـوة أو قبله. وهـذه المشـروبات أنـواع كثيرة أبسطهـا الماء المحلى بالسكر والمضاف إليه ماء الورد أو مـاء زهر البرتقال أو عصير البرتقال أو الليمـون، ويتعاطـى المصـريـون أيضا شـراب اللـوز أو بـذور الشمام والبطيـخ والقـرع الـخ. ويشـربون غـالبـا فـى نهـايـة كل طعـام الخشاف، وهـو مـاء محلـى

بالسكر غلى فيه من قبل الزبيب والكراز وعطر بماء الورد. وأعظم أنواع المشروبات المرطبة اعتبارا فى نظر المصريين شراب البنفسج ، وطريقة عمله أن يجرد زهر البنفسج من ساقه ويعجن بالسكر ثم يجفف. وبعد جفاف العجينة يدق دقا ناعما جدا ثم يذاب فى الماء عند الاستعمال. ويباع فى الطرقات برسم العامة من الشعب منقوع عرق السوس أو الخرنوب (الخروب).

٧-الحشيش

نرى من المناسب هنا الكلام على مجهز مخدر قد كلف بتعاطيه الشعب المصرى. هذا المجهز هو الحشيش المستخرج من القنب المصرى. وطريقة استخراجه أن تسحق ثمار هذا النبات حتى تصير إلى عجينة ثم تطبخ بالعسل والفلفل وجوز الطيب وخلاصات الروائح العطرية. وبعد طبخها تصنع منها أقراص صغيرة ضاربة اللون إلى الخضرة تافهة الطعم قليلا عند المذاق. ويكفى للمرء أن يبتلع منه قطعة بحجم البندقة ليشعر فى الحال بنتائج تأثيرها. وفى بعض الأحيان يجهز الحشيش سائلا كالشراب. وعلى هذه الصورة يستعمله الفقراء. وفى الغالب يتخذ منه مسحوق يدخن ضمن ما يحرق فى نوع من الشيشة يسمى الجوزة. وهو فى هذه الأحوال المختلفة يحدث عند من يستعمله غيبوبة غريبة لاتلبث أن تتحول إلى أقوال وأفعال شاذة.

واستعمال المجهز المسكر المتخذ من القنب قديم جدا، وكان شائعا فى الأقطار الهندية منذ العصور الموغلة فى القدم. وروى المؤرخ (هيرودتس) فى الفصل الخامس والسبعين من المجلد الرابع من تاريخه أن الحيثيين كانوا يستعملونه فى حفلاتهم الدينية. وقد ذكره أيضا الحكيم (جالينوس) وشاع فى بلاد الفرس على أثر اتصالهم بالهنود. فانتقل من هناك أثناء القرون الوسطى إلى بلاد الشام ومصر حيث شاع بين مسلميها. والمحتمل أن الشيع المتعصبة التى زلزلت بفعالها أركان الشرق على عهد الحروب الصليبية تحت قيادة زعيم أطلق عليه اسم شيخ الجبل إنما كانت تعمل تحت تأثير الحشيش . ومن ثم سموا بالحشاشين، وهو اللفظ الذى حرفه مؤرخو الفرنجة بلفظة (أساسين) التى أطلقوها على أولئك الأقوام ولاتزال موجودة فى معجم لغتنا حتى اليوم.

وفى أيامنا هذه يقتصر تجهيز القنب حشيشا على عامة الشعب، فهو محصور بينهم - كما قدمنا - يأكلونه ويشربونه ويدخنونه فى القهاوى العامة

وفى حوانيت خاصة به تسمى (المحاشش) وكلمة حشاش التى تطلق للدلالة على متعاطى الحشيش تستعمل أيضا فى لغة القوم للسباب والشتم.

والحشيش يؤثر فى الجهاز العصبى تأثيرا بالغا من الشدة والقوة الغاية القصوى. والظاهر أنه يكسب التصور قوة وحركة فائقتين. فيصبح مخ من يتعاطاه يلتمس منه الغيبوبة والخدر مركز ازدواج أفكار غريبة بأحلام خيالية مضطربة. وبالجملة فان الحشيش يحدث تأثيرا يشعر صاحبه بشىء من الهناءة ونعيم البال يزداد ويتسع نطاقة إلى أن يبلغ درجة الهذى والاختلال والشذوذ. وهو يثير الشهية إلى الطعام، ويدعو عند انتهاء التهيج المخى إلى النوم الذى تخالطة الأحلام السعيدة. على أنه لايصيب الرأس بصداع ما ولا التنفس بشىء من الصعوبة والعناء، وهو كجميع المشروبات التى تزعزع أركان المجموع العصبى يصيب متعاطيه بالجمود الذى يجعله إلى الحيوانات العجم أقرب منه إلى بنى الإنسان.

٨- الأفيون

الأفيون نادر الاستعمال فى القطر المصرى، ولكنه شائع بين الأتراك الذين يميلون إلى التخدر به. وهو فى الحقيقة أليق بهم بالنظرإلى مافطروا عليه من حب السكون والميل إلى التأمل. أما الحشيش فالمصريون أميل إليه من غيرهم لأن التأثير الملازم له يتفق مع ما جبلوا عليه من حدة التصور وسهولة الاخترع وقوة الحركة والميل إلى كل مدهش أو مستغرب.

٩- وجبات الطعام

للمصريون وجبتان فى كل يوم. الأولى قبل الظهر بساعة والثانية قبل غروب الشمس بساعة، مهما يكن اختلاف الفصول. أما الأولى فيسمونها « الغداء» والثانية «العشاء» والعشاء هو الوجبة الأساسية. وهذا هو سر العادة الشائعة عندهم من طهى الطعام بعد الظهر. وإذا لم يكن عندهم مدعوون لتناول الطعام فإنهم يحفظون ما يبقى بعد العشاء من الطعام لاستنفاده فى صباح اليوم الالى. والعادة المتبعة فى الطبقة الراقية من الأمة أن لا يأكل رب البيت أبدا مع نسائه وأولاده.

ولما لم يكن فى استطاعة المسلمين أثناء شهر رمضان أن يتعاطوا شيئا ما

خلال النهار فإنهم لايتناولون طعاما إلا فى الليل. فإذا غربت الشمس وأذن المؤذن لصلاة المغرب انتهى الصوم وبدأوا بتناول طعام الإفطار. وقبيل نصف الليل يستأنفون كرة الأكل، ثم يتناولون طعام السحور قبل شروق الشمس. والأغنياء والفقراء منهم سواء فى اختيار أحسن ما يروق فى الأذواق من شهى الأطعمة.

١٠- الآنية والأوعية المستعملة فى الطعام

قبل أن يجلس المسلمون إلى موائد الطعام يغسلون أيديهم ، وفى بعض الأحيان أفواههم بالماء والصابون. وذلك بأن يتقدم أحد الخدم إليهم ومعه طست إبريق من النحاس أو القصدير أو الفضة، إذا كانوا أغنياء. وللطست غطاء مثقب ترتفع فى وسطه هنة تشبه الحوض الصغير. فإذا سكب الخادم الماء فى الأبريق على يدى المخدوم مر من ثقوب الغطاء وسقط فى قاع الطست بحيث إذا تقدم الخادم إلى مخدوم آخر ليغسل يديه لايقع نظر هذا الأخير على أثر ما من الماء الذى غسل سابقه به يديه.

ويختلف منديل الطعام (الفوطة) عما نستعمله نحن فى صيانة ثيابنا بكونه مستطيلا لا مربعا ونسيجه من القطن وسطحه مغطى بوبر كوبر المخمل قبل قطعه وتسويقه. وهو فى بيوت الموسرين مزركش إما بالحرير أو القصب. وقد تبلغ قيمة الواحد منه ما يعدل ثلاثمائة إلى أربعمائة فرنك. والعادة أثناء الطعام أن يوضع منديل على الفخذين ويحمل آخر على الكتف بحيث يلتقى طرفاه على الصدر فيكون أشبه شىء بالوشاح، وهذا تكون الزركشة فيه أكثر منها فى الأول ويكون بالتالى أغلى منه ثمنا. وأغلب استعمال المناديل على هذا المثال عند العثمانيين لا عند المصريين.

والمشارقة بدويو الأصل من أهل العصر ما برحوا محتفظين فيما يتعلق بالطعام والمائدة بما تلقوه بالتسلسل عن أجدادهم من العادة التى تنحصر فى البساطة ومتانة الأوعية. ولايزال المصريون إلى عهدنا يتوخون هذه الخصائص فى طعامهم وموائدهم كما يظهر لك من اقتصارهم فى ذلك على صينية من النحاس أو غيره من المعادن يختلف طول قطرها من قدمين إلى ثلاثة أقدام وكرسى = طبلية = بارتفاع قدم ونصف توضع هذه الصينية عليه، واجتماع هاتين الأداتين يتألف منه ما يسمونه « السفرة» التى يجلس الآكلون حولها على

المخدات المحشوة أو على السجاجيد وتوضع أمام كل أكل قطعة من الخبز وملعقة.

والشرقيون لايستخدمون الشوكة فى تناول الأطعمة. وملاعقهم على ثلاثة اصناف، صنف لتعاطى الحساء والأرز وكل طعام سائل القوام. وهو من الخشب المعتاد فى الأسر الفقيرة، ومن خشب الأبنوس المزخرف بالكهرمان أو المرجان بل والأحجار الكريمة فى الأسر الغنية. وشكل الملعقة المصرية يخالف شكل الملعقة الأوربية من جهة أنها بدلا من أن تضيق شيئا فشيئا حتى تنتهى بطرف مدبب، تعرض شيئا فشيئا حتى يكون طرفها على شكل قوس.

وللحلوى والقشدة وما شابههما عندهم ملعقة خاصة. وهناك شىء من الملاعق أكثر تجوفا من الصنفين السابقين يصنع من الباغة ويشبه قعبا صغيرا وهو خاص بتعاطى الخشاف.

ولا يتخذ الشرقيون لتناول الطعام صحافا خاصة بكل منهم . بل يأخذون من الصحفة العامة حصتهم من الطعام وليست هذه الصحاف من الخزف الصينى بل من النحاس، وهى على شىء من العمق ولها غطاء تغطى به.

والأوعية المستعملة للشراب هى آنية الماء أولا. وهى نوعان. عريض الفتحة ويسمى بالقلة وضيقها ويسمى بالدورق. وتصنع القلل من صلصال واسع المسام يجفف بحرارة الشمس، وخاصيتها حفظ برودة الماء بالتبخر حتى فى وقت القيظ الشديد، ويعطر داخلها عادة ببخور الأخشاب الصمغية العطرية الرائحة وبالمصطكى المجلوبة من البلاد اليونانية. ولها أغطية من الفضة أو النحاس أو القصدير أو الخشب أو ورق النخل، وتوضع فى صينية من المعدن تتلقى الماء الذى يرتشح منها. والقلل فى مصر يقابلها فى البلاد الأسبانية الجرازا (الخرزة). وفى بلاد الشرق لايستعملون الكوب لشرب الماء بل يشربون من فم تلك الآنية ممسكين برقابها، على أن أصحاب اليسار يشربون فى أكواب (طاسات) من النحاس أو الفضة المذهبة أو الذهب.

١١- آداب الطعام

ذكرت فيما تقدم أن الآكلين يقعدون القرفصاء حول السفرة، وهم إذا جلسوا كذلك أمكن أن يحيط بها منهم سبعة أو ثمانية، ونادرا ما تحتوى المآدب

الشرقية مدعوين يربون على هذا العدد فإذا تجاوزوه أقيم من الموائد بقدر ما يكفى لجلوسهم وحصول كل منهم على مكانه حولها . وقبل أن يتناول المسلمون الطعام يبسملون بقولهم : « بسم الله الرحمن الرحيم» وهم لا يستعملون الشوك فى تناوله ورفعه إلى الفم. بل يأخذون ما يلزمهم منه بين أصابعهم فى الصحفة العامة الموضوعة وسط الصينية. وطريقة الأكل على هذا النمط ألطف مما يخطر ببال الأوروبيين الذين يسمعون هذا الوصف. ذلك لأن جميع الآكلين يغسلون أيديهم قبل الجلوس على الطعام وينظفونها بعناية عظيمة.

ثم إن الطعام يقسم قبل وضعه على المائدة أجزاء صغيرة. إما بقدر عدد الآكلين أو زيادة عليه، بحيث أن كلا منهم يستطيع أن يصيب منه كفايته بدون تكبد عناء ومن غير أن يلوث القطع الأخرى. ولايشترك من أصابع اليد فى هذه العملية سوى الإبهام والسبابة والوسطى من اليد اليمنى. وكيفية استخراج القطعة أن تؤخذ كسرة من الخبز وتجعل لفقين وتوضع بين الأصابع الثلاثة المتقدمة للقبض عليها واستخراجها من الصحفة بنظافة تامة وبشىء من اللطف والرشاقة.

وصاحب البيت أو الداعى ينبغى أن يكون أول من يمد يده إلى الطعام . فإذا لم تكن له رغبة فى اللون الذى وضع أمام الآكلين فآداب الأكل تقضى عليه بأن يمسه إما بطرف إصبعه أو بواسطة قطعة من الخبز، وبعد ذلك يتناول كل واحد من المدعوين ما يطيب له من الطعام.

وفى المآدب الكبرى التى يستدعى عدد المدعوين إليها إقامة عدد من الموائد تنقل الأطعمة من مائدة إلى أخرى. وجرت العادة بأن تكون ألوان الطعام كثيرة جدا قد يبلغ عددها الأربعين إلى الخمسين لونا أحيانا، ولكنها غير وافية المقدار، فيتمتع الآكلون على هذا المثال بلذة التنقل من طعام إلى طعام من غير كبير كلفة. وتصلح فضلات الطعام غذاء للخدم.

ويلزم المصريون الصمت على الطعام. ومع إسراعهم فى تناوله فإنهم يراعون القناعة ويلتزمون الاعتدال، إذ من الخطايا الغليظة فى نظر المسلمين أن يدأب المرء على الأكل، وقد بلغ حد الشبع. وتبلغ مدة مكثهم على الطعام نحو ثلث ساعة. فإذا أطالوا المكث فقلما تتجاوز هذه المدة نصف الساعة. ومتى انتهى

الطعام بادر الآكلون بالقيام محمدلين بقولهم: « الحمد لله» واعتنوا بغسل أيديهم وأفواههم كما فعلوا قبل الجلوس إلى الموائد ورب البيت مضطر إلى التخلف على المائدة حتى ينصرف عنها الآكلون. فإذا أكلوا وغسلوا أيديهم برحها ليغسل يديه كذلك ثم يجلس المدعوون على الدواوين لتدخين التبغ وشرب القهوة.

١٢- الاقتداء بالأوربيين في تناول الطعام

هم بعض الذوات والأعيان منذ زمن بتقليد الأوربيين في طريقة طعامهم فاقتنوا صحافا كصحافنا واستعملوا لتناول الطعام منها الشوك والمدى وقرنوها بالأكواب لتعاطى الماء. غير أن الأسلوب الأوربى فى هذا الموضوع يلقى من الصعوبات ما يحول دون انتشاره وذيوعه بين سائر الطبقات وكل ما بذل من المساعى فى هذا السبيل حتى الآن كانت نتيجته التقليد الأعمى الذى ينافى الطبع والذوق. فلقد شهدت بعينى رأسى جماعة منهم اقتنوا أفخر ما يكون من الآنية الخزفية يشربون الحساء فى الصحاف = الآنية = الفرطاحة الصغيرة الخاصة بتناول الحلوى والعكس بالعكس، وشهدت غيرهم يشربون النبيذ المعتاد فى أقداح الشمبانيا وغيرهم يجمعون بين النمطين الشرقى والغربى فى تناول الطعام فيمسكون اللحم فى الصحفة = الإناء = بأصابعهم ثم يرفعونه إلى أفواههم بالشوكة بعد طعنهم إياه بأسنانها. وكثيرا ما يحدث فى المأدبة التى تقام على النمط الفرنسى أن المصرى الذى تقدم إليه الصحفة ليأخذ منها كفايته يتناولها من يد مقدمها ويضعها أمامه ليختص نفسه بكل مايحتويه. وخدام السماط الموكلون بتفريق الطعام على الآكلين لا يدركون حقيقة واجباتهم فى مثل هذه الظروف، دع أنه بسبب ما يصيب الآنية من التلف والعطب لغباوتهم وسوء خدمهم، يصبح من المتعذر الاستعاضة عنها بغيرها.

١٣- طعام الفلاحين

عرف الفلاحون بالقناعة فى المأكل والمشرب والاكتفاء منهما بما يسد الرمق، وخبز الذرة قاعدة غذائهم بل وكثيرا مايكون الغذاء الوحيد الذى يعتمدون عليه. ويحدث أن يضيفوا إليه، إذا استطاعوا، الفول المدمس الموضوع فيه بعض السمن والملح، أو الأرز أو البلح أو الخيار أو الشمام أو الكرنب أو البسلة أو الجبن المالح أو اللبن المخضود أو الفسيخ أو لحم الجاموس الخ، ولايتعاطون من السوائل سوى الماء القراح وقهوة البن.

(٣)
الأثـــاث

ملحـوظات عـامة- المنظـرة: الدركـة والليـوان والديـوان- زخرفـة الجدران والسقـف- الـرفـارف والبراويز الحائطيـة- زجـاج النـوافـذ وحديدها والفرش - مفروشات الفقراء

١٤- ملحوظات عامــة

ترى فـى غضون تفاصيل الحياة الداخلية المنزلية للعرب والأتراك آثارا تدل على أصولهم البدوية، ويتبين منها أن احتفاظهـم بالتقاليد كان من الشدة بحيث لم تؤثـر معيشتهم الحضرية منذ بضعة قـرون فى شكل الأمتعة التى يـؤثثون بها منـازلهـم. فـإن النـاظـر إلـى أثـاثهم أول ما يخطـر ببالـه أنهـم مـا بـرحـوا علـى الاستعداد التام للرحيل، كما لـو كانـت المنـازل التى يسكنـونهـا أقل استقراراً وثبوتا من الخيام التى سرعان ما تقوض لتضرب فى مكان آخر.

ومعنى هذا أنهـم يربأون بأنفسهـم عن اقتناء الأثاث والأمتعة الثقيلة المتعذرة النقل التى يؤثث الغربيون بها منازلهم، ويظهر منها أنهم أخذوا على الزمن عهدا ببقائهم فيهـا طول المدى. فإنك لا تـرى فى حجراتهم لامكـاتب للكتابة ولامنـاضد ولاخزانات للثياب ولا ماجرى مجراها من الأثـاث التى تأتلف مزية الانتفاع فيها بـالإسـراف فى الزخـرفـة والتنميق، والمرايـا الصـافية الأديم والأرائك النـاعمـة، والزرابى المبثـوثة، والكـراسـى المصفـوفة، والتمـاثيل المتقنـة، والسـاعـات الدقيقـة الصنع.. الخ بل إن متاعهم روعى فيه الإقلال مـع البساطة فلم يعد شاملا لشىء سـوى حصر السمـار والسجاجيد والطـراحـات . فـالشرق لم يكـن المكان الـذى ينبغـى أن يقصد إليـه الإنسان للبحـث عن تحف البـذخ وطـرف الرفـاهة والنعيم التـى تفنن الغـربيـون وحدهـم فـى أساليب ابتكـارهـا، ويـرجـع فضـل تحقيقهـا وإيجـادهـا إلـى عبقريـة العلماء والفنـانين منـا ومهارة عمـالنا وجـودة صنـاعتهـم، والـواقـع أن الشقـى الذى يلـذ لبعض الشعـراء الخيـاليين تصويـره فى قصـره أو داخل حرمه متقلبا فى الهناءة والنعيم وسط ما يعجز القلم عن وصفه من مظاهر الأبهة والجلال يعيش فى قصارى ما يخطر بالبال من وسائل البساطة والتقشف والقناعة بالقليل.

١٥- المنظـرة والدركـة

لا يلفت النظر من حجرات البيوت المصرية كالمنظرة - أى غرفة استقبال الرجال. والمنظرة غرفة مربعة أو مستطيلة تحتوى نافذة أو نافذتين تطلان على صحن الدار. وجزء من الأرض الممتدة بين باب المنظرة والجدار المقابل ينخفض بمقدار خمسة إبهامات أو ستة عن بقيتها ويسمى « الدركة» والعادة فى منازل الأغنياء أو الأثرياء أن توجد بوسطه فسقية ينبثق الماء منها على الدوام ، وأن تبلط بالبلاط المختلف الألوان على أشكال هندسية جميلة وبأحد طرفيها المقابل للباب قاعدة مبنية بالحجر ومستندة إلى الجدار بارتفاع ثلاثة أقدام أو أربعة ذات أقواس وحنيات محمولة على أعمدة صغيرة وتسمى « الصفة».

والغرض من الصفة احتواء آنية الطيب والبخور وأدوات غسل اليدين قبل الطعام وبعده والوضوء وقلل الماء وصينية القهوة الحاملة للظروف والفناجين الخ. وفى المنازل المنمقة تحلى حنيات الصفة وأقواسها والبناء الذى تحمله بالغضائر القيشانى.

١٦- الليـوان

يسمى الجزء المرتفع من أرض المنظرة بالليوان وهى كلمة معناها المكان المرتفع. ويبلط الليوان عادة بالبلاط المعتاد. لأنهم يفرشونه فى الصيف بحصر السمار وفى الشتاء بالسجاجيد وحول الجدران الثلاثة المحيطة بالليوان تمتد الدواوين (الكنبات).

١٧- الديـوان

تطلق لفظة الديوان من جهة عامة على الحجرة برمتها، ومن جهة خاصة على صفف مؤلفة من طراحات طويلة أو قصيرة يبلغ عرضها عادة قدمين ونصفا وسمكها من أربعة ابهامات إلى خمسة. وهذه الطراحات تفرش إما على وجه الأرض مباشرة، وإما على دكاكين من الحجارة أو ألواح مرتفعة من الخشب أو أقفاص متخذة من سعف (جريد) النخل بحيث يبلغ ارتفاعها من خمسة إبهامات إلى ستة. وتكون بما عليها فى ارتفاع الكراسى المعتادة تقريبا. والطراحات تتخذ من القماش وتحشى إما بالقطن وإما بالأسبطة = الليف = فى الأسر الفقيرة. وهناك مساند يبلغ ارتفاعها قدما ونصفا فى ضعف هذا

العرض طولا تصف مستندة إلى الجدران فى وضع عمودى على الطراحات لكى يستند الجالسون إليها .

وتكسى الطراحات عادة بالجوخ إذا كانت معدة لجلوس الرجال، وبالقماش الهندى (الشيت) أو الحرير المزركش بأسلاك الذهب إذا كانت معدة لجلوس النساء. وتنتهى هذه الأغطية، سواء كانت جوخا أو قماشا فى أطرافها السابلة إلى أسفل مقدمة الديوان بالرفرف أى السجف. أما المساند فيغطى وجهها الظاهر فقط بقماش من نوع الذى غطيت به الطراحات وغالبا ما يكون هذا القماش موشى بالطرازات المختلفة الأشكال والألوان من الحرير.

١٨ زخرفة الجدران والسقوف

تغطى الجدران فى مصر بالقماش، وإنما تبيض بالجير فى منازل الفقراء وتطلى بالزيت فى دور الأغنياء. ولما كان الشرقيون لا يمارسون التصوير لما ورد فى الشريعة من النصوص القاضية بتحريم تمثيل الصور البشرية فإن ما تخطه أقلام الفنانين منهم فى الزخرفة لم يكن إلا رسما غليظا لا أثر فيه لأصول الفن ودقائقه فإنهم إذا تصدوا لرسم شىء لا يراعون فيه نواميس الضوء ولا أحكام المنظور ولا مقتضيات الذوق. وكل ما تتناوله أقلامهم بالتصوير رسم القصور والمآذن والأشجار والحدائق والفسقيات.. الخ وكلها لا أثر فيه ـ كما قلنا ـ من طلاوة الفن وحسنه. على أنهم يبرعون بتفوق عظيم فى الرسوم العجيبة المؤلفة من الخطوط والزوايا والدوائر، ويجمعون فيها كل ما ابتكرته عبقرية العرب فى فن التصوير الهندسى. ويجعلون السقوف من الخشب عادة تذرعا إلى تصوير تلك الرسوم عليها .

١٩- الرفارف والبراويز

القاعدة العامة فى النظام الهندسى للدواوين أن تتخلل جدرانها الرفارف والدواليب الصغيرة. ويصفون على الأولى آنية الخزف الصينى وعلى الثانية أدوات المائدة. وأخشاب هذه الرفارف والدواليب تتألف كما يشاهد فى جميع البيوت تقريبا من قطع صغيرة متعاشقة بعضها فى بعض ومنسقة بحيث تتكون منها رسوم تشبه ما تحتويه منها الغضائر القشانى . وهناك سببان لصناعة الأثاث المصرية على هذا المثال. أحدهما قلة الخشب فى القطر المصرى. فتراهم

يتوخون هذه الطريقة للانتفاع بالقطع الصغيرة منه، والثانى إن حرارة الجو تدعو إلى انشقاق القطع الكبيرة من الخشب كالألواح الكبيرة التى ، إذا استعملت، لا تلبث أن يصيبها هذه الطارىء.

٢٠- زجاج الشبابيك والمفروشات

ذكرت خلال وصفى للمنازل المصرية بعض الشىء عن الشبابيك. وأضيف الآن إلى ما ذكرته عنها أنه ليس لها دفتان كما هو الحال فى أغلبها عندنا. فإن حلوقها تنقسم إلى قسمين أحدهما وهو الأعلى يظل ثابتا لا يتحرك والآخر وهو الأسفل يتحرك بحركة رأسية صعودا وهبوطا. والزجاج المركب فيها ردىء الصنع مهمل الشأن. إذ يحدث أن ألواح الزجاج فى بيت أصبح عتيقا لا تكون قد غسلت مرة واحدة منذ تركيبها فى مكانها. وهى إذا انكسرت بباعث ما، قلما يفكر فى الاستعاضة عنها بغيرها، لأن الخشب المركبة فيه مصنوع بحيث تستلزم عملية وضع الزجاج الجديدة تفكيك أجزاء الشباك برمته. وقد اعتاد المصريون أن يعلقوا أمام نافذتهم قطعة من قماش الشيت أو القماش الهندى، وفى النادر قطعة من الحرير بمثابة ستار لا يتجاوز طوله طول النافذة. ولا يحلى بشىء ما من الرفارف (السجف) أو غيرها مما اعتيد زخرفة الأستار وتنميقها به.

٢١- الأدوات الأخرى لتأثيث المنازل

رأينا فيما سبق أن الشرقيين لا يستعملون الأسرة لنومهم، وذكرنا كيف ينامون وأن ليس للنوم عندهم غرف خاصة. ونقول الآن انهم لقضاء ليلهم، إذا كان الفصل صيفا، يضعون الطراحات على الدواوين ثم يرقدون فوقها، إذا كان شتاء يبسطون هذه الفرش فى غرفة صغيرة تسمى بالخزانة تكون عادة من الغرف الملحقة بالمنظرة. ولانتشار الحشرات فى مصر ترى الأغنياء وأصحاب اليسار يتقون شرها بالكلل (النموسيات) المتخذة من القماش أو الحرير الموسلين أو الخز = الحرير = أو أى نسيج آخر دقيق السلك، وبواسطة هذه الأقمشة يضربون الكلل فوق الطراحات فتكون بمثابة الظلة لها، ويثبتونها من زواياها الأربع بحبال دقيقة تناط بحلقات موضوعة بالجدران الأربعة للغرفة.

وتبلغ الكلل أحيانا من العظم ما يجعلها تشغل الديوان كله تقريبا، وتحمى

من البعوض أسرة برمتها. وفى بيوت الأغنياء تزخرف الكلل بالنقوش ومتى انقضى الليل واستيقظ النائمون نزعت من مكانها وطويت لتنشر مرة أخرى قبيل الرقاد.

وليس لدى الشرقيين دواليب لحفظ الثياب. لأنهم يكتفون فى صيانتها، بجعلها صرة تحيط بها مناديل كبيرة تسمى (البقجة) ويتخذون لكل نوع من الثياب بقجة خاصة به. ولما كانت المجاسد - أى الثياب التحتية لاتكوى ولاتثنى بواسطة النار فى مصر، وكان استعمال القبعات والمثقبات (الدانتلا) مجهولا من نسائها فإن هذه الثياب تلبس غير معرضة لعبث العابثين بها، فضلا عن أن صرها فى البقج يجعلها أيسر حملا وأسهل استعمالا عند الحاجة.

ولاتقع عين الناظر بمصر من المرايا إلا على الصنف الردىء الرخيص الثمن الوارد من مدينة البندقية. وهذا لاينفى أن هناك عددا من المرايا الجميلة التى أخذ بعض العظماء وذوى الحيثيات يستوردونها من البلاد الأوربية.

ولدى أصحاب الوجاهة والثروة من الأهالى ساعات حائطية آلاتها من الخشب أو النحاس، وهى مما تصنعه ألمانيا برسم التصدير إلى الشرق الأدنى. والمصريون مغرمون باقتناء هذا النوع من الساعات إلى حد انك لتجد فى الحجرة الواحدة ساعتين، وفى بعض الأحيان ثلاث ساعات من هذا النوع.

ولقد سبق لنا الكلام على الصينية التى يتناول المصريون حولها الطعام كما تكلمنا عن الأشياء المختلفة التى تصلح لهذا الغرض فلا حاجة إذن إلى استئناف الكلام عنها.

أما الشمعدانات فمن النحاس بوجه عام. وليس فى مصر شىء من المصابيح التى نراها فى غرف الاستقبال الكبيرة عندنا تفيض النور على جوانبها فتجعلها ساطعة الضياء. لأن الشرقيين ما برحوا عاكفين على استعمال المصابيح الغليظة التى كان يستصبح بها أجدادنا منذ بضعة قرون، ويستعملون أيضا للاستصباح شمعا من الدهن ردىء الصنع جدا غير أن لدى الأغنياء ثريات من زجاج البندقية.

وقد أدخلت إلى مصر وفى السنوات الأخيرة أشياء كثيرة تؤثث بها المنازل عندنا فى بيوت العظماء والأثرياء، ولست أذكر بهذه المناسبة قصور أصحاب

السمو التى بما احتوته من نفيس الرياش وفاخر الأثاث تعد مستكملة لحاجيات الحضارة الأوروبية.

٢٢- أثـــاث الفقـــراء

أما الطبقة الدنيا فليس لديها من الأثاث بالطبع مثل ما لدى اصحاب اليسار، وإن يكن فى حد ذاته على شىء كثير من البساطة والسذاجة. ذلك لاقتصار الفقراء، فى تأثيث بيوتهم، على حصيرة سمار وسجادة وطراحة وبعض مساند أو مخدات. أما الفلاحون فيقتنون حصيرة واحدة ويتخذونها فراشا لنومهم وكرسيا لجلوسهم، ومائدة لطعامهم.

وليس عندهم من الأوعية إلا بعض آنية من الصلصال وهاون لصحن البن وتنكة لعمل القهوة وشبك للتدخين . ذاك كل ما يتألف منه أثاثهم ، وليس فى الأمر مايستغرب. لأن هذا الأثاث أوفق ما يكون لحالة الأكواخ التى اتخذوها مساكن لهم.

(٣)
آداب الاجتماع

بيانات عامة– التحية– القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان ـ أى مكان الجلوس– القهوة– الشبك .

٢٣- بيانات عامـة

تنزل آداب الاجتماع من أمة بمنزلة الحركات والأشارات والأوضاع من الفرد. فآداب الاجتماع حالات تكشف النقاب عن حقيقة أمة بأسرها بل هى، فى يد الباحث الراغب فى تصوير حضارة أمة من الأمم، الذى لا ينبغى له أن يطره = يمدحه = لأنه خير ما يبلغ به إلى غايته فى تشكيل كيانها.

وثمة اعتبارات لاشك فى أنها مما تقدم ارتباطا بالفلسفة، ولكنها ترمى إلى غرض المنفعة، تدعونى فى هذا المقام إلى سرد بعض القواعد والأصول التى تنظم المعيشة اليومية للوطنيين المصريين، وسيسر الرحالون الذين يطوفون فى الشرق، قبل أن يلموا مقدما ببعض أخلاقه وعاداته، أن يجدوا فى البيانات المبسوطة فى هذا الفصل متنا وجيزا لقواعد آداب الاجتماع الشرقية. وبتلاوتهم

هذا المتن والمامهم بما يحتويه يألفون شيئا فشيئا الآداب المرعية عند المسلمين ولاينتابهم من الحيرة والاضطراب ما ينتاب الذين يختلطون بأمة دون العلم بشيء من عاداتها وأخلاقها. وأية حيرة للرحالة الأجنبى من أن يجد نفسه تجاه أخلاق وعادات لايفهم منهاشيئا. الا يكون شأنه ـ وهذه حالته ـ شأن من يحتاج إلى درس لغة جديدة للتفاهم مع أبنائها؟ أما إذا ألم بما يجهله من أمرها فإنه يسهل عليه تبين حقيقة مدنيتها فيجتهد فى التوفيق بين سلوكه وعاداتها وأخلاقها.

٢٤- التحيـــة

فى الغرب، إذا ساقت المصادفة شخصين إلى الالتقاء فى الطريق ، فإننا نرى الذى يستشعر منهما بسمو الآخر عليه فى الوجاهة أو العلم أو الثروة يبتدره بالسلام. أما فى الشرق فصاحب المرتبة العليا هو الذى يفاتح صاحب المرتبة الدنيا به.

فبين التحيات عند الشرقيين تفاوت يرتبط أرتباطا وثيقا بمراتب الذين يتبادلون التحية. فالنظيران إذا التقيا مثلا سلم كلاهما على الآخر بيده اليمنى رافعا إياها إلى الفم ثم منه إلى جانب الرأس فإذا لم يكن التساوى بينهما تاما، كأن كان هناك تفاوت يميز أحدهما على الآخر. فالأرفع درجة من الأثنين هو الذى يجب عليه أدبا أداء التحية بالوصف الذى أوردناه. ولكن يجب على من يتلقى التحية فى هذا الحالة أن يردها بمثلها أو أحسن منها، وذلك بأن يحنى رأسه وجسمه إحناء خفيفا. أما إذا أريد تحية شخص من الطبقة الدنيا فالعادة الاقتصار فيها على رفع اليد إلى الصدر. وفى هذه الحالة يجب على من يتلقى التحية أن ينحنى انحناء محسوسا ويرسل يده اليمنى ألى أسفل لكى يرفعها بعد ذلك إلى الرأس. وإذا كان أحد أفراد الطبقة الدنيا فى حضرة أمير أو كبير فقد وجب عليه تأدية التحية على المثال المتقدم بكلتا بديه.

وفى تحية النظير للنظير يستمر الاثنان على السير فى طريقها. فإذا كان هناك فرق فى المراتب، فالواجب على الأدنى مرتبة أن يقف ويواجه الذى يجب عليه رد التحية إليه.

وتصحب التحية التى تعبر عنها الإشارة بكلمة (صباح الخير) أو (مساء

الخير) أو (نهاركم سعيد).

وإذا التقى إثنان فى طريق تساءلا عن أحوالهما الصحية وعن كيفهما ومزاجهما. وأبناء الطبقة الدنيا يكررون هذا السؤال بتكرار الكلمات الآتية (ازيك) (طيبون) الخ. مع التصافح باليدين من غير ضغط ورفعها إلى الفم فى كل مرة يوجهون فيها السؤال.

ونادرا مايستفهم من الشخص المسلم عليه عن أخبار أفراد أسرته وخصوصا النساء منهم. فإن الآداب الإسلامية تستدعى إمساك الرجل عن توجيه التحية إليهن. ولاشيء يخالف مقتضى الآداب الأوربية من تلك الآداب السلامية كالعمل بهذه القاعدة.

حقا إنه ليتعذر جدا تمييز النساء بعضهن عن بعض وهن مؤتزرات بذلك الإزار الذى لايرى من خلاله شيء يعرفن به، ولكن الواجب بحسب تلك الآداب، حتى فى حالة العلم بهن التظاهر بجهلهن، وإلا عد ذلك من المخالفات التى لاتتفق مع أصول الحشمة والصيانة. ثم إن النساء لايسلمن بعضهن على بعض فى الطريق.

٢٥- القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان

الديوان هو البهو المخصص لاستقبال الرجال. وقد ذكرت فيما تقدم ترتيبه وتأثيثه، وأذكر الآن أن الواجب على من يغشى هذا المجلس أن يترك حذاءه عند الباب أو فى الجزء الواطيء من البهو « الدركة» حتى لاتتسخ الحصر والسجاجيد بالقذر أو يصيبها شيء من الدنس الذى لايتفق مع القيام بفرض الصلاة عند المسلمين. وليس على من يغشى المجلس أن يوجه التحية إلى الحاضرين، كلا بل إن رب البيت هو الذى ينهض واقفا عند دخوله إذا كان من أهل مرتبته ودرجته. فإذا كان أعلى منه مرتبة ودرجة أقبل عليه وتنحى له عن مجلسه. أما إذا كان أحط منه مرتبة فليس على رب المنزل إلا أن يتحرك حركة يوهم بها أنه يهم بالوقوف، ولكنه يبقى مستقرا فى مكانه ثم يشير إليه بالجلوس فيجلس على الحصير أو السجادة أو بحافة الديوان معلقا إحدى ساقيه وثانيا الأخرى تحته تبعا لما يريد أن يظهره من التوقير والاحترام لرب البيت. وإنما يجب عليه فى هذه الأوضاع المختلفة أن يجعل يديه مشتبكتين على أسفل

البطن. أما رجال الجندية فيضعون يدهم اليسرى على مقابض سيوفهم.

وفي مجلس سمو والى مصر يظل الحاضرون جميعا وقوفا على أقدامهم، حاشا الأمراء من أعضاء الأسرة الحاكمة والباشاوات وأكابر رجال الدين. ولم يتبع سموه هذه العادة مع الأجانب - ولاسيما الأوروبيين منهم - فإنه يدعو إلى الجلوس جميع الأجانب الذين يقدمون إليه.

أما الإفرنج الذين فى خدمة مصر، فإنه يطلب منهم مراعاة عادات الشرقيين فى كل أمر.

ولكبار الضباط فى دار الوزير حق الجلوس على الديوان. كما أن لضباطهم حق الجلوس فى حضرتهم، وهكذا بحسب ترتيب الدرجات فى هيئة الاجتماع العسكرى.

ويجلس الذين يغشون مجالس سمو الوالى بعضهم إلى جانب بعض بحيث يكون أسماهم مرتبة وأعلاهم مقاما أدناهم منه. على أن هذه القاعدة الأدبية غير مرعية دوما. فقد شوهد سمو الوالى وكثير من العظماء يهملونها فى بعض ظروف معيشتهم حتى أنك لتجد الأمير فى بعض الأحيان يلعب الشطرنج مع أحد خدمه ويأذن له بالجلوس على الديوان من أجل ذلك.

ومتى انتهى المجلس يقوم الحاضرون بدون أن يفوه أحدهم بكلمة ويتراجعون إلى الخلف صارفين وجوههم نحو صاحب الدار حتى لايولوه أدبارهم أو أكتافهم. وعليه فى هذه الحالة أن يجيبهم وهم يجاوبون على تحيته وينصرفون تباعا. وقد ينهض رب البيت واقفا أو يصحب بعض الزائرين إلى الباب، إذا اقتضى أحد هذين الأمرين مكان الزائر المنصرف ورفعة قدره.

والسيدات تتبعن بينهن هذه القواعد وتعملن بها فى استقبال الزائرات. وهذه العادات الأهلية التى حفظتها التقاليد وجعلتها راسخة ثابتة رسوخ الحضارة التى اشتقت هى منها معروفة ومرعية من الجميع، والكل مجمعون على ضرورة الاحتفاظ بها واستدامة وجودها بالحرص على اتباعها حرصا يكاد يكون إيمانا أو يقينا دينيا.

٢٦- قهوة البن

مما لا يختلف فيه اثنان تعاطى قهوة البن فى أنحاء بلاد الشرق. فإن الشرقيين يقدمونها إلى جميع الذين يحق لهم الحضور فى مجالسهم. فالباشا الذى يتلقى فى دار حكومته أميرا خطيرا أو عظيما من العظماء أو قاضيا جليلا يقوم نحوهم بهذا الواجب الأدبى، ويكفى أن يلفظ بكلمة القهوة ليكرر أحد كبار الخدمة هذه اللفظة خارج الغرفة بصوت جهورى مستطيل. وفى هذا النداء دلالة على الاحترام العظيم لشخص الزائر.

أما اذا كان المزور أقل من ذلك شأنا وأحط رتبة فليقتصر على طلب القهوة بنفسه واصفا إياها بوصف الجودة.

وتشرب القهوة فى آنية صغيرة من الخزف الصينى تسمى بالفناجين، وهى تشبه قشر البيضة مقطوعة نصفين من وسطها وتوضع الفناجين فى قوائم يسمونها بالظروف وهى أشبه شىء بالآنية التى يوضع فيها البيض النميرشت. والظروف تصنع عادة من الفضة أو الذهب أو الميناء، وترصع أحيانا بالأحجار الكريمة. وعند الفقراء يكون الفنجان من الخزف الصينى والظرف من النحاس، وتصف عشرة فناجين إلى اثنى عشر فنجاناً، وقدر هذا العدد من الظروف على محيط صينية من النحاس أو الفضة ترتفع بوسطها كنكة القهوة التى تتخذ من أحد تلك المعادن، وتغطى الصينية عادة بقطعة مستديرة من القماش المزركش بالذهب أو بغيره بحسب مقدرة رب المنزل.

ويقوم الخدم أو العبيد بصب القهوة فى الفناجين ثم بتقديمها إلى الحاضرين ممسكين الظرف من أسفله بأطراف الأصابع فيتلقى الزائر الفنجان بالقبض على الظرف بالإبهام والأصابع الثلاثة التالية له من اليد اليمنى. وتقدم القهوة فى أول الأمر إلى الشخص الذى يؤهله مقامه أو رتبته أو ثروته لأن يحوز شرف الأسبقية على غيره فى الخدمة، فإذا وجد بين الحاضرين أكثر من واحد يستحقون هذا الاعتبار فإن فناجين القهوة تقدم إليهم فى آن واحد وعليهم قبل تناول الفنجان الذى يقدم إليهم أن يحيوا بعضهم بعضا. أما إذا كان الزائرون أحط مرتبة من المزور فلا يصح تقديم القهوة إليهم إلا بعده بحسب ترتيب مجالسهم منه، والواجب عليهم فى هذه الحالة أن يحيوا صاحب البيت

بالإشارة قبل تناول الفنجان وكلما تلقى تحية أجاب عليها برفع فنجانه إلى موازاة وجهه وعلى أثر هذه المظاهر الأدبية يشرب كل القهوة التى قدمت إليه.

ولاينبغى فى شرب القهوة أن تشرب إلا مصا بطرف الشفتين ومن غير إمالة الفنجان، ومن يريد من الحاضرين إظهار الاحترام للمزور باعتبار كونه أرفع منه شأنا فعليه أن يتحول برأسه عنه تحولا خفيفا وأن لايشرب من القهوة إلا الشىء اليسير منها.

وقد سرى قانون الآداب الإسلامية حتى على الكيفية التى ينبغى أن يرد الفنجان بمقتضاها إلى من قدمه. فإنه يقتضى فى حالة ابتعاد الذراع عن الجسم لرد الفنجان أن يكون هذا الابتعاد خفيفا وأن لايصحبه كلام مع الخادم وإنه متى تناوله هذا الأخير منه يؤدى بإشارة التحية كما أداها وقتما قدم إليه.

وقد ألف الخدم فى أخذ الفنجان عادات وطرائق تشبه التى يقدمونه بمقتضاها رقة وأدباً . ذلك لأن الفنجان لايحتوى على بروز خارجى فإنه حينما يتلقاه يفعل ذلك بحركة لطيفة بوضعه يده اليمنى على فتحة الفنجان وتركيزه قاعدة الظرف على يده اليسرى .

ولا يجوز التحدث مع رب البيت فى عمل إلا بعد شرب القهوة. فاذا ابتدره الزائر بالحديث فى المصلحة التى ساقته إليه قبل ذلك كانت هذه المسارعة تهجما لا مبرر له . بل مسلكا لا يليق بالمتأدبين وهذه العادة يستند البعض إليها فى إقامة الدليل على كسل الشرقيين ودعتهم وتهاونهم والتى يبدو - أول وهلة - أنها مضيعة للوقت فيما لا جدوى منه ترتجى لاتخلو من الفوائد والمزايا . لأنها تفتح للزائر والمزور معا طريقا للانتقال الصالح من المشاغل التى كان خاطرهما مشتغلا بها قبل الزيارة والتى سيشتغلان بها فى خلالها . وبهذه المثابة لايحسب المزور أن الزائر أخذه، بزيارته إياه فى الوقت غير الملائم أو فى الأوان الذى كان لايتوقع فيه زيارته، على غرة منه. لانه بما ينقضى من الوقت أثناء تعاطى القهوة يكون قد أخذ الأهبة للمفاوضة فى الموضوع الذى يعرف أن زائره جاء من أجله واستعد له استعدادا فكريا .

ومن جهة أخرى فان الزائر نفسه يجد، أثناء تعاطيه القهوة، فسحة من الوقت للتمعن فيما سيلقيه من القول على المزور وتنسيقه على الوجه الذى يراه

أسـهل تنـاولا على الفهـم أو أبلغ فى الإقنـاع بالحجـة. وإذا فرض أن أحـدهما أو كلاهما كـان حينما وقع نظره علـى صاحبه قد ثـارت فى نفسه ثائـرة الغضب أو اعتـراه الحياء أو تملكتـه إحدى العـواطـف المؤثرة فـى النفـس فإن الـوقت الـذى ينقضـى فـى تبـادل التحيـات والتسليمـات وشرب القهـوة يمهـد للغـاضـب سبيـل الفيئة = العودة = إلى السكـون والحلم اللذين لابد منهما فـى كل مفاوضـة أو مناقشة.

٢٧- الشـبك = الشيشة =

ليس فـى استطاعتنـا - إذا كنـا فى أوربـا - أن نصـور لنفسنا منظـر تركـى وليـس بيده شبـك يستثير الـدخان منـه. ومـا من أحـد فى الشـرق إلا وهـو مغـرم بتدخين التبـغ. إلا أن القوم يسلكـون فـى تدخينـه مسلكـا يدل علـى تفـوقهم فـى سلامة الذوق ورشاقـة الحركة وما إلى غيرهما من المظاهـر التى يندر أن يتصف بها المدخنون عندنا.

والشبك أداة يستجلب الشرقيون بواسطتها لذة تحولت فى نفوسهم، كعادات كثيـرة غيرهـا، إلـى طبيعة ثـابتـة. وللطرق المستحـدثـة والثروة تـأثيـر فى الشبك باعتبار كـونه إحدى الأدوات المنزلية التـى يفضلها المدخن على غيـرها. والأجزاء الثلاثة التى يتألف الشبك منها هـى: الفم والأنبوبة والجوزه أو الحجر.

فالفم ويسمـى أيضا التركيـب هـو الجزء الذ ى يوضـع بين الشفتين لاستنشاق الدخـان، ويكون عادة مـن الكهرمان رفيعا أو غليظـا قصيرا أو طويلا، وعلـى كل حـال مناسبـا لطول الأنبـوبة مـع اختلاف فـى الشكل والـزخرف اختلافـا يوافـق مزاج صاحبه وميلـه . ويبلغ ثمن الفم عادة، إذا كان مـن الكهرمان، من خمسين فـرنكـا إلـى خمسمائـة فـرنك. ومـن الأفمـام مـا يتجاوز ثمنه هـذا الحد، ويكـون مـزخـرفـا بـالمينـا أو مـرصعـا بـالأحجـار الكـريمة. ويقتصـر الفقـراء علـى اتخـاذ أفمامهم من القرن أو سن الفيل.

ويختلف طول الأنبوبة من قدمين إلى ستة أقدام، وتصنع إما من أعواد شجر الكراز أو اليـاسمين أو أى خشب سـواهما وتكسـى بالحريـر. وإذا كان صـاحبه من ذوى اليسـر والقدرة كسا طـرفيها، بطول أربعة إبهـامات أو خمسة، بـالفضة أو الذهب أو المينا، وربما رصعها بالأحجار الكريمة. أما الفقراء فيقتصرون على الخشب المعتـاد فى صناعـة الأنابيب لشبكاتهـم وربما اكتفوا بقطعة مـن البوص

لهذا الغرض.

اما حجر الشبك فلا يكون من غير الصلصال المحروق وله أحجام مختلفة ويحلى بنقوش على النمط العربي، وتختلف الأحجار عن بعضها بحسن رونقها وجمال نقوشها ليس إلا.

ولم يكن التلهى وقطع الوقت بتدخين الشبك وقفا على الرجال فقط، فإن النساء يقطعن فراغ وقتهن أيضا بتدخينه داخل الحرم. وهذه العادة أقل شيوعا بينهن منها بين الرجال. ثم إن النساء لايجهرن بالتدخين، وانما يدخن فى حجراتهن بعيدا عن الأعين، وشبكاتهن أجمل رونقا من شبكات الرجال لكثرة ما فيها من الزخرفة .

ويستعمل المسلمون للتدخين أجود أصناف التبغ ويعطرونه أحيانا بماء الورد وبقطع صغيرة من العنبر يخلطونه بها فيكون الدخان الذى يستنشقونه عطرى الرائحة محبوبا فى الشم. ويتخذون أثناء التدخين أوضاعا تنم عن الوقار والهيبة من جهة وعلى الدعة والسكون من جهة أخرى، دع أنها تساعد على المضى فى التأمل والسبح فى أجواء التصور. وجلال تلك الأوضاع مضافا إلى أطوال الشبكات وسحب الدخان العطرى المتصاعدة أكاليل بعضها تلو بعض والظروف والأحوال التفصيلية الأخرى، مما يساعد على تحبيذ تلك العادة التى تبدو لنظر الأوربيين مجردة من مظاهر الرقة ومنافية للذوق السليم.

وكان لابد للشبك أن يدخل، وله ماذكرنا من الشأن والمكانة، فى دائرة الآداب الاجتماعية. غير أن استعماله أقل شيوعا من استعمال القهوة، ولهذا كانت القواعد المرعية بشأنه مقتصرة على أنه لايقدم عادة إلا من المرؤوس لرئيسه أو من النظير لنظيره. فمن النادر إذن أن يقدمه الرئيس لمرؤوسه، وإذا قدمه فلا يكون ذلك إلا لقصر مدى التفاوت بينهما فى الدرجات، وشكل الشبك وحليته يدلان على درجة الاحترام الذى يستحقه من يقدم إليه. ومن ثم كان للشبك درجات تبلغ الخمس أو الست بينها من التفاوت والاختلاف مايجعلها منطبقة على أقدار الذين تقدم إليهم .

ثم إن الاحتفال بتقديم الشبك ينبغى أن يتفق مع الأساليب الإسلامية الممتازة بالرقة فى الأدب. فإن الخادم المكلف بتقديمه لايمسك به إلا من أسفل

الأنبوبة فى النقطة المتوسطة من طولها. ويكون إمساكه بثلاثة من أصابع اليد اليمنى فقط كما يمسك قلم الكتابة مع العناية بجعل الحجر إلى الامام. فإذا ما وصل تجاه الشخص الذى يراد تقديمه إليه أسند الحجر إلى الارض بعد أن يكون قد قاس بنظره المسافة الفاصلة بينه وبين هذا الشخص بحيث يجعل أنبوبة الشبك، بعد ارتكاز الحجر على الأرض، تتحرك حركة يرسم الفم فيها ربع دائرة يلتقى فى نهايتها بنقطة فى متناول فم الضيف الذى يقدم إليه.

ويقدم الشبك كما تقدم القهوة إلى الذين يحلون المكان الأول من مجلس صاحب البيت ثم إلى الذين يلونهم يمنة ويسرة، وهذا على حسب ترتيب المواضع. والواجب فى هذه الحالة على من يقدم إليهم الشبك أن يتلقوه بالتحية لرب البيت. وإذا كان على الزائر للمزور فروض احترام وتعظيم إما لجاهه أو وجاهته أو ثروته أو غير ذلك فمن الأدب المستحسن أن يعنى بإبعاد طرف الأنبوبة التى فيها الحجر عن مجاورته. لأن ترك هذا الطرف بالقرب منه يشير إلى أن الكلفة مرفوعة من بينهما ويكون الزائر قد أتى، فى هذه الحالة، أمرا لا يتفق مع حسن الشمائل وكرم الأخلاق. وواجب الزائر حيال المزور الذى هذا شأنه أن يترك الطرف الأعلى من الشبك مستندا إلى ركبته، وأن يستنشق منه بين حين وآخر نفسا خفيفا لايزفره إلا وهو محول رأسه عن ناحية المزور. والحذر كل الحذر من انبعاث صوت ما بين الشفتين أو البصق فى منديل أو غيره.

وإذا أراد الزائر مزايلة = ترك = المكان بعد انقضاء الزيارة، فعليه ان يكف عن التدخين بأن يرفع بيده الطرف المشتمل على الفم (المبسم) فلا يلبث الخادم أن يتقدم نحوه ليرفع الشبك.

فإذا فرض ولم يكن هناك خادم ولم يتقدم أحد. فله أن يسند هذا الطرف إلى ديوان الجلوس.

(٤)
الختـــان أو الطهـــارة

قدم هذه العادة– الاحتفال بها.

٢٨- قـــدم عـــادة الختــــان

كان الختـان عند قدمـاء المصريين إحدى الوسـائل الصحية التى تقضـى بها القوانين المدنية، وأول من استن هذه السنة ابراهيم (عليه السلام).

وإذا حافظ المصريون على عادة الختان فما هـو إلا لما ثبت عندهم من فائدته وحسن أثره من الوجهة الصحية. لأنه، بقطع النظر عما يتطلبـه الدين الإسلامى من تكرار الوضوء والاستحمام، من أنجع الوسائل لوقـاية أعضاء التناسـل من الأمراض الكثيرة التى يكون القذر سببا لها.

٢٩- الاحتفال بالختـــــان

جرت العادة بأن يكون ختان الأطفال فى السابعة أو الثامنـة أو التاسعة من أعمـارهـم. نعـم إن السـن التـى يقـام فيهـا الاحتفـال بـالختـان تحدد علـى وجـه الصـراحة. غيـر أنه يجـب الشـروع فى إجـراء عمليـة الختان والاحتفـال بها قبـل مناهزة الغلام سـن الحلم، لانه يعتبر فـى هذه السن مكلفا بـأداء فرض الصـلاة. فـإذا لـم يكن قــد اختتن فلا يعتبـر جـائـزا علـى شـروط الطهــر والنظـافـة التـى يقتضيها الشرع

والمألوف عنـد ذوى اليسار والبسطة فى المال أن يبـالغوا فى تنميق الاحتفال بمناسبة ختـان أبنائهم. فإنهـم يؤلفون لهذا الغـرض موكبا يجتمع فيـه الأصدقاء والمحبون ويتقـدمه رجـال الموسيقى ثـم يطوفـون بالشـوارع والأحياء القـريبة مـن مساكنهم.

أما الغلام المراد اختتانه فيمتطى جوادا مطهما بعد أن يفرغ عليه ثوب فاخر ويعمـم بعمامـة من الكشميـر الأحمر. وقـد يتـزيا بـزى فتاة صغيـرة فيفرغ علـى جسمـه اليلك والسلطـة والكور والصـوفة، ويضـع علـى فمـه بيده اليمنـى منـديلا مزركشـا بالقصـب. وعند تحرك الموكب به يتقـدمه صبـى الحلاق الذى نيطـت به عملية الختان ممسكا بيده الجلم، وهو صنـدوق يحتوى عدة معلمه وأدواته. يراد

بجعله فى المقدمة الرمز إلى الغرض من الاحتفال ثم يتلوه رجال الموسيقى بزمورهم وطبولهم، ثم الغلام يتبعه أهله وأصدقاء أسرته.

وإذا كان أهله من أصحاب الثروة الواسعة والجاه العريض فإنهم يذهبون إلى أبعد مما تقدم في جلال الموكب ومظاهر أبهته وجماله. ولاسيما إذا قصد بالغلام إلى المسجد فإنهم، فى هذه الحالة، يحضرون زملاءه فى المدرسة أو أنداده فى السن من أبناء الجيران والأصدقاء والمعارف وبأيديهم المباخر يحرقون فيها الجاوى والصندل. وبعد أن يقضى الموكب فى المسجد حصة من الزمن بين الظهر والعصر، يدعون إلى الله متوسلين إليه بنبيه أن يحفظ «المطّاهر» ويحرسه لأهله، ثم يقيمون مأدبة كبرى يتناول الطعام عليها جميع من رافقوه من الأطفال وغيرهم.

والعادة أن تتم عملية االختان عقب هذه المأدبة بأن يأخذ الحلاق الطفل إلى أبعد حجرة من المنزل فيقطع له الخشفة = الغلفة - = بالموسى ويوقف بأحد المساحيق القابضة نزيف الدم. ثم يتقدم أغلب المدعوين لتهنئة المطاهر وإتحافه بالهدايا الجميلة. وبعد أسبوع من العملية يؤخذ إلى الحمام.

والختان فى نظر المسلمين الحد الفاصل بين دورين من أدوار حياة الطفل المختتن. فإن الناس ينظرون إليه بعد الختان باعتبار أنه قد ترك دور الطفولة ليدخل فى دور الرجولة. ومن هذا الحين يلقن قواعد الصلاة وأركان الدين. وإذا كان غنيا عنى بتربيته وتعليمه تعليما واسع النطاق. أما إذا كان فقيرا فإنه يساعد أهله على معاشهم بممارسته معهم الحرفة التى يزاولونها.

(٥)

الـــزواج

ميل المصريين إلى الـزواج– السن المعينـة للزواج– الـزواج المحرم– مقدمات الزواج– حفلات الزواج– إزالة البكارة.

٣٠- ميل المصريين إلى الزواج

يـرى المسلمـون فـى الـزواج أنـه من الفـروض التـى لايحسـن بـالمرء محـاولـة التنصل مـن القيام بها. فهـم يريدون مـن الرجل الاقتـران بالمرأة متى بلـغ السن الملائمة لذلك ولم يحل دون إتمام هـذا الأمر حائـل لاقبل لأحد على دفعـه. وبلغت شـدة الوهـم بهـم فـى هذا الموضـوع إلـى حد لايمكن لأحـد معـه السكنـى بأحـد الأحياء فى بيت خاص بـه ما لم يكن متـزوجا أو عنده فى خدمته جارية أو جملة مـن الجوارى. فـالعازب مضطـر إذن إلـى السكنـى فـى الـوكائـل - أى الفنـادق العامة المعدة لإقامة الغرباء

ويريـد الآباء لأبنـائهم مـا يريـدونه لأنفسهـم من الحصـول على النسـل. وهذه الرغبة أساس الحياة الزوجية عندهم فتراهم لهذا السبب يعجلون بتزويجهم وهم فـى مقتبل العمـر. وكثيـرا مـا يخطبون لهـم العـرائس وهـم فـى طفـولتهم الأولـى فيحتظون بهن إلى أن يبلغوا سن الحلم فيتم زفافهم بعضـهم على بعض.

٣١- السن المعينة للزواج

الحقيقة أن لاسـن معينة للـزواج عند المصـريين، لذا تـراهـم يـذهبون فـى هذا الأمـر إلـى حد العبث والإخلال بـالصـواب. فإن منهـم مـن يـزوجـون بنـاتهـم فـى التاسعـة والعاشرة مـن عمرهـن - أى فى الوقـت الذى لم يتـوافر للمرأة فيـه من النمو البدنى والأدبى ما يجعلها أهلا للتزوج.

وكثيرا ما يرى المرء رجالا فى الثلاثين أو الأربعين مـن أعمارهـم، وقد تزوجوا بفتيات صغيـرات يصح أن يكونوا لمثلهن أباء أو أجدادا. وهو الـدليل على أنهم لايلتمسون من الزواج سـوى شفاء الغليل من الشهوات البدنيـة، وعلى أن الدافع لهم إلى عقد عقدة الزواج لم يكن العقل ولاالعاطفة.

٣٢- الزواج المحرم

ليس لمسلم أن يتزوج بإبنته أو أخته او بنت الأخ أو بنت الأخت أو الأخت فى الرضاعة أو أخت الزوجة ما لم تكن قد توفيت أو طلقت، وفيما عدا هذا من طبقات القرابة يباح الزواج. والشريعة الإسلامية لاتحرم زواج المسلم بالنساء من أهل الكتاب أى اليهوديات والمسيحيات ولكنها تحرمه بالمشركة من أديان أخرى غير هذين الدينين. ومما يكاد يدخل فى حكم العدم أن مسلما يستفيد بهذه الإباحة فيتزوج بمسيحية أو يهودية.

٣٣- مقدمات الزواج

إذا طلب رجل التزوج من امرأة ورضى والدها بالشروط المقترحة فى حالة عدم بلوغها أو وافقت بنفسها عليها بعد بلوغها الحلم جاز تحرير عقد النكاح.

والزواج فى مصر اتفاق خاص لايحتاج فيه إلى مصادقة من السلطة الدينية ولا إلى إجراءات ما من جانب السلطة المدنية. فاجتماع الزوجين هناك يتم بتبادل الرضا والقبول من الزوجين أمام شاهدين، وتعلن الزوجة رضاها وقبولها فى هذا التعاقد بلسان وكيل تختاره بنفسها إذا كانت بالغا أو بلسان والدها أو وصيها إذا لم تكن كذلك. فالذى يؤدى الوكالة عنها يخاطب الخطيب المتقدم للزواج بقوله « زوجتك إياها» فيجاوب هذا: « قبلت». وكثيرا ما يتفق أن يقصد المسلمون الراغبون فى الزواج إلى القاضى فيفضيان إليه الرضا والقبول، ومنهم من يستغنون عن هذه الصيغة الرسمية

ويتمام الرضا والقبول يشرع فى الكلام على المهر. وليست المرأة فى مصر هى الملزمة بأدائه إلى الرجل، لأن الشريعة الإسلامية تلزم الرجل بدفع الصداق إلى المرأة. وهذا الإلزم غاية فى السداد والعدل فى هيئة اجتماعية تجيز الطلاق لأن الصداق، فى هذه الحالة يكون نوعا من التعويض للزوجة المطلقة.

ويقدر الصداق عادة بالريالات. والريال نقد صورى ينقسم إلى ٩٠ بارة ويساوى ٥٠ سنتيما. ففى الأسر المتوسطة الحال يبلغ الصداق عادة إلى ألف ريال، وأحيانا لايتجاوز نصف هذا المبلغ. أما الاغنياء فيقدرونه بالكيس والكيس يعدل مائة وخمسة وعشرين فرنكا. ويبلغ عندهم عادة إلى عشرة أكياس، وربما تجاوزها إلى ما فوق. ومما يشترط فى عقد الزواج أن تقبض العروس من المهر

عاجلة أى الثلثين من مجموعه، ولها أن تتصرف فى هذا المعجل على مرادها وبدون أن يحاسبها زوجها عليه. أما الثلث الباقى وهو الآجل فيبقى فى ذمته كمال إحتياطى لها يلزم بأدائه فى حالة طلاقه إياها.

٣٤- حفلات الزفاف

تقام حفلات الزواج بعد تبادل القبول والرضا من الخطيبين، وعلى كل حال فالمدة التى تنقضى بين تحرير العقد وحفلة الزفاف لاتتجاوز ثمانية أيام إلى عشرة يقوم أهل العروس خلالها بتجهيز شوارها. وقد يقدم العريس إليها بعض الهدايا أثناء ذلك.

والأيام السعيدة الطالع الموافقة للاحتفال بالزفاف هى الاثنين والجمعة على الأخص.

وأفضل أوقات السنة للزواج هى المنحصرة بين فيضان النيل وشهر رمضان. وفى الليلتين السابقتين على يوم الزفاف أو الثلاث ليالى السابقة تضاء الأنوار والمصابيح فى بيت العريس والمسالك المؤدية إليه من الحى الذى يسكنه، وتقام المآدب ويدعى إليها أقرباؤه وأصدقاؤه.

أما بيت العروس فيكون أثناء ذلك مظهرا لحفلات باهرة وأفراح عظيمة يشترك فيها النساء من أهلها وقريباتها وجاراتها، ويعد من الأعياد الكبيرة وبواعث السرور والابتهاج اليوم المعين لذهاب العروس إلى الحمام حيث تمشط وتضمخ بالروائح العطرية، ويزال شعر بدنها للمرة الأولى فى حياتها. ويرافقها إلى الحمام عادة قريباتها وصديقاتها. ويكون الذهاب إليه قبل الزفاف بيومين مجملة بأحسن ما تتجمل به امرأة من ضروب الزينة والبهرج، ومتوجة بتاج جميل تحت ظلة يرفع قوائمها أربعة من أشداء الرجال ويتقدمها الموسيقيون والراقصات والعالمات. وقبيل المساء تعود إلى بيت أهلها فى مثل هذا الموكب الجميل. أما العريس فيقصد إلى الحمام العام أيضا فى مثل هذا المظهر ويقضى به اليوم بأكمله مع لفيف من أخص أصدقائه. وفى اليوم الذى يذهب فيه العروسان إلى الحمام يخصص هذا المكان لهما بالأجرة فلا يغشاة أحد من جمهور الناس.

ومتى أقبل اليوم الموعود للزفاف، سارت العروس إلى بيت عريسها فى موكب

حافل يشبه الذى سارت فيه يوم ذهابها إلى الحمام. وتسير فيه أيضا جواريها بعضهن حاملات أوعية تتضمن أدوات زينتها وبهرجها ومصوغاتها، والبعض الآخر يقمن بإحراق البخور فى المباخر، بينما تبث نساء غيرهن فى الفضاء صيحات حادة تسمى بالزغاريد. ويواصل الموكب السير على هذا النظام متمهلا متوخيا أبعد السبل عن بيت العرس لإذاعة خبر الزفاف وإشراك الجمهور فى بهجة احتفاله.

ولدى عودة العروس إلى الحرم المعد لإقامتها تجد فيه مائدة فخمة جمعت الصنوف العديدة من شهى الطعام. فتجلس إليها للأكل مع صويحباتها قريبات وجارات. أما العريس فلا يحضر هذه المائدة. بل يقصد مع بعض أفراد أسرته وأصدقائه إلى المسجد لأداء الصلاة ثم يعودون جميعا إلى المنزل لتناول الطعام معا، وبعد الطعام يستأذن منهم فى الانصراف ليدخل على عروسه فى حجرتها.

عندئذ يرفع النقاب عن وجه هذه العروس التى لم يكن قد رآها من قبل. وهذه الآونة من الظروف الرئيسية الباتة فى حياة الإنسان. لأنه يتأكد بعينى رأسه إذا كانت الأحلام التى ما فتئت تناوشه وتداعبه، منذ تحرير عقد القران، فيما يختص بمحاسن عروسه قد تحققت أو لم تتحقق. وعقب رفع النقاب يباشر بنفسه العملية التى يقوم بها الدليل على بكورة عروسه من عدمها.

٣٥- فض البكــارة

يتم الزواج بمصر فى ظروف خاصة جدا، وخاصة إلى حد أرى معه ضرورة الكلام عليها. نعم إن من المهمات العسرة معالجة موضوع بلغ فى الدقة إلى هذا المبلغ، ولكننى سأجتهد فى القيام بهذا الواجب مع الاحتراز بقدر الإمكان عن إيذاء سمع ذوى الحشمة والوقار.

إن الغرض الأول بل الوحيد الذى يقصد من الفتاة التى تتزوج هو البكورة. اذ يرى أهلها أن شرفهم منوط بها. كما يرى العريس أن هناك ما يدعوه إلى التحقق منها. فمن الواجب المحتوم على العروس أن تكون بحالة تستطيع فيها إقامة الدليل- لا لزوجها وأهلها - بل لأصدقاء الفريقين ومعارفهم أيضا، على أن درة البكورة لبثت مصونة ولم تعبث بها يد الثاقب.

لهذا كان المصريون يرون فى إزالة البكارة أن الحاجة لم تكن ماسة إلى

إحاطتها بالأسرار المبنية على الحشمة والحياء، وأن لا مانع - بناء على ذلك - من الاستشهاد عليها بدعوة الناس إلى الحضور لشهود النتيجة المنتظرة من وجودها أو عدمه.

وتجرى هذه العملية عادة على مشهد من الأمهات وبعض كبار السيدات. ومؤداها أن يقوم العريس بإزالة بكارة عروسه بالسبابة من أصابع يده اليمنى بعد تغليفها بغشاء من الحرير الأبيض. وهو - فى قيامه بهذه العملية - يبدى الشيء الكثير من الخشونة والفظاظة اللتين يستمدهما من الغيرة المخجلة التى ملأ بها فؤاده قبل أن يستجلي وجه عروسه. أما المنديل الحريرى فيعرض على الأهل والأقارب مخضبا بالدم فيهمون بتهنئة العروس ويسترسلون فى مظاهر الفرح والسرور. ثم يعرض أيضا هذا الدليل الدموى على عفاف العروس وطهارة ذيلها، على المدعوين. وفى اليوم التالى تطوف به أم العروس أو أختها أو إحدى قريباتها فى الحى برمته لتطلع سكانه عليه.

والغاية مما تقدم أنه اذا اتفق أن عروسا وقعت فى خطيئة قبل زفافها أو كان بها مرض أو نقص فى التكوين الجثمانى يحول دون إتيانها بذلك الدليل فإن للعريس أن يطلقها من ساعته. وفى مثل هذه الحالة غالبا ما تكون العروس عرضة لانتقام أهلها الذين لايزعهم من الرحمة والتبصر وازع عن قتلها ذبحا وإلقاء جثتها فى النيل للتخلص من عارها. وقد تكون عفيفة طاهرة الذيل لأحد الأسباب المتقدمة.

والأحوال التى لاتستطيع العروس فيها إثبات عفافها نادرة جدا لحسن حظ الفتيات. لاسيما وأن من السهل، ببعض الحيل الصناعية التى يعرف أسرارها بعض العجائز، إثبات وجود البكارة مع انها غير موجودة لحادث ما. هذا ولا يباح الاتصال للزوجين الا بعد سبعة أيام من إزالة البكارة على الوجه المتقدم.

(٦)

الوفـــاة والجنـــازة

الوفاة– حزن الأهل– الكفن– القبور والمقابر– احترام المسلمين للموتى– الحداد.

٣٦- الوفـــاة

يحترم المسلمون موتاهم ويعظمون سيرتهم، ولهذا كانت الجنازات عندهم من أهم المظاهر الدينية. غير أن هذه المظاهر لاتنهض فى هذا الأمر - كما فى كثير من الأمور غيره - دليلا على الشعور الحقيقى بالحزن والتأسى. لأن الدين الاسلامى يدعو أهله إلى التلطيف من الحزن على موتاهم باعتبار أن الموت قضاء ساقه الله وإرادة لا راد لها وحكم يجب الانقياد إليه والرضا به. فإذا استسلموا إلى الحزن وبالغوا فيه أتوا ما يخالف أوامر الله وذهبوا إلى عكس مشيئته . وهذا هو السر فى قولهم أثناء كلامهم على موتاهم، متى هدأت نار حزنهم الأول: إن الله عز وجل قد اختارهم لجواره ودعاهم إليه فلبوا دعوته وأنهم انتقلوا من دار الشقاء إلى دار البقاء الخ.

والذين يحضرهم الموت من المسلمين ويوقنون أن مآلهم إليه يظهرون التوكل العظيم على جانب الله وقوته فيقولون: «لاحول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون» ويقولون لمن يجيء لعيادتهم والاستفسار عن حالتهم : « الحمد لله، هو أرحم الراحمين» وإذا أنسوا فى أنفسهم بعض القوة هموا بالوضوء كما كانوا يفعلون قبل كل صلاة، ليكونوا فى انتقالهم من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، على طهارة تامة. فإذا أشرفوا على الموت وجهوا صوب القبلة.

٣٧- حزن الأهـــل

إن اللحظة التى يلفظ المسلم فيها النفس الأخير تتلوها فى العادة مناظر غريبة طالما وقع نظرى عليها واستقصيتها من أولها إلى آخرها . فإن النواح والولولة وغيرهما من مظاهر الحزن تبتدىء عادة منذ ساعة الاحتضار . ولكن المسلمين على خلاف ذلك. فإنه مادام بالمحتضر رمق من الحياة يظل الحاضرون حوله من أهله وذوى قرابته ملازمين للسكون ومتمسكين بأهداب

الصبر، ومهما أقنعهم الأطباء الأوربيون به من قرب الوفاة وأنها لابد تالية لحالة الاحتضار، فقلما يتحرك لهم ساكن أو يأخذون بمثل هذا التأكيد قائلين: «إن الحياة والموت بيد الله، وأن ليس لأحد من البشر أن يخبر عن شخص لاتزال الأنفاس تتردد في صدره، أنه لا محالة مائت» ولكنه متى لفظ النفس الأخير ولبى نداء ربه، سرعان ما يأخذهم الانزعاج وينتابهم الحزن والأسى فيصيحون ويبكون، وترى النساء يضربن صدورهن ويخمشن وجوههن ويجذبن شعرهن ويحثين التراب على رؤوسهن ويولولن بأصوات محزنة على إيقاع معلوم منهن. وإذا كان المتوفى رب الأسرة انبعثت من صدورهن ألفاظ تدل على مبلغ الحزن والأسى لوفاته من نفوسهن فيقلن: « ياسيدى! ياجملى! أنت الذى كان يجىء بقوتنا! أنت الذى كان يحمل عبء حياتنا! ياسبعى! يا ركنى! ياعزيزى! يا وحيدى! وامصيبتاه!لماذا تركتنا! ماذا كان ينقصك بيننا! أما كانت طاعتنا لك لا حد لها! أما أحس قلبك بحبنا واحترامنا!» الخ ما هنالك من عبارات الشجو وصيحات الحزن.

ولايكاد ينتشر خبر الوفاة حتى تقبل نساء الجيران على بيت المتوفى ويضفن صراخهن وعويلهن إلى صراخ صاحباتهن وعويلهن. وغالبا ما يدعين إليهن الندابات الضاربات على الإطارات ويصحن صيحات يتكلفن فيها إظهار الحزن واليأس ويعددن صفات الفقيد الجثمانية ومناقبه النفسية متوخيات في إيرادها المبالغة التى لامعنى لها. وفى المصريين كثيرون ينتقدون عادة الاستعانة بالندابات على إقامة الأحزان ويقبحونها ويدعون إلى هجرها والتنصل منها.

ذاك شأن النساء فى المآتم. أما الرجال فيحتفظون غالبا فيها وفى الحوادث المكدرة والكوارث النازلة بالسكون والجلد والصبر وقلة الاكتراث، ويحرصون كل الحرص على كتمان شعور الألم والحزن الذى يحسون به شديدا فى قلوبهم، ويتحامون إظهار شىء من العلامات والإشارات التى تنم على ما ينتابهم من ذلك، وغاية ما يشاهد منهم حب الانزواء عن الناس، كأنهم يودون الانفراد بالحزن بدون أن يشاركهم أحد فيه. وهذا ولاشك أحد مظاهر فضيلة الصبر عندهم على الشدائد والمحن.

٣٨ - الكفن

لاقانون عند المسلمين يعين المدة التى ينبغى انقضاؤها بين الوفاة والدفن.

والمجمع عليه بمقتضى نصوص الدين التعجيل بتجهيز الميت وتشييع جنازته ودفنه، وهم يعجلون بذلك حتى إنه ليحدث أحيانا أن تنقل الجثة إلى القبر. بعد الوفاة بنصف ساعة أو ساعة، ونادرا تمتد هذه المدة إلى بضع ساعات. والمقصود بهذة العجلة التى أوصى الشارع بها منع التأذى من تعفن الرمة السريع الحصول فى الأقاليم الحارة. وفى يقيننا أن تلك العجلة ربما أفضت إلى أكثر من حزن موجب الأسف والندم.

وتشييع الجنازات فى النهار عادة فإذا توفى الميت ليلا فإنه لا يكفن إلا بعد شروق الشمس، ولذلك يبيت أهله فى بكاء وعويل لا يكفون عنهما إلا بعد زمن طويل تفنى فيه قواهم وتبح أصواتهم. وبمجرد أن تغمض عينا المحتضر وينبعث النفس الأخير من صدره يذهب أهله فى طلب المغسلين والحانوطيين الذكور منهم للذكور، والإناث للإناث. وبعد غسل الجثة فوق لوحة الغسل يزال شعره وتسد فتحات جسمه جميعا لصيانته من التدنس بالمواد التى لايبعد أن تسيل من باطنه بعد غسله ثم يلف فى كفن من قماش جديد.

ويعلق المسلمون أهمية كبرى على الكفن حتى إنهم إذا خرجوا، لسفر طويل أو قتال مع العدو، أخذوا أكفانهم معهم. وبعد إدراج الموتى فى أكفانهم يوضعون فى نعش يغطى بقطعة من القماش الفاخر أو المزخرف بالوشى.

وليس محتما أن تكون نعوش الرجال شبيهة بالصناديق المقفلة. ولكن الشريعة الإسلامية التى تلاحق النساء بعواطف الغيرة عليهن، تقضى بأن لاتكون نعوشهن بعد موتهن إلا على الشكل المتقدم الذكر.

وبعد إيداع الجثة النعش، تحمل إلى أحد المساجد بحيث تكون الرأس فى المقدمة بالنسبة لوضعها منه. والمسلمون لايأذنون للمسيحيين بجعل جثث موتاهم على هذا الاتجاه. بل يلزمونهم بجعلها على عكس هذا الوضع - أى بتقديم القدمين على الرأس. ويتقدم مشهد الجنازة طائفة من العميان يسيرون على ثلاثة صفوف صائحين صيحات موزونة مشجية ناطقين بالشهادتين وهما «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ثم يليهم خدم الفقيد فالندابات مرتديات بأردية طويلة زرقاء ومؤتزرات بإزار أبيض. فالأربعة الرجال الذين يحملون النعش على اعناقهم فأعضاء أسرة الفقيد فشيوخ المساجد يتبعهم، فى بعض الأحيان، جماعة من عامة الشعب.

وبعد نقل النعش إلى المسجد يتقدم أحد رجال الدين فيصلى عليه، ويستأنف مشهد الجنازة بعد ذلك سيره إلى المقبرة، وفيها يستخرج الميت ليغيب فى القبر الذى أعد له متجه الرأس نحو الشرق. أما المشيعون الذين تألفت منهم الجنازة فيتناولون الطعام حول حفرة الميت، ويعود الأهل والأقارب مع الندابات إلى بيت الفقيد حيث يقمن أياما لأداء وظيفتهن الجنازية. ألا وهى إذكاء نار الحزن على الفقيد فى قلوب أفراد أسرته (١).

٣٩ - القبور والمقابر

إن قبور المصريين عبارة عن أقبية مستطيلة مبنية أو محفورة بحيث يتمكن الموتى الذين يودعونها من القيام لتلقى سؤال الملكين منكر ونكير والإجابة عليه. وأحد وجهى القبر يكون باتجاه الجنوب الشرقى. أى صوب مكة والوجه الآخر المقابل له فى المدخل يحميه مربع صغير من البناء ويمكن أن يحتوى كل قبر أربع جثث لا أكثر، ومن النادر أن تدفن النساء فى نفس القبر الذى يدفن الرجال فيه. وفوق القبو الذى يكون سطحه الأعلى بمستوى سطح الأرض يقام أثر مستطيل مكعب الشكل يثبت بطرفيه لوحان من الحجر يعلوهما شكل قلنسوة تدل على ما إذا كان القبر مخصصا لدفن الرجال أو النساء. وبالرغم من أن الدين الإسلامى لايبيح وضع النقوش بآيات القرآن على القبور فإنه لايكاد يخلو قبر منها. ومع تحريمه صراحة العلو ببناء القبور والأضرحة وتحتيمه الاقتصار فى بنائها على الطوب النىء فإن الأغنياء والعظماء يشيدون لأنفسهم أضرحة من الرخام المنقوش بالكتابات والرسوم الجميلة. بل أن منهم من يبنون المساجد الفخمة ليجعلوا فيها أضرحتهم. فلا جرم إذا كانت قبور الخلفاء والأمراء والمماليك من أنفس تحف الهندسة العربية وأجل آثارها. وموقع مقابر المصريين من المدن داخلها أو ضاحيتها القريبة، ويتحرون لها الاماكن الرملية المرتفعة ونادرا مايقع النظر فيها على النباتات إلا ما يكون من بعض أشجار الجميز التى تنشر ظلالها الوارفة على القبر، أو بعض شجيرات الأزهار نامية حوله يتعهدها من آن إلى آن قريب حزين أو صديق حميم.

---

(١) إن عادة الندابات عادة خاصة بمصر. وقد جاء فى مؤلفات هيرودتس وديودووس الصقلى ما يؤخذ منه أن هذه العادة كانت فاشية فى الأزمان القديمة.

وقد حرمها الدين الإسلامى، ولكن هذا التحريم لم يأت بثمرة فى مصر نظرا لتأصل تلك العادة وقدمها.

٤٠- احترام المسلمين للموتى

يعنـى المسلمـون أثنـاء انتشـار الأوبئـة بتكفين مـوتـاهـم ودفنهـم علـى المثـال المتقـدم. ولايظن أحـد أن الأوبئة تلقـى فـى أفئدتهـم الـروع الذى تلقيـه فى أفئـدة الأوربيين. كلا فإنهـم لايتنحون أبدا عـن موتاهـم الذين يموتـون بالطاعـون. وهذا هو شأنهم أيضا فى الحروب، فإنهم يرون من الفروض الدينية أخذ قتلاهم معهم ليتمكنوا من القيام نحوهم بما يفرضه الـدين. وإذا كانوا يخترقون الصحراء فى سفر طـويل ثـم أعياهم السير وأضناهـم حلول الشقة، وأدركـوا أنهم مـائتون لا محـالة، حفروا قبورهم بأيديهم ورقدوا فيها إلى أن يدركهم الموت.

٤١- الحداد

لايحمل المسلمـون الحداد كما نحمله نحن، الا أن منهـم من يصبغون أيـديهم بالنيلة أو بـالسواد ولا يزيلونهما إلا إذا زالا بنفسهما. وإذا تـوفى الأزواج صبغ النساء بالنيلـة أيديهن وسواعدهن إلـى المرافق وفعلن مثل ذلك بثيابهـن وقناعهن وتركـوا شعورهـن شعثة وغطلـوا أنفسهن مـن الحلى وفـى حالـة وفاة رب المنـزل قلبوا الحصر والسجاجيد والمساند وأغطية المفروشات ظهرا لبطن.

(٧)
الاعتقــادات الباطلـة

الجن- الأولياء- الدراويش- العين الحاسـدة- الشعوذة- الأحلام- أيـام السعـود والنحـوس- التنبؤ بـالمستقبـل- السحـر- التنجيـم- الكيمياء- أصحاب الفأل- حواة الثعابين- الاعتقاد فى الخرافات- المرأة التى تنبأت بالمستقبل لمحمد على.

إن الشعب الجاهـل الذى أخذت الاعتقـادات الدينية مـن نفسة مغرسـا عميقا يكون ميالا فـى العادة إلى العقائد البـاطلة والخزعبلات الفاسدة. وهـذا هو شأن المصريين الذيـن عرفوا بالميل الشديد إلـى العجائـب والغرائـب وإحاطـة جميع الشئون والظروف المعيشية بها.

٤٢- الجن

من الاعتقادات الباطلة الكثيرة الانتشار فى مصر الاعتقاد بالجن.

والجن فـى نظر المصـريين وسط بيـن الملائكة والبشـر، وقـد خلقوا قبـل آدم

وكان خلقهم من النار. وأطال الله في حياتهم. فحياتهم تدوم قرونا طويلة. ولهم سلطان على جميع العناصر وخاصية التشكل بما يروق لهم من الأشكال. فإذا شاء وا كانوا بشرا أو حيوانا وإذا شاء وا كانوا حجارة أو نباتا وأذا أرادوا خفوا على الأنظار فلا تدركهم الأبصار. أما مساكنهم ففى جبال قاف التى يعتقد الأميون من المسلمين أنها تحيط بالأرض من جميع جهاتها على اعتبار كونها سطحا مستويا لا كرويا.

ومن الجن رهط يميلون إلى الخير ورهط ينزعون إلى الشر، والمسلمون يوقرون الأولين ويحبونهم ويخشون بأس الآخرين ويمقتونهم. وكلما هموا بأداء عمل ولو بسيط كسكب قليل من الماء أو إضرام نار الخ قاموا بكلام يستأذنون فيه من الجن أداء هذه الأعمال. ويعتقدون أن هذه الكائنات أرواح بخارية تسكن الخرائب والأطلال وتختلف إلى الحمامات والآبار والمراحيض، وأهل القاهرة مقتنعون بأن كل حى من أحيائها موكول حراسته إلى نفر من الجن الميالين إلى الخير وأنهم يتشكلون بشكل الثعابين.

أما شرار الجن المعروفين بالعفاريت، فما من عبث أو فساد يقع فى الأرض إلا وينسب إليهم فعله. فهم الذين يقضون فراغ وقتهم، أثناء وجودهم بسطوح المساكن أو نوافذها، فى إلقاء الأحجار والطوب على المارة ويتخيرون لسكناهم المقابر والهياكل والقصور والآثار القديمة. ويعتقدون أن الله يمنع أذاهم عن الناس فى شهر رمضان بحبسه إياهم ومنعه لهم من الانبثاث بين الناس. وإذا حدث أن هبت الرياح وأثارت الرمال أو التراب إعصارا قالوا فى تفسير هذه الآثار والظواهر أن بعض الجن الميالين إلى الشر أفلتوا وعاثوا فى الأرض فسادا. واذا سقطت الرجوم من السماوات قالوا إنها شهب أرسلها الله ليصيب بها العفاريت الذين يسترقون السمع، ومتى رأوها تخترق كبد الفضاء سألوا الله أن يصيب بها عدو الدين فى قولهم: « سهم الله فى عدو الدين».

٤٣- الأوليـــاء

ليس فى الدين الاسلامى ما يقضى بتقديس الأولياء، ولكن المسلمين بوجه عام، والمصريون منهم على الأخص يعتقدون فى بعض الأولياء، بناء على ما تناهى إليهم من إجماع الرأى العام على تقديسهم . وقد يكون الرأى العام فى

ذلك مخدوعا بخدعة مازح أو ماكر، وهم لايقتصرون على تكريمهم بعد وفاتهم بل يجعلونهم موضوع احترامهم وتوقيرهم أثناء حياتهم.

ويرى المسلمون فى المجاذيب والمجانين الذين لايضرون الناس أنهم قوم أتاهم الله من فضله وخصهم بعنايته وأودع فيهم أسرار الطهارة والقداسة. وقد يكون أولئك المجاذيب والمجانين فى حالة من ضعف العقل وقلة الفهم تحرمهم الحرمان الكلى من المواهب التى يسمو الإنسان بها على سائر الحيوانات، ولكن عامة الشعب يعللون إجلالهم إياهم أن روحانيتهم اللطيفة عرجت إلى السماء ولم يبق من كيانهم على الأرض سوى الجزء الكثيف منها. ومن ثم تراهم يغضون الطرف على فعال أولئك الأولياء الذين تستدعى حالاتهم العجب والدهش. فإنهم لا يأبهون بهم اذا برزوا فى الطريق وليس عليهم من الثياب حتى مايستر عوراتهم. وقد يكون منهم من يهتكون فى كل لحظة ستار الفضيلة ولا يرعون حرمة الآداب والدين. ومع هذا فلست ترى أحدا يتأفف من عملهم أو يرى فيه مخزاة تستوجب الفضيحة والعار. وسبب هذه الغفلة اعتقادهم أنه إذا كان أولئك الأولياء قد تركوا أجسامهم ماضية فى تيار الشهوات البهيمية ومنطلقة بلا عنان فى ميدان الملاذ المادية، فما ذلك الا الاستغراق روحانيتهم فى التأملات الربانية وانصرافها عن أمور الحياة فى هذا الكون السفلى. ويعرف سواد أولئك المجاذيب بقذرة أبدانهم ومايتشحون به من أطمار بالية. وهم يصرفون نظر الناس إلى ذواتهم بما يأتونه من شاذ الفعال وغريبها ويعيشون من الصدقات التى يتهافت الناس على أدائها إليهم من غير سؤال فى غالب الأحيان.

ومن لم يصابوا من المشائخ بالبله أو الجنون يطلق عليهم اسم الأولياء، ولكل من هؤلاء طريقة يتصنعها فى إظهار ولايته. بعضهم يحركون على الدوام رؤوسهم فى اتجاهات مختلفة ويكرر البعض الآخر بلا انقطاع كلمات معينة حفظوها عن ظهر قلب. وغير هؤلاء يلزمون الصمت العميق فلا يفوهون بكلمة وإنما يبدون فى مقابل ذلك من فاضح الإشارات ما يندى منه الجبين. وهناك فريق لا شغل له إلا الرقص والغناء، وفريق غيره لا عمل له الا إذاقة نفسه صنوف الشدائد والحرمان كما يقع من أمثالهم فى الصين والهند، وجماعة آخرون يأكلون كل ما يقع فى أيديهم أو يكبلون أنفسهم بالأغلال والسلاسل ويقضون السنوات العديدة فى هذه الحالة. وشوهدت طائفة أخرى يلبث رجالها

واقفين ليل نهار لا ينامون إلا مستندين إلى أحد الجدران.

وليست ثياب هذه الطوائف أقل غرابة من فعالها المتقدمة، فإن منها من لايغطون رؤوسهم بالقلانس. بل يتركون شعورهم تنمو حتى تبلغ من الطول مبلغا عظيما ويرسلونها من ورائهم وعلى أكتافهم إما شعثا وإما ممشطا. وكثير منهم يجوبون الطرقات والميادين ويندسون بين السابلة لايستر أبدانهم شىء ما من الثياب مكتفين من المتاع بجلد ماعز أو ضأن أو غزال يحملونه على أكتافهم. ومنهم من يتعملون الحياء ويتكلفون السمت والوقار فيسترون أجسامهم بقميص أبيض طويل أو مرقعية متكونة من قطع صغيرة مختلفة الألوان.

وشهرة الأولياء بإتيان الغريب والمعجب من الأعمال غنية عن البيان.، ومثلها الاعتقاد السائد على العامة أن أحد الأولياء يسمو على الآخرين بالفضل والورع والعلم فيتولى رياستهم باسم القطب أى المحور الذى يدور الأولياء حوله. وهو يبرز إلى الناس ويختلط بهم، ولكن ليس فى قدرة أحدهم أن يتبين حقيقته أو يعرف أنه هو ذاك الذى امتاز على أقرانه بتلك الخلال الجليلة والصفات العالية. وسبب جهل الكافة بحقيقة أمره. ظهر بينهم، تحريه التواضع والخشوع فى مظهره والحسنى والمعروف فى معاملته الناس كى يتمكن من إقناع المخالفين لأوامر الدين والمتغافلين عن العمل بنواهيه بالفيئة = الرجوع = إلى طريق الحق والرجوع إلى الصراط المستقيم. والمعروف عندهم أنه يفضل الإقامة على سطح الكعبة ويصيح من أعلاها مع اختفائه عن الأنظار مرتين فى منتصف كل ليلة قائلا : «يا أرحم الراحمين ارحمنا» وله فى القطر المصرى جهات يقف بها، منها باب زويلة بالقاهرة ومقام سيدى أحمد البدوى بطنطا ومقامات أخرى ومعاهد للدين . ومما لا يختلفون فيه أن فى قدرته الانتقال فى لمح البصر من القاهرة المحروسة إلى مكة المكرمة.

والموالد لتكريم الأولياء وإحياء ذكراهم تقام عادة بعد وفاتهم وقد أنشئت المساجد الجميلة على قبور البعض منهم وأقيمت الأضرحة فى المدن والأرياف تعلوها القباب على أجداثهم إجلالا لكراماتهم، وجرت العادة بغرس شجر جميز بجوار كل قبة لتظللها أغصانها بظلالها الوارفة. وأهل البلدان القريبة يقصدون هذه الأضرحة إما لتلاوة الدعوات وإما لالتماس الشفاء للمريض أو قضاء مطلب.

وفى بعض الأحيان تحفر بالقرب من الضريح بئر حتى، إذا وصل إليه أحد السابلة استطاع الارتواء بمائها ويلتمس الراحة من عناء السفر بالجلوس فى ظل تلك الأشجار الباسقة. أما الأضرحة التى لا أبار بجوارها فلا تخلو على كل حال من وجود المياه بها لشرب السابلة .لأن كثيرين من أهل الخير يتبرعون بجعل الجرار والقلل فيها ويتعهدونها على الدوام لإرواء العطشى من أبناء السبيل أو المسافرين. وربما وضعوا بالقرب منها بعض الخبز أو النقود ليلتمسها ذوو الحاجات وينتفعون بها، أو يظهر فيهم أثر لجرح، ويروضون الأفاعى والعقارب حتى تأنس بهم، ويضعون النار متلظية تحت آباطهم بدون أن ينالهم منها أقل أذى.. الخ.

وهم فى هذا العهد أقل إسرافا فى الشموخ والازدهاء بهذه الخاصيات العجيبة التى امتازوا بها على جميع الناس.

ومن أغرب حفلات الدراويش الذكر الذى يتلخص فى تكرارهم لفظ الجلالة مع تحريك الرأس والجسم تحريكا متصلا غير منقطع. وهذه الحركات المترادفة تؤثر فيهم فلا يلبثون أن يقعوا على الأرض، وقد حقنت وجوههم، وسال اللعاب من أفواههم بما يسيل من أفواه المتشنجين وبدت عليهم علامات الأخذة. وفى هذه الآونة التى يبلغ الهياج فى نفوسهم أثناءها مبلغه الأقصى ويرون فيه الدليل المحسوس على ولايتهم يعتدون على بعضهم البعض بصنوف الإيذاء والتمثيل. وربما نجم عن فعالهم موت البعض منهم فيذهبون فريسة الجهل والضلال.

ويحضر الدراويش معا الحفلات الدينية، ويسيرون فى مواكبها، ويمارس فريقهم الأكبر بعض الصناعات، والفريق الآخر لا مهنة له سوى تلاوة القرآن والإنشاد فى الجنازات فى سد جوعة أو قضاء حاجة، والفلاحون ينذرون النذور لأضرحة الأولياء فإذا قضيت حاجاتهم وفوا بها فمنهم من إذا نذر رأسا من ماعز أو ضأن أو ماشية ذبحه وطبخه ومد الأسمطة ودعا إليها الفقراء فيفدون زرافات لتناوبها وإشباع البطون منها.

ويحتفل المصريون احتفالا باهرا بمولد الأولياء المشهورين فى القطر المصرى.

٤٤- الدراويش

الدراويش فرقة من المسلمين شديدة التمسك بالصلاح والورع تفوق فيهما أبناء الفرق الدينية الأخرى. وهم كثيرو العدد فى القطر المصرى وينقسمون إلى فرق وأحزاب وطرق شتى يمتاز بعضهم عن بعض بألوان أعلامهم وعماماتهم وإشكال قلانسهم. ويقيمون الدليل على ولايتهم بألف وسيلة ليس منها واحدة إلا وتستوجب العجب والدهش أكثر من أختها. فإنهم مثلا يأكلون الأحجار والزجاج والمعادن، ويزعمون أن بقدرتهم ثقب أجسامهم من أحد الجانبين إلى الآخر دون أن يشعروا بألم.

ويطلق الناس عليهم اسم « الفقراء» الذى يطلق عادة على عامة المساكين والزهاد المتعبدين. أما الفريق الآخر فيعيش بما يغدق عليه من الصدقات والمبرات. وفى مصر دراويش كثيرون متشردون وأصلهم من بلاد الشام والعجم.

٤٥- الحسد أو النظر أو العين

يعتقد المسلمون فى الحسد أو النظر أو العين، وهم يخشونها ويتخذون الوسائل الكثيرة للوقاية منها. فاذا رأوا أحدا يغالى فى الإعجاب بشىء يملكونه أيقنوا أنه قد حسده - أى أصابه بعينه، ولهذا السبب تراهم، اذا أرادوا الإعراب عن إعجابهم بشىء، يراعون القصد فى الألفاظ الدالة على ذلك. وعندهم لا يليق بأحدهم أن يقول فى خلال كلامه عن شىء يملكه أنه جميل أو مليح من غير أن يقرن الإعجاب به بجملة « ما شاء الله» التى تشير إلى الطاعة للمشيئة الربانية واحترامها. واذا بدرت من أحد كلمة تعجب أو استغراب من شىء فالذى يحب من السامعين. لها اتقاء مايضمره المتعجب من الحسد أن يواجهه بقوله: « صل وبارك على سيدنا محمد» فإذا أجاب على هذه الكلمات بقوله: « اللهم صل وبارك عليه» فليس له أن يخاف ما كان يتوقعه من حسد.

ويعلل المسلمون ما ينزل بهم من المصائب الطارئة بسوء الحظ وقلة البخت وعدم موافقة الطالع. ويعتقدون فى النفاثات فى العقد. ويسندون ما هم فيه من العجز وقلة الحول إلى التأثير السارى إليهم من أعين الحاسدين.

٤٦- الأحجبة

وهم يوقون أنفسهم هذا الشر الذى يتعذر النجاة فى الحقيقة من عواقبه بالطلسمات والأحجبة. فيحملون الحجاب الواقى من الشر مخيطا بثيابهم.

وأحسن الأحجبة، فى نظرهم وأقواها فعلا وأشدها تأثيرا ما كان عبارة عن بعض آيات القرآن تكتب فى رقعة وتوضع - بعد أن تغلف فى قطعة من الحرير - تحت الإبط اليسرى.

ومن الناس من يكتفون بالآية الآتية: « والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار» أو أسماء الله الحسنى أو أسماء النبى.

ويسند المسلمون إلى الشب فضيلة كبرى فى مقاومة العين فإن النساء يعلقن أهمية عظمى فى ذلك على خليط من العقاقير والمواد يجهز ويباع فى العشرة أيام الاولى فقط من شهر المحرم يسمينه ببخور عاشوراء أو الملح المبارك. ومما ذاع الاعتقاد بصدق تأثيره من الطلسمات الغبار الذى يجمع من فوق قبر النبى والماء المستنبط من بئر زمزم الموجود بداخل الحرم المكى وبعض القطع من كسوة الكعبة، ومن عادة تجار القاهرة أن يعلقوا فى مقدمة حوانيتهم كتابات تفيد وضعهم هذه المحال تحت الحماية الربانية كأن يكتبوا مثلا شهادة أن « لا إله إلا الله محمد رسول الله» أو بعض آيات القرآن مثل « إنا فتحنا لك فتحامبينا» أو بعض الأدعية مثل « يا مفتح الأبواب افتح لنا خير باب» إلى غير ذلك من الأقوال والعبارات التى اعتاد التجار تكرارها أثناء فتحهم لحوانيتهم.

وغالبا ما توضع المنازل أيضا تحت الرعاية الربانية بما ينقش على أبوابها من الألفاظ مثل « يا الله» « الخالق الدايم» وفوق الباب يعلقون فى بعض الأحيان إحدى شجيرات الصبار الذى يعزون إليه تأثيرا فى دفع العين وضرها.

٤٧- الأحلام

يقرأ المصريون فى صفحات أحلامهم ما يستنبئون به المستقبل ويستطلعون مكنون أسرار الغيب. وإذا قال أحدهم لآخر إنى رأيت مناما، أجابه السامع حالا بقوله « خير إن شاء الله».

٤٨- أيام السعود والنحوس

والأيام عندهم قسمان: أيام سعود وأيام نحوس، فأيام النحوس هى الأحد وليلة الإثنين التى توفى فيها النبى ويوم الثلاثاء ويسمى يوم الدم لأن كثيرين من شهداء المسلمين استشهدوا فيه ويوم السبت وهو أنحس الأيام جميعا. أما أيام السعود فيوم الإثنين، ويخصص للزواج ويوم الخميس ويصفونه بالمبارك، ويوم

الجمعة وهو أول الأيام لأنه عند المسلمين بمنزلة السبت عند اليهود. وهم يفضلونه لإتمام الزواج ويصفونه بالفضل فيقولون يوم الجمعة الفضيلة.

ومن أيام السنة ما هو أيام سعود ومنها ما هو أيام نحوس.

وشر أيام النحوس الأربعاء الأخير من شهر صفر، وفى هذا اليوم يهجر الناس مساكنهم تقية الإصابة بالأمراض الكثيرة التى تنصب فيه على بنى الإنسان.

٤٩ - التنبؤ بالمستقبل

إذا تحير المسلمون فى أمر ولم يهتدوا إلى وجه الصواب فيه اعتمدوا فى تبينه على أمور ترجع إلى الخزعبلات المبنية على فساد الاعتقاد. فمن ذلك التجاؤهم فى إصابة الغرض إلى مايسمونه بالزايرجة. والزايرجة هذه عبارة عن شىء يشبه جدول الضرب يحتوى مائة خانة فى كل خانة حرف من حروف الإبجدية العربية، وطريقة استعمالها أن يقرأ فاتحة الكتاب. ثم الآية الآتية من سورة الأنعام وهى: « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين».

ويضع إصبعة على الجدول مغمض العينين ثم يفتحها، وبعد أن يقرأ الحرف الذى سقط أصبعه علية يكتبة فى ورقة ويكرر هذة العملية بطريقة معينة على الحروف المرتبة على عمود رأسى واحد ثم على الحروف التى يحتويها العمود الخامس إلى يمين العمود الذى أرشد إليه الحظ والجزاف أول مرة . فإن اجتماع هذة الأحرف يؤلف كلمات يتضمن مجموعها نصيحة أو حكمة . والمشتغلين بالزايرجة كافة يرتبون حروفهم فيها بحيث تعطى أربعة أجوبة سلبية فى مقابل جواب واحد موجب .

ومن الناس من يستخيرون القرآن ويلتمسون منه النبوؤة القاطعة فيما يحبون استطلاعه من أحوالهم . وذلك بأن يجعلوه فى موضع بحيث إذا سقط منه انفتح أمامهم بحكم المصادفة. فيعمدون إلى السطر السابع من الصحيفة اليمنى ويقرأون. فإذا كان معناه يفيد السكون والسلم والخير كان الجواب موجبا. بخلاف ما إذا أفاد السخط الإلهى أو اللعنة فإن الجواب يكون سلبيا

وكثير من المسلمين يستفسرون المستقبل بأن يحركوا بين أصابعهم حبات السبحة التى بيدهم قائلين عند تحريك الحبة الأولى : «سبحان الله » وعند تحريك الحبة الثانية : «الحمد لله » وعند تحريك الحبة الثالثة :«لا إله إلا الله» . ثم يكررون هذه الأدعية بحسب ترتيبها كلما حركوا حبة حتى يبلغوا الحبة الأخيرة فإذا كانت الاستخارة التى قيلت فى الحبة الأولى تصادف الحبة الأخيرة فإن الإجابة تكون موافقة أى موجبة وإذا كانت الثانية كانت الإجابة لازمة، أى لا موجبة ولا سالبة .

يفهم مما ذكر أن الشعب المصرى الذى يبنى فعاله وتصرفاته على القضاء والقدر لشعب خؤوف يهاب تحكيم الضمير والعقل اللذين وهبهما الله للإنسان وميزه بهما على سائر الحيوان، ويتنصل من مسئولية تصرفاته فعلا وقولا ملقيا حبل أموره على غارب الجزاف والاتكال الأعمى. راضيا بما تفضى إليه من النتائج ولو ساء ت مستسلما لها باعتباره أنها الإرادة الربانية بلا نزاع ولا جدال ومن ذا الذى يعلم كم من الحوادث العظام والوقائع التى روعت العالم إنما كان الإقرار على أسبابها نتيجة حكم حبوب من السبحة أخذت تجرى بين أصابع وزير من الوزراء الذين امتلأت أدمغتهم بالوساوس، ومن ذا الذى يعلم كم مرة عبثت أيدى السلاطين بحظوظ الرجال، بل والدول على أثر التجائهم الاستخارة اثناء تحرك تلك الحبوب فى أيديهم.

٥٠- السحر

ان مصر بلد السحر ولا فخر، ولعل القارىء يذكر السحرة الذين كانوا فى خدمة الفراعنة، ومنهم أولئك الذين جىء بهم لمباراة موسى بسحرهم، ومن المؤكد أن خلفاء هم الحاليين لم يرثوا شيئا من قوتهم ونفوذهم السحر إليوم ينحصر فيما يسمونه الآن بالنكرومانسيا إذ إن السحرة رجالا ونساء يقتصرون تقريبا على التبنؤ من باب الحذر والتخمين اللذين يصيبان أحيانا ويخطئان غالبا. وهم، فى بعض الأحيان، يستحضرون الموتى والأحياء ويطلعون الناس عليهم فى مرآة سحرية مؤلفة من بقعة حبر على مربع من الورق يقوم بعملها طفل صغير تحضر له هذه التجربة مقدما. فإن الطفل يرسم صور الأشخاص الذين تسوقهم قوة الساحر إلى المرور أمامه. ومما لاشك فيه أن بعض الذين يعجلون بتصديق

مما يقـع تحت أنظارهم مـن الحوادث بدون أن يكلفـوا أنفسهم مؤونـة تمحيصها يؤكدون مطابقة الوصف الذى يصفة الغلام شفويا لحقيقة الواقـع. ومن الأوربيين الـذيـن تستميلهـم هـذه الخزعبلات الفـاسـدة، وعلـى الخصـوص الإنكليـز، مـن يصدقون بهذه التجارب ويصدقون بها كما لو كانت تجارب فى المغنطيسية مثلا. فقد وصـف وصف المستـر م.و. لان فى كتـابه «عـادات وملابس المصـريين» وفـى هذا لم يبد ذرة من الشك فى صحة نتائجها.

ومسلمـو مصر يعتقـدون أن بـالإمكـان القيام بـالإجـراءات السحـرية بحسب مبادىء الخيـر أو الشر. وتسمـى نظريتهـم فى الحالة. الأولـى بالعلـم الروحـانى، وفى الحالة الثانية بـالعلم الشيطانى. فالسحر الروحـانى وهـو موضـوع ذلك العلم يعمل بقصد محمود لأنه يعتمد فيه علـى الوسـائل غير المنافية للدين، أما السحـر الشيطـانـى فيستعان فيـه بـالأرواح الشـريـرة والشيـاطين لغـرض سـىء وقصـد خبيث.

٥١- التنجيم

لعلم التنجيم أنصار وتلاميذ كثيرون بين المصريين الذين يسمونه أيضاً بعلم النجـوم، ويتبعـون فيـه القـواعـد والأصـول التـى يقصـد بهـا استخـراج وتعييـن الأوقـات الموافقة للمشـروعات واستنبـاء فلك البـروج بحسب التأثيـر الذى يكـون الانسـان تحت سلطـانـه. ويـزعـم المنجمـون أنهم، بـرسمهـم علـى الـرمـل صـورا وأشكـالا لا يعرف أسـرارهـا إلا هـم، يستطيعـون الوقـوف علـى أحوال الماضـى والحاضر والمستقبل.

علم الكيمياء

وفى مصر جم غفير أيضاً من المشتغليـن بالكيمياء، يقضون حياتهم وينفقون أموالهم مـع حياة وأموال بعض السـذج والبلهاء فى البحث عـن الحجر الفلسفى الـذى يقولـون إن الجواهر الخبيثـة تستحيـل بواسطتـه إلـى الجوهر الكـريم وهـو الذهـب. والعرب أول من اشتغـل بهذا العلم وانكب علـى تجاربه العقيمة النتـائج. غير أنهـم مما بـذلوه من الجهـود فى هـذا السبيل، تـوصلوا إلى تقـرير كثيـر من المبادىء الصحيحة والأصول النافعة فى علم الكيمياء الحقيقى.

والمصريون المشتغلون باستكشاف ذلك الحجر واثقون بأن مساعيهم في هذا السبيل تكلل بـالنجاح التام، اذا استطاعوا أن يقضوا سبعـة أيام بلياليها من غير نـوم مطلقا. ومفهوم أنه لم يستطـع أحد ولن يستطيع أن يتغلـب أبدا على حاجة النوم التي تدعو إليها الطبيعة ولايتيسر لأحد الاستغناء عنها.

٥٣- البوهيميون أو الغجر

إن لجنس البوهيميين، وهو الجنس الغريب الخفي الأسرار المتشرد في طول أوربا وعرضهـا، فروعا منبثة في ضفاف النيل، ولكنهـم في مصر تتألف منهم طبقـة مستقلة لا خلطة لها مع بقيـة السكان. وشكل سحنتهم يميـزهم عن غيرهـم. فإن لون بشرتهم أشد سمـرة من لون المصريين، وكلامهـم لغة تخالف اللغة العربية، ومع أنهم ينتحلـون الإسلام دينا لهم فإنهم لا يؤدون فرضا ما من فروضه، ويهيمون على وجوههـم من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قـرية، متفـرقين أو مجتمعين. ويشتغل الـرجال منهـم عـامة بـأساليـب الشعـوذة والحيل. أمـا النسـاء، ويعـرفن بمـلابسهـن الغـريبة، فيـزاولـن حرفةالنظر في البخت والإنباء بـا لمستقبل، ويخترقن الأرياف والمدن حاملات على أكتافهن أخـراجاً من جلد الماعـز أو الغزلان محتوية لأصنـاف كثيرة من الأحجبة والتمائم والأدوية والثعابين، ويصفن الدواء للأمراض كافة، ويدعين أن عندهن السر الـذي يمنع عقم النساء ويخبرن الجمهور في نـدائهن المتكرر بما لديهن من الأسرار العجيبة والكنوز النافعة.

٥٤- حواة الثعابين

اشتهر حواة الثعابين بمصر في كل مكـان. وقد ذكرهم المؤرخ (استرابون) وقال (بروسبير البان) إنه شـهد بنفسه غرائب تأثير حرفتهم. وأغلب السياح الذين زاروا مصر حديثا يعربون عـن استغرابهم سهولة تصرف أولئك القوم في الأفاعي والحيوانات السامة. ويطوف حواة الثعابين با لمنازل ويتنقلون من مكان إلى مكان يـرتلون من الأقوال مـا يسحرون به الثعابين التـي تحتويها. وهم يـزعمون أنهم يجذبونها إليهم بتـأثير سر لا يعرفه سواهـم. ويمسكون عادة بقضيـب صغير من الخشب فيـدخلون الغرفـة التي يراد تطهيرهـا من الثعابين ويتمطقون بلسانهم ثم يتفلون على الأرض، وينطقون بمعنى الجملة الآتية: « أستحلفك بـالله إن كنت بـالخارج أو الداخل أن تبرح مكـانك وتجيء

إلى، واستحلفك بالاسم الأكبر أن تظهر لى إن كنت طائعا، أما اذا لم تطع فلتمت ولتمت ولتمت» فاذا كان الثعبان طيعا للأمر خرج من مكمنه على الفور ويكون خروجه عادة من ثلمة فى الجدار أو فى الأرض.

ومع أن الكثيرين من المتنورين يذهبون إلى أن فعل الحواة هذا حيلة مدبرة فلست أتمالك من الاعتراف بأننى - وقد شهدت تجاربهم مرارا - لم أقتنع تمام الاقتناع بصدقهم بل كنت أشك دائما فى أمانتهم وصدق شعوذتهم. فقد ثبت لى أنهم كانوا يتحيلون - فى أحيان كثيرة على إدخال الثعابين إلى المكان الذى يعرفون أنهم سيدعون إلى استخراجها منه، ولما كانت الثعابين تخشى ضوء النهار، فانهم يبحثون عنها فى الأماكن المظلمة حيث يستطيعون، بلا خوف من الأعين الرقيبة وفى مأمن من نقد الناقدين، تنفيذ ما دبروه من الحيل للتغرير بالناس. ومن عادتهم للوصول إلى هذا الغرض إخفاء الثعابين تحت إبطهم. وبما اعتادوه من الخفة والرشاقة فى الحركة لايسع الناظرين إلا الإعجاب بفعالهم وتجنب إساءة الظن فيهم.

ثم إنه لا يوجد فى مصر من الثعابين السامة إلا النذر إليسير. ومن عادة الحواة استئصال أسنانها. ومن الحيل التى يخدعون بها العامة وضعهم العقارب على رؤوسهم المحلوقة تحت الطواقى التى يغطونها بها. ولكنهم لا يقدمون على هذا الفعل إلا بعد استئصالهم الأعضاء الضارة منها حتى لا يصيبهم أذاها.

٥٥- الاعتقادات الباطلة والخزعبلات

لم يكن العامة فقط هم الذين استحوذت الاعتقادات الباطلة والأوهام على عقولهم، بل يشاركهم فيها الخاصة على اختلاف مذاهبهم.

ولقد اتفق لى يوما، وأنا ذاهب إلى قصر ابراهيم باشا فى صحبة جملة من القواد المصريين، أن مدحت لأحدهم الجواد الذى يحمله. فتلقى راكب الجواد هذه الكلمات بشىء من الاحتياط وعدم التصديق. وما تقدمنا إلى الأمام بضع خطوات حتى كبا الجواد الذى أسأت ولاشك بمدحه. فسارعت إلى التوجه نحو الفارس الذى كان قد سقط عن جواده لمعاونته وإسعافه، وسألته منه عن سبب كبوة جواده. فأجاب مبتسما ابتسامة تشف عما فى قلبه من الغيظ

«لا بأس والسبب وإن خفى معلوم عندى» فأدركت من إجابته هذه أننى قدمت له دليلاً جديداً يؤيد الاعتقاد فى الحسد والإصابة بالعين.

وكان محمد بك أول ناظر للحرب فى حكم سمو الوالى . وهو من فحول الرجال. إذ اشتهر بمرافقة محمد على ومقاسمته حظوظه ومشاركته إياه فى جلائل أعماله ، يأوى عنده رجلا من المجذوبين الذين كانت طرائقهم المستغربه وأحوالهم الشاذة تدعو الناس إلى وصفهم بالولاية. وكان يعتنى بأمره ويظهر له جزيل احترامه. وسبب معرفته بهذا الولى المسمى بالشيخ يوسف، أنه بدر منه مرة ما دعاه إلى حبسه فى سجن مظلم. فبينما كان موقنا بأن كأنه لم يقبض عليه ولم يودع سجنا . فلم يسعه الا أن يعتبر هذه النادرة كرامة من كراماته ودليلا صادقا على ولايته. فدأب منذ هذا الحين على احترامه وإجلاله وتقريبه إياه من مجلسه ومؤاكلته مع السماح له بكل ما يخطر بباله من الأعمال، وكان من لازمة ذلك الغى اعتراضه الناس جميعا فى الطريق وطلبه من كل منهم خمس بارات، فإذا أبوا عليه دفعها لطمهم على وجوههم. وكان يقطع البارات التى تعطى إليه قطعا صغيرة ويفرق أجزاءها على الخدم والفقراء. وقد أنشأ محمد بك ضريحا له بجوار ضريحه ولاتزال رفاته تظللها نفس القبة التى تظلل رفات هذا الكيخياء العظيم الذى كان وكيلا لمحمد على فى إدارة شئون البلاد

وقد بلغ من تأثر المسيحيين واليهود الوطنيين بالاعتقادات الباطلة الشائعة بين مواطنيهم المسلمين أنهم اعتقدوا بما يعزى للأولياء من القدرة العجيبة. فإن الجهلاء منهم يتوسلون بهم كما لو كانوا قد بلغوا درجة الولاية بمزاولة العبادة على الطقوس المسيحية أو العبرية.

٥٦- المرأة المتنبئة ومحمد على

لقد أقام سمو الوالى الدليل على حدة ذكائه وصدق نظره وأصالة رأيه. فلقد توصل فى ظروف كثيرة إلى كسر قيود الاعتقادات الباطلة التى يذعن لها أبناء دينه ويرضخون لحكمها رضوخ الأسير المغلوب على أمره. وسأذكر على سبيل المثال حادثة لا يخلو إيرادها من الفائدة. وبيانها أنه قد ظهر بالقاهرة فى إبان حكمه ـ أى فى الوقت الذى لم تكن قواعد سلطانه قد رست على الأسس

الوطيدة، امرأة تزعم القدرة على الإنباء بالغيب فالتف الناس حولها وأصبح الكثيرون منهم من مريديها، وكانوا يقولون إنها تستخدم الجن وأنهم طوع إشارتها تطلب أحدهم أن يبرز فيسارع إلى إجابة طلبها ، وتجعل الناس يلمسون فى الظلام يده ويسمعون صوته.

وكان السواد الأعظم من أنصارها ومريديها أنفار الجند ورؤساؤهم، حتى لقد استفحل أمرها وارتفع شأنها، فلما علم محمد على بأمرها، وكان يريد استكناه سر هذه الساحرة التى أصبح يخشى خطر نفوذها، استدعاها إلى قصره، وأعرب لها عن رغبته فى الحديث مع جنيها. فرضيت أن تطلعه على ما خصت به من قوة وسلطان. وكان الوقت ليلا، فأطفئت أنوار المنظرة التى كان ضباط الجند مجتمعين بها. وكان محمد على قد أمر أتباعه أن يوافوه بالمصباح بمجرد طلبه منهم. فلما دعت المتنبئة الجنى أجابها على سؤالها بما يشبه الصوت المنبعث من داخل المغارة أو من باطن الذين يتكلمون من بطونهم، حتى لقد وقع فى وهم السامعين أنهم يسمعون صوتا منبعثا من الجدار. ثم قدم يده لكى يلثمها الباشا . ولكن لم يكد محمد على يقبض عليها حتى صاح بالخدم أن يوافوه بالشموع. فلما أضاء المكان إذا باليد يد المرأة نفسها. وحينما رأت انكشاف حيلتها وانتهاك سترها توسلت إليه أن يعفو عنها.

أما الحاضرون فقد أدهشتهم هذه الجرأة من سمو الوإلى وحكموا بأنها خروج على الدين وتحقير لمبادئه،وأخذوا يمرمرون مستائين، فخطب سمو الولى فيهم مبينا لهم خطأهم فى سرعة اعتقادهم بما لم يكن صحيحا، ثم أمر بإلقاء المرأة فى النيل فأراد الضباط ممانعته فيما أمر به. ولكن محمد على تغلب عليهم بقوة الحجة قائلا لهم: إنه لو كان أحد الجن فى خدمتها، كما تزعم باطلا وبهتانا، فلن يتركها تذهب ضياعا فى النيل. أما إذا لم يكن لها صاحب من الجن، فإن ما لقيته من الهلاك هو الجزاء الحق لاجترائها على التغرير بالناس من غير خوف ولا حياء.

(٨)
الآداب اللغويــة

الآداب العــربية ــ قصــة أبى زيــد الهلالى ـ المحــدثــون ـ الشعــر ـ القصص الخرافية المصرية

٥٧- الآداب اللغوية العربية

اذا كان لابد مــن ذكر الآداب العربية بمنــاسبة الكلام على آداب المصريين اللغوية، فإن هذا الموضوع من تشعــب الفروع وترامى الأطراف بحيث يتعذر على تناوله بالبحث. وغاية ما يمكننى قوله فيه إن آداب اللغة العربية لمن أوسع الآداب اللغوية فى العالم نطاقا وأكرمها جوهرا وأحسنها حلاوة وطلاوة.

ولكن دولتها قد دالت وانقضى عهد مجدها وعزها. وساغ لنا أن نقول فيها إنها أصبحت فى عداد الآداب الفانية.

ثم إن اللغة العربية عاشت بعد اندثار تلك الآداب ولم تتقوض معالمها، غير أن الضعف والجهل قد غشيــا الشعوب الناطقة بها. فبعد أن كانــت من الأمم المتسلطة صــاحبة الغلبة والحكــم فقدت استقــلالها وأضاعت معــه المواهب العالية التــى كان أبناؤها يبتكــرون بها أسمى الأفكار معنى وأجلهــا مغزى، وتبث فيهم العواطف الكريمة وتكسبهم الجلال والهيبة.

وتقتصر الآداب اللغوية العربية الآن على بعض القصص التى يحلو للعامة سماعهــا واستيعاب حــوادثهــا. ويتناقــل الحافظــون لها وقــائعها العجيبــة المختلفــة بعضهم عــن بعــض بطريــق الروايــة. وهــم لايملون سماعهــا ولا يضجرون من تكرار روايتها. والغالب فيها أن تكون من حيث الوضع خليطا من النثر والشعر، ومن حيث الموضوع وصفــا مستفاضا لما كان العرب عليه فى معيشتهم، وما كان يقع من الحوادث فى الصحراء لقبــائلهم. ومن ثم كانت تلك القصص من أوثق ما يستدل بــه على أخلاق هذه القبائل التى لا تزال على فطرتها الأولى من الشغف بالتنقل فى الصحارى القاحلة وماكان يقع بينها من قتال لاتحوم أسبابه فى الغالب إلا حول مكيــدة غرامية يرصعونها بالحوادث الآخذة بالألباب لغرابتها.

٥٨- قصة أبى زيد الهلالى

من أهم تلك القصص وأحبها إلى الجمهور قصة أبى زيد الهلالى. وإنا لموردون هنا تحليلا وجيزا لها فى الأسطر الآتية:

تزوج رزق أحد أمراء العرب بعشر نساء فلم يرزق منهن بغير غلام واحد لاذراعين له ولا ساقين. فلما يئس من إنجابهن غلاما كامل الخلقة تزوج من امرأة أخرى غيرهن تسمى قدرة. فلم يمض بعد الزواج زمن حتى ظهرت عليها علامات الحمل. واتفق، ذات يوم ، أن خرجت مع بعض خادماتها تتريض وتتنزه النفس، فرأت طيراً أسود اللون انقض على سرب من طيور آخر وقتل منها بعضها وشتت البعض الآخر. فأخذتها من هذا المنظر روعة ودعت الى الله تعالى أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطير فى قوته وشدة بأسه، ولو كان أسود اللون مثله.. فأجاب الله دعاءها. فلما ولد الغلام وقرت بمولده عينا والده. جمع نفرا من أخص أصدقائه ليحتفل معهم بميلاده. وفى اليوم السابع من ميلاده عرض الولد عليهم مغتبطا به. فما كادت تقع عليه أنظارهم حتى طلبوا منه أن يطلق امرأته لوضعها غلاما لايشبهه ولأن لونه الأسود ينهض دليلا على فجورها ودنس ذيلها. فعمل الأمير بنصيحتهم هذه مكرها. لأنه كان شغوفا بامرأته ومقيما على حبها وعهد الولاء لها. وكان لايشك من جهة أخرى فى أن الولد ولده.

عادت قدرة إلى بيت أبيها مكتئبة حزينة كاسفة البال. ولقد روت قصتها على أحد الأمراء فترفق لها وآلى على نفسه أن يأويها وابنها عنده، وأن يربى هذا الوليد مع أبنائه كأنه أحدهم وسماه بركات. فانقضى زمن شب الغلام فيه وترعرع ولاحت عليه لوائح الشجاعة وأمارات الفتوة والقوة وشدة البأس. فلما ناهز الحلم أخذ يحارب القبائل المعادية لقبيلته ويظفر بها ويأتى من ضروب البسالة فى القتال ماسارت بذكره الركبان وعلمه الخاص والعام فى كل مكان.

وفى ذات يوم عن له أن يستطلع من أمه حقيقة خبره وماضى أمره. فأثار هذا السؤال فى نفسها الميل إلى الانتقام من زوجها الذى طردها ظلما وعدوانا من بيته، ولوث سيرتها إذ رماها بشر ما ترمى المحصنات به من التهم. فقالت

لولـدها إن رزقا هـو السبب فيما يراه مـن عنائها وتتكبـده من بلائهـا، وأنه القاتل لأبيها والمنـاوىء لقبيلتها. فاستشاط الفتى غيظا وأقسـم إلا أن يأخذ بالثأر، وخرج لوقته رجاء اللقاء به وقتـاله. فقاتله وتغلب الولد على والده على والده جهـل منه بحقيقة الصلة بينهما، وأطلعتـه على سر الأمر قائلـة إن الذى ظفـرت بـه وكدت تـورده مـوارد الهلاك إنما هـو أبـوك بلا نـزاع. فتعـرف الخصمان على بعضهما، وكان ذلك سببا لرضـاء الزوج عن زوجته وعودتها مع ابنها إلى داره حيث عاش معها فى سـلام ووئام وأحاطها بمظاهر الاجلال والاعظام، وخصـها بـالحب الخالص والولاء التام، وسمـى بركات بأبـى زيد وهو الاسم الذى كان قد أطلق عليه حين ولادته.

ذاك هو ملخص الواقعـة الأولى من وقائع قصة أبى زيد وفيهـا من غريب الحوادث وطرف النوادر وطليهـا مما لايتسع المقام لإيـراده ولا الإشارة إليه. والمفهوم أن قصة أبى زيد هذه كتبت فى القرن العاشر من الميلاد المسيحى.

وهناك قصـص أخرى يميل العامـة إليها ويحرصون على سماعهـا. منها قصة عنترة العبسى وغيرها. وقد تـرجمت قصة عنترة كبير أبطال العرب إلى اللغات الأفرنجية، وهى ذائعة الشهرة فى أوربا، وأورد المسيو (دى لامارتين) نتفا منها فى غضون كتاب رحلته بالشرق.

٥٩-المحدثون

المحدثـون طائفة خـاصة من الناس يـروون تلك القصص على مسـامع الجمهور، وهم ينقسمـون إلى أقسام أو فرق تختص كـل فرقة بروايـة قصة واحدة، فلا يفتات محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من الفرقة الأخرى بسرد حوادث قصصهـم على السامعين. وأكثر تلك الفـرق عددا الفرقـة المتفق على تسميـة أعضائهـا بـالشعـراء، فقد احتكـر هـؤلاء إلقـاء قصة أبـى زيـد فى المجتمعات العامة.

وفى القاهرة وحـدها الآن خمسون شاعرا مـن تلك الفرقة، وتليهـم الفرقة الخاصة بقصـة الظاهر، ويسمـى أعضاؤها بالمحـدثين ثم الفرقـة المحتكرة لقصة عنترة العبسى، ويسمـى رجالها بالعنترية، والعـادة المتبعة أن يجلس الرواة من المحدثين والشعراء والعنترية وغيرهم على أبواب القهوات الكبرى فى

كل ليلة، ولاسيما فى ليالى الأعياد والحفلات. وقد أعدت لجلوسهم صفة= مصطبة = مرتفعة يستطيعون من أعلاها إبلاغ أصواتهم إلى مسامع الجميع موزونة الأنغام، فيما يلقونه من القطع الشعرية، بأداة موسيقية ذات وتر واحد تسمى الربابة. ويجلس السامعون أمامهم صفوفا متوازية وكل منهم منصت لما يسمعه من القول ومدخن لشبك أو متذوق طعم قهوة البن تبدو على وجهه علامات السرور والاغتباط بما يسمعه من غريب الحوادث التى يضاعف اهتمامه بسماعها أسلوب إلقائها. فإن الرواة يلقونها بأصوات حماسية مقرونة بالإشارات التمثيلية والحركات التى من شأنها أن تستثير الهمم من مكامنها وتوقظ النشاط من سباته. وكلما ازدحم المكان بالسامعين كانت رواية حوادث القصة أفعل فى نفوسهم بما يأتيه الراوى من التفنن فى الأساليب التى تشحذ العواطف، وكثيرا ما يستفزهم ذلك إلى ابتكار حوادث وأقوال من عندياتهم يضيفونها إلى الأصل مع التماس المبالغة فى تحريك النفوس واستثارتها.

وعندما ينتهى الرواة من سرد حكايتهم يوافيهم صاحب القهوة بيسير من المال أجرة لهم، وهذا غير ما يجمع برسمهم من السامعين. على أنه لا أحد من هؤلاء بملزم فى الحقيقة بدفع أى مبلغ إليه بمثابة أجر له، ولكنهم لايضنون عادة بشىء من المال كل بقدر همته وبحسب ما تكون القصة قد أحدثته فى نفسه من السرور والارتياح والنشاط.

٦٠- الشعر

إن وزن الكلام وتقفيته سليقة فى العرب. فإنهم يميلون بفطرتهم إلى النظم والتقفية إلى حد سهل معه عليهم ارتجال الشعر، وقد بلغ عند الشعراء المرتجلين منهم مبلغا عظيما.

وقد انتشرت فى مصر الأغانى العامة الشبيهة بما نسميه عندنا بالرومانس. وينقسم إلى مقاطع تنتهى عادة بقافية واحدة.

وأغانيهم تختم فى الغالب بقولهم « يا ليل! يا ليل! » وبعض هذه الأغانى يرمى إلى الهجو، ويباح فيه ذكر ما لايباح عادة من القول، إلا أن أغلبه يستشعر منه الحزن العميق والشجو بتضمنه وصف متاعب المحبين بنغمة رثائية واحتوائه من التشبيهات الشعرية ماهو مستمد من أخلاق الأمة

والصفات التى اختصت البلاد بها.

والشعراء المصريـون يميلون كل الميل إلى تشبيـه وجه المحبوبة بـالقمر. ومما يذكرونه فى معارض شعرهـم شذا الياسمين ولون الورد وصبر الجمل وبأس الأسد وشوكته وجلاله، ورشـاقة الغزال وخفته وحور عينيه وسكون الليل الخ. ويجدون فى لغتهم الغنية بالألفاظ ومطاوعتها لأداء المعانى المطلوبة ما يمهـد لهم التعبير عما يخالج الفـؤاد من الأحاسيـس المختلفة والعـواطف المتباينة.

٦١- الأناشيد المصرية

بالقاهرة شعراء كثيرون اعتادوا نظم الأغـانى والأناشيد مرة فى كل شهر وهذه القطع الشعـرية تتغنى بها العوالم فى الأعياد العامـة والأفراح الخاصة ولا تلبث أن تنبث بين الأهلين جميعا فيحفظونها عن ظهر قلب ويتغنون بها فى أوقات بسطهم وانشراحهم.

(٩)
الموسـيقى

الموسيقـى العـربيـة- استعـداد المصريين الموسيقـى- آلاتهم الموسيقية- إدخال الموسيقى الأوروبية فى الجيش المصرى.

٦٢- الموسيقى العربية

يميل المصريـون ميلا شديدا إلى الموسيقـى. ولكنهم يرون أنه ممـا لايليق برجل الجد والعمل أن يخصص بعض وقته لـدراستها والتدريب عليها . وقد ذمها النبى محمد فى أقواله ونهى عنها، ولكنهم لميلهم الغريزى إليها تجاوزوا هذا النهـى. فتراهم جميعـا من رجـال ونساء وأطفـال يتلهون بما فى أوقـات فراغهم أو أثناء ممارستهم لأعمالهم. وبلغ من شدة ميلهم إليها أنهم يعلمون فى المدارس ترتيل الآيات القرآنية بأنغام محدودة وأوزان معينة.

ومعلوم أن العرب تلقوا عـن الأقدمين ما قرروه من القواعـد والأساليب فى

الموسيقى وزادوا عليه زيادة كبيرة. ولم يطلقوا على هـذا الفن اسما من ألفاظ لغتهم، بل احتفظو للدلالة على أصله إليونـانى بلفظ الموسيقى الذى ما برحوا يسمونه به حتى الآن.

وقد لوحظ أنهم أخذوا عن الهنود والفـرس جملة من الاصطلاحات الفنية فى الموسيقى. كما لوحظ أن بين الأغانى العـامة فى مصر والأغانى الشائعة فى أسبانيـا مشابهة فى كثير منها. ذلك لأن العـرب احتلوا البلاد الأسبانيـة زمنا طويلا. فكـانت تلك الأغانـى الشبيهة بالأغانـى المصرية بعض ما تـركوه من آثارهم قبل رحيلهم عنها. والعرب هم الذين اخترعوا الطبل والارغن.

أما الموسيقى المصرية الحاليـة فلم تكن إلا فنا من الموسيقى العـربية طرأ عليـه الفساد. وهـى تمتاز بتقسيـم الصوت إلى أقســام والأقسام إلى أجـزاء صغيرة، كما تمتاز باختلاف مقامها عـن مقام الموسيقى الأفرنجية. ولاسيما من جهـة عدم وجـود المفاتيـح فيها بـالمرة. ومع هــذا فإن العـرب يصمون تقسيمنا لمقام الصوت بوصمة النقص والعيـب، ويحلونه هم إلى ثلاث وأرباع وأثمان. وهذه المسافات من الصغر والدقة بحيث يتعذر على السمع تقديرها. ولدقة تدرج هذا التقسيم يتعـذر. بل يستحيل على االأوربيين تقليد الموسيقى المصرية، وإن يكن أهل البلاد يدركونها ويلتقطونها بسهولة تامة.

والأوربيون، إذا سمعوا الموسيقـى العربية، لا يشعرون بشــىء غير ذلك الشعور الذى يبث فى نفوسهم الحزن والشجو. على أن اتصافها بهذا الوصف الخاص، مضافا إلى بســاطة الأنغام التى تتـألف من مقامـات صغيرة العدد جدا، للدلالة على بضعة أسطر من الغنـاء، يعطيها فى الغالب حلاوة تستهوى الأسماع. ومهما يكـن مـن آراء الغـربيين فى محاسن الموسيقـى العـربيـة أو مقابحهـا، فمن المجمع عليـه الاعتراف بما فى أصوات المؤذنين مـن خصائص الجمال والجلال، أثناء دعوتهم الناس من أعلى المآذن إلى أداء الصـلاة.

أما المصريون فسريعو التأثر بأصوات المطربين منهم بالأغانى والأناشيد. وهم يشجعونهم على الإحســان ويستفزونهم إلى الإجادة بما يوجهـونه إليهم مـن عبـارات الاستحســان والتحبيـذ التـى يعبرون بها عـن شعـورهـم، إذ يصيحون بلفظ الجلاله قائلين « الله!» كلما بلغ الطرب منهم قصاراه. فكأنهم

يقصدون بإيراد ذلك اللفظ المعنى الآتى مقدرا: « أحسنت أحسن الله إليك!» أو « صوتك رخيم حفظ الله صوتك!».

٦٣- استعداد المصريين لسماع الموسيقى

يميل المصريون إلى سماع الموسيقى منذ قديم الزمان. وما برح هذا الاستعداد الفطرى باقيا فيهم حتى الآن. فانسجام الأنغام وإتزانها وضبط قوافيها سليقة فيهم، حتى إنك ترى الناس إذا أرادوا التعاون على أداء عمل، قاموا به على أحسن ما يراد بفضل ذلك الاستعداد الفطرى الذى ينظم حركاتهم أثناء عملهم. فيعاونهم نظامها على أدائه مع الاتفاق والسرعة. ويتمكنون فى الأعمال التى يستدعى أداؤها اشتراك الأيدى العاملة اشتراكاً مقرونا بالإجماع المنظم، من الحصول على هذا الإجماع بالتغنى جميعا بصوت واحد.

ولبعض الصناعات عندهم أغان خاصة يقصد بالتغنى بها التعاون على إنجازها بالسرعة والدقة. فللمراكبية أغانيهم وأناشيدهم التى إذا تغنوا بها وأنشدوها مهدت لهم القيام بمهمة جر المراكب فى الأوقات التى لا تكون فيها الرياح موافقة، وللسقايين من هذه الأغانى والأناشيد ما يساعدهم على ملء قربهم بالماء وحملها و،تفريغها، وهكذا بالنسبة لكل صنعة وحرفة. وإذا تذكرنا أن بعض شعراء العصور القديمة مثل (ابشيل) و(مارسيال) و(أوفيدس) قد استرسلوا فى وصف محاسن الأغانى النيلية، استطعنا أن نسلم. على سبيل الترجيح. بأن الأغانى التى ما برح نوتية نهر النيل يتغنون بها أثناء تسييرهم السفن فيه، هى عين الأغانى التى كانت ضفتاه ترجعان صداها قبل بضعة ألوف من السنين، ولكل طبقة من الأمة أغانيها الخاصة بها. أما أغانى طبقة العلماء فتستروح منها رائحة الجد والشدة، لأن أغانى الغرام وأناشيد الحب والهيام لا توافق بالطبع أمزجتهم ولا تتفق مع هيبتهم وكرامة مركزهم.

٦٤- الآلات الموسيقية عند المصريين

لدى المصريون آلات موسيقية كثيرة خاصة بهم هى من أبسط ماعرف من الآلات وأوفقها للحالة الفطرية. نذكر منها الطبل البلدى، وهو من النحاس

ويشبه المرجل (الدست) غطيت فتحته بالرق، والنقاقير وتستعمل فى المواكب. والكاسات وتستعمل فيها أيضا، ثم الصنوج (الساجات) وهى أشبه شىء من النحاس توقع الراقصات عليها حركات رقصهن، والدف بكاسات صغيرة (الطار) ويشبه طبل البشكنس، والدربوكة هى طبل مخروطى الشكل ينتهى بأنبوبه مجوفة، وتمسك بإحدى اليدين بينما تدق اليد الأخرى على الرق الممدود فوق فتحتها. وبالجملة فشكلها يشبه شكل القمع الكبير وهى كثيرة الشيوع فى القطر المصرى. والمصريون يستخرجون منها أصوات مقبولة فى السمع ويمزجون أنغامها مزجا غريبا.

ومن آلاتهم الموسيقية الهوائية الناى والصفارة والزمارة التى يميل نوتية النيل إلى الزمر بها.

أما الآلات الوترية فابسطها تلك الآلة ذات الوتر الواحد المعروفة بالربابة. وهى التى يوقع المحدثون والشعراء عليها أنغامهم أثناء روايتهم القصص. والربابة آلة جديرة بالذكر. فإنها عبارة عن كمنجة لا تجويف لها يستخرج المصريون منها أنغاما شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية. واستخراج الأصوات منها بواسطة القوس. والآلات الأخرى التى من هذا القبيل هى الكمنجة، وهى ذات وترين يتألف كلاهما من أكثر من خمسين شعرة من شعر الخيل منضمة إلى بعضها. إذ إن تجويفها عبارة عن ثلاثة أرباع جوزة مثقوبة بثقوب صغيرة. والقيثارة الحبشية وتشبه العود القديم، والقانون، والعود، وهو قيثارة ذات سبعة أوتار تهتز بفعل ريشة تمسك باليد.

٦٥- المغنون المصريون

المغنون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية، مفرده آلاتى، وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الأخلاق، إذا جىء بهم إلى أحد منازل الخاصة تقاضوا أجرا لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات إلى أربعة عن الليلة الواحدة. والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة، من محض كرمهم، شيئا من المال يضاف إلى تلك الأجرة الزهيدة، وتقدم إليهم أثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيرها، وهم يفرطون فى شربها إذ يحدث أحيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم، أن يفقدوا رشدهم ويسقطوا على الأرض.

وفى مصر مغنيات يسمين بالعوالم، مفرده عالمة، وهى كلمة أطلقها الأوربيون على جميع الراقصات من غير تمييز ولا استثناء. مع أنه ليس فى هذا الإطلاق شىء من الصواب. ويقدر المصريون كثيرا مهارة العوالم وحذقهن فى صناعتهن، واعتاد نساء الأغنياء أن يأتين بهن إلى داخل حرمهن ليسمعوهن أغانيهن المقترنة بدقات الطار والدربكة- بينما يكون رب المنزل وأصدقاؤة من المدعوين مجتمعين بصحن الدار ليطربوا أسماعهم بتلك الأنغام. والعوالم الشهيرات بالحذق والبراعة فى صناعتهن تدفع لهن الأجور العالية وتقدم الهدايا النفيسة.

وأغانى العوالم شديدة التشابه والتجانس لا تلبث الأذن أن تمل لهذا السبب سماعها. ومن هذا الوجه لا محل لمقارنة بينهن ومغنياتنا اللائى يمتزن برخامة الصوت ونعومته ورنينه، ومن المغنين من يتسمون بجمال أصواتهم وهم يتوخون من مقامات الصوت، الجهير الكروانى وبالجملة الأصوات الحادة حتى تراهم وقد انتفخت أوداجهن لهذا الغرض وتكلفوا ما فوق طاقتهم للمحافظة على المقامات العالية من الصوت أطول ما استطاعوا من الزمن. وهيئتهن فى هذه الحالة لمن أغرب ما تقع عليه الأبصار، لأنهم عقب هذا الانتفاخ يطرقون برؤوسهم ويضعون أصابعهم فى آذانهم ويحشونها بتجويف كفوفهم ويخرجون الأصوات من حلوقهم بأقصى مجهودهم.

٦٦- الموسيقى الأوروبية فى الجيش المصرى

لما تم تنظيم الجيش المصرى، وكانت الحكومة المصرية تعلم أن لكل أورطة فى الجيوش الأوروبية موسيقى خاصة بها، أرادت هذه الحكومة أن لا تكون من هذه الجهة دون غيرها من حكومات الغرب. فاستدعت إلى مصر طائفة من الموسيقيين الفرنسيين عهدت رياستها إلى مؤلف حاذق من مشاهير المؤلفين الأسبانيين فى الفنون الموسيقية. فأنشأ هذا الأستاذ ببلدة الخانقاه، حيث كان ميدان تعليم الجيش وأركان الحرب، معهدا للموسيقى جمع بين جدرانه مائتى تلميذ. فتعلم هؤلاء الطلبة الموسيقى الأوروبية الصوتية وتدربوا على الضرب بآلاتنا. وكما أنهم استعاروا منا آلاتنا الموسيقية. كذلك أخذوا عنا أدواتنا الحربية وأغانينا العسكرية.

وفى هذا المقام لايسعنى إلا الاعتراف بأننى بالرغم من سرورى واغتباطى

بسماع أنغامنا الوطنية والأناشيد العسكرية ترددها الأجواء على مقتضى إيقاع تلك الأنغام والأناشيد، إلى غايات الفوز والفخار فى المكان الذى سار أبطالنا فيه قبل ثلاثين عاما، لم أشعر قط بمثل ذلك الاغتباط والسرور لمناسبة استعادة المصريين لها منا، ونقلهم إياها عنا من غير تحوير ولا تبديل. فإن موسيقانا لا تؤثر بالمرة فى المصريين، حتى أن أنشودة بونابرته لا تهز وترا واحدا من أوتار أفئدتهم، ولا تنشرح لها صدورهم، ولا تميل إلى التقاطعها أسماعهم. دع أن مطالبة المصريين باستعمال آلاتنا الموسيقية والتغنى بأناشيدنا الخاصة لم يتوافر معه الغرض المطلوب من الموسيقى العسكرية. فإن حكومات أوربا لما أنشأت كل منها موسيقاها العسكرية كانت لا ترمى إلا إلى غرض واحد وهو التأثير فى العساكر بقوة تبث فيهم النشاط والحماس والهمة.

ولاشك فى أن الموسيقى لغة، ولغة فصيحة تؤثر فى مجاميع الناس وطوائفهم تأثيرا عظيما، ولكن إرغام المصريين على سماع أدوارنا الموسيقية وأدائها بآلات غير التى ألفوها قد أوقع الذين أرادوا هذا الإصلاح المعكوس وقاموا به فى عين الخطأ الذى وقع فيه من يريد تحريك شعب بإرغامه على حفظ عبارات فصيحة فخمة بلغة لايفهمونها لأنها غيرلغتهم. وعلى هذا فالمصريون الذين يغمى عليهم سرورا إذا سمعوا أغانى المغنين والآلاتية منهم، وهى على ما عرفت من التجانس والتشابه الباعثين على الملل، لا يشعرون حين سماعهم الآلات والأدوار الموسيقية الأوروبية إلا بالملل وانحراف المزاج. وإذا كان من الآلات الأوربية ما يتلذذون بسماعه وتحسن فى نظرهم رؤيته فهو الطبل الكبير. اما الآلات الأخرى فأصواتها فى حكمهم خليط لايستحق الاهتمام والاعتبار.

وكان الواجب والصواب فى آن واحد، أن يستدعى إلى مصر فريق من الفنانين فى الموسيقى القادرين على إدراك مغازى الموسيقى العربية وعبقريتها ليركبوا منها موسيقى خاصة يكون للآلات الموسيقية الوطنية نصيب من مجموعة آلاتها. وبهذه الوسيلة كان يمكن التأثير فى نفوس الجنود المصريين تأثيرا موسيقيا لا ريب فيه.

وبدهى أنه ما كان لموسيقانا أن تجد، بين أناس لا يهتمون بها ولا يخفق

لهم قلب عند سماعها، أن تـؤدى أداء حسنا بمعرفتهم، فلم يكن مـن الغريب إذن أن تقر الحكومة مـا أقرته من إلغاء معهد الخانقـاه الموسيقى الذى كان ـ بالـرغم مـن الموانع والصعـوبات السـالفة ـ ينشىء عـددا لا بأس بـه من الموسيقيين الأكفاء القادرين. وقد استعاضوا عنه بأن جعلوا فى كل أورطة من الجيش معلما أوربيا للموسيقى، ولكن مـا كان بميسور لمعلم واحد ان يحرز ذهنه نظـرية الآلات المراد استعمالها جميعا ولا طـريقة استخـراج الأصوات منها. لذا كان متعذرا على الموسيقـى العسكرية المصرية أن تجارى الموسيقى الأوربيـة. ولو تـرك المصريون وشـأنهم فى تطبيـق الموسيقى الأوربيـة. على حاجاتهم لتطرق إليها الفساد والاختلال بلا ريب.

(١٠)
الرقـــص

الرقص المصرى– الرقصات والعوالم– الرقاصون.

٦٧- الرقص المصرى

لا وجـه بالمرة مـن وجود الشبـه بين رقـص الشرقيين ورقص الغـربيين. فعندنـا ينظر إلى الرقـص بوجه عـام من حيث كـونه إحدى وسـائل الابتهاج والسرور بين طائفتين من الجنسين اللطيف والخشن. أما فى الشرق فمحال أن ترقـص امرأة مـع رجل. والـرقص فى أوربـا رياضـة عملية تتلخـص فى أداء أشواط من الحركات موقعة إيقاعا متنـاسقا وتحريك الساقين تحريكا يراعى فيه الاقتران والتوفيق على وجه الدقة والضبط.

أما فى مصر فما هو إلا تتابـع أوضاع وتعاقب حركات يلتـوى الجسم فيها تارة وينعطف أخرى. يرمى بذلك إلى غـرض واحد هو أستثارة كوامن الشوق إلى الملاذ الشهوية.

والمفهوم أن الـرقص المصرى وجد بنوعـه وشكله منذ العصـور الموغلة فى القدم. فقد رأيت فى النقوش الهيروغليفية بمعابد طيبة والقرنة وغيرهما مناظر ممـا يقع داخـل البيوت كمنـاظر الـراقصـات فى ثياب كـالتى يلبسنهـا الآن

وأوضاع وحركات لا تختلف فى شىء عن أوضاعهن وحركاتهن اليوم.

ثم إن هناك تشابها عظيما بين رقص الراقصات الهنديات والعوالم المصريات. وليس هذا وحده وجه الشبه بين الفريقين. فإن رقص الراقصات الأسبانيات من نوع الرقص المصرى، وهو مطبوع بالطابع العربى. ولكنه، والحق يقال، أخف من الرقص المصرى وأرشق وأدق وأطبق على المعانى الشعرية.

والغرائز فى مصر، من حيث ارتباطها بالآداب النفسية، أكثر انفعالا بعوامل الفساد منها فى سائر أقطار المملكة العثمانية. فإن الرقص، مع أنه غير مباح فى الديانة الإسلامية، مسموح به لغوازى (الراقصات العموميات) اللائى لايقتصرون فى عرض حركاتهن الشهوية على المنازل الخاصة. بل يتجاوزنها إلى الطرقات والميادين العامة. على ملأ من الجمهور. ومنذ سنوات قليلة صدرت أوامر الشرطة فى مصر بمنع تلك الراقصات من التجوال فى طرقات القاهرة والإسكندرية.

ولا يدخل الرقص فى برنامج الدروس التى تعلم للبنات، ولكن البعض منهن يتدربن على أداء حركات العوالم ورقصهن. ومع أن هذه الحركات فى غاية القبح وسوء الأدب فإن الأهلين لا يستقبحونها ولا يتضجرون منها. والمحقق أن النساء المحصنات العفيفات الذيل لا يجرؤن على الرقص إلا فى داخل منازلهن بين صويحباتهن، ولكنهن لا يأتينه على مشهد من آبائهن أو أمهاتهن أو أزواجهن. ولما كان الرقص من وسائل التسلى والابتهاج التى تروق السيدات كثيرا، فقد اعتاد العظماء والأثرياء اتخاذ الراقصات فى منازلهم من الجوارى لإدخال السرور على زوجاتهم برقصهن وشرح صدورهن بحركاتهن.

ومن النادر جدا أن يدعو المسلمون الغوازى إلى منازلهم. فإذا وجد من بين سكان مصر من يجيز لنفسه هذا الترخص فإنما هم اليهود والأوربيون. وإذا اتفق وجود الغوازى فى منازل المسلمين برسم الرقص فإنهن لا يرقصن إلا على مشهد من الرجال وحدهم أو من النساء بمعزل عن الرجال. وسواء أكان الرقص لهذا الفريق أم لذاك فانه يحصل فى بهو الاستقبال. والراقصات إذا

رقصن فيه برسم الرجال جيء بالنوبة ـ أي طائفة آلات الطرق، وبيد كل من رجالها إحدى الآلات التي سبق وصفها، لايقاع الحركات على مقتضى الأنغام. ويبلغ شعـور الراقصات بالحاجـة إلى الإيقاع والتناسق في الحركـات إلى حد أنني شهـدت بنفسي البعـض منهن لا يستطعن القيـام بأداء حـركاتهن، إذا قصرت الموسيقى عن أداء الأنغام بحسب الوزن المطلوب.

والعـادة أن يجلـس الموسيقيـون في ركن مـن أركـان البهـو وأن تشغـل الراقصات المكان المعروف بالـدركة، وأن يجلس المدعوون في سكون تام على الدواوين يتمتعون بهذا المرأى الشهوى وهم يدخنون الشبكات. ويطاف على الراقصـات والموسيقيين، من آن إلى آخـر، بأقـداح العرقـي الذي يستفـزهم بالتـدريج إلى الإمعـان في الرقص والغنـاء. ولكنه كثيرا مـا يفقدهـم الصواب ويلقيهم في غيابـات السكر جميعا فلا يفيقـون من سكرتهم إلا بعد ســاعات طويلة. أما إذا كان الرقص في الحرم فإن الموسيقيين لايحضرون مجلسه. وفي هذه الحالـة توزن حركات الـراقصات بالطـار والدربكة الذيـن ينقر عليهما جماعة النساء من حاشية ربة البيت.

٦٨- الراقصات

السواد الأعظم مـن العوالم في مقتبل العمر وعلى حصـة وافية من الجمال والحسن، إنهن يجمعن إلى فـن الرقص مزية الاتصـال مع الرجال بـالروابط التي تربط الخليلة عادة بخليلها. وملابسهـن تشبه على وجه التقريب ملابس السيدات المتـأنقات في ثيابهن اللائي وصفنـاهن في غير هذا الموضـع، ولكنها تختلف في مظهرها الخارجي عن ملابـس الحلائل الطاهرات الذيل. فمن ذلك أنها تضغـط على أجسـامهـن فتصفهـا أكثـر ممـا تصـف ثيـاب الحلائل أجسامهن، دع أنهن يكشفـن عن نحورهن وسـواعدهن، ويتوخين الـزخرف والزينة في ثيابهن وحليهن، ويتخذن هـذه الثياب من فاخر الأقمشة ويتحلين بالكثير من المصوغات والجواهر.

وإذا رقصن يرقصن إمـا مثنى وإما رباعا. ومع كونهن يتحـرين التوفيق أحيانا بين حـركاتهن، فإنهن لا يأتين بـأوضاع منتظمة كالتـي تتراءى لنا في الصور أو على مسارح التمثيل.

وطبيعة رقصهن من مخالفة الآداب والأخلاق بما يمنعنى عن التصدى لإيراد تفاصيله ووصف أجزائه. لذا أكتفى بوصفه وصفا سطحيا يصور للقارىء شيئا من حقيقته. فإنهن إذا اصطففن فى الدركة تقدمن بضع خطوات ضاربات بالصنوج (الصاجات) المثبتة بأطراف أصابعهن (الإبهام والسبابة) محركات أيديهن فوق رؤوسهن وحول أجسامهن، فيؤدين هذه الحركات أداء جميلا للغاية، وبعد هذه المقدمة يبتدىء الرقص الذى يتلخص وصفه فى احتفاظ الساقين والجذع من الجسم بسكونها مع تحرك الذراعين والتقائهما بحيث يتكون منهما ما يشبه الحلقة ثم انخفاضهما تارة وارتفاعهما أخرى بحسب الأطوار المختلفة للشعور الشهوى الذى يستثير هذه الحركات فيهن.

وترى أجسامهن مضطربة على الدوام اضطرابا يشتد أحيانا بما يبذلنه من النشاط ويضعف أحيانا أخرى لتكلف الكلل والملال وما يستتبعانه من الفتور والدلال. وقد تضطرب أعضاء من الجسم دون غيرها وتنثنى فتنحط بفعلها الحرقفتان تارة وترتفعان طورا أخر، وتنطبع هذه الحركات كلها بطابع يجعلها منافية للحياء والحشمة لدلالتها على المقاصد الشهوية بالغة أقصى حدثها.

ورقص الغوازى على صنوف متنوعة. أولها، وهو أدلها على ما هناك من الجرأة فى أداء تلك الحركات، مصرى الابتكار. وثانيهاخليط من الرقصين المصرى واليونانى إذ يتخلله التنقل بالخطوات. وثالثها الرقص المعروف برقص النحلة. ومؤداه أن يتصنع العوالم حالة من تلسعة النحلة، فيأخذن بالبحث عنها فى ثيابهن صائحات : « النحل أوه! النحل أوه!» ولكى يقبضن على هذه الحشرة التى لا وجود لها الا فى مخيلتهن يتجردن شيئا فشيئا من ثيابهن حتى لا يبقى على أجسادهن سوى غلالة شفافة تخفق بشدة حركاتهن حول أجسامهن، ويفتحنها من آن إلى آن ثم يضممنها بمقتضى الإيقاع النغمى.

وإنى اترك للقارىء الحكم على تأثير هذا المنظر المحرك لكوامن الشهوات حتى فى العواطف الجامدة.

ومتى بلغ الرقص من مداه حدا تثور فيه الأشواق الشهوية، تلجأ الراقصات إلى الراحة وتختلطن با لمتفرجين لمعاكستهم ومناوشتهم. وأغلب ما يوجهن دعابتهن إلى زعيم المدعوين وعظيمهم. ولست بحاجة إلى القول بأنه لا يتمالك نفسه من الاسترسال معهن فى هذه الدعابة. ومن مزاجهن فى هذه الفرصة جلوسهن فى حجر من يقصدنه بملاطفتهن وتقبيلهن أو معانقتهن إياه. وبالجملة فإنهن يتطوحن معه فى أساليب من المداعبة والمطايبة ينفر منها من لم يعتدها. والأوربيون يخجلون طبعا من نظرها أو سماعها. أما بقية المدعوين فيظهرون للراقصات ارتياحهم منهن وإعجابهم بحسن أسلوبهن فى الرقص، ثم يخصوهن بالتحف والهدايا يقدمونها إليهن على شكل يدعو إلى الاستغراب. إذ غالبا ما تكون هذه الهدايا قطعا صغيرة من النقود الذهبية يريقونها بلعابهم ثم يلصقونها على جباههن ونحورهن وسواعدهن.. الخ.

وأجمل العوالم وأبرعهن فى استمالة الرجال إليهن يحرزن فى الغالب جانبا لا بأس به من الثروة والنفوذ والدالة، وتتألف منهن فى الأمة المصرية طبقة خاصة تعيش فى معزل عن سائر الطبقات.

وغير خاف أن الغوازى يرجع تاريخ وجودهن إلى العصور الموغلة فى القدم أى إلى العصر الذى ابتكرت فيه حركات الرقص الشهوية التى كان الفراعنة الأولون يتلهون بمشاهدتها . بدليل ماهو منقوش من صور تلك الراقصات فى قبورهم منذ آلاف السنين.

٦٩- الراقصون

معلوم أن فى الرقص المصرى شيئا يخالف المألوف ويستفز العجب. ولكن من المرغوب فيه أن يستبدل هذا الرقص بما يكون أوفق لمقتضى الآداب والأخلاق الفاضلة. وعلى كل حال فالرقص كما يشاهد الآن من الوجهة العامة أفضل بكثير من الحركات السخيفة السافلة التى يقوم بها الراقصون فى مصر.

ومع أنه من المقر فى الدين الإسلامى أن لايباح لرجل مشاهدة رقص النساء. فإن من الرجال فى مصر طائفة تحترف الرقص وتعرف فيها باسم «الخولات».

والخولات يتزيون عادة بزى النساء . وإذا كان الرجل الذى يرقص عندنا قليلا ما ينال من الرائى استحسان رقصه فإن الخول المصرى إذا رقص، لا يترك فى نفس من يشاهده إلا التقزز والاستنكار. وحينئذ فما يعتبره الناقدون غير ملائم للأدب فى رقص العوالم ممقوتا ومخجلا فى رقص الخولات.

ومنذ صدرت الأوامر بمنع رقص النساء على قوارع الطرقات إزداد عدد أولئك الراقصين المخنثين زيادة يندى منها جبين الأدب ويحمر وجه الإنسانية، وكان من أثر ذلك المنع أن حل مكان فساد فساد آخر أسوا وأفظع منه. وإنى لأرجو من الحكومة المصرية أن تعجل باقتلاع جذور هذا الخزى الذى يدنس أرض مصر أو احتمال الخفيف الضر منه من باب التفضيل على مالا قبل لأحد بضره وشره.

(١١)
الألعاب والرياضات والمشعوذون

الألعاب الحسابية– الرياضة البدنية– ركوب الخيل– الحواة والمشعوذون

٧٠- الألعاب الحسابية

أكثر الألعاب موافقة لطبيعة الدعة والسكون فى المصريين وأوفقها لميولهم وأذواقهم الألعاب الحسابية التى نذكر منها الدامة والطاولة والشطرنج. ولهم بهذه الألعاب ولع شديد. إذ كثيرا ما يرى اللاعبون بها يقضون النهار برمته فى نقل قطعها على الرقع. وصناعة هذه القطع لا أثر فيها لدقة. وهى برسم الكبراء والأثرياء تصنع من الأخشاب الثمنية أو سن الفيل.

أما لعبة الورقة (الكتشينة) فالاقبال عليها قليل، ولذا ترى المصريين يجهلون الألعاب التى تبنى عليها وتستنبط منها ولا سيما لعبة القمار التى مدارها ربح المال وخسارته.

وهناك ألعاب أخرى خاصة بمصر والشرق يطول بنا الشرح إذا تصدينا لبيانها فى هذا المقام، وإنما نذكر منها لعبة المنقلة وهى تلعب من اثنين على

لوحة من الخشب حفر فى اتجاهها الطولى إلى كل جانب من جانبيها ستة تجاويف يتألف منها صفان متوازيان وتوضع فيها قطع صغيرة من الأحجار أو أصداف بحرية بقصد ضمها جميعا بتدبير اللعب وسياسته فى تجويف معين من قبل.

ثم لعبة الطابة وهى عظيمة الانتشار شديدة الالتباك، وبينها وبين لعبة الطاولة بعض المشابهة. أما لعبة السيجا فأكثر الناس إقبالا عليها هم الفلاحون، وتشبه من وجوه كثيرة لعبة الدامة.

واللعب بهذه الأدوات تجرى أدواره إما بالمنازل أو بالقهوات العامة وفى النادر يكون النقد موضوع المراهنة. إذ لا يتعدى موضوعها بوجه عام بعض الفناجين من القهوة.

٧١ - الرياضة البدنية

مما يجعل المصريين غير صالحين للقيام بالتمرينات الرياضية البدنية التى تتطلب من مؤديها الرشاقة والقوة والحيلة سرعة وقوع الوجل فى قلوبهم أمام ما يحسبونه خطرا على حياتهم وضنهم بأرواحهم أن تجشم المتاعب والمصاعب. لهذا لم تقع الأنظار عليهم متنافسين فى إحراز قصب السبق فى الركض أو المصارعة أو غيرهما من ضروب الرياضة التى تبث فى الجسم النشاط والهمة وتكسب الأعضاء اللين والمرونة. نعم إن الفلاحين اعتادوا المنازلة أحيانا فى الأعياد والحفلات العامة بالعصى الطويلة المسماة بالنبابيت التى مدار الفوز بها محاولة إصابة الخصم فى رأسه ولكنهم، إذا هموا باللعب، يحملون على بعضهم البعض بالضربات أو يتقونها بهمة فاترة ولين وتقصف لا أثر فيه من البسالة والإقدام

وعلى كل حال فمنازلتهم بعضهم البعض على الوجه المتقدم لا تنهض دليلا على أن فيها شيئا من البراعة والحذق. وهم يباشرون المصارعة أيضا، والمصارعون يتجردون عادة من ثيابهم بحيث يبقى نصف أجسامهم عاريا. وهم يدلكون هذا الجزء بالزيت ثم يتظاهر كل مصارع بأنه يحاول التغلب على خصمه بصرعه على الأرض. ولكن الذين يشهدون هذه المصارعات ممن يفهمون معنى النشاط واليقظة والحيلة ويقدرونها قدرها ويعتقدون توافر

هذه المزايا فى المصارعين الأوربيين لايسعهم النظر إلى تلك الجهود إلا بعين الازدراء والتهكم والاحتقار.

٧٢- ركوب الخيل

ركوب الخيل أو الفروسية من الرياضات المنظور إليها فى الشرق بعين الاجلال والاحترام. والشرقيون يعتبرونها من أشرف ضروب الرياضة وأسماها قدرا، ولا يكادون يتجاوزون طور الطفولة حتى يتفرغوا للتدريب عليها، ولاسيما إذا كانوامن البيوتات الكريمة أو الأسر المعروفة بسعة العيش وكثره المال، ولتدربهم على الفروسية وبراعتهم فيها تراهم يركبون أشد الخيل جموحا وأكثرها شموسا بهيئة تدل على الوقار وحسن السمت وجلال الهيبة. ويقومون وهم ركوب عليها بصنوف كثيرة من الحركات التى من شأنها توثيق قوتهم وفتح أبواب الخيل أمامهم وتنمية البداهة فيهم حتى يصير حضور الذهن من أخص صفاتهم، ولقد كان المماليك فى الزمن السابق متفوقين فى هذا النوع من الرياضات وأفضى تفننهم فى الخطران بالسلاح، وهم على متون الجياد وترويضهم الخيل على أداء أسرع الحركات وأصعبها، إلى وصف فرق الخيالة وشراذمها منهم بأنهم أحسن الفرسان طرا على وجه الأرض.

وكان من أخص رياضاتهم بعد انثلال = زوال = عرشهم وانقراض ذريتهم من مصر الرياضة المعروفة بالجريد. وهى مما يذكرنا ببراجسنا القديمة أيام انكباب الناس فى فرنسا على الفروسية واشتغالهم بالرياضات البدنية على متون الخيل، ومؤدى تلك اللعبة أن يركض فارسان عدوا من جانبين متقابلين ليلتقيا ببعضهما.. ففى أثناء هذه يقذف أحد الفارسين بأقصى فى ساعده من القوة والشدة عصى من جريد النخل يختلف طولها من أربعة أقدام إلى ستة يقصد بها إصابة الفارس الآخر. فإذا أصابة بها فقد يحدث به جرحا بالغا - ربما يلقى بسببه حتفه، وهذا لا يكون طبعا إلا إذا أنفق من قوته الكثير من إلقاء تلك العصى على نظيره. ولكن وجه الحيلة فى تلك اللعبة أن يستطيع الفارس المراد إصابته بالجريدة اتقاءها بل واختطافها بيده وهى تخترق الجو مصوبة إليه. وقبل أن يبرز فرسان العرب لأداء هذه اللعبة العسكرية يقضون زمنا طويلا فى التمرن على إصابة غرض ثابت معين

بالعصى من الجريد.

على أن هذه التمارين الرياضية لن تقرب من نظائرها التى تشاهد فى ملاعب الخيل بأوروبا ولن تعدلها.

٧٣ - الحواة والمشعوذون

الحواة منتشرون كثيرا فى شوارع القاهرة وميادينها، وهم يقدمون أدوارهم التمثيلية وسط حلقة من المتفرجين الذين سرعان ما يتواردون من كل جهة للتفرج على هذه المناظر. وهم يقومون بعدد عظيم من الأدوار يكسبون استحسان الجمهور المتفرج وما يقدمه إليهم من العطايا الصغيرة بما يبذلونه من الكلمات ويبدونه من الحركات التى لاتتفق ومكارم الأخلاق. وللحواة عادة عون أو عونان من الأطفال فيوهمون المتفرجين أنهم يغرزون فى جسم أحدهم نصلا أو رمحاً من الحديد، وهذا السهم انما يغيب فى قراب من الخشب. وقد يطرح الطفل أرضا ويستعمل الطريقة عينها.. موهما الناظرين أنه يغرز فى أنفه نصلا مطويا أو مدية صغيرة. وفى أحيان أخرى يفتح شدقه ثم تمسك بخديه داخلا وخارجا لينفذ منه قفلا لا يلبث أن يقفله بالمفتاح فيظل هذا القفل معلقا بوجه الطفل المسكين، والحقيقة أن شيئا من هذا القفل لم ينفذ من خد الطفل الذى يظن المتفرج أنه يقاسى من العذاب ألوانا.

وبالجملة فأغلب أدوار الحواة المصريين تشبه من وجوه كثيرة أدوار الحواة المتنقلين فى أوربا. ومن أخص أدوارهم دور الأكواب التى يحولون البيض فيها إلى كتاكيت، ويصبغون بالألوان المختلفة قطع الورق الأبيض الخ. ومن أدوارهم أيضا إيهامهم الناظرين أنهم يبتلعون الخام من القطن أو الصوف ثم يستخرجونهما من أفواهم مغزولين وملونين بمختلف الألوان، ومنها أنهم يلقون التراب فى إناء ممتلىء ماء ثم يستخرجونه فإذا به جافا، ويتفننون فى أشباه هذه الحيل التى لا يحصيها العد بين استحسان المتفرجين وتصفيقاتهم الحادة.

وفى أيام الأعياد والحفلات يقوم الجعيدية المضحكون بتمثيل نوع من المناظر المضحكة فى الطرقات والميادين لإدخال السرور على العامة. ولدى

المصريين وسيلة لهو يقوم بالتمثيل فيها تماثيل صغيرة على شبه الإنسان وتسمى بالأراجوز. والممثل الذى يحرك التماثيل يستتر عن أنظار المتفرجين فى مربع من الألواح الخشبية ثم يحرك تلك التماثيل بخيوط يمسك بأطرافها ويقرن حركاتها بأقوال يفوه بها. فيخيل للسامع أنها أقوال تلك التماثيل وألفاظها.

وهناك طائفة من ممثلى الروايات المضحكة تؤدى أدوارها فى منازل الخاصة ولا يدخل فى تضاعيفها من الحوادث ما يستمد من الحيل والدسائس أو يشير إلى أنها جاءت عفوا ومن غير تكلف أو قامت على أساس من الذكاء والعقل. وبالجملة فإن مصر مهد لفرع من فن الروايات لايزال على فطرته الأولى مجردا مما تحسن فى السمع أو البصر.

وهناك طوائف وفرق من البوهيميين « الغجر» يمثلون أمام الجمهور بعض أدوار القوة والصلابة البدنية، فيرقصون على الحبال المشدودة أو يطوفون على الناس بقرودهم وكلابهم وغيرها من الحيوانات المعروفة بالذكاء فيجعلونها ترقص أمامهم أو تأتى من الحركات المضحكة ما يدخل السرور عليهم.

(١٢)

٧٤- الأعياد والحفلات العمومية

إذا استثنينا حفلة قطع الخليج، وهى الحفلة العامة التى حرص المصريون بحكم التقاليد على إقامتها احتفاء بوفاء النيل منذ الألوف العديدة من السنين، فإنا نجد الأعياد والحفلات الأخرى كلها ذات صبغة دينية لا مراء فيها.

والذى يمر بخاطر الناظر فى هذا الأمر والباحث عن أسبابه، أول وهلة، أن الشريعة الإسلامية لم تترك جهدا إلا وبذلته لتمييزهم على غيرهم من معتنقى الديانات والعقائد الأخرى. فهى فى دعوتهم إلى أداء فرض الصلاة بالمساجد لم تتخذ النفير الذى ينفخ العبرانيون فيه لهذا الغرض، ولا الأجراس التى يدقها المسيحيون له، بل قضت بأن يكون الأذان هو النداء الداعى إلى الصلاة.

والعادة، إذا دخل الإسرائيليون معابدهم، أن يدخلوها لابسى أحذيتهم غير مكشوفـة رؤوسـهم. كما أن عادة المسيحيين، إذا غشوا الكنـائس، أن يكشفوا رؤوسـهم.

أما المسلمـون فإنهم إذا دخـوا مساجدهـم أبقوا عمائمهـم على رؤوسـهم وخلعوا نعـالهم. وحتى لا تكون هنـاك قدوة باليهـود والمسيحيين فى راحتهم الأسبوعيـة لم تتخذ الشريعة الإسلاميـة أحد يومى السبـت والأحد لالتماس الراحة من عنـاء العمل، بل اتخذت له يوم الجمعة الـذى لم يكن المقصود به، بمقتضى الشريعة الاسلامية، الإمساك عن العمل لطلب الراحة بل أداء صلاة الجمعة. ولهذا ترى المسلمين، بعد قيامهم بهذه الفـريضة الدينية، ينصرفون إلى ممارسة أعمالهم كما اعتادوا مزاولتها فى بقية أيام الأسبوع بلا فارق أبدا.

أما الأعياد العامة التى يتحتم عليهم الاحتفال بها فتنحصر فى عيدى الفطر والأضحى. وليست الاعياد الدينية الأخرى التـى سأسردها فيما بعد، إلزامية كالعيدين.

فالسنة الهجرية من هذه الأعياد، تبتدىء بشـهر محرم الحرام. لأن العشرة الأيام الأولى مـن هذا الشهـر تعد من الأيـام المباركـة، ويرتبـط بها كثير من الأوهام البـاطلة التـى يسلم العـامة بصحتهـا، ويسمى اليـوم العاشر منهـا بعاشوراء بذكرى وفاة الحسين شـهيدا فى واقعة كربلاء.

وفى صفر تبدو بين الناس حركة عظيمة سببها الاهتمام بالاستعداد لعودة المحمل الشريف من مكة إلى مصر.

ومنذ الشـهر الثـالث من السنة الهجـرية تعد المعدات العظيمـة للاحتفال بمولد النبـى وإقامته فى ميدان الأزبكية بمظاهـر الأبهة والجلال. والدراويش السعديـة المحور الأكبر الـذى يـدور عليـه هـذا الاحتفال العظيـم. فـإنهم يجتمعون طوائف كثيرة ويعكفون على الأذكار التى سبق لى وصفها فى إحدى الفقرات المتقدمة. والعادة أن يبقى الشيـخ البكرى، شيخ سجادتهم، بميدان الأزبكية. فإذا أقبل ذلـك اليوم عاد فى موكب جليل مـن المسجد إلى داره. وقبل أن يصل إليها بقليـل يقف فى الطريق حيـث تقام بحضوره الحفلة المعـروفة بالدوسة.

وبيان هذه الحفلة أن ينكب نحو مائة من الدراويش أو مائتين على وجوههم فوق الأرض متلاصقين متلاحمين فتتكون من أجسامهم سجادة بشرية لا يلبث الشيخ الجليل أن يسير عليها ممتطيا جواده، يتبعه بعض مريديه سائرين عليها حفاة الأقدام. والذى يزعمه أولئك الدراويش بعد مرور الشيخ ومريديه فوق أجسامهم أن سنابك الجواد لم تصبهم بألم ما، وأن هذا ينهض دليلا على ولايته.وتقام حفلات عديدة بمناسبة موالد بعض الأولياء أشهرها مولد الحسين ثم مولد السيدة زينب. وليلة السابع والعشرين من شهر رجب تعد من الليالى المباركة التى ينبغى إحياؤها بالحفلات لأنها ليلة المعراج التى عرج النبى فيها إلى السماء. وقد ذكرت أن شهر رمضان وعيد الفطر الذى يتلو ختامه وعيد الأضحى الذى يطابق وصول الحجاج إلى مكة من الأعياد التى تقام الحفلات العامة برسمها.ففى هذه الأعياد وفى ليالى رمضان كلها يقوم المغنون والمحدثون والشعراء والحواة والراقصات والموسيقيون بإدخال السرور على الجمهور فى الشوارع كلها مما يسهل على الباحث فى أحوال مصر وعادات أهلها الوقوف على ما يمتاز به الشعب المصرى من الأخلاق الغريبة والعادات العجيبة.

(١٣)
بيانات تفصيلية عن الأخلاق

٧٥ - الشحاذة

بالرغم من أن أهالى مصر يرزحون تحت أعباء الفقر ويرسفون فى أغلال العوز والفاقة، فإن الشحاذة لم تكن فاشية فيهم بنسبة فقرهم وعوزهم. وسبب ذلك أن احتياجات المصريين تنحصر فى دائرة ضيقة تجعل مداركتها أمرا ميسورا عليهم. بل إن مداركتها من السهولة بحيث يندر أن يوجد فى القطر المصرى كله رجل واحد يعجز عن كسب قوته بنفسه.

ويتقى المصرى برد الشتاء بقميص بسيط. لأن الشتاء فى مصر لم يكن زمهريرا، ولا يرهب حرارة الشمس وقيظ الهاجرة لاعتياده إياهما منذ نعومة

أظافره. وإذا لم يكن مالكا ما يسد به الرمق من القوت فإنه يثق بحصوله على شيء من الخبز من أى مكان من أبناء جلدته يواجهه فى طلب إسعافه، فالمصرى الفقير لا يموت بالجوع أبدا.

وكان بعاصمة القطر المصرى فى زمن مضى جماعة من الشحاذين يتجرون بالعواطف التى يستفزها الإسلام فى نفوس المسلمين بما فرضه عليهم من الزكاة والإحسان، حتى اقتنوا من المال شيئا كثيرا من تلك الطريق بإلحاحهم وإلحافهم فى السؤال. وكان سوادهم الأعظم ينفقون هذا المال فى ملاذهم، ولاسيما فى تدخين الحشيش. فيصور لهم الخيال أثناء تخدرهم بهذه المادة أنهم أسعد الناس حظا فى هذا العالم للشحاذين وأن ما يشعرون به من الملذات الخيالية لا يختلف فى شىء عن الملاذ الحقيقية التى يحس غيرهم بها فى عالم الحقيقة. ومنذ بضع سنوات أنشأ محمد على مستودعا لشحاذين جمع فيه أكثر من أربعمائة شحاذ رجالا ونساء وأطفالا.

٧٦- اللصوص

كان انتشار الفوضى فى مصر، قبل أن يتسلم محمد على ذروة الحكم، من بواعث اختلال الأمن واضطراب حبل النظام وتؤلف عصابات اللصوص فى كل مكان، وعلى الخصوص فى الوجه البحرى. وقد اختص لفيف منهم بالقرصنة على نهر النيل. إذ كانوا يلاحقون القوارب سباحة لسرقة ما تحمله، ويتخيرون الليل لارتكاب جرائمهم.

وتدور على ألسنة الناس قصص عن مهارتهم وجرأتهم تكاد لاتصدق. ولكنهم كانوا مع ذلك فى غاية الجبن. إذ كانوا يخشون بأس الأوربيين ويفرون من أمامهم إذا وقفوا لهم وقفة الجاد لا المازح وكشروا عن أنيابهم. لقد استأصل محمد على شأفة أولئك اللصوص وتمكن بعزمه الماضى وبأسه الشديد من القضاء على القرصنة فى النيل واللصوصية التى اتخذها العربان حرفة لهم، وألزم سكان القرى جميعا الذين تقع فى دائرتهم التعديات على عابرى السبيل بتبعة ما يقع منها من دفع التعويض الوافى متضامنين لمن يصيبهم الضر من جرائها. فصاروا لهذا السبب يهتمون بالمحافظة على النظام، ويؤدون وظيفة الشرطة متطوعين من السهر على حفظ الأمن

والسكينة فى نواحيهم.

ومع هـذا فحوادث السرقـات بمصر أقل منهـا بأوروبـا، وعلى الخصوص الحوادث المصحوبة بالظـروف المضاعفة للعقوبة كأن تكـون السرقة سطوا استعمل فيه السلاح أو الكسر الخ.

٧٧- المحكـوم عليهـم

منذ أنشئت ترسانة الإسكندرية ابتكرت للمجرمين عقوبة جديدة قصد بها إفادة هذا المصنع العظيم ببعض الأيـدى العاملة وصرف أصحابها عن الأذى وتعويـدهم العمل الصالـح. فالمجرمون الـذين ارتكبوا جرائم معينـة يحكم عليهم الآن بالأشغال الشاقة المؤقتـة لمدد طويلة أو قصـيرة. وهذه العقوبة فى مصر لاتسىء سمعـة المحكوم عليهم بها ولا تحط مـن أقدارهـم، إذ كثيرا ما شوهدوا بعد انقضـاء مدة العقوبة وانقلابهم إلى أهليهم وهـم يحلون محلهم القديم فى المجتمـع الإنسانى، ويتحلون بـالرتب والامتيازات التـى كانت لهم قبل الحكم عليهم. ولو حظ فى حالة ميلهم إلى الزواج أن لا أسرة من الأسر التى طمح فى الارتباط معها برابطة المصاهرة رأت فى سعيه لديها ما يلوث شـهرتها أو يذهب برونقهـا أو يحط من مكانتها بين الناس. ويدعـو إلى ذلك أن المسلم لايرى فى العقـوبة التى يقضى بها الشرع مـا ينافى شرفه وكرامتـه أو يصمه طول عمره بوصمة الخزى والعار.

٧٨ - القتـل

إذا كانـت حوادث القتل فـاشية عند الأمـم المتمدينة فـإنها فى بلاد الشرق نادرة الوقـوع جدا. أما ما قد يحدث أحيـانا فى هذه البلاد مـن جرائم التعدى على النفس فتعليله لا يرجـع إلى مثل ما يعلل القتل به فى أوربـا من الشـهوات الدنيئـة والأهواء السافلـة والغرائز الوحشيـة الخ ما يـدعو عامـة المجرمين بأوروبا إلى إزهاق النفوس البريئة.

إن المصرى قد فطـر، فى الأحوال العادية، على دعـة الجانب ودماثـة الخلق والنزوع إلى الطاعة. وليس من الممكـن، وهو فى هذه الحالة، أن يقصد ارتكاب جريمة تقضى إلى إراقة الدماء أو يصر على أى جـرم من هذا القبيل، فإنما تلك نزعته الطبيعية إلى السكون والهوادة فى معاملاته.

٧٩ - الشغب والفتنة

إن ماذكرناه من انفطار الأمة المصرية على السكون والهدوء وحبها العيش فى ظلال الأمن والسلام يقعدان بها عن رفع لواء العصيان والخروج على أولياء الأمور. نعم إن الفلاحين ينزعون أحيانا إلى الشغب وإضرام نار الفتنة. ولكنهم لا يلبثون أن يفيئوا إلى الطاعة ويخلدوا إلى السكينة قبل أن تتحول تلك النزعة فى نفوسهم من التردد إلى اليقين. وهذا فضلا عن أنه لايدور بخلد مصرى ولا يخالط مزاجه شىء من البواعث التى توطن العزم على الثورة كالتروى فى عواقبها والاحتياط لها بالوسائل العملية كالمثابرة والهمة واليقظة. إذ كثيرا ما يحدث أن يتجمهر الفلاحون وتحتشد حشودهم وتثير التراب فى الهواء وتصيح قائلة: هلموا! هلموا! (يلا! يلا !) فإذا حان وقت العمل لايلبثون أن يسكن الروع قلوبهم. وأن يخشوا عاقبة طيشهم وغرورهم. وربما كان الباعث لهم على ذلك يقينهم أنهم عزل من السلاح وأن لاخطة عمل مرسومة عندهم ولا رئيس يشرف على تنفيذها.

وقبل ان تتوثق أركان حكومة محمد على وتشتد مقاومها، كانت الفتن والمشاغب متواترة الوقوع فى القاهرة. وكان رجال الدين يعززون جانبها بتأييدهم ويعضدونها (١). والسبب الدينى وحده هو الذى يستفز المصريين إلى العصيان، كما يدل عليه ما لايزال حاضرا فى الأذهان لقرب عهده من توصل الكذابين، وفى مقدمتهم المهدى، إلى جمع شتات بعض الألوف من الفلاحين أيام الحملة الفرنسية لإغرائهم بجيوشنا وتحريضهم على النكاية برجالها.

وفى سنة ١٨٢٤ احتدمت فى الوجه القبلى نار الثورة فالتهمت ما بين إسنا وأسوان، لاشتغال الحكومة بتكوين الجيش على النسق الجديد. وكان زعيمها ومذكى ضرامها شيخا ممن يدعون أنهم مهبط الوحى الإلهى. وكانت فى تلك الأرجاء شرذمة جنود الأورطة الأولى فتفرقوا ولم يبق فى الصفوف منهم إلا العدد الكافى لإخماد تلك الثورة التى لو حدث مثلها فى بلد آخر لاتسع نطاقها وخيفت مغبتها.

---

(١) لقد خلط المؤلف بين الثورة التى تحض عليها الأديان السماوية وتعتبرها واجبا مقدسا دفاعا عن حقوق الأوطان والكرامة والسيادة ، ولم يفرق المؤلف بين الثورة والفتنة التى تعمل الأديان السماوية وخاصة الدين الإسلامى عل وأدها فى مهدها، ولكنها بعض الرؤى الغربية التى لم تفهم حقيقة الأديان خاصة الإسلام.

٨٠ - تنفيذ أحكام الإعدام

اعتاد المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام الرضا والتسليم بما ساقه القدر. وكل ما يتذرعون به من وسائل الدفاع أثناء سوقهم إلى ساحة الإعدام تكرارهم الجملة الآتية « هذا ما أراده الله . هذا ما كتب فى لوح القدر». ولاعتقادهم بأن هناك قوة فوق الطبيعة تحركهم على مشيئتها وتسيرهم إلى حيث تريد، يتحملون بالصبر والسكون وعدم الاكتراث عاقبة خطيئتهم. وإنك لتعتقد، إذا رأيتهم، أنهم ليسوا المقصودين بتنفيذ الحكم الذى سيطوى حياتهم .ولقد شهدت مرارا حوادث الإعدام، فكنت أرى المحكوم عليهم يسيرون نحو آلة التنفيذ من غير اكتراث، وبدون أن تبدو على وجوههم علامات الانفعال أو الذعر، بل ويتحدثون بسكون مع الحراس الذين يقودونهم إليها. أما جماهير الناس فقلما تسوقهم الرغبة إلى ذلك المكان لمشاهدة التنفيذ أو ينجلبون إليه من كل فج وحدب كما تفعل الجماهير عندنا كلما سيق مجرم إلى ساحة الإعدام.

والعادة المألوفة أن يكون التنفيذ فى الساحة التى تقام فيها الأسواق. فإذا سيق مجرم إلى هذا المكان فقلما ترى ممن اجتمعوا فيه من قبل للبيع والشراء اهتماما بغير أعمالهم التى جاءوا من أجلها، إذ يعكفون على مساوماتهم وبيعهم وشرائهم بدون أن يولوا وجوههم شطر الرواية المحزنة التى تمثل على مقربة منهم. ويصعد المحكوم عليهم بالإعدام فى سلم آلة التنفيذ بغير تردد، وبعد أن ينطقوا بالشهادتين يمدون عنقهم إما إلى حبل المشنقة وإما إلى سنان سيف الجلاد، بدون أن يبدو على وجوههم أثر ما من آثار الخوف حتى أن المتفرس فيهم لايفرق بين حالتهم فى موقفهم أمام الموت وحالتهم العادية قبله.

٨١- الانتحار

حوادث الانتحار فى مصر أندر من حوادث القتل. لأن ذلك الوباء الأدبى لا يفتك إلا بالجماعات التى انطفأ نور الإيمان من قلوبها، ولاينزل إلا حيث يصطدم العزاء الذى يبثه فى النفس الاعتقاد بالحياة الأخرى والاستسلام لقضاء الله وقدره، بمذهب الشك الذى لم يذر من دعائم الإيمان سوى الاعتقاد بالحزن والألم.

ولكن الدين الإسلامى يبث فى قلوب ذويه جذورا قوية من الإيمان لا تلبث أن تتأصل فيها، لذلك كانوا فى طليعة الذين يدركون حقيقة معنى الانقياد لطاعة اله والخضوع لإرادته الظاهر أثرها فى الحوادث كلها صغيرها وكبيرها. ولاشىء فى العالم يزعزع هذه العقيدة فى نفوسهم لأنهم يرون أن ماقدر عليهم مكتوب منذ الأزل فى اللوح المحفوظ، وأن أوامر الله ونواهيه لا معقب عليها . فالمسلم، لاستقرار هذه العقيدة فى نفسه، لأسرع الناس إلى التعزى والسلوان عما ينزل به من بوائق الدهر. اذا جاءه نبأ بخسارة مال أو فقدان مظهر، يتلقى هذا النبأ بالصبر والسكون. فلا يسقط فى يده ولايضطرب جأشه ولا يختلج فؤاده. وهذه حالته أيضا إذا فقد أعز الأشياء عليه كزوجته أو أولاده أو سائر أفراد أسرته.

ومهما تكن الدرجة التى يهبط إليها فى سلم الهيئة الاجتماعية على أثر كارثة حاقت به، لا يعتقد أن هذا الهبوط يحط من كرامته ويقلل من شأنه. فلا غرو، وهذه قوة توكله ووطود إيمانه، أن يكون من اليأس وخور العزيمة مناط الثريا، وأن لا يفكر أبدا فى الانتحار ولا يخطر له مثل هذا الفعل على بال.

ولو كان فى وسعنا أن نذكر أمثلة على عكس هذا لزمنا أن نتحراها فى طبقة المسلمين الذين انغمسوا فى رذائل الحضارة الأوربية ومخازيها . ذلك لأن الشرقيين لا يسخطون فى الغالب على أخلاقنا، كلما اختلطوا بنا، سوى ما كان منها سىء العاقبة بعيدا عن الصواب.

٨٢- المبارزة

إن المبارزة، وهى تلك العادة التى اتصلت بنا منذ عصر المروءة القديمة والتى تدعو إليها فى أوربا عزة النفس والحاجة إلى صون الكرامة والذود عن الشرف، مجهولة عند الأمم الشرقية. وبلغ من جهلهم بها أنه لا توجد فى لغاتهم كلمات للدلالة على ذلك الشعور الكريم الذى ينزل عندنا فى منزلة الإيمان الحقيقى، بالرغم من أن المسلمين يتعلمون ضروب القتال ويواصلون الليل بالنهار فى التدريب على استعمال السلاح. ولقد رأينا فيما سبق كيف أنهم يتابعون بعضهم البعض على الخيل وبأيديهم الجريد يتراشقون به. ولكنهم لا ينازلون عادة سوى المستظهرين بالعداوة لهم من أعداء دينهم أو وطنهم.

الباب السابع

نظرة فى العناصر الأخرى من سكان مصر

(١)
العربـــان

قبـائل العربـان- شغـف العـربان بـالصحـراء- صفـاتهم وطباعهـم - قناعتهم- مكـارم أخلاقهم وجميل عـاداتهم- تربيتهم ونظامهـم- حروبهم- حريتهـم الدينية- تـربيتهم العقلية- الأدلاء من العـربان- سرقات العـربان وقطعهم الطريـق- مكافحة محمد على لهذه النـزعة- تنظيم فرسـان العربان على هيئة جيوش غير نظامية- فضائل العرب الرحل.

١- قبائل العربان

يطلق اسم العربان أو البدو على القبائل الـرحالة التى تعيش فى الصحـراء، وكانت القبـائل التابعة لمصر أيام الحملـة الفرنسية ستين قبيلة عـدد أفرادها مائة ألف نفس، منهم ثمانية عشر ألفـا إلى عشرين ألف فارس. وهذا الإحصاء التقريبـى لم يتغير منذ ذلـك الوقت، إلا قليـلا. ومن أشد تلـك القبائل بـأسا وأبعدها شـهرة الهوارة والعبابدة والـهنادى والـهدندوة بالوجة القبلى، والمعازة بمصر الوسطـى والطرابين والقطاويـة والبكابيـش وأولاد على.. الخ بالـوجه البحرى.

٢- شغف العربان بالصحراء

اخترقت الصحراء المتراميـة الأطراف إلى أبعد مدى مـرات كثيرة. فأدركت السر فى تعلق العـربان بها، واستكشفـت سبب نظـرهم الينـا بعين الاحتقار، نحن الذيـن كدستنا الحضـارة فى آفـاق ضيقة الحلقات. وقد بلـغ ذاك التعلق وهذا الاحتقـار من نفوسـهم مبلغـا جعلهم لا يطيقون سكنـى الحضر إلا بعد معالجة طويلة لاعتيادها وتوطين النفس عليها.

ولقد تعرفت بشيخ من أغنياء العربان كان لايميل بفطرته إلا إلى الصحراء، ثم تغلب على هذا الميل باعتياده الإقامة فى الحاضرة. حيث تسلم مقاليد الحكم على إحدى المقاطعات. ولقد طلب، وهو فى مركزه هذا، مصاهرة أحد مشائخ القبائل العربية فرفض طلبه بحجة أنه بتطوره بطور الحضارة وإيثاره المعيشة فى المنازل المنجدة عليها فى بيوت الشعر، وطلبه خصب العيش فى ظل الدعة والراحة والسكون، فقد خشونة البداوة وضعفت فيه العصبية والبسالة. فأصبح غير أهل لأن يختلط نسبه بنسبه.

٣- صفاتهم وطباعهم

احتفظ العرب الرحل بحسن شكلهم الأول وببساطته. فالناظر إليهم يخيل له أن نفوسهم لا تنفعل إلا بالعواطف السامية والإحساسات الشريفة، وأن الفضائل العالية خلق فيهم وسجية. فمن محض الخطأ إذا تخيلناهم فى صفة المتوحشين وثوب الهمج وأسأنا الظن فيهم بذلك. نعم لا تخلو الحال من قبائل بدوية تدهورت فى الدرك الأسفل من حضيض الرذائل، إذ جعلوا همهم اللصوصية والدعارة، ولكنها لا تخالف فى ذلك شأن قبائل كثيرة اشتهرت بعراقة الأصل وإكرام النزيل وبسطة الكف. ومن أخص صفات البدوى ومميزاته ولعه بالحرية والاستقلال إلى حد يخيل معه للناظر أن لوائح هاتين الصفتين مرتسمتان فى وجهه. فلا يدهشك إذن أن تراه مفاخرا على الدم بأصله، معاليا الشعوب الأخرى بصراحة نسبه العربى الذى لم يعرف فيه الشوب = الاختلاط = وأنه ما رضخ قط لمذلة. وما أجمل منظره، إذا غشى مجلس عظيم أو ديوان ثرى، متدثرا بردائه ومتشحا ببندقيته ورافعا رمحه بلا تعمل ولا معاناة خيلاء، لا يرضخ للنظم المرعية فى الاجتماع ولا يأبه بالآداب المسنونة له، فجسمه مستعص على الحركات التى يراد بها الاحترام وإظهار شعائر الخضوع. وإذا خاطب عظيما، ولو كان سمو الوالى نفسه أو سمو ابراهيم باشا، خاطبه بجرأة وسهولة وصراحة لا أثر فيها لتكلف، مخاطبة النظير. فإذا واجه سمو الوالى أو ابنه خاطبهما بالكاف قائلا: « كيف الحال يا محمد على وكيف مزاجك يا إبراهيم». وهذه سجيته دوما فى الأسئلة التى يروم بها فتح باب الكلام مع سيد مصر وصاحبها وأكبر قائد فى المملكة العثمانية كلها.

٤- قناعتهم

اشتهر البدو بشدة القناعة، فقليل من لبن النياق وبعض التمر يكفيان الواحد منهم غذاء طول النهار. وهم لا يعولون على أكل اللحوم إلا فى الأعياد والحفلات الكبيرة. حيث يذبحون رؤوس الضأن الكبيرة أو الصغيرة ويشوونها على الطريقة التى كانت معروفة على عهد (هيرميرس) الشاعر اليونانى. وغالبا ما يقع النظر على نسائهن وهن مشتغلات على متون الهجن، بإدارة الرحى لطحن الحبوب واتخاذ الخبز من دقيقها عجنا ثم إنضاجا على ألواح حديد،يوقدون النار من تحتها كلما حطت القبيلة رحالها فى مكان. وهم فى الشراب أشد قناعة منهم فى الغذاء، أما النبيذ فلا يشربونه أبدا وهكذا شأنهم فى سائر الخمور، وبفضل تقشفهم فى معيشتهم واعتدالهم فى طعامهم يقل فيهم المرضى ويزداد عدد المعمرين.

٥- مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم

المعيشة فى الصحراء تصون الأخلاق من الدنس وتربأ بها عن المخازى، فمكارم أخلاق العرب وجميل عاداتهم أمر لا يختلف فيه اثنان وهم كغيرهم من مخلوقات الله تتأثر أفئدتهم بعوامل الغرام، إلا أنهم يجهلون التسرى ويمقتون الزنا إلى حد أن الفتاة عندهم يستحيل على رب الحيلة اغواؤها. وذلك لأن احترام الرابطة الزوجية والاحتفاظ بالشرف والكرامة أصبحا من غرائزهم وسجاياهم المخالطة لدمائهم. والذين يجرءون منهم على انتهاك الحرمات ويخالفون ما ألفته القبائل من العفة والنزاهة والطهر يعرضون حياتهم لخطر الموت. ومع شدة غيرتهم على الأعراض تراهم يمنحون نساءهم من الحرية أكثر مما يمنحه لهن غيرهم من المسلمين. فإنهن يبرزن سافرات الوجوه، ولايتنقبن إذا وقعت عليهن أنظار الرجال. ولما كانت تربيتهن من تربية الرجال، فإنهن يتشبهن منذ الطفولة بعادات هؤلاء ويتخلقن بأخلاقهم.

٦- تربيتهم ونظامهم

إذا تنجع البدو فى طلب الكلأ ونزلوا جعلوا خيامهم على استقامة خط واحد. وهذه الخيام أو البيوت تصنع من الأوبار السوداء أو السمراء، أو من جلود الماعز والجمال. وخيمة شيخهم أو زعيمهم تمتاز على ما سواها ببياض

لـونها. وتحتوى كـل خيمة أسرة واحـدة، وتنقسم بفـاصل مـن القماش إلى قسمين، أحـدهما خاص بـالنسـاء. وإذا كـانت القبـائل لا تستطيع المعيشـة متضامة إلى بعضهـا فإنها تنقسم إلى شعب متفـرقة تسمى كل شعبـة منها بالفريق، وتتـألف من أربعين إلى مائة خيمة. ويختار كل فريـق شيخا له من رؤساء الأسر وعظمائها. وتنتخب الفرق مجتمعـة شيخا كبيرا تجعله الرئيس الأعلى لها. وسلطة الشيوخ محدودة فى دائرة ضيقة جـدا، إذ فى الإمكان عزلهم من منصبهم بصوت الأغلبية التى أفضت بـالرئاسة إليهم من قبل. على أنهم يحتفظون بحقـوق وامتيازات لاينازعهم عليهـا أحد، بعد اعتـزالهم العمل فى المشيخة، ولكل قبيلة راية ترفع أمام خيمة شيخها، وفيها يكرم مثوى الغرباء وتطـرح الآراء وتدور المنـاقشـات فى شئـون القبيلة لتقـريـر مـا يتفق مـع مصلحتها. وتحصــل المفاوضـات فى الصلح والحرب. دع أن شيـوخ القبائل وهم الـذين يقـودون التجريـدات الحربية ويسـوسون المقـاتلة فى ســاحات الوغى.

٧- حروبهم

لكل قبيلـة نصيب مـن الصحراء وحـدودها التـى تنتهى إليهـا مراعيهـا الخصبة. ومفهوم أنه من المتعذر تعيين هـذه الحدود بالدقة فى أرض تنطمس معلما بهبوب الـرياح فى كل حين. فلا عجـب إذا نشأت المنازعـات بين القبائل المتجاورة على حـدود أراضيها، وسرعـان ما يتحـول الكلام فيهـا إلى خصام فقتال بين الفريقين.

وكثيرا ما تستمـر الحروب بينهما زمنا طويـلا. بل ربما لا تجد حـدا تقف عنده. وربما كان الباعث على انحلال عقدة السلـم وقوع الحيف بأحد الناس أو شكوى أحد العربان من سوء معـاملته فيكون هذا السبب الفردى أو ذاك، من بـواعث التنـاحر بين الجماعـات. وقد ألـف البدو الصـدق والشهامـة فى حروبهم. فإنهم ، قبل مفاتحة أعدائهم بالخصومة، ينذرونهم بها ويطلبونهم إلى منازلهم. وهم فى قتالهم يتبارون فى إظهار الشجاعة والإقدام. ونظامهم فى القتال يلفت النظـر ببساطته، ويذكـر بأساليب القتـال فى العصور الأولى. إذ يجعلون مصافهم للقتال على الترتيب الآتى: الصف الأول لشبان صفوة أهل القبيلة فى الفتـوة والحماس وسرعة النجدة، فـإن هؤلاء المقاتلـة الطامحين إلى

الظهور والشهرة يطلبون بعضهم البعض إلى المبارزة، ويتلاقون مرارا فى ساحة النزال. أما الصف الثانى فخاص بأرباب الأسر الذين بلغوا سن الكهولة. ويقف خلفهم فى الصف الثالث ذوو الأسنان من الرجال والنساء. وحكمة وجود هاته النسوة فى ساحة القتال واختلاطهن بالرجال أنهن يحثثن المقاتلين ويشجعنهم بالأغانى والطبول وارتجال الأناشيد الحربية.

أما الفتيات المخطوبات لزواج فيستنهضن همم خطبائهن ويعدنهم بقرب الزواج مكافأة لهم على انتصارهم المأمول. وأما النساء المتزوجات والأمهات فيذكرن أزواجهن بالروابط المقدسة التى تربطهم بهن ويمثلن لهم حالة الأبناء والأسرات إذا لم يعودوا مكللين بغار الانتصار. وتحرض أجمل بنات القبيلة الشبان المحاربين واعدة إياهم جميعا بأن تهب نفسها لمن يحرز منهم فى القتال أوفر قسط من المجد والفخار.

٨- حريتهم الدينية

يحمل أهل الحضر من العرب نيرين: نير الاستعباد السياسى ونير الاستعباد الدينى، بخلاف أهل البادية الذين يجهلون النير الأول جهلا تاما، ويلمون بطرائق تحرير أنفسهم من النير الثانى وإلقائه عن أعناقهم. وغنى عن البيان أنهم مسلمون كغيرهم من أهل الإسلام، ولكن اسلاميتهم لا تزال على فطرتها الأولى من الصراحة والسذاجة، إذ لم يدخلها شوب التعاليم الدقيقة ومذاهب أهل الكلام ومختلف آراء الأئمة. لهذا تراهم يتنصلون بمهارة وحذق من تبعة مخالفتهم لقواعد الدين ونصوص الشرع فيقولون مثلا: « إذا لم نؤد فرض الصلاة فلأن الماء ينقصنا للوضوء، وإذا لم نتصدق فلأننا فقراء أحق بالزكاة من غيرنا، وإذا لم نصم شهر رمضان فإننا نصوم من الجوع طول السنة، وإذا لم نحج إلى بيت الله الحرام فلأن بيت الله الحرام حيث يصلى الانسان» (١).

٩- تربيتهم العقلية

لغة أهل البادية مبنية فى الغالب على التشبيه. وهم فى شعرهم يستعيرون تشبيهاتهم مما تقع عليه أنظارهم فيما حولهم كعيون الغزلان وسرعة الفرس

(١) الناشر : إنها رؤية مشوهة وغير موضوعية للإسلام

وصبر الجمل وقناعته وفوائد الصحراء وصفاتها المميزة. وليس فى أذهانهم أثر من العلوم، بل إن السواد الأعظم من مشائخهم أميون لايقرأون حرفا ولا يكتبون، ولكن مواهبهم العقلية بالغة اقصى مبلغ من الاتساع. معززة الجانب بالمواهب الجثمانية التى تقويها الرياضة البدنية واستنشاق النسيم النقى من الشوائب.

١٠- السنيوره

أتيح لى مرارا البحث فى عادات البدو وأخلاقهم خلال رحلاتى العديدة الطويلة فى الصحراء. ومما عرض لى فيها من الحوادث الجديرة بالذكر الحادثة التى أسوقها فيما يلى إلى القراء:

لما شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر، هاجم البدو التابعون لقبيلة الزعيم الشهير المعروف بأبى قوره، وهو الزعيم الذى طالما قاوم المماليك ونافسهم على السلطة حتى حصلت له السيادة على إقليم المنصورة، حاميتهم فى هذه المدينة. وكان مقره قرية (ميت العامل) على مسافة ستة فراسخ من الجنوب الغربى لها. فلما احتدمت نار المعركة سبى العربان امرأة فرنسية فى ريعان الشباب وأخذوها إلى زعيمهم الذى لم يلبث أن تزوج بها. ولقد اشتهر أمرها فى تلك الجهات وأطلق عليها اسم « السنيورة» لجمالها.

وكثيرا ما ذكر أمرها على مسمع منى .فوددت التعرف عليها واعتزمت اللقاء بها. فلما كانت سنة ١٨٣٤ ذهبت إلى مديرية الشرقية ومررت بالقرية التى قيل لى إنها تسكنها ونزلت بدارها .فإذا بها قصرا فسيح الجنبات قائما بالقرب من مساكن العرب.. وقد أحسن أحد أبنائها لقائى وأكرم مثواى. وما عرف أننى فرنسى الجنس حتى ذكر لى والدته وقال إنها لكذلك. فأعربت له عن رغبتى فى لقائها، وكانت الذريعة الوحيدة إلى ذلك مهنة الطب التى أقوم بها. فلما وصلت إلى خدرها تلقتنى محيية باللغة الفرنسية. ولكننى سرعان ما تبينت أنها إيطالية الجنس، وعلمت منها فعلاً أنها ولدت بمدينة البندقية، وأن والدها كان تاجر قبعات، اسمه بارتولى، وأن والدتها كانت تسمى مرجريت، وأن اسمها هى جوليا، وأن العربان سبوها وهى خارجة من المنصورة إذ أركبوهاجوادا وانطلقوا يطوون بها الفدافد والسباسب حتى بلغوا بها فى الماء دارا كبيرة التقت فيها برجل يغطيه من الرأس إلى القدمين حرام أبيض، وأن

هذا الرجل بذل لها من مظـاهر العطف والميل مـا لايوصف، وأنه جـردها من ثيابها الأوربيـة ليلبسـها بدلا منهـا ثوبا شرقيـا واسعا، ثم سلمهـا من الحلى والجواهر ما قيمته ستمائة كيس ـ أى ما يعدل مائة ألف فرنك تقريبا، وجعل فى خدمتها عددا كبيرا من العبيد والجوارى. ذلك الرجل هو الزعيم (أبو قوره) الذى كان مشهورا بالشوكة والجاه الطـويل، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كانا يضجرانها، فكانت لا تكف عـن البكاء وتعرب بالقول والإشارة والصياح عن رغبتهـا فى العودة إلى ذويها. ومـع هذا فلم ينقـض أحد عشر شـهـرا حتى رزقت غلاما، فهدأ شعور الأم نحو وليدهـا ثائرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها فى هذا المكان فلم يسعها إلا احتماله والرضـاء به.

ولما مات زوجهـا وكانت تـوليه الحب الصـادق وتعيش معه فى بحبـوحة الهناء والنعيم، أكرهت على التزوج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تألفه فى أخيه المرحوم من حسن الرعاية وجميـل العطف. وبعد انقضاء أربع سنوات فى هذا الحال، توفى هذا الزوج تـاركا لها ابنة فى الثانية من عمـرها تسمـى (حفيظة) وجنينا فى بطنها سمى بعد ميلاده بعلى. ومع أنها كانت لا تزال بعد ميلاد هذا الابن تكـابد من زوجهـا صنوف العسـف والعنف، فإنها خسرت بمـوته خير معوان وأقوى سند لها فى الملمات. ذلك لأن الشر أغرى أقـاربه بالاستفادة من ضعفها على أثر وفاته. فنصبوا المكائد ودسـوا الدسائس التى توصلوا بها إلى اغتصاب الشطـر الأكبر من ثروة هذه الأسرة التـى كان قد اعتورهـا النقص بامتداد أيدى السلبة اليها.

وكان منصور ابنها البكرى لا يزال فى مقتبل العمـر وعاجزا عن الدفاع عن ميراث أبيه. فأصابـه غم شديد من رؤية تلك الثروة تتحـول من يده إلى أيدى الأغيار. ولم يلبث هـذا الغم أن انقلب معه إلى جنون. أمـا أخوه على، فهو الآن عماد بيت أبيـه وسنده الوحيد، هـذا البيت الذى كان فيما سبـق رفيع العماد ومرموقا من الرواد والقصاد، إذ كان يملك زعيمه أربعا وأربعين قرية وبضعة آلاف من الجمال وقطعـانا لا عـداد لها من الأغنـام وأكثر مـن خمسمائة عبـد وجارية من الأرقاء، فلم يبق من هذه الثروة الطائلة إلا فضلات يسيرة تكاد لا تفى بقضـاء حاجاتها ولا تكفـى لإعالتها بما اعتـادته من السعـة والخصب والنعيم.

ومنذ الأربعة والثلاثين عاما التي قضتها السنيورة في هذه الدار لم تبرحها قط، بل لم تر رجلا من الأجانب سواى. ولقد أثار وجودى في نفسها بواعث الانفعال والتأثر، فتبينت من حالها أن عوامل الشوق إلى وطنها والرغبة في استنشاق نسيم الحرية لم تنطفىء نارها بعد في فؤادها. وعندما انصرفت من حضرتها كانت تشيعنى بنظرات العطف والمودة. ولقد برحت دارها وقلبى يتحفز تأثرا بما رأيته وسمعته في هذه المقابلة، ولاسيما ما أفهمتنى اياه من أنها لم يصل إليها منذ وقعت سبية في أيدى العربان، خبر ما عن أسرتها ولا عن زوجها الضابط (ديفو) الذى لا تدرى أقتل في معركة المنصورة أم بقى على قيد الحياة.

ولقيت في دار السنيورة كل ما يؤثر عن العرب في ضيفتهم للأجانب من مظاهر الحفاوة والإكرام، فلقد تناولت الطعام فيها مرتين على مائدة كبيرة مستديرة كانوا يضعون في وسطها، عند كل وجبة، خروفا بأكمله ويصفون على حافتها كثيرا من الصحاف الصغيرة، فينتابها أولا أفراد الأسرة والأعيان من أهل القرية، وكنا نأكل جلوسا على السجاجيد ونمزق اللحم بأصابعنا وبها كنا نتناول الارز مطبوخا على الطريقة العربية. وبعد أن نأكل كل على قدر همته، ينتاب المائدة بعدنا غيرنا من المدعوين. ثم يحيط بها بعدهم الخدم والفقراء. ولقد أحصيت عدد هؤلاء، ومما ضاعف دهشتى احتفاء رب الدار بالآكلين وملاطفته لهم وأنسه بهم إلى نهاية الطعام. وكان يبدو على وجوه أولئك الفقراء الذين يقريهم رب الدار كل ليلة على هذا المثال، أثر السرور من تلك الملاطفة التى تمحو في نفوسهم أثر الفوارق بينهم وسائر الضيوف. خصوصا وأنهم يعتقدون أن ما يجدونه من حسن القرى لم يكن الباعث عليه الرياء وحب الظهور والخيلاء، لأن أهل البيت يكرمون زائريهم في كل يوم على هذا المثال السابق.

١١- العربان الأدلاء

يعتمد السياح والمسافرون الذين يقصدون اختراق الصحراء على البدو في الاهتداء والوصول إلى مقاصدهم. ويسترشد العربان في قطع الطريق الذى يسيرون فيه ويقدرون أبعاد ما اجتازوه وما يتبقى عليهم اجتيازه منه تقديرا دقيقا مبنيا على صدق النظر. والأدلاء من قبيلة بيزار، وهم أهدى من غيرهم في

مسالك الصحآرى الشرقية إلى جبل طور سيناء أما قبيلة أولاد على فمنها الأدلاء العارفون بأسرار صحراء ليبية، وهكذا قبيلة العبابدة بالنسبة لبلاد النوبة وقبيلة العوازم بالنسبة للصحارى الممتدة بين النيل والبحر الأحمر فيما بين القصير ورانيس القديمة، وبالنظر إلى حذقهم فى الصيد والقنص ترى أنهم من أنفع العربان الباحثين فى الشئون الطبيعية .

١٧- سرقات العربان وقطعهم الطريق

إن العربان كقطعة النقد التى إذا سرك منها منظر أحد وجهيها ساءك منظر الوجه الآخر. لأن محامد الخلا ل ومحاسن الخصال لاتوجد، عند جميع القبائل على السواء، خالية من الشوب. وربما لم يكن ما وصفتهم به من كريم الشيم متوافرا فيها جميعا . فإن منها قبائل لاتستطيع مقاومة ميلها الفطرى إلى النهب والسلب . فكان اعتيادها قطع الطريق على السابلة واعتقادها أن الحكومة لن تنزل بها العقاب على سوء فعلها، ومن بواعث خوف المسافرين على حياتهم. ومع ما تقدم فليس من العدل تعليل تلك النزعة فى العربان إلى ارتكاب الشرور ورداءة الطبائع وفساد النفس، فإن أهل البادية والمعتصمين بأوعار الجبال من شعوب العربان وقبائلها يرون أنهم فى حرب لا يخمد ضرامها مع أهل الحضر، فهم يبيحون لأنفسهم كل ما يبيح العدو لنفسه مع عدوه من ضروب التعدى والسلب والنهب. وكان هذا على الدوام شأنهم معهم. إذ يرون أن ما يسلبونهم إياه إنما هو من الغنائم الشرعية والفيوء التى لم يحرمها الله فى كتابه.

وغنى عن البيان أن العربان أزعجوا طويلا جيش الحملة الفرنسية بمصر بما تراءى للجنرال بونابرته معه أن يشكل لقتالهم وكبح جماحهم فرقة من الهجانة .كان كل هجين فيها يحمل رجلين. ومما ذكره نابليون فى مذكراته عن ذلك ما يأتى: «إذا كان موقع مصر الغريب، وهى البلد الذى يستمد ثروته من اتساع نطاق الفيضان يقتضى حسن الإدارة لانتظام شئونها واستقامة أحوالها، فإن ضرورة كبح جماح عشرين ألفا إلى ثلاثين ألفا من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء حيث لا تنالهم ضربات العدل تدعو إلى أن تكون تلك الإدارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة بحيث توقع رهبتها فى أفئدة أولئك الأشرار فلا يعيثون فسادا فى تلك الأقطار».

ولقد بلغـت بهم الجرأة ، فى العهد الأخير، إلى التعـدى على قرى الفـلاحين بدون أن يطاردهم أحد أو ينكل بهم، عقابا لهم على سوء فعلهم. ولكن ما كاد الفـرنسيون يحتلـون القطـر المصرى حتـى كسروا شكيمتهم وقبضـوا على ناصيته، فلم يتمادوا فى باطلهم.

ولقد حذا محمد على حذوهم فى معاملته لهم. فردهم، بإدارته الحازمة، عن بغيهم وألزمهم الوقوف عند أفقهم.

١٣- مكافحة محمد على لهم

فى الوقت الذى تسلم محمد على فيه زمـام مصر، كان العربان قد بلغوا من الجبروت وشدة البأس النهاية. فقد كانوا يفرضون الأتاوات على سكان مصر ويضربون الفدية لايزعهم عن ذلك وازع. بـل كان لايصدهم أحد عن الزحف على مدينـة القاهرة ودخـولها دخول الفاتـح لسبى النساء وخطـف الأطفال ونهب الأموال. وكان لا يجرؤ أحـد على زيارة الأهرام بغير رضائهـم وأمرهم. وكانـت القوافل التى تجتـاز برزخ السويس تـدفع لهم الفرض الفادحـة من المال.

فلما وقـف محمد على على حقيقـة هذه الحال، قـرر أن يمد رواق سلطتـه المطلقة على الصحارى كما نشر لواءها على الأرياف، مقتديا فى ذلك (بسكست كنت) الذى يـؤثر عنه قولـه: « من أجل الأمور أن يستطيـع الناس فى مملكتى حمل أموالهم فى أيديهم وترك أبوابهم مفتوحة على أعقابها طول الليل بدون أن يتعرض لهم أحـد بأذى أو يسطـو عليهم فى مأمنهـم». ولعل الـوالى - حينما تسلم زمام الأمر - جرى فى خاطره ما ينطبق على قول ذلك الملك، فهم بالعمل على تحقيقه. إذ سلك مع العربان مسلك المهـادن المسالم، فعقد الاتفاقيات مع قبائلهم. ولكنهم لم يلبثوا أن هتكوا ستـارها ونقضوا عهودهم غير مبالين ولا هيابين. وأيقن محمد على لهذا السبب أن لا مناص له من الاعتماد على القوة فى قمعهم وتـأديبهم فعـول على قتالهم، وسير لمطـاردتهم فرقـا من الفـرسان المتحـركة انطلقـت تنـاوشهـم وتأخـذ الآفـاق عليهـم وتسد السبـل، حتـى اضطرتهم إلى التماس الصلـح واستمناح العفـو. ومنذ هذا الـوقت ثـابوا إلى الطاعة لـوالى مصر وأقسموا بالولاء له. ولقد اشترط فى عقـد الصلح معهم أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة ليكونوا رهنا عنده على طاعتهم

وضمانا لوفائهم بعهودهم، ولتقع على عواهنهم تبعة ما يرتكبه رجالهم من الجرائم ضد النظام والأمن. وزاد على ذلك أن أجرى عليهم الأرزاق والمرتبات لمعاشهم.

وفى رأيى أن هذه الطريقة التى ابتكرها محمد على فى معاملة العربان ينبغى تطبيق مثلها على قبائل العربان فى بلاد الجزائر الملحقة بأملاكنا، فإنها خير وسيلة لكبح جماع أمة .

١٤- تنظيم جيوش فرسان العرب بهيئة جيوش غير نظامية

وبعد مضى زمن من تقرير أحوال العربان على النمط المتقدم، عرض محمد على عليهم تشكيل جيوش منهم للعمل فى جيشه، واقترح أن يدفع لهم الأجور فى مقابل خدمتهم، على شرط أن يأتى كل منهم بفرسه وبندقيته. ولقد أفادت هذه الفرق المساعدة محمد على فوائد جليلة، إذ اشتركت فى حروبه بالسودان وسنار وجزيرة العرب وبلاد الشام كافة. وكانت منزلتهم من الجيش ـ من الوجهة العسكرية ـ كمنزلة غير المنتظمين فى بعض الجيوش الأوربية. وكان عليهم القيام بمهمة الاستطلاع أثناء زحف الجيوش ومطاردة العدو أثناء الهزيمة أو مناوشته ومعاكسته أثناء انسحابه. وهم من أصلح ما يكون لأداء هذه المهمات الحربية.

ولا يزال عالقا بالأذهان أن العربان هم الذين أسروا السر عسكر رشيد باشا قائد قواد الجيش العثمانى فى معركة قونيا خلال الحملة الأولى على بلاد الشام.

١٥- فضائل العرب الرحل

مما لا ريب فيه أن محمد على توخى مع العربان أصوب خطط السياسة وأحكمها، وجاء من ذلك بما لا يستطيع غيره أن يجىء به لاتقاء شرهم، ولقد عقد على بك وهو أحد امراء المماليك الذى استقل زمنا ما بالقطر المصرى فى النصف الأخير من القرن الماضى، النية على إبادة العربان جميعا للتخلص من شرهم، وشرع فعلا فى تنفيذها، إذ نكل ببعض القبائل وقضى عليها، واضطر غيرها إلى التراجع فى الصحراء فرارا من المجزرة. وكان هذا العمل منافيا بلا ريب لمقتضى الحكمة السياسية ومضادا لطبيعة الإنسانية، فلا ـ

غرو إذا عاد بالوبال والشر على المماليك أنفسهم. وإذا قلنا إنه ما كان لعلى بك أن يعامل تلك القبائل بمثل ما عاملها به من القسوة والقهر، فما ذلك إلا لما هو ثابت ومستقر فى الأخلاد = النفوس = من فـائدة وجودهم. فإنه إذا صح لنا أن نقـول إن الجمال سفن الصحـرا، فمـن الحق والعـدل أن نقول أيضـا أن العربان ربانــو هذه السفن وقادتها فى ذلك الاوقيانــوس الأرضى الذى لا أفق له. فالعربان هم الذين يسهـل عليهم دون غيرهم اجتياز تلك الفلوات الرملية المترامية الأطـراف إلى أقصى مـدى والخالية من السكـان والكائنـات الحية، وأنهم هم الذين يقدرون دون غيرهم أن يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البـلاد التـى على حافـاتها. فـالاحتفـاظ بهم، وذلـك مبلـغ أثرهـم فى إفـادة الإنسانية، يعود عليهـا بأجل المزايا. وإذا كان هناك مــا يدعو إلى اتخاذ شىء مـن الوسـائل لقمع شرورهـم وصـد طغيانهم فـلا يجوز أن يتعدى حـدود التهذيـب والتأدب، لتتم الاستفادة بـا لمزايا المتوافرة فيهـم والتى لايجاريهم فيها مجار غيرهـم. ذاك ما كـان ينبغى أن يعـامل بـه العربـان لدفـع شرهم والانتفاع بمزاياهم وهو ما قام به محمد على على خير ما كان يريده ويتمناه.

(٢)

الحكومــة فى مصــر

أتراك مصر- صفـاتهم النفسية- ازدهاؤهـم بأنفسهم وكبريـاؤهم- شعـور الأتــراك نحـو الأوروبيين- الإسـلامبـوليـة- أتــراك أوربـا والألبانيون والعثمانيون- الأتراك الآسيويون والمماليك.

١٦- أتــراك مــصر

العثمانلية أجانب عن مصر. وهم يفـدون عليها من أنحاء المملكة العثمانية كافة، يجذبهم إليها فى الغالب اشتهار محمد على بمكارم الأخلاق بين مسلمى الأرض قاطبة. ويـرى الأتراك أنفسهم أنهم يؤلفون فى مصر طبقـة ممتازة ـ أى طبقة الظـافرين الفـاتحين. وازدهاؤهم شـديد بـالفارق الذى يتخيلـونه فاصلا بينهم والعناصر العربية. لذلك تراهم لا يرتبطون مع المصريين بصلة مبنية على قاعدة المساواة، ولا يلتحمون معهـم بلحمة المصاهرة، إلا فى النادر

الذى لا حكم له. والذين يشغلون منهم المراتب الصغيرة والدرجات الواطئة هم الذين يتحرون مصاهرة المصريين، وإنما يشترطون فيها أن تكون مع الأسر الوطنية الممتازة بمركزها فى الهيئة الاجتماعية والمعروفة بسعة الثروة والجاه، وفى المدن دون الأرياف.

ثم إن العثمانلية يترفعون عن تعلم اللغة العربية، إذ يعتبرونها لغة الأمة المغلوبة على أمرها، ويرون أنهم من سمو المكانة بحيث لا يليق بهم علمها، ناسين أو متناسين أن بها شيدت آثار جليلة فى الآداب اللغوية ستظل باقية أبد الدهر، وأنهم قد استعاروا منها ثلث كلمات لغتهم التى يتحدثون ويتفاهمون بها، وأن اللغة العربية هى التى تنزل بها القرآن وهو كتاب المسلمين وفيهم الأتراك. وإذا كان الأتراك لا يظهرون نحو المصريين الميل والعطف، فإن هؤلاء يعاملونهم بمثل معاملتهم، إذ من النادر أن نجد بينهم من يعرف كلمة واحدة من اللغة التركية.

١٧- صفاتهم النفسية

من الحقائق المقررة أن للعثمانيين أخلاقا وعادات وطباعا مغايرة كل المغايرة لما يقابلها عن المصريين. أما صفاتهم النفسية فعين الصفات التى توصف بها الطبقات الشريفة الراقية. فمن صفات العثمانى الحزم والثبات والصلابة والمثابرة والتحفظ وبعد النظر فى المستقبل. وطالما لاتعترضه الوساوس الناشئة عن التنطع فى الدين، فإنه يمتاز بسلامة القلب وسلاسة الخلق، وبالشهامة والمروءة فى صلاته الاجتماعية. والناظر إليه يخيل له أن آدابه السامية غريزة فيه. وهو شديد الشعور بكرامة الذات، ومع أنه لايفوق المصرى فى حدة ذكائه وصفاء ذهنه، فإنه يسمو عليه فى العلم بأساليب التسلط والحكم والإدارة.

١٨- ازدهاؤهم بأنفسهم وصلفهم

هذه الصفة من صفاتهم النفسية منبثة فيهم انبثاثا يكاد يكون نقيصة ورذيلة. فإن الأتراك متكبرون إلى أقصى حد. ومن مظاهر كبريائهم أنهم لا يترددون فى أمر ما، ولايتراجعون عن إنجاز ما يعن لهم من عمل، ويعتقدون فى أنفسهم القدرة على القيام بجميع الأعمال على حد سواء. وهذا الصلف البالغ مداه فيهم إلى الحد الأقصى، كان من أقوى أسباب سقوط الدولة

التركية، لأننـا طالما رأينا الـوصوليين الذيـن لا يعرف لهم أصل ولا فـرع قد ترقـوا فى هذه الـدولة ، وبلغـوا من مـراتبها إلى الـدرجة العليـا لمجرد عطـف السلطان عليهـم. وبما أظهروه مـن دلائل العجز فى المنـاصب الخطيرة التـى أسندت إليهـم، لقد أورد هـؤلاء الوصوليـون الحكومـة العثمانية شر الموارد وأوقفوها على شفا جرف هار من هاوية الهلاك.

يكون أحدهم بالأمس خادما لخادم، فـإذا هو اليوم قائد لجيش عرم، وما هى إلا لفتة من لفتات المولى المعظم، فى ساعة من ساعات رضـائه، حتى يصير فى الغد أميرا لبحر أو فى منصـب قبطان باشا. فمجرد هـوى السلطان ومطلق إرادته يعفيانه مـن شهادة الفضل تليدا أو طارفا، أو من تـركية العلم معقولا كان أو منقولا. أو من الفوق على الأقران بـالاخصاء = بالتخصص = فى فرع من فـروع المعلومـات البشرية، وبالجملـة فتلك الإرادة. إذا انصرفـت إليه أو رمقته بعين عنايتها، كـانت بمثابة الشهادة له بالكفـاءة التى لا تبارى فى علم كل شىء. ومن مدهشات الأمور أن يتجرد المحسوب الذى يؤاتيه الحظ بمثل هذه السعادة الفجائية، من مزية الاعتراف بعدم كفاءته. فإنه سواء أكان قائد الجيـش أم أمير الأسطـول، يعتقد أنـه القـابـض دومـا على ناصيـة الفـوز والمتصرف فى أطوار الانتصار.

وإذا كان إدراك الأتراك وفطنتهم قد بلغ الفساد منهما هذا المبلغ. فمن أين لهم أن يتمالكوا أنفسهم عن التدفع والتدهور مع دولتهم على المنحدر السريع الذى زلت فيه أقدامهم، نحو مهواة الفناء والهلاك؟

ومما لابد لنا من الاعتراف به فى هذا المقام ـ بالرغم مما أوردناه من عيوب الأتراك ونقائصهـم ـ أنهم أقل من العـرب طمعا فى عرض الدنيـا وحرصا على حطامها الفانى، لذا يمكننا القول بأنهم كرماء، وأنهم يذهبون فى الكرم إلى حد الإسراف، وأنهم مولعون بالسعة فى النفقـة والأخذ بمذاهب الترف والنعيم فى الحياة.

بدهـى أن هذا الميـل الطبيعى يسـوق أصحاب المنـاصب فى الحكـومة إلى ارتكاب الرشوة، ليستطيعـوا قضاء مطالب النفس من وسـائل البذخ والعيش فى ظل الهناء والسعادة.

ولقد قلت إن كرامة النفس غريزة فيهم، وأقول الآن إن من أخص صفاتهم وأوجبها للعجب، ما يجدونه من السهولة كلما أرادوا اتخاذ الأصوات أو الاوضاع التى تلقى فى يقين السامع أو الناظر معنى العظمة والأبهة والجلال. وهم من الثقة بنفوسهم والاعتداد بذاتيتهم بحيث إذا فاجأهم الحظ بمال أو منصب، لا تعتريهم دهشة ولا يأخذهم من ذلك ما يحمل الناظر على الحكم بأنهم دونها. ثم هم ينتقلون بالسهولة التامة من صوت الجبروت وأوضاع العظمة والعزة، إلى الطرائق التى يلجئهم إلى اتباعها حب التزلف إلى الذين يسمون عليهم فى المراتب ورفعة الشأن. وكثيرا ما يفضى فجأة هذا التنقل إلى التناقض، فبينما ترى كبار الضباط يتظاهرون أمام الوزير بالطاعة والانقياد ويؤدون إلى مقامه إشارات الاحترام المقرونة بمظاهر الانصياع، إذا بهم متى برحوا ديوان هذا الوزير وغشوا مجلسا أو مكانا اجتمع فيه أناس أحط منهم درجة فى سلم الاجتماع، قد رفعوا عقيرتهم، وقوموا من منحنى صالبهم، وأكسبوا سحنتهم وحركاتهم وأوضاع أجسامهم سمات العزة وإباء الضيم. ومن ثم ترى ذلك الرقيق الذى رأيناه مرذولا وقد صار فى لحظة واحدة مولى عظيما يتوخى فى حركاته وإشاراته الصفات الارستقراطية المبنية على النهى والأمر.

١٩- شعور الأتراك نحو الأوربيين

للعثمانليين فى حكمهم على الأوربيين أفكار مستغربة ومذاهب لامثيل لها. فهم يعتقدون أننا إذا أشهرنا الحرب عليهم فإنما نشهرها على ديانتهم، وأن الغرض الذى نرمى إليه هو إزالة معالمها من عالم الوجود. وأننا إذا كنا لا نستولى على بلادهم فما هو إلا لضعف جانبنا وخور عزيمتنا. وطالما عانيت الكثير من المشاق فى تفهيم بعضهم ما نحن عليه من التسامح الدينى، وأن تفاوت وجهات النظر فى السياسة كان السياج الوحيد الذى وقى كيان الدولة العثمانية من خطر الزوال حتى الآن. وقليل من يستطيع منهم تكوين فكرة واضحة عن مركز تركيا حيال أوربا، كأنهم لا يذكرون شيئا من فشل الدولة العثمانية المتكرر فى العهد الاخير أثناء حروبها مع روسيا. وأعرف من بينهم فريقا لايتزعزع يقينه فى أن أوربا تدفع الجزية، وهى صاغرة، إلى السلطان المعظم.

نعم إن الأتراك يضطرون ـ فى مسائل كثيرة ـ إلى الاعتراف بتفوق الأوربيين عليهم، ولكنهم لا يكفون عن النظر إلى هؤلاء بعين العطف المزوج بالاحتقار. وغنى عن البيان أنه ما دامت عقيدتهم الدينية متأصلة فى نفوسهم، فلن نكون فى نظرهم إلا كفارا مشركين، ونذكر بهذه المناسبة أسلوبهم فى استقبال الأوربى من ذوى المكانة والنفوذ، فإنه مما يؤيد الرأى الذى أسلفناه. وبيان ذلك أنهم، مع استقبالهم إياه بشىء من مظاهر الأدب والاحترام التى كثيرا ماينخدع بها الجاهلون بحقيقة العادات المرعية فى المراسم الشرقية، لا يقومون إجلالا له عند دخوله بهو الاستقبال. وغاية الأمر أنهم يتحركون، وهم فى مكانهم، حركة خفيفة. فإذا كانوا ممن يحبون أن لايتهمهم أحد فى أدبهم فلا يكون هذا عادة إلا إذا علموا أن زائرهم الأوربى من أفاضل الرجال وأعاظمهم الجديرين بالاحتفاء والاجلال، إذ يكلفون خدمهم عندئذ بإنبائهم بوصول هذا الذات. فإذا ما وافاهم النبأ على لسانهم قاموا واقفين قبل دخوله حتى لايظهر له أن قيامهم كان من أجله. وإن ننس لاننسى أخبار الخلاف الذى سار ثائره فى هذه المسألة بين سفراء الدول والباب العالى، فقد كانت العادة أن يحتاط الصدر الأعظم لمقابلاتهم بأن يدخل معهم بهو الاستقبال فى آن واحد، حتى لا يتكلف القيام خصيصا لهم إذا دخلوا عليه وهو فيه.

وفى ظروف كثيرة قامت الأدلة على هذا الصلف المستمد من التمسك الدينى. وآخر دليل منها ما حدث، منذ زمن قريب فى الديار المصرية،من رفض أحد الضباط، وهو برتبة أمير لاى، المرور على مشهد من الدوق (دى راجوز) الذى دعاه سمو الولى إلى مشاهدة عرض جزء من الجيش أمامه.

أما سمو محمد على، فقد ربأ بنفسه عن الانغماس فى هذه الأوهام الفاسدة، وسما فوق خرافات العوام والمتعصبين، إذ أقام الدليل القاطع على رجاحة عقله وحسن تسامحه وجم أدبه. فإنه يتلقى الأجانب دوما بما جبل عليه من الأنس والرقة وحسن التعهد، ولا يكف أبدا عن ضرب الامثال لضباطه وحضهم على الأقتداء به فى حسن معاملتهم إياهم وسلوكهم معهم بما يقتضيه الأدب وواجب المجاملة. ولطالما تعرض بسبب ذلك للتهم التى رماه بها أفراد رعيته يتهمونه فيها بقلة الإيمان، فكان يغتنم هذه الفر ض

ليشرح لهم تفوق الأوروبيين على الوطنيين فى العلوم والمعارف، ويتخذ الوسائل لحمل هؤلاء على احترامهم وإجلالهم. وفى وسعى أن أذكر فى هذا المقام طائفة من الحكايات الغريبة فى هذا الموضوع، ولكننى أجتزئ منها بحكاية واحدة تكفى لإثبات ما ذكرته الآن.

جاء بعض ذوى الحيثيات من الأجانب يوما، لزيارة الوالى فتلقاهم سموه فى الديوان. وما استقر بهم المقام، حتى أمر محمد على بإحضار القهوة. فما هى إلا برهة حتى تقدم الأعوان المكلفون بها لتوزيعها عليهم، فكانوا يقدمونها بأيديهم اليسرى. ولم يلتفت الزائرون إلى هذا الأمر ولا فطنوا لسبب الباعث عليه، جهلا منهم بتفاصيل الآداب المرعية فى الشرق. والذين فطنوا منهم للأمر، لم يذهب سوء الظن بهم إلى الحكم بما فى تقديم القهوة على هذا الوجه من سوء الأدب وقلة الاكتراث بالضيوف. إذ لا يخفى أن المسلمين يرون فى اليد اليسرى أنهاخلقت لدنس، فهم لا يستعملونها إلا فى الأعمال التى يصح وصفها بهذا الوصف. وما كاد الزائرون ينصرفون من حضرة الوالى الذى لم تفته ملاحظة ما أتاه خدمه من سوء الأدب فى حق زائريه، حتى استدعاهم اليه. وبعد أن بالغ فى تأنيبهم أمرهم بلبس الثياب البيضاء والسفر فورا إلى مكة ليكونوا ضمن خدم الكعبة. ثم قال لهم: «إذ بلغ بكم التعصب الذميم إلى حد تعمد سوء الأدب مع أناس يشرفنى لقاؤهم والاجتماع بهم، فأولى لكم أن تقطنوا المدينة التى لا يوجد بها أوروبى واحد تسوءكم رؤيته والتى لاتستطيعون أن تعرضونى فيها إلى الخجل من قبح فعالكم وسوء أخلاقكم».

٢٠- الإسلامبولية وأتراك أوربا والأرنؤود والعثمانيون والآسيويون والمماليك

إن الخلال التى استدلت عليها بالحادثة السابقة غير شائعة بدرجة واحدة بين العثمانلية. بل إن هناك فوراق تترتب على اختلاف أنحاء السلطنة العثمانية التى تواردوا منها على مصر.

فالإسلامبولية جبلوا على البشاشة واللطف، وربما بالغوا فيهما إلى حد التصنع. وكثيرا ما يقولون عن غيرهم من الأتراك إنهم ريفيون وإنهم لا يجاورونهم فى سمو الأدب ورقة الأخلاق وسلامة الذوق وغيرها من الصفات

التى يمتاز بها أهـل العواصم والحواضر على أهل الأريـاف والبوادى. ومنهم من يميلون إلى الازدهـاء بأنفسهم ويتطوحون فى الغـرور إلى حد يجر عليهم السخريـة والاستهزاء. أمـا أتراك أوربـا واليونـان ومقدونيـا. فلاعتيـادهم مخالطة الأوربيين فقدوا بعض سماتهم الأصلية المميزة لهم على غيرهم، حتى أن منهـم مـن يجهلون اللغـة التركيـة ولايتكلمـون إلا بلغـة الوسـط الـذى يعيشون فيه.

وإذا نظـرنا إلى الأرنـؤود من هـذا الوجـه فلا نلبـث أن نرى أنهم جنـس مستقـل بذات،ه وذريـة لا تمت إلى الأتراك بحبـل القرابـة. وهم مشهـورون بالبسالة والولع بالقتال، وهـذا هو سبب إقبالهم على التطوع فى خدمة الولاة، وإذا انتظموا فى سلـك الجيش تفـوقوا على غيرهـم فى الصفات المطلـوبة مـن الجندى. وإنما عيبهم الوحيد العناد والنزوع إلى الثورة والشغب، ولهم حرص شديـد على المال وغرام بجمعه إلى حـد يمكن القـول معه بأن جميـع حوادث الاضطـراب تـرجع غـالبـا إلى النـزاع على المال. وسواد = معظـم = الأتـراك الموجودين بمصر مـن أصل أرنؤودى أو أوربى. أما الأتراك الأسيـويون فقد احتفظوا بالصفات المميزة لجنسهم إذ لم يطرأ عليهم تغير كالذى ذكرناه.

أمـا المماليك فيحتفظـون بأصـولهم بدليـل ما يبـدو عليهم مـن سماتها الخاصة بها. وهذا بالرغم من تطبعهم بالعادات والأخلاق التى يقتضيها نوع التربية المعطـاة لهم. ومع أن الكثيرين منهـم مسيحيو الأصـل، وإنما اعتنقوا الإسلام فى نعومة أظفـارهم، فإن التعصب الدينى تأصـل فى نفوسهم إلى حد جعلهم من ألد خصوم الديانة المسيحيـة. وهم، بوجه عام، لا يمتازون بشىء من الذكـاء والعقل. وكل ما يميـزهم عن غيرهم، ويعتبر الصفـة الخاصة بهم والفطرة التى فطروا عليها دون غيرهم، العناد. وأعرف منهم فريقا لا أشك فى سمو مكانتهم مـن العقل ونباهة الذكر. وفى تاريخ الـدور الخطير الذى قاموا بتمثيلة على مسرح الديـار المصرية إلى أوائل هذا القرن أمثلـة لا عداد لها على خيانتهم وغدرهـم، فالأمانة لم تكن إذن من الفضائل الشـائعة بينهم. وليس هذا مما يستغرب إذا نظرنا إلى أصـل نشأنهم، وعلمنا أنهم فى طفولتهم الأولى حرموا لذة الحب العائلى ولم يتذوقوا لها طعما، وانتقلوا بغتة من بيئاتهم التى نشأوا فيها إلى وسط اجتماعـى لا تلحمهم بآله لحمة قرابـة ولا يعطف عليهم

إحساس الشفقة الوالدية. فهذا الحرمان محا من أفئدتهم العواطف الطاهرة والخلال الكريمة والصفات التى يحول دون انبثاثها فيهم شبوبهم، منذ المهد، فى ضيق اليتم وذل الاغتراب.

ولم أستطع، فى هذه النبذة الموجزة، أن أقدم من طباع العثمانليين إلا البارز المشهود. وليس هو فى الحقيقة مما يجوز فيه الإطلاق، فإن بينهم كثيرين اكتسبوا بتأثير التربية القويمة والعلم الصحيح، منذ جلس محمد على على أريكة ولاية مصر، من الآداب العالية ما جعلهم أهلا للإجلال والتوقير، نخص منهم بالذكر جميع أفراد الأسرة المحمدية العلوية وأكابر رجال معيتها.

(٣)
الأقباط

نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها فى حالة الأقباط- طباع الأقباط وأخلاقهم - عقيدتهم الدينية- كنائسهم- حجهم إلى بيت المقدس - اكليروسهم- الزواج وتشييع الجنازات- صناعات الأقباط وحرفهم.

٢١- نتائج فتح المسلمين لمصروتأثيرها فى حالة الأقباط

الاقباط أقدم سكان القطر المصرى، والاختلاف طفيف بينهم والعرب الذين يعيشون، منذ الفتح الإسلامى، مختلطين بهم. وأغلب هؤلاء العرب سلالة المصريين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، على تعاقب الأجيال. ولقد تأثرت طباع الأقباط بما ظلوا يعانونه من الاضطهاد والظلم مدة اثنى عشر قرنا. وغنى عن البيان أنهم، حينما نادوا بالمسلمين لاستنقاذهم من ربقة الحكم اليونانى والتنكيل بدولة الروم لما بينهما والمصريين من الاختلافات الدينية.

٢٣- طباعهم وأخلاقهم

طباع الاقباط وأخلاقهم ليست مما يستهوى الأوربيين إلى محبتهم والعطف عليهم. فإنك تراهم فى وجوم دائم واكتئاب ملازم، كأن الحزن لا ينفك عنهم. وسبب ظهورهم فى هذا المظهر الشدة المرعية فى تربيتهم والطرائق والأساليب المتبعة فى قيامهم بفروض دينهم.

والأقباط يمتازون بأهلية خاصة للقيام بأعمال الحساب على أنواعها ومسك الدفاتر. وهذا هو السبب الذى جعل المماليك ـ وهم أولئك الفرسان الشجعان الذين لا يقدرون من العلوم والفنون إلا ما تعلق منها بالحرب وحمل السلاح ـ يتخذون من الأقباط القومة على إدارة شئونهم المالية، خصوصا وأنهم من أصحاب الدراية ببعض المعلومات.

وقد نجم عن تولى الأقباط بعض المناصب الإدارية، لما اضطرت الحاجة المماليك إلى التنازل لهم عنها، أن توافرت لديهم الوسائل للأخذ بالثأر من جراء ما لحق بهم من المظالم والاضطهادات. فإنه لما عهدت إليهم مساحة الأرض وإدارة الأموال رأوا من استنامة الرؤساء إليهم واعتماد أرباب الأموال عليهم خير فرصة لاعتبارهم أنفسهم أصحاب مصر الشرعيين وسادتها الحقيقيين، ونظرهم الى المسلمين بوصف كونهم الفاتحين الغاصبين. فكأنى بأولئك المسيحيين قد نسوا كلمة اليسوع: «رد إلى قيصر ما لقيصر».

٢٣- ملابسهم

يلبس الأقباط مثل ما يلبسه المسلمون من الثياب. وإنما يفضلون منها ما كان قاتم الون. وإذا كانوا من سكان المدن، آثروا من الثياب ما يكون أسود اللون أو أزرقه أو رماديه، ذريعة إلى التميز بينهم والمسلمين. وجعلوا عمائمهم بأحد هذه الألوان. أما نساؤهم فيتنقبن حتى لا يرى شىء من وجوههن سواء خارج منازلهم أو داخلها، وفى حضرة أقرب الناس إليهن.

٢٤- إيمانهم الدينى

الأقباط شديدو التمسك بعقيدتهم، ولهم فى أداء فروضها أساليب فى الغاية القصوى من الشدة والصرامة. فمن ذلك أنهم يقومون بالصيام مراعين فى أداء فرضه منتهى الصلابة والدقة والصوم عندهم صومان يسبق أحدهما عيد الفصح بأسبوع، ويسمى صوم (يونان) ومدته ثلاثة أيام وصيامه تذكار لصوم نينوى الذى سببه نبوءة النبى يونس. وأكثر الأقباط تشددا فى رعاية هذا الصوم يمسكون عن كل طعام مدة الثلاثة الأيام ولياليها. أما الثانى فيسمى عندهم بالصوم الكبير، وكان فى الزمن السابق، لا تزيد مدته على أربعين يوما. ولكن أقطاب الدين زادوا فيه زيادات متوالية

حتى أبلغوه إلى خمسة وخمسين يوما. وهم فى هذه المدة يمسكون عن تعاطى الاطعمة الحيوانية الأصل ومنها اللبن والبيض والزبدة والجبن، ويقتصرون فى القوت على النباتات والبقول. ويحتفلون بـ « قبل المجىء» أى مدة التجهز لعيد الميلاد والأربعة الآحاد السابقة عليه. وهناك صوم آخر يدعونه صوم الرسل، وهو يشمل المدة بين عيد الصعود والخامس من شهر أبيب. ويقومون أيضا بالصوم الذى قام به الرسل بعد موت المسيح.

وهناك صوم غير ما تقدم يسمونه صوم العذراء، ويقع فى الثلاثة أيام السابقة على عيد صعود العذراء، وصوم يومى الجمعة والسبت من كل أسبوع وما يقع من هذين اليومين فى غضون الخمسين يوما الفاصلة بين عيد الفصح والعيد الخاص بحلول روح القدس على التلاميذ. أما الأعياد الكثيرة التى يقيمونها بهذه المناسبات فأضرب عن ذكرها صفحا دفعا للتطويل.

٢٥- كنائسهم

سبق لنا القول بأن للأقباط عددا عظيما من الكنائس والأديرة. ولنذكر الآن أن الكنائس عندهم تنقسم عادة إلى أربعة أقسام أو خمسة: القسم الأعلى أو الفوقى والهيكل ويحتوى المذبح، وهذا القسم ينفصل عن بقية الكنيسة بحاجز يتوسطه باب ينسدل عليه ستار رسم فوقه طايب كبير، والقسم الذى يلى هذا الحاجز خاص بالقساوسة والشمامسه والمرتلين وكبار أعضاء الطائفة. وهذا القسم أيضا يفصله عن الأقسام التالية المخصصة لعامة المصلين حاجز من الخشب. وأرض الكنيسة تفرش عادة بحصير السمار، وعلى الجدران صور غليظة تمثل القديسين، وعلى الأخص القديس الذى نسبت اليه الكنيسة. أما التماثيل فممنوعة من الكنائس القبطية.

وعادة الاقباط عند دخولهم الكنيسة أن ينزعوا الأحذية كالمسلمين إذا غشوا مساجدهم، حتى لا تتلوث الأرض بلوثها.

٢٦- الحج إلى بيت المقدس

من جوامع الشبه بين الأقباط ومواطنيهم المسلمين، اهتمامهم بالحج إلى بيت المقدس. والمسيحيون الوطنيون من أهل الممالك العثمانية يقتدون بالمسلمين فى الطموح إلى التحلى بلقب (الحاج) فتراهم يتهافتون على زيارة

الأماكـن المقدســة، ويرون فى هذه الـزيارة فضـلا كثيرا ومـزية عظمـى. وهم يؤلفـون القوافـل العديـدة لهذا الغرض، ويسيرون بحيـث يدركـون المدينة المقدسة فى أسبوع الصلبوت « الآلام» وأعياد الفصـح. وعقب الأسبوع المقدس بثلاثة أيام يقصدون نهر الأردن للاستحمام بمياهه.

٢٧- الإكليروس القبطـى

يقـوم بـالخدمـة الـدينية فى الكنـائس القبطيـة الـرهبـان والشمامســة الإنجيليون والكهنة ورؤساء الكهنة والأساقفـة الذين يخضعون لسلطة أحد البطـارقـة. ولا يجوز عند الأقبـاط أن يترشـح أحـدهـم للانتظـام فى سلـك الاكليروس إلا إذا كان متزوجا. فإذا وافته المنية وهو قائم بوظيفته الكهنوتية. فالواجب أن تقضى أرملته بقية حياتها فى العزوبة. وكذا الحال بالنسبة له إذا توفيـت زوجته، فـإنه لا يجوز لـه أن يتزوج مـرة أخرى. ويشترط فى قبـوله بالإكليروس أن يكون خاليا من العيوب الجثمانية، وأن لا يقل عمره عن ثلاثة وثلاثين عاما. وعليه أن يعيش مـن ثمار الحرفة التى يحترفها. ويتلقى الصفة الكهنوتية المقدسة إما من يد البطريق وإما من يد أحد الأساقفة.

أما الـرهبان فتحتم عليهم العـزوبـ،ة ويتتلمذون قبل قبـولهم ليمعنوا فى الصبر والتقوى، وذلك بأن يرسلوا إلى أحـد الأديرة الواقعة فى وسط الصحراء ويستخدموا فى الأعمال الحقيرة المزرية. فإذا ظلوا بعـد هذه التجربة مصرين على عزيمتهم، قبـل اندراجهم فى سلك الكهنوت، وتقرأ عليهـم صلوات الموتى فى حفلة تكـريمهم لتمثيل مـوت الإنسـان وفنائه فى الحيـاة الدنيا. والـرهبان كثيرو العدد جدا، ويعيشـون عيشة أساسها الزهد والتقشـف، فلا يحملون من الثيـاب إلا الصوف، ويميـزون عن غيرهـم بشريط مـن الصوف الأزرق سابل حول القلنسوة.

ولـلاقباط فى القطـر المصرى إثنـى عشر أسقفـا ينتخبون عـادة مـن بين الرهبـان أو القساوسة العـزب، ويظلون طول مـدة أسقفيتهم محافظين على الأساليب الصارمة لمعيشة الرهبان.

أما البطريـق فهو رئيس الكنيسة الجالـس على كرسى مار مـرقص الذى يقـول الأقباط إنـه تـولى تحويل المصريين مـن عقيـدتهم الأولى إلى الـديانـة المسيحيـة. ويلقبونـه ببطريـرك الإسكندريـة، وأن يكون مقيما بـالقاهـرة.

وينتخب عادة من رهبان دير مار أنطونيوس القريب من البحر الأحمر. ويجوز أن يكون تعيين البطريرك بمعرفة سلفه ولكن القاعدة المرعية بوجه عام فى اختياره، أن يكون بواسطة الاقتراع.

وطريقة ذلك أنه إذا خلا الكرسى المرقصى انتخب رئيس دير مار أنطونيوس عشرة رهبان أو إثنى عشر راهبا من المعروفين بالنسك والزهد والأهلية لحلول ذلك المركز السامى، ويكتب أسماءهم فى قطع صغيرة من الورق بعضها فى كيس بعد أن يجعلها فى شكل الأنابيب. ثم تخلط الأوراق بعضها ببعض خلطا جيدا، ويدخل أحد القساوسة يده فى الكيس ويأخذ ورقة منها، فالذى يوجد اسمه مكتوبا فيها ينصب بطريكا ويعهد إليه الكرسى البطريكى. وينبغى أن تكون عمامته أكبر من عمامة أهل ملته أجمعين، وأن يلبس من الملابس أفخرها. على أنه يبقى خاضعا لقواعد نظامية فى غاية الصرامة والشدة منها أنه لا ينام إلا إذا أوقظ مرة فى كل ربع ساعة ولبطاركة تأثير كبير فى الأمة القبطية وسلطتهم محترمة منها وهى ترجع إليهم غالبا فى حسم منازعاتها وحل مشكلاتها.

٢٨- الزواج وتشييع الجنازات

يحصر الأقباط الزواج فى دائرتهم بحيث لا يتعدى قط أفقها، فهو بينهم وأهل الديانات الأخرى محرم قطعا. ويحتفلون به على الطريقة التى يتبعها المسلمون. وعندهم أن من بواعث العار والخزى أن تكون المرأة مصابة بالعقم.

أما الجنازات فليس فيها ما يستوقف النظر وغاية الامر أنهم، كالمسلمين، يستأجرون فيها المعددات والندابات. والمرأة التى توفى زوجها تحمل الحداد عاما بخلافه إذا توفيت زوجته، فإنه يحمل حدادها نصف هذه المدة. والزوج الذى يعيش بعد وفاة زوجته لا يجوز له التزوج ثانيا خلال مدة الحداد.

٢٩- صناعات الأقباط وحرفهم

للأقباط مدارس كثيرة، ولكنها قاصرة على الأطفال. فالنساء اللاتى يعرفن القراءة والكتابة قليلات العدد جدا فى الطائفة القبطية: والدروس التى تعلم ولاد فى هذه المدارس هى مزامير داود (الزبور) والأناجيل ورسائل الرسل.

ويتكلم الأقباط باللغـة العربية وبها يتفاهمون. أما لغة أجـدادهم فلا يدرون منها شيئا، خصوصا فى الوجـه البحرى. ولا يزال الكثيرون منهم كما كانوا فى عهد المماليك يشغلون وظائف الإدارة والمساحـة وجباية الأموال. أما فى المدن فيباشرون الحرف المختلفـة، وفى القاهرة يزاولـون الصياغة والتطـرين، وفى مديريـة منوف يصنعون حصر السمار، وفى مديرية الفيـوم يستقطرون ماء الـورد، وفى أسيوط ينسجـون الكتـان. ويزاولـون فيما عـدا هذه الصنـائع مايزاوله بقية المصريين من أعمال الزراعة وما يرتبط بها.

(٤)
اليهود والأرمن واليونان والسوريون

الفقـر الظـاهـرى لليهـود- أخـــلاقهـم- بغـض المسلمين لليهـود واحتقارهـم إياهـم- يهود دمشق- الصناعـات التى يمارسهـا اليهود- الأرمن – اليونـان- السوريون.

٣٠- الفقر الظاهرى لليهود

يسكن السواد الأعظـم من يهود القطر المصرى مدينة القـاهرة. ولهم فيها حى خـاص بهم ضيق الطرقـات مظلمها قذر بلوث لـوساخات مختلفـة. وله أبواب خاصة يغلق بها فيحبس اليهـود أنفسهم فيه، كلما أرادوا ذلك، ليكونوا فى معزل عـن بقية سكـان المدينة. ومنـازلهم متلاحمة متراكمـة إلى بعضـها، رديئة التقسيم زرية الشكل. واختلاف يهود مصر عن بقية سكانها من حيث السحنة والملامـح، أقل منه فى أوروبا بينهـم والأقوام التى يسكنـونها. ومن عاداتهم لبـس الثياب الرثـة والأطمار الباليـة، وقد جبلوا على هـذه العادة إلى درجة يخيل للناظـر منها أنهم يزدهون بما هم متمرغون فيه مـن تلك الفاقة والمتربة. أما وجوههم فشاحبة اللـون، والمجمع عليه أن هذا العارض المرضى فيهم سببه الإفراط من أكل زيت السمسم المعروف بالسيرج أو الشريج.

٣١ - أخلاقهـم

تلاقـت فى يهود الشرق الأدنى الطبـاع والغرائز التـى جعلتهم فى القـرون الوسطى مبغضين فى أوربا وممقوتين من الناس طـرا. وهم مابرحوا إلى اليوم على ما فطروا عليـه من الجشع والشح، لا تراهم يجتهـدون فى ستر ما لديهم

من الثروة عن الأنظار، والغالب على اليهود الجهل مع التدين، والتشيع للدين تشيعا يزيده حدة توالى وقوع المظالم والاضطهاد من كل نوع عليهم حتى فى أيامنا هذه.

ورغم ذلك فإنهم يمتازون بالنشاط والملاينة والمداهنة ومعالجة الصناعات المختلفة. ولا يترفعون عن الوسائل أيا كانت مادامت تكفل لهم الربح، قل أو كثر. أما أخلاقهم وعاداتهم فمبنية على الشدة والصرامة، لذلك كانت بعيدة عن مظنة الدنس والشوب.

ونساء اليهود تتحجبن كالمسلمات والقبطيات تحجبا تاما. ولا سبيل إلى اتهامهن بما تتهم به المرأة التى تفرط فى عفتها مع الرجل وتساومه على شرفها.

٣٢- بغض المسلمين لليهود واحتقارهم لهم

المسلمون من أكثر أهل الديانات الأخرى بغضا واحتقارا لليهود. ويرجع ذلك إلى ما وقر فى نفوسهم من أن اليهود أكثر حقدا على الإسلام وكراهة له. فقد ورد فى القرآن (المائدة): «لتجدن أشد الناس عدواة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة لذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون».

٣٣- يهود دمشق

ولقد شملهم سمو الوالى الآن بنعمة تسامحه وكرمه، كما فعل مع أهل الديانات الأخرى. فهم يتمتعون الآن فى ظلال حكومة محمد على ، بأكثر مما يتمتع به أهل ملتهم من الحرية الصحيحة والحماية الفعلية، فى سائر أجزاء السلطنة العثمانية. ومن الدلائل البينة والبراهين الساطعة على ما لقيه اليهود من العناية والرعاية فى عهد محمد على، حادثة يهود دمشق، وهى الحادثة التعسة التى دوى رنينها فى أصقاع أوربا كافة. ولسامع هذا القول أن يعرب عن دهشته واستغرابه ويجنح إلى عدم التصديق به، ولكننى أقول لمن لا يؤمن بقولى ان مدينة دمشق تأصلت فيها جذور التعصب للدين وفشت الضراوة بمخالفيه. فلو أن تهمة كالتى وجهت إلى اليهود من أهلها بحق أو بغير حق، وجهت قبل فتح البلاد السورية بالجنود المصرية، لأفضت بلا ريب إلى إنزال

النقمة بالامة الاسرائيلية فيها وتسلط الناس عليها بالتخريب المتلف.

ولنفرض أن مدينة دمشق الآن فى قبضـة وال كأحمد باشا الجزار أو عبد الله باشا أو غيرهما ممـن لا يكترثون بحياة الرعية، فإنه مـا كان من المأمول مع طـول التروى وإمعان النظر فى القضية التـى تورط اليوم فيها جملـة من يهود الشام، الـوصول إلى حلها حـلا عادلا. أمـا الآن، وقد أحاط الـوالى هذه القضية بجميـع الضمانات الكفيلة بالعـدل وعدم التحيز، وأصبحـت إدارته الحكيمة فى بلاد الشام بعيدة عن مزالق الانتقاد، فقد أقام الدليل الساطع على أنه يعمل بمحض الميل لخير الإنسانية.

٣٤- الصناعات التي يمارسها اليهود

يعالج اليهود مـن الصناعات ما يتطلب أداؤها أكثر مـا يكون من النشاط والحركة، وتكون أرباحها محفوفة بالمصاعب والأخطار. فأغنياؤهم يسلفون النقود بالربا الفاحش، وغيرهم يزاولون بيع الأمتعة القديمة أو يتداخلون بين الباعـة والمشترين لأداء مهمـة السمسرة، أو يحترفون بالصـاغة.. الـخ. ومن اليهود فريق كبير يعـانون الفقر ولا يعيشون إلا من الصدقـات التى يتيحها لهم ذوو اليسر من أبناء دينهم.

٣٥- الأرمـن

الأرمـن قليلو العـدد فى مصر، والأسر المقيمة بها الآن هـاجـرت إليها مـع الفاتحين العثمانيين. ولسنـا بحاجـة إلى ذكر التـأثير العظيم الـذى نتج عـن مداخلة الأرمن، وهم على ما هو معروف من اقتدارهم ونفوذهم بالآستانة، فى أعمال الحكومة المأجورة لباشوات، يتسلطـون عليإدارة الأقاليم. والباحث فى أحوال بلاد الدولة العلية يخيـل له أن السلطنة العثمانية أصبحت بين الأتراك والارمن، ملكا مشاعـا استقل هؤلاء بالنصف من خيراتها. ومـن عادتهم التى درجوا عليها أن يتعقبوا العثمانيين فى تنقلاتهم مـن بلد إلى آخر فوصلوا بهذه الوسيلة إلى مصر واستوطنوها.

وليس لارمـن فى القاهـرة حى خـاص بهم. وقد درجـوا على أن ينظروا إلى الوطنيين بـالعين التى ينظـر الأتراك إليهـم بها. فهم يعـاملونهم بـالعجرفـة والصلف ويبرزون لهم فى مظاهـر الكبرياء والسمو، وبلغ من أمـرهم فى ذلك

أنهم يتحاشون مخالطتهم ويتقون لقاءهم. والغالب عليهم اليسر وسعة الحال، لأنهم يعالجون صنوف التجارة ويشتغلون باستثمار الأموال.. والعظماء الأذكياء منهم هم الصرافون، كما أن أغلبهم يتجرون بالجواهر وصنع الثياب وكراكى السمور وشغل الحديد. ويبدون الكثير من النشاط والهمة والأهلية فى أداء هذه الأعمال التى زاولوها مزاولة تعلم وتدرب منذ نعومة أظفارهم.

٣٦- اليونان

فى مصر طبقتان مختلفتان من الإغريق لم تختلطا حتى الآن ببعضهما. الطبقة الاولى منهما سلالة الإغريق الذين كانوا يسكنون القطر المصرى قبل الفتح الإسلامى، وقد احتفظ هؤلاء بشىء كثير من السمات المميزة لأصلهم. ولا يتكلمون اليونانية وإنما لغتهم العربية، ويزاولون من الصناعات النجارة والتطريز، ويتجرون بالقطاعى فى كل شىء. أما الطبقة الأخرى فتشمل اليونان الذين هاجروا إلى مصر منذ فتحها العثمانيون، وجميعهم تقريبا يشتغلون بالتجارة.

ويقطن اليونانيون فى القاهرة حيين متباعدين: الحى الأول سمى أرض الروم (لعلها حارة الروم)، والآخر الحى المعروف بالجوانية. وهناك طائفة منهم تسكن مصر العتيقة، وسوادهم الأعظم على المذهب اليونانى المبتدع. ولهم ثلاثة معاهد دينية كبرى وهى: كنيسة مار نيقولاس التى يباشر شئونها بطريرك الأروام، ودير القديسة كاترينه فى الجوانية، ودير مار جرجس فى مصر العتيقة. وهذا الدير موضع احترام الأروام وتبجيلهم وهو عبارة عن قصر حصين يتعذر الولوج فيه من مدخله، وفيه كنيسة يصعد إليها بسلم ضيق مركب فى جدار سميك جدا. وفى الكنيسة برج مرتفع يشرف الواقف بأعلاه على الأراضى الخلوية المحطية به. وقد اعتاد المسلمون والمسيحيون الذهاب بالمعتوهين والمجانين إلى هذا الدير لالتماس الشفاء لهم من القديس الذى أطلق اسمه عليه.

هذا وقد أسر عدد من الشبان اليونانيين خلال الحرب فى شبه جزيرة موره. فلما جىء بهم إلى مصر بيعوا بيع الأرقاء ثم اعتنقوا الديانة الإسلامية فتوصل بعضهم بذلك إلى أسمى المناصب فى الإدارة والجيش.

٣٧- السوريون

بدأ السوريون بالهجرة إلى مصر منذ قرن تقريبا، وكانت تدعوهم إليها الروابط العديدة التى تربط بلادهم بالقطر المصرى. ولقد عالجوا فيه التجارة فلم يلبثوا أن أحرزوا منها الثروة الواسعة، ولا يزال أعقابهم يسيرون على النهج الذى سلكه أجدادهم فآباؤهم.

والسوريون كاثوليكيون على المذهب اليونانى، وقد حاول بطاركة المذهب المبتدع استدراجهم إلى الاندماج فى طائفتهم، واتخذوا التدابير المختلفة لحملهم على ذلك. فلكى يوقوا أنفسهم عاقبة اضطهادهم تعهدوا بأن يدفعوا إليهم فى كل سنة إتاوة من المال قدرها ثلاثة آلاف قرش.

وبالقاهرة نحو ثلاثة آلاف مسيحى من أهل سوريا وخمسمائة إلى ستمائة بدمياط، ومائتان إلى ثلاثمائة بالإسكندرية ورشيد. ويحرصون على جنسهم من اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب. فبقيت عاداتهم وأخلاقهم مصونة لهذا السبب وبعيدة عن شوب الالتحام بالعناصر الغربية.

(٥)
الحالة السياسية للرعية

٣٨- يطلقون اسم «الرعية» على الأهالى الوطنيين الذين لا يدينون بالإسلام. والرعية فى تركية أوروبا شطر الأمة الأكبر، أما فى مصر فلا يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا من الأنفس. وهو ما يؤخذ منه أن حالتهم السياسية فى القطر المصرى لا تؤثر تأثيرا كبيرا فى أعمال الحكومة، حاضرة أو مستقبلة، كما هو الشأن فى بقية بلاد الدولة العثمانية.

ومما يلفت نظر الباحث ويستدعى دهشته طابع التطور الذى رسم به الأتراك كل شىء فى أنظمتهم السياسية. ولقد مضى زمن طويل قيل فيه أن الأتراك لاعمل لهم الا التنقل بخيلهم ورجلهم فى فسيح أملاكهم ولكننا رأينا، أثناء الكلام على عادات المسلمين وأخلاقهم، أن هذا القول لايزال صحيحا فى مدلوله الخاص به.

فإن العثمانيين لم يلحقوا المملكة التى أسسوها بشىء من عنصر البقاء ولقاح الحياة بل تركوا للمصادفة العمياء أو لحكم القوة والجبروت تدبير

أنظمتهم الإدارية والعسكرية، إذا صح أن نسمى بهذا الاسم النظام الفظ الغليظ الذى تخبطوا فى وضعه تخبط من به مس. فإنهم لم يدركوا قط أن الاستقرار فى البلاد المفتوحة حديثا لايستدعى احتلال أراضيها فقط، بل أيضا إفناء سكانها فى ذواتهم بما يتفرغون لتحقيقة من مزج الأديان والأنظمة والأجناس بعضها ببعض. ولقد تحول البرابرة المتوحشون الذين أغاروا على أوربا، إبان سقوط الدولة الرومانية، عن عقيدتهم الدينية ليعتنقوا عقيدة الأمم المغلوبة بهم، ويتخذوا دينها دينا لهم، وجعلوا قوانينها شريعة لهم ولغتها اللغة التى يتفاهمون بها. ومن هذا الاختلاط الذى بث فيه احتضان الزمن له روح الحياة تولد، مع حالتنا الاجتماعية الحاضرة، ما هو مشاهد من آثار التقدمات الحديثة فى الأمم الأوروبية جميعا.

أما العثمانيون فقد ساروا ـ بالنظر إلى ازدهائهم برفعة عقيدتهم وسموها على سائر العقائد ـ على عكس الخطة المتقدمة فلم يمنحوا المغلوبين ميزة ولا أتحفوهم بعطاء، بل أقصوهم عنهم وعوملوا بالقهر وسيموا بالمذلة. فلم يتوافر فى المملكة العثمانية، لهذا الباعث، اتحاد أو امتزاج ما بين عنصر القوة والنشاط الحيوى الذين يحملهما الفاتحون إلى المغلوبين كوثيقة تتضمن وعودهم للمستقبل، وعنصر المدينة الذى هو تراث الماضى مصونا بيد المغلوبين. ولم يتم فى تركيا ما تم بأوروبا فى القرون الوسطى من تلقيح الجسم ـ الذى أخذت تتلاشى حياته ـ بدم جديد كريم توافر فيه ما يحتاجه هذا الجسم الآيل إلى الفناء من عناصر القوة والتجديد. وكل ما حصل هناك تراكم العنصر المتوحش المتمرغ فى خيلاء جهله تراكما عقيما على أنقاض هيئة اجتماعية ألقاها الانحطاط فى هاوية الانقراض والفناء أجيالا متعاقبة.

قامت الدولة العثمانية على هذا الأساس فأوصدت فى وجه نفسها كل باب للتقدم والنجاح، ولم تحصل من الزمن على ضمان بالبقاء، إذ كانت مؤلفة من أمتين إحداهما واقفة حيال الأخرى ومتصلة بها اتصالا لا انقطاع له، مع تناقض مصالحهما وتعاكس أخلاقهما وتباين عاداتهما وانفراج أفكارهما وخواطرهما، وشعور كلاهما للأخرى فى نفسها بالازدراء والبغضاء.

فلم يكن يوجد فى أفق السلطنة العثمانية أمة واحدة بل أمتان لإحداهما على الأخرى التفوق فى العدد، وان لم تكن قابضة على ناصية الشوكة والحكم

فى الحال، والحقيقة التى لاريب فيها أن وحدة الأمـة شرط أساسـى لا مفر منه لشباب الدول وحياتها ولا مستقبل لها من غيره.

ومما أدهـش ذوى العقول الراجحة مـا يمكن أن يفضى إليه مـن النتائج انقسام شعوب تركيا إلى شطرين كبيرين. فقـد قال أوركارت فى كتابه (تركيا ووسائلها): «إن للـرعية من المكانة والشـوكة ما تستطيع بـه تعطيل إصلاح الدولة العثمانية وإعادتها إلى نشأتها الأولى».

وليلاحظ ما هنـاك من الفرق المشهود، من هذه الـوجهة، بين مصر وبقية أملاك الدولة العثمانية. فإن مصر لا تخشى تفشـى المنازعات الداخلية فيها، وكـل مـا تخشاه أن تـرى النصـف مـن سكـانها يستصرخـون بالأجـانـب ويدعونهم إلى قلـب النصف الآخر والتحكم فى أهله بالغلبـة والقهر. ولنفرض جدلا أن هنـاك أسبابـا لتقليل التهم التـى يوجههـا خصوم مصر إلى حـالتها الحاضرة. ولكننى أود أن يعترف هؤلاء الخصوم بأنها جـزء من أملاك الدولة العلية مخالف بالمرة لسـائر الأجزاء، بتوافر الدلائل الراجحـة فيه على حسن مستقبله، لتحقق معنى الوحدة الجنسية فيه بحذافيرها.

والرعيـة التابعـون لدولة العثمانيـة لا يساهمون مـع المسلمين فيما هو مفـروض عليهم مـن الكلف والـرسـوم، ولا فيما هو ممنـوع لهم من المزايـا والخصائص فى السيـاسة. فمن ذلـك أنهم غير مطالبين بـالتجند للدفـاع عن حوزة الوطن، غير أنهم محرومون إزاء ذلك، من مساواتهم فى الحقوق المدنية، فضلا عن أدائهم إلى الخزينـة ضرائب خاصة بهم إلخ. فالتقريـب بين الرعية والمسلمين بإزالة الفوارق القائمة بينهما ومساواة أحدهما بالآخر فى الحقوق هما الغرضـان اللذان يجب أن تـرمى إليهما، فى تـركيا، كـل سياسـة رشيدة تتمنـى مـن قلب سليـم تجديـد الـدولة العثمانيـة وإعـادتها سيرتها الأولى، والظاهر أن إلى هذه النتيجة تشرئب أعناق مستشارى السلطان، وفى طليعتهم رشيد باشا الممتاز عليهم جميعا بصراحـة الأفكار وحريتها وصدق الميول إلى ناحية الخير.

وإذا أتيح لى أن أزجى إلى سمو والى مصر رأيا. فـإنما أول ما أشير به عليه إقامة المساواة فى الحقوق المدنية بين المسلمين ورعاياه المسيحيين (الرعية). وبدهـى أن هذا العمـل لايكبده من الصعـوبة والحيرة مـا يكبد البـاب العالى

منهما، لأن الرعية فى حكومته أقل نفرا وأضعف شوكة منهم فى بلاد الدولة العلية. فإذا سعى سعيه فى هذا السبيل، عاد سعيه بالنفع الجزيل والخير الوفير على اعتبار أن هذا العمل لم يكن إلا تجربة ضيقة النطاق، فإذا أفلح، وهو المرجو، هيأت هذه التجربة سائر بلاد الدولة العثمانية لثورة يكون من صالح هذه البلاد أن تتقلب فى أطوارها على عجل حتى تستقصيها كلها. وفى هذه الحالة يكون بإمكان محمد على البدء بتنفيذ وسيلة من وسائل التقدم والإصلاح التى يعد العمل بمقتضاها فاتحة خير للحكومة العثمانية نفسها. فإذا أتم ذلك بمعرفته فإنما يتم عملا بدأ به، فقد رأينا أنه قام بأعمال كثيرة لتحرير الرعية من ربقة الاستعباد بقبولهم فى المناصب الكبرى الإدارية واختيار المحافظين والمديرين منهم.

(٦)
الفرنجة

القناصل- التجار- الصنائع- مستخدمو الحكومة- أخلاق الإفرنج وطباعهم- المسافرون والرحالة- شعور المسافرين- مايستحقونه من اللوم- نصائح.

فى جميع بلدان الشرق، يطلق اسم الفرنجة أو الإفرنج على جميع الرعايا التابعين للشعوب المسيحية وجميع الذين يحملون الثياب الأوروبية. وقد رأينا ـ فى غضون الكلام على سكان القطر المصرى ـ أن عدد الافرنج فيه ستة آلاف نسمة تقريبا. ومن هؤلاء السكان تتألف عدة طبقات تختلف عن بعضها، وسأتناولها كلها بالبحث طبقة تلو طبقة.

٣٩- القناصل

الطبقة الأولى جماعة القناصل والقنشلرية والأعوان المرتبطون بالقنصليات على اختلافهم. وأهل هذه الطبقة حائزون على احترام الوطنيين وتوقيرهم.

وفى مصر قناصل جنرالية يقيمون بالإسكندرية. والدول الأوروبية التى ينوبون عنها هى فرنسا وروسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا وأسبانيا والسويد وصقلية وسردينيا وهولندا وبلجيكا والدنمرك وتوسكانا.

والقائمون بتلك المناصب السياسية الكبيرة يعلقون على أبواب دورهم شارات حكوماتهم ويرفعون أعلامها خفاقة على أرفع نقطة منها.

أما القاهرة فالمباشر لشئون الأجانب فيها وكلاء بدرجة (فيس قنصل) فى حين تتطلب أهمية هذه المدينة أن يكون بها لفرنسا قنصل من الدرجة الأولى لما يوجبه ارتفاع مرتبة الوكيل عن هذه الدولة فيها من احترام الوطنيين لها. فإنهم لا يحترمون الحكومات الأجنبية ووكلاءها، إلا بقدر ما يكون لها من جلال المظهر وحسن الهيئة. وللدول السالفة الذكر وكلاء فى دمياط ورشيد والسويس وقنا والقصير تختارهم عادة بين أهالى القطر الذين يدينون بالنصرانية.

وعلى القناصل فى بلاد الشرق أداء مهمة غير التى يقوم بها أمثالهم فى أوربا. فإنه لما أبرمت الامتيازات المنظمة لعلاقاتنا مع الدولة العثمانية.، كان الاختلاف بين أخلاق الأتراك وأنظمتهم وبينها عند الأمم الأوروبية عظيما إلى أحد استدعى سن قوانين خاصة لمعاملة الإفرنج بمقتضاها، وتوسيع نطاق اختصاصات القناصل،. وجعلهم الرؤساء على أبناء وطنهم والمكلفين بالسهر على تنفيذ القوانين الصادرة من حكوماتهم والمنوطين بحمايتهم، على وجه يستدعى دوام رعايتهم أكثر مما لو كانوا فى أى بلد غير ذلك البلد. وسبب ذلك أن الأتراك ـــ لما فطروا عليه من التوحش والهمجية ـــ كانوا لا يكفون عن استعبادهم بوسائل القهر والإذلال، فكان التصدى لدفع هذا البلاء يقتضى من القناصل همة ويقظة لا تنقطع، فكان فرضا محتوما أن تحتفظ قنصليات الدول الأوربية فى الشرق بمثل تلك الصبغة الخاصة، إلى أن تصبح الأخلاق والأنظمة فى الدولة العثمانية متفقة مع نظائرها فى الديار الغربية.

ويميز القناصل الجنراليون للدول فى الإسكندرية، على زملائهم فى سائر بلاد الشرق الأدنى، ويسمون عليهم فى رفعة القدر.. لأن الدرجة التى بلغت مصر إليها فى العالم السياسى، منذ قبض محمد على على زمام شئونها، أفضت بحكم التبعية إلى رفع القنصل الجنرال لدولة عظمى لدى حكومة الوالى إلى مكانة تتناسب مع مركزه الذى أصبح أرفع شأنا وأعظم حظوة مما كان، ومن الحقائق الثابتة أن قناصل فرنسا وانكلترا وروسيا والنمسا الجنراليين يؤدون وظيفة السفراء، لأنهم لا يقتصرون على حياطة المصالح

التجارية أو المدنية الخاصة بأبناء وطنهم بما تستدعيه من وسائل الحماية والرعاية . بل يتصلون بسمو الوالى اتصالا مستمرا ليرفعوا إليه بلاغات حكوماتهم ويعالجوا معه المسائل السياسية البالغة أقصى حد من الخطورة والصعوبة. فالشأن الخاص الذى صار إليه القنصل الجنرال فى الإسكندرية منذ بضع سنوات يتطلب إذن تحويل هذا المنصب إلى مركز سياسى بحيث تعهد مصالحنا السياسية فى القطر المصرى إلى معتمد سياسى.

ولكل من انكلترا وروسيا وكيل خاص عهد إليه النظر فى الشئون السياسية. فخليق بالدولة الفرنسية أن ترفع إلى مستوى هاتين الدولتين. لاسيما وأن اهتمامها المتواصل بشئون مصر وتأييدها محمد على فيما يبذله من الجهود الجليلة لما يدل دلالة واضحة على أنها بإنابتها أحد المعتمدين السياسيين عنها فى القطر المصرى تريد أن يرى الملأ فيه وليا عظيما لا باشا من مطلق الباشوات الكثيرين.

ثم إنه لمن الواجب على فرنسا الاقتداء بانكلترا فى الفصل بين الاختصاصات السياسية والاختصاصات التجارية فى منصب القنصل الجنرال، وذلك بأن تعهد الاختصاصات الأخيرة إلى قنصل خاص بها. وغير خاف ما للشئون التجارية من الأهمية العظمى، فإذا اعتبرنا الأحوال الحاضرة فإن القنصل الجنرال الذى يكلف بالنظر فيها سيكون العمل لديه كثيرا والمشاغل عظيمة بالنسبة إلى اضطراره من جهة أخرى للنظر فى شئون القنصليات التابعة له بالقطرين المصرى والسورى.

يتولى القنحسل الجنرال أمور الجالية من أبناء وطنه المقيمين بدائرة سلطته وهو يديرها بمقتضى الأوامر والقوانين المعمول بها فى كل الشرق، ويصدر أحكامه بمساعدة نواب الأمة المنتخبين من الأعيان فى القضايا المدنية والجنائية، ويبرز فى الجمهور بالزى الخاص بمنصبه يحف به النواب المنتخبون كلما اقتضت الظروف ذلك.

وللقنصل الجنرال، فضلا عما تقدم، الحق فى حماية جميع الأديرة أما معاهد نشر الديانة المسيحية، فحمايتها من حق القنصل وهى داخلة فى دائرة اختصاصه.

ومن المهم لرفع مقام قناصلنا فى المملكة العثمانية وإعلاء شأنهم توفير

ماينبغى من الوسـائل لقيامهم بالمهمة الموكولة إليهم ليكـونواأهلا للثقة التى وضعتها فيهم حكومـاتهم. ومن المرغوب فيه أيضا تزويـد السلطة القنصلية بالقوة الكافية، وأن لايسمح بوجه ما لأحد من أبناء وطننا التنصل من الطاعة لهذه السلطة أو امتهانها. والواجب على قناصلنا أن يكونوا بحيث يستطيعون المحافظـة على النظام بين أفراد التبعة الفـرنسية وتطهيره ـ مـادام النظر فى شئونها موكولا إليهم ـ من أدران المحتـالين والدساسين الذين لا إلاًّ = عهدا = لهم ولاذمة، الذيـن يلوثون سمعة أمتهم بـاغتنامهم فرصـة طيبة الشعب المصرى واستنامتـه إليهم لابتزاز أموالـه وانتحالهم ما ليس لهم مـن الألقاب والصفات للتغرير بهم. ويجب أيضا إلزام السياح والمسافرين باحترام سلطة القنصل.

٤٠- التجار بالجملة

الطبقة الثانية مـن الإفرنج تتألف من كبار التجار. وهـم يقيمون غالبا فى الإسكندريـة، وعددهم الآن أربعـون، يقيم بعضـهم بـالبلاد مع أسرهـم منذ سنوات عديـدة. ولا يتضمن عددهم طبعـا التجار بالقطاعـى، إنما ينبغى أن يضاف إليهم الوكلاء التجاريون الذين يقيمون بمنازل رؤسائهم التجار.

٤١- التجار بالقطاعى

الطبقة الثالثة منهم تتألف من التجـار بالتجزئة، وبالإسكندرية نحو مائة حانوت للتجار الأوربيين يباع فى بعضـها القماش وفى البعض الآخر الزجاج أو الجواهر. والأزياء الحديثة.. الخ.. وجملة من هذه الحوانيت مملوءة بالبضـائع على اختلاف أصنـافها. أمـا مخازن الأزياء المستحـدثة فـإنها من استجماع أسباب النظـام والكمال بحيث تستطيـع إيقاف زبـائنها على حـركة الازيـاء المستحدثة بأوربا.

وتحتـوى الإسكندريـة ثمانيـة مطـاعم أو عشرة للفـرنسيين والإنجليـز والإيطاليين على ما يرام من النظام، وقهـوات جميلة تقدم فيها الشيكولاتا على الطريقة الأوربية، وفى فصل الصيف أنواع الجليد المحلى = الجيلاتى = الذى يرد الثلج اللازم لتبريده مـن بلاد كرامانيا ولفطاطرية الإفـرنج بالاسكندرية زبائن كثيرون يترددون عليهـم وهم يربحون ربحـا لا بأس به. وفى القـاهرة مطاعم عديدة على الطراز الأوروبى.

٤٢- أرباب الصنائع والحرف

أما طبقة الصناع فتتألف من النجارين والبنائين وصانعى الأقفال والكوالين والسمكرية واالنحاسين وصانعى المركبات والصياغ والجواهرية والساعاتية وصانعى الأحذية والقبعات والخياطين وأصحاب الأزياء الحديثة للسيدات.

٤٣- موظفو الحكومة

تتألف من الأوروبيين المنتظمين فى خدمة الحكومة طبقة مستقلة ليست من كثرة العدد كما يتبادر للذهن أول وهلة. ومن أفرادها مائتا طبيب وصيدلى وعشرون معلما فى الجيش. هذا كل عددهم الذى يتوهمون بأوروبا أنه يتجاوز بضع مئات بل بضعة ألوف، ولقد كانوا أيام تشكيل الجيوش البحرية بمقتضى النظام الجديد أكثر عددا منهم الآن، ولكن عددهم قل كثيرا منذ تدريب الجنود المصري،ة ولم تعد الحاجة ماسة إلى الأوروبيين فى تعليمها الفنون العسكرية. أما المدارس ففيها نحو العشرين إلى الخمسة والعشرين أستاذا أوروبيا أغلبهم من الفرنسين وأما مصانع الحكومة وفاوريقاتها فبها جملة من الفرنسيين والإنجليز والإيطليين يزاولون أعمالهم بمثابة مديرين لحركتها أو كصناع فيها. وبين موظفى الإدارة بعض الإفرنج يؤخذ من إحصائهم والإحصاء المتقدم أن عدد الأورببين الذين فى خدمة سمو الوالى لم يكن من الكثرة بما ذهب إليه الظن واتجه الخاطر.. ولا جرم فإن بدهيا أن يكون اهتمام محمد على منصرفا إلى استخدام أكبر عدد ممكن من أفراد رعيته، وأن يتخلص من الوصاية التى كان لابد لمصر أن ترزح تحت أعبائها لو تمادت فى استمداد أوربا والاستعانة بها على كل أمر من أمورها. وهى نزعة وطنية محمودة العقبى، غير أننى ألاحظ أن فيها مبالغة وشططا. إذ لا يخفى أن الأنظمة الجديدة تحتاج فى حفظ كيانها إلى الحرص على ثمراتها والضن بنتائجها أن تذهب ضياها حتى يتيسر اطراد السير فى سبيل التقدم والفلاح. وهذا يستدعى الاستمرار على طلب المعونة من الأوروبيين والاسترشاد بهم.

٤٤- طباع الإفرنج وأخلاقهم

إن الأوروبيين الذين ذكرت نتفا من أحوال طبقاتهم، تتألف منهم جماعات

يلم شتاتها أحياء خاصة بهم. ومما يؤثر عنها التشدد فى رعاية التفاوت بين المراتب والدرجات فيها، والحرص على الآداب والاصطلاحات الرسمية مع المبالغة فى تطبيقها. فإن أفراد كل طبقة من طبقاتها الاجتماعية لا يجوز لهم أن يتعدوا فى علاقتهم وروابطهم ببقية الطبقات الحدود المرسومة بمقتضى وظائفهم أو حرفهم أو ثروتهم. ويمتاز أهل الطبقة العليا بالتوسع فى الإنفاق على ما هو مألوف فى الهيئات الاجتماعية الاستعمارية، وتحرى البذخ والأبهة فى الآثاث والرياش والثياب، وتعقب الأزياء الباريسية فيما يطرأ عليها من التغير والحضور فيها. وغالبا ما تقيم الحفلات الليلية الفخمة، وتعد المعدات الباهرة لإقامة المراقص التى تحف بها مظاهر البذخ وتشف عن سلامة الذوق فى التنميق والتنسيق. وفى الإسكندرية معهدان صغيران فى الغاية القصوى من إحكام الترتيب وجمال الزخرف لتمثيل الروايات على اختلاف موضوعاتها ، وقد خص أحدهما بتمثيل الروايات الفرنسية والآخر بتمثيل القطع الإيطالية وكان بناؤهما على نفقة بعض هواة الفن ، ويتسم الإفرنج برقة مقرونة بمظاهر الأدب وإكرام مثوى الزائرين وبسط الكف با لمال لذوى الحاجة، حتى أنهم كثيرا ما يوافون البائسين بمساعدات تبلغ الثلاثمائة فرنك إلى الخمسمائة. ويتعهدون دائما الفقراء من أبناء وطنهم فيكتتبون لمساعدتهم بالأموال التى كثيرا ما تبلغ مبلغا عظيما. وقد أنشأوا بالإسكندرية مستشفى يتولون الإنفاق عليه من صفوة مالهم، ويعالجون فيه الصناع والبحرية وسائر الإفرنج الذين تنقصهم وسائل العناية بشئونهم فى منازلهم، أثناء علاجهم.

وما يؤسفنى ذكره هنا ما لاحظته فى الأخلاق والآداب بين الجالية الأفرنجية، من التجوز والترخص. فحيل الغرام أو دسائسه من الحوادث الشائعة المألوفة، ولكن هذا الانحلال الخلقى لاينفى وجود أشخاص وأسرات على غاية ما يراد من العفة واستقامة الأحوال والمحافظة على نواميس الآداب والتدقيق فى رعاية ما يليق وما لا يليق. وهؤلاء خير قدوة لمن يجب أن يستن بسنتهم فى الفضائل ومكارم الأخلاق.

٢٥- الرحالة والمسافرون

يوجد بمصر دوما، فيما عدا طبقات الأوروبيين الذين سبق الكلام عليهم، عدد غير معين من المسافرين يفضى البحث فى طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم ومشروعاتهم إلى الانتقاد الشديد.

إن الأسباب التى يستنـد الأوربيون إليها فى اعتزام زيـارة القطر المصرى كثيرة ومختلفـة. فبعضـهم وهـم الرحـالـة الحقيقيون يقصـدون بزيـارتهم الانتفاع فى أوقات فراغهـم بعمل ما يجهلونه، فهم كالنحـل يتنقلون من زهرة إلى زهرة لاجتناء ما يطمحون إليه من ثمرات العلوم والفنون، والبعض الآخر وهم لفيف الفنانين والكتـاب يقصدون بالزيارة حل رمـوز العلم وتلقى آيات الوحى فى أقدم معهـد للفنون بل فى الأرض التى أغدقت عليهـا الطبيعة نعمها الجزيلة وزينتهـا بالطـرف النادرة واللطـائف المستملحة، وتحوم فى جـوها ذكريـات ترجـع فى القدم إلى بضعـة آلاف من السنين، وهنـاك فريـق ثالـث يشخـص إلى مصر فى طلب المال، وسـوادهـم الأعظم مـن رجـال العسكريـة والتجار والأطباء والمهندسين وذوى الابتكار لمشروعات والواقفين على الأسرار العجيبة وغيرهم ممـن رفضت اختراعاتهم واستكشافـاتهم فى أوربا، فهبطوا مصر ليضعوا غراسها بأرضها العذراء.

وممن يحضرون إلى مصر التماسا للنزهة وتمتيع النفس أصحاب المقامات العـالية والمراتـب الخطيرة. وهـؤلاء يعـاملون بما هـم أهـل لـه من الإكبـار والإجلال، إذ يحتفى سمـو الوالى بلقائهم ويكرم مثواهـم ويبذل المستطاع فى العناية بهم وحسن الالتفات إليهم، وكثيرا مـا يخصص لنزولهم أحد قصوره الباذخـة أو ينزلهم دور العظماء من رجال دولتـه. وإنا لنذكر بهذه المنـاسبة الحفاوة الباهـرة التى لقيها (الدوق دى راجوز) و (البرنس بـوكار مسكو) وحديثا (البرنس لويس) شقيق ملك نابولى.

أما السيـاح الذين لا ألقاب لهم ولاشهـرة، وإنما هم على شىء مـن الغنى واليسر، فيجوبون القطر المصرى فى أمن وسـلام، ويتمتعون بكل ما يستطيع أحدهم أن يتمتع به من الطيبات. وذلك باستصدارهم من الوالى فرمانا (١) أى

(١) كان هذا الفرمان يكتب كما يلى :

من ديواننا فى سنة .... من الهجرة .....

إن صديقنا القديم الحميم المسيو . «تذكر هنا الجنسية» جاء إلى أمـلاكنا ليزور المعاهد الأثرية وغيرها من الاماكن المفيدة له فى أبحاثه . وقد قـدمه الينا جناب قنصله . وبناء عليه قد سلمنا فرماننا هـذا لينتفع ويستظهر به أثناء رحلته فى طول أملاكنا وعرضـها .

فعلى المديرين والمامـورين وأرباب الحل والعقد ملكيين وعسكـريين، وبالجملة كل مـن يقدم اليهم هذا الفـرمان أن يعنوا بامره ويهتموا باداء الخدم التـى يروم منهم قضاءها حتى لا ترفع إلينا منه شكـوى فيما بعد . ونوصيكم بعمل ما يلزم كى لايلحقه حيـف أو يوجه اليه شتم من الفلاحين أو غيرهـم وان تبادروا بموافاته بكل ما يحتـاج إليه، وأن لايدفع ثمنا عنه إلا مـا يطابق السعر الجارى فى البـلاد وذلك فيما يختص باجر الـدواب أو المراكب وثمن الاغذيـة الخ ... وانى اعتبر أن الخدمات التى ستؤدونها اليه كانها اديت إلينا بالذات .

نوعا من جواز المرور يتيسر الحصول عليه بواسطة قناصل الدول التى هم تابعون إليها.

٤٦- تأثير الزيارة فى نفوس السياح

التأثيرات التى تتركها مصر فى نفوس السياح كثيرة التباين والاختلاف. واختلافها تابع لغرائزهم وأمزجتهم، فإن بعضهم يصلون إلى ضفاف النيل وأدمغتهم ملأى بما تراكم فيها من الخواطر والهواجس قبل تحركهم للرحيل من بلادهم، فاستقر فى أخلاقهم أنهم سيجدون بمصر - فيما عدا الوسائل الحديثة لتوفير أسباب الراحة والهناءة والمزايا المادية التى هى ثمرة الحضارة والآثار القديمة - عادات وأخلاقا تبعث على الدهشة والاستغراب فكانوا يمنون أنفسهم بالسرور الشديد أثناء ملاحظتهم إياها وبحثهم فيها ولكنهم متى استقر فى أخلادهم أن بلد الأهرام وأبى الهول والمسلات ليس فيها من تلك الوسائل ما يسهل السفر ويذهب بمشقته كما هو فى أوربا، بل متى علموا أنهم لا يستطيعون الذهاب إلى الأهرام فى السكة الحديدية، وأن ليس هناك طريق سلطانى أو إقليمى أو زراعى يصل الإسكندرية أو القاهرة بأطلال الكرنك والاقصر الضخمة الفخمة، لا تلبث هذه الخيبة أن تتحول عندهم إلى شكوى مرة أو كراهة بالغة أو غيرهما مما يجعلهم يرون الأشخاص والأشياء فى غير مظهرها الحقيقى، فيؤدى خطأ الحس حتما إلى خطأ الحكم والمبنى على الفاسد فاسد بطبيعته.

ولا يهمهم من الأمر أن يكون الجو معتدلا، والسماء صافية الأديم، ماداموا يشعرون بأن الشمس محرقة وأن حرارتها لا تطاق. ومن أين لهم، - وهذه حالتهم النفسية - التمتع بسكون الليل وصفائه اللذين يبثان فى الجسم والنفس نشوة السرور والفرح، بل إذا كانت أنظارهم تقع على ما تثيره الرياح من الإعصار فيكفى هذا لكى يتأهبوا للقاء يوم عبوس قمطرير. ومع اعترافهم بخصوبة الأرض، تراهم يقولون إن مناظر البلاد وما يحيط بها من المزروعات تبث اليأس والقنوط فى النفوس لتجانسها وسذاجتها، دع أنهم لاتهمهم خصوبة أرض مصر مادام أن هذه الأرض لا تعدو كونها شريطا ممتدا وسط الصحراء القاحلة. ويضيفون إلى ماتقدم قولهم إن الآثار القديمة ضخمة جليلة، وأن ما تثيره من جليل الذكرى يتجة إلى خاطر الرائى ويناجى

فؤاده، غير أن المدن الحالية قبيحة المنظر زرية الشكل، وسكانها رجالا ونساء لايستر أجسادهم من الثياب البالية سوى قميص واحد. أما الأطفال فمجردون من الثياب بالمرة، تبدو على وجوههم وأجسامهم أعراض الأمراض المختلفة، وأن كل شيء تنبو عنه الأنظار لقبحة وبشاعته. يضاف إلى ما تقدم كله ما يستشعر الغريب به من القلق والانزعاج وسط قوم يتكلمون بلغة غريبة صعبة،ينشأ عن عدم العلم بها من الصعوبات والموانع ما يبعث على الضجر والملل فى كل آن.

لهذه الاسباب ترى أولئك السياح الذين خابت آمالهم واضطربت أمزجتهم حتى رأوا كل شيء سوادا، لا يتنفسون الصعداء إلا إذا توارت أرض مصر خلف مؤخر السفينة التى تنزح بهم عنها ،وتوقيهم بابتعادها رؤية تلك البلاد فإذا ما عادوا إلى مواطنهم واستقر بهم النوى، وكبر تأثر نفوسهم بما أصابهم من الفشل والخيبة فى رحلتهم، أطلقوا لألسنتهم العنان فى ميدان ذم مصر والطعن فى أهلها، كلما سنحت لهم فرصة ،وإذا عمدوا إلى تدوين رحلتهم أبرزوها فى ثوب مبرقش بألوان لا تطابق الحق والعدل فى شيء.

وهناك فريق من السياح يذهبون مذهب الغلو فى عكس ما شرحناه من الشعور والتأثر، فإنهم لإعجابهم بكل جيد وتحمسهم له وشرههم إلى استطلاع ما يدعوهم إلى العجب والدهش، لا يستثنون من إعجابهم ودهشهم شيئا مما تقع عليه أبصارهم. ففى نظر هذا الفريق، ينبغى أن يشمل اعجابهم واستحسانهم المرئيات التى تلفت أنظارهم، سواء فى ذلك المنظر الخاص للقطر أو الشكل الغريب لمدنه أو أحوال سكانه الخ.

لهذا السبب تراهم يسارعون إلى تقليد طرائق المسلمين فى المعيشة فيلبسون مثل ثيابهم، حتى لقد صار من التقليد الشائع بين الذين يصلون حديثا من الإفرنج، أن يكتسوا فى أقرب وقت بالثياب الشرقية. ومع أن الذين يلبسون الملابس الأوربية لاينقص احترامهم فى نظر الناس بسبب لبسهم إياها بل يزيد، فإن أولئك المقلدين يبررون فعلهم بأن الباعث عليه مجاملة أهل الوسط الذى نزلوا فيه، بينما هم لايقصدون فى الحقيقة إلاقضاء حاجة فى نفس يعقوب، فيكون من أشهى الأشياء إليهم أن رأوا أنفسهم وقد لبسوا الثياب العريضة وتعمموا بالعمائم وحملوا إلى جانبهم سيفا. والذين يزعمون

أنهم مـن الفنانين والعـارفين بأسرار الثيـاب، يفـرطون مـن التشيع للثيـاب الإسلاميـة القديمـة بما يدعـو الناس إلى انتقـادهم والتهكـم عليهم. فـإنهم يتعملون الرفق بالشرقين فيرثون لحال الذين منهم هجروا عاداتهم المحمودة ليستبدلوا منها بعاداتنا. ومع أن استعمال العمـة بمثابة لباس للرأس قد أخذ نطاقه يضيق شيئا فشيئا بحيث أصبح استعمالها لايتعدى أهل الطبقة الدنيا إلا قليلا، فلا يزالون يتعممون بها. كما أنهم يفضلون الآن القيطان الحريرى الذى كان الشرقيون يحملون به السيف قديما على المناطق الجلدية المستعملة عندهم الآن لهذا الغرض

وهنـاك فريـق تمكـن منهم حـب التقليـد إلى حد السير على الأرض حفـاة الأقدام. فيخيل للناظر إليهم أنهم أصبحـوا بحيث لا يعرفون كيف يجلسون على الكراسى، وأنهم لكى يوقـوا أنفسهم ضر الجلوس متربعين على الدواوين، لا مناص لهم من معاناة بعـض الألم. ولكن الطرائق الشرقية لاتخاذ الأوضاع وحمل الثياب تستـدعى ــ بالـرغم من مـزاعم أولئك الزاعمين ــ الاختبار والدربة. وإنه ليكفى أن يتنبه الإنسان لما هناك من التصنع والكلفة فى اختيار الثياب الشرقيـة وتسويـة بعض أجـزائها، وفى خطـأ الحركات والأوضـاع فى الجلوس والمشى، لتميز بين الذين اعتادوا ذلك كله بالمران والذين لم يعتادوه، ومعرفة المقلـدين الأوربين المتنكرين بـالثياب الشرقية بعد اطـراحهم الثياب الافرنجيـة على أن هذا لاينفـى وجود لفيف مـن السياح ذوى عقـول راجحة ينصفون فى الحكم ، ويتحامون التحيز والمتحـاشين لغلو من يدركون حقيقة مركز الشعوب الشرقية ويقدرون البـلاد وسكانها والأشخاص والأشياء حق قـدرها، فـلا يأنفـون مـن الرضـوخ لمطالـب الـوسط وحكـم العادات. بـل يستطيعون الحكم حكما صـائبا على مصر التى أتاح لهم استعـدادهم العقلى البحث فى شئونها بحثا تنتظر منه الفوائد الشاملة والمنافع الجزيلة.

٤٧- أصحاب المشروعات

إن أصحـاب المشروعـات الذيـن يصلون أفـواجا إلى مصر، يـزودون عادة بـرسائل التـوصية. والمشتغلـون منهم بـالفنون العسكـرية يقترحـون على الحكومة المصرية الأساليب المستحدثـة لتدبير القتال، أو المبتكر من الطرائق لتعبئة الجيوش وترتيب أوضـاعها فى ميدان الحرب. ومنهم خبراء فى الشئون

المدفعية يقدمون إليها قذائف يقولون عنها إنها أصلح ما يكون لإحراق المواقع الحصينة وأفتك ما شوهد بالدوننمات. ومنهم من يكاشفها بسر تركيب السفن الغواصة أو يقترحون عليها الوسائل المختلفة لرفع الماء مؤكدين بأنها إذا روعيت تجيء بالمعجزات المدهشات، أو يرفعون إليها مشروعا بصنع آلات يعزون إلى قوة عجيبة منها، وبمناسبة أساليب رفع الماء نذكر هنا على وجه خاص، أنها جربت مئات المرات وآلافها فأدى الامتحان إلى إصابة أصحابها بالفشل والامتهان.

ولقد رأينا فيما شهدناه بمصر أطباء من الدجالين يزينون للناس أنهم يملكون من أسرار طرق العلاج ما يمتدحون لهم تأثيره الفعال ونتيجته المحققة النفع. وقد جاء أحدهم، وهو من أهل مذهب الأوميوباتيا فى العلاج، بدواء خاص أطرى فوائده، وقال بصدق تأثيره فى الأمراض الثلاثة الكبرى المتفشية بمصر وهى: الدوسنطاريا والرمد الصديدى والطاعون. واقترح، تحبيذا لهذا الدواء، إلغاء النقالات العلاجية. إذ قال إنه يكفى الطبيب أن يكون فى جيبه علبة صغيرة من الأدوية لمعالجة جميع المرضى فى إحدى فرق الجيش أو فى أحد المستشفيات. حقا إنه لم يقل بفائدة طريقته العلاجية فى الأمراض التى تستدعى العمليات الجراحية، بل جهر بأن علاج الجراح الناتجة من الرصاص والسلاح الأبيض تخرج من اختصاصه، وأنه يكل العناية بأمرها إلى الطب العادى. وشهدت دجالا آخر ذا شهرة واسعة ومزاعم أكثر من مزاعم زميله المتقدم، إذ جعل اختصاصه ادعاء القدرة على انقاذ مصر كلها من فتكات الرمد الصديدى. ولقد كان هذا الرجل أسعد الأفاكين الذى وجد من ديباجته وأشدهم دهاء ومكرا. إذ استطاع، زمنا ما، التغرير بالناس وإدخال الغش عليهم فسهل له ابتزاز أموالهم على وجه فاضح جدا. ومما ينبغى الاعتراف به سرعة انخداع الأوربيين بتغريرات من لاذمة لهم من المتشردين والأفاقين على أثر ما يظهرونه من المجاملة والتسامح، بغير روية نحو أفراد هذه الطبقة. فإنهم يسارعون إلى تزويدهم بكتب التوصية على جهل منهم بحقيقة أمرهم وجلية خبرهم، وهو ما جعلهم يلقون من مظاهر الإجلال والتكريم ـــ لدى وصولهم إلى مصر ـ مالايستقبل بمثله الا الكبراء والعظماء. وماهم فى الحقيقة إلا لصوصا يتبرأ الرجل الشريف من معرفته بهم.

وفى استطاعتى أن أورد هنا حوادث عديدة ليس منها إلا ما يدعو إلى العجب والدهشة. ولكننى أجتزىء منها بحادثة البارون (دى ولفنجن) الشهير الذى استقبل استقبالا باهرا من أهل الإسكندرية إجلالا للقبه الدال على علو القدر ونباهة الذكر، وتقديرا لكتب التوصية العديدة التى زود بها. فقد بدا هذا الأفاق الحاذق بالنزول فى دار جليلة تبدو عليها مظاهر الأبهة والبذخ، وإنفاق المال عن سعة وبذل، واستقبال الزائرين من أهل البيوتات الكبيرة والأسر الكريمة. وكان لايدور حديثه معهم إلا عن قصوره الشامخة وأمواله الزاخرة وخيراته الوافرة. فكانوا يتسابقون إليه جميعا رجاء أن يتفضل عليهم بإصدار أمر أو الإعراب عن أمنية ليتباروا فى تحقيقها على الفور، وما من أحد منهم إلا وتقدم إليه بماله يسأله التعطف عليه بقوله، وما من حفلة ليلية شائقة الا وأقيمت عنده أو جمعية صفاء وهناء إلا وأخذت مجلسها فى بهوه. واندرع جميع الناس يتفاخرون بأنهم ممن فازوا بحظوة المثول بين يدى البارون والذى كان - والحقيقة — من أعرف الناس بأساليب الطف والإيناس وأوسعهم إلماما بطرق مقابلتهم ومجاملتهم على ما تقتضيه مراسم الأدب. وما كانت تقع الأنظار على ذى حيثية سائرا فى الطريق إلا ويجاوبك على سؤالك إياه: إلى أين أنت ذاهب؟ إننى أقصد البارون. يقول ذلك بصوت ينم على شعور الكبرياء والصلف الذى دب فى نفسه، ولا يحس عادة به سوى من يدعى إلى لقاء ملك جليل الشأن.

وما كان أعظم يأس أولئك المغرورين وأشد شعورهم بالفشل حينما حامت الشكوك حول ذلك الثرى العظيم وأصبحت يده صفرا من المال ولم تنفعه الحيل الجديدة فى تحصيله. فإنه لم يتمالك أن نبه أولئك الحمقى ذات يوم بحقيقة أمره إذ قال: أن أمواله الطائلة وقصورة المشيدة فى ألمانيا، لم توجد قط إلا فى مخيلته أثناء حديثه عنها وفى حماقة الذين سلموا اعتباطا بمبالغاته فيها.

وقد خسر هؤلاء من جراء سذاجتهم وحسن اعتقادهم فى هذا اللص مالايقل عن خمسين ألف فرنك إلى ستين ألفا. ولقد كانت هذه المبالغ وافرة بالنظر إلى المدة القصيرة التى أقامها ذلك المحتال بالإسكندرية، وهى نحو خمسة عشر شهرا إلى ثمانيه عشر.

٤٨- لوم يستحقه السياح

كثيرون من السياح الذين يزورون مصر يستحقون اللوم العنيف والتقريع الشديد، لأنهم متى وصلوا إلى هذا القطر ووطئت أقدامهم ثراه أعاروا أسماعهم إلى الترهات والأقاويل التى تحملهم على إساءة الظن بالنزلاء الأوربيين والتسليم، من غير بحث بأنهم فى حالة يرثى لها من التأخر، وأنهم هم الذين يحملون إليه وحده مشاعل العلم والعرفان. وترى البعض منهم يصدرون الأحكام الجازمة فى المسائل الإدارية ويرون فيها رأيهم البات قبل أن يلموا بشىء من أحوال الوسط وساكنيه. بل ويجرءون على موافاة الوالى بنصائحهم ومشوراتهم عن أعمال حكومته ونظامها. وربما بلغ الطيش بهم أحيانا إلى إتهام الأوربيين الموظفين فى حكومته بقلة الكفاءة وشدة الجهل، لأن بعض ما تم على أيديهم من الإصلاح لم يرق فى نظرهم إما لأنه لايفيد البلاد فائدة مؤكدة وإما لأن حقيقة ماقد يعترضه من الموانع يكون لا قبل لأحد على دفعه.

وخطأ ذلك الفريق أنهم، قبل رحيلهم إلى مصر، تجهزوا بمعلومات عنها اقتطفوها من مطالعة الكتب. فتوهموا أنهم يعرفون من أمرها ما لم يعرفه غيرهم من الأوروبيين الذين يقيمون فيها منذ سنوات طويلة

وثمة فريق آخر منهم يستهجنون عادات البلاد وأخلاق أهلها استهجانا غير لائق بآداب المجاملة. ويرون أن من بواعث السرور ودواعى الشرف والهمة أن ينتهكوا حرمة تلك العادات والأخلاق، وأن يعبثوا بالحرية التى منحها سمو الأمير للأوربيين من فيوض مكارمه. فلقد شهدت بعضهم يحاول مخالفة الأوامر العسكرية حين أيقن أن فيها ما يناقض آراءهم ويزعجهم فيما اعتمدوه من قول أو فعل.

ويتبع هذا الفريق فريق آخر سلكوا مع المصريين مسلك الشدة والقسوة ويعاملونهم معاملة لا تليق بالمدنية التى ينتسبون إليها وذلك لأنهم يعتبرونهم ككائنات حقيرة مرذولة خارجة عن نطاق النوع البشرى ويقولون، جهارا نهارا، أن ليس من الواجب مخاطبتهم بغير لسان الكرباج. ولأجل هذا تراهم يتزودون عند وصولهم إلى مصر بالكرابيج يضربون بها ــ من غير رحمة ولا سبب معقول ــ الحمالين المكلفين منهم بحمل أمتعتهم وأشيائهم

باعتبار أنهم دواب يسامون سوء العذاب، وكذا يفعلون مع الحمارين والمراكبية الذين ينقلون هذه الأمتعة برسمهم من مكان إلى مكان.

٤٩- نصائح إلى الرحالة والمسافرين

يجب على الرحالة والمسافرين الذين يصلون إلى الإسكندرية أن يقصدوا - بعد نزولهم من السفن مباشرة - إلى دور القناصل الذين ينتمون إلى دولهم كى يحصلوا لهم على الفرمان الذى يسمح بتنقلهم فى البلاد وطوافهم فى أنحائها وجوبهم أطرافها. فإذا لم يكونوا مزودين بتوصية خاصة إلى واحد من أبناء وطنهم المستعدين لإيوائهم وإكرام مثواهم مدة إقامتهم بذلك الثغر، فإنهم يجدون فى هذه المدينة من الفنادق والمطاعم ما يليق بنزولهم فيها وأصحابها من جميع الملل والنحل.

ويجب عليهم - إذا هموا بالسفر إلى القاهرة - استئجار قارب أو زورق يصلون به إلى النيل عن طريق ترعة المحمودية، وهذه المسافة تقطع عادة فى نحو اثنى عشرة ساعة أو أربع عشرة. وفى نهاية الترعة - أى عند مأخذها من النيل بجوار بلدة العطف القريبة من فوة، ينزل الركاب من ذلك الزورق إلى قارب آخر يصعد بهم فى النيل إلى مدينة القاهرة، وهذه الرحلة الثانية يطيلها انعطاف النيل والتواء مجراه. فإذا كانت الرياح موافقة ظلت من يومين إلى ثلاثة أيام أما إذا لم تكن موافقة فربمااستغرفت ثمانية أيام وأحياناخمسة عشر يوماً، ومهما يكن من مشاق هذه الرحلة الناشئة عن شدةبطئها، فعلى المسافر التذرع بالصبر لاحتمال مشاقها من اتباع طريق البر ابتغاء الوصول إلى القاهرة، لان هذا الطريق متعب للغاية لاسيما وأن نظام النقل بين الإسكندرية والقاهرة لم يستتب حتى الآن.

وأجرة القوارب للذهاب من الاسكندرية إلى القاهرة تختلف من خمسين فرنكا إلى ستين للقوارب العادية، وتزيد على ذلك بحسب سعة المركب الذى يختاره المسافر واستيفائه وسائل الراحة وحسن منظره. وإذا كان المسافرون عديدين فإن الأجرة توزع عليهم فيصيب كلا منهم ما لايكاد يذكر من المال، والنزول من المراكب - عند وصولها إلى القاهرة - يكون فى بولاق، مرفأ هذه العاصمة وموردتها.

ويحسن بالمسافر أن يقضى بالقاهرة من ثمانية أيام إلى خمسة عشر

يومـا. والحقيقة أن خمســة أيام منها أو ستــة تكفى لزيـارة مايهم الأجـانب الإطـلاع عليـه كـالأسـواق والمستشفيـات ودور الصنـاعـة (الترسـانـات) والفاوريقات والمدارس والمقابر وأهرام الجيزة وسقارة.

وبعد ذلـك يعد معداتـه للصعود فى الوجـه القبلى حيث الآثار التـى تلفت أنظار الرحالين. والواجب قبل كـل شىء، فى هذه الحالة، الحصول على قارب جيد واستئجـاره بأجرة تختلـف من ألـف قرش إلى ألف وثمانمائة شهـريا، وتتضمن هذه الأجرة النفقات الخاصة بالنوتية من طعام وغيره. والأفضل أن يحرر مع الرئيـس صاحب المركب أو ربـانها عقدا لابرازه عند الحاجـة لدى السلطـة المحلية، خصـوصـا إذا لم يف صـاحب القـارب بـوعوده ولم يقـم بعهوده. ومما يفيـد المسافرين كثيرا، أن يكون استئجار القـارب بالشهور لا باليـوم، ويحسن به الاحتياط، فيـأخذ معه بعض مـايلزمه من المؤن كـالبن والسكر وغيرهما مـن الأشياء التى يتعذر الحصـول عليها داخل البـلاد. أما اللحم والبقـول والخضر والفواكـه والبيض واللبـن الخ. فـالحصول عليهـا ميسور على طول الطريق بأبخس الأثمان.

ولابد ـ قبل مبارحة القاهرة ـ من استخدام ترجمان من أهل البلاد ليقوم بالترجمة، ويشـترط معه فى ذلك أن يكون ملما باللغتين التركية والعربية. ومن الممكن الحصول على ترجمان جيد بمرتب مئـة وخمسين قرشا شهريا. وغنى عن البيان أن التراجمة المصريين لاتتوافـر فيهم الشروط المتوافرة فى التراجمة والأدلاء الإيطاليين حـذقا وإلمـا بالشئـون العامـة. فإنـه إذا كان التراجمة لايدرون فتيلا من تـاريخ الآثار التى اعتزم الرحالـة زيارتها، فلا مناص لهم من محاولـة التفاهم بشـأنها مع أهل البـلاد، وربما اضطرتهم الضرورة إلى مواجهة السلطة المحلية لسؤالها عما يجب الوقوف عليه والإلمام به.

وإذا كانت الريح موافقة عند السفـر من القاهرة، فمن الأنسب الصعود فى النيل إلى أقصـى نقطة منه فى القطر المصرى، ومن ثم يسـهل عليهم فى أى وقت شاءوا العودة من هذه النقطة متجهين نحو الشمال والرسو بحسب الإرادة فى الأماكن والبقـاع التى ينوون زيارتها على الضفتين، لأن المركـب يكون فى هذه الحالة مسوقا بقوة التيار.

الباب الثامن

الحكومة والأنظمة السياسية

١ - أسباب ظهور الحركة المدنية في الشرق منذ هذا القرن

١- لو لم تظهر آيات الحضارة بالقطر المصرى فى هذا الزمن وتتجل للأنظار آثار قوة انبعاثها، لما عدت المسألة الشرقية التى يعتبرها رجال الصحف وأساطين السياسة كافة سنوات عديدة، تلك الوجفة التى زلزلت أركان العالم السياسى فى هذه الأيام.

ولو لم يستعر الباب العالى من جهة أخرى شيئا ما من مظاهر حضارتنا، لما حركت أوربا نبضا أو اشرأب لها عنق اهتماما بأمره. بل لما شك أحد فى سقوط تركيا من علوة مجدها.

فبدهى إذن أن يتساءل الناس عن الحضارة التى ظهرت فى الشرق آيات حركتها منذ أوائل هذا الجيل.

فإذا كان ما نشهده فى الشرق من آثار المدنية ثمرة أنضجتها حرارة الزمن والحد الأقصى لشوط التقدم المستمر، فليس بمستطاع الجواب فى بضع كلما، على هذا السؤال الذى يتطلب موضوعه درسا خاصا وبحثا عميقا يتناول الدولة التركية فى شئونها الداخلية كافة.

وإنما الحركة الحاضرة إحدى الحركات الطرآنية = الطارئة = التى لايتأتى انبعاثها من جماعات الناس، بل انبعثت من رجل واحد أو رجلين. فلا بد أن يكون هنا إذا باعث كبير طرأ، هو الفعل أو رد الفعل الناجمان عن حادث خطير لن يتعذر على أحد استكشافه

وللحوادث العظمى دواماً - على ما هو مقرر ومفهوم - نتائج لاينتظر الذين سببوها أو شهدوها رأى العين وقوعها فى الحين الذى تقع فيه. ففى سلسلة الحوادث التى لايعدو المرء أن يكون فيها مسوقاً بقوة إلى غاية يجهلها، تتجلى القوة الإلهية المهيمنة على شئون البشر جميعاً. ولقد فطر الإنسان على حب استكشاف الصلة السرية التى تربط الحوادث بعضها ببعض، وعلى قدر المقدمة يتوقف عادة قدر النتيجة.

فمقدمة حركة الحضارة التى بدت آثارها الآن فى الشرق هى الحملة الفرنسية فى مصر.

لم يوفق نابليون بونابرت فقط لتحديد مجرى الأحوال فى أوربا والإشاعة باسمه فى طول هذه القارة وعرضها، بل هزت يده القوية الأساطين التى ظن الشرق القديم أنها دعامة بنائه التى لايزلزلها الحدثان. ولما رأيت الآثار الجليلة التى خلفها من ورائه لم استطع الجزم فى هل كان أثره فى آسيا أقل من أثره فى بلاد الغرب.

أما الحملة الفرنسية التى ساقت إلى مصر أشجع فرق الحرب الإيطالية، أى الجنود الذين عادوا مكللين بأكاليل المجد والغلبة فى وقائع (لواى) و(أركول) فقد كانت أشبه شىء بصاعقة هوت من السماء على الشرق فأيقظته منزعجا من سباته الطويل.. وكانت الأساليب القديمة فيه قد بقيت إلى ذلك العهد على حالها لم يتناولها تغيير ولا تعديل. وكانت الدولة العثمانية قائمة بحروب طويلة ضد الروسيا والنمسا. ففازت بالنصر تارة وباءت بالخذلان أخرى. لكن هذه الحروب لم تغير شيئا من أفكارها العتيقة ولا من عقائدها التى أكل الدهر عليها وشرب. ومع هذا فإن الروسيين والنمسويين لم تقتف المدنية أثر جيوشهم. لأنهم لم تكن لهم مصلحة فى نشر أنوار العلوم والمعارف بين الأتراك، وكانت الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية تعتقد أنها بعيدة المنال على من يرومها بفتح أو قهر، وأنه لايمكن أن يوجد على سطح الأرض دولة تبلغ مبلغها عزا ومنعة. وذلك لأن ذكرى فتوحاتها القديمة كانت لا تزال عالقة بأذهانهم، ولأن الدول الأوربية لم تنتزع هذا الوهم من نفوسهم ولم ترشدهم إلى الصواب من أمرهم، بل كانت تزيد تلك الذكرى استقرارا فى نفوسهم بعجزها البين عن القضاء على قراصنة المغاربة الذين كانوا، فى ذلك

الوقت، يقاتلون أوربا ويجبهون الدول جمعاء بجرأتهم ويفرضون عليها صنوف الفدى وأنواع الإتاوات.

ومن جهة أخرى، كان المماليك القابضون على زمام الحكم والسيادة فى مصر يعتقدون أنهم فى طليعة جيوش العالم منعة وعزة جانب، كما تثبته لك النادرة التالية التى تشير من جهة أخرى إلى ما بلغ إليه أولئك البكوات من الضعف الممزوج بالحمق المضحك والجهل المزرى بهم.

لما استولى بونابرت على جزيرة مالطة أراد المسيو (روسيتى) قنصل النمسا وبعض الدول الأخرى فى القاهرة وقتئذ وأحد أكابر تجار القاهرة ومعتبريها وصاحب الحول والطول والكلمة المسموعة لدى المماليك، إذ كان القيم على تدبير شئونهم والمتعهد بتوريد ما يلزم من حاجياتهم، أن يوافيهم بهذا الخبر ويحذرهم من عاقبته.

فبادر بمقابلة مراد بك زعيمهم، وكاشفه بهواجسه وما وقع فى نفسه من عزم الفرنسيين على النزول إلى بر مصر، وألح عليه فى اتخاذ وسائل الحيطة للذود عن حياضها، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن قهقه ضحكا حتى كاد يستلقى على قدميه وقال: ما مرادك من إخافتنا بالفرنسيين؟ ألم يكونوا أشباه الخواجات- التجار- الذين نراهم بيننا؟ إنه ليكفينى، إذا نزلوا إلى بر مصر فى مائة ألف من رجالهم، أن أبعث للقائهم بعض التلاميذ من المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب (١) فحاول المسيو روسيتى جهده عندئذ لإقناعه بأن الفرنسيين قد فازوا بالنصر المبين فى إيطاليا، وأنهم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم فى أسواق القاهرة. ثم أعاد كرة الإلحاح بتحصين الإسكندرية، فلم يأت تحذيره إياه بفائدة، لأنه لم يشأ أن يعمل به وأراد أن يجامله، فأرسل إلى هذا الثغر قنطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها.

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون إلى الإسكندرية ونزلوا إلى البر واستولوا عليها وانتهى هذا النبأ إلى علم مراد بك فاستدعى المسيو (روسيتى) على الفور، وقال له بصوت المغضب: إن أولئك الفرنسيين الوقحاء

(١) كان المماليك يتخذون فى استوائهم على خيلهم ركابا عريضا قاطعا من ضلعيه الامامى والخلفى وكانوا يستعملونه كسلاح قاطع ضد المشاه والفرسان من العدو بل ضد خيل هؤلاء فيصيبونها بالجراح البالغة.

اجترأوا على وطء ثـرى بـر مصر، وطلب منـه ان يكتب إليهم على لسانـه بالمسارعة إلى الجلاء فى أقرب وقت.

فـلاحظ المسيـو (روسيقى) قـائلا: « ولكنهم يامـولاى لم يأتـوا إلى هنـا ليعودوا كما جاءوا عند أول إشارة تصدر إليهم منك» فقال مراد بك وقد تولاه الجزع الشديد: « وماذا يريـد هؤلاء الكفار إذن»؟ ماذا يبغى هؤلاء المتشردون الذين يمـوتون جـوعا؟ إن كانـوا طامعين فى مال فـأرسـل إليهم بكذا ألف من البطاق (أى خمسين ألف فـرنك تقريبا) وليـزايلوا مكانهم. فرد عليـه المسيو (روسيتى) قـائلا: « ولكن هذا المبلغ يـا مولاى لا يعـدل أجرة شحن أصغـر سفينة نقلتهم إلى مصر. والأحـرى بكم والأولى من هذا كله أن تأخـذوا عدتكم للدفاع».

لم يستطع مـراد بك أن يدرك بـأكثر ممـا تقـدم معنى جرأة الفـرنسيين واقـدامهم على الحضور إلى مصر لمنـازلتـه. ذلك لأنـه كان مـزدهيـا بقوتـه ومغرورا بعلوه إلى حد أنه لم يعبأ بهم ولم يـرسل للقائهم بادىء الأمر سوى شرذمة من الجند. ولم يرجع عن غروره وصلفه وفرط اعتداده بنفسه إلا حين فتك الفرنسيون بهذه الشرذمة فى أول لقـاء لهم بها، وعاد من بقى من رجالها يخبرون مولاهم بأن الفرنسيين لم يكونوا كما توهمه أول وهلة، ففطن عندئذ لأمره وأدرك حقيقـة الخطر المحـدق به. وكـان أول جرح أصـابه فى كبريـائه وعزتـه، اندحـار جيوشـه فى معركـة (شبراريس) التى لم تنته حتـى أعقبها اندحارها فى معركة الأهرام المعروفة.

وفى هذه الرواية الصحيحة من كل وجـه ما يدل على مبلغ ازدهاء المماليك بأنفسهم، وجهل الذين كـانوا فى عهدهم يقبضون على دفـة إدارة الحكومة فى الدولة العثمانيـة. لأنه إذا كان ذلك شأن الزعماء والحكـام، فماذا يكون شأن عامـة الناس الذين لم يكن لـديهم من الوسائل مـايستطيعون به أن يعـرفوا شيئا عن أوربـا وحقيقة أمـرها ومحض كيـانها؟ فمن الميسور والحالـة هذه تقدير الانقلاب الكبير الذى أحدثته فى نفـوس الشرقيين ما أحرزته فرنسا من الانتصارات الباهرة، على مشهد منهم فكان علمهم بها أشبه المرائى بالتجلى الذى يؤتاه المرء على غرة منه. ولاشك أنهم أدركوا أهمية الوقوف على الوسائل الجليلة التى كان من أثار تنفيذها مـا أفضت إليه معركة عين شمس مثلا من

استطاعة جيش لم يتجاوز عدده تسعة آلاف أوربى التغلب على جيش مؤلف من ثمانين ألف تركى وأن يمزق شمله ويقضى عليه قضاء مبرما.

ولما بهر فوز نابليون أنظار المسلمين وفتن عقولهم انتهى الأمر بهؤلاء، وقد أيقنوا بالاختبار والعيان أن الغربيين يسمون عليهم سموا كبيرا فى الشئون العسكرية، إلى أن يتمنوا عن طيب نفس لو تمت عندهم الإصلاحات فى هذا الباب، وأن يكون رائدها التجربة التى أظهرت فوائدها المدنية الأوربية.

ومن رجال الحرب الذين جاءوا إلى مصر لقتال الفرنسيين بطل مقدونى ساقته المصادفة الحسناء إليها، وهو الرجل التى شاءت القدرة الأزلية أن يستفيد من أعمال حملة بونابرت بما تركه من الأثر فى أحوال الشرق. ومن محاسن الاتفاق أنه تلقى من فرنسى يدعى المسيو (ليون). من مدينة مرسيليا أول عبارات التشجيع التى نبهت فى نفسه الآمال وأيقظت المطامع فيها من نومتها.

بلغ محمد على إلى أسمى المراتب فى الحكومة المصرية مجتازا من الصعوبات مالا حصر له فتغلب عليها، تارة ببسالته وإقدامه وطورا بدهائه وصائب رأيه. والحقيقة التى لا مراء فيها أن نابليون أو بعبارة أخرى فرنسا، هى التى أخذت بيده فى الطريق وفتحت له مغاليق الأبواب، فنابليون وفرنسا كانا يعدلان فيما أصاب من النجاح نصف طالعه السعيد، لأنهما بفوزهما على المماليك، أصحاب السيادة الحقيقية على مصر فى ذلك الوقت، وانتصارهما عليهم فى ثلاث معارك كبيرة، مهدا له طريق الوصول إلى الغاية البعيدة التى كان يرنو إليها.

ولا يزال محمد على ـــ وهو القابض الآن على زمام الحكم ـــ مؤيد الجانب من الفرنسيين. فلكأن لفظة الفرنسى أصبحت حرزه الحريز وطلسمه الجالب للخير والدافع للشر، وكان فى القطر المصرى للحكومة الفرنسية قنصل اسمه (دلسبس) كان أول من والاه بنصائحه ومشوراته. وجاء من بعده المسيو (دروفتى) الذى أحرز عنده نفوذا كبيرا ومكانة عالية ـ ليس فقط باعتبار كونه وكيلا لأمتنا ـ بل أيضا باعتبار أنه من البارعين الماهرين فى الفنون العسكرية. وبالجملة ففى عهد قناصلنا الجنراليين الذين تعاقبوا على كرسى القنصلية الفرنسية، مابرحت الروابط بين فرنسا وسمو الوالى وثيقة العرى

قائمة على أساس المجاملة وحسن التفاهم.

وكان مما يهم محمد على، بعد اذ تسلم أزمة الحكم، الاحتفاظ بها حتى النهاية. فلكى يصل إلى هذه الغاية استهدى بخطط نابليون وسياسته مستفيدا من عظات القتال مع الفرنسيين وعبره. وكان يرى أنه لابد له فى الاحتفاظ بسلطانه، من جيش قوى منظم ليس على الأساليب التركية، فيكون جيشا نزوعا إلى الفتن والاضطرابات. متهددا على الدوام حياة الذين يجرون عليه الأرزاق والأعطيات، بل جيشا خاضعا للقوانين والنظام، قادرا على اعتياد التدابير العسكرية ليكون الفوز مكفولا له فى ميادين القتال. فالغرض الأول الذى قرطس محمد على سهمه، فيه، إنما هو اجتياز انجع الوسائل لإصابة الغرض الآنف الذكر ألا وهو تنظيم جيوشه طبقا للأساليب الحديثة.

ولست أدعو أحدا إلى اعتبار والى مصر واحدا من رسل الحضارة والمدنية، بل أدعو إلى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين، وأنه مع كونه لم يعلم شيئا من شئون الأمة التى ظهر بينها أمره ولم يجد منها تشجيعاً ولا مؤازرة على العمل قد سلك مسلكا مبنيا على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم أولا ثم الاحتفاظ به بعد ذلك.

وعلى أثر تنظيم الجيش والدوننمة بمعاونة جماعة من الفرنسيين من ضباط الجيش السابقين والمهندسين، وبأنوار عرفانهم وسعة مداركهم وقوة عارضتهم أقيمت معاهد التعليم العام والمدارس العالية وشيدت المستشفيات وسلم زمام إدارتها والخدمة فيها إلى فريق من، الفرنسيين. ومن ثم يرى أن الجيش وما يرتبط به من الفروع العديدة هما للذان دفعا بمصر فى تيار حركة المدنية التى مابرحت تسوقها إلى الأمام حتى اليوم.

غير أنه لاينبغى أن يخطىء القارىء فى الأمر أو يعسر عليه إدراك سره، فإن الذى أثار تلك الحركة ونبهها من خمودها إنما هو ذلك الرجل العظيم، بما فطر عليه من كرم الشمائل ونبالة المقاصد وأصالة الرأى وبعد النظر. أما الشعب المصرى فلم يساهمه = يشاركه = قط فى شىء ما من التصميمات التى أقرها، ولا فى اختيار الوسائل التى استحسنها لتنفيذها. بل ألقى فى طريقه كل ما استطاع ان ينثره فيه من الصعوبات والمعاثر لتعطيلها ، وأقام فى وجهه الاعتراضات الجمة عليه. ولقد رأى محمد على عندئذ أنه لإيلاف ذلك

الشعب وتعويده الأنس بتلك الأنظمة الجديدة ينبغى العمل لإزالة ما ران على قلبه من الشكوك ومكافحة ميله إلى التشبث والعناد.

ولايأخذن المصريين أحدٌ بجريرة هذه النزعات ، فإن الروسيين لم يشدوا أزر بطرس الأكبر فيما تصدى لإجرائه من جلائل الأعمال وإدخاله على شئونهم من نافع الإصلاحات وتلك شنشنة معروفة عن الأمم فى أدوار أرتكاسها وتنكسها كلما ظهر من بينها مصلح يريد الأخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها إلى الغايات العالية فى الحضارة والرفاهية، تعرضت له بالعمل على إحباط مساعيه وألقت فى طريقه العقبات والمصاعب.

لم يذكر التاريخ مثلا لأمة نهضت بدافع من نفسها لبناء صرح المدنية وإقامة معالمه. وإنما الذين تعرضوا لذلك أفراد امتازوا بذاتية متينة وعبقرية عالية، فدعوا إلى مشاركتهم فى عملهم أبناء وطنهم. وكثيرا ما لجأوا فى تنفيذ مقاصدهم إذا أرهقتهم من هؤلاء نزعة الجمود على القديم، إلى وسائل العنف والشدة. وتعليل هذه الحالة ليس بعازب على الفطن اللبيب لإمكان تطبيق المنطق عليه فقد جبل الإنسان على أن لايهتم إلا بما يشعر بضرورة قضائه من الحاجات لنفسه، وأن لايتحرى المزايا والفوائد إلا بنسبة أهميتها وضرورتها لشخصه. ولما كانت الشعوب، التى على فطرة التوحش والهمجية لاتشعر بشيء من الحاجات عادة، فإنها تجهل طبعاً فوائد المدنية ومزاياها، ولايتاح لها تقدير أهميتها إلا إذا رضخت لإرادة رجل تأججت فى صدره نار المطامع الشريفة وجمع عزيمته على نيلها مستعينا فى ذلك بتلك الشعوب ذاتها، وإنما عبقرية الرجل العظيم فى تقديره أهمية مايراه من الوسائل محققا لمراده، ولقد كان محمد على ذلك الرجل فيما يتعلق بمصر (١).

هذا ولم يبدأ بتطبيق الإصلاحات الحديثة، على الطراز الأوربى بالآستانة إلا من باب المجاراة والمنافسة لمحمد على. ولعل السلطان محمود تذكر وقتئذ ما كان من انصراف سلفه السلطان سليم الثالث إلى فرنسا فى أن توافيه ببعض البيانات اللازمة لإدخال النظام والترتيب على جيشه.

يؤخذ مما تقدم أن الإصلاحات فى تركيا لم يبدأ بها إلا بعد أن تم فى مصر

(١) : من الطبيعى أن تكون هذه الرؤية استمرارا للنظرة الظالمة غير الموضوعية لطبيب يناصر الحملة الاستعمارية على مصر وهى لاتمت للحقيقة بادنى صلة.

تنفيذهـا، ولم يقصد ها فى الحقيقـة سوى منـاظرة محمد على كيـلا يقال أن المتبوع أصبح ـ بالنسبة إلى تابعه ـ فى طريق التقدم من المتخلفين. وإذا جاء تطبيق، الإصلاحات فى مصر مقرونا بـالنجاح مكفول الثمرات، فإنما الفضل فى ذلك يـرجع إلى تأثير الحملـة الفـرنسيـة فى شئون مصر وأحـوالها، وهـو مايستخلص منه أن فرنسا ونابليون كـانا سبب حركة الحضارة التى ظهرت فى الشرق، وتولى محمـد على غراسها فى مصر وتعهـدها بعنـايته حتى أينعت ثمارها على ماهو مشاهد اليوم.

٢. الحكومـة فى مصر

إدارة الأقاليم فى عهد باشوات الباب العالى- آراء محمد على فى الإدارة- تشكيل المجالس الخصوصية والدواوين فى مصر.

٢- لقد كان المفهـوم أن تدار حكومة مصر، بالنظر إلى كـونها إقليما تابعا للسلطنـة العثمانيـة اسما لا فعـلا بحسب قوانين هـذه السلطنـة وأنظمتهـا الإداريـة، إذا صح أن لها قـوانين تسير على منهـاجهـا، ولكنـا نعـرف كيف تشكلت الدولة العثمانية، وأن خلفاء عثمان لم يخطر قط ببالهم، عندما دوخوا الممالك وفتحوا الأقاليم وأخضوعهـا لسلطانهم، أن ينظروا فيما إذا كانت هذه الأقطار تتكـون منها ــ باجتماعهـا بعضها إلى بعـض ـ حكـومة متجـانسة العناصر داخلة فى نطاق حدودها الطبيعية.

كـلا ! لم يفكروا فى شىء من ذلك ولم ينظـروا فيـه، بل جعلوا مقصـدهم الوحيد، بلا رويـة ولاتبصر، ضم بلاد إلى بلادهم وإلحاق أرض بأرضـهم على طريق الجزاف والمصادفة، وكأننا بهم وقد استدرجهم الزهو والغرور، فبدلا من أن ينشئوا ضمن دائرة محدودة ـ وإن تكن كافية ــ حكومة منتظمة كان المرجو أن يساعد انتظامها على تنمية قوتها، بددوا سيادتهم الاسمية فى أقاليم وأقطار سحيقة عن عاصمتهم بطول الشقة وانفراج مابين الأخلاق والعادات والأجناس واللغات، منفصلة عنها بذلك أكثر من انفصالها بالمسافات الطويلة والحواجز الطبيعية، فأضعفوا لهذا السبـب أعصاب سلطتهم الحقيقية بقدر ما أعطوا من السعة والامتداد لمظهرها الخيالى. وكانوا غلاظا فى السياسة فلم يهتموا إلا يسيرا بتفـاصيل إدارة الاقإليم التى أرضخوهـا لحكمهم. وكانت

أهمية الولايات (الباشلكيات) تقدر فى نظرهم بما يرد من محصولها وأموالها على الخزانة العامة. وهو مادعاهم إلى أن يعهدوا بإدارة الولايات إلى أقدر الباشوات على تقديم أعظم ما يمكن من أموال الجباية. وكانوا يعطون الإقاليم التى يربو نفوذهم وسلطانهم فيها عليها فى غيرها ، بطريق الالتزام لمن يقدم أوفر عطاء. بل كانوا يعمدون إلى المساومة فى إعطاء هذه الالتزامات كما لو كانت تجارة أو احتكار ، وكانوا يطلبون من الملتزمين، إذا شبت الحرب، إمدادهم بالجنود والسفن ليس إلا. فلم تتعد الروابط السياسية بينهم والولايات التى فتحوها بسلاحهم هذا الحد.

وكان، أرفع الباشاوات مقاما وأجلهم شأناً فى نظر الباب العالى أكثرهم توريدا للأموال. وكان الواجب أن تكون الحالة غير ذلك بالنسبة لتلك الأقاليم، فإنه بقدر ما كان يناله الوالى من الحظوة والزلفى لدى الديوان بموافاته إياه بأكثر ما يكون من المال، كان يتذرع بسلطته للضغط على الأهلين والسلوك معهم مسلك الجور، ويبتز ما بأيديهم من المال. ومن أين كان له أن يعمل لمحض خير الولاية الموكول أمرها إليه؟ نعم إن هناك مستثنيات لكل قاعدة، ولكننى لا أفرض وجودها هنا إلا من باب التجوز والتسامح، تكريما للفطرة البشرية وحسن ظن بها. وإلا فهل كان مما يسلم به اتفاق مصلحة الولاية والأحوال فيها على مارأيت من الظلم والاستبداد، مع مصلحة الوالى الخاصة ؟ بل هل كان من المستطاع أن يتفق مستقبله مع مستقبل محكومين ويمتزج به؟ كلا ! لأنه إذا ترك الجرح الذى أصابهم به ليمتص منه دماءهم ويستلب أموالهم يملأ بها صناديقه، ويسدد ديونه ويعمر خزائن حماته والذادة عنه فى الآستانة، لايلبث أن يصل إليه فرمان الخلع فى الحال أو أنشوطة ينصرم بها مع حبل إدارته حبل عمره أيضا. فمن غير الممكن لوالٍ فى مناصب الولاية توافر الضمانات الكفيلة له بالترقى والاستمرار على العمل، مالم يبهظ عواتق محكوميه بمختلف الفرض والجبايات. ثم لا ينسى أن له مصلحة كبرى فى الضغط على محكوميه ليس فقط بدافع الطمع، وهو الشعور العام فى بلد يرتفع المرء فيه بالدسائس من أحط الدرجات إلى أعلى الدرجات، بل أيضا بسائق قوى من غريزة حفظ الذات، وهى صوت الطبيعة الآمر ونداؤها الذى لست أظن أن من بين الرجال

من يقدر على مقاومته.

يفهم مما تقدم أن علائق الولاة مع الديوان كان لامناص من أن تلقى الأمة في حماة الهمجية، وتحول بينها والوثـوب في طريق التقدم والنجاح. دع أنهم كانوا يجعلون استبداد القوة من مظاهر منصب الولاية، حتى بلغ من أمر هذا الاستبداد أن جميع الحقـوق - إلا ما كان متعلقـا منها بالـدين - لم يستطع أحـد الجهـر بها. وتلك إرادة الـولاة وسلطتهم المطلقـة وسيرهم بين النـاس بالحيف والعسف. ومما لاريب فيه أن هنـاك أنظمة كثيرة ركنهـا الاستبداد وقمتها التحكم ومطلق التصرف، ولكن هذا الاستبداد كان شائعاً في كل أرجاء الـدولة العليـة. إذ كـان ينبعث من المركـز متشععا فيما حـولـه كما تتشعع أنصاف أقطار الدائرة إلى جميع نقط محيطها.

أما محمد على فقد عـرف كيف يوطد دعائم شوكتـه ويرسيها على القرار المكين. فهو أول عثماني استطاع إدراك الأفكار النافعة فيما يتعلق بالحكومة والإدارة. وهو أيضا أول من أبرزها من حيز العدم إلى عالم الوجود.

نعم إن سلطتـه مطلقـة، ولكنـه أحكم التـدبير بتحـاشيـه عن الحكم الاستبدادي الذي كان لمثله، في شـوكته وقدرته أن يجري على خطته إذ شكل لنفسه مجلسـا خاصـا اعتاد المداولـة مع أعضائه في جميـع الأعمال المتعلقة بالحكومة قبل الشروع في تنفيذهـا. وألف لكل فرع من فروع الإدارة مجلسا من الأخصـائيين، فكـان هنـاك مجلس للحـرب ومجلس للبحـريـة ومجلس للزراعة وآخر للتعليم وغيره للصحة.. إلخ.. وكان هناك مجلس عام فوق هذه المجـالس جميعاً يـدعى بمجلس الحكـومة، من اختصـاصه النظـر في جميع أقسام الحكومـة وكان إذا عنت الحاجة إلى وضع قرارات مهمـة في الزراعة أو الأشغـال العامـة الخطيرة، يعقـد مجلسا لـذلك يجتمع فيـه حكام الأقـاليم ومديروها.

ولقد أدرك ـــ أول وهلة ـ أنه لأجل تسيير الإدارة على المنهج القـويم، لابد من العناية بتقسيم الحكومة إلى فـروع مختلفة. وقد شكل فعلا هذه الفروع وجعل على رياستهـا الوزراء والنظار. فأنشئت على التتابع وزارات الـداخلية فالحربية فالبحرية فالمعارف العمومية فالمالية فالخارجية فالتجارة.

ومن المؤكد أن هذه المعاهد الحكومية لم تبلغ درجة الإتقان والنظام المرجوة من أول أمرها. إلا أن هذا لايخلينا من تبعة الاعتراف بالجهود التى بذلها سمو الوالى فى هذا السبيل، وبمثابة من النظام وحسن الأساليب فى إدارة الأعمال، بل بما أظهره من صدق الإرادة بإدخال النظام الإدارى فى بلاده على وجه يثبت تقديره لأهميته.

ومما لاشك فيه أنه إذا توافر عنده الوقت الكاف وانتهى من الأعمال التى يعنى الآن بإنجازها وخرَّجت المدارس العدد الكاف من الأكفاء، ستتحلى مصر بحلية نظام دستورى ثابت يكون قد قتله من قبل فحصا ودرسا ونظر فى وسائل تنفيذه من الوجهة العملية.

وعلى كل حال ينبغى لأوربا أن تعلم علم اليقين أنه إذا اغتصبت من مصر السلطة التى أقام محمد على صرحها لتعطى إلى الباب العالى، فإن ذلك القطر لابد له أن يهوى فى مهواة من التأخر لاقرار لها. واللازم لمصر الآن أن تكون لها حكومة خاصة منظمة تنظيما متينا، فقد قال نابليون إن للحكومة فيها من التأثير أكثر مما للحكومات الأخرى فى بلادها، خصوصا إذا كان الغرض المقصود تعزيز ثروتها العامة . وسمو محمد على جدير، ولاشك بالمكافأة لأنه أول من أرسى فى مصر قواعد إدارة حكيمة تعتبر وحدتها وقوتها من أهم الشروط الحيوية للمحافظة على كيانها.

٣ . الوظائف الإدارية الكبرى التى استحدثها سمو الوالى

الموظفون الجدد: المديرون والمأمورون والنظار ومشائخ البلاد والخولية والصيارفة والشهود- شرطة القاهرة.

٣- الموظفون الجدد

رأينا فيما تقدم أن محمد على غير تقسيمات القطر المصرى وبدل منها بتقسيمات إدارية تكفل للسلطة حصر الموارد ووحدة العمل. وكيفية ذلك أنه قسم مصر إلى سبع حكومات أصلية، جعل عليها قومة يسمون بالمديرين، ومن تلك الحكومات إثنتان يتألف الوجه البحرى منهما وواحدة تتألف منها

مصر الوسطى وأربع يتألف منها الوجه القبلى. وكل حكومة أو مديرية تنقسم إلى مراكز والمراكز إلى أخطاط.

أما المراكز فرؤساؤها يدعون بالمامورين، وأما الأخطاط فرؤساؤها يدعون بالنظار والخط يشمل فى دائرته جملة قرى لكل قرية رئيس يدعى بشيخ البلد.

٤- اختصاصات هؤلاء الموظفين

يتصل شيخ البلد مباشرة بالفلاحين الذين يلجأون إلى قراره وحكمه فيما يشجر بينهم من المنازعات، وهو الكفيل للحكومة بدفع الضرائب وأموال الجباية.

أما رئيس الخط فيطلب منه الإشراف على العمال المعهود إليه أمرهم فهو الذى يقوم بتوقيع العقوبة عليهم ، إذا أنس منهم إهمالا فى تنفيذ أوامر الحكومة أو إعراضا عنها.

أما المأمور فوظيفته تحديد الأعمال الزراعية، ويشترك مع المدير فى تقدير عدد الفدادين المخصصة فى كل قرية للزراعات المختلفة بحسب ماتقتضيه طبيعة الأرض. وعليه أيضا مطالبة الفلاحين بالضرائب، إما أصنافا من الحاصلات وإما مالا نقدا وأن يجمع فى الشون بعد الحصاد الحاصلات التى تؤول إلى الحكومة.

وإلى المأمور يرجع الأمر فى جمع الأنفار للخدمة العسكرية والأشغال العمومية. وعليه أيضا مراقبة المعامل والفاوريقات.

أما المدير فمن واجباته تفقد الأقسام والمراكز الداخلة فى نطاق اختصاصه والسهر على تنفيذ أوامر الوالى وقرارات المجلس والعُناية بترميم الترع والقناطر والجسور.

وعلى المآمير والمديرين أن يبعثوا فى نهاية كل أسبوع إلى وزارة الداخلية جريدة ببيان تفصيل أعمالهم اليومية والأعمال التى سيقومون بها. وما من مسألة إلا وتدور المناقشة عليها ولا يتقرر شىء فيها إلا بعد إمعان النظر فيها وتدقيق البحث وبعد أن يبدى سمو الوالى رأيه بشأنها.

وجميع المآمير الآن من المصريين الوطنيين، إلا النزر اليسير منهم. والسبب الذى دعا سمو الوالى إلى أن يعهد إليهم هذه الوظيفة اعتقاده بدرايتهم التامة بأحوال البلاد وخبرتهم الوافية بزراعتها، وأنهم أقدر من غيرهم على الإلمام بمراكز مواطنيهم واحتياجاتهم ومواردهم وأنهم أولى بالقيام على شئون الإدارة من الأجانب الذين لا يخلون من نزعات التشيع الجنسى. على أن هذا التسامح لم يأت بكل ما كان ينتظره محمد على من النتائج الحسنة. لأن هؤلاء الموظفين المصريين كانوا يعاملون الأهلين بأقل مما كان يعاملهم به الأتراك من الرفق والرحمة.

ولقد أقام الوالى الحجة البالغة على حسن نياته وعظيم تسامحه باختياره بعض المآمير من نصارى البلاد. ومفهوم أنه لم يسبق لمن حكموا مصر من المسلمين أن قلدوا أحد المسيحيين مثل هذا الشرف أو منحوهم مثل هذه الثقة لأن أما المديرون فهم جميعا من الجنسية التركية.

وفيما عدا مشائخ البلد يوجد بكل قرية رئيس للزراعة ومساح يدعى الخولى وصراف لجباية الأموال وحساب المبالغ التى يسلمها إلى المأمور ليتولى تسليمها إلى خزينة المدير. وفى كل قرية شاهد ينتدبه القاضى للحكم وتحرير العقود العمومية باعتبار كونه من المأذونين.

يفهم مما تقدم مقدار ما هنالك من التباين بين اختصاصات الموظفين المصريين وصفاتهم فى مصر وبينها فى موظفى البلاد الأخرى.

فليس للموظفين المصريين فى القطر المصرى تأثير سياسى ما، فهم حكام إداريون لا أكثر. تنحصر سلطتهم فى تقدير حاصلات الأرض وتعهد إدارة المصانع والقيام ببيان موارد البلاد المعهودة إلى إدراتهم.

ولاؤلئك الموظفين مرتبات تختلف باختلاف درجاتهم. وقد جعل لهم منذ زمن قليل شوار - أى لباس خاص وشارات معينة لتمييزهم بعضهم عن بعض فمشائخ البلد يعرفون بوساماتهم الفضية والنظار بها ذهبية، والمأمورون بها ماسية. ويشغل وظائف المديرين إما البكوات برتبة الميرالاى أو الفريق وإما الباشوات.

٥- البوليس أو الشرطة

لا يعد ثغرا دمياط ورشيد ولا مدينة القاهرة من البلدان الداخلة فى اختصاص المديرين. فإن إدارة هذه المدن الثلاث موكولة إلى حكام خصوصيين، ولما كانت العاصمة أكثر سكانا من غيرها فالحاجة إلى حفظ النظام وصون الأمن فيها تستدعى دوام اليقظة والتعهد، فقد عنى بهذا الفرع من فروع الحكومة وأتقن تنظيمه فيها. ومنذ سنوات قليلة كان يتولى أمره موظفان كبيران يسمى أحدهما بالوالى والآخر بالضابط. أما الآن فلا يوجد على إدارته غير موظف واحد هو ثانى الاثنين المذكورين، وتحت إمرته ضباط تميزهم شارة خاصة. وهم منتشرون فى أنحاء المدينة تميزهم عن غيرهم علامة خاصة ويصونون ــ بمراقبتهم الفعالة ويقظتهم المستمرة ـ النظام العام والأمن الخاص بأفراد الناس. ويقومون أثناء الليل بالنوبة، فإذا مضت ساعة ونصف من غروب الشمس ألقوا القبض فى الطريق على كل شخص لايحمل بيده مصباحا. وبهذا لاتمر ساعتان أو ثلاث ساعات بعد الغروب حتى تكون الشوارع خالية من السابلة. وفى يقينى أن الأمر القاضى على الذين يخرجون فى ظلام الليل من بيوتهم ــ وعددهم قليل جدا ـ بأن يحملوا المصابيح المنيرة لمن الأوامر الحكيمة فى مدينة كالقاهرة لم ينشأ بها الاستصباح العام. وعادة الشرطة فى قيامهم بالنوبة ـ أن يوجهوا إلى المارة السؤال الآتى باللغة التركية « كيم دورو» ومعناه « من هذا؟» فيجاوبون بقولهم: «ابن البلد» فيصيح العسس عندئذ قائلا له: « وحد الله» فيجاوبه بقوله : «لا إله إلا الله».

والمسيحيون ملزمون بالنطق بهذه العبارة كالمسلمين سواء. وسبب ذلك ما وقر فى نفوس أهل الملة الإسلامية من أن مرتكب الجريمة أو المعول على ارتكابها بقصد، لا يجرؤ بوجه ما على مجاوبة العسس بالقول المتقدم. ولقد اشتهر الاغاوات بالمهارة والتفنن فى استكشاف اللصوص، ونقلت عنهم فى ذلك حوادث كثيرة وحكايات نادرة تدل على براعتهم فى اصطياد اللصوص بنفس المكائد التى يحاولون أن يكيدوها للآمنين.

٤. الموارد المالية لوالى مصر

٦- أشرح هنا القواعد التى أقام محمد على عليها بناء شوكته وقدرته، ومنها يتبين أن الضرورة القاهرة التى ألجأت سمو الوالى إلى إنشاء الحصون والمعاقل للامتناع بها، قد أرشدته إلى الوسائل التى لايتسنى له تحقيق غرضه بدونها. ولسوف يقتنع المكابرون انه برضوخ محمد على لقوة الحوادث ومضيه فى تيارها ولبسه لكل حال لبوسها وضمانته لوجوده السياسى بما وضعته ظروف الزمان والمكان فى يده من وسائل العمل ومقوماته، قد صنع القالب الذى أراد أن يفرغ لمصر فيه دستورا موافقا لعبقريتها وموفيا بمطالبها وحاجتها، بحيث لا يكون أثرا زائلا لسياسة لا حياة ولا أفق لها. الدستور لا يكون فى هذه الحالة إلا نتيجة طبيعية ترمى إليها مقدمات لا تعدو كونها ماضى أمة قضت ضرورة الحاضربتعديله على ما يطابق مقتضيات هذا الظرف وبث عنصر الحياة فيه، تلك الحياة الضمنية بمستقبل ساطع النور لن يقبل إلا فى هيئة وحشد عظيم من آثار التقدمات الفكرية والاصطلاحات التى أولدتها طبيعة الأشياء والتى سيقوم على تنميتها التدبير والاعتدال.

ومما لا يختلف فيه اثنان أن ما أنجزه محمد على من الأعمال حتى الآن لم يبلغ درجة الكمال المطلق. ولكن سمو الوالى وصل به فى الظروف الراهنة إلى أسمى مافى قدرة إنسان أن يبلغه من غايات الكمال. وعلى كل حال فإنه لن يتركه بعده عملا مبتورا لا أمل فى بقائه واستقراره. كلا! لأنه لقح أعماله كلها بلقاح البقاء والاستمرار، وحسبه هذا فخرا ومجدا. وفطاحل الرجال لايموتون إذا غيبت أجسامهم فى الأجداث، بل تعيش ذكراهم مؤيدة بما شادوه من الآثار وقاموا به من جلائل الأعمال. فإذا اتسع نطاق المستقبل الذى مهدوا له الطريق فى حياتهم وترامت آفاقه إلى أبعد مدى، تيسرت تنمية التراث الذى تركوه فتنمو بنمائه سيرتهم العطرة وتتسع الإشاعة بها حتى يطبق الخافقين ذكرها، وقدم الناس إلى عبقريتهم الممثلة فى آثارهم إتاوة الإعظام التى تزداد باطراد نمو ذلك التراث وتحسنه على توالى الأيام وتعاقب الأعوام.

وفى شوكة محمد على وقدرته أمران جديران بإمعان النظر فيهما لتبين

حقيقتهما. ألا وهما: ماهيـة هذه القـدرة فى ذاتها والشروط التى يترتب عليها بقاؤهـا أو بعبارة أخرى العناصر المكـونة لها وقوام هذه العنـاصر. وسأقدم الكلام على ثانى الأمرين وهو الموارد المالية كى أتطرق منه فيما بعد إلى الكلام على الأمر الأول وهو القـوة العسكرية. لأن القوة العسكريـة فى المال كالنتيجة للمقدمة فى القياس المنطقى ولنجمل القول فى ذلك الموضوع فنقول: إن الموارد المالية التى يعتمد الوالى عليها هى: أولا تشكيل الملكية فى القطر المصرى.

وثانيا احتكار الحاصلات الزراعية. وثالثا الضرائب والرسوم.

الملكيـــة

تشكيل الملكية فى الشرق– حالتها فى مصر منذ الفتح الإسلامى على يد عمرو بن العاص إلى الفتح العثمانى على يد السلطان سليم– حالتها على عهد المماليك. الأوقـاف، الأرزاق، الالتزام– أراضى الفـلاحين والأوسية– التغيير العظيم الذى أحـدثه محمد على– آراء وخواطـر فى النظام الحالى للملكية.

٧- تشكيل الملكية فى الشرق

مسألة الملكية من أهم ما يرتبط بمصر من المسائل العامة لسببين: أحدهما أن الملكية فيها قائمة على قواعد وأســاس تغاير ما تقوم عليها منها فى مختلف البلاد الأوربية. والثانى أن الأسلوب الذى كـانت الملكية قائمة عليه لمحمد على السبيل لجمع الموارد التى استعان بها على تشييد صرح شوكته.

ولم تعين طبيعة الملكية فى المدنيـات الشرقية بمثل الصراحة التى عينت بها فى الحضارة الغربية. لأن الحضارة الشرقية مغايرة للحضارة الغربية ببقائها واستمرارها. وإذا جعلت بيـانى بشأنها قاصرا على مصر، فإنى مثبت هنا أن الأراضى المصرية كانت منذ عهد الفراعنة الأقدمين ملكا لولى الأمر.

٨- حالتها فى مصر منذ الفتح الإسلامى إلى الفتح العثمانى

قرر الإســلام مبدأ عاما فى ملكيـة الأرض تلخصه الآية الآتيـة من القرآن: «أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

فبمقتضى هذا المبدأ العام كل حق للملكية الفردية مستمد من ولى الأمر. ولما استولى عمرو بن العاص على مصر أقر الخليفة عمر بن الخطاب سندات الملكية التى كانت موجودة إبان الفتح، وتم انتقال الملكية بعد ذلك بطريق الوراثة مقابل دفع فرضة من المال إلى الأمير. وظلت الأحوال سائرة على هذا المنوال فى عهد سائر الخلفاء والسلاطين الجراكسة. ولم يطرأ عليها تعديل إلا عقب الفتح العثمانى على يد السلطان سليم الأول. فقد قرر هذا السلطان أن الأراضى التى أعطيت فى الأصل من الأمراء تحول منذ الآن فصاعدا إلى ملكية ولى الأمر. وبهذه الكيفية أصبح صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها، فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة. غير أنه كان لورثته ردها إلى حوزتهم بدفع مبلغ معين، على طريق العسف والاستبداد، لا تقبل فيه مساومة.

وقد أخذ السلاطين، من خلفاء السلطان سليم الأول، يعهدون إدارة البلاد المصرية إلى دفتردار عنده سجل بجميع أراضيها. وكان قصدهم من ذلك تأييد الحقوق التى انتحلها ذلك السلطان لنفسه عليها. غير أن هذه الحقوق لم تلبث أن تلاشت بشوكة المماليك وامتداد نفوذهم، لأنهم كانوا أصحاب السيادة الفعلية على البلاد وكانوا يتصرفون فى الأرض على ما تشاء أهواؤهم ويضعون أيديهم على ما يروق فى نظرهم منها بلا أدنى التفات إلى الحقوق التى انتحلها الباب العالى على الوجه السالف.

٩- حالتها على عهد المماليك

فى عهد المماليك وإبان وجود الحملة الفرنسية بمصر، كانت الملكية منظمة على الوجه الآتى:

كان الشطر الأوفى من الأراضى ملكا للمماليك والحكومة وكان الشطر الباقى فى حوزة نحو ستة آلاف مالك يعرفون بالملتزمين. أما ما بقى من الأراضى، فكان موقوفا على المساجد ويعرف بالأوقاف أو الرزقة.

وكانت أملاك الملتزمين من الأرض على نوعين: نوع يسمونه بأطيان الفلاحين إذا كان الفلاحون يزاولون العمل فيها لاستدرار خيراتها ابنا عن أب وأبا عن جد. وكانوا يدفعون الضريبة عنها والإيجار المستحق عليها، فكانوا

لها بمثابة المزارعين. أمـا النوع الثانى فكان يعرف بأطيـان الأوسية - أى أن الأطيان التى اشتراهـا الملتزمون بأمـوالهم وأخذوا يزرعـونها على حسابهم. وكانت أطيان القرى مقسمة إلى أربعـة وعشرين قيراطا يملكها ملتزم واحد أو جملة من الملتزمين. وكانت الرابطة بين نوعى الأطيان السـالفى الذكر وثيقة إلى حد أن الملتزمين كانوا لايستطيعون أبدا أن يبيعوا شيئا من أطيانهم المعروفة بأطيان الفلاحين إلا إذا باعوا فى الآن نفســه جزءا من أطيانهم المسماة بأطيان الأوسية. وكـان الملتزم لا تنقل ملكيــة أطيانه بعـد وفاتـه إلا إلى أبنائه أو من يـوصى بهم أن يكونـوا ورثة لـه. وعلى كل حال فقـد كان من المفـروض على الورثـة أو الذيـن احتازوا الأرض بمبيعها إليهـم - كلهـا أو جزءا منهـا - أن يحصلـوا على تقليـد الـوالى بـــذلك لكى يجوز لهم الحلـول محل المورث فى الحقـوق المخلفة عنـه. وكان ثمن التقليـد مبلغـا من المال يعدل القيمـة التى اشتريت الأرض بها، فإذا لم يـدفع ذلك الثمن آلت الأرض إلى الحكومـة. وكان هذا ما يحصل غالبا، إذا لم يوص الملتزم المتـوفى - بدون أن يعقب - بأملاكه لأحد. ذلك لأنه كان لا يعترف شرعا إلا بأبنائه كورثة طبيعيين له.

وقد قلت إنهم كانوا يطلقون كلمة الوقف إطلاقا عاما على الأملاك الخاصة بالمســاجد ومعــاهد البر والإحســان. فإذا كانت هــذه الأملاك أطيـانا سميت بالرزقـة. وكان لها شأن عظيم أيام حكم الدولة العليـة والمماليك، إنها الدلالة الواضحة على أن حقوق الملكية لم تكن مأمـونة فى عهدهم. ولما كانت الأوقاف مما لايجوز التصرف فيه بوجه ما، فقد نشأ عن ذلك أن عددا عظيما من الملاك عمدوا إلى تخويـل من يوصـون بهم مـن أفراد أسرتهم حق الانتفاع بـأطيانهم بعد وفاتهم فأوقفوها على المساجد. وكان يدفع إليهم جانب من ريعها ليكون لهم بمثابـة إيراد ثـابت لا يجوز تقاضى الضرائب عنـه ولاتمتد إليـه مطامع البكـوات. وقد بلغت فـوائد هذه الأوقـاف ومزايـاها من قـوة التأثير الجاذب للملكية إلى حظيرة الـوقف، ما استفـز الحكومة إلى إصـدار أمرهـا بمنعه، إلا بموافقة منها. فقـد خشيت أن ينتهى الأمر إلى اندراج جميع الأراضى فى سلك الأملاك الموقـوفة ووقوع الأرزاق الكبيرة بعـد ذلك فى ملكية أصحـاب النفوذ والوجاهة من المشايخ، وأن يتمتـع هؤلاء بها آمنين فى ظل القانون الذى خص الأملاك الدينية بالرعاية والحماية.

تلك كانت حالة الملكية فى القطر المصرى حينما استولى الفرنسيون عليه. ولقد انتقلت إليهم حقوق الحكومة السابقة فى ملكية الأطيان، غير أنهم لم يستطيعوا جعل الفلاحين ملاكا بالنظر إلى انحطاط أحوالهم العقلية والنفسية وقتئذ.

١٠- التغيير العظيم الذى تم على يد محمد على

فى سنة ١٨٠٨ تم على يد محمد على التغيير العظيم الذى أصبح بمقتضاه مالكا لجميع أراضى القطر المصرى إلا القليل منها.

فقد طلب فى ذلك الوقت من الملتزمين أن يطلعوه على سندات ملكيتهم، فلما قدموها إليه قرر بطلانها جميعا - معتمدا فى ذلك على حق ملكية ولى الأمر - أى الحق المعترف به للحكومة من قديم الزمان. ومع هذا فقد أراد التعويض على الملتزمين، فقدر ريع كل منهم من إيراده ودفعه إليهم سنويا من الخزانة. ثم ترك لهم حق الانتفاع، مدة حياتهم بأراضى الأوسية بعد أن فحص سنداتها فحصا جيدا، وقرر مبدئيا، للتمشى مع الاعتقادات الدينية، احترام الاطيان الأرزاقية. ولكنه لم يلبث أن ألغاها آخذا على عهدته الإنفاق على المساجد وضمانة شعائر الدين، ثم أجرى على الشيوخ الذين كانوا واضعى الأيدى على تلك الأطيان معاشات سنوية. ولم يحتفظ بصفة الوقف إلا للأملاك المبنية والحدائق.

وكان يبغى بهذا التغيير العظيم الذى ملك بمقتضاه أراضى القطر المصرى إنماء موارده المالية لسد نفقات الإصلاحات العامة، ولكنه لم يكن يريد القضاء على الملكية الفردية . بدليل تنازله منذ بضع سنوات عن أكثر من مائتى ألف فدان، فضلا عن إبقائه على الأملاك المبنية كما ذكرناه.

وبعد أن حل محمد على محل الملتزمين توثقت عرى الاتصال بينه والفلاحين. فمهدت هذه الخطوة الأولى له تنظيم الزراعة وتقرير أساليبها واستأجر الفلاحين للعمل فى الأرض باليومية، إذ عين للواحد منهم قرشا واحدا يوميا كان يدفع إما نقدا وإما أصنافا من الحاصلات. ثم وزع عليهم الأطيان - على أن يبقوا مالكين لها دواما إلا إذا عجزوا عن سداد ضرائبها. وقرر فى الحالة الأخيرة أن يحل غيرهم، من القادرين على السداد، محلهم فى

ملكيتها. وقدم إليهم آلات الحرث وأدوات الزراعة والماشية اللازمة للرى. وكان على مأمور المركز أن يعين للفلاح مساحة الأرض التى تعطى له ليقوم بحرثها وزرعها. فإذا زرعها وحصد غلتها اشترتها الحكومة منه بأثمان معلومة. على أن يكون له التصرف كما يشاء فى الحبوب منها. فإذا باع هذه الحبوب بالمدن دفع عنها من الرسوم النسبية ما يدفعه عما يستنفده أو يبيعه منها فى مكان الزراعة والحصد.

١١- أفكار وخواطر فى النظام الحالى للملكية..

كان من تنظيم الملكية على الوجه السالف ومانشأ عنه من الارتباط بين الوالى والفلاحين، أن انبرى بعضهم لانتقاد هذه الحالة انتقادا مرا يرومون الحكم على مصر وسكانها بمقتضى مذاهب أوربا فى الملكية، من غير نظر إلى ما هنالك من الفارق بين أمة شرقية والأمم الأوربية. ومما هو أوجب للدهش أن أرى ذلك الانتقاد فيما يكتبه الانكليز الذين يظهر أنهم نسوا الأسلوب الذى تخيروه لتنظيم الملكية فى الهند، وهو المعروف باسم «زمندار» الشديد الشبه بما تتمشى الملكية على قواعده الآن فى القطر المصرى. على أن التجربة التى قام الفرنسيون بها أيام الحملة، والخبرة التى اكتسبها الأوربيون الذين تطاولت اقامتهم بمصر منذ ذلك العهد، دلتا صراحة على أن النظام الذى سنه محمدعلى للملكية هو أحسن مايكون من الأنظمة وأوفقها لحالة البلاد. إذ لولا هذا النظام لماتقدمت الزراعة بخطوات واسعة فى سبيل الاتساع والإتقان، ولا أدخلت إلى مصر زراعة النباتات المجهولة بها إلى ذلك الوقت. مع أن تربتها موافقة لها كل الموافقة، بل ولا زادت الحاصلات زيادة هائلة فى زمن يسير.

والفلاح المصرى نزوع بطبيعته إلى الدعة والسكون لضيق دائرة حاجته وأنها أقل مما يخطر ببال الأوربى أن فيه الكفاية للمرء. فلو ترك وشأنه،وهوعلى ما فطر عليه من تلك النزعة، لأدى تركه إلى سقوط الزراعة المصرية. فالنظام الذى سنه محمد على للملكية هو خير الأنظمة، لاسيما وقد تيسر بتطبيقه زيادة إيراد مصر الذى بلغ إلى ٦٠ مليون فرنك بعد أن كان لايزيد على ٣٥ مليون فرنك فى سنة ١٧٩٩ أيام الحملة الفرنسية.

ولست أنكر أن هناك إصلاحات جمة تقضى الحاجة بإدخالها، إلا أننى أجاوب الذين يأخذون على سمو الوالى أنه السبب فى عيوب الحالة الحاضرة بما يأتى:

أولا- إن الحالة الحاضرة أفضل بكثير من الحالة السابقة.

ثانيا- إنها من الحالات المؤقته التى تبشر الأمة المصرية بمستقبل سعيد محفوف بالخيرات والبركات، وتمهد السبيل شيئا فشيئا، بحسب سرعة تقدمها فى طريق المدنية، لتملكها حاصلات الأرض.

وأضيف إلى ما تقدم أن الحيف سيظل ملازما لتلك الحالة، إذ يصادر فى القريب العاجل على المركز السياسى الذى آل إلى محمد على وأسرته، ويزول بلا شك إذا سويت هذه المسألة التى يرتبط بها إما البقاء وإما الموت. وإنه لمن الجور الفادح والظلم الغاشم أن تلقى على عواهن سمو الوالى نتائج صراع أثير ثائره لغرض هو حرمانه، بغير حق، من ثمرات جهوده العديدة الطويلة.

٢. الاحتكـــار

الغرض من الاحتكار- قدمه فى القطر المصرى- سبب ضرورته فيه.

١٢-الغرض من الاحتكار

الاحتكار فى مصر، على عهد محمد على، هو الحق الذى احتفظت الحكومة به لنفسها فى أن تكون المشترية الوحيدة للشطر الأوفى من حاصلات الأرض. ومما انساق الناس إليه على طريق الوهم، الاعتقاد بأن هذا الاحتكار سار على حاصلات مصر كافة من غير استثناء. وهذا خطأ محض فإن هناك أصنافا عديدة من الحاصلات ومن بينها أغلب الحبوب لا تسرى عليها قواعد الاحتكار، بل ترك للفلاحين حرية التصرف فيها. وإنما الاحتكار يتناول القطن والأرز والصمغ والنيلة والسكر والأفيون الخ ولا يتعداها إلى غيرها.

١٣-قدمه فى مصر

اتخذ خصوم محمد على مسألة الاحتكار تكأة لتوجيه التهم البالغة إليه والنيل من شوكته والحط من كرامته والحط من شهرته.

ومما لا مراء فيه أن نظام الاحتكار نظام معيب من عدة وجوه، وإنما كان من الواجب، قبل اعتباره جريمة وإسناد هذه الجريمة إلى محمد على، الإقرار بأنه لم يكن ثمرة من ثمار اختراعه. بل إنه كان معروفا فى سائر أنحاء الممالك

العثمانية ومعمولا به، وأن الخط الشريف لم يصـدر بإلغائه منها إلا من عهد قـريب. مع أن هذا الإلغـاء لاتزال الشكـوك تحوم حول صحتـه أو الدقـة فى تنفيذه، دع أنه بعد هذا وذاك من الأنظمة الـلاصقة بمصر منذ قديم الزمان إذ من المقرر المعروف أنـه كان معمولا به فى كل زمـان واستمراره ينهض دليلا على ضرورته والحاجة إليه.

ألم يعهد إلى يـوسف (عليه السـلام) بعد إذ قام بتأويل الـرؤيا لفـرعون بجمع حاصـلات مصر واختزانها لتوزع ــ فى سنى القحط والمجاعـة ـ على الأهلين؟ وهل فى هـذا الأمـر إلا الاحتكـار بعينه؟ ولقـد أجمع المؤرخـون على تمجيد (سيزوستريس) والإشادة بذكـره لأنه خول رعيته حق الملكية. أفليس هذا دليلا نـاصعا على أنهم كانوا من قبله لا يملكون هـذا الحق؟ ومع هذا فقد توافرت الأدلة على أن حق الملكية لم يرتكز قط فى مصر على أساس وطيد. وقال أحـد مؤلفى مصنف الحملـة الفرنسيـة الموسوم: « تخطيط مصر» (المجلـد السابع عشر، الطبعة الثانية– الحكومة الحديثة–) مايأتى:

« منذ حدثت أول غارة على مصر، قام نظـام حكومتها على حق الفتح. وقد تمسك بهذا الحق كل من الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك، بدون أن يسنوا قانونا لتحديده وتعيين شرائط التمتع به. وإذا كان الشعب المغلوب على أمره قد منح أحيانـا حق الانتفاع ببعض قطع من الأرض فإنه كان يكفى، لا سترداد هذا الحق غير الثابت، صدور الأمر به بمحض إرادة الفاتح. وتلك لا تـزال الحال التى عليها الأمـلاك المسماة هنا بـالأملاك الخاصـة. فإنها تبقى مستقرة فى الأسرة ــ لا كحق ناشـىء عن الـوراثة ــ بل كآية مـن آيات عطف الحكـومة التى يبقى لها دائما حق فيهـا طبق مشيئتها. فليست تلك الأمـلاك إذن كما شهدناه الآن، ألا أحد ضروب الالتزام التى تنقلهـا الحكومة من يد إلى يد، بدون أن يكون للمنتفع بها حق التصرف فيها».

ولقد أحست الإدارة الفرنسية ـ إذا لم يكـن بضرورة الاحتكار ـ بصعوبة استبدالـه بحالـة أخرى منافيـة له. على أن الجنـرال (ديزه) كثيرا مـا فكر فى توزيع قسم من أراضـى الـوجه القبلى على الفـلاحين، ولكنه لم يستطع وضع هذه الفكـرة موضع الإجـراء (راجع فى كتاب تخطيـط مصر السالف الـذكر، الطبعة الثانية ، المجلد السابع عشر، موضوع – الحكومة الحديثة–).

١٤- سبب ضرورته

يسهل بمقتضى ما تقدم تعليل الاحتكار وإقامة الدليل على قدمه وإثبات أن محمد على لم يكن الواضع له من عندياته. ومن الحقائق الثابتة أن النيل، بفيضانه المنتظم، أوجد بالقطر المصرى حالة خاصة به. فإن هذا النهر، إذا ترك وشأنه، لا يروى إلا القليل من الأراضى إذ تضيع مياهه كلها فى البحر، فاقتضت هذه الحالة احتفار الترع العديدة وإقامة الجسور واتخاذ التدابير التى لايمكن لأحد غير الحكومة أن يقوم بها. وهذه الترع والجسور كان من غير الميسور للأهلين، ما لم يكونوا على إرث من الحضارة والعلم أن يتعهدوها بالعناية لانصرافهم إلى شئونهم الذاتية، ولا أن يفقهوا لما وراء هذا التعهد من الفائدة العامة للبلاد. وهذا فضلا عن أن إدارة تلك الأعمال والحاجة إلى من ينجزها من العمال وما يقتضيه إتمامها من وفير المال، أمور تستدعى وجود شركات تتعاون على أدائها، وهو أمر لم يكن ميسورا بالمرة، عند أمة كالأمة المصرية، بل كان من رابع المستحيلات.

وكان من الواجب على الحكومة - بعد أن تضع نظاما لرى الأراضى - أن تزرع بواسطة الفلاحين الأطيان التى ساقت إليها بذلك مواد الخصب والنماء، لاستحداث موارد جديدة للمال وتوسيع نطاق الزراعة طلبا للمزيد من الحاصلات . ولقد أدركت هذه الضرورة فأعطت الفلاحين ما يلزم من البذور والمواشى وآلات الحراثة لاستثمار الارض محتفظة لنفسها - فى مقابل ذلك — بحصة من الحاصلات غير ناظرة إلى ما قد يحيط بالسوق من اختلاف الأسعار وتذبذبها. ذاك هو بيان أصل الاحتكار فى مصر على عهد محمد على وضرورته.

ومفهوم أنه إذا كانت الإدارة قويمة حكيمة رحيمة، فإنها لا تتطلب من المزارع إلا ما يلزم لتحصيل ما أنفقته من النفقات ومداركة حاجيات الحكومة، ولكنها إذا كانت طموعة شرهة - كما هى فى كل مكان - فلا تلبث أن ترى نفسها مسوقة إلى الإجحاف والظلم. أما إذا اتسع نطاق حاجياتها، فلا مناص لها من ابهاظ عاتق رعيتها بالكلف الفادحة والفرض الباهظة.

ولمعترض أن يقول إنه كان من الأولى ترك الخيار للفلاحين فى مبيع حاصلاتهم على أن تجبى الحكومة منهم الضرائب نقدا عينا، لما يستتبعه ذلك

من تزاحم التجـار على الشراء وتنافسهم التنـافس الذى تنجم عنه مضـاعفة الفائدة للبائع. وجوابى على هذا الاعتراض أن المصريين لم يعتادوا ادخار المال لوقت الحاجة إليه، فهم مضطرون بحكم هذه الغفلة إلى بيع حاصلاتهم وهى على سوقهـا - أى قبل أن تنضج وتحصد. وهو مـايتأتى منه تحكم المشترى فيهم بفـرض الشروط المجحفة عليهم، وأخـذه المحصول الـذى اشتراه بثمن بخس دراهم معدودة فى اليوم المعلـوم، فيصبح الفلاح المسكين وليس فى يده ما يسد به الرمق. فى حين أن نظام الاحتكار يقضى بتموينه بكل ما يحتاج إليه من الزاد، وقد ترى نفسها بعد ذلك عاجزة عن جباية المستحق لها من الأموال فى ذمته. وشتان بين الحالين.

ولا يخامـرن القارىء أننى ممن يـذهبون مبـدئيا إلى تبرئة الاحتكـار من العيوب والموانع، أو يقولون إنـه غير قابل للتحسين والتعديل. وكل ما أراه أن تفكـر الحكومـة فى قلب النظام الحالى رأسـا على عقب، بل أدعوهـا إلى التريث حتى يبلغ الغاية القصوى مـن التحسن والارتقاء. والأمثل لمصلحة الجمهور وهو أمر تقره البداهة ويستدعيه الطبع السليم، اقتضاء أقل ما يمكن من المال من الممولين المصريين. غير أن السر كل السر هو فى أن المطـالبة بالقليل ينبغى معها أن تكون دائرة الاحتياجات ووجوه الإنفاق ضيقة وقليلة معا. فعليكم أن تخفضـوا اليوم من غلـواء احتياجـات الحكومـة المصرية، فإن شكـواكم من وجـود الاحتكار تقل، إذا لم تنمح بـرمتها. ويكـون محمد على فى طليعـة من يهمون بإصلاح الفاسد وتقويم المعوج.

٣. الضرائب أو الأموال

الضريبـة العقـاريـة أى الميرى- الضريبـة الشخصيـة أو فـرضـة النفوس والخراج- الضرائب المختلفة والجمارك- آراء فى جباية الأموال.

إيـرادات الحكومـة من الضرائب ثـلاثة أنـواع: إيـرادات ضريبة الأطيـان وإيرادات الضريبة الشخصية أو فرضة النفوس وإيرادات الجمارك.

١٥- الضريبة العقارية أو الميرى

لما استـولى السلطـان سليم على مصر أجـرى التأريع = تحديـد الـريع = لشطر كبير من أطيانها، وقرر بناء على ما ظهر من نتيجة هذا العمل مقدار ما

كان يجمعه كل ملتزم من الضرائب العقارية. وكانت تتألف هذه الضرائب من ثـلاثة أجـزاء: الأول وهو أوفـاها قـدرا كان مخصصـا لسداد أمـوال الميرى والثانى كان مخصصا للكشوفية والثالث لفائض الالتزام.

أما الميرى فكان يؤول إلى السلطان، وأمـا الكشوفية فإلى البك أو الكاشف حاكم الإقليم، وأما فائض الالتزام فكـان يزيد وينقص وكان يعطى للملتزمين كالميرى والكشوفية. وكان لا حـق للملتزمين فى فائض الالتزام، إلا إذا أدوا ما عليهم للسلطـان والكشاف. ثم إنهم فـرضـوا على الفلاحين رسـومـا كانـوا يدققون فى مطالبتهم بها وكانت تسمى بالبرانى.

ولم تكن الأراضى كلها، خاضعـة على السواء لفرض الضرائب عليها. فإن الأراضى التى كانت معروفة منها باسم الرزقة والأثر كانت معفاة منها فكان شأنها فى ذلك شأن الأراضى البـور غير الصـالحة للـزراعـة. أمـا الأراضى الرديئـة التى كانت للملتـزمين والفلاحين فكـان لها ضريبة معتدلـة أقل من الضريبة المفروضة على الأراضى الجيدة. أمـا أراضى الاثر والأوسية فكانت الضريبة تـدفع عنها بحسب جودتها وكثـرة ما تعطى من المحصـول وكانت الاثرية منها تدفع عنها الضريبة المعروفة بالبرانى.

أما الآن فـلا تمييز بين الأراضى، لأنها أصبحـت لا تدفع إلا صنفـا واحدا من الضرائب وهـو الميرى. ومتوسط ضريبـة الأطيان مقـدرة بما يعدل عشرة فرنكـات تقريبـا للفدان الـواحد، أمـا الأراضى الممتازة بـالخصوبـة ووفرة الحاصلات، فالضريبة التى تدفع عنها لا تزيد على ما يعدل ١٤ إلى ١٦ فرنكا. والأراضى الأقل منها درجة فى تلك المزايا تـدفع عنها ضريبة تختلف من ستة فرنكات إلى ثمانية. ومنذ عهد قريب أعطى الوالى فريقا من المزارعين القادرين على تعهد الأراضى بالحرث والرى لا ستثمارها، ما مساحته ٢٠٠٠٠٠ فدان تقريبا من الأراضى البور ليتولوا إصلاحها وزرعها، وأعفاها من مال الميرى. وهذا المال يعدل نصف إيرادات الحكومة على وجه التقريب.

١٦- الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس

الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس فرع لا يستهان به من موارد إيراد الميزانية المصرية. ويباشر تحصيلها بـاعتبار كونها جزءا من اثنى عشر جزءا من المال الـذى يفرض أنها تعـدل دخل الممول. والـذكور المراهقـون كافـة،

مسلمين كانوا أو رعية، ملزمون بدفع هذه الفرضة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم. وتختلف ـ تبعا لتفاوت الناس فى الثروة ـ من ١٥ قرشا إلى ٥٠٠ قرش. وفى المدن تحصل الضريبة الشخصية عن النفوس، وفى القرى عن المنازل. ويبلغ ما يحصل من هذه الفرضة عادة السدس من إيراد الخزانة المصرية.

ويدفع الرعية من الأهلين ضريبة خاصة بهم تسمى الخراج. وقد فرضت فى الأصل بحسب المبادىء المستمدة من القرآن، والقاضية على غير المؤمنين بدفع الجزية. وتقدر بوجه عام من ثمانية قروش إلى عشرة. ولا يتجاوز المتحصل منها ١٠٠٠٠٠ فرنك (١).

١٧- الضرائب المختلفة والجمارك

وهناك ضرائب مفروضة على الماشية. فالبقر والجاموس يدفع عنها عشرون قرشا للرأس الواحد، وسبعون إذا كانت مخصصة للذبح. على أن تبقى الجلود المسلوخة ملكا للحكومة. أما الجمال والنعاج فيدفع عن الرأس الواحد منها أربعة قروش. وأما قوارب النيل فيدفع عن كل قارب ضريبة قدرها مائتا قرش وكذا النخل فإنه خاضع لضريبة تختلف بحسب أصناف محصوله ولكن متوسطها قرش ونصف عن كل نخلة.

ورسوم الجمارك المتفق عليها فى الامتيازات الدولية والمعاهدات التجارية، تحصل على البضائع المجلوبة من أوربا إلى مصر، وهذا فيما عدا الضرائب التى تعينها الحكومة لتحصل من القوافل الآتية من بلاد العرب وسنار ودارفور الخ.

ولقدر أينا فيما سبق أن بعض الحاصلات تدفع عنها مكوس عند دخولها فى مدن معلومة.

أما الجمارك فمعطاة بالالتزام. ووجه الحكومة فى تفضيل هذه الطريقة أنها تخليها من مشاغل إدارتها والقيام على ضبط أعمالها. والحاصلون على هذا الامتياز، وكلهم من التجار الأتراك والأرمن، تتألف منهم شركة أو ما

---

١ ـ أبطل الخراج فى الماليك العثمانية بمقتضى خط كلخانة. لانه افضى فيها الى العبث بحقوق الرعية ولكن نصوص هذا القانون لم يتناولها بالتنفيذ بعد ولم توضع حتى الآن موضع الإجراء.

يشبهها لتحصيل الرسوم الجمركية. وهذه الطريقة، وإن تكن حسنة من بعض الوجوه، رديئة من وجوه غيرها. فإذا كان فى نية الحكومة إبقاؤها، فقد حق عليها وضع تسعيرة ثابتة للرسوم المراد تحصيلها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة باحترام اللوائح والقوانين والعمل بها فى جميع الأحوال والظروف.

١٨- أفكار وخواطر فى جباية الضرائب

لسكان مصر، إذا شاءوا، أن يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم أصنافا من حاصلات أرضهم. وقد وضع لذلك نظام دقيق كفيل بتحصيل الضرائب المفروض وصولها إلى الخزينة، ومن شأنه أن يجعل سكان القرية الواحدة متضامنين فى السداد. تتوسع دائرة هذا التضامن فتتناول القرى الموجودة فى مركز واحد، فالمراكز التى تتألف منها مديرية واحدة. ولا شك أن هذا النظام يلجىء العامل الذكى الذى يكد ويكدح ليضاعف ثمرات عمله، إلى سد العجز الناشىء عما لم يكن مسئولا عنه من غباوة زملائه وجيرانه وخمولهم. وفى هذا من الحيف بحقوقه وهضم جانبه ما تأباه أخلاقنا ومذاهبنا فى تصريف العدل بين الناس.

إلا أن هذا لا ينبغى أن يحول دون اعتبار طريقة التضامن الآنفة الذكر مطابقة من كل وجه لروح الحضارة الشرقية. فقد عمل بها عمرو بن العاص منذ الفتح الإسلامى من سكان إذ تبينت ضرورته فى استفزاز الكسالى والعاطلين من سكان القطر إلى ممارسة الأعمال والانصباب عليها. ومع هذا ففى نية سمو الوالى، متى صرف عنايته إلى إتمام التنسيقات والإصلاحات الداخلية التى اعتزم إجراءها للسمو ببلاده وأمته إلى الدرجات العليا، وهى العناية ما برح فى حاجة إلى صرفها بالخارج، أن يقضى على كل اثر للحيف والظلم فى الأنظمة الحالية، فيتعهد بنفسه وقتئذ رم الجراح الذى أثخن بها جسم مصر فى السنوات الأخيرة العديدة. وهو يرى أن من بواعث الفخر تخليد اسمه برفع هذا الاثر الجليل الذى يود من صميم فؤاده أن يتولى إقامته لمصلحة مصر ومنفعة بنيها، إذا ما انتهى من إرساء قواعد أسرته وإعطاء مصر كيانها السياسى الذى لا قوام لها إلا به.

٤. إيرادات مصر ومصروفاتها

لكى أزجى إلى ذهن القـارىء فكـرة عن إيـرادات مصر ومواردهـا الماليـة الأساسيـة التى تعتمد عليها فى تـدبير أحوالها وتصْريف شئـونها، سـأطرح جدولا ملخصا من الميـزانية السنوية لحكومة الـوالى فى سنة ١٨٣٣ الميلادية الموافقـة لسنـة ١٢٤٩ الهجـريـة وإذا تخيرت هـذه السنـة دون غيرهـا من السنوات، فما هـو إلا لأن ميزانية الإيراد من هـذا التاريخ حتى الآن لم تتغير تغيرا محسوسا.

١٩- إيرادات مصر فى سنة ١٨٣٣

الميرى ـ أى الضريبة العقارية	٢٨١٢٥٠٠٠	فرنك
الرسوم الشخصية ـ أى ضريبة النفوس	٨٧٥٠٠٠٠	فرنك
الخراج	٨٠٠٠٠	فرنك
عوائد التركات (بيت المال)	١٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد المواشى المخصصة للذبيح	٢٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد الوكائل والأسواق فى الوجه القبلى	٤٨٠٠٠	فرنك
عوائد الراقصات والموسيقيين والحواة	٦٠٠٠٠	فرنك
عوائد صب الفضة والمقصب	٥٦٢٥٠	فرنك
عوائد (عشور) االنخل	٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد الصيد فى بحيرة المنزلة	٢٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد الملح والقوارب والأسماك	٤٣٧٠٠٠	فرنك
عوائد الحبوب	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
رسوم الجمارك والمكوس	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد السوائل	٣٠٧٠٥٠٠	فرنك
عوائد السنامكى	٣٤٦٠٠٠	فرنك
عـوائد الصيد فى بحيرة قـارون والمكـوس بالفيوم	٣٢٥٠٠	فرنك

الأرباح الناشئة من الأشياء الآتية:

القطن والنيلة والأفيون والسكر والنبيذ والأرز والعسل وجمع العسل والحناء وماء الورد وبذر الكتان والسمسم وبذر الخس والقرطم والحرير والزعفران والنتر والجير والمصيص والأحجار والنطرون والصودا والملح.

النوشادر	١٣٠٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من دار الضرب (الضربخانه)	٣٧٥٠٠٠	فرنك
الأرباح من الأقمشة	١٥٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من فاوريقة أقمشة الحرير	١٢٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من الجلود الخام والمجهزة	٨٧٥٠٠٠	فرنك
الأرباح من مبيع الحصر	٩٢٧٧٨٧٥٠	فرنك
المجموع	١٦٠٨٥١٥٠٠	فرنك

٢٠- المصروفات فى سنة ١٨٣٣

أموال مرسلة إلى الآستانة	١٥٠٠٠٠٠	فرنك
ميزانية الجيش (وكان مؤلفا من ١٥٠٠٠٠ جندى)	١٥٥٠٠٠٠٠	فرنك
مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح	٥٠٠٠٠٠٠	فرنك
جمكيات الخيالة الأتراك غير النظاميين	٨١٢٠٠٠	فرنك
أجور العربان	٦٥٠٠٠٠	فرنك
ثمن أدوات حربية	١٧٥٠٠٠٠	فرنك
المعينات للعلف والجمال والبغال	٣١٢٠٠٠	فرنك
المدرسة الحربية	٢٠٠٠٠٠	فرنك
ميزانية موظفى البحرية ورجالها	٧٥٠٠٠٠٠	فرنك
إنشاء مبانى حربية	١٨٧٥٠٠٠٠	فرنك
نفقات ترسانة (دار صناعة) إنشاء القوارب فى بولاق		
نفقات الفاوريقات وأجور العمال	٤١٢٥٠٠	فرنك
مرتبات موظفى الإدارة	٧٥٠٠٠٠	فرنك
معينات غذائية للموظفين	٢٠٠٠٠٠٠	فرنك
معاشات الملتزمين السابقين	٦٢٥٠٠٠	فرنك
معاشات ممنوحة لبعض العربان	٤٤٠٠٠٠	فرنك
مصروفات لإنشاء القصور والفاوريقات والقناطر والجسور	٧٥٠٠٠٠	فرنك
أشياء مجلوبة من أوربا برسم الفاوريقات	٢٢٥٠٠٠٠	فرنك
مخصصات لصيانة قصور سمو الوالى	١٨٧٥٠٠٠	فرنك
مخصصات غذائية لسمو الوالى	١٢٥٠٠٠٠	فرنك
مخصصات لإدارة مشتريات الكاشمير والأثواب	٥٠٠٠٠٠	فرنك
الحريرية والجواهر الخ	١٧٥٠٠٠٠	فرنك
نفقات قوافل الحجاج	٢٥٠٠٠٠	فرنك
المجموع	٤٩٩٥١٥٠٠	فرنك

٥. الوسائل السياسية

تشكيل الجيش المصرى وحسن تاثيره فى الحضارة - المسيو سيف (سليمان باشا) - تنظيم الجيوش النظامية - المشاة المصرية - الفرسان - مدرسة الخيالة - المدفعية أو الطوبجية - مدرسة الطوبجية - الإدارة العسكرية - • شوار العساكر (ملابسهم الرسمية) - الرتب.

٢١- تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة

كانت الحروب ولا تزال حتى الآن - بالرغم مما تجره وراءها من المصائب والمحن - أقوى عوامل الحضارة وبواعث الرفاهية. فإنه ما انتقل بلد من التعس والشقاء إلى السعادة والهناء، إلا وكانت الحروب رائد هذا التحول الذى كثيرا مما يبقى مقرونا باسم فاتح أو رجل عظيم. ومن فحول الرجال الذين يشار إليهم بالبنان الإسكندر الاكبر وقيصر وشارلمان ونابليون الذين كانوا - قبل كل شىء - من رجال الحرب.

.وليس بمستطاع لباحث أن يشهد تاثير الحرب، محسوسا ملموسا فى سائر فروع الحضارة، كما يشهده فى حالة مصر الآن.

فقد كان كل شىء فى هذا القطر ناقصا بل معدوما، وكان يجب لإيجاده من العدم البدء فى خلقه وتكوينه. وهو ما حدث فى مصر على أثر تنسيق النظام العسكرى.

ناصب محمدعلى الفرنسيين العداء واشتبك معهم فى معارك عدة فأدرك مزايا العمل فى الحرب بمقتضى فنونه وسياسته، وكان همه قبل كل شىء اتخاذ التدابير لصيانة المركز الذى بلغ إليه من الولاية على شئون مصر، فرأى أن هذه البغية لن تنال إلا بقوة السلاح،. فاتجهت جهوده منذ هذا الحين إلى تشكيل الجيش. فالجيش الذى شكله بيده هو الذى كفل له الأمن فى الداخل والقدرة والشوكة فى الخارج.

ولقد كان من وراء تشكيل جيش منتظم لمصر على المثال الذى حبذه وتوخاه، نتائج عامة جزيلة النفع، أولا لأن هذا التشكيل كان من شأنه تعويد

الأمة المصريــة النظام، بعد إذ لم تألف سوى الاختــلال والفوضى، حتى ذلك العهد، ولم تعامل بغير الضراوة والافتراس من جنود الأتراك والأرنؤود الذين اشتهروا بالعصيان والخروج على النظــام والسير بالعنف والشدة بين الناس والنزوع إلى الفتن فى كل آن.

وكــان من نتــائج ذلك التنسيق أيضـــا، أنها أحلت وحــدة العمل وتــرتيب الــدرجات من المرؤوس إلى الــرئيس وسير الأحــوال على النهج القويم وهيبــة السلطة، محل الانحــلال والاختلال والضعف وغيرها من العيــوب التى كانت فاشيــة فى كل مكان. ولقــد رفع من شأن الشعب المصرى بأن جعل لــه روحا وطنية استرد بها مــا فقده من الثقــة والاعتزاز بنفســه وغيرهما من العواطف التى لابد منهــا لكل أمة تلتمس الحيــاة فى ظل الاستقلال. أما النتــائج العملية لذلك التنسيق فكانت أكثر عددا وأعظم أهمية، إذ من المستطاع القول بأنه هو الــذى كان البــاعث على ما شهــدتــه مصر من أطوار التقــدم خلال السنــوات الأخيرة.

وكــان لابــد فى تنظيم الجيش بحسب الأســاليب والأنظمــة الجديــدة، من معلمين يتولــون تدريب الجنود على فنــون الحرب. وكان لا مناص، لإصــابة هذه الغاية، من الالتجاء إلى المسيحيين لاختيارهم من بينهم، وتعويد العساكر الخضــوع بــالــرغم ممــا هنــالك من الاختــلاف فى العــادات، وأخــذ الفنــون العسكرية عنهم من زحف واستعمال أسلحة وتعبئة جيــوش وطاعة للرؤساء والنظــام المسنون ودقــة فى جميع الأمــور الحربية. وبــدأ التنسيق بتــدريب العساكر، ثم بدت الحاجة إلى الضبــاط اللازمين لتولى قيادتهم فأدت إلى نشر تعليم الرياضيات والرسم والجغرافيا وفن تدبير القتال الخ.

ولما تم تشكيل الجيش، قضت الضرورة طبعا بــالنظر فى مداركة حــاجاته وتدبير شئونــه والعناية بأمره، من لبس وإقامة فى ثكنــات تبنى خصيصا له وتخصيص أطباء لمعــالجة المرضى منه. واستلزمت مسألــة التسليح وإعداد المعدات العسكــرية إنشاء دور الصناعــة (الترسانات) والفاوريقــات. وتعد الجيوش عادة، ضمن أسلحتها، المدفعية والفرســان وفرقة الهندسة الحربية. فللقيام على تــدبير هذه الأسلحــة التى يرجع أمــرها إلى العلم، عنى بتــوسيع نطــاق التعليم، فأرسل الشبان من الأتــراك والمصريين إلى أوربا لتلقى علــوم

الحرب فى مدارسها، وغيرها من العلوم والحرف التى لها مساس بعيد أو قريب بالحرب وشئونها.

٢٢- المسيو سيف(سليمان باشا)

الذين عهد إليهم تشكيل جيش الوالى بمقتضى النظام الجديد كانوا جميعا من ضباط عهد الإمبراطورية الفرنسيين والإيطاليين الذين حالت حوادث السياسة دون مواصلتهم العمل فى وظائفهم فنزحوا من بلادهم قاصدين إلى الشرق. وكان من أعظمهم كفاءة وأوسعهم علما وأحسنهم استعدادا المسيو (سيف) ملازم الركاب سابقا لكل من الماريشال (نى) والماريشال (جروشى).

ومع رغبتنا الصادقة فى أن لا نغمط حق أحد ما من أولئك الضباط الأبطال الذين كانوا خير معوان له على أداء المهمة التى عهدت إلى كفاءته، لا يسعنا إلا الاعتراف برجوع الفضل إليه فى إنجاز تنسيق الجيش المصرى بمقتضى النظام الجديد على أتم ما يرام.

ولد المسيو (سيف) موفقا للقتال. فقد دخل مبكرا فى الخدمة العسكرية عام ١٨٠٤ ومر على التعاقب بالأسلحة المختلفة فكان له من ذلك خير نهزة لتوسيع نطاق معلوماته، وتنمية كفاءته وحذقه وتدربه على أنواع الرياضات البدنية التى كان يساعده على أدائها قوة بدنه ومتانة أساطينه. وكان من سلامة الطبع ودماثة الخلق وسعة الصدر بحيث اقترنت جهوده بالنجاح فى القيام بأعباء المهمة الكبيرة، مهمة تشكيل الجيش على النظام الجديد. وقد كان هذا الفوز مما وجه إليه الأنظار، وجعل كلا من الوالى وإبراهيم باشا يقدران كفاءته وينزلانه المنزلة اللائقة به إذ رقى بالتعاقب إلى رتبة بكباشى ثم إلى رتبة أميرالاى، وكان حائزا عليها حينما قام بالحرب فى شبه جزيرة (مورة) بعد أن منح لقب البكوية. ولما انتهت الحملة المصرية ببلاد اليونان وعاد معها إلى مصر، رقى إلى رتبة أمير لواء، ثم إلى رتبة أمير ميران مع لقب الباشوية بعد انتهاء حملة الشام. وكان ما أبداه من الصفات العالية أثناء خدمته باعثا من بواعث اعجاب الدوق دى راجوز به. لهذا لا أجد بأسا من إيراد رأى هذا الماريشال الشهير فيه منقولا بالحرف الواحد مما كتبه. قال:

« كان سليمان باشا نافذ البصيرة فى رأية طويل الروية فى عمله، وكان كلما ارتفع درجات فى سلم الترقى ازداد استشعارا بثقل مسئوليته تبعا لانفساح أفق سلطته. إذ كان من أصحاب النظر فى الكتب والاطلاع على ما تحويه من نفائس العلوم والفنون، وسنحت الفرص له مرارا لتطبيق العلم على العمل فاغتنمها فقد أصبح بحق فى طليعة ذوى الفضل الكبير والكفاءة العالية. بل إنه وصل فى هذا الميدان إلى حد يجيز لى أن أقرر هنا أن مالم تسمح له ظروف الحياة بتعلمه، قد أدركه وعمله بطريق الحزر والتخمين. ذلك لأنه قام بخدمته فى فرنسا وحارب معنا حينما كان فى الرتب الصغيرة. فاستظهر أسرار الحروب الكبرى على طريق التخمين كما قلنا، وكللت الحروب التى اشترك فيها لأجل مصر بالنجاح والفوز الباهر. وهو يحدث عن هذه الحروب حديثا عجيبا، وله فيها من الآراء ما يطابق الصواب دائما، سواء فيما يختص بتنظيم الجيوش وحركاتها أو بالمبادىء التى ينبغى أن تكون قاعدةهذا التنظيم وهذه الحركات. وصفوةالقول أنه قائد مدرب سيحرز ما هو أهل له من الالتفات والإعجاب لدى أركان حرب البلدان الأخرى».

٢٣- مبادىء تشكيل الجيوش النظامية.

أذكر فيما يلى بيان مبادىء تنظيم الجيوش النظامية فى مصر فأقول:

قدم محمد على إلى المسيو (سيف) خمسمائة من مماليكه كى يعلمهم استعمال السلاح ويدربهم على فنون الحرب. وما من عظيم من عظماء القطر إلا وقدم عددا من مماليكه لهذا الغرض، حتى بلغ عدد أولئك الشبان ألفا. وكان المقصود أن يكونوا نواة الجيش المصرى، غير أنه لم يكن ميسورا حملهم على رعاية النظام وتلقينهم تلك الفنون فقرر الوالى إرسالهم إلى أسوان، لا ليطيعوا أمره فقط. بل أيضا ليحول بينهم وأسباب اللهو ويمنع ظنون ذوى التعصب والأوهام الباطلة من التحويم حولهم. وكان الوالى قد أنشأ بتلك الجهة أربع ثكنات فسيحة وضع فيها أولئك الألف من التلاميذ وأخذ يعلمهم قواعد فنون الحرب.

وكان تعليمهم مبادىء هذه الفنون يستدعى قضاء ثلاث سنوات تقريبا، فاعترضت هذا النظام موانع كثيرة، لم تلبث أن ذلت وأزيلت من الطريق. وكان من أهم هذه العقبات ما فطر المسلمون عليه من الشمم وإباء الضيم

والصفات النفسية التى تحول دون رضوخهم لمعلمين مسيحيين. وكان النظام والسكوت اللذان لابد منهما أثناء المناورات العسكرية مما لا يروق لتلك الجماعة من شبان اعتادوا ـ منذ نعومة الأظفار ـ الألعاب والتمارين التى تتخللها الضوضاء والحركة واختلال النظام. فلقد دبروا المؤامرات مرارا ضد المسيو (سيف) لاغتياله، وبلغ من أمرهم معه أنه كان ذات يوم يدير تمرينات ضرب النار، فإذا بأحدهم أطلق عليه رصاصة مرت بجوار أذنه وسمع صفيرها. فلم يفقدشيئا من ثبات جأشه بل استأنف التمرين النارى نفسه وأمر التلاميذ بإطلاق النار من جديد.

وحدث مرة أخرى أن نزع التلاميذ إلى الفتنة وتهددوه بالتنكيل به، فاقترح عليهم أن يبارزوه بالسيف جميعا بعضهم تلو بعض قائلا: إنه يريد بذلك أن يقيهم معرة الجبن، إذا قتلوه غيلة. فلم يسع الثائرين إزاء هذا التسامح الغريب والبسالة النادرة إلا أن كسروا من شرة حدتهم. وبعد إذ كانوا ناقمين عليه صاروا أولياء له . ولقدتمكن بفضل هذه العواطف من إتمام تعليمهم فى مدة ثلاث سنوات وبعد أن تكونت على المثال المتقدم الهيئات الأولى من الضباط، شرع فى حشد العساكر وتكوينهم. وكان الوالى لا يذهب إلى اختيارهم من الأتراك أو الأرنؤود، لإفضاء الجهود التى بذلت فى سبيل تنظيمهم إلى الفشل والخيبة، بسبب أنهم كانوا يجهلون النظام ويكرهون بفطرتهم الرضوخ لأحكامه. وكان من جهة أخرى لايميل إلى المجازفة بأخذهم من المصريين فلم يجد بابا لحيلة مفتوحا أمامه إلا الاعتماد على تجنيد السودانيين من أهل كردفان وسنار. ولقد جند فعلا منهم ثلاثين ألفا، وأرسلهم على الفور إلى بنى عدى بالقرب من منفلوط فى الوجه القبلى على الضفة اليسرى للنيل. وفى الوقت الذى وصلوا فيه إليها، أخذ شبان المماليك الذين تلقوا العلوم العسكرية بأسوان يبرحونها قاصدين الجهة الآنفة الذكر لتولى الرياسة على أولئك العساكر السودانيين، وما أقبل شهر يناير سنة ١٨٢٣ حتى تألفت الأورط الستة الأولى، وعين أولئك المماليك ضباطا وقضيت سنة ١٨٢٣ كلها ثم الأشهر التالية إلى يونيو سنة ١٨٢٤ فى إتقان التعليم العسكرى وترقيته. ولما لاح للوالى نجاحه أنفذ بالأورطة الأولى من تلك الأورط الست إلى بلاد العرب الوسطى، وبالأورطة الثانية إلى سنار وبالأربع

الباقية إلى شبه جزيرة موره تحت إمرة إبراهيم باشا.

على أن هذه التجارب الأولية لم تتوج كلها بالنجاح، فإن السواد الأعظم من السوادنيين الذين جنـدوا من كردفان وسنار فشا بينهم الموت لعـدم موافقة جـو مصر لأمزجتهم. دع أنهم كـانـوا لا يصلحـون فى الحقيقة لتحمل أعبـاء الخدمة العسكرية كما ينبغى.

وكان لايمـر يوم إلا ويـزداد شعور الـوالى فيه بالحاجـة إلى جيش منظم لتنفيذ مقاصـده العالية وبلوغ مطـامحه البعيدة. فاعتزم حشـد الجنود من المصريين. وكانت هـذه المجازفة محفـوفة بالأخطـار الكبار، كما يثبته تـذمر الأمة المصرية ونزوعها إلى الهياج فى جهات متعددة حتى اضطرت الحكومة إلى التدخل لإخمادهـا. ولكن لما رأى الفلاحون الذين انتظمـوا فى سلك الجيش ما يعـاملون بـه من الـرعايـة وحسن العنـايـة بشئونهم، ورأوا أنهم يتغـذون ويلبسون أحسـن مما كانـوا فى بيوتهم، انتهـى الأمر بهم إلى اعتياد حـالتهم الجديدة والاغتباط بها.

ولما عظم شأن التنسيق العسكرى بحسب النظام الجديـد وظهرت أهميته للنـاظرين ، استـدعت الحكومـة من فرنسـا الجنرال (بـوابين) والكولـونيل (جودان) وجملة من كبار الضباط الـذين كان لهم الأثر الظاهر فى إتمام ذلك التنسيق على خير ما يرام.

٢٤- المشاة أو البيادة المصرية

كـان تشكيل جنـود المشـاة المصرية أول مـا استرعى أنظـار الحكـومـة واستدعى عنايتها. فلا عجب إذا ظل هذا التشكيل موضوع اهتمامها المستمر، حتى أنها أنشأت بثغر دمياط مـدرسة لتخريج الشبان الـلازمين للاندراج فى سلك الجيش كصف ضبـاط أو ضباط. وبهذه المدرسـة الآن أربعمائة تلميذ يدربون على المنـاورات الحربية والإدارة العسكرية ويتلقون اللغـات العربية والتركية والفـارسية. وناظـرها ضابط من مقـاطعة (بييمونت) وهـو المسيو (بولـونيى) الذى كان ضابطـا برتبة اليـوزباشى فى عهد الإمبراطوريـة. وقد ترقى فى مصر إلى رتبة القـائمقام مكافأة له على مـا أداه من الخدمات الجليلة كمعلم لفنون الحرب وإشعارا بما أحرزه من النجاح فى مهمته.

ولقـد شهـد الدوق دى راجـوز فيلقـا من المشـاة المصريـة أثناء قيـامـه بالمناورات فكتب ما يأتى:

« كان لواء المشاة المؤلف من الأورطة التـاسعة والأورطة العشرين متأهبا لرحيل إلى السـويس للإبحار منهـا إلى الحجاز لتعـزيز الحملة المصريـة فيه. فتوليت بنفسى عـرضه فقام بالمنـاورات أمامى مدةثلاث سـاعات فى سهل القبة القـريب من قبور الخلفـاء وقبر الملك العادل فـرأيت منه مـا استوجب سرورى وإعجابى . وكان عساكر اللواء المذكور فى مقتبل العمر، فتيسر بذلك لى الحكم بما كـان للقـائد الأعلى للجيش من الأثـر الجليل فى تشكيلـه والحق يقال، فإن العسـاكر الـذين عرضتهم جمعوا إلى الدراية بالأسـاليب العسكرية حسن الهيئة ودقة المحافظة على النظام.

٢٥- الخيالـة أو الفرسـان

لم يبـدأ تشكيل الخيالـة بحسب النظام الجديـد إلا عقب عودة الجيـوش المصرية من حرب مـورة. فإن إبراهيم باشا كان قد رأى فى هـذا البلد الخيالة الفرنسيين، فأدرك ما يكون من الأهمية للفـرسان الذين يعملون جماعات أو شراذم أو أورطا، والامتياز على الفرسان غير المنتظمين، وأن هذا الامتياز يشبه نظيره فى المشاة المنتظمة بـالنسبة له فى المشاة غير المنتظمة. وبمجـرد عودته إلى مصر صرف همتـه بنشاط ومثـابـرة إلى تشكيل الخيـالة بحسب النظـام الجديد واستـدعى لهذا الغرض المعلمين الأوروبيين وشكل أورطا عـديدة من الفرسان على اختلاف أنواعها. من صيادة ومدرعة ورماحة الخ.

٢٦- مدرسة الخيالة

أنشئت مدرسة الخيـالة فى الجيزة بقصر مراد بك. وقد طبق عليهـا حديثا نفس النظام المعمـول به فى مدرسـة الخيالة بمدينـة (سومور) بفـرنسا مع رعـاية مـا اقتضاه المكـان من اختلاف بعض التغيير والتبـديل. ويتعلم بهذه المدرسة شبـان من الأتراك والمصريين ــ مختلطين بعضـهم ببعض - ضروب المناورات على الخيل والقدمين والرسم والمبارزة والإدارة العسكرية.

قال الدوق دى راجـوز: « وقد بلغت هذه المدرسـة درجة الكمال وسيكون لها التـأثير العظيـم فى مستقبـل الجيـش المصرى»، ويتلقـى العلـم بها الآن

ثلاثمائة وستون شابا منقسمين إلى ثلاث فـرق. والذى قام بإنشائها ويتولى إدارتها الآن هـو القائمقـام (فاروق) الـذى كـان فيما سبق ملازمـا لركـاب الماريشال (جوفين سان سير).

وعلى أثر رحيل الدوق دى راجوز من مصر أنعم على المسيو (فاران) برتبة البكوية ورقى مير الايـا. وهى مكافأة عادله على خدمـه الجليلة لمصر ولسمو الوالى.

٢٧- المدفعية أو الطوبجية

شكلت المدفعيـة النظـاميـة فى الـوقت نفســه الـذى شكلت فيـه المشـاة النظـامية. وغنى عن البيـان أن الـذين أنشـأوها طبقـة من المعلمين الأوربيين وجماعـة من الضباط السـابقين فى عهد الإمبراطـوريـة. ومن الأتراك الـذين تفرغـوا لإتقان هـذا السلاح جماعـة فازوا فيـه بالقـدح المعلى، وفى مقدمتهم الضـابط القديـر أدهم بك، وهذا الضـابط الممتاز هـو الذى أنشـأ معامل صنع السـلاح والمدافع الموجـودة بقلعة القاهرة ويقـوم الآن على إدارتها. ولقد أشـار الماريشـال (دى راجوز) إلى تلك المعامل، وهو ممن يوثق بحكمهم فى مثل هذه الموضـوعـات، فقال: «إنـه لايسع من شـهدهـا إلا الإطراء فيهـا» وإنه ليسرنى بهذه المناسبة أن أثبت هنا رأى الماريشـال فى كفاءة أدهـم بك وحكمه على ذكائه واقتداره. قال: «لقد تعلم أدهم بك اللغة الفرنسية بقوة إرادته وعلى غير أستاذ، وهو صـحيح اللـهجة فيهـا. وتعلم الرياضيات بفروعهـا فقبض على ناصيتها وأحاط بشتـات المعلومـات الخاصـة بفن الطـوبجية. وأرى أنـه يناظـر فيها أحسن ضبـاط المدفعية وأمهـر مديرى الأدوات المتعلقـة بها، وأنه أقـدر من عرفتهم من النـاس فى الشئون الإداريـة. ولا شك أن محمد على كـان صادق النظر حينما اختـار مثل هذا العامل النشيـط . بل كان سعيد الطـالع بعثوره على مثله.

٢٨- مدرسة المدفعية أو الطوبجية

أنشئت ببلدة طره، منذ سنوات ، مدرسة للمدفعية تحتوى الآن من ثلاثمائة إلى أربعمائة تلميـذ. يعلمـون اللغتين العـربيـة والتركيـة والحسـاب والجبر والهندسة والحيل (الميكانيكا) والرسم والاستحكامات، وكل ماهو صالح من

العلوم العالية للتطبيق على المدفعية. ولقد أدى ـ البرتغالى الميرالاى (ساجرا) الذى تولى إدارة هذه المدرسة سنوات عديدة ورقى من فيض أنعم سمو الوالى إلى رتبة أمير لواء ـ خدما جليلة لها ـ وألحقت بالمدرسة أورطة لمدفعية المشاة وأورطة أخرى لمدفعيـة الفرسان. وأنشىء لها ميدان ضرب نـار (بوليجون) يصلح فى آن واحد للجنود والتلاميذ.

وهـاك ما ذكـره عن هـذه الجنـود الدوق دى راجـوز الـذى لايسعنى إلا الاعتماد عليه والاستمداد بآرائه الصائبة وأفكاره العالية فى الموضوع. قال:

«تحركت أمامى أورطة المدفعية الراكبة للمناورات، وكانت مؤلفة من ستة بلوكات، فقامت بها على أتم ما يكـون من الترتيب والدقةوبأقصى ما يراد من السرعة.

وكان رجـالها على ما يـرام من حسن الهيئة وسعـة العلم والدربـة ونظام الحركات العسكـرية، كما كـانت مركبـات المدافع مستوفيـة لشروط الإتقان، وإن تكن الخيل التى تجرها صغيرة الجسم. وكل خيل القطر المصرى من هذا القبيل. ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزا حسنا، وهم لا يخطئون الهدف بل يصيبونه بـدقة وسرعة. فالمدفعية المصريـة جامعة لشروط الكمال والإتقان وتشبه من هذه الجهة مدفعيات الجيوش الأوروبية. وأمير آلايها من الرجال الأكفاء الممتلئين نشاطـا وغيرة. أما أورطة المدفعية المشاة فتتألف من ثمانية عشر بلـوكا وقـد قامت بتمـريناتها أمـامى فألفيت أن مدافعهـا كانت تصوب مقذوفاتها نحو الهدف تصويبـا حسنا. أما نار مدافع الهاون، فكانت أقل ضبطا منها وإحكاما.

« ولا يسع الرائى لهذه المدفعية إلا الإعجاب بـالقوة التى حولت الفلاحين الذين ديدنهم الاستنـامة إلى الدعة والسكـون، إلى جنود على جانب عظيم من البسالة والإقدام».

وأستميح الـدوق دى راجـوز الإذن لى بإيـراد آخر عبـارة كتبهـا فى هـذا الموضـوع، على سبيل الحكاية، فقد قال: « ومتى تخرج من المدارس نحو ألفين أو ثلاثـة آلاف من تلاميذها ، وهـو ما لابد حاصل فى بضع سنـوات إن شاء اللـه، فإن الجيش المصرى يكـون قـد تـم تشكيلـه بحسب النظـام الحديث فيبارى أمثاله فى الديار الأوربية».

٢٩- الإدارة العسكرية

نسقت الجيوش المصرية كلها من مشاة وفرسان ومدفعية على نمط الجيوش الفرنسية. واتبع فيها ما هو متبع عندنا من الأساليب والأنماط فى أداء الحركات والسير، وسلكت فى نظامها الموسيقات العسكرية. وتم التشاكل من كل وجه تقريبا فلم تبق مغايرة إلا فى النداء بالأوامر التى يصدرها الضباط إلى الجنود فإنه حاصل باللغة التركية لأنها من أنسب اللغات لأداء هذا الغرض. وطبقت على الجيش المصرى القوانين والأوامر التى يدار بمقتضاها الجيش الفرنسى تطبيقا دقيقا محكما. وبلغ من المغالاة فى التقليد والأخذ عنا أن الرتب العسكرية فى ذلك الجيش مطابقة بالضبط لها فى هذا.

وقد أنشئت منذ البداية، للقبض على زمام الجيش وإدارة شئونه، نظارة على نظام أبسط من نظامها عندنا، مع توسع فى اختصاصاتها. فنظارة الحربية المصرية هى المنوط بها جميع ما يورد إلى الجيش من سلاح ومعدات وثياب. وهى التى تستخرج من مخازن الحكومة ومستودعاتها ما يلزمها من الذخائر والمؤن الغذائية والأدوية الخ.

وإدارة الفيالق فى الغاية القصوى من البساطة والخلو من التعقيد فإنها لاتحرر عقودا بشراء، ولا تساوم أحدا على ثمن ولا تطلب اعتمادا من أحد ولا تحول اعتمادا من باب إلى غيره. وفى اتباع هذا الأسلوب الساذج وقاية من الاختلاس والسرقة أما مصلحة الصحة، فقد جعل النظام الفرنسى قاعدة لتنسيقها وترتيبها، مع شىء من التعديل الذى يتطلبه اختلاف البيئات. ولكل أورطة من الموظفين والأدوات العدد اللازم والمقدار الكافى لتشكيل المستشفيات الخاصة بالأورط كلما مست الحاجة. وسنفيض فى الكلام على هذا الموضوع بالفصل الذى سنشرح فيه حالة الطب فى القطر المصرى.

وأغذية العساكر عبارة عن معينات من الخبز واللحم والأرز والعدس والسمن والزيت والصابون، وكلها من الصنف الجيد وبا لمقادير الكافية.

٣٠- شوار - لبس - الجنود

شوار الجنود - أى ملابسهم الرسمية المتشابهة، فى الغاية القصوى من البساطة. وهى، على صلوحها وفائدتها، حافظة للزى الوطنى الأصلى بقدر المستطاع لتألفها من طربوش أحمر، (والعقائد الدينية تحول دون اتخاذ قلنسوة تشبة قبعة المسيحيين) وصدرية كالشعار متشابكة على الصدر

ومحشورة فى السروال. والسروال يثبت بتكة على الوسط ويذهب عريضا واسعا إلى الركبة حيث يضبط برباط الساق (القلشين)، ويدار على الجسم حزام. والملابس تكون من الجوخ لفصل الشتاء ومن قماش القطن السميك لفصل الصيف. ويلبس الفرسان ورجال المدفعية ورجال الحرس ، شتاء، صدرية زرقاء اللون وغيرهم صدرية حمراء. وفى الصيف يرتدى رجال الجيش كله الملابس البيضاء ويحملون أحذية تركية من الجلد الأحمر. ،وأما مجموعة الأدوات الجلدية الخاصة بالسلاح فبيضاء اللون للمشاة والفرسان وصفراء للمدفعية. ولا يختلف شوار الضباط عن شوار العساكر إلا فى نوع الجوخ وما هو مجمل منه من الوشى ، واللون الأحمر خاص بالضباط أما الشارات التى تميزهم بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم ودرجاتهم فهى: يحمل الأونباشى شريطا واحدا على الصدر والجاويش شريطين والباشجاويش ثلاثة. أما الملازم الأول فيحمل على الصدر من ناحية اليمين نجمة فضية، واليوزباشى نجمة وهلالا فضيين والصاغقول أغاسى هلالا من الذهب ونجمة فضي،ة والبكباشى هلالا ونجمة من الذهب والقائمقام هلالا من الذهب ونجمة من الماس، والميرالاى هلالا ونجمة كلاهما من الماس وأمير اللواء نجمتين فى هلال، وكلها من الماس، والميرميران ثلاثة نجوم فى هلال وكلها من الماس.

٣١ - الرتب فى الجيش

الرتب فى الجيش كما يأتى:

الأونباشى	رئيس العشرة
الجاويش	
الباشجاويش	
الصول قول أغاسى	مساعد اليسار
الملازم الثانى	التالى الثانى للرئيس يساعده وينوب عنه
الملازم الأول	التالى الأول للرئيس يساعده وينوب عنه
اليوزباشى	رئيس المائة
الصاغقول أغاسى	مساعد اليمين
البكباشى	رئيس الألف
القائمقام	الذى ينوب مناب الميرالاى
المير الاى	أمير الآلاى
المير لواء	أمير اللواء
المير ميران	أمير الأمراء
السر عسكر	رئيس القواد

وأمراء الآلايات وأمراء الألوية يحملون لقب البكوية. أما الميرميرانات فيحملون لقب الباشوية ذات الذنبين.

٣٢- المرتبات والماهيات

مرتب الجندى البسيط خمسة عشر قرشا فى الشهر - أى ما يعدل صلديين ونصف صلدى فى اليوم. ومرتب الأونباشى خمسة وعشرون قرشا، والجاويش ثلاثون، والباشجاويش أربعون، والصولقول أغاسى ستون، والملازم الثانى مائتان وخمسون، والملازم الأول ثلاثمائة وخمسون، واليوزباشى خمسمائة، والقائمقام ثلاثة آلاف، والمير الاى ثمانية آلاف والمير لواء أحد عشر ألفا، والمير ميران اثنا عشر الفا وخمسمائة.

ومرتبات كبار الضباط جسيمة، على ما يؤخذ مما تقدم، وسبب ذلك أن سمو الولى كان يريد استمالة الأتراك إلى النظام الحديث فى الجيش على أثر ما أبدوه من النفور الشديد منه، دع أن الرؤساء فى الجيش تدعوهم طبيعة مركزهم إلى بسط اليد بالنفقة.

٣٣- الطاعة للرؤساء

الطاعة للرؤساء فى الجيش المصرى جارية على مثالها فى الجيش الفرنسى. فإن القانون العسكرى الفرنسى، الباحث فى هذا الموضوع، قد ترجم من اللغة الفرنسية ليعمل بنصوصه. وفى بادىء الأمر، اضطر إلى استعمال الجلد عقابا للمخالفين. ولكن سمو الوالى وإبراهيم باشا حصرا استعماله فى دائرة ضيقة والهمة متجهة الآن إلى إلغائه بالمرة.

٣٤- الروح العسكرية فى المصريين

ربما كان المصريون من أصلح أهل الأرض لأن يكونوا أفضل الجنود وأحسنهم. لأنهم بوجه عام يمتازون ببدانة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة بالقليل والقدرة على العمل واحتمال المشاق والأتعاب. ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والبسالة والثبات عند الخطر، ومقابلة النوازل والمحن بالاتكال والصبر والانصراف نحو النار وتوسط معامع القتال، بلا وجل ولا تردد. والحوادث للدلالة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما يأتى:

حدث فى معركة حمص أن جنديا من الأورطة السابعة الفرسان يدعى منصورا انتزعت ذراعه من جسمه بقنبلة فأبى - وهو فى هذه الحالة - التراجع عن ميدان القتال. بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو بأشد ما يكون من البأس والبسالة. وظل يحارب إلى أن مات.

وحدث فى معركة (قونيا) أن ترك جميع الجرحى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح، أسرتهم فى المستشفى قاصدين إلى ميدان القتال لمساهمة = مشاركة = إخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت.

وفى تلك المعركة سقط جندى من الأورطة الرابعة الفرسان من ظهر جواده مصابا بجرح، فلما شهده أمير لوائه أحمد المنكلى سارع بتقديم جواده إليه، لكى يرجع إلى الساقة. فأبى الجندى قائلا إنه يفضل البقاء فى ميدان القتال ليشهد إخوانه منتصرين، ولو لقى حتفه.

وفى إحدى المعارك أصيب فتى من جنود الأورطة الخامسة عشرة بجرح، ورأى رفاقه فى فصيلته يذهبون كل مذهب فرارا من العدو. فعلى الرغم من استنهار جرحه واحتدام نار القتال حوله لم يكف عن النفخ فى بوقه بإشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم، ولم يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء. ولما شهد زملاؤه الفارون فعله عراهم الحياء من رؤيته، وهو فتى صغير جدا، يضرب لهم أمثال الشجاعة والبطولة ببسالة فلموا فى الحال شعثهم وجمعوا فلولهم ثم عادوا إلى القتال ليثأروا لشرفهم الذى ثلمه العدو برهة ما من الزمن.

ومن أهم الحوادث وأجدرها بالذكر — لا سيما وأن فيها ما يذكر بشهامة الفرنسيين وبسالتهم - أن سليمان باشا كان ذات يوم يعرض أورطة وصلت إليه حديثا. فوقع نظره على فتى نحيل ضئيل فى السادسة عشرة من عمره يدعى بالحاج على، فهم سليمان باشا برفضه معترضا على تجنيد مثله، وهو فيما يشاهد من ضعفه وظهور علامات المرض على وجهه فأبى الحاج على إلا أن يبقى تحت السلاح قائلا لسليمان باشا إنه لسوف يكذب سوء ظنه فيه ويدحض خطأ حكمه عليه فى أول نهزة ينتهزها لذلك.

وكان الجيش المصرى ضاربا الحصار على (عكا) فخرجت الحامية يوما

وتغلبت على المشاة المصريين وألزمت جنود الأورطة الثامنة المقاتلة فى الجبهة ملازمـة الهزيمة. فتقدمت الأورطة الثـالثة من الفرسـان التى كان الحاج على منتظما فى سلكها لتعـزيز جـانب أولئك الجنود، وحملت حملـة باهـرة صدت فيها المحصـورين إلى مواقعهم. ولكن الحاج على لم يكفـه أنه شـاطر رفـاقه فخار فوزهم .بل أنقذ بيده يوزباشيا كان على وشك الوقوع فى أسر العدو. ثم انقض على ضـابط تـركـى فأسره، وجـاء بـالضـابطين المصرى والتركى إلى سليمان باشا وقال له: «ألا تزال تعتقد أننى جندى لا أصلح لشىء؟».

وكان الأتـراك، لما يشعرون به من علوهم وكبريـائهم يحتقرون المصريين ولا يكترثـون بهم. ويعتقـدون بهم العجز عن مجاراتهم. ولكن حـرب مـورة أثبتت لهم بـالبرهـان القاطع أن ذلـك الشعب الخجول المنجمع، الـذى أذلـه الضغط والعسف، قديـر على استرداد مجده القديم وأهل لمنـازعتهم على فخر النجاح والفـوز فى القتال. ولقـد أثبت لهم فتح الشـام وانتصارات (حمص) و(بلان) و (قـونيا) سمـوهم الذاتى عليهم بـاعتبار كـونهم أفرادا كما أثبت شوكتهم باعتبار أنهم جموع مسوسة بقواعد علم خطط القتال وتدابيره.

على أن المصريين الـذين يستحقون هـذا الإطـراء العظيم بوصف كـونهم جنودا، لا يستحقـونه أبـدا متى وصلوا فى مـدارج الترقى إلى مراتـب القيادة، لأنهم فى المراتب العالية لا يشعرون بكرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها فهم يغايرون العثمانيين والمماليك فى الأهلية للقبض على زمام القيادة، وسرعان ما يتحولون إلى عادتهم القديمة بما اضطر سمو الوالى وابنهإبراهيم، على الرغم منهما، إلى العدول عن ترقيتهم وترفعيهم إلى المراتب السامية فى الجندية.

وتلقـاء هـذا النقص، أسنـدت إلى المماليك والأتـراك فى الجيش المنـاصب العليـا. وليس بمستبعد أن تكـون قلة أهليـة المصريين للقيادة من الظـروف الملائمـة لجريان الأحـوال على مقتضى الـواجب. فإن الشعب المصرى سريع التقلب عـديم الثبات إلى حـد يخشى معـه. فيما لـو سلمت قيادة الجنـود إلى ضباط منـه، نزوعهم إلى الهياج والثـورة. أما وقـد وضـع النظام على الترتيب السابق فإن العساكر يخضعون لضبـاطهم ،ويستطيع هؤلاء إلزامهم بتنفيذ أوامرهـم لما يتخذونه من وسـائل الاحتياط والتحفظ لـذلك. لاسيما وأنهم لا يستطيعون الاعتماد عليهم، كما لو كانـوا من أبناء جنسهم والشعور العائلى

من أخص صفات المصريين، فهم لا يستغنون عن الأنس بنسائهم. ولقد أذن لهم من أجل ذلك بأن يكون معهم بعض أقاربهم وبأن يتزوجوا أيضا. ولولا هذا الاحتياط لتعذر صدهم عن الاندفاع فى تيار العصيان والشغب ومنعهم من التشرد. على أنه لمايهم فى بلد قليل عدد السكان كالقطر المصرى، أن يساعد الخمسون أو الستون ألفا من الجنود المصريين، بزواجهم وهم فى الجيش، على تكثير النسل. ومفهوم أنه إذا تحرك الجيش للقتال يفارق هؤلاء الجنود زوجاتهم وأولادهم ويزحفون وحدهم إلى ميدان القتال.

وتهتم الحكومة، فى مثل هذه الحالة ، بأطفالهم وتتولى الإنفاق عليهم فترتب من التعيينات الغذائية لكل منهم ما يعدل نصف المرتب الذى يتقاضاه آباؤهم.

٣٥- جدول القوات العسكرية المصرية وتوزيعها

نذكر فيما يلى بيان القوات العسكرية المصرية قبل الحرب الأخيرة:

حرس صاحب السمو الوالى، وهو مؤلف من أورطة من المدفعية وثلاثة آلايات من المشاة وآلايين من الفرسان أى من ١٢٠٠٠ عسكرى.

حرس شرف السر عسكر، وهو مؤلف من ٥٠٠ عسكرى

أورطة أساس الضباط، وهى مؤلفة من ٨٠٠ عسكرى

خمسة آلايات من المدفعية منها ثلاثة من المشاة واثنان من المشاة الراكبة وعدد عساكرها ١١٦٠٠

ستة عشر بطرية كل بطرية مؤلفة من ستة مدافع، وعدد عساكرها ١٨٠٠

آلاى الحملة مؤلف من ١٢٠٠ عسكرى

أورطتا هندسة وعدد رجالهما ١٦٠٠

ستة وثلاثون آلايا من المشاة وعدد عساكرها ١١٥٠٠٠

خمسة عشر آلايا من الفرسان عدد عساكرها ١٢٠٠٠

جيوش غير نظامية مؤلفة من الكريديين والأرنؤود والعربان، وعددهم ٢٦٠٠٠ مقاتل

المجموع ١٨٠٠٠٠ تقريبا.

وهاك عدد عساكر جيوش محمد على الآن وبيان الجهات التى يقيمون بها:

جيوش نظامية

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد العساكر
الآلاى الأول من طوبجية الحرس	حماه	١٣٧٢
الآلاى الثانى من طوبجية المشاة	الإسكندرية	٢٣٤٩
الآلاى الثالث من طوبجية المشاة	حلب	١٩٤٩
الآلاى الأول من طوبجية الراكبة	حمص	٩٨٢
الآلاى الثانى من طوبجية الراكبة	دمشق	١٠٠٧
أربع فصائل من طوبجية متفرقة	عكا	٣٣٧
الأورطة الأولى من المدفعية	الحجاز	٣٧٩
الآلاى الأول من مشاة الحرس	عينتاب	٢٠٤٨
الآلاى الثانى من مشاة الحرس	مرعش	٢٦٤٥
الآلاى الثالث من مشاة الحرس	حلب	٢٤٣٥
الآلاى الأول من المشاة (الأورطة الخماسة)	السودان	٤٥٤٧
الآلاى الثانى من المشاة	عينتاب	٢٢٥١
الآلاى الثالث من المشاة	اليمن	١٥٢٦
الآلاى الرابع من المشاة	مرعش	٢٥٩٣
الآلاى الخامس من المشاة	آطنه	٢٦٢٩
الآلاى السادس من المشاة	قليس	٢٣٦٢
الآلاى السابع من المشاة	الحجاز	٢١٩٢
الآلاى الثامن من المشاة	السودان	٣٣٩٦
الآلاى التاسع من المشاة	حلب	٢٣٠٤
الآلاى العاشر من المشاة	حلب	٢٠٥٤
الآلاى الحادى عشر من المشاة	أورفه	٢٣٣٨
الآلاى الثانى عشر من المشاة	عينتاب	٢٣٢٦
الآلاى الثالث عشر من المشاة	الحجاز	١٢٢٥
الآلاى الرابع عشر من المشاة	حلب	١٩٨٨
الآلاى الخامس عشر من المشاة	الدرعية	٢٥٥٥
الآلاى السادس عشر من المشاة	قنديا	٣١٤٩
الآلاى السابع عشر من المشاة	أورفه	٢٣٦٩
الآلاى الثامن عشر من المشاة	عكا	٢٠٤٩
الآلاى التاسع عشر من المشاة	الحجاز	٢٣٤٩
الآلاى العشرون من المشاة	اليمن	٢٦٧٧
الآلاى الحادى والعشرون من المشاة	الحجاز	٢٣٦٣
الآلاى الثانى والعشرون من المشاة	أورفه	٢٢١٢

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد العساكر
الآلاى الثالث والعشرون من المشاة	ينبع	٢٣٤٢
الآلاى الرابع والعشرون من المشاة	انطاكيه	٣١٣١
الآلاى الخامس والعشرون من المشاة	أورشليم	١٧٥٥
الآلاى السادس والعشرون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الآلاى السابع والعشرون من المشاة	الحديدة	٢١٢٩
الآلاى الثامن والعشرون من المشاة	الحديدة	٢٤٤٦
الآلاى التاسع والعشرون من المشاة	آطنه	٣١٧٢
الآلاى الثلاثون من المشاة	حماه	٢٩٢٥
الآلاى الحادى والثلاثون من المشاة	حلب	٢٤٠١
الآلاى الثانى والثلاثون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الآلاى الثالث والثلاثون من المشاة	الإسكندرية	٢٦٠٤
الآلاى الرابع والثلاثون من المشاة	قليس	٢٥٦٤
الآلاى الخامس والثلاثون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الآلاى الأول من فرسان الحرس من المشاة	اللاذقية	٧٩٦
الآلاى الثانى من الحرس المدرعين	بيسان	٨٤٤
الآلاى الأول من الفرسان	أورفه	٨٢٥
الآلاى الثانى من الفرسان	زامبا	٨٣٠
الآلاى الثالث من الفرسان		
فى الطريق إلى الإسكندرية		٨٤٧
الآلاى الرابع من الفرسان	آطنه	٦٧٨
الآلاى الخامس من القرسان		
فى الطريق إلى الإسكندرية		٨٣٢
الآلاى السادس من الفرسان	دمشق	٧٧٠
الآلاى السابع من الفرسان	طرسوس	٧٤٢
الآلاى الثامن من الفرسان	دمشق	٧١٢
الآلاى التاسع من الفرسان		
فى الطريق إلى الإسكندرية		٨١٦
الآلاى العاشر من الفرسان	عكا	٧٦٨
الآلاى الحادى عشر من الفرسان	قليس	٧٥٦
الآلاى الثانى عشر من الفرسان	طرسوس	٦٦٢
الآلاى الثالث عشر من الفرسان	أورفه	٨٠٦
أورطة المتقاعدين	القاهرة	٣٩٨٠
الآلاى الأول من البلطة جيه	عكا	٨١٢
الأورطة الأولى من المتقاعدين	إسكندرية	٧٩١

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد العساكر
أورطتان من المتقاعدين	طرابلس	١٦٤١
أورطة من المتقاعدين	دنقله	٨٨٥
أورطة من فرقة المهندسين	أدليب	٧٥٨
أورطة من البلطة جيه	إسكندرية	٨٠٨
فصيلة من اللغامين	القاهرة	٩٤
الأساس	القاهرة	٢٨٥
١٦ بلوكا من العساكر المتقاعدين	مراكز القطر	١٦٧١
رجال الألعاب النارية والصواريخ	مصر العتيقة	١٨٥
آلاى من رجال القرابة	السر عسكر	١١٥٢
فصيلة من رجال القرابة	فى الحجاز	١٠٦
بلوكان من العساكر المتقاعدين	فى الحجاز	٢٠٠
	المجموع الكلى	١٣٠٣٠٠

الجيوش غير النظامية

	ضباط	عساكر
فى الحجاز		
فرسان أتراك	٤	١٥٨٠
مشاة أتراك	١	٣٩٥
فرسان مصريون	٩	٩٤٥
مشاة مصريون	٥	٣٣٩
مدفعية	—	٧٨٧
المجموع	١٩	٤٠٤٦
فى القطر المصرى		
فرسان أتراك	١٠	٢٧٨٥
مشاة أتراك	٧	٢٧٧٥
فرسان مصريون	٧	١٦٦٠
مدفعية	—	١٢٩٩
المجموع	٢٤	٨٥١٩
فى اليمن:		
فرسان أتراك	٥	١٩٧٠

مشاة أتراك	٩	٧٦٠
مدفعية	–	٢٠٠
	—	—
المجموع	١٤	٢٩٣٠
في قنديا:		
فرسان أتراك	٢	٤٥٠
مشاة أتراك	٦	٢٤٠٥
مدفعيه	–	٢٨٠
	—	—
المجموع	٨	٣١٣٥
في المدينة:		
فرسان أتراك	٣	٣٠٢٠
مشاة أتراك	١٠	٣٧٥٠
مدفعية	–	٢٢٥
مصريون	١٦	١٢٢٥
	—	—
المجموع	٢٩	٨٢٢٠
في السودان:		
فرسان أتراك	١٧	١١٧٠
فرسان مصريون	٤	١٢٨٠
مشاة مصريون	١٠	٩٥٠
مدفعية	–	١٨٦
	—	—
المجموع	٣١	٣٥٨٦
في الشام:		
فرسان أتراك	١٤	٤١٢٥
مشاة أتراك	٥	١٩٣٠
فرسان مصريون	٦٣	٤٩٨٠
	—	—
المجموع	٨٢	١١٠٣٥

فيكون مجموع الجيوش غير النظامية كما يأتى:

ضباط ٢٠٧

عساكر ٤١٤٧١

٤١٦٧٨

وقبائل العربان فى القطر المصرى كقبائل أولاد على والجميعات والهنادى والجهلات ولد سليمان والزوفه وجهينه والهواره والعبابده والمعازة وغيرهم مستعدة على الدوام لتوريد الكثيرين من الرجال والخيول والجمال ولوازم القتال لأول إشارة من سمو الوالى.

الحرس الأهلى

الإسكندرية	آلايان	٦٨٠٠ جندى
البرلس ورشيد	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
دمياط	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
القاهرة	ثمانية آلايات	٢٧٤٠٠ جندى
مصر القديمة	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
بولاق	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
		٤٧٨٠٠

وفى استطاعة مدارس الطوبجية والخيالة والمشاة والبحرية والهندسة الحربية أن تقدم للخدمة العاملة فى الجيش ١٢٠٠ مقاتل.

وعدا ما تقدم فإن جميع عمال الفاوريقات فى القاهرة وعددهم ١٥٠٠٠ عامل يقومون يوميا بالتدرب على المناورات الحربية والإجراءات العسكرية، وفى الإمكان إبلاغ عدد من يحشد منهم إلى ٥٠٠٠٠ إذا مست الحاجة لذلك

مراجعة عامة لما تقدم

جيوش نظامية	١٣٠٣٠٢ عسكرى
جيوش غير نظامية	٤١٦٧٨ عسكرى
الحرس الأهلى	٤٧٨٠٠ عسكرى
عمال الفاوريقات المدربون	١٥٠٠٠ عسكرى
رجال مستعدون فى المدارس	١٢٠٠ عسكرى
الدوننمة ومن ضمنها الترسانة	٤٠٦٦٣ عسكرى
المجموع	٢٧٦٦٤٣

٢. البحرية المصرية

إنشاء البحرية المصرية- حالة البحرية المصرية ومنشآتها قبل وصول المسيو سريزى بك إلى مصر- إنشاء دار صناعة الإسكندرية- العقبات التى ذللها المسيو سريزى- الأعمال والمبانى والمنشآت فى الترسانة- السفن الحربية التى شرع فى بنائها- عمال الترسانة من المصريين- أحواض السفن- نوتية الدوننمة- القوات البحرية لمصر وتركيا.

٣٦-إنشاء البحرية المصرية

جاء تنسيق البحرية المصرية بعد تنظيم الجيش البرى بزمن يسير. نعم إنه كان لمصر أيام حرب موره دوننمة حربية، غير أن الشطر الأكبر من سفنها أنشىء أو اشترى فى (مرسيليا) و (ليفورنة) و (تريسته) وقد قضى عليها بالدمار والفناء فى معركة (نافارين) البحرية الشهيرة.

ولم يرتفع للبحرية المصرية شأن عقب ذلك، إلا حينما نيط بالمسيو (دى سريزى) من مهندسى ثغر (نولون) المشهورين بالخبرة والبراعة فى فنون البحرية، لتشكيل ترسانة (دار صناعة) لإسكندرية والإشراف على إنشاء السفن فيها. ولنا أن نقول فى موضوع هذه الترسانة أن إنشاءها كان، كإنشاء الشعر ونظمه، عفو الساعة لم يسبقه أقل استعداد. ولعل إيجادها من العدم كان المظهر الأول لعبقرية محمد على، والدليل الساطع على عزيمة وارادة حاسمة لا ينثلم لها حد ولا يكبح لها جماح.

٣٧- حالة البحرية قبل وصول سريزى بك

لما وصل المسيو دى (سريزى) إلى مصر فى أبرايل سنة ١٨٢٩ ألفى = وجد = البحريــة المصرية مــؤلفة منْ وحدات قليلــة من السفن، هى التى نجت من كارثة (نافارين)، نذكر منها فــرقاطة ذات ٦٠ مدفعا أنشئت بثغر (البندقية) وأخــرى أنشئت فى (ليفــورنــة) وجملــة سفن من طــراز الكــورفيت والبريك. وكــانت هذه السفن ينقصــهــا لــوازم القتال ومعــداته، لأنها أنشئت فى ثغــور تجارية لا حربية. فاضطــر (دى سريزى بك) إلى إنشاء مخازن للبارود فيها وإدخال تعديلات عليها تتفق مع احتياجات المدفعية وضروراتها.

ولم يكن فى الإسكندرية ترسانة لبناية السفن. وغاية الأمر أنه كان بسيف البحر مكان قــريب من الماء تبنى فيه سفينة من طراز الكــورفيت وأخرى من طراز البريك وثالثة ذات حجم عظيم حولت فيما بعد إلى فرقاطة. وكانت ورش الصنــاعــة عبارة عــن ظلات بسيطــة من الخشب، وكــانت المواد والخامــات الضرورية للبحرية يوردها تجار من الأوروبين يجلبونها من أوربا.

وكان يرأس أشغال بناء الأساطيل وترميمها مصرى طاعن فى السن يدعى الحاج عمر، وهو رجل شهم واسع الحيلة. وقــد صار فيما بعد الساعد الأيمن لمسيو (سريــزى) وموضع ثقتــه. وكان معــه رجل تركى الجنس يــزعم العلم بالهندسة، ولكنه كان فى الحقيقة عنوان الغباوة والجهل، فاستغنى (سريزى) عنه وفصله من وظيفته. وكان العمل قــائما على قدم وساق لبناء سفن حربية أخرى برسم سمو الوالى بعضها فى (ليفورنة) والبعض الآخر فى (مرسيليا) و (لوندرة).

٣٨- تشكيل ترسانة الإسكندرية

كــان محمد على يــدرك ما للبحــريةة من الأهميــة وخطر الشأن فى حــرب الشام وصد غــارات الآستانة وحملاتها. فكان إذا وقع إبطــاء فى بناية السفن بالثغــور الأجنبية أو أعترض إنجازها عارض نــاله من ذلك غم شديــد. فعقد النية لهذا السبب على انشاء ترســانــة. وكان يقدر كفاءة المسيو (دى سريزى) وهمتــه بما ظهــر له منهما فى إنجــاز الأشغــال البحــرية التى أنجــزت بثغــر مرسيليا لحساب مصر فرجا من الحكومة الفرنسية أن تأذن له بالحضور إلى الإسكندرية لتولى إدارة الأعمال البحرية فى ثغرها.

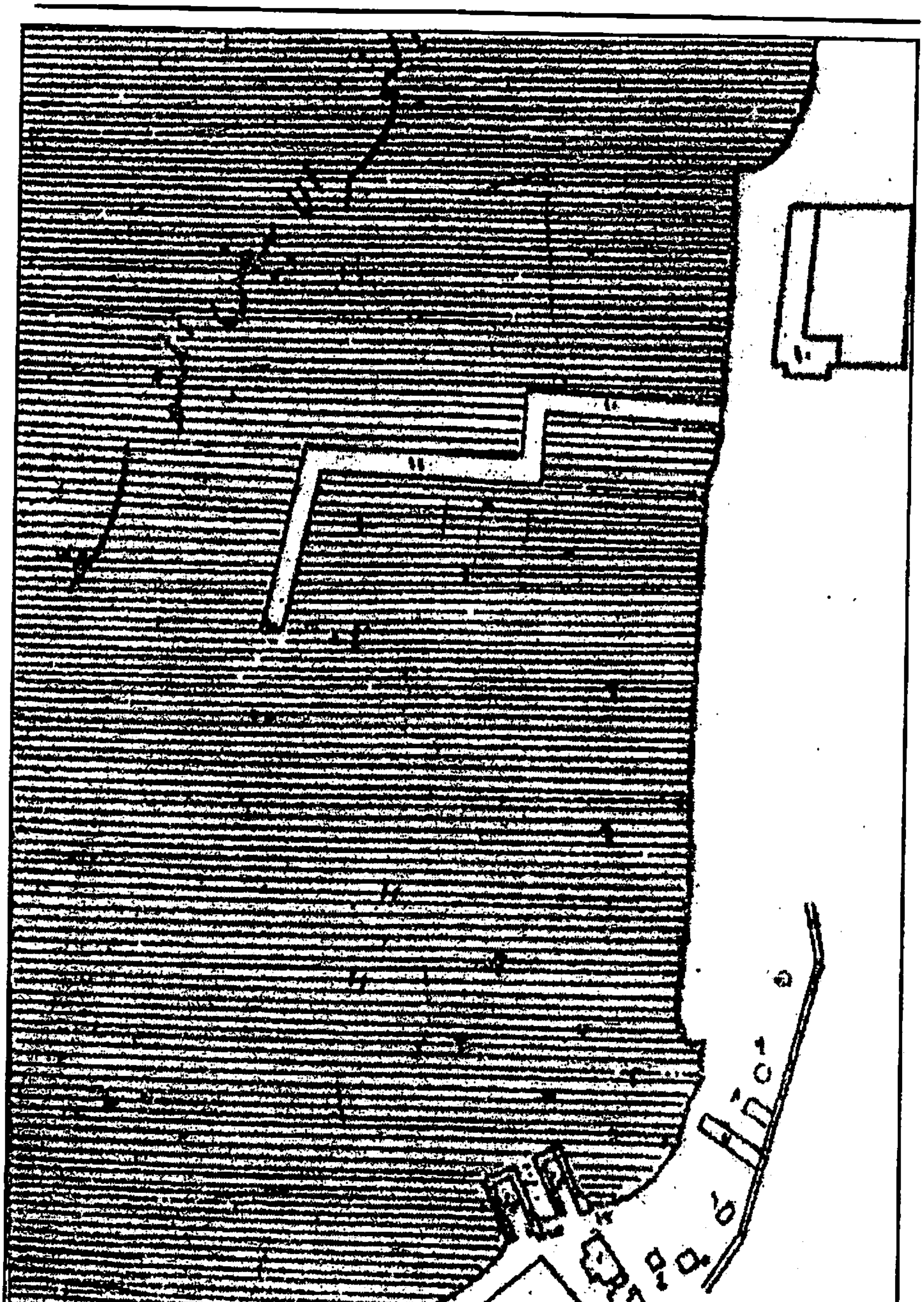
وكان كل مـا ألقى فى وهم محمد على من استحالة دخـول السفن الحربية إلى ميناء الإسكنـدرية وتحققـه من نقص الأدوات الحربيـة والعمال اللازمين لمباشرة الأعمال المختلفـة بها، مما شجعـه على التمسك بإنشـاء الفرقـاطات الكبيرة. وكانت طلباتـه الأولى للسفن قائمة على أساس هـذه الفكرة. فلما نظر سموه فى الرسوم التى قدمـت إليه، واطلع على رأى المسيو (دى سريزى) فيها ووقف على دقائق ملحـوظاته بشـأنها وأيقن مطابقتها للصـواب، اعتزم أن لا يقتنى من السفن الحربيـة إلا مـا كـان منهـا كبير الحجم. ومن ثم ورد على خاطره انشاء ترسانة كبيرة.

وبينما كـانت تجهز الأدوات الـلازمـة، بـالديـار الأوربيـة، لإخراج هـذا المشروع إلى حيـز الفعل، كـان المسيـو (دى سريزى) يعـد فى الإسكنـدريـة المعدات ويهىء المقدمات. إذ تفرغ لأخذ اعماق الميناء لاختيار أوفق موقع منها لإنشاء الترسـانة الجديدة.، ولقد تبين لـه أن عمق الماء فى بعض السواحل من ناحية مربوط لايعوق إقامـة البناء المطلوب. ولكن هذه السواحل ـ فضلا عن بعدها عن المدينـة ـ كانت أمواج البحـر فى هياجه ترتطم بها ارتطامـا شديدا وتحول دون إصابة الغـرض المطلوب من الدفاع عن ثغر الإسكنـدرية. وكان العسـاكر يشتغلـون فى آمالة الساحل، وهـو متكون من مادة حجـرية رخوة بالقدر اللازم لبناء القاعدة المنحدرة التى تنشأ السفن عليها، بينما كان يعمل غيرهم فى استخـراج الأحجـار التى ستبنى بها من الأبنيـة الأخرى. وصفـوة القول فقد كانت بوادر العمل بما تخللها من آيات النشاط والهمة أصدق دليل على شدة الحاجة إلى سفن لقتال فى أقـرب ما يمكن من الزمن. وعلى الرغم من هذا فقد كان المسيو (دى سريزى) غير مـرتاح لذلك الموقع، فصرف عنايته إلى البحث عن موقع آخر تتوافر فيه الشروط الملائمة لإنشاء الترسانة. وكان مما لاحظـه أن الشاطىء الـذى تنشأ فيه الـزوارق فى وقـاية من هبـوب الريـاح واضطراب الأمواج، وأن الهجوم عليه مـواجهة متعذر، إن لم يكن مستحيلا، وإنما كان عيبـه قلة عمق الماء بـه. فمر بخـاطره أن يعمل للتغلـب على طبيعة الأرض فيه. وكـان يعلم أن المواد الصخرية مـوجودة على عمق ثلاثين قـدما، وأن من الميسور رفع الرمال بالآلات دون أن يطرأ تعطيل ما على أقامة المبانى المطلوبة. فعول نهائيا على إنشاء الترسانة فيه.

وما اختمرت هذه الفكرة فى ذهنه، حتى انصب على العمل ليل نهار لوضع رسوم الورش والمبانى التى تنفذ بمقتضاها مشروعات الوالى العظيمة. وما وافى اليوم التاسع من شهر يونيو سنة ١٨٢٩ حتى رفع إلى أعتاب سموه مجموعة من عمله الابتدائى، فأجال فيها نظره وتروى مليا ثم وافق عليها. وما هى إلا ساعة واحدة حتى شوهد بضعة آلاف من العساكر يحفرون الأساس للمبانى التى كانت الحاجة إلى البدء بها أشد ما يكون. وناط بالقيمين على الآلات وضع الأوتاد (الخوازيق) للارصفة وحفر الأحواض.

دليل تفصيلى
لتصميم ترسانة الإسكندرية
قبل المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

١ـ الجمرك
٢ـ قهوة عمومية
٣ ـ دكان
٤ـ مسجد
٥ـ ورشة بالبناء
٦ ـ أرضية مستعملة لإنشاء السفن
٧ـ ظلة من الخشب لآلات الحدادة
٨ ـ ظلة من الخشب لصناعة البراميل
٩ ـ مسجد
١٠ ـ مخازن ومكان للزجاج.
١١ ـ الرصيف القديم، وقد تلف جزء منه
١٢ـ رصيف الخشب للنزول فى السفن
١٣ـ مكاتب مستخدمى الجمارك
١٤ ـ مخازن الحكومة
١٥ ـ مخازن خصوصية
١٦ـ جزء من مدينة الإسكندرية



«ترتيب أقسام ترسانة الإسكندرية» بحسب تصميم سنة ١٨٢٩

وكان سمو الوالى ، اثناء ذلك، يستدعى من أقاليم القطر المصرى الشبان الذين توجهت إرادته إلى تنشئتهم التنشئة التى تتطلبها أعمال السفن. فلما اجتمعوا لديه أخذ يرتبهم بحسب النظام العسكرى، إذ قسمهم فرقا كل فرقة لمزاولة عمل. فكان منهم النجارون والحدادون والجلافطة والسباكون والميكانيكيون الخ. وقد تألفت هذه الفرق بالتدريج. وكان كلما اتسع نطاق تعليم العساكر على هذا المثال، اختير الأونباشية والجاويشية والضباط بين الممتازين منهم بالهمة والنشاط والذكاء.

وأجل خدمة قام بها المسيو (دى سريزى) لسمو الوالى تشكيله هيئة عمال الترسانة على النسق المتقدم. ونظرا إلى ولعه الذاتى بالصناعات المختلفة ودرايته التامة بأسرارها على اختلاف مناحيها، كان يتولى بنفسه تدريب العمال على مباشرة الأعمال كل فى الصناعة التى اختير لمزاولتها. وعلى هذا النمط سار العمل فى تشييد المبانى وتعليم الرجال مختلف الصناعات سيرا مطردا منتظما. ولم تشرق شمس يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١ حتى كانت سفينة ذات مائة مدفع تتزلج من البر إلى البحر.

ومنذ هذه الآونة وضح وضوح الشمس فى رائعة النهار ان مسألة «البحرية المصرية» حلت على أحسن ما يرام. ولكن كانت لاتزال الحاجة ماسة إلى إقامة الدليل على خطأ الأوربيين الذين زعموا أن السفن ذات الأربعة والسبعين مدفعا لا تستطيع اجتياز بوغاز الإسكندرية فى مأمن من الأخطار. فلما تصدى (دى سريزى)، لإثبات فساد هذا الزعم إثباتا عمليا بإنشائه تلك السفينة، استهدف نفسه لصنوف الملاوم والانتقادات. وتمادى اللائمون والمنتقدون فى غلواء اللوم والانتقاد إلى حد إتهامهم أياه بأنه خدع سمو الوالى وغشه وقابل بالاساءة إحسانه. ولكن لم تلبث هذه الحملة أن انتهت بسلام، إذ تقرر أن بالإمكان اجتياز البوغاز بلا خوف من خطر ما، إذا اتخذت احتياطات معينة وتدابير معلومة. وكانت الهمة أثناء هذه الحوادث منصرفة إلى تسليح السفينة التى تم بناؤها فلم يمض زمن حتى نشرت أشرعتها وأبحرت من الميناء للإيغال فى خضمات البحر الابيض المتوسط.

ومنذ هذا الحين أحرز المسيو (دى سريزى) ثقة الوالى الذى شرحت هذه النتيجة الباهرة صدره، وملأت بالسرور والابتهاج قلبه، فخوله السلطة

المطلقة وحرية التصرف فى شئون الترسانة. وكان مما اشرأبت إليه عنق (دى سريزى) أن يقوم بعمل جليل يكسب به ثقة محمد على، فتفرغ لهذا العمل ووهب لأجله وقته وحياته وهمته.

٣٩- العقبات التى تغلب عليها المسيو دى سريزى

وبالرغم من الهمة العالية التى أمتاز بها المسيو (دى سريزى) تكاثرت العقبات والمعاثر فى طريقه وأصبح فرضا عليه تذليلها بحكمته وقوة إرادته وصبره. وبيان ذلك أن مجيئه إلى الإسكندرية لإنشاء الترسانة وتشكيل البحرية المصرية، أزعج البيوت التجارية التى كانت تربح الأموال البالغة من التوصية فى الخارج لديها على بناء السفن الحربية بلا مراقبة عليها، وألقى الخلل والاضطراب فى أعمالها، فأخذت تذيع عنه من الأحاديث المفتراة مالا حصر له، وترميه بما يروق لها اختراعه من صنوف التهم الشائنة. بل بلغ من أمرها أن حاولت استفزاز العمال الأوربيين الذين يتولون رياسة الأقسام الصناعية فى الترسانة ويقومون على تعليم المصرين وتدريبهم، إلى الشغب والعصيان. وكثيرا ما وقعت الورش والمعامل بالترسانة فى الالتباك والخلل من جراء هذه الفتن، حتى لقد حدث عند الشروع فى دفع السفينة الثانية من منشآت الترسانة إلى البحر، أن انقطعت أمراسها المثبتة لها فى مكانها قبل الاجل المعين، وكان ذلك بفعل فاعل بقصد إتلافها. وكان العمال المالطيون واليفورنيون يحضون على الشغب والثورة عمال ترسانة (تولون) الذين كانوا يعملون معهم فى ترسانة الإسكندرية. وكان المسيو (دى سريزى) قد جاء بهم من ذلك الثغر فى السنة التالية لتعيينه ليتولوا رياسة الأقسام المختلفة، فلم يتحرك لمسيو (دى سريزى) نبض ولم تختلج عين ولم ينزعج فؤاد. بل قابل دسائسهم وأفاعيلهم بجنان ثابت وإرادة قوية، فلم تقو عند الارتطام بهذه الصفات العالية على البقاء . أمّا الولى، وهو صاحب العبقرية العالية فى كل شأن، فقد أغلق صيوان أذنيه دون تلك الوشايات فمهد له بذلك سبيل التفرغ لأعماله والاهتمام بإنجازها من غير توان ولا إمهال.

على أنه يتعذر تصوير فكرة كاملة عن العقبات الجزئية التى اضطر ذلك المهندس الخبير إلى مكافحتها ليتمكن من إنجاز ما عاهد نفسه على تنفيذه من المشروعات. وكانت ظروف الأحوال قد ألجأته فى بادىء الأمر إلى استخدام

الجم الغفير من الأوربيين لتسليح السفن التي كـانت تبنى بسرعــة مدهشــة، فأدت معالجته هــذا الأمر إلى وقوع فتن واضطرابــات لم يلبث أن تغلب عليها بفطنته. ولكنه مالنفك، مع ذلك، عن الاهتمام بمنع السرقات وحسم ما يقع من الشقاق والنزاع بين العمال الوطنين، ومعاقبة المقصرين في أداء أعمالهم، سواء أكان هــذا التقصير عن إهمال أم عن غلط، أم عن ســوء نية. وقد حملــه تعليم المصريين تدريجيا تلك الصناعات التي حذقوها حتى ضارعوا الأوربيين فيها، على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء بحيث أن الأعمال في العهد الأخير كان ينجز الشطــر الأوفى منها بواسطة عمال من أهل البــلاد ولم يحتفظ من هؤلاء الأوربيين إلا بشرذمــة صغيرة مــن المعلمين الفــرنسيين قصــد ببقـــائهم في الخدمة الإشراف على كيفيــة استعمال المواد اللازمــة لبناء السفن، وممــا هو جديــر بالــذكر أن امتثال المصريين لــلأوامر وانكبــابهم على العمل فضيلتان جليلتان عاونتا المسيو (دى سيرزى) على أداء المهمة التي وكلت إليه على خير مايرام.

دليل تفصيلي لتصميم ترسانة الإسكندرية
بحسب المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

١ـ مدخل الترسانة، وسيكون بعد انتهاء العمل في نمرة ٢٤.

٢ـ قواعد مائلة ومبنية بالحجر لإنشاء السفن عليها.

٣ـ قواعد مائلة ومبنية بالحجر لإنشاء الفرقاطات والسفن الصغيرة.

٤ ـ ورشة مد الزوارق وغرف قوالب السفن ونماذجها.

٥ ـ ورش الساريات والقلوع.

٦ـ ورش البكرات والخراطة.

٧ ـ مكان أدوات السفن وأطقمها.

٨ ـ مكان إبرام الحبال، وبالدور الأول مكاتب الإدارة ومدارس مختلفة.

٩ ـ ورشة البراميل ودفات السفن وآلات رفع وجذب الأثقال.

١٠ـ ورشة الآلات البحرية والمعادن والصفيح والرصاص والنجارة.

١١ـ المخزن العمومي.

١٢ـ الإدارة الهندسية.

١٣ـ إدارة الميناء.

١٤ـ ورش الحدادة الكبرى.

١٥ـ معمل المزإليج والبرادة.،

١٦ـ المسبك.

١٧ـ ورشة حدادة الأحواض.

١٨ ـ ورش أشغال ترميم السفن فى الأحواض.

١٩ ـ ورش نجارة العمارات والثقب والجلفطة.

٢٠ ـ موضعا الحوضين.

٢١ ـ مكان إذابة الزفت والقطران.

٢٢ ـ ليمان.

٢٣ـ تكنة.

٢٤ ـ صحن المدخل الأصلى.

٢٥ ـ آلات ابرام الحبال.

٢٦ ـ المخازن.

٢٧ـ مساكن المديرين والضباط وموظفى الترسانة.

٢٨ ـ ورش المعادن للمدفعية.

٢٩ ـ ورش الخشب للمدفعية.

٣٠ـ مخزن وإدارة المدفعية.

٣١ ـ مخازن خاصة بالسفن التى ينزع سلاحها.

٣٢ ـ مستودعات لأخشاب بناء السفن.

٣٣ ـ آلات وسطوح مائلة لسحب أخشاب بناء السفن.

٣٤ ـ ترسانة الزوارق والسفن.

٣٥ـ مكان ترميم الغائص من السفن.

٣٦ـ حراس الميناء.

٣٧ فرقة الحرس.

٣٨ مخزن الحكومة ومطبعتا الحجر والحروف والمكاتب.

٣٩ جزء من المدينة يسكنه بعض المستخدمين.

٤٠ جزء من المدينة وحوانيت.

٤١ الرصيف المحيط.

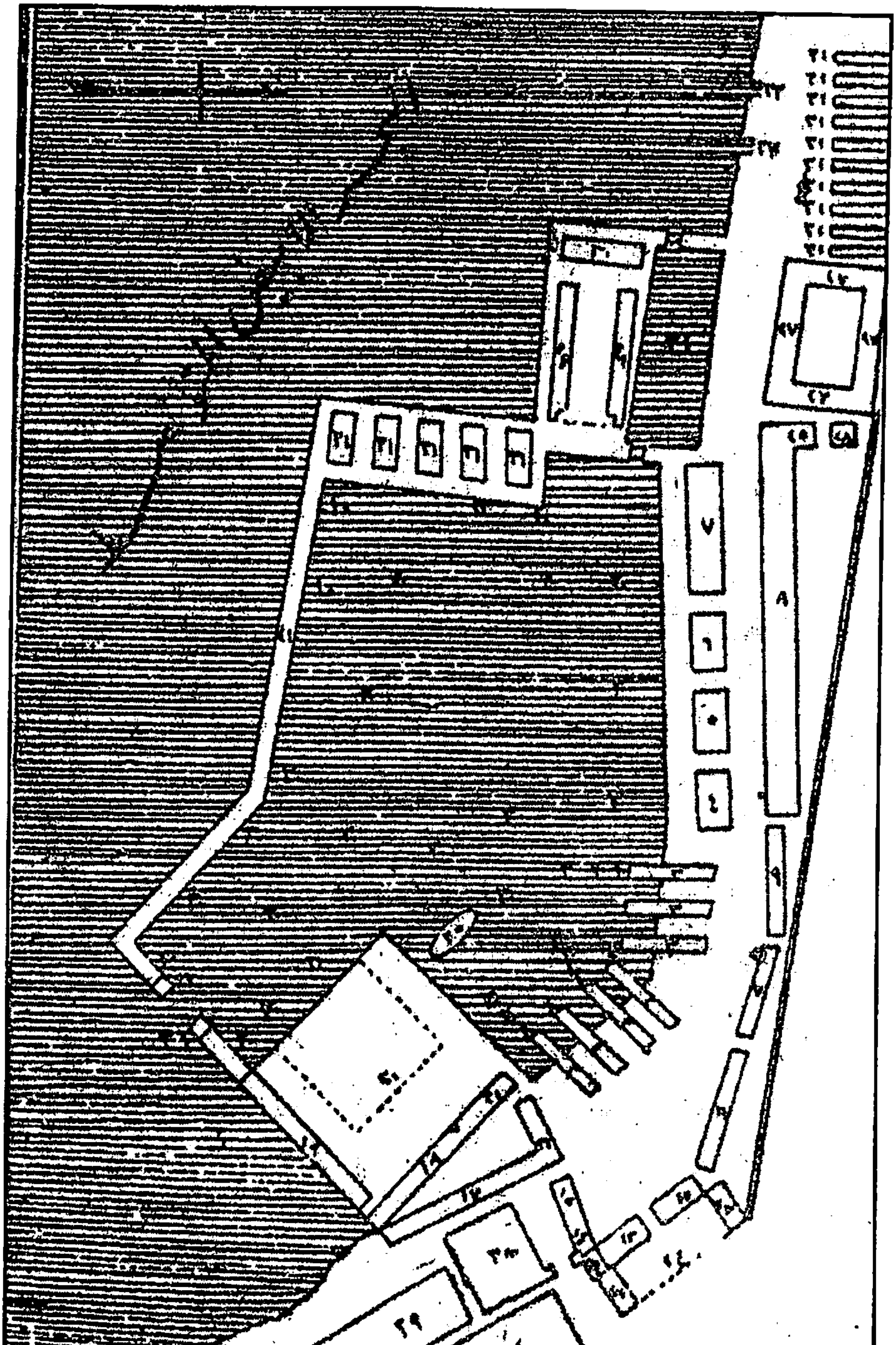
٤٠- أعمال الترسانة وبناياتها

بالنظر إلى إنشاء الترسانة على ساحل رملى لا بناية فيه من أى نوع، قضت الحاجة ببنـاية ما يلزم لها من جـديد. أما الأعمال الأصلية التى تم إنجـازها فأربع قواعد من الحجـر لبناء السفن عليها مع ما يتبعهـا من الانحدار الممتد إلى داخل البحـر لتزلج سفـن الدرجـة الأولى ، وثـلاث قواعـد غيرهـا لبنايـة الفـرقـاطـات والسفن الأقل من تلك حجما، ومخزن عـام لإيـداع الـذخـائر البحريـة. ومصنع للحبال بـآلاته، وورش الحدادة والمزاليـج، وورشة النشر والخرط، والمعامل الميكانيكية ومعامل السبـك والصفيح والرصاص والزجاج والآلات البحـرية والبكـر والأشرعة والبراميل، ومصـانع الفلائك والـزوارق وآلات رفع الأثقال وسحبها « الكابستـان» ودفات السفن والمركبات، وورشة النماذج لأجزاء السفن والمدافع، وغرفة نماذج الأشياء التى يتألف منها سلاح السفن برسم تعليم الضبـاط وظلات لخزن الأخشاب اللازمة لبنـاية السفن وحفظهـا وآلات التنظيف والتطهير وأدوات ترميم القسم الغـاطس من السفن الخ.

وقد أنشئت برشيد فاوريقة لنسـج قماش الأشرعة ومعامل أخرى للحدادة كى يستعان بها عند الضرورة. وكانت ورش القـاهرة ومعاملها تشتغل أيضا لهذا الغرض، وكان المسيو (دى سريـزى) لايميل إلى حصر الصنائع فى مكان واحد، فـدرب جماعة من المصريين على صنـاعة حبـال السفن وأمراسهـا ثم أعادهم إلى بلدانهم ليتفرغوا بها لصناعتها.

٤١- السفن الحربية التى شرع فى بنائها

بينما كان الخشـب والموارد اللازمة لبنـاء السفن تصدر مـن أوروبا إلى الإسكندرية، كان المسيو (دى سريزى) يحث العمال على إتمام بنـاية فرقاطة



تصميم ترسانة الإسكندرية
قدمه المسيو ليفوبور ديسريزى يوم ٩ يونيو سنة ١٩٢٩ ووافق عليه سمو الوالى

وسفينتين أخريين من طراز الكورفيت والبريك كان قد بدىء ببنايتها قبل وصوله إلى الإسكندرية، فتعذر تحويلها إلى سفن حربية. ثم شرع فى بناية سفينة من طراز الجوليت لم يستطع إتمامها إلا بتكبد العناء الشديد فى تعليم العمال بنفسه وارشادهم مباشرة إلى دقائق البناية البحرية وتفاصيلها الجزئية، فكان فوق ما هو منوط به من عمله أستاذا يلقن العلوم والفنون فى مدرسة العمل والتجربة.

وما كادت تصل إلى الإسكندرية الارسالية الأولى من الأخشاب التى وصى بها، حتى بدأ ببناية سفينة حربية من ذات المائة مدفع، وما أشرف على إتمام بنائها حتى شرع فى بناية اثنتين أخريين من حجمها وطرازها.

وسنأتى بعد على بيان واف للمنشآت التى أنجزت أو رممت فى ترسانة الإسكندرية أثناء وجود المسيو (دى سريزى) بالقطر المصرى.

بنيت السفينتان (مصر) و (عكا). وهما بحجم السفن الفرنسية ذات الثلاثة سطوح، إلا أنها لم توضع بهما البطارية الرابعة بسبب أن السطح الأول منهما يحمل فيهما اثنين وثلاثين مدفعا من عيار ٣٠، وهى مدافع طويلة، والسطحان الآخران كلاهما ٦٨ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠.

وأربع سفن من ذات المائة مدفع وهى المعروفة بأسماء: (المحلة الكبرى) و (المنصورة) و (حمص) . وفى كل من هذه السفن اثنان وثلاثون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى و٣٤ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠ فى البطارية الثانية و٣٤ مدفعا من الزهر (كارونـاد) من عيار ٣٠ فى مقدم السفينة ومؤخرها.

والسفينة (أبوقير) ذات الثمانية والسبعين مدفعا منها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى، و٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية، وعشرون مدفعا من الزهر من عيار ٣٠ فى مقدمة السفينة ومؤخرها.

والكورفيت (طنطا) وفيها أربعة وعشرون مدفعا قصيرا من عيار ٣٢ انجليزى.

والجوليت (عزيزية) وفيها عشرة مدافع من عيار ٤ وقوطر النزهة وفيه ٤ مدافع من عيار ٤ وسفينة لمدافع الهاون وسفينة نقالة لأخشاب الساريات.

وكانت السفينة (بيلان) ذات الستة والثمانين مدفعا تحت التسليح، فوضع بها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى و٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية وثمانية وعشرون مدفعا من الزهر فى المقدمة والمؤخرة.

وكان العمل جاريا فى سفينتين من السفن ذات المائة مدفع من عيار ٣٠ وهما (حلب) و (دمشق).

وفرقاطة كبيرة ذات ستين مدفعا من عيار ٣٠.

ومما تقدم يرى أن السفن الكبرى للبحرية المصرية قد عنى المسيو (دى سريزى) بالتوحيد بين عياراتها وهو الأمر الذى كثيرا ما طالب المصلحون البحريون به فى أوربا بلا جدوى.

أما السفن الدوننمة التى اقتضى ترميمها وتعهدها من الوقت والعمل أكثر مما كانت تقتضية السفن المنشأة حديثا فهى:

(الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى وكان انشاؤها بمدينة (ليفورنة).

والفرقاطة (بحيرة) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وكان إنشاؤها فى ثغر (مرسيليا).

و (رشيد) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ وثمانية وعشرين مدفعا من الزهر من عيار ٣٦ وكان انشاؤها بمدينة البندقية.

و (كفر الشيخ) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى، وأربعة وعشرين مدفعا من عيار ١٢ انشئت فى ثغر (أرخانجل) بالروسيا، ولكنها لم تتم فكمل انشاؤها فى (لوندرة) فرقاطة للقتال.

و (سرجهاد) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤، وكان إنشاؤها فى ثغر (ليفورنه) ثم عدلت فى الإسكندرية تعديلات تناولت جميع أجزائها.

و(الدمياطية) وهى ذات أربعة وعشرين مدفعا من عيار ٢٤ وثلاثين مدفعا من الزهر من عيار ١٨، وكانت كبيرة وحولت فى الإسكندرية إلى فرقاطة حربية.

و (موستاجهاد) وهى ذات ثمانية وعشرين مدفعا مـن عيار ١٨ وثمانية وعشرين مدفعـا من عيار١٢، و«كلانت» فرقـاطة جزائرية أهـدتها فرنسا إلى مصر.

والسفن (جنة بحرى) وأصلها من ثغـر (جنوة) ، و (جهادبحر) وأصلها من (جنوة) أيضـا و (فوه) وأصلها من الإسكندرية، و(بلنـك جهاد) وأصلها من (مرسيليا). وكلها من طراز الكورفيت وذات ٢٢ مدفعا من عيار ٢٤.

و(واشنطون) وأصلها من (بوردو) ، و(فوليان) وأصلها من (ليفورنه) ، و(الفشن) وأصلها من الإسكندرية ، و(شـاهين داريا) وأصلها من تركيا. وكلها سفن من طراز البريك الكبير وتحمل كل منهـا إثنين وعشرين مدفعا من الزهر.

و(سمنـد جهاد) وأصلهـا من(مـرسيليـا) ، و(خبر جهاد) وأصلهـا من (سيوتا) ، و(التمساح) وأصلها من (مرسيليا) ، و(بادى جهاد) وأصلها من (الإسكندرية) ، و(الأمريكانى) وأصلها من الولايات المتحدة ، وهى سفن من طراز البريك الصغير ، وتحمل كل منها إما ستـة عشر مدفعا واما ثمانية عشر من مدافع الزهر .

وأربع سفن نقالة محمول كل منها ٤٠٠ طن .

وفرقاطة وبريك وقوطر من السفن العثمانية التى غنمت أثناء الحرب .

وكذا جملة سفن صغيرة وباخرة تسمى (النيل) أصلها من (لوندره) .

وقد راعـى المسيو (دى سريـزى) فى بناية السفـن الحربية الإصـلاحات والتعديلات التى كـان الضباص الفرنسيون يطـالبون بإدخالها على السفن الفرنسية ، وكذا الإصلاحات التى اهتدى إليهـا بخبرته أثناء قيامه بالعمل فى ثغور فـرنسا ، والملحوظـات التى لاحظها فى انجلترا ورأى من الأفضل العمل بها لفائدة البحرية . ولذلك بنيت السفن التى أنشئت فى ترسانة الإسكندرية بمقتضى التصميمات التى وضعها بنفسه .

ومن المستطاع التأكيد بأن قسما عظيما من التنسيقات والترتيبات المرعية الآن فى بناية السفن الفرنسية الحربية ، وجدت فى السفن التى أنشئت بالقطر المصرى قبل وجودها فيهـا بزمان طويل . وهو مـا يرجع الفضل فيه إلى همة المسيو (دى سريزى) ودرايته.

٤٢-عمال الترسانة المصريون

إن العمال المصريين هم الذين كانوا ينجزون أعمال إنشاء السفن، وقد أظهروا فيها من الأهليّة والدراية ما يوجب الدهش. وكان يشتغل منهم بالترسانة من ستة آلاف عامل إلى ثمانية آلاف. أما العمال الأتراك فلم يبد منهم ما يستوجب ارتياح المسيو (دى سريزى) ورضاه عنهم، لأنهم كانوا من الازدهاء بنفوسهم والنزوع إلى العصيان والتمرد بما يحول دون صلوحهم لإجادة مايناط بهم من الأعمال، فكانوا من هذا الوجه على نقيض المصريين الذين كانو يدركون بسهولة أسرار الأعمال التى تنجز أمامهم ويتفهمون دقائقها بما عهد فيهم من الذكاء ودماثة الأخلاق والامتثال للرؤساء. دع أنهم فطروا فى محاولة فهم ما يعجم عليهم فهمه على تحكيم النظر اكثر منه على الذكاء والعقل حتى ان الرسم البسيط يرشدهم إلى فهم حقائق الأشياء بمجرد النظر إليه قبل إمعان الفكر والروية فيه. إلا أنه مع هذا سريع النسيان لما يتعلمه، فضلا عن انه إذا بلغ من التعلم درجة ما لا يرغب فى تجاوزها ما بعدها. وهذا النقص يحول، بلا ريب، دون سعيه إلى الكمال.

وهم أميل إلى مزاولة الصناعات التى أساسها تقليد الأشكال والنماذج الثابتة. ومن ثم تراهم يجيدون صناعة البكر وقماش الأشرعة والحبال والبراميل والنجارة الدقيقة، ويحسنون ثقب الثقوب وقلفطة المراكب. وإنما لا يمكن الاعتماد عليهم فيها إذا مست الحاجة إلى تغيير الأحجام واستنباط أشكال تخالف ما عهدوها عليه من المثال، كما يتفق أحيانا فى ورش الآلات والحدادة والسبك، ما لم يراقبهم أثناء أدائهم أياها الرؤساء الاوروبيون فإنهم فى هذه الحالة يقومون بما هو مطلوب منهم على خير ما يرام.

وترسانة الإسكندرية التى يصنع فيها كل شىء بأيدى المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا دليل ناطق بمبلغ ما يمكن الاستفادة به من العمال المصريين ويقينى أن عامة الشعب فى أوروبا يستطيعون أن يؤدوا من جلائل الأعمال ما يؤديه العمال المصريون فى مثل الوقت القصير الذى يقومون بها فيه.

٤٣- أحواض ترميم السفن

لما أنجز الوالى بناية السفن الحربية الكبرى، وشعر بضرورة انشاء حوض أو أحواض لترميمها عند الحاجة، أطلعه المسيو (دى سريزى) على الصعوبات والعقبات الجمة التى تعترض إنشاءها بالإسكندرية ، وقال إنها فى أوروبا تلتمس العناية المتتابعة من حذاق المهندسين وأذكياء العمال. وكان مشروع المسيو (دى سريزى) لإنشاء ترسانة بالإسكندرية يتناول بناية حوضين، مع أن حوضا واحدا كان فى الحقيقة كافيا لسد حاجة البحرية المصرية، ولكن المسيو (دى سريزى) كان لا مفر له من العمل بإدارة صاحب السمو والمسارعة إلى تحقيق أمانيه، ولو استلزمت التحيل لإيجاد كل شىء من العدم. وكانت حالة الحرب بالنسبة إلى مصر تستدعى السرعة فى إنجاز تسليح السفن المبنية. فلم تتوافر له وقتئذ الوسائل التى تمكنه من إنشاء تلك الاحواض. وعقب رحيله من الإسكندرية تصدى بعض المهندسين إنشائها فذهبت جهودهم فى هذا السبيل سدى وعندئذ لم يسع صاحب السمو الولى إلا أن رجا من الحكومة الفرنسية، وقد كان هذا منذ عامين، أن تبعث إليه رجلا قديرا على إتمام هذا العمل الجليل، فاختارت إدارة القناطر والجسور المهندس (مونجل) الذى ذاعت شهرته بفرنسا على أثر الأعمال الهندسية الجليلة التى قام بها فيها، وسيبقى اسمه مرتبطا بالعمل الجليل المحفوف بالمصاعب الذى ندب للقيام به.

أما العقبات التى تعترض تنفيذ بناية حوض للسفن فى الإسكندرية فترجع فى الأصل إلى طبيعة قاع البحر بهذه المدينة فإن هذا القاع طينى المادة إلى عمق ستين قدما تقريبا تحت الماء وكان المطلوب أن ينشأ فوق هذا القاع الرخو حوض متين البنيان موثق الأركان لا ينفذ منه الماء، ومن السعة بحيث يقيم بين جوانبه سفن الدرجة الأولى. أى السفن التى عمق الجزء الغاطس منها فى الماء عشرون قدما. فإذ ضم إلى هذا الارتفاع أربعة عشر قدما وهو سمك الأساس الكافى لحمل ثقل السفينة المراد ترميمها، فلا مناص إذن من بناية أرضية الحوض بهذا السمك من الحجر على عمق أربعة وثلاثين قدما تحت الماء، بحيث لا ينفذ الماء منها. وهو ما لا يتأتى طبعا على قاع طينى هش إلا إذا استعملت لتحقيق هذا الغرض وسائل خاصة.

أما المسيو مونجل فلم تهن عزيمته أمام العقبات ولم تخذله صعوبتها، بل رفع إلى الوالى تصميما جليلا محقق التنفيذ - على بساطته - فقد اقترح عليه فيه ما يأتى:

اقترح أن تغرز بالمكان لبناء الحوض أوتاد من السمك بحيث تجعل الأرض مندمجة صلبة، ومن الطول بحيث تهبط إلى القاع اليابس. وقال إن هذه الأوتاد إذا وضعت على الوجه المتقدم صلحت لأن تكون أعمدة وقوائم لبناية الحوض. وأنه بعد توطيد المكان على المثال السابق واحاطته بخط من أوتاد أخرى متتابعة تنزل منه بمنزلة السياج وتختلف عن الأوتاد الأولى بطولها الذى تبلغ به إلى مستوى الأرصفة، يصب خليط المونة المعروف بالبيتون الذى من خواصه التجمد فى الماء بعد زمن قصير، وتتكون منه كتلة جسيمة من البناء أو صخرة صناعية مصبوبة. وأن يحفر الحوض فى هذه الصخرة على مثال يجعل إغلاقه ميسورا عقب مرور السفن إلى داخله بواسطة عوامة خاصة تشبه السفينة، تغرق وتعوم بحسب الإرادة. وهذه الطريقة هى المتبعة تقريبا فى إنشاء الحوض الجديد بثغر طولون.

ولقد بدىء العمل لإنشاء الحوض على هذا النمط. وهو جار الآن على قدم وساق. والمرجو أن يتم فى زمن قريب، لاسيما وأن الأخشاب والمواد اللازمة لإتمامه مكدسة بالمخازن والآلات البخارية التى يستعان بها على استنزاف الماء من الحوض، قد ركبت فى المكان اللازم لقيامها بعملها.

ولقد قامت الكراكات بحفر القاع. أما وضع الأوتاد وهو عمل فى غاية الصعوبة فقد أنجز سريعا بواسطة آلات خاصة انشئت باشراف المسيو (مونجل) واطلاعه.

٤٤- النوتية والدونانمة

كان فرضا، وقد تم إنشاء الأسطول بهذه السرعة،إيجاد النوتية لها فى أقرب آن. لذا بودر بتدريب عشرة آلاف رجل على الخدمة البحرية. وأنشئت للملاحة مدرسة نظم فى سلكها الشبان المماليك لتعليمهم من فنون البحر ما يؤهلهم للقيام بالواجبات المطلوبة من الضباط، وطبقت القوانين المسنونة لهذا الغرض فى فرنسا، ورتبت درجات الوظائف بحسب الترتيب المرعى عندنا، ونيط بضباط فرنسيين تسليح السفن وتعليم بحريتها. وكان من

أطولهم باعا فى تشكيل البحرية المصرية وأعظمهم أثرا فى تدريب رجالها ومعاونة سمو الوالى بجهودهم العظيمة ومساعيهم المبرورة، كل من المسيو (بيسون بك) الذى أسفت مصر جد الأسف لوفاته، والمسيو (هوسار) الذى لايزال يؤدى أجل الخدم لسمو الوالى.

ومما لا ريب فيه أن إيجاد ترسانة وإبداع أسطول على ذلك الوجه من السرعة لما يقضى بالعجب، ويدل على قوة العبقرية. فقد كان شاطئ البحر بالإسكندرية كالصحراء الخالية من كل أثر لكائن، فلم تمض سنوات أربع حتى عمر بترسانة كاملة الأدوات مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات. فمن قواعد لإنشاء السفن عليها وتزليجها إلى البحر، وورش ومخازن ومصنع الحبال امتداد بنايته طولا ألف وأربعون قدما - أى كطول مصنع الحبال فى ثغر طولون. وأنشئت خلال تلك المدة دووننمة مؤلفة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعدد والرجال وجربت للمرة الأولى من انشائها فى مطاردة أحد الأساطيل العثمانية.

وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحرية المصرية أساطين علم البحر وثقاته، سواء بدقة حركات السفن وضبطها أو بدربة البحرية وحسن قيامهم على الأعمال المنوطة بهم وقد أصبح المصريون، وهم شعب مفطور على الامتثال ومحامد الخصال، كأنهم خلقوا أكثر صلوحا لممارسة البحر من غيرهم ولقد سبق لنا ذكر فضائلهم الحربية ومناقبهم العسكرية ونقول الآن إنه بالنظر إلى سكناهم شواطئ النيل، وهو النهر الذى بلغ من السعة فى نظرهم ما دعاهم إلى تسميتهم إياه بالبحر، كانوا من أقدر الناس على السباحة وأميلهم إلى معاناة فنون الملاحة. ومن المناقب التى توافرت فيهم، غير ما تقدم، تأثرهم الشديد بعوامل المناظرة وحبهم أن لا يحرز قصب السبق سواهم.

ومعلوم أن ثغر الإسكندرية تتردد عليه برسم الزيارة سفن كثيرة تخفق عليها أعلام دول مختلفة فكان منظر هذه السفن يبعث فى نفوس الشبان المنتظمين منهم فى سلك بحرية الوالى روح الغيرة والحماس ويستفزهم إلى الرغبة فى إطلاع الخبيرين فى الفن كل يوم على ماحذقوه من الحركات فى المناورات ونمّى بذلك فى نفوسهم إحساس الشمم وتنبه الشعور بالكرامة -

فكانت هذه المظاهر من أقـوى العوامل على تنافسهم فى إحراز أوفر قسط من العلوم والفنـون. ويؤخذ من آراء الاخصـائيين فى حالة البحريـة المصرية أن الفرق بينهـا وبحريـة القسطنطينية كـالفرق بين جيـوش محمد على البريـة وجيوش الباب العالى.

وامتازت بحـرية محمد على، أول وهلة، بـالتفوق فى شبه جزيـرة (مورة) وكان من دلائل تفوقها العظيم أن الحراقات اليـونانية التى طا لما هلعت لمرآها قلـوب أهل الآستـانـة وقبعت بسببهـا أسـاطيلهم ، لم تخش بأسهـا السفن المصريـة التى كان يقـوم على أمرهـا فى ذلك العهد ربـان السفينة الفـرنسى المسيو (لوتليبة).

ولقد شرف الأسطول المصرى الجديد مصر ورفع ذكرها أثناء حملة الشام اذ قامت بمراقبته سواحل الشـام ومنعت الأتراك من النزول إليها وقبضت فى أنحـائها على بعض السفـن العثمانية وسـاعـدت المصريين على حصار عكـا واقتفت أثر الـدوننمة العثمانية التى كانـت أكثر منها عددا وأوفـر مددا حتى حصرتها فى مرسى (مارماريل) ثم دفعتها أمامها حتى مضيق الدردنيل الذى أشرفت أن تجتازه لولا مـداخلة الدول الأوربية التى حـالت دون تحقيق هذه البغية مدفوعة بما هو معروف من عوامل السياسة.

وتتألف الدوننمة المصرية من إحـدى عشرة سفينة كبيرة وسبع فرقاطات وخمس سفن من طـراز الكـورفيت وتسع من نـوع البريك والجويليت. وبلغ مجموع عساكر هـذه السفن (الأطقم) ١٦٠٠٠ رجل تقريبا. ونورد فيما يلى بيانـا وافيا لقوات البحـرية المصريـة. وإذ قد أصبحت البحريـة العثمانية فى قبضة محمد على ، فقد عنيت ببيان قوات هـذه البحرية تجاهها، مع ذكر عدد نوتية كل سفينة مصرية وتركية.

القوات البحرية المصرية

الدونمة العثمانية — الدونمة المصرية

السفن الكبرى

أسماء السفن	عدد رجالها	أسماء السفن	عدد رجالها
محمودية	١٣٧٢	المحلة الكبرى	١٠٣٤
مسعودية	١٣١٣	المنصورة	١٠٣٤
فيضيان	١٠٣٤	الإسكندرية	١٠٣٤
فتحية	١٠٣٩	أبو قير	٧٣٦
ممدوحية	١٠٧٥	مصر	١٠٩٧
نصرتية	٩٠٦	عكا	١١٤٨
تعريفية	٩٧٢	حمص	١٠٣٤
توفيقية	٩٤٨	بيلان	٩٠٠
برج ظفر	٧٦٥	حلب	١٠٣٤
		بنى سويف	١٠٣٤
		الفيوم	١٠٣٤
المجمــوع	٩٤٤٥	المجمــوع	١١١١٩

الفرقاطات			
الدوننمة العثمانية		الدوننمة المصرية	
نظامية	٦٧١	المنوفية	٥٥٨
جهادية	٦٧٥	البحيرة	٥١٠
نافيك	٥١٦	الدمياطية	٤٧٠
شهاب	٥٤٨	سر جهاد	٥١٠
خوز أمان	٦٦٢	رشيد	٥١٠
تافير	٥٣١	وابور النيل	١٥٢
مراد ظفر	٤٨٤		
سوريا	٥٥٥		
راسم ظفر	٥٣٤		
قائد ظفر	٤٧٨		
فضل الله	٣٨٦		
المجموع	٦٠٤٠	المجموع	٢٧١٠

الكورفيت

مسير فرج	٢٧٧	جهاد فكر	١٥٩
		طنطا	١٨٣
		جنه بحرى	١٥٩
		بلنك جهاد	١٥٩
		دمنهور	٢٦٢
المجموع	٢٧٧	المجموع	٩٢٢

الجوبليت

الدوننمة العثمانية	الدوننمة المصرية
الصاعقة	١١٥
واشنطن	١١٥
شاهين داريا	١١٥
التمساح	٩٧
المجموع	٤٤٢

البريك

جاى فرح	١٣٩	سمند جهاد	٩٧
قوس ظفر	١٥١	شباس جهاد	٩٧
بحر سفيد	٨٤	وابور الجوكا	٥٢
		الوابور الجديد	٢٧
		وابور بولاق	١٧
المجموع	٣٥٤	المجموع	٢٩٠

القوطر

نمرة ١	٢٩
نمرة ٢	٣١
المجموع	٦٠

٣ . حشد الرجال لخدمة البرية والبحرية

الأسلوب المتبع فى التجنيد- عيوب هذا الأسلوب- أسباب هذه العيوب- جهود محمد على لعلاج هذا الداء- كراهة المصريين للخدمة العسكرية- النتائج المحتملة لتشكيل الحرس الأهلى.

٤٥- الأسلوب المتبع فى التجنيد

اعترض الكثيرون بحق على الأسلوب المتبع فى التجنيد للجيش بمصر. فقد كان هذا الأسلوب ولا يزال حتى الآن جم العيوب، مخالفا لطبيعة البشر ومقتضيات العمران، وموجها لما لا مزيد عليه من الاسف.

فإنه لا نظام ولا قانون بمتبع فى التجنيد للجيش. فالجيش فى القطر المصرى لا يتشكل. كالجيش الفرنسى قبل الثورة، بالتطوع أو بالاتفاق بين الطرفين على أجر معين، ولا يتكون بطريق القرعة الخالية من شوائب الظلم والاجحاف حيث اختيار المطلوبين للتجنيد موكول إلى الاقتراع بين المتساوين فى حظ القبول فى الجندية. كلا بل إن القوة الغاشمة وحدها فى مصر، وهى فيها على أقصى ما يتصور من الوحشية ، هى التى يرجع إليها فى تزويد الجيش بمن يحتاج إليهم من المجندين. فالتجنيد فى مصر من وجوه الظلم البين بالإجحاف المتلف الضار بها. ولا شك فى أن ما رواه الرحالة عنه فى كتب رحلاتهم صحيح ولا اعتراض عليه، لأنه يكفى فى موسم التجنيد أن يتوجه بلوك من العساكر إلى إحدى القرى فينقض عليها ويجردها من سكانها الذكور بإلقائه القبض عليهم بمجرد وصوله إليها. وبعد أن يشد وثاقهم بالحبال ويربط بعضهم ببعض يسير بهم إلى بندر المديرية، يتبعهم أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم صائحين مولولين. وهناك يختار الطبيب منهم من يكونون أهلا لخدمة العسكرية.

٤٦- عيوب هذا الأسلوب

هذا الأسلوب لم يكن همجيا فقط، بل سىء العاقبة أيضا،وعيوبه بادية للعيان. لأنه بصرف النظر عن الأعمار وحالة العائلات التى تحرم بالتجنيد

من رجالها، يحول دون نمو عدد السكان ويلقى هذه العائلات فى مخالب الحزن والفاقة. فإنه بمجرد توارد الأخبار على القرية بدنو الموكلين بالتجنيد يلجأ الشبان الأصحاء الأبدان إلى الفرار إلى الفلوات التى يعرفون بأسرار وهادها ونجادها فيختفون بها شهورا، فينشأ عن اختفائهم أن تتعطل حركة الزراعة وتقضى الضرورة للسبب عينه بتجنيد غيرهم ممن يجب إعفاؤهم من الخدمة العسكرية برية كانت أو بحرية لعلة أو عاهة فيهم ولست أستر هنا الضرر الناشىء عن هذا الأسلوب، بل الخطر الذى يتهدد كيان الأمة المصرية. فليس فى مقدور أحد أيا كان أن ينكر عواقبه المشئومة ونتائجه الضارة وسمو الوالى نفسه عالم علم اليقين بضرره، ويتمنى أن يوفق لعلاج يستأصل به شأفة هذا الداء. لأنه يرى أن مصلحته الذاتية مرتبطة بمصلحة مصر الخالدة وأن لا شىء يفصل المصلحتين عن بعضهما .فلنجتهد فى البحث عن سبب الداء واستكشاف ما يلائمه من الدواء .

٤٧- أسباب هذه العيوب

لما هم محمد على بإدخال النظام العسكرى الجديد إلى مصر قامت عليه الاعتراضات من الأهالى الوطنين بل بلغ من نفورهم منه بسبب تمسكه بهذا الإصلاح أن أزدروا به وحقروه ولقبوه « باشا النصارى» ولم يكن قد سبق لمصريين أن خضعوا لنظام عسكرى . دع أنه لم يكن فى نفوسهم من روح الوطنية ولا فى رؤوسهم من الذكاء والحصافة مايدركون به حقيقة المثل الأعلى الذى ترنو مصر إليه بعينها. فيستفزهم إلى الانقياد لتلك اليد القابضة على زمام أمورهم. ثم لا ينسى أنهم لايفهمون لغة يتكلم بها لسان السلطة غير لغة القوة الجائرة والاستبداد الغاشم، فكان هذا باعثا منذ البداية على استعمال الشدة ليضطرهم إلى معاونته على إصابة مقاصده وتنفيذ أغراضه.

ولقد خبرت المصريين بالمخالطة الطويلة فعرفت من خلالهم مايدعونى إلى التأكيد بأنه يستحيل حملهم بالحسنى على الانتظام فى سلك الجيش. ولكننى أؤكد فى الآن نفسه أنه كان لابد من مضى وقت طويل لانتقالهم من الحالة التى ألفوها إلى حالة مغايرة لها، بل إلى حالة لم يعهدوا لها مثيلا من قبل، لا سيما وهى تنافى عاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم فى الفكر والتصور. تلك هى الحقيقة. غير أن محمد على ماكان يستطيع الانتظار والتريث طويلا حتى

تتطور الأمة. إذ لا بد من اعتبار أنه هبط القطر المصرى لتنشئة المصريين على مهل التنشئة التى يتمناها لهم. نعم إن ما قام به من جلائل الأعمال يعد بناء فى جدار المستقبل، ولكن ينبغى النظر إلى أن الحاضر يتطلب منه العمل السريع والاحتفاظ بدقائق الزمن ويأمره بالإحتفاظ بمركزه ودرء الأخطار المحدقة به، وبأن يكون منيع الجانب على من يرومه بسوء ليصون ما ربحه من جهة، ويدرأ عن حياته ومستقبل أسرته من جهة أخرى ما يتهددها من الخطر. فكان مما لا مفر منه أن يتوافر لديه فى الحال جيش كثيف وأن لا يقف فى التجنيد له عند أوفق الوسائل لمبادىء الحرية والإنصاف. بل عند أدعاها إلى إتمام الحشد له بأسرع ما يستطاع. واتفق لسوء الحظ أن اقترنت الوسائل التى ترمى إلى هذا الغرض بالشدة والعنف، فإذا أفضت السرعة إلى تكبد فريق من الناس هول الشدائد والآلام، فإن الإنسانية تأسف من أجلها وليس المسئول عنها سمو الوالى بل أولئك الأشرار الذين لا يكفون عن دس الدسائس له والمؤامرة على حياته وتلك الظروف القاهرة القاسرة التى حفت به.

ولما أتم محمد على تشكيل جيشه أراد أن يطبق على العمل أسلوبا عادلا لتجنيد تقدم إليه به بعض قناصل الدول رفقا بالأهلين. ولا يسعنى هنا إلا الجهر بأننى لم أكن قط آخر المتحمسين والمشايعين لهذا الإصلاح، علما منى بما جبل عليه الوالى من عواطف البر بالإنسانية. ولهذا أراد ـ مضيا مع ميوله الشريفة واحساساته العالية ـ أن يطرق باب التجربة مرةأخرى رجاء أن تفضى نتيجتها إلى ما يتفق مع الإنسانية ومبادىء العدل.

٤٨- جهود محمد على لعلاج هذا الداء

لما اتجهت رغبات محمد على إلى حسم هذا الداء وعلاجه بالأنسب من الدواء، شكل مجلسا للتجنيد مؤلفا من كبار الضباط فى جميع الأسلحة، وعهد رياسته إلى أحد قواد الطوبجية، وكنت أنا بالذات من أعضائه. فبدأنا بإنجاز مهمتنا فى مديرية قليوب، لأنها أقرب المديريات إلى القاهرة. ولما تقابلنا مع المدير واستقر بنا المقام عنده استدعى مشائخ البلاد حتى، إذا كمل عددهم وانتظم عقدهم طرح القول الآتى عليهم : « إن جميع أقطار الدنيا فى حاجة إلى القوى العسكرية للمحافظة على كيانها بتوطيد دعائم الأمن والسلام فى

الداخل والدفاع عن استقلالها ضد الفاتح المغير. وهذه الحاجة تدعو إلى تشكيل الجيوش، والجيوش لا تتشكل ولا تتم هيئتها إلا إذا قدمت الأمة رجالها لهذا الغرض، والرجال الذين تتألف الجيوش منهم ينبغى أن يكونوا حائزين على الشروط المطلوبة فيما يتعلق بالسن وصحة البدن».

« ومن المفروض على طبقات الأمة كافة وعلى جميع الأقاليم والمديريات التعاون فيما بينها على تشكيل القوات العسكرية كل بما يتناسب مع قدرته، وما هو متوافر لديه من الوسائل. ومعلوم أن الحرب تتطلب من الرجال الأقوياء الذين لا تربطهم بالهيئة الاجتماعية روابط وثيقة تجعل لوفاتهم فى نفوس أسرهم الأثر السيء. وهذا معناه أن العساكر ينبغى أن يؤخذوا من شبيبة القطر المتلئة بالقوة والنشاط. وإنما يحدث أن يوجد بين أفراد هذه الشبيبة من يستحقون الإعفاء من تلك الخدمة المفروضة قانونا على السواد الأعظم ويدخل فى عدادهم من لهم أخ أو إخوان فى سلك الجيش أو يكونون أياما. على أن الحكومة لم تكن بحاجة إلى جميع الشبان، فمن الواجب بناء على ذلك وضع قاعدة من شأنها ــ بعد جعل الحظ مقسما بالسواء بين الجميع ــ تعيين الأفراد الذين يتحتم عليهم بكيفية جازمة الانتظام فى سلك الخدمة العسكرية».

وعلى أثر ذلك شرحت لهم كيفية التجنيد فى فرنسا وأنها مؤسسة على القرعة. فلما سمع الحاضرون من المشائخ هذا التفسير لقاعدة التجنيد المعمول بها فى أوربا أعربوا عن استحسانهم وصاحوا جميعا بالموافقة عليه داعين إلى اتباعه والعمل به.

فطلب منهم عندئذ أن يعود كل منهم إلى قريته وأن يحرر كشفا بأسماء الشبان الذين تختلف أعمارهم فيها من الثانية عشرة إلى الثانية والعشرين وأن يشرحوا لمن تحت إداراتهم المبادىء العادلة التى ستجرى عليها أعمال التجنيد منذ الآن فصاعدا. فعاد المشائخ تبدو على وجوههم علائم البشر والابتهاج، ولكنهم ما كادوا يفاتحونهم فى أمر تلك الطريقة الجديدة. والأسلوب الحادث حتى ولى جميع السكان الادبار وأركنوا إلى الفرار، فلم تجد الحكومة إزاء هذه الحالة إلا الالتجاء إلى القوة وأن تأخذ الآفاق على الذين فى سن التجنيد لتنظمهم فى سلك الجيش.

ومن النوادر التى يحسن إيرادها فى هذا المقام، أنإبراهيم باشا كان يشرح ذات يوم لبعض علماء دمشق أسلوب التجنيد فى فرنسا، فتحمسوا له ووافقوا عليه ودعوا إليه واعترفوا بما انطوى عليه من رفق وعدل. ولما أنس منهم ابراهيم باشا هذا الاستحسان العام قال لأحدهم: « بما أنك موقن بمزايا توزيع عبء الخدمة العسكرية على الشبان التوزيع العادل ـ فمما لا ريب فيه أنك ستعطينا واحدا من أبنائك الخمسة فأجاب العالم وكان الجزع قد ملأ فؤاده ـ : « أنا.... أنا... لا أقدر على مفارقة ولد من أولادى».

٤٩- نفور المصريين من الخدمة العسكرية

لا يستطيع مصرى أن يتخيل امكان اندراج إنسان فى سلك الجيش بمحض إرادته، لان المصريين يجزعون من العسكرية ويبغضونها إلى حد أن الأمهات يتعمدن إتلاف بعض أعضاء أبنائهن ليصيروا غير صالحين للتجنيد. فهن يسملن عيونهم أو يبترون أصابعهم إلى غير ذلك. ولقد شوهد بعض الفلاحين الذين على وشك الانتظام فى سلك الجندية يقطعون جملة من أصابع يدهم اليسرى بل يبرونها بريا بالسيف من غير ما تردد ولا اكتراث ولكنهم كانوا، بمجرد استياقهم إلى العمل فى الجيش، يخضعون للقوة القاهرة لارتياعهم منها، ويرضخون لأحكامها باعتبار أنها قضاء واقع ليس له من دافع. ومع هذا فإنهم متى انتظموا فى هيئة الجيش تطوروا سريعا بطور العسكرية واعتادوا حالتهم الجديدة ومحوا من ذاكرتهم سيرة نفورهم القديم. وتراهم إذا دارت النوبة دورتها فكلفوا بمباشرة التجنيد، يعاملون المجندين بمثل الشدة التى عوملوا بها من قبل وقتما انتزعوا من بيئاتهم لحمل السلاح .

٥٠- النتائج المحتملة لإنشاء الحرس الوطنى

ولكن أستنتج من هذه الخاصية الغريبة لدى المصرى أنه لايرجى، فيما يتعلق بمسألة التجنيد، الوصول إلى سن نظام له أفضل من النظام المعمول به؟ كلا، فإن بالصبر يكون الظفر والتغلب على الصعوبات وتذليل ما يعترض فى الطريق من العقبات. ولابد أن يأتى يوم يكونون فيه قد اعتادوا ممارسة الأعمال الحربية وشغفوا حبا بالمعيشة العسكرية. فمتى أتيح لمحمد على بذلك أن يحصر كل أفكاره فى مصر ويقصر عليها أنظاره وقلت حاجته إلى الجنود. فلا جدال فى أنه سيضع للتجنيد أسلوبا يجعل قوامه النظام والإنصاف.

وعندئذ يتمسك بأهداب الصبر وبه يتغلب على الصعوبات ويكتسح بهمته ما يعترضه من العقبات. وهاهو الحرس الوطنى الذى أنشاه فى الأزمة الأخيرة لسوف يفلح فى تعويد المصريين حب الخدمة العسكرية واستفزازهم إلى القيام بواجباتها عن طيب خاطر. فإنه متى قضى الفلاح بعض الزمن فى التدريب على الرماية بالبنادق والمناورات وألف معيشة المعسكر بالقرب من أهله، زال ما كان يغشاه حتى الآن من الكراهية للجندية وحل محل نفوره منها ميله الشديد إليها. ولسوف يتمهد له، وهو يتدرب فى المدرسة العملية للحرس الوطنى، سبيل التحول والانتقال من النظام الملكى إلى النظام العسكرى. ومتى راق له هذا النظام وحسن فى نظره، لما يكون قد استقر فى خلده من مطابقته لمبدأ الرفق والرعاية، فإنه لن يلجأ فى مقاومته لتجنيد، وهو الضرورة التى ساقها واجب الدفاع عن الوطن، إلى تشويه نفسه ذلك التشويه الذى لم يجرؤ على ارتكابه إلا بدافع من الطيش والجهل والعناد. وعندئذ لا ترى الحكومة أن هناك ما يدعوها إلى الانبراء لمكافحة تلك النزعات الشريرة والنزعات الباطلة التى ليس من ورائها إلا الضرر المحقق لأصحابها فتتبع الطريقة الفرنسية لتجنيد إلا وهى طريقة الاقتراع التى لم توفق للعمل بها.

ولا ريب فى أن الأمة والحكومة ستجنيان من هذه الطريقة فوائد جليلة. أما الأمة، فبتوزيع المطلوبين للخدمة العسكرية عليها توزيعا أساسه المساواة والعدل، وقوامه رعاية الرفق والإنسانية. وهو ما يبث فى نفسها الإقدام شيئا فشيئا بمحض إرادتها على الانتظام فى السلك العسكرى، فلا يعتمد وقتئذ على وسائل الشدة والإكراه فى التجنيد. وأما الحكومة فبما تربحه من مزايا تنظيم جنديتها شأن كل حكومة رشيدة. وأهم هذه المزايا: الوحدة والبقاء والقوة.

الباب التاسع

الزراعة والصناعة والتجـــــــارة

(١)
الأراضى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة بمصر

١- الزراعة صفة خاصة بمصر وميزة لاصقة بها إلى حد يتسع معه مجال القول بأن الطبيعة ، إذا حرمتها العناصر الأولية اللازمة للصناعة لتوزيعها على كل قطر ما يميزه من الصفات عن سائر الأقطار، أرادت أن تجعل الزراعة عملها الذى ينبغى أن لاتتعداه إلى غيره من الأعمال.

ولقد رأينا فيما تقدم ماهية تركيب أراضى القطر المصرى وأنواع حاصلاته. وسنذكر بعض الشيء الآن عن الظروف الخاصة التى توجد الزراعة المصرية فيها الآن والأساليب المتبعة من الفلاحين للقيام بواجباتها. ونفيض فى بيان التفاصيل المتعلقة بالحاصلات الزراعية.

غير أننى أرى قبل ذلك، أن أطرح على أنظار القراء الجدول الآتى ببيان الأراضى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة فعلا بالقطر المصرى.

٢- جدول الأراضي القابلة للزراعة والمزروعة

الوجه البحرى

المديريات	الأراضي المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضي الداخلة في المساحة ولكنها لم تزرع ولاتدفع ضرائب الأطيان
الغربية	٤٥٠٠٠٠	٤٠٩٠٠	١٥٥٥٠٠٠ فدان أراضي الأبعاديات يوجد منها قسم مزروع تبلغ مساحته ٣٠٠٠٠ فدان يضم إلى مساحة الأراضي المزروعة يخصم من مساحة الأراضي غير القابلة للزراعة هكذا الأراضي غير قابلة للزراعة ١٥٨١٠٠٠ ٣٠٠٠٠ أرض غير قابلة للزراعة ١٥٥١٠٠٠ «مزروعة ٢٢٤٩٠٠٠ المجموع ٣٨٠٠٠٠٠
منوف	٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	
الشرقية	٣٦٠٠٠٠	٥٣٠٠٠	
المنصورة	٣٢٠٠٠٠	١٥٢٠٠	
البحيرة	٢٤٥٠٠٠	٢٢٠٠٠	
قليوب	٠٢٩٠٠٠٠	٨٠٠٠	
الجيزة	٢٤٥٠٠	٦٤٠٠	
الأراضي المزروعة	٢٢١٩٠٠٠		
الأراضي «القابلة للزراعة»	٣٨٠٠٠٠٠		
«غير»	١٥٨١٠٠٠		

مصر الوسطى

المديريات	الأراضى المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضى الداخلة فى المساحة ولكنها لم تزرع ولاتدفع ضرائب الأطيان
المنيا	١٥٢٨٠٠	٥٠٩٠٠	٦٦٧٢٠٠ فدان أراضى
بنى مزار	١٤٨٢٠٠	٤٩١٠٠	الأبعاديات منها
الفشن	١٦١٠٠٠	٣٩٢٠٠	٢٥٠٠٠ مزروعة الآن
بنى سويف	١٣٩٤٠٠	٣١٠٠٠	تخصم كما تقدم
الفيوم	١٢٤٠٠٠	٤٩٧٠٠٠	٨٦٨٦٠٠ ٢٥٠٠٠
الأراضى المزروعة	٧٢٥٤٠٠		أرض غير قابلة للزراعة ٨٤٣٦٠٠
الأراضى القابلة للزراعة	١٥٩٤٠٠٠		أرض مزروعة ٧٥٠٤٠٠
الأراضى غير القابلة	٨٦٨٦٠٠		المجموع ١٥٩٤٠٠٠

الوجه القبلى

المديريات	الأراضى المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضى الداخلة فى المساحة ولكنها لم تزرع ولاتدفع ضرائب الأطيان
إسنا	٤٧٣٣٧	٢٦٦٥٤	٢٩٧٢٤٠ فدانا أراضى
قنا	١٠٢٣٩٠	٥٤٢٣٢	الأبعـاديـات ومن هـذا
فرشوط	٩٨٨٢٢٨	٣٧٦٦٦	المقـدار يمكـن حسـاب
جرجا	١٠١٢١٧	٤٩١٩٢	١٠٠٠٠ فدان أصبحت
سوهاج	١٣٤١٦٩	٢٧٣٦٦	قابلة للزراعة الآن هكذا
أسيوط	١٦٣٥٥٤	٣٠٠٣٠	٧٧٣١٧٤
منفلوط	٩٨٩٦٤	٢٦٧٥٤	١٠٠٠٠
ملوى	١٠٠٣٦٧	٢٤٣٠٦	أرض غير قابلة
أراضى مزروعة	٨٤٦٨٢٦		للزراعة ٧٦٣١٧٤
			أرض مزروعة ٨٥٦٢٨٦
أراضى قابلة للزراعة	١٦٢٠٠٠٠		المجموع ١٦٢٠٠٠٠
أرض غير قابلة	٧٧٣١٧٤		

مراجعة عامة

المديريات	الأراضي المزروعة	أراضي غير قابلة للزراعة	المجاميع	
الوجه البحري	٢٢٤٩٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٣٨٠٠٠٠٠	مجموع مساحة أراضي القطر المصري ٧٠١٤٠٠٠ فدان
الوجه القبلي	٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢٠٠٠٠	
مصر الوسطى	٧٥٠٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	١٥٩٤٠٠٠	
	٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧٠١٤٠٠٠	

الــرى

الرى بالترع - الرى بالآبار- السواقى- الشواديف

٣- من الحقائق الثابتة أن سكـان القطر المصرى وجهوا عنايتهم فى جميع الأزمان والأدوار إلى الانتفاع ، بقدر الإمكـان، بما يحمله النيل إليهم سنويا من عناصر الخير والثروة. فكان إنشاء الترع وتعهـدهم إياها بالترميم والإصلاح ممـا استجمعـوا فى سبيلـه جهودهم وصرفـوا نحـوه عنـايتهم. ومعلـوم أن خصوبة أرض مصر سببهـا فيضان النيل، فلابدع إذا كانت مسألـة جر مياه هذا النهر لتغمر أوسع مساحة مستطاعة من الأرض، من أمهات المسائل التى شغلت خـواطرهم منـذ قديم الـزمان وارتبطت بحـالها حالـة مصر من يسر ورخاء أو ضيق وشقاء.

ولاتزال الحال اليوم كما كانت عليـه فى ذلك العهد. فإن ثروة مصر تتوقف على تـدبير ميـاه النيل، كما أن لأساليب الـرى الآن نفس مـاكـان لها فى تلك العصور الغابرة. والترع بالوجـه القبلى تشبه فروع الشجرة التى تتفرع عن أصلهـا الثـابت، إذ تتجـه نحـو سلسلتى الجبـال الحافتين بـوادى النيل من جانبيه، حتى إذا بلغت إلى سفوحهما استطـالت بالتوازى للصحراء وحصرت الأراضى الزراعية بين خطوطها المخصبة.

وقبل الفيضان تقام الســدود عند مآخذ ترع الـرى المتفرعة من النيل على ضفتيه، فإذا بدأ النيل بالارتفاع والنمـو تقطع تلك السدود فتجرى المياه فيها إلى أن تلتقى بسد آخر تقف عندهـا فتفيض المياه على الأراضى التى يخترقها هذا الجزء المحصور بين السدين.

وكلما كان الفيضان عظيما ارتفعت المياه دون السدود المشار إليها واتسع نطاق الأراضى المغمورة بالمياه.

وبعد أن تغمر هـذه الأراضى وتروى ريا جيدا، تفتح السـدود التى كانت المياه قد وقفت عندها فتنسكب فى القسم التالى لها وتملأه إلى أن تقف عند سد جديد فتفيض المياه على الأراضى التى يخترقها هذا القسم من الترعة المنحصر بين السدين، فإذا تم رى الأرض ريا جيـدا وعمت المياه الأراضى البعيدة قطع السد الثالث، وحـدث فيما يليه ماحدث فى الذى قبله وهكذا بقـدر ماتسمح به

حالة الفيضان ارتفاعا وانخفاضا.

ومـآخذ الميـاه من النهر تتعـدد على مسافـات متفاوتـة من شاطئـه بترع خاصـة يقصد بها زيـادة إيراد المياه لتعـويض الذاهب منه ضيـاعا بتفـرعه وانبثاثـه فى الجهات المتطرفة من الترع وتـوزعه على المسطحات الـواسعة من الأراضى بالقنوات التى تشتق منها فى أطرافها.

وبذا يمكن تمثيل وادى النيل أثناء انتشار الفيضان من ضفتيه إلى سفوح الجبال الحافة به من جـانبيه بمناطق تذهب صاعدة كالـدرج وتنغمر بالمياه الغزيرة.

ولاستمـرار الماء فوق الأراضى ومنعـه من الانحسـار عنها والعـودة الى مجرى النهر أقيمت على ضفتيـه جسور اتخذها النـاس طريقا للمـواصلات مدة الفيضان، بين الأماكن والنواحـى المتنائية، حتى أن المياه المحجوزة كثيرا مـا تبقى أثنـاءه مـرتفعة فـوق مستـوى سطح النهـر. ومن ثم كـان تعهـد الجسـور الأصلية الواصلة من قريـة إلى أخرى أمرا من الأهمية بمكان مكين. وكذا السـدود التى يتم بها فيضان المياه من الترع ذلك الفيضـان التدريجى، فإنها جديرة بدوام التعهد والعناية، إذ لابد فى قطعها من أعمال الروية دفعا لما يمكن أن يصيب القرى البعيدة بسببها من الضرر.

يـؤخـذ مما تقـدم أن ميـاه النيل تشبـه الكنـز. الثمين تقبض الإدارة على مفتاحه وتهيمن على وسـائل تدبيره بتوحيد الاجرياء = الإجـراءات = اللازمة لذلك وبقوة مـابيدها من الوسـائل. فإذا كانت الإدارة حكيمة مدبـرة حاذقة مهيبة الجانب فقد سهل عليها التحكم فى العنـاصر النافعة التى يسوقها النيل فى جريانه تحكما يمهد توزيعها على الأراضى المراد إرواؤها بالعدل والنزاهة. أما إذا كانت جاهلة غاشمة ضعيفة متوانيةفإنها تترك ذلك الكنز الثمين يفلت من يدها وتعرض ثروة البلاد وحياتها إلى خطر مدلهم وخطب جلل.

٤- الرى بالآبـار

رأينـا هـذا المصنف أن فيضـان النيل لم يكن العـامل الوحيد لخصوبة الأرض فى مصر. إذ لو كان كـذلك لكان هذا القطر أخصب بلاد الـدنيا فى أحد فصول السنـة وأقحلها وأمحلها فى الفصول البـاقية . وقد ذكرنـا أن ارتشاح الميـاه خلال الطبقـات الرمليـة التى هى فى مصر قـاعدة الأراضى الصـالحة

للزراعة، كان من أقوى عوامل نجاح الزراعة المصرية لقيامه بتغذية النباتات أثناء السنة كلها. ولنذكر الآن كيف استفادت الأراضي الزراعية في مصر منذ قديم الزمان بارتشاح المياه.

لما رأى الأقدمون أن المياه العليا من النيل تنحط في القيعان وتهوى إلى المنخفضات، ابتكروا فكرة الآبار المعروفة بالسواقي أو النواعير ليتمكنوا بواسطتها من رفعها إلى سطح الأرض وري المزروعات بها. وهذه الآلة الرافعة عبارة عن دولاب يدور حوله حبل ربطت فيه قدور من الفخار تسمى بالقواديس. ويحرك هذا الدولاب عجلة مسننة تدور حول محور تحركه ماشية من الجواميس أو الثيران.

والسواقي آلات بسيطة يصنعها الفلاحون أنفسهم ويركبونها في مواضعها ولقد جربت طرق عديدة لرفع الماء آلاتها كثيرة الالتباك والتعقيد، فلم تفلح التجارب بسبب ما تقتضيه من العناية التامة ودوام التعهد، بالترميم والإصلاح على أيدي صناع حاذقين. وما من مرة أجريت تجربة من هذا القبيل إلا وانجلت عن ضرورة الرجوع إلى طريقة الري بالسواقي والتعويل عليها، لاسيما وأنها منتشرة في طول البلاد وعرضها، حتى أن عددها في الوجهين البحري والقبلي الآن يربو على خمسين ألف ساقية. وأكثر ما تفيد السواقي المزارعين في الأماكن البعيدة عن النيل، لري الأراضي التي لايفيدها الري بالفيضان. والحدائق المنتشرة في ضواحي المدن لاتروى غالبا إلا بمياه السواقي.

وتستعمل للري أيضا آلة أخرى غير السواقي ترى على ضفاف النيل وشواطىء الترع، خصوصا في الستة أشهر السابقة على الفيضان، وهي أبسط من السواقي. وقد وصفها الرحالون في رحلاتهم، واسمها «الشادوف» ويتألف الشادوف من رافعة معلقة في نقطة تقع في الثلث الأول من طولها بعارضة أفقية ترتكز على دعامتين رأسيتين قائمتين على جسر النيل أو الترعة المراد رفع الماء منها لري الأرض.

وفي طرف الجزء القصير من جزئي الرافعة ثقل من الطين الجاف. وفي الطرف المقابل له – أي طرف الجزء الطويل من الرافعة عقدة مرنة يهبط منها قضيب إذا تحركت الرافعة احتفظ باتجاهه الرأسي. وبأسفل هذا القضيب

دلو من الجلد أو غيره يملأه العامل الواقف على أرض بارزة من الجسر، وذلك بأن يغرز طرف القضيب فى الماء حتى إذا امتلأ الدلو رفعه بواسطته إلى أن يوازى صدره، فيسكب ما فيه فى رأس جدول صغير. وتكرر هذه العملية فيندفع الماء ذاهبا فى القناة ألى الأرض المراد ريها أو إلى حفرة أخرى، ليلتقطه رجل ثان فيرفعه بتلك الوسيلة عينها إلى رأس جدول آخر. وربما كان هناك، فيما عدا هذين الرجلين، رجال آخرون يفعلون فعله إذا كانت الأرض المراد ريها عظيمة الارتفاع. ومتوسط الارتفاع الذى يبلغ إليه الماء بواسطة كل شادوف ثلاثة أمتار تقريبا. وقد وضع أولئك الرجال على منحدر ضفة واحدة بحيث تكون حركة الماء فى ارتفاعها ووصولها إلى سطح الأرض على شكل الدرجات التى يتلو بعضها بعضا.

ولقد قام بعض علماء الحملة الفرنسية بتجارب عديدة على هذه الآلات الرافعة. فتبين لهم منها أن العامل المصرى يستطيع أن يرفع بالشادوف ما متوسطه ٥٠ لترا من الماء فى الدقيقة الواحدة إلى ارتفاع ثلاثة أمتار تقريبا. وهذا فوق طاقة القوة العادية للرجل الواحد. على الكيفية التى تقدر بها هذه القوة فى أوربا. وظهر أيضا أن متوسط ماترفعه الساقية الواحدة من الماء يعادل خمسة أمثال مايرفعه الشادوف.

والشادوف فى الوجه القبلى حيث شواطىء النيل أكثر ارتفاعا منها فى الوجه البحرى، عظيم الانتشار. وقد يضعون خمسة شواديف أو ستة بالتتابع على درجات متفاوتة الارتفاع لإيصال الماء إلى الأراضى المطلوب ريها. ولما كانت مآخذ ترع الرى من النيل بالوجه القبلى قليلة العمق، فإنها تبقى جافة أثناء الشطر الأكبر من السنة . ولكنهم يعالجون هذا النقص بالصناعة والحيلة. إذ يضعون العدد العظيم من الشواديف على خط واحد بعضها لصق بعض. لإيصال الماء إلى تلك الترع. وكثيرا مايقضى الرجال الموكلون بتلك الشواديف النهار والليل أحيانا، لرفع الماء من النهر و كثيرا ما أدهش جميع السياح الذين ساروا فى النيل أثناء التحاريق، منظر تلك الشواديف متراصة على ضفتى النهر يحركها باستمرار رجال مجردون تقريبا من ثيابهم، وهم ينظمون حركة عملهم للتوفيق بينها فى حالتى الخفض لأخذ الماء والرفع لسكبه بالأناشيد والأغانى المقفاة.

والأراضى التى تغمرها مياه الفيضان تغطى محصولا واحدا. أما التى يمكن ريها على مدار السنة فتعطى فى السنة ثلاثة محاصيل وفى بعض الاحيان أربعة.

(٣)

آلات الحراثة والأساليب الزراعية

المحراث – الكرك– الحصاد– النورج– تعاقب الزراعات فى الأرض– تمسك الفلاحين بالأساليب القديمة– العزبة المتخذة نموذجا

٥– لاتستدعى أعمال الزراعة فى مصر كبير عناء، إذ إنها من السهولة بحيث لايحتاج فى القيام بها إلا إلى آلات فى الغاية القصوى من البساطة. ولعل هذا هو السبب الذى لأجله حفظت الآلات الزراعية شكلها المصرى منذ سكان مصر الأولين وهو الأمر الذى تؤيده النقوش الموجودة فى الآثار القديمة.

المحراث

والمحراث المصرى عبارة عن قطعتين من الخشب تلتقيان ببعضهما من الطرفين بحيث تكونان زاوية يتغير انفراجها بأداة مثبتة فى القطعة السفلى، مارة فى ثقب بالقطعة العليا. وهذه الأداة ذات ثقوب عديدة تمر فيها قطعة خشب تجعل فتحة الزاوية ثابتة. وانفراج هذه الزاوية كثرة أو قلة يكون بحسب ما إذا أريد جعل الحرث عميقا أو غير عميق.

أما القطعة الكبرى من القطعتين اللتين يتألف المحراث منهما فتنزل من المحراث بمنزلة العريش من العجلة. وفى طرفها عارضة خشب هى النير = الناف = الذى يعلق به الثوران أو غيرهما من الماشية المستخدمة فى الحرث. ويوضع هذا النير على عنقى الثورين أو غيرهما ويثبت فى مكانه من العنقين بحبال من الليف.. أما القطعة السفلى فيجتمع فيها بشكل عاشق ومعشوق قطعتان من الخشب تسهلان على الحارث توجيه المحراث نحو الجهة التى يرومها أو غرز سلاحه فى الأرض بالقدر الذى يريده.

وبعد حرث الأرض يسوى سطحها ويمهد بقطعة من جذع نخلة تلقى عليها يسحبها ثور أو ثوران باتجاه عرضها. وقد يكون الجذع خفيفا. ففى

هذه الحالة يقف فوقه الرجل الذى يسوق الثور ليزيده ثقلا. ولكى تصرف المياه من الأرض التى تروى ريا صناعيا تستعمل أداة تسمى «الزحافة» وهى عبارة عن لوح من الخشب فى طول متر بأحد طرفيه مقبض وبالآخر حبل، فيمسك رجل أو رجلان بهذا الحبل بينما يحرك اللوح من المقبض رجل آخر.

وبعد بذر البذور لايعود الزارع إلى الغيط إلا لتنقيته من الحشائش أو ريه أو مباشرة الحصد. وتقطع سوق النباتات بالمنجل إذا لم يكن المراد انتزاعها بجذورها. وبعد الحصاد تجمع النباتات المحصودة حزما كبيرة ثم تلقى فى مكان خاص من الغيط الذى حصد محصوله أو فى مكان آخر قريب منه . لأنه بالنظر إلى قلة هطول الأمطار وسقوط الجليد فى مصر، لا يحتاج المصريون فى الاحتفاظ بحاصلاتهم الى الحظائر المسقفة. بل يدعونها معرضة فى الغيط للهواء والشمس. وفى جهات الصعيد الأعلى تدرس الحبوب بالمواشى بعد نشرها على البيدر أى الجرن. أما فى الجهات الأخرى فتتم هذه العملية بالآلة المعروفة بالنورج. والنورج عبارة عن إطار أفقى يتألف من أربعة قطع كبيرة من الخشب متعاشقة بعضها ببعض. وقد ثبت فى جانبى قطعتين منهما عمودان أو أكثر من الخشب، فى كل عمود منهما ثلاث صفائح من الحديد الذى سمكه ملليمتران تقريبا مستديرة الشكل، ونصف قطر كل منها أربعون سنتيا. وهذه الأعمدة بصفائحها المستديرة تتحرك كالعجل بحيث تكون فى وضعها على شكل تتقابل فيه صفائح كل عمود مع وسط المسافات الواقعة بين صفائح العمود التالى له. قد ركب فوق الإطار كرسى غليظ الصناعة يجلس عليه سائق الثورين. وفى العارضة الداخليةمن الإطار المربع حلقة يربط فيها عريش من الخشب يعلق بطرفها نير يوضع على عنقى الماشيتين المعلقتين بالنورج. فإذا فرشت حزم الحبوب المحصودة المراد درسها بتلك الآلة على شكل دائرة يختلف نصف قطرها من ثمانية أمتار إلى ثمانية عشر مترا ، ومر النورج فوقها مرا دائريا، داست الثيران والمواشى الحزم المفروشة بأرجلها. فيخرج الحب من سنابله بينما تقطع الصفائح المدورة السوق الجافة فيتكون منها التبن.

هذا والأراضى التى يخصبها الطمى الراسب من ماء النيل تنبت باستمرار. والفلاحون لايتركونها لترتاح، بل يتابعون حرثها وزرعها. وغاية

الأمر أنهم يراعون التناوب فى زراعتهم.

والفلاحون كغيرهم من الشعوب الجاهلة متمسكون بالأساليب الزراعية التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم. ولعل ذلك هو لأن الأعمال الزراعية لا تستدعى فى مصر إلا اليسير من المشقة إذ يظهر ان الطبيعة فى هذا القطر تتولى العمل الزراعى بنفسها، بحيث لايحتاج هذا العمل من الإنسان شيئا سوى القيام على الرى وتعهد شئونه. فالفلاحون المصريون لايحتاجون فى الحصول على مايطمعون فيه من وفرة الحاصلات الزراعية إلى الأساليب الراقية التى استكشفها العلم الحديث. غير أنه لما كان تأثير العلم طيبا ومفيدا فى كل مكان وزمان، فمن المحقق أنه سيأتى بأحسن الثمار وأجل النتائج فى مصر. وهو ماأدرك سمو الوالى حقيقته، ولأجله أرسل فريقا من الشبان الى أوربا للوقوف على ماوصل إليه علم الزراعة من التقدم عندنا.

ولقد تلقى لفيف من المصريين هذا العلم بمدرسة (روفيل) تحت إدارة العلامة (ماتيو دى دمبال) وأنشأ محمد على بالقرب من شبرى عزبة على المثال الحديث لتكون نموذجا لما ينشأ من العزب فى المستقبل، فجاءت ببعض الفوائد. ومحقق أن بالإمكان الاستفادة من هذا العمل، متى أتيح لسمو الوالى التفرغ التام لتوسيع نطاق الموارد السلمية فى مصر التى مازال مضطرا إلى تعزيز قوتها الحربية بحكم الظروف والمؤثرات السياسية.

(٤)
الزراعات الكبرى فى مصر

مواسم الزراعة : الزراعة الشتوية- القمح- الشعير- الفول- العدس- الترمس والحلبة- الزعفران والبرسيم - الزراعة القيضية- القطن- النيلة ـ الزراعة الصيفية: الذرة - الأرز- الكتان- دود القز- جدول الحاصلات المصرية.

٦- مواسم الزراعة

يقسم فيضان النيل السنة إلى ثلاثة أدوار زراعية. ولعل هذا هو السبب الذى دعا قدماء المصريين إلى تأليف السنة المدنية من ثلاثة فصول فقط . كل فصل مائة وعشرون يوما. ففى ارتفاع المياه فى النهر إلى أعلى مقياس لها

وانتشارها على الأراضى الزراعية بعد قطع السدود، كانوا يباشرون زراعة الأصناف التى لاتحتاج للرى إلى أن تبلغ تمام النضج وتصلح للحصد، وتعرف أصناف هذه الزراعة باسم الفياضى. أما الزراعات التى تزرع فى الفصل نفسه فى أرض لم يسبق غمرها بماء الفيضان أو لم تحتفظ بهذا الماء على سطحها زمنا طويلا، فلابد فى ريها من الاستعانة بالوسائل الصناعية. وتلك الزراعات تسمى لهذا السبب بالزراعات الشتوية . وكل من هذين الصنفين من الزراعات أى الفياضى والشتوى تتبعهما الزراعتان المعروفتان بالصيفى والفيضى. وهاتان الزراعتان تقابلان الزمن الذى يكون النيل أثناءه فى التحاريق، وتقتضيان لهذا السبب الرى الصناعى.

ومتى بدأ ارتفاع النيل تبتدىء الزراعتان الآتيتان وهما:

الزراعة الدميرى، وهى التى تحصل فى الأراضى الواطئة والزراعة النبارى وهى التى تحصل فى الأراضى العالية التى يحتاج ريها إلى رفع الماء بالوسائل الصناعية.

٧- الزراعة الشتوى : القمح

تزرع الحبوب عادة فى الأراضى التى غمرت بماء الفيضان إذ تبذر بذورها عقب انحسار المياه عنها. والعادة أن يتم بذر القمح بالوجه القبلى قبيل شهر نوفمبر، وبالوجه البحرى قبيل بداية ديسمبر. وتبلغ البذور اللازمة للفدان الواحد ثلث الأردب المصرى بعد انكشاف الأرض ببضعة أيام.. ولا يعنى بتنقية البذور من الأجسام الغريبة التى تحتويها، ويحصل الحصد قبيل أوائل مارس بالوجه القبلى وفى أبريل بالوجه البحرى. ولقد ذكرنا فى الفصل المخصص للنباتات مقدار محصول مصر من القمح فلا حاجة هنا إلى التكرار. ويزرع القمح أيضا أثناء فصل الربيع فى الأراضى التى سبق زرعها بالبرسيم الحجازى، وتروى الحقول المزروعة به وصنفه أحسن بكثير من القمح القياضى ولكن زراعته تستدعى نفقات أكثر من زراعة الأصناف الأخرى.

٨- الشعير

بعد حرث الأرض حرثا خفيفا يبذر الفدان الواحد منها بثلاث كيلات إلى أربع من الشعير. ويتم الحصد بعد البذر بمدةتختلف من أربعة أشهر إلى خمسة.

٩- الفول

يبذر الفول فى الميعاد السابق تقريبا على الطمى الذى يتركه النيل ويغرز فى الأرض بالـزحافة وتبقى زراعـة الفول فى الأرض نحو أربعـة أشهر ونصف. ويبلغ مايلزم للفدان الواحد من البذور من خمس كيلات إلى ست.

١٠ - العدس

يبدأ بذره فى نوفمبر من غير أن يعنى بالأرض المخصصة له، ولا أن تجهز تجهيزا خاصا لزراعته. ويكفى الفدان الواحد من البذور من ثلاث كيلات إلى ثلاث ونصف. ويتم الخصاد بعد ذلك بثلاثة أشهر أو أربعة.

١١- الحمص

يبذر له فى نوفمبر بالأراضى التى لا تحرث إلا لتغطية هذه البذور بالتراب. ويبلغ مايكفى الفدان من البذور من ثلاث كيلات ونصف إلى أربع كيلات.

١٢- الترمس والحلبة

يبـذر لهما فى الأراضى الضعيف،ة وطـريقـة زراعتهما كطـريقـة زراعـة الحبوب التى سبق الكلام عليها.

١٣- الزعفران

يبذر لـه فى الآن نفسه بلا تكلف عناء لإعـداد أرضه، وغاية مـا هنالك أن البذور تغطى بالتراب بـواسطة الكرك. يلزم لزراعة الفـدان من كيلة إلى كيلة ونصف من البذور. ويحصد الـزعفران فى مارس، وبعد حصـده يجعل حزما ويحمل إلى الأمكنة التى ينزع فيها من بـذوره فيترك بها من خمسة عشر يوما إلى عشرين حتى إذا جف تماما ضرب بالعصى لفصل البذور منه.

١٤- البرسيم الحجازى

البرسيم الحجـازى من الـزراعـات العظيمـة الأهميـة للفصل الـذى يلى انصراف المياه. لأنـه المحصول الـذى يعتمد عليـه فى تغذيـة مواشـى القطر المصرى.

١٥- الزراعة القيضى : القطن

زراعة القطن حديثة فى مصر وقد أشار بها على سمو الوالى فى سنة ١٨٢١ فرنسى يدعى المسيو (جومل)، إذ أوقفه على مزايا هذه الزراعة وبين له مقدار فوائدهـا وما يستثمـر من ربحها. وكـان القطن الذى تنتجـه مصر حتى ذلك

الوقت من الصنف الردىء، بخلاف الصنف التى اقترح المسيو (جومل) إدخال زراعته فإن أصله من الهند، وكان يزرع فى بعض حدائق القاهرة كنبات من نباتات الزينة. فلما وقف المسيو (جومل) عليه وسع نطاق زراعته وعنى بها فبقى اسمه مرتبطا بهذا المحصول الذى صار أهم الحاصلات الزراعية التى يعتمد عليها سمو الوالى.

وأرض مصر من أوفق الأراضى وأصلحها لزراعة هذا القطن. نعم إنهم يبذرونه فى جميع الأراضى على حد سواء، ولكن أصلح الأراضى له الأرض الكثيفة القوية الحافظة للرطوبة التى تستطيع شجيرات القطن أن تستمد من عناصرها العصير المغذى وأثمار اللوزات ومما يساعد نموه مجاورة الأراضى التى تزرع به للنيل حيث يتوافر الرى بالراحة وبأقل مايمكن من النفقات.

ومما ينبغى رعايته فى زراعة القطن أن تكون الأراضى التى تزرع به بعيدة عن مظان فيضان النهر، لأن، بقاء الماء بجوار الشجيرات يميتها حتما والفلاحون شديدو الاهتمام بحماية الأراضى المعرضة للفيضان ، أثناء ارتفاع مياه النيل، بالجسور القوية من الطين. وشجيرات القطن تروى فى مواعيد دورية بالسواقى والشواديف. وفى فصل الشتاء تروى كل خمسة عشر يوما مرة . أما فى الخريف فتروى كل اثنى عشر يوما إذا كان الندى كثيرا وكل ثمانية أيام إذا كان الزمن صيفا.

ويبذرا لقطن فى شهرى مارس وأبريل بالوجه البحرى. ويعنى قبل البذر بحرث الأرض مرة واحدة إذا كانت الأرض قوية. أما إذا كانت ضعيفة فيكرر الحرث مرتين أو أكثر، وفى الصعيد يبلغ إيغال المحراث فى الأرض ستة وثلاثين سنتيا وبعد الحرث على هذا المثال ترسم الخطوط متوازية على مسافة متر بعضها من بعض. ويكثر القلقيل عقب ذلك وتمهد الأرض، وتفتح جور قطر كل جورة من ثلاث بوصات إلى أربع وعمقها كذلك ويوضع فى كل جورة من بذرتين إلى أربع من بذور القطن التى يعنى بوضعها فى الماء قبل ذلك بنحو أربع وعشرين ساعة لتعجيل انباتها. وتجعل المسافات بين سوق شجيرات القطن نحو المتر تقريبا وعادة الفلاحين فى المزارع القريبة من المدن ان يبذروا مع القطن بذور الخضر والبقول للاستفادة بالأرض كلها. وفى زمن الفيضان تنقى الزراعة القطنية من الحشائش الطفيلية التى تنمو حول الشجيرات.

وفى السنة الثانية لاتعزق الأرض إلا للتنقية مرة أخرى وشجيرة القطن التى يبلغ ارتفاعها فى السنة الأولى من متر إلى متر ونصف يزداد نموها فى السنة الثانية. ولكن هذه الزيادة أضعف منها فى السنة الأولى.

ومنذ السنة الأولى تقلم شجيرات القطن بأداة مخصصة لهذا الغرض أسمها المشذب. وتنزع جميع فروعها لاتخاذها وقودا وهذه العملية تعطى الشجيرات قوة جديدة وتقيها ضرر البرد الذى يسطو عادة على الفروع فيهلكها.

ويبتدىء جنى القطن عن السنة الأولى فى شهر يوليو وينتهى فى يناير إذا لم يكن البرد شديدا.

ومحصول الشجيرة الواحدة رطل وربع من القطن الخام عن السنة الاولى ومن رطل وربع إلى رطلين عن السنة الثانية، ومثل هذا القدر عن السنة الثالثة. ولكن الشجيرات تفقد فى السنوات التالية هذه الخاصية ، ولذا كان من الأوفق تجديد زراعتها كل ثلاثة أعوام . وبالرغم مما تقدم فإن شجيرات القطن تستمر على الإنتاج زمنا طويلا فقد شوهد منها ما لايزال يثمر اللوزات بعد خمسين سنة، ومفهوم أن شجيرات القطن تنموا نموا عظيما فى آخر السنة الثالثة وتتكاثف أغصانها وتزداد أوراقها.

وفى استطاعة رجل واحد أن يزرع أربعة فدادين من الأرض. بحيث يحتوى هذا المسطح أربعة آلاف غرس من شجيرات القطن. أما فى موسم الحصاد فيستطيع العامل الواحد أن يجمع فى اليوم خمسة عشر رطلا من القطن الى ثمانية عشر، وكيفية حلج الأقطان أنهم يأتون بآلة مؤلفة من اسطوانتين موضوعتين أحداهما فوق الأخرى ومثبتتين فى قائمتين وطول قطر كل منهما تسع بوصات. فإذا تحركت هاتان الاسطوانتان بعجلة يديرها رجل بقدمه ووضع القطن بينهما، مر شعر القطن ووقفت البذور بدون أن تمر وسقطت فى مكان معدلها. وفى استطاعة العامل الواحد أن يحلج فى اليوم اثنى عشر رطلا إلى خمسة عشر.

ويقتصر الفلاحون فى تعبئة القطن على كبسه بالأقدام، كلما وضعوا جانبا منه فى الأكياس. ولكن سمو الوالى استحضر من انجلترا مكابس من النوع المستعمل لهذا الغرض فى أمريكا، وأمر بصنع آلات أخرى عل مثالها. وحجم

البالة على الطريقة المتبعة عند الفلاحين فى تعبئتها متر ونصف ارتفاعا فى متر واحد عرضا. أما حجمها إذا كبست بالآلة الأمريكية، فمتر واحد ارتفاعا ونصف متر عرضا.

١٦- النيلة

زراعة النيلة فى مصر أهم الزراعات وأوسعها نطاقا. وهذا النبات أصله من الخارج وقد نجح نجاحا باهرا حتى شاعت زراعته فى القطر المصرى ولاسيما فى الصعيد والفيوم. والعادة فى زراعته أن يبذر له عقب الفيضان فى الأرض السميكة الرملية التى يسهل ريها بمجاورتها للنيل أو الترع المتفرعة منه. وقبل البذر تحرث الأرض مرة واحدة ثم يقسمونها مربعات صغيرة تخترقها قنوات متقاربة يضعون فيها البذور. وتروى الشجيرات مرة كل ثمانية أيام أو عشرة فإذا بدأت النباتات بالإزهار شرع باقتطاف الأوراق للمرة الأولى. فإذا تم نضجها وبلغت الغاية من نموها حصدت والبذور فى آن واحد.

١٧- الزراعة الصيفية : الذرة

الذرة البلدية أساس غذاء الفلاحين الذين يفضلونها على القمح. وهم يبذرون لها فى آخر مارس بالغيطان والحقول التى كانت مزروعة قبلا بالبرسيم الحجازى. والعادة إحراق الحشائش الطفيلية التى تكون الأرض المراد زرعها ذرة مغطاة بها. وبعد هذه العملية التى تزيد فى خصوبة الأرض تحرث مرة واحدة ثم تحفر فيها جورات بالفأس يودع فى كل جورة من ثلاث حبات إلى أربع وتغطى بالتراب وتقسم الأرض بعد ذلك إلى مربعات طول أضلاعها من أربع أقدام إلى خمس، تحيط بها حواجز يسيل الماء حولها، ثم يرسل إلى خطوط تعمل بواسطة الفأس. وبعد رى كل مربع رياً كافيا يطلق الماء فى المربع الذى يليه وهكذا بالتعاقب، وفى الغالب يستغنون عن الرى، ولكن المحصول يكون فى هذه الحالة رديئا وقليلا.

وتحصد الذرة خلال يوليو . وطريقة حصدها أن تقطع السوق من فوق الجذور بالمنجل أو الفأس. وفى فصل الخريف يزرع نوع من الذرة يسمى بالذرة البيضاء أو الذرة التى يسميها المصريون بالشامية. فتزرع مرتين فى

السنة. مرة فى الخريف وأخـرى فى الصيف. ويبلغ مايلزم من البـذور لزراعة الفدان الواحد نحـو ربع أردب ويختلف المحصول من أربعة أرادب إلى عشرة ولكن الـذرة الشاميـة يختلف محصولها للفـدان الواحـد من عشرة أرادب إلى أربعة عشر أردبا.

١٨- الأرز

لزراعة الأرز، وهى من أعظم الـزراعات فى الوجه البحـرى أسلوب خاص وطريقـة تغاير طـرق المزروعات الأخرى. ولقـد سبق لنا القـول بأن مزارع الأرز شائعة فى الوجه البحرى ، ولاسيما فى ضواحى دمياط ورشيد.

وقبل وضع بـذور الأرز فى الأرض، توضـع فى ققف تغمـر با لماء من عشرة أيـام إلى خمســة عشر يومـا، حتى إذا لانت البـذور نشرت على الحصير، ثم جعلت أكواما طول كل كومة ثلاثـون قدما فى عرض أربع أقدام وارتفاع قدم واحـد، وغطيت بالبرسيم أو التبن وبقيت كـذلك إلى أن تنبتها الحرارة. وهـو مايحدث عادة بعد يـومين أو ثلاثة أيام من بقائها فى هـذه الحالة. وتبذر بعد ذلك فى أرض تكون قـد غمرت من قبل ببضعـة أيام وحرثت حـرثا متقـاطعا وتركت أيامـا لترتاح، ثم أعيد حرثهـا وغمرت با لماء ثانيا ومهـد سطحها بعد تشربها با لماء بالزحافة أو الكرك. والبذور التى تنثر عليها تنغرز فيها بنفسها بحكم ثقلها، خصوصا وأن الأرض تكون وقتئذ متشبعـة بالرطوبة الشديدة. وبعد ثلاثة أيام تطلق المياه مرة أخرى على المربعات التى نثرت عليها البذور وتترك كالسابق ثم تصرف عن الأرض وتروى الأرض على هذه الطريقة الى أن يتم نضج الارز. وإذا بقيت مـزارع الأرز من غير مـاء، فإن الـزراعـة تصبح معرضة للخطر.

والعادة أن يبدأ بزرع الأرز فى شهر نـوفمبر فإذا تم نضجه قطع با لمناجل وعقد حـزما ثم نقل إلى بيـدر (جرن) لتستخـرج الحبوب منـه بأداة شبيهة بالنورج يجرها ثوران بضـع ساعات على تلك الحزم، بعد فك رباطها ونشرها على سطح البيدر. وبعد غربلة حبوب الأرز تعرض للشمس لتجف وتجرد من قشورهـا بضربها فى هاون بمضربين يتحركـان بوسيلـة آلية خاصـة. وبعد تبييض الأرز يعـاد ثانيا إلى المضـارب ويخلط بكمية من الملـح تعادل خمس مقداره.

١٩- التيل أو القنب

الأرض الموافقة لزراعة التيل هى التى على ضفاف النيل وحفاف الترع، بشرط أن تكون دائمة الرطوبة. وقبل الشروع فى مباشرة بذرها بالتيل تحضر بالكيفية التى تجهز بها لزراعة قطن جومل. والعادة البدء بالبذر فى شهرى يناير وفبراير، فلا يمضى أربعة أيام حتى تنبت البذور فتظل آخذة بالنمو نحو خمسة عشر يوما، وتنقى عندئذ من الحشائش، وتكرر هذه العملية كل ثمانية أيام. ويلبث نبات التيل فى الأرض من ثلاثة أشهر إلى ثلاثة ونصف تقريبا، ويستدل بلونه على بلوغه حد النضج، وبعد حصده يترك معرضا للهواء عشرين يوما لتجفيفه، ثم يضرب لفصل البذور منه فالألياف التى تنتج عن هذه العملية تنقع فى الماء خمسة عشر يوما، فإذا تطورت بطور معروف عند أهل الفن فصلت بعضها عن بعض وعرضت للشمس ستة أيام ثم نظفت من الشوائب المخالطة لها وأرسلت بعد تنظيفها مع البذور الى الشون والمخازن المعدة لحفظها.

٢٠- الكتان

يزرع الكتان بطريقتين: الأولى لايعنى فيها بتجهيز الأرض المخصصة لزراعته سواء قبل البذر أو بعده، إذ يكتفى ببذر البذور عقب انصراف المياه والثانية يعنى فيها بحرث الأرض على الأتجاهين الطولى والعرضى وقسمتها إلى مربعات تبذر باليد، ثم تروى مرة واحدة فقط، ومتى ظهر النبت ونما نثر على الأرض تراب قلوى ثم رويت أثناء نمو السوق وتركت حتى تبلغ حد النضج فى مارس حيث تنتزع السوق وتنشر لتجفيفها، ومتى تم جفافها جعلت حزما صغيرة لاستخراج البذور منها إما بالضغط على أجزائها العليا أو بنفضها على آنية من الفخار. والطريقة الأولى شائعة فى الوجه البحرى والثانية فى الصعيد. وبعد الضرب توضع المحافظ المحتوية للبذور فى الرحى لاستخراج هذه منها. وعقب هذه العملية يربط التيل حزما ربطا شديدا وتعرض الحزم للشمس والندى زمنا ثم توضع فى المياه الراكدة أو الترع وضعا رأسيا لعطنها وتثقل بالحجارة حتى لاتطفو على وجه الماء. وتبقى كذلك خمسة وعشرين يوما تستخرج فى نهايتها وتطرح تحت أشعة الشمس لتجفيفها. ومتى زال مابها من الرطوبة توضع على حجر وتضرب بعصى ثم

تنفض نفضـا لنزع القشـور اللاصقـة بها. وتمرر بعد ذلك من بين أعـواد متوازية كأسنان المشط لتنقيتها مما يكون متخللا أليافها من القشور.

٢١- دود القز أو دود الحرير

عضد محمـد على تربية دود القـز فى مصر، وغرس لهذا الغـرض أكثر من ثلاثة ملايين شجرة توت، فى الوجه البحرى وحده، وشجر التوت يورق عادة فى ينـاير من كل عـام، كما أن نقف دود القـز للبيض يـوافق شهر مـارس أو ماقبله وبين النقف والميعاد الذى تغزل فيـه دودة القز شهران تتطور أثناءها بالأطوار المعلومة عند المتفرغين لتربيتها.

ولايصاب الدود فى مصر بالآفات الوبيئة ولاتعرف هذه الآفات فيها. ولكن الحرارة الشديدة والعثير والندى مما يضر به. وهبـوب رياح الجنوب المحرقة تجففه وتحرقه حتى يصير كالفحم

والأوقية الواحدة من البيـض تعطى ٧٠٠٠ فيلجة.أو شرنقة تزن الواحدة منهـا من نصـف درهم إلى درهم. وفى سنـة ١٨٣٣ بلغ محصـول الحريـر المصرى ٦١٥٠ أقة. أما البيض الـذى يبيضـه الفراش، فلا يستلزم عنـاية ما، لأن الذكـور منه تزاوج الإناث بنفسهـا. ويكفى عشرون يوما لتكـون الفيالج على أتم مـا يراد. أمـا البذور التـى يبيضـها فتحفظ شتـاء فى أكياس تـدلى فى الآبار.

٢٢- حاصلات القطر المصرى

نورد فيما يلى كميات الحاصلات الأصليـة للقطر المصرى فى سنة ١٨٣٣ ليقف القارىء على أهميتها التى نذكر أنها مابرحت حتى الآن حافظة لمكانتها:

	هتكولتر
قمح	٢٦٦٨٠٠٠
فول	١٢٨٨٠٠٠
شعير	١١٩٦٠٠٠
ذرة شامى	٢٩٤٤٠٠
ذرة بلدى	١٣٨٠٠٠٠
عدس	١٢٨٨٠٠
حمص	٤٦٠٠٠
ترمس	٣٦٠٠٠
حلبة	١١٠٤٠٠
أرز رشيدى	٥٥٢٠٠
أرز دمياطى	٩٢٠٠٠
بذر كتان	٤٠٤٨٠
بذر خس	١٤٧٢٠
بذر سمسم	٣٣١٢٠
بذر قرطم	٢٧٦٠٠
	كيلو جرام
قطن شجرى	٤٨٩١٧٠٠
قطن حشيشى	٢٠٠١١٥
سكر	٣٨٢٤٤٩
زعفران	٢٦٦٠٠
حناء	١٥٥٥٤٥٠
كتان	٨٠٠٤٦٠
نيله	٩٤٧١٠٠
أفيون	١٨٤٥٠
حرير	٧٩٩٥

(٥)
الصناعة

٢٣- الصناعة المصرية قسمان قسم يشمل الصناعات الكبرى أعنى الصناعات التى أنشأ محمد على لأجلها المصانع الكبرى الكثيرة. والثانى الصناعات الصغرى المحلية والأنوال المختلفة التى يكسب الأهلون أقواتهم من ممارسة العمل بها.

١
الفاوريقات = الشركات =

مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية: ببولاق والقاهرة والوجه البحرى والصعيد - فاوريقات الأقمشة الكتانية- مبيضة بولاق - بصم الأقمشة والمناديل- فاوريقات الأنسجة الحريرية- معامل الحبال- فاوريقة الجوخ فى بولاق- فاوريقة الأنسجة الصوفية- فاوريقة الطرابيش فى فوه- مسبك الحديد- معمل الأسلحة القابلة للحمل- فاوريقة السكر - معاصر الزيت- معامل النيلة - معامل البارود وملح البارود والمواد الكيميائية- أفكار وخواطر عن فاوريقات مصر ومعاملها.

أنشأ والى مصر عددا عظيما من الفاوريقات، فمن مغازل القطن الى فاوريقات الأقمشة الكتانية الى معامل البصمة (الشيت) والجوخ والصوف. إلى مصانع الطرابيش والأقمشة الحريرية إلى مسابك الحديد ومعامل الأسلحة الخ.

٢٤- مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية

فى أنحاء متفرقة من القطر المصرى عدد غير قليل من معامل غزل القطن، فقد بلغ عدد هذه المعامل خمسة عشر تحتوى ١٤٥٩ نولا منها ١١٥ للغزل الغليظ و١٣١٤ للغزل الدقيق. أما أنوال النسيج فأكثر من ١٢٠٠ تنسج فى فصل الشتاء أكثر من ٣٥٠٠ قطعة من القماش يوميا، وفى الصيف نحو ٦٠٠٠ يوميا كذلك، أما ما تنتجه فى السنة من قطع القماش فيبلغ على حساب المتوسط مليونى قطعة.

وأتقن تلك الفاوريقات وأكملها فاوريقة (مالطة) ببولاق، وهذه البلدة هى المرفأ الصناعى والتجارى لمدينة القاهرة. فإن القطن يغزل فى المعمل ثم ينسج أقمشة مختلفة الأنواع. وقد أعتنى ببنائها وجعلْ فيها للعمل ثمانية وعشرين عجلة وأربعة وعشرين محلاجا. وهذه الآلات تصل إليها الحركة من أحد عشر طنبورا يحركها ثمانية أبقار بالعدة المعدة لهذا الغرض. وكل عجلة يشتغل عليها رجل وثلاثة أطفال يعقدون الخيوط التى تنقطع بحركة الآلة. وفى فاوريقة مالطة مائتا نول تنسج خيوط القطن. ومما ينسج فيها قماش الموسلين والباتست. وبجوار هذه الفاوريقة معملان آخران لغزل القطن يعرف أحدهما بمعمل إبراهيم أغا والآخر بمعمل السبتية.

أما القاهرة ففى حى الخرنفش منها فاوريقة من هذا النوع تحتوى مائتى عجلة ، عشر منها للغزل الغليظ والباقى للغزل الدقيق. وتحمل المائة الأولى مائة مغزل وثمانية مغازل على خط واحدة والمائة الثانية مائتين وستة عشر.

وفى الوجه البحرى تسعة فاوريقات لغزل القطن ونسجه واحدة منها فى قليوب وهى فسيحة الجوانب بعيدة الأطراف تحتوى سبعين عجلة وثلاثين محلاجا تحركها ثلاث عدد. وفى قرية شبين من مديرية منوف فاوريقة أخرى لغزل القطن فيها سبعون عجلة وثلاثون، محلاجاً يحركها عدتان. وفى المحلة الكبرى فاوريقة بها مائة وعشرون عجلة وستون محلاجا يحركها ثلاث عدد، والخيوط التى تغزل هذه الآلات تنسج فيها قماشا على مائتى نول.

وفاوريقة غزل القطن فى زفتى من مديرية الغربية تحتوى خمسة وسبعين عجلة وخمسين محلاجا يحركها ثلاث عدد. وفى بلدة ميت غمر فاوريقة من هذا النوع.

أما فاوريقة المنصورة فتحتوى مائة وعشرين عجلة وثمانين محلاجا يحركها أربع عدد وفيها مائة وستون نولا لنسج الخيوط التى تغزل فى مغزل الفاوريقة. وفى دمياط مصنع للغزل شبيه بالمتقدم، وفيه مثل مايحتويه عددا من الانوال.

أما فاوريقة دمنهور ففيها مائة وخمسون عجلة وثمانون محلاجاً. وفى فاوريقة رشيد مائة وخمسون عجلة وثمانون محلاجا يحركها أربع عدد وهى خاصة بنسج أقمشة القلوع.

وفى الوجه القبلى مصانع للغزل والنسيج ازداد عددها منذ بضع سنوات، وأهمها الفاوريقتان اللتان ببنى سويف وأسيوط ولقد أنشأ الوالى فاوريقات أخرى بالمنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا وإسنا.

٢٥- فاوريقات الأقمشة الكتانية

أما فاوريقات الأقمشة الكتانية فموزعة كالسابقة على جملة من المديريات، ولاسيما مديريات الوجه البحرى. وما تصنعه من الأقمشة يستنفد بالقطر المصرى. ويبلغ ما تنتجه فى السنة ثلاثة ملايين قطعة، يصدر قسم كبير منها إلى (تريستة) و(ليفورنة) وفى القطر المصرى ثلاثون ألف نول لنسج أقمشة الكتان.

وفيما بين بولاق وشبرى حظيرة فسيحة جدا تسمى (المبيضة) تجرى فيها، على الأقمشة المنسوجة فى تلك الفاوريقات ، عمليات التبييض المختلفة. وفى هذا المكان تبصم هذه الأقمشة أيضا بالألواح أو الاسطوانات الميكانيكية. ويبلغ ما يبصم منها فى الشهر ثمانمائة قطعة. وفى السنوات الأخيرة أخذت الأقمشة المبصومة فى المبيضة (البصمة) تنافس الأقمشة الواردة من نوعها من انجلترا وألمانيا، ولذلك قل المستورد منها قلة محسوسة. وهى تمتاز على هذه بدقة النسيج وجمال الرسوم وثبات الألوان. وتبصم فى المبيضة أيضا مناديل الموسلين التى يعصب النساء بها رؤوسهن.

٢٦- فاوريقات الحرير

كانت الأقمشة والحريرية تنسج بمصر فى كل زمان ولكن محمد على هو الذى وسع نطاق صناعة نسجها بغرسه المقدار العظيم من شجر التوت. ولقد أحضر من الآستانة عمالا أخصائيين لنسج الحرير على الطريقة التى ينسج بها فى هذه المدينة وفى الأقطار الهندية. وبمصر الآن نحو مائة نول مستعملة لنسج الحرير والأسلاك الذهبية وعمال هذه الصناعة يشتغلون بالمقطوعية وهم على غاية من الحذق فى صناعتهم. لأنهم يجيدون النسج ويظهرون البراعة فى تحليته وتنميقه بالرسوم اللطيفة.

٢٧- معامل الحبال

إن القنب الذى أصبح محصوله أقل منه قبل أن يبلغ محصول القطن ذلك

المبلغ العظيم بتعضيد سمو الوالى، لم يعد يستعمل الآن لنسج المنسوجات، منذ اقتصر فى استعماله على صنع الحبال اللازمة للبحرية، وبالقاهرة مصنع كبير للحبال ترسل مصنوعاته إلى ترسانة الإسكندرية.

٢٨- فاوريقة الجوخ

ببولاق فاوريقة لصناعة الجوخ على اختلاف أنواعه وألوانه وبالرغم من أنها لم تأت منذ البداية بالنتائج المرضية المنتظرة. جاءت فيما بعد بفوائد لاتنكر، خصوصا منذ تولى أمرها خمسة من الفرنسيين انتخبوا من بين صناع معامل الجوخ فى مقاطعة (لنجدوك) بفرنسا. وقد عكفوا على إدارة هذا المصنع منذ أربعة عشر عاما. فتمكنوا من تدريب لفيف من الغزالين والنساجين والكباسين والقصاصين والصباغين والطباعين من الأهالى الوطنيين. ولم يكتف سمو الوالى بما تقدم. بل أرسل لفيفا من الشبان المصريين لتعلم هذه الصناعة بفاوريقات الجوخ بمدينتى (سيدان) و(البوف) بفرنسا. فاستطاعوا بعد عودتهم، وقد تدربوا على العمل، إفادة البلاد بما حصلوا عليه بخبرتهم وتجاربهم.

وتنسج الأجواخ المصرية من الصوف المصرى الذى يرد أجود أصنافه من دمنهور والمنيا. ويستعمل لهذا الغرض أيضا الصوف المستورد من الأيالة التونسية.

أما الجوخ المصنوع فى الفاوريقة المصرية فجيد الصنع متين التيلة، ومنه تتخذ ملابس الجند. واللون الذى يلون به فى الغالب هو الأزرق الغامق والأزرق اللازوردى والأحمر القرمزى والأحمر البرونزى والأخضر الغامق. ويبلغ ما ينسج منه فى الشهر الواحد ١٣٥٤٠ مترا تقريبا.

وتصنع فى الفاوريقة الآنفة الذكر - فيما عدا الأجوا - منسوجات من الصوف لملابس النوتية المصريين (البحارة) وأغطية (بطاطين) للنوم. والصوف المستعمل لهذا الغرض هو الصوف الغليظ الوارد من الوجه القبلى. وبالقطر المصرى ٤٠٠ نول لنسيج الصوف.

٢٩- فاوريقة الطرابيش

فاوريقة الطرابيش التى أنشأها سمو الوالى توجد الآن ببلدة فوه. وقد

نجحت نجاحـا باهـرا فى صناعتها لأنها تنتج مصنـوعات جيـدة جدا بأيسر كلفة. وقد وضعت فى الأصل تحت تـاجر من المغاربة واستـدعى صناعها من حـاضرة تونس المشهـورة بصنـاعة الطـرابيش على اختـلاف أنـواعها. أمـا الصوف المتسعمل لصنع الطرابيش فيستـورد من أراضى (آليكانت). وبعد شغل الطرابيش وكبسها تصبغ باللـون الأحمر القرمزى والعفص والطرطير والشب. وتصنع فاوريقة فوة من الطرابيش يوميا ستين دستجة، = دستة = منها مايصلح للبس عساكر الجيش ومنها مايباع على الأهلين.

٣٠- فاوريقات السكر

يصنع السكر بكميات عظيمة فى الوجه القبلى، ولكن الطرق التى يستخرج بمقتضاها لاتزال متأخرة. وفى سنة ١٨١٨ أنشـأت الحكومة ببلدة الايدمون من مديرية المنيا فاوريقة للسكر. على نمط فاوريقات بلاد (الأنتيل) بأمريكا. ثم أسست فاوريقتان من هـذا النوع، أحداهما فى ساقيـة موسى والأخرى فى الروضة من مديرية المنيا. وبلغ ما صنع فى الايدمون من السكر سنة ١٨٣٣ نحو ١٢٩٩٥ قنطارا من السكر الخام، وفى ساقية موسى ٥٢٠٠ قنطارا، وفى الروضة ٣٢٠٠. وفى هذه الفاوريقات يستقطر شراب الروم بمقادير عظيمة.

٣١- مصانع النيلة

أنشئت حـديثا جملـة مصـانع للنيلـة، واستدعى إلى مصر بعض الهنـود لتعليم المصريين تحضير هذه المادة. وقـد خص سدس محصول هـذا النبات ليصنع فى تلك المصـانع التى أنشئت حـديثـا بـالبـلاد الآتيـة وهى :شبرى والشهابية من مديـرية قليوب، العزازية من مديريـة الغربية، ثم فى ميت غمر والمنصورة ومنوف وإبيار والأشمونين وبركة السبع والمحلة الكبرى والجيزة وأبو تيج وطهطا وأسيوط وملوى ومنفلوط والفشن.

٣٢- معاصر الزيت

يحتوى الوجـه البحرى مائة وعشرين معصرة لاستخراج الـزيت من بذرة الكتان. وهناك آلات أخرى لعصره من السمسم (السيرج) وبالقاهرة أربعون معصرة لعصر الـزيت من بذور القـرطم. وفى الـوجه القبلى يعصر الـزيت من بذور الخس. وهذه الزيوت على اختلاف أنواعها داخلة فى احتكار الحكومة.

٣٣- معمل البارود وملح البارود (نترات البوتاسا) والمواد الكيميائية

بالقرب من المقياس فى الطرف القبلى من جزيرة الروضة معمل للبارود يديره فرنسى كان سابقا من مستخدمى معمل بارود (سان شاماس) من مقاطعة (بوش دى رون) والحكومة تأخذ كل حاجاتها منه.

وقد أنشأ المسيو (هيم) الكيميائى الفرنسى جملة مصانع مهمة لتحضير المواد الكيميائية اللازمة للفاوريقات، وعلى الخصوص منها حامض الكبريتيك. وتحت تصرفه الآن جملة مناجم لاستخراج ملح البارود الذى تستخرج هذه المادة منه بالتبخير، والمعامل التى من هذا القبيل ستة أذكرها فيما يلى مقرونة بكمية ما أنتجته فى سنة ١٨٣٣:

معمل القاهرة	٩٦٢١ قنطارا
معمل البدرشين	١٦٨٩ قنطارا
معمل الأشمونين	١٥٣٣ قنطارا
معمل الفيوم	١٢٧٩ قنطارا
معمل أهناس	١٢٥٠ قنطارا
معمل الطرانة	٤١٢ قنطارا

٣٤- مسابك الحديد

ببولاق مسبك كبير بلغت النفقة على بنايته وحدها مليونا ونصف المليون من الفرانكات. وكان إنشاؤه بمقتضى تصميم وضعه المهندس (جالويه) الإنكليزى مطابقا للتصميم الذى بنيت بحسبه مسابك الحديد فى لوندرة. وقد تولى هذا المهندس بالاشتراك مع معلم وخمسة عمال من الانكليز. إدارة الأعمال فيه وهم يرأسون خمسين عاملا من المصريين، ويصبون من الحديد المصهور فى كل يوم ما يبلغ وزنه على وجه التقريب خمسين قنطارا من الحديد، وما يصنع من الأدوات والآلات فى هذا المسبك خاص بالبحرية المصرية، والفاوريقات المختلفة التى أنشأها سمو الوالى.

وفى ترسانة القاهرة مسبك يقوم بحاجات المدفعية والبحرية، وفيها أداة طرق المعادن لعمل صفائح النحاس المستعملة فى تجهيز السفن. وهذه الأداة تحركها آلة بخارية شديدة الضغط قوتها عشرون حصانا.

٣٥- معمل الأسلحة القابلة للحمل

أهم معهد للصناعـة فى مصر ، بل أحق المعاهد التى من نوعه بالـذكر هو . بلا خلاف معمل الأسلحة القـابلة للحمل. ولست أظننى قادرا على وصف هذا المعمل بأحسن مما وصفه به جنـاب الدوق (دى راجوز) فيما أبداه من الآراء بشأنـه. ورأيه فى مثل هـذا الموضوع حكم قـاطع، فقد قـال: «مما أعجـز عن تـوفيته حقـه من المدح معمل الأسلحـة القابلـة للحمل الـذى يبدع من هـذه الأسلحة أكثر استجماعا لضروب الكمال والأتقان. والمعامل من هذا القبيل فى مصر ثلاثـة، زرت منها معمل القلعة باحثـا مدققا منتقدا فـرأيت ان الأسلحة التى تصنع قـد جمعت وسـائل الإتقان والإحسـان المتـوافرة فيما تضنعـه معاملنـا من نوعهـا. والنوع الذى يصنع فيهـا منقول عن الطـراز الفرنسى. وجميع الاحتياطـات الكفيلة بجودة نـوع السلاح تتخـذ فى معامل مصر كما تتخذ فى معاملنا. سواء. وقد اتبعت فيهـا طريقة توزيع العمل والمراقبة المتبعة فى معاملنـا فإن كل شىء يعمل بالقطعـة بحسب تعريفـة مقررة. وخـلاصة القول فإن معمل السـلاح الذى زرته ينـاظر أحسن معـامل فرنسا وأرقـاها نظاما وجودة مصنوعات وأكثرها رعاية لأصول الاقتصاد.

٣٦- آراء وخواطر فى فاوريقات مصر

أثار إنشاء الفـاوريقات فى مصر انتقاد الكثيرين. وقـد بنوا انتقاداتهم على الأسباب الآتية:

أولا- أن الآلات الضروريـة للفاوريقـات لايمكن صنعهـا ولا تركيبهـا فى القطر المصرى، وأن مصر ستبقى مضطـرة دواما إلى الاستمـداد بأوربا فيما يتعلق بالوسائل الأولية لنشر الصنائع فى أرجائها.

ثانيا- إنـه لمن المتعذر جـدا تعهد الآلات بـالعنايـة فى قطر لا منـاص من إصابتها فيه بالتلف بسبب الحرارة والعثير والرطوبة.

ثالثا- إن الأمة المصرية تنقصها جميع المزايا والفضائل التى تحملها على الميل الى الصنـاعة والانصباب عليهـا. دع ماجبلت عليـه من الدعـة والتراخى وقلة البصر بـالعواقب وعـدم الحرص على الضبط والدقـة . فهى لاتملك إذن شيئا من العبقرية التى تتطلبها الصناعة فيمن يتصدرون لمارستها.

رابعا- إن الحكومة لم تخلق للتفرغ إلى تسيير الصناعة فى الطريق الطبيعى الذى ينبغى أن تسير فيه ، وإنما يتوقف اتساع نطاق الصناعة على التنافس فيها بشرط أن يهيمن على إدارة شئونها أخصائيون يهمهم بالذات رقيها فى مدارج النجاح. لا موظفون ليس من مصلحتهم الاشتغال بها ولا باعث هناك يستنفرهم إلى التنافس فى طلب الربح منها.

خامسا-إن من المتعذر على المصريين فيما وصلوا إليه الآن من الحضارة أن ينتجوا شيئا يضارع فى الجودة ما تنتجه الشعوب الغربية التى أمعنت البحث فى العلوم الطبيعية والرياضيات ولاتزال حتى اليوم تقطع الأشواط البعيدة عن طريق نموها.

سادسا- إن مصر لن تستطيع استعمال الآلات البخارية مادامت تستعين بالأجنبى فى استيراد الوقود منه، ولاتستطيع لحرمانها من الشلالات والأنهار السريعة التيار استخدام الوسائل المائية لتوليد القوة المحركة. يضاف إلى ما تقدم أن القوة التى تنتجها الحيوانات لاتكفى فى هذا الزمن لأداء الأعمال الكبيرة ولاتليق إلا بالصناعات الصغرى التى ما برحت على الفطرة الأولى.

سابعا- إن مصر مضطرة إلى الاستقرار والبقاء فى نطاقها الزراعى بحكم خصوبة أرضها وطبيعة طقسها وأخلاق سكانها.

وهذه الاعتراضات على مكان مكين من الصواب والحق كما هو ظاهر، ولا غبار عليها، إذا نظرنا إليها من جانب الإطلاق والتعميم. وقد أيدت الحوادث بعض ما ورد فيها، إذ كثيرا ما تبين النقص والعيب فى المصنوعات المصرية مع زيادة كلفتها على مايقابلها من المصنوعات الأوروبية. وأن هذا الفارق لم يمنع سمو الوالى من المضى فى تجاربه الصناعية مراعاة لشعور الحب الذاتى والنعرة الوطنية.

ومع هذا فمما ينبغى الاعتراف به أن نظر محمد على البعيد فى السياسة. كان القائد الرائد له فى سبيل اقراره على إنشاء المعامل الكثيرة. فلقد كانت همته منصرفة إلى تخويل مصر كل ما ينقصها من عناصر الاستقلال وأسبابه. وأن له من هذه الجهة الحق فى اتخاذ الوسائل الكفيلة بتخلصه من ربقة التبعية الصناعية لأوربا.

ولا ينبغى ان يتطلع أحد - باسم النواميس الصارمة التى أقرها علم الاقتصاد السياسى. إلى تجريد مصر من بعض الحاصلات الصناعية التى تساعدها ظروف كثيرة على انتاجها كالغزل والأنسجة القطنية والكتانية والصوفية الخ. فإن وفرة المواد الأولية ورخص أجور العمال يجعلان مصر من أكثر البلاد صلوحا لإنتاج هذه المصنوعات. ولايسع الذين تحملهم بعض البواعث على استحسان أفكار سمو الوالى وابتكاراته من جهة الصناعة إلا أن ينصحوا له بترك إدارة تلك المعامل زمنا ما لذوى الخبرة والاخصاء من الأوروبيين . فإن من البديهى، إذا كانت إدارة المعامل قد كلفت الكلف الفادحة ولن تأت من الثمرات بما يعوض بعض ما أنفق فى سبيلها من الأموال الباهظة والكلف الفادحة، أن يكون السبب فى ذلك عدم حسبان الحكومة مايتأتى عن اخلائها - فى غير الأوان المناسب - سبيل المديرين والمعلمين الأوروبيين الذين عهدت إلى كفاءتهم إدارة تلك المصانع وتعليم صناعها، لمجرد انصراف رغبتها إلى تعيين غيرهم من الأتراك والمصريين فى وظائفهم، قبل أن يحصل هؤلاء على الخبرة والدربة الضروريتين فى عملهم. ومع أنهم لايزالون خلوا من الكفاءة وصفرا من العلوم التى تؤذن لهم بتتبع أثر الصناعة الأوروبية فى تقدمها المطرد وانسياقها المستمر إلى الأمام.

ومما يجىء بالفوائد الجزيلة إجازة أصحاب المشاريع الخاصة باستغلال تلك الصناعات. شيئاً فشيئا، حتى تصير فى معزل عن الحكومة، وفى بعض تلك المعامل - إذا لم يكن فيها كلها - من المزايا النافعة والخواص الثمينة مايغرى المضاربين من أصحاب المشاريع بالإقبال على استثمارها. وأعتقد أن الحكومة المصرية باتباعها هذا الأسلوب الجديد وسيرها على هذا الدرب، لابد واصلة فى النهاية إلى خير النتائج وأجداها نفعا. وهى إذا فعلت ذلك ستشجع الصناعة تشجيعا نافعا بوضعها تحت تأثير المصالح الشخصية، دع أنها بذلك تستدرج إلى مصر كثيرا من رؤوس الأموال الأوروبية التى لانظن أنها تجد موطنا لاستثمارها أوفق من البلاد المصرية.

(٢)

الصناعات الصغرى والفنون والمهن

الطوائف الصناعية . الفنون الغذائية: تجهيز القمح ـ الفرانون- الجزارون- معامل الدجاج- تحضير الفول- الخل- الاستقطار- صحن البن- صنع الفطير ـ الفنون الخاصة بالكسوة: الغزل- اللبد والحرير وتبييض الغزل والقماش والصبغ والتلميع والتطريز والمخيشات- الدباغة- صناع الأحذية والسروج- الخياطون- صناع الكراكى ـ الفنون الخاصة بالسكنى: البناؤون- الحدادون- نجارو العمارات والنجارون الدقيون- صناع المزاليج من الخشب- الخراطون- صناع الفخار- صناع الزجاج- الجوهريون والصياغ - صناع السلاح- الحصرية ـ صناعات مختلفة : الشبكجية- المزينون- التجار.

٣٧- الطوائف الصناعية

يمتاز نظام الصناعات الصغرى فى مصر بعلامات يفيد القراء الوقوف عليها. فإن كل حرفة يدوية يتألف منها طائفة يرأسها شيخ يتولى النظر فى شئونها، ولمشائخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالنقباء، يختارهم إما حكام المدن التى يقيمون بها وإما السلطة العليا. وكلما رأت الحكومة ضرورة إلى النظر فى نظام تلك الطوائف أو تحصيل ما تفرضه عليها من الفرض خاطبت فى ذلك مشائخها. فيتولون توزيع الفرض المطلوبة مثلا على كبار الصناع التابعين لطائفتهم.

وليس تأليف الطوائف قاصرا على الصناعات النافعة. بل يتناول المهن الدنيئة كمهن الجعيدية والآلاتية والشعراء الذين يروون القصص والحواةوالرقاصين والعوالم والمومسات فلكل طائفة من هذه الطوائف شيخ تخضع لسلطته وينوب عنها لدى الحكومة ويتولى شئونها ويدافع عنها عند الحاجة.

وكان للصوص قبل محمد على رؤساء معترف بهم، يأخذون على أنفسهم استرجاع الأشياء المسروقة فى مقابل مكافأة تعطى لهم، وهى التى يسمونها

بالحلاوة. وهـو مايؤخـذ منه أن هذه العـادة التى كانت شـائعة عند قـدماء المصريين قد استمرت خلال القرون الطويلة إلى العهد الحاضر.

ولكل صناعةمدة يتدرب العمال خلالها على العمل فيها:

فإذا أراد الصبى المتعلم أن يصير معلما أو «أوسطى» بعد حذقه الصناعة التى اختارهـا تحت مباشرة عامل ذى حيثيـة وصفة ذهب إلى شيخ الطـائفة مصحوبا بمعلمه. ومتى اجتمع به سلم عليـه وقال له: «لنقرأ الفاتحة» فيقرأ الشيخ هـذه السورة مع الصبى والحاضرين جميعـا، وبعـد القراءة يسألـه الشيخ عن سبب زيـارتـه لـه مع معلمـه ، فيقـول المعلم إن صبيـه قـد تعلم الصنعة وأحكمها وأنه يـرغب أن يصير معلما وأن يمارسها فى مصنع خاص، فيدنى الشيخ الصبى منه ويحزمه بحزام خـاص عنده وينادى به عضوا من أعضاء الطـائفة وعلى أثر هذه الأجـرياء = الإجراءات = يدعـو المعلم الجديد شيخه وكبار رجال الطائفة، إلى وليمة فى بيته إشعـارا بامتنانه منه وشكره له، فيجيب المدعو. هـذه الدعوة أما المعلم الجديـد فلا يطالب بـدفع شىء ما من المال إلى الشيخ فى مقابل تكريسه إياه معلما على الوجه السابق.

وإذا ترك الصبـى معلمه، فإنه لايستطيـع الدخول فى معمـل ما الا إذا زار الشيخ ليبسط له الأسباب التى حملتـه على مغادرة معلمه الأول، فإذا ثبت له من بيانـه أن الانفصال حصل لوقـوع مشاجـرة بين الاثنين تداخل الشيخ فى الخلاف. وكثيرا ما يؤدى تدخلـه إلى إزالة الخلاف ووقوع الصلح بين الصبى ومعلمـه. أما إذا ثبت لـه أن السبب مصلحة مـاليـة فلا أسهل من أن يـدخل العامل . بموافقة الشيخ وواسطته، فى خدمة معلم آخر.

وفى القاهـرة المهن والصنـاعات كافـة على اختلافهـا، لكل مهنة مثـل هذا النظام الغريب وأهم المهن ما كان عـدد الصناع فيها أعظم منه فى غيرها كمهن الطحانين والخبـازين وصنـاع معاصر الزيـت والخل والنساجين والـدباغين والخيـاطين وصانعى الفخـار والحدادين والنجـارين والخراطين والطرزيـة والعقادين. وفيما عـدا هذه الصناعـات والحرف مهن كثيرة يزاولها جم غفير من الناس، منها مهنة تجهيز الفول المدمس وتحضير الجير والجبس والطوب والفحم.

ومن المحتمل أن تكون الأساليب المتبعة فى مزاولة هذه الصناعات الآن مطابقة لها فى عهد قدماء المصريين، وأن ماتعطيه من النتائج والثمرات تماثل ماكان يجتنى منها فى أيامهم بفارق بسيط يستدعيه تأثير طول الزمن بتعاقب الأجيال. لاسيما وأن المصريين امتازوا، على توالى العصور، بالاحترام التام الثابت للعادات والتقاليد القديمة والتمسك بها، كما عرفوا بالحرمان من عبقرية الاختراع إلا أنهم يتفوقون فى مقابل ذلك، بالحذق فى التقاليد بمعنى أنه إذا أعطى أحدهم نموذجا ما أحكموا تقليده وذهبوا فى إتقانه إلى الغاية القصوى.

ويجلس الصناع القرفصاء أو متربعين أثناء اشتغالهم عملا بتقاليدهم المألوفة. ويؤدون وهم فى هذا الوضع، أعمالا يعجز صناعنا عن أدائها. وقد أعجب السياح برشاقتهم ومهارتهم فى استخدام أرجلهم.

ولكن أتى على وصف الحرف الأصلية التى تتألف منها الصناعة الصغرى وصفا سريعا ، لا أظنني قادرا على تقسيمها تقسيما يوافق المنطق والصواب كتقسيم العلامة (جومار) لها فى الجزء المخصص لوصف القاهرة من مذكرته الجميلة المدرجة فى المجلد الثامن عشر من كتاب «تخطيط مصر» وفيه بيان شاف للصناعة والمهن الميكانيكية. فاقتداء به سنقسم الفنون والمهن المصرية الصغرى إلى أربع رتب: الأولى للمهن التى يرتبط بها غذاء الإنسان، والثانية للمهن التى يتعلق بها لباسه، والثالثة والرابعة للمهن الخاصة بالمساكن وتأثيثها وزخرفتها، وبالجملة كل مايتعلق باحتياجاته البيتية.

٣٨- المهن الغذائية: تحضير القمح والخبازون

يستعمل المصريون لطحن القمح طاحونا بسيطا مؤلفا من حجرين تحركهما عدة يعلق بها عادة حصان أو بغل.

. وهم يخبزون الخبز فى أفران بسيطة، مرتين كل يوم. والخباز يدخل الخبز الذى يرد إليه فى الفرن لإنضاجه ثم يخرجه منه بعد أن يلبث فيه بضع الدقائق الكافية لنضجه.

٣٩- الجزارون

الجزارون قليلو العـدد فى القطر المصرى تبعـا لقلة استنفـاد اللحوم فيـه بسبب عدم إقبال طبقة الشعب عليها.

٤٠- معامل الدجاج

لمعامل الـدجاج ـ أى أفـرانه شـهرة متصلـة من قديم الـزمان، ويستطيع المصريـون بـواسطـة هـذه المعـامل تفـريخ الـدجـاج بمقـاديـر عظيمـة، ويستعيضـون بتأثير حـرارتها عن التفريخ الطبيعى. ولا خـلاف أن الـذين ابتكروا هذه الطريقة هم قـدماء المصريين، دعاهم إلى ذلك أن الدجاج المصرى لايميل، إلى احتضان البيض.

والأمكنـة التى يعالـج المصريون فيهـا عمليـة التفريخ المتقـدمـة تسمى «معـامل الفروج» ويحتـوى الـواحد منهـا عادة من أربعـة إلى ثـلاثين فرنـا مصفـوفة على خطين متـوازيين، يفصلهما عن بعضهما ممـر ضيق، والمعمل عبارة عن خليـة صغيرة إرتفاعها ثلاثـة أمتار وطولها كذلك وعـرضها متران ونصف متر. وتنقسم فى منتصف الارتفـاع إلى طبقتين بـواسطـة سقيفـة من الآجر ذات فتحـة تسمح بمرور الإنسان من بيت إلى بيت ــ أى من طبقة إلى طبقة. ولكل من البيتين بـاب ينفتح على الدهليز ـ أى الممـر الضيق المتوسط بين الصفين، وأبـواب مثله فى الحواجـز الجانبيـة التى بين كل خلية والخليـة التاليـة لها، بحيث تتصل جميع الخليـات الموجودة على صف واحـد بعضها ببعض. وتخصص البيـوت السفلى لوضع البيض المراد تفـريخ الدجـاج منه والعليا لوضع النار، وهى ذات شكل خاص يلائم الغرض المطلوب منها.

والعادة أن يوضع فى كـل فرن من الأفران برسم التفريـخ من ثلاثة آلاف بيضـة إلى أربعـة تبسط على سطح البيـت الأسفل من المعمل فـوق حصيرة، طبقات يفصلهـا بعضها عن بعض شىء من الأبسطة أو التبن. وبعـد ترتيب البيض على هذا المثال تضرم النار فى ثلث عدد الأفران تقريبا بحيث تكاد تكون المسافات بينها متساوية ، وبعد أربعة أيام أو خمسة تضرم النار فى أفران غير الأولى، وعقب مضـى أيام مثلها، تضرم فى الأفران الباقية. وكلما أوقدت الأفران اللاحقة عنى بإطفاء الأفران السـابقة. وتجدد النار ثلاث مرات أو أربعا فى كل يوم، وتـذكى قبيل الليل لدفع طـراوة الجو فيه. ويكلف أحـد العمال بغشيان

البيوت السفلى جملة مرار فى اليوم لتقليب البيض وإبعاده عن الأماكن التى تزيد درجة الحرارة فيها عنها فى الأخرى. وفى اليوم الخامس يتفقد كله على ضوء المصباح ليعزل مالا يكون منه قد أخصبه الديكة.

والحرارة الضرورية لنجاح عملية التفريخ هى ٣٢ من ميزان (ريومور). والمصريون المزاولون لهذه الصناعة يجهلون موازين الحرارة (الترمومتر). ولكن العادة أكسبتهم شعورا لايخطىء فى تقدير درجة الحرارة الضرورية. وهذا الشعور سر صناعتهم وقوامها. وهم لايكسبونه إلا بعد المران الطويل المتواصل على العمل سنوات عديدة . وإذا كانوا لايطلعون أحداً على سر هذه الصناعة إلا إذا كان من أبنائهم أو أقاربهم فلا عجب إذا تأصل هذا الشعور فيهم وصار فطرة يتوارثها الأبناء عن الآباء.

ويتم تفريخ البيض بعد عشرين يوما إلى خمسة وعشرين من وضعه فى الأفران ويبلغ متوسط البيض الذى لايفرخ الخمس تقريبا. وبمجرد فتح المعمل. فى فبراير أو مارس يتسابق أهل القرية ومعهم البيض الذى يرومون تفريخه. والمألوف أن يرد صاحب المعمل إليهم منه ٥٠ فرخا عن كل مائة بيضةوما يتبقى هو ربحه، وبعد انتهاء مدة الاحتضان فى معمل واحد نقف عن بضع عشرات الألوف من الكتاكيت. وقد قدر عدد الكتاكيت التى تخرج سنويا من معامل الفروج فى مصر ، وعددها مائتا معمل ، بـ ٢٤٠٠٠٠٠٠ فرخ - أى كتكوت.

٤١ - تحضير الفول

يرد الفول على القاهرة بمقادير جسيمة، ويباع فى طرقاتها بعد تجهيزه تجهيزا ينحصر فى نقعه يومين، فى الماء حتى ينبت ثم يطبخ على طريقة معلومة عند الأهلين.

٤٢- الخل

بالقطر المصرى عدد عظيم من المعامل المخصصة لعمل الخل. والخل المتخذ من البلح أكثر شيوعا من غيره. ويستخرج الخل أيضا من الزبيب.

٤٣- الاستقطار

بالقاهرة جم غفير من الناس يمارسون مهنة الاستقطار. فهم يستقطرون

العرقى من البلح والزبيـب ليشربه المسيحيون ومما يستقطر فيهـا أيضا ماء الورد.

٤٤- البن

يحمص البن ثـم يصحن فى هــاون من (الجرانيـت) محفــور على شكل مخروط مقلوب، ويقوم بصحنه ثلاثة من الدقاقين أو إثنان بمدقات يحملونها بأيديهم، ويـدق كل منهم دقة بحيث تتتـابع الدقـات. وزنة المدق تختلف من خمسة كيلو جـرامات إلى ستة، ويقرن الـدقاقون حركـاتهم أثناء رفع المدق وإنزالـه بنشيد مقفى بينما يدلى طفل صغير يده إلى قـاع الهاون ليحرك البن، مهتديا فى ذلك بقوافى النشيد، فهو فى غنى عن متـابعة حركات الدقاقين بنظره لكى يقى يده خطر سقوط المدقـات عليها.وكثير من الأوربيين الذين يشـهدون هذه العملية يخشون على يد الطفل الصغير أن تحطمها المدقات. إذا لم يفطن اتقاءها بنظره. ولكن الشعور بموازين الشعر خصية راسخة فيهم ينطبعون عليهـا منذ نعـومـة الأظفـار، بحيث لايخشى وقوعهم فى الخطـأ أثناء عمليـة صحن البن.

ولعل أصل هذه الخصيـة أن المعلم فى مدارس الأطفال يدرب تـلاميذه على حركة تمرينية يبدو ـ أول وهلـة ـ أنها تستدعى الازدراء والسخرية ولكنها تستر تحت مظهـر الغرابـة فائدة مـؤكـدة جليلة النفع فى جملـة من الحرف الصنـاعيـة التى يـزاولها المصريـون. وبيـان ذلك التمـرين أن المعلم يضرب بمقرعته المنضدة التى أمامه، ثم يطلب من الغلام أن يضع يد على النقطة التى لمستها المقرعة وأن يسحبها على الفور ويكرر هذه العملية مسرعا شيئا فشيئا فيتابعهـا الغلام فى كل حركـة من حركـاتها بوضع يده على تلك النقطـة. وقد يعتـاد هذه المتـابعـة حتى يبلغ الأمر بـه إلى القـدرة على اجتناب الضربـات وتوقيها.

٤٥ الفطاطرية

قلنـا إن المصريين شديـدو الشره إلى الفطير. وللفطاطـرية عـدد عظيم من الحوانيت بحى السكريـة فى القاهرة والشرهون الى فطيرهم من أفـراد الطبقة الدنيا يقصدون إلى هذه الحوانيت لتناوله فيها.

٤٦- الفنون المتعلقة بالملابس: الغزل

قبل أن ينشىء محمد على فاوريقات الغزل الكبرى. كان القطن والكتان والصوف يغزله الرجال والنساء بالمغازل اليدوية، ثم يلفونه بطريقة بسيطة حول «الطيار» ومفهوم أن هذه الصناعة القاصرة على الاحتياجات البيتية لم يبق لها اليوم شأن يذكر. وقبل أن تحتكر المواد الأولية ذات الأهمية برسم المعامل الكبرى، كان المصريون ينسجون غزلهم بأجهزة بسيطة جداً ويتخذون منه الأقمشة الكتانية والقطنية والصوفية.

٤٧- اللبد والحرير وتبييض الخيط والقماش والصبغ والتلميع والتطريز

كان ينسج بمصر أيضا بعض الأقمشة من الحرير. كما كان عدد وافر من الصناع يشتغلون بالطرابيش اللبدية أو اللبد. وكانت صباغة الأقمشة صناعة شائعة إلا أنها كانت غير متقنة. وكان بالقاهرة معامل عديدة لتلميع الأقمشة وتبييضها.

أما المطرزون الذين كان لهم عدد عظيم من المحال يزاولون فيها هذه الصناعة فكانوا يمتازون بدقة عملهم وأنيق رسومهم واتساق نقوشهم. وكان أبرعهم فى صناعة التطريز أولئك الذين كانوا يطرزون أنواع الجلود بأسلاك الذهب والفضة.

٤٨- العقادون

العقادون المصريون بارعون جداً فى صناعتهم. وهم يصنعون «القيطان» (الكردون) من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة كما يصنعون أيضا «الشراريب» من الحرير وأسلاك الفضة والذهب أيضا.

٤٩- الدباغة

الدباغة بالقطر المصرى صناعة واسعة النطاق. والمصريون يتبعون فيها أساليب خاصة بهم يستعينون بها على دبغ جلود البقرات والجواميس والأغنام والماعز. الخ. وهم بارعون جداً فى تحضير الجلد السختيان الذى هو جلد الماعز مصبوغا باللون الأحمر أو الأصفر أو غيرهما من الألوان بعد العناية بدبغه.

٥٠- الصرماتية والسروجية

يصنع بالقاهرة كل مايلزم للبلاد من الأحذية (المزد والمركوب والبابوج). وفى حى البرادعية بها جم غفير من الصنـاع يصنعون سروج الخيل وبـرادع، البغال والحمير.. الخ. أما اللبب وهو مايشد من سيور السرج فى صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل، والزمام - أى المقود، والقيد ، فتصنع فى حى السكرية . وهذه المصنوعات تزخرف غالبا بنقوش جميلة تشغل باليد على الجلد.

٥١-الخياطون

الخياطـون المصريون كثيرو العـدد بالقاهـرة. ويقومـون بخياطـة ثياب الأهالى من أبنـاء البلد، وقد يتصـدرون أحيانـا إلى خياطة مـلابس السيدات. وبها أيضا خياطون من اليونان والأرمن يهيئون ملابس أفراد الطبقة العليا، ولاسيما العثمانية منهم. وهم بارعون فى صناعتهم ولهم دراية تامة فى تكليف الثياب بـالقيطان الحريرى أو الـذهبى ينمقون به أشكـالا تطريزيـة جميلة ورسوما فى غاية الحسن. ومعتقدى أن قليـلا من الخياطين بأوروبا يتفوقون عليهم فى هذا النوع من أعمال الخياطة.

٥٢- الفراؤون

عامة الفرائين بمصر من اليونان والأرمن. وعددهم قليل جداً . لأنه لايلبس الفراء فى الأمة المصرية سوى أفراد طبقتى العظماء والعلماء.

٥٣- الفنون المتعلقة بالمبانى: البناؤون

المواد المستعملة عادة لتشييد المنازل هى: الآجر (الطوب الأحمر) والطوب النيىء وأحيانا أحجار النحت والمصيص والجير.

أمـا الطوب الـذى مادتـه الأولى طمى النيل مخلوطـا، على نسبة قليلـة أو كثيرة، بالطين الأبليـز، وأحيانا بالـرمل فيجفف فى الشمس أو يحرق فى أفران خاصة به.

أمـا أحجـار النحت فتأتى من مقـالـع جبل المقطم أو من أطـلال المبـانى القديمة.

ويحرق البناؤون الحجر الخاص بعمل الجير بطريقـة تقرب من الطريقة

المتبعة فى أوروبا لهذا الغرض. ويطفئونه بكيفية مماثلة لكيفية إطفائه عندنا. غير أن النقص يظهر باديا فى كيفية تحضير المونة، فإنهم، بدلا من أن يخلطوها بالرمل الموجود في متناول أيديهم من أجود الأصناف وأصلحها للبناء. يخلطونه بالتراب المضاف إليه رماد الأفران.

أما المصيص فيؤتى به من حلوان وغيرها ويقوم على استعماله عمال مخصوصون، لطلاء داخل المنازل به وقد ذكرنا قبلا أن الجبس الأبيض غير موجود عندهم وأنهم يستعملون الجير أحيانا فيما نستعمل نحن المصيص فيه.

والمبانى التى يشيدها المصريون المحدثون لا تتوافر فيها مزايا المتانة والإتقان التى امتازت بها الأبنية الفخمة والآثار الضخمة فى عهد أجدادهم. فإنهم يتخذون لأبنيتهم المواد الرديئة النوع والدبش الصغير. ويدخلون فى أسماك الجدران عوارض من الخشب لتمكينها، مع أنها تمنع أجزاء الجدار من التلاحم والتراكن وتأليف كتلة واحدة لاتشوبها شائبة.

وآلات البنائين المصريين وأدواتهم ناقصة كثيرة العيوب وهى تنحصر فى مملسة صغيرة (محارة) من الحديد ضيقة أما المسطرة والمثلث وخيط الرصاص والمقاييس فلا تستعمل إلا فى أحوال نادرة جداً. وهذا هو السر فى أن جدرانهم لاتطابق فى الغالب الاتجاه العمودى، وتبقى لهذا السبب معرضة لخطر السقوط بأدنى طارىء. ومن النادر جدا أن تكون الأبواب والنوافذ مستطيلة الشكل أو غير منحرفة الجانبين. ومما ينقصهم فى صناعة البناء أيضا الضبط ورعاية المضاهاة (السيمتريا) وبعد هذا وذاك فإن المبانى تقام غالبا من غير أن يوضع لها تصميم سابق أو تخطيط بل يبلغ من الأمر أنهم يضيفون غرفة إلى غرفة أخرى من غير تدبر ولاحساب ولا يفكرون فيما هنالك من ضرورة إيصال الضوء إلى الغرف المبنية والتوصيل بينها بالأبواب إلابعد البناء.

٥٤- نحاتو الأحجار

المنازل المبنية بحجر النحت قليلة العدد، لأن المسلمين لايرمون إلى بقاء المبانى فكأنما هم يبنون للحال لا للمستقبل ولايهتمون أقل أهتمام بنماذج الهندسة العربية الجميلة التى هى فى مطرح أنظارهم أثناء تنقلهم جيئة

وذهابا فى كل مكان. وهذا هو علة عدم انتشار فن نحت الأحجار وتنسيقها فى مصر وارتقائه. والآلات التى يتخذها النحاتون المصريون غليظة جداً، وإذا كانوا لايعملون بها إلا فى صنوف الأحجار اللينة فإنهم لايكادون يشعرون بمشقة ما فى مزاولة عملهم. ومع هذا فلا يزال يوجد نحاتون بارعون فى صناعة نحت الصَوان أى الجرانيت ومجيدون فى تكييفه بالصور والرسوم المطلوبة

ويوجد، غير نحاتي الأحجار فريق من الصناع متفرغين لقطع البلاط ووضعه فى أماكنه ويسمون با لمبلطين، أما سقوف المنازل فيعهد عملها إلى رجال لايمارسون غير هذه الصناعة. وطريقتهم فى ذلك أنهم يربطون بعروق السقف الخشبية البوص منضما بعضه إلى بعض ثم يطرحون عليه حصيرا ينشرون فوقه طبقة من المونة هى التى تعلوها غالبا طبقة البلاط.

٥٥- الحدادون

آلات الحدادين وأدواتهم غليظة جداً وأتاتين = أفران = النار عندهم تذكى نارها المنافيخ المزدوجة. والسواد الأعظم من الحدادين بالقاهرة يسكنون الحى المعروف بالنحاسين.

٥٦- النجارون

أجود الأخشاب الشائعة الاستعمال فى النجارة هى أخشاب اللبخ والسنط والنبق والجميز، وفيما خلفه لنا قدماء المصريين من المصنوعات الخشبية الدلالة الواضحة على أنهم لم يستعملوا من الأخشاب الا ماذكرنا. أما الآن فيستورد المصريون ألواح الخشب بمقادير وافرة من (تريستة) و(البندقية) و(ليفورنه) و(الشام) و(كرمانيا).

والنجارون المصريون فى غاية الحذق والبراعة ولايتخذون المناضد (البنوكة) للاشتغال عليها، لأنهم يشتغلون قاعدين أو جاثين على ركبهم. والفارة التى يستعملونها شبيهة با لمستعملة عندنا وهكذا الشأن فيما يتعلق با لمنشار. والأداة الأصلية التى يستعملونها فى جميع الأعمال كالبرى والشق والدق والخلع هى القدوم.

وفن النجارة بمصر أقل تقدما فيها من جميع الفنون، إذ من النادر أن

ترى المصريين يضمون أجزاء الخشب بعضها إلى بعض عاشقا ومعشوقا. بل يبرونها من الأطراف فى زوايا حادة ثم يثبتونها بعضها ببعض بالمسامير. وقلما يستعملون الخوابير لهذا الغرض، وهذا هو السبب الذى يعرض أشغالهم الى سرعة التلف ويجعلها قبيحة الصناعة.على أنه قد كان من نتائج انتشار الترسانات والمصانع التى أنشأها محمد على إتقان هذا الفن اليدوى بتخريج عمال على يد بعض الأسطوات الأوربيين، أحرزوا شيئا من الحذق والبراعة فى صناعتهم.

٥٧- صانعو الضبب أو المزاليج

صانعو الضبب ــ أى المزاليج فريق كبير من النجارين.. والسبب فى ذلك أن أغلب الأبواب لاتغلق إلا بمزاليج من الخشب. وكل مزلاج يتألف من ثلاث قطع.

٥٨- الخراطون

الخراطون يقطنون بالقاهرة حى الشعراوى. وهم كثيرو العدد جداً لأنه ما من قطعة من قطع الأخشاب التى تتألف منها النوافذ والمشربيات وغيرهما إلا وهى مخروطة بيدهم. والخراطون أحذق صناع القطر المصرى بلا ريب، وصناعتهم من أكثر صناعاتها تقدما وإرتقاء. وآلات الخرط عندهم ليست مثبتة ، كما فى أوروبا ـ على البنوكة فتضطرهم الى الاشتغال واقفين. بل إنها عبارة عن جهاز واطىء يشتغلون أمامه جالسين وهو مؤلف من عروستين إحداهما ثابتة والأخرى متحركة ــ فالمتحركة تبتعد أو تقترب لتضغط الأشياء المراد خرطها بين نقطتين. وبالرغم من أن آلات الخراطين بسيطة وناقصة، إلا أن الخراطين بلغوا من الحذق والرشاقة وخفة اليد وضبط حركاتها فى صناعتهم مبلغا يمكن معه القيام بأدق الأعمال التى تعهد إلى كفاءتهم. وهناك عمال آخرون يحذقون مهنة الخراطة إلى حد أنهم يخرطون أشياء كثيرة غير الخشب كالكهرمان والعاج لعمل أنابيب الشبكات منها.

٥٩- صناعة الفخار

صناعة الفخار معروفة فى القطر المصرى منذ قديم الزمان، وتصنع بالقاهرة والصعيد أصنافا مختلفة من الأوانى.

ولقد سبق لنا الكلام على أهم المصنوعات الفخارية وأشهرها كالقلال التى تصنع فى جهات عديدة من القطر المصرى وخصوصا فى قنا . ولا شك أن الأسباب التى تجعل الناس يفضلون القلال المصنوعة فى قنا على غيرها، نعومة الطين الذى تصنع به وجمال الأشكال التى تعطى لها أثناء صنعها والروائح العطرية التى يخلطها الصناع بها والخصية التى توافرت فيها من تبريدها الماء وجعلها إياه المذاق سائغا للشاربين.

ويصنع فى تلك المدينة أيضا نوع من الجرار (الأزيار) تصدر منه مقادير وافرة إلى القاهرة. ونقلها إلى هذه المدينة يحصل بطريقة غريبة فإنهم ينكسون تلك الأزيار فى الماء ويربطونها بعضها إلى بعض بحيث يتألف منها ما يشبه طوفا كبيرا يدفعه تيار النيل إلى الجهة المراد تصديرها إليها.

وفى أغلب مدائن القطر المصرى العليا معامل للفخار تختلف عن بعضها فى جودة الصناعة أو رداءتها. ففى ملوى ومنفلوط تصنع أوعية العجن الجسيمة (المواجير) والجرار الكبيرة (الدنان) التى تستعمل فى المصانع والمدابغ.

وفى بلد (البلاص) يصنعون البلاليص. وصانعوها يجيدون حرقها بحيث تكون غير قابلة تقريبا لنفوذ الماء من مسامها.

ويستعمل سكان الأرياف البلاليص لادخار مايلزمهم فى بيوتهم من ماء النيل. فترى جماعات النساء رائحات غاديات بين منازلهن والنهر يحملن البلاليص على رؤوسهن فى وضع يلفت النظر ويقع الموقع الحسن من القلب.

وأنواع الفخار العادية تصنع فى الوجه القبلى. وفى القاهرة وبعض قرى الصعيد مصانع لعمل أحجار الشبكات، وفى هذه العاصمة معامل لصناعة الفناجين مدهونة بالطلاء اللامع الملون.

ومفهوم أن المصنوعات المصرية من الفخار لاتطلى عادة بهذا الطلاء، ولذلك تحفظ لونها الطبيعى. فالقلال مثلا ترى فى بعض الأحيان رمادية اللون. ولكن القسم الأكبر منها لونه أحمر. إلا أن الفناجين التى تصنع بالقاهرة على المثال المتقدم غليظة الشكل.

أما التى يستعملها الأغنياء فواردة، كغيرها من أصناف الفخار الدقيقة

الصنع ، من البلاد الألمانية والإيطالية.

٦٠- الزجاج

صناعـة الزجـاج فى مصر ناقصـة وغير متقنة. ومصنـوعاته مـن القنانى وغيرهـا رديئة الصنف واطئـة النـوع. ولقد أنشأ محمـد على بـالإسكندريـة مصنعاً للزجـاج تشبه مصنوعاته مثيلها فى أوربـا. وفيه صنعت جميع ألواح الزجاج التى استعملت فى السنوات الأخيرة بأنحاء القطر المصرى كافة.

ولقد أنشـىء حـديثا معمل آخر للزجـاج بالقرب من ضفة المحمـودية على مسافة أربعة فراسخ من الإسكندرية.

ولما كان الوقود من الوسائل الحيوية التى ينبغى الاحتياط لها حرصا على حيـاة المصانع التـى أنشئت بالقطـر المصرى وبقـائها. فقـد اتجهت النيـات السـامية إلى غـرس غـابـة كبيرة من شجر الصفصـاف وغيره من أصنـاف الأشجار الأخرى التى تصلح أرض مصر لنموها بالقرب من ذلك المعمل.

٦١- الجوهرية والصياغ

للصياغ بالقاهرة حى خاص بهم والبارعون منهم فى هذه الصناعة مقرهم خان أبى طاقية، وهم جميعا من اليهود والأقباط ولم تبلغ الصياغة بمصر من الإتقان المبلغ الـذى أدى إليه عنـدنا التفنن فى البهرج والبـذخ. أما الجوهـرية الذين فى القاهرة فأكثرهم عـددا الأرمن والمنتسبون إلى الآستانة. ولهم معرفة عجيبة بتركيب الأحجار الكريمـة التى يكلفهم بتركيبها العظماء والوجهاء من الأتراك. وفى حى مـرجوش يشتغل الصناع بـالمرجان والكهرمـان ويتخذون منهما العقود والمسابح .. االخ.

٦٢- صانعو السلاح

مقـر صـانعى السلاح بـالقـاهـرة الحى المعروف بسـوق السـلاح وهم أخصـائيون فى صنـاعتهم فـلا يشتغل بعضـهم إلا بـالأسلحـة الناريـة ولا البعض الآخـر إلا بالأسلحـة البيضـاء. وهم لايظهـرون فى ممارستهم هـذه الصناعـة شيئا من الخصـائص الجديرة بـالذكر، فـإن أجمل الأسلحة التى يقتنيها الأغنياء مستـوردة من أوروبا. وإذا كان لصانعى السلاح بـالقاهرة عمل فيها فإنما هو الترميم والإصلاح ليس إلا .

٦٣- صناعة الحصير

استعمال الحصير فى مصر بالغ من الانتشار حدا يسهل معه إدراك جسامة عدد العمال الذين يزاولون هذه الصناعة. وتصنع الحصر بالقاهرة والفيوم وأحسنها مايصنع من أعشاب السمار وأجود السمار ما يؤخذ من الجهات القريبة من بحيرات النطرون وتصبغ هذه الأعشاب بالألوان المختلفة وتجدل بحيث تكون أشكالا ظريفة فى الغالب على الشكل المعين.

٦٤- الصناعات المختلفة: الشبكجية

لا جرم أن يكون صانعو أنابيب الشبكات كثيرى العدد فى قطر أعتاد أهله جميعا بوجه التقريب تدخين التبغ. وتتخذ هذه الأنابيب عادة إما من البوص أو خشب الكراز أو الياسمين أو الزنبق.. ويثقب هذا الخشب بمثقب يحركه وتر قوس تمسك به يد الصانع.

٦٥- الحلاقون

يمتاز الحلاقون المصريون بالحذق والرشاقة فى مهنتهم والطريقة التى يتوخونها فى الحلاقة غريبة فى ذاتها وجديرة بأن يطلع القراء عليها ولست بمحدثهم فى شأنها بشىء من عندياتى وإنما اقتصر فى تكوين فكرة لهم عنها بإيراد ماذكره الدكتور (براير) فى مؤلفه النفيس الموسوم «تسع سنوات فى القسطنطينية» عن تلك الطريقة. فإن أساليب الحلاقين المصريين مطابقة لأساليب زملائهم فى الآستانة. فقد قال ذلك المصنف مايأتى:

« لا يكاد الإنسان يستوى على العرش الخشبى المنصوب بداخل حانوت الحلاق حتى يقدم إليه المعلم صاحب الحانوت شبكا، ثم يأخذ بتحضير فنجان من القهوة برسمه. ولا تنقضى دقيقتان إلا وهو يقدم له هذا الفنجان تتصاعد من سطحه أبخرة القهوة.

«ولما كان أهل القسطنطينية لا يكترث أحدهم بالسرعة ولايهمه إنجاز الأعمال فى مواعيدها، فقد اعتاد الراغب فى الحلاقة الانتظار بسكون زمنا طويلا ريثما ينتهى المعلم الحلاق أو القلفة الأول (الصبى الأول) من حلاقة زبون، سابق عليه. ومتى جاءت نوبته على هذا المثال فقد وجب عليه أن يحل محل هذا الزبون الراحل وعندئذ يجد فوق رأسه ساقا معدنية مثبتة من

طرفها فى الحائط أو السقف وحاملة فى الطرف الآخر المقوس آنية معدن بشكل القمع مثقوبة ثقبا ضيقا. فبينما يحمل بيديه تحت ذقنه صحنا للحية من المعدن مستديرا، ينسكب من الآنية المعلقة على رأسه سلسول ماء فاتر يستعمله الحلاق لغسل رأسه ووجهه ورقبته بالصابون. فإذا كان بالرأس شعر غسله واستغرق زمنا طويلا فى حكه متخذا أظافره كأسنان المشط ثم يجفف رطوبة الماء بمنديل ويلف رأسه بمنديل آخر.

«وبعد ذلك يتفرغ للحلاقة فيرطب اللحية بالماء ترطيبا جيدا، ويتناول موسى حقيرة الشكل مصنوع النصل فى ألمانيا لايتجاوز ثمن الدستة الواحدة منها فرنكين. غير أن الحلاقين يستعينون بحجر المسن وقطعة من الجلد على شحذ تلك الأسلحة. بحيث تصير أتم مايكون صلوحا للاستعمال. ويرتكز الحلاق بقدمه اليسرى على العرش الخشبى، ثم يسند رأس الزبون إلى ركبته بعد تغطيته إياها بمنديل ويشرع فى إزالة الشعر مبتدئا من أعلى الخد اليسرى إلى أسفلها، ثم ينتقل إلى الخد اليمنى مكررا هذه العملية فمتى انتهى منها وقف تجاهه وأنشأ يسوى شعر اللحية والشاربين ويزيل مايعثر عليه فى الوجه من الشعرات الشاذة.

«وإذا أحببت تزجيج الحاجبين فإنه يسويهما بالحلاقة على شكل يجعلهما بمقتصاه تامى التقوس. ولما كان أهل البلد يعتبرون الشعر من القذر، فإنه يعمد بمقراضيه الى فتحتى الأنف فيقص بهما ما فيهما من الشعر، ثم الأذنين فيضع فيهما ماء فاترا ويكرر ذلك لإزالة مايكون بهما من الصملاخ، فإذا لان استخرجه بأداة صغيرة عنده. ويقص بعد ذلك مايجده من شعر فى مدخل الصماخ. أما إذا رأى سنطة صغيرة بالوجه عمد إلى إزالتها بالموس، غير أنه لايقدم على هذه العملية عادة إلا بعد الاستئذان. وكل هذه العمليات تتم بالبطء والتوانى، لأن الأحاديث والمحاورات تتخللها حتما، على أن تمامها لايكون بمواصلة العمل، بل على دفعات متكررة. إذ قد يحدث أن يدخل زبون، أثناء تفرغه لشأن الزبون الأول، فسرعان مايتركه بلا احتشام ولا كلفه كى يقدم الى القادم الجديد شبك التبغ ويجهز له فنجان القهوة. وفى تلك الأثناء يتناول الزبون الأول الذى لم يتم حلاقته سوى النصف أو أكثر أو أقل الشبك الذى كان قد تخلى عنه لأمد، ليستأنف التدخين به ريثما يعود الحلاق

إليه بعد فراغه من المهمة التى لأجلها تركه.

وعقب الانتهـاء من الحلاقـة يقـدم القلفـة الصغير (الصبى الصغير) إلى الزبون مرآة لينظر فيها نفسـه، ويمعن النظر فى حلاقته ليحكم بما إذا جاءت وفق المراد. فإذا لم يكن فيهـا ما يـوجب الانتقـاد، اندرع الحلاق يعـرك بين أصـابعـه خصلـة الشعـر التى اعتـاد الشرقيـون تـركهـا بأعلى جمجمتهم ويمشطها بالمشقاة ثم يغطيها بالطربوش أو العمة أو الكلبك. وهذه تستغرق عادة من عشر دقائق إلى نصف ساعة».

٦٦- السقاؤون

لما كـان ماء الآبـار فى القـاهـرة آسنا غير صـالح للشرب فإن السقـائين، وعددهم فيها جسيم جداً، يحملون مـاء النيل إلى السكان، ومنهم من ينقلونه فى قـــرب كبيرة من الجلـد على الجمال أو الحمير أو على ظهـــورهم فى قـــرب صغيرة. وينـادى السقـــاؤون على الماء بقـولهم «العـوض على اللـــه.. عليـه العوض». ونادرا ما يتقاضون أكثر من عشرة سنتيمات (أربعة مليمات) ثمنا لقربة ماء واحدة ينقلها من مسافة كليو متر ونصف.

ويبيع بعض السقائين الماء على السابلة، وهنـاك فريق غيرهم كثير العدد يبيعـونهم فى الطريق أشربـة مختلفة من نـوع مـا ذكرنـاه أثناء الكـلام على أصناف المشروبات المرطبة فى أول هذا المجلد.

وفى مصر مهن أخـرى خـاصة بها غير التى تقـدم ذكـرهـا ..منها مهنـة المكارية ـ أى الحمارين ومهنة الجمالين ومهنة النوتية فى النيل. وسأتكلم على هذه المهن بالتفصيل الوافى فى أحد الفصول الآتية:

٦٧- التجار

سبق لنـا الكلام على شكل حـوانيت التجارة بـالقاهـرة، وسمينا الأحيـاء المختلفة التى يصـح اعتبارها مـركزا للمتـاجر الكبرى فيهـا. ونقول الآن إن أصحـاب الحرفة الـواحدة يجتمعـون عادة فى نـاحية واحـدة من العاصمـة المصريـة. ولهذا تـرى أن شـوارع بـرمتهـا أو أقسـامـا من هـذه الشـوارع مخصصة لصنف واحد من التجارة.

والتجـار المصريون يجلسـون متربعين فى حـوانيتهم ، كأن على رؤوسـهم

الطير دعة وسكونا. وفى كل حانوت ديوان أو «دكة» تحف به على ضيقه، هى التى يستوون عليها بذلك الوصف. وغنى عن البيان أن المقارنة بينهم والتجار بأوربا ، من حيث اليقظة والحركة والتوافر على العمل، مستحيلة إذ شتان بين أولئك فى تكاسلهم وتواكلهم وجهلهم بأساليب استمالة الناس إلى الشراء وتركهم زمام رواج تجارتهم بيد القضاء والقدر وقلة تحفزهم لاقتناص قنيصة الربح، وهؤلاء فى نشاطهم ولطف أساليبهم فى اجتذاب الناس إلى اشتراء بضائعهم.

وبالقاهرة تجار من المسيحيين واليهود والعرب والترك. والفريق الأول من هؤلاء يطالبون دائما بالأسعار العالية أثمانا لبضائعهم، ولكنهم يضطرون بعد المساومة والمماكسة إلى الرضى بالثمن المعتدل الذى تساويه بضاعتهم. أما الأتراك فيحددون للمشترى الثمن الذى يريدون أن يبيعوا به بضاعتهم ويتمسكون به ولا يتنازلون عنه مهما بلغ من مماكسة المشترى. ومن عاداتهم أنهم لايبغون التمسك بالمشترى ولايبذلون جهدا ما فى سبيل الاحتفاظ به، لاعتقادهم أن الأرزاق مقدرة وأنهم لايصيبون منها إلا ما قسمه الله لهم.

(٤)
التجـــارة

الأهمية التجارية لمصر– الأصناف التى تتألف منها التجارة المصرية– الواردات والصادرات– تجارة القوافل– المحال التجارية الأوربية – خواطر وأفكار

٦٨ - الأهمية التجارية لمصر

ليس بين المواقع الجغرافية ما يشبه موقع مصر فى صلوحه للتجارة إلا القليل. وإذا اكتفينا فى النظر إلى هذا الامتياز بالاعتبارات التجارية فقط، فإننا لانرى قطرا كمصر جديرا بأن تكون له حكومة خاضعة ذات إدارة مستقلة. فإن مصر تتلقى بواسطة الإسكندرية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط جميع أصناف التجارة الواردة من الشمال والغرب، كما تقبض بيدها على

مفتـاح تجارة القسم الشرقى من أفــريقيــة. وفـوق هـذا وذاك فإنها الملتقى الطبيعى لشطـر كبير جداً من القـارة الأفريقيـة وصاحبـة الشأن فى التماس المسالك إلى المحيط الهندى بواسطـة البحر الأحمر الممتد على سواحلها . وهى التى ينبغى أن يـؤول إليهـا الامتيـاز على البلـدان الأخـرى بنقل البضـائع الجسيمة المصـدرة برسـم أوربا من جنـوب آسيا، بعـد أن كان مصـدروها يلتمسـون فى إيصالها إليهـا أبعد ما يكون من الطرقـات ، ألا وهو طريق رأس الرجاء الصالح.

ولايسع أحـد أن يتصدى للكـلام على مصر التجاريـة من غير أن ينصرف خاطـره إلى المستقبل، وأنه سيجعل لها شأنـا رفيعا بـاعتبار كـونها الطريق الـوحيد إلى الهنـد، ولاسيما لأن المشروعـات المتعلقـة بحفر تـرعـة بين النيل والسـويس أو إيجاد وسيلة لـلاتصال بين البحـر الأبيض المتوسط والبحـر الأحمر قـد جعلهـا الحكـام المصريـون، فى ظـروف عـديـدة، نصب أعينهم واتخذوها المثل الأعلى الذى طالما بذلوا فى تحقيقه أقصى مجهودهم.

ولقد ظلت مصر إلى القرن الخامس عشر الوسيط فى المبادلات التجارية بين مصر وأوربا. وهى وظيفة ترجع بطبيعة الحال إليها وتختص بها دون غيرها، حتى أن البرتغـاليين لما فتحوا طـريق المحيط الأطـلانطيقى، أراد أحد الـذين تكاتفوا منهم على توطيد شوكـة البرتغال فى آسيا ألا وهو المقدام (لبوكرك) أن يكفل لأمتـه على طول المدى مـاأحـرزه برسمهـا من المزايـا والفوائد، فقـرر احتفـاظـا بتلك الطـريق أن يحول مجرى النيل إلى البحـر الأحمر كى تنصب مياهه فيه، ويغتصب بهذا الفعل من مصر طريق البلاد الهندية.

وليس فى هذا الأمـر ما يستغرب ، فما من أحـد من كبار الرجـال العارفين بحقائق الأحـوال وتصاريفهـا ، إلا وقد أدرك أهميـة موقع مصر وقـدره حق قدره. فالإسكندر الأكبر إستشعـر بهذه الأهمية، وبسببها خطط على سواحل مصر ثغـرا أراد بـه أن يخلف ثغـر (صور) فى عظمتـه التجـاريـة. ومـا دفع بنـابليون إلى ضفـاف النيل سوى التجـارة، ولاسبب غيرها. فقـد كان هـذا الرجل العظيم يـريد أن يبـذر للتجارة الفرنسيـة فى مصر بذورا ويقيم لها بها صروحا، ويتخـذ هذا القطـر مظهرا لنشاط التجـار الفرنسيين. اعتقـادا منه بأنهم سيدخلون البحر الأحمر فى نطـاق أعمالهم التجارية مع البحر الأبيض

ويقبضون بيدهم على زمام احتكار التجارة الهندية البريطانية.

والذى أراه بعد هذه المقدمة أنه لاينبغى أن يعهد أمر مصر، وهى على ماتقدم ذكره من أهمية الموقع، إلا إلى دولة مستقلة حريصة على حيادها، يدعو إلى ذلك ويلتمسه بلوغ أهمية هذا القطر، من الوجهة التجارية، إلى الدرجة القصوى وانصراف الأطماع إليها من قديم الزمان. دع أن التجارة يتطلب نموها واتساع نطاقها أن تعيش فى ظلال القوة الحامية لها والحياد الذى لايعرضها للمجازفات والأخطار.

٦٩-أصناف التجارة المصرية

وصف نابليون «التجارة المصرية» فى مذكراته وصفا سطحيا مابرح منطبقا عليها إلا فى بعض الشئون الصغيرة. ولست أظننى قادرا على أن أزجى إلى ذهن القارىء صورة ممثلة لحقيقة هذه التجارة كالتى رسمها هو بوضوح فيما يأتى قال:

«تنتج مصر المحصول الوفير من القمح والأرز والخضر. وقد كانت لهذا السبب المخزن الذى تستورد منه رومية مؤونتها، وما برحت حتى اليوم خزائن الخير الوفير لمدينة القسطنطينية. وهى تنتج، فيما عدا ماتقدم، السكر والنيلة والسنا والنطرون والكتان والقنب، إلا أنها محرومة من الأخشاب والفحم والزيت. فإن هذه الأشياء تنقصها كالتبغ الذى تستورده من بلاد الشام والبن الذى تجلبه من بلاد العرب، وفيها القطعان الكثيرة من الأغنام والماشية. وهى غير ما يوجد منها فى الصحراء كما أن فيها أنواع الأطيار المختلفة، والفروج يفرخ بها فى أفران = حضانات = خاصة فيكون عدده لهذا السبب عظيما جداً.

«ومصر واسطة بين أفريقية وآسيا. وتصل القوافل إلى القاهرة كما تصل السفن إلى الساحل - أى فى الوقت الذى لم يكن وصولها منتظرا فيه لورودها من الأصقاع النائية ولتعذر الوقوف على أخبارها قبل وصولها إلى الجيزة. وهى تدخل إلى القطر من ناحية الأهرام، وهناك يعين لها المكان الذى تعبر منه النيل فالمكان الذى تحط فيه رحالها من ضاحية القاهرة. ومن الجيزة أيضا ترد الأنباء بوصول قوافل الحجاج أو التجار الآتية من مراكش وفاس وتونس

والجزائر وطرابلس، قاصدة إلى الأقطار الحجازية ومعها صنوف البضائع التى تقايض عليها فى القاهرة، وتتألف هذه القوافل عادة من بضع مئات من الجمال وأحيانا من، الألوف، يحرسها رجال مسلحون. وتتوارد القوافل أيضا من الحبشة وباطن أفريقية (وتنجوست) وما يتصل بهذه الأصقاع من الأقطار المفضية إلى رأس الرجاء الصالح من جهة وبلاد سنغال من جهة أخرى. وهى تحمل إلى مصر الأرقاء من العبيد والجوارى والصمغ والتبر وسن الفيل، وسائر حاصلات تلك الأقطار للمبادلة عليها ببضائع أوروبا والشرق الأدنى.

وهناك قوافل أخرى تصل من أنحاء بلاد العرب والشام كافة حاملة الفحم والحطب والفواكه والزيت والبن والتبغ، وعلى العموم كل ما ينتج داخل البلاد الهندية من مختلف الأرزاق.

إن التجارة الحالية لمصر، وإن تكن فى حاجة ماسة إلى استتباب السلم ليتسع نطاقها وتزداد منافعها، ما برحت - بالرغم من الحرب - رفيعة الشأن عظيمة الأهمية. وهى مبنية على استيراد الأنسجة وخشب البناء والحديد والآنية والورق والعقاقير وحاصلات المستعمرات وغيرها من أوروبا، وتصدير الأرز والقطن والحبوب والنيلة والأفيون .. الخ من مصر.

وفى الملخص الآتى عن واردات مصر وصادراتها فى سنة ١٨٢٦، مقدرة بطريق التقريب، ما يشير إلى درجة أهمية ذلك التبادل التجارى.

الواردات

أنسجة قطنية	١٦٠٠٠٠٠٠	فرنك
أجواخ	٣٥٠٠٠٠٠	فرنك
طرابيش	١٨٠٠٠٠٠	فرنك
أنسجة صوفية	٢٠٠٠٠٠٠	فرنك
أنسجة حريرية	٢٣٠٠٠٠٠	فرنك
خشب للعمارات	٩٠٠٠٠٠٠	فرنك
حديد قضبان وأسلاك حديدية	٤٠٠٠٠٠٠	فرنك
آنية من الحديد والنحاس وسكاكين	٢٥٠٠٠٠٠	فرنك
ورق	١٠٠٠٠٠٠	فرنك
عقاقير وأصناف عطارة	١٥٠٠٠٠٠	فرنك
فحم حجر وحطب	١٢٠٠٠٠٠	فرنك
قرمز	١٣٠٠٠٠٠	فرنك
سكر	٦٦٦٠٠٠	فرنك
زجاج ومرايا	٦٤٠٠٠٠	فرنك
زيوت	٧٧٠٠٠٠	فرنك
أنبذة ومشروبات روحية	٧١٠٠٠٠	فرنك
بضائع أخرى	٢٠٠٠٠٠٠	فرنك
المجموع	٥٠٧٨٦٠٠٠	فرنك

الصادرات

قطن	٢٤٠٠٠٠٠٠	فرنك
أرز	٤٠٠٠٠٠٠	فرنك
صمغ	٣٠٠٠٠٠٠	فرنك
أنسجة كتانية	١٦٤١٠٠٠	فرنك
حبوب	١٦٢٥٠٠٠	فرنك
صودا	١٥٨٠٠٠٠	فرنك
بلح	١٢٠٠٠٠٠	فرنك
خضر جافة	١٠٠٠٠٠٠	فرنك
أفيون	٩٠٠٠٠٠	فرنك
حناء	٦٠٠٠٠٠	فرنك
بضاعات أخرى	١٠٠٠٠٠٠	فرنك
المجموع	٤٠٥٤٦٠٠٠	فرنك

لم نذكر فى الجدول السابق إلا ما يتعلق بالتجارة بين مصر وأوروبا. أما الجدول الثانى فقد ذكرنا فيه بيان الحركة التجارية العامة فى الإسكندرية مشتملة على حركة التجارة مع البلاد العثمانية.

جهات الورود والتصدير	الواردات	الصادرات	مجموع التجارة
النمسا	٤٣٨٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠٠٠	٥٨٣٠٠٠٠٠
تركيا	١٢٧٠٠٠٠٠	١٢١٠٠٠٠٠	٢٤٨٠٠٠٠٠
إنجلترا	١٥١٦٠٠٠٠	٥٤٠٠٠٠٠	٢٠٥٦٠٠٠٠
فرنسا	٥٨٠٠٠٠٠	١٠٨٠٠٠٠٠	١٦٦٠٠٠٠٠
توسكانا	١٠٢٦٠٠٠٠	٥١٣٠٠٠٠	١٥٣٩٠٠٠٠
الشام	٢٨٠٠٠٠٠	٦٢٠٠٠٠٠	٩٠٠٠٠٠٠
بلاد الغرب	٤٥٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠
اليونان	١٣٦٠٠٠٠	٨٢٠٠٠٠	٢١٨٠٠٠٠
بلجيكا			
وهولاندا	٥٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٨٥٠٠٠٠
السويد	١١٧٠٠٠	---	١١٧٠٠٠
ممالك أخرى	١٥٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
المجاميع	٩٧١٩٧٠٠٠	٥٦٩٠٠٠٠٠	١٥٤٠٩٧٠٠٠

فى سنة ١٨٣٦ لزم لتجارة الإسكندرية الواردة ١٢٣٥ سفينة محمولها بالطن ١٥٣١٤٨ والصادرة ١١٤٧ محمولها بالطن ١٣٤٠٠٠.

٧٠- تجارة القوافل

تقدر تجارة مصر كلها، بواسطة البحر الأحمر والقوافل بنحو عشرة ملايين من الفرنكات. وفي كل سنة تصل إلى القاهرة من بلاد الحبشة قافلة. تجلب معها العبيد والجوارى وسن الفيل وريش النعام والإبريز والصمغ الخ.

وتتألف فى مراكش قافلة أخرى برسم الحج إلى مكة. فتتبع سواحل البحر الأبيض المتوسط وتأخذ معها الحجاج من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس الخ، وتصل إلى صحراء الإسكندرية فى أربعة آلاف جمل، ثم تقصد منها إلى القاهرة حيث تنضم إلى القافلة المصرية، وتتجه القافلتان بعد ذلك إلى البلاد الحجازية.

وتجبى حكومة القاهرة رسوما للمرور عن البضائع والحجاج. وتصل من دمشق بين حين وآخر قوافل صغيرة تحمل معها الأقمشة الحريرية والقطنية والزيت والنقل.

٧١- المحلات التجارية الأوروبية

يبلغ عدد محلات التجارة الأوروبية بالإسكندرية الآن أربعة وأربعين محلا، وكانت فى سنة ١٨٢٢ لا تتجاوز ستة عشر محلا . ومن المحال الموجودة الآن ثلاثة عشر محلا فرنسيا وسبعة محال إنجليزية وتسعة نمساوية وثمانية توسكانية واثنان سردينيان وواحد دانمركى وواحد هولندى وواحد بروسى وواحد تابع لحكومة اليونان الجديدة.

وهناك فيما عدا ما ذكر ، ستة محال لتجار من المسلمين وأربعة لتجار من أساكل الشرق وهم يونان جميعا على المذهب الكاثوليكى.

والتجار المشتغلون لحساب أنفسهم بالقاهرة قليلو العدد وإنما الموجودون بها وكلاء عن بيوت الإسكندرية، ففيها محل إنجليزى وتسعة محال نمساوية وأربعة توسكانية اثنان سردينيان وإثنان يونانيان وعشرة للرعايا العثمانيين من أساكل الشرق وثلاثة وستون لتجارة صغار من الأتراك والمغاربة والمصريين.

٧٢- أفكار وخواطر

لم تكن، مصر على عهد المماليك بحيث تنتج من المحصولات ماتنتجه الآن ، وهذه الحقيقة يسهل فهمها بمجرد التفكير فيما صرفه محمد على على وسائل العناية بالزراعة فلقد أدخل إلى مصر زراعات وافرة المحصول طيبة الثمرات كزراعة القطن التى يصح اعتبارها اليوم الفرع الأصلى من فروع تجارة التصدير.

هذا وقد زادت الواردات أيضا كما زادت الصادرات لسبب يرجع — بلا ريب — إلى ما تشعر مصر به أثناء انسياقها فى طريق النجاح والرقى من الاحتياجات المختلفة، إذ غير خاف ماهنالك من ضرورة تموين الترسانات والفاوريقات والمدارس والمصالح، وعلى الخصوص الجيش الكبير المضطر بظروف الأحوال إلى البقاء تحت السلاح، باللوازم والمعدات.

وما ينقص مصر لكى تبلغ إلى الغاية القصوى من الثروة التجارية هو المعيشة فى ظلال السلم. فلو أن عقدة الإشكال التركى المصرى حُلت نهائيا وحُسم الخلاف المشتجر بين الحكومتين العثمانية والمصرية، بعناية من الدول الأوروبية لاتسع نطاق الزراعة بما ينضم إليها من ألوف العاملين الذين تثقل عواهنهم الآن أعباء السلاح، وارتفع عن الميزانية الشطر الأعظم من باب المصروفات، وغنى عنى البيان ما تجنيه مصر أولاً ثم الدول الأوروبية التى ترتبط مصلحتها التجارية بمصلحة مصر، من الفوائد الجزيلة والمنافع العميمة إذا تحققت تلك الأمانى.

الباب العاشر

التعليم العام والمدارس فى مصر

العلوم فى الأزمان القديمة وفى عهد العرب- عصر الخلفاء- عصر المماليك- نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد علي- البعثة المصرية فى باريس- تأسيس المدارس- تنظيم المعارف العمومية.

١- العلوم فى الأزمان القديمة وفى عهد العرب

كانت مصر مهد العلم ومبعث أنوار العرفان. فظلت إلى ما بعد الفتح الفارسي، رافعة لواءهما وطارحة فى جميع الأرجاء ضياءهما. ومما لايحتاج إلى عناء التفكير أن أغلب فطاحل علماء اليونان (كفيثاغورس) و (هيرودتس) و (أفلاطون) و(أرسطو) وفدوا على مصر فى تلك الأزمان. فتلقى بعضهم عنها أصول الفلسفة وقواعد الدين، والبعض الآخر حقائق العلوم والفنون وما هو متبع فى استقصائها عن الأنماط والأساليب. ولما انطفأ سراج المدارس اليونانية وخبا نورها وغشيت بعده ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض، سما لمدرسة الإسكندرية كوكب تكبد السماء. فلم تلبث أن صارت للعلم والعرفان مشكاة تبهر الأبصار بسنائها الساطع. ولقد نبغ فيها علماء بثوا فى الخافقين شهرتها منذ عهد البطالسة إلى أوائل القرن السادس من الميلاد، ومنهم المهندس (أرخميدس) والفلكي (بطليموس الفالوذى) والفيلسوفان (جمبليكس) و(بلوطانس) والأطباء (هيروفيلس) و(إيروز ستراتس) و(جالينوس) وغيرهم.

٢- عصر الخلفاء

جاء العهد الأول من عصر الدولة العربية مبددا لما غشى النفوس من سحب المخاوف والهلع من تعصب الفاتحين المسلمين. فلقد كان عصر الخلفاء غرة فى جبين الدهر ومن أعلى وأغلى ما تزدان به تواريخ العلوم والآداب والفنون. ولا عجب فقد كانت أسماء هارون الرشيد والمأمون والمنصور لاتزال من العناوين الخالدة على الملوك والأمراء الذين أحاطوا العلوم والمعارف بسياج حمايتهم وأمدوها بمتواصل رعايتهم. فإنهم عهدوا الى لفيف من أعيان المسيحيين واليهود الواقفين على أبوابهم والمتصلين بحكومتهم فى نقل أهم المصنفات العلمية الى اللغة العربية. ومع أن المغالين فى التحبيذ قد تجاوزوا حد المعقول فى برقشة الحضارة العربية بألوان المديح، فلا يسعنا إلا الاعتراف به على الملأ بأننا مدينون لها، فيما عدا الآثار الفخمة والمصنفات الأدبية الجليلة - بالاستكشافات الأولى فى الكيمياء ومبادىء علم الجبر ، وبما أحرزه من التقدم على يدهم علم الحيل (الميكانيكا) ثم بالمزاول الشمسية والساعات والأراغن الموسيقية وغيرها.

٣- عصر المماليك

اندثرت باندثار الأنظمة العلمية التى خفقت عليها رايات مجدهم وأظلها رواق شوكتهم. لأن الأسر المملوكية التى خلفتهم فى ولاية الأمر كانت على الدوام مزعزعة الأركان ضعيفة القواعد، فلم تعن بالشئون العلمية التى أخذت تضمحل وتذوى كما تذوى أوراق الشجر. فإن السلاطين المماليك الذين ألقوا أساس الحكم الاستبدادى الذى أقاموا عليه صرح شوكتهم قد تركوا بعد انقراضهم من الآثار الهندسية الفنية، فلما حل المماليك محلهم ولم تكن لهم دراية بشىء غير العلم بأساليب القتال، ولا عمل عندهم أشرف من رياضة الأجسام، دفعوا بمصر الى الأمام، وإنما فى طريق الهمجية والجهل. ففى عهدهم لم يرتفع شأن لعلم سوى دراسة القرآن. أما العلوم والفنون الأخرى، فقد ألقيت فى زوايا النسيان، واطرحت حتى صار علم الطب دجلا وشعوذة فظيعة وساءت الأحوال الى أن فقد المصريون كل ذكرى تتعلق بماضى بلادهم. وفى عهد الحملة الفرنسية أخذ بعض مواطنينا يقصدون إلى الأهرام لمشاهدتها، فكان الأهلون يقولون أن تلك الأهرام شادها أقوام

الفرنسيون من سلالتهم. وكانوا قبل ذلك يعتقدون أنها أثر من آثار الطبيعة وعمل لادخل ليد الإنسان فيه.

وكانت نتف العلوم التى تتحلى مصر بها فى ذلك الأوان احتكاراً للعلماء ووقفا عليهم .إذ كان هؤلاء يتلقون فى الجامع الأزهر بعض الشىء من فلسفة (أرسطو) واللغة العربية والكتابة والحساب وتفسير القرآن وتاريخ الخلفاء، لينقلوه فيما بعد إلى غيرهم ولم يكونوا حاصلين من مبادىء علم الهيئة وتخطيط البلدان إلا على مبادىء وأصول مبنية على الأغلاط والأباطيل.

ولم تكن الثلاث سنوات التى قضاها رجال الحملة الفرنسية فى مصر وعادت على العلم بأجزل الفوائد وأوفر الثمار بكافية لنمو نبت التعليم وترعرعه وإزهاره بين المصريين الوطنيين.

٤- نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد على

كان من نصيب محمد على أن يتولى نشر راية العلوم والمعارف فى قطر قطعت فيه الدور الأول من أدوار نموها وازدهارها، وجاءت بباكورة طيبة من الثمرات الشهية الجميلة. فلقد وجه هذا الوالى منذ البدء لفتة من لفتاته الصائبة الحكيمة إلى التعليم، وقدر ماله من جليل المزايا فلم يمض على استلامه مقاليد الأمور زمن يسير حتى أنشأ جملة من المدارس لم تبلغ من الأهمية المبلغ الذى كان يتمناه لها. ثم أدرك فيما بعد أن لا مناص له من الاعتماد على أوربا فى الاسترشاد بها إلى طريق التقدم العلمى، فوجه إلى إيطاليا وفرنسا طائفتين من الشبان المسلمين لتنشئتهم فيهما على تلقى العلوم والتحلى بحلية الآداب والفنون. فنبغ من بينهم فى مقدمة من نبغوا عثمان أفندى نور الدين الذى بعد أن قضى سنوات فى بلادنا عهدت إليه إدارة مدرسة القصر العينى الكبرى، وأسس مدرسة أركان الحرب بالخانقاه فى سنة ١٨٢١.

٥- البعثة المصرية

لما عاد السلم إلى نصابه فى سنة ١٨١٥ خاطب العلامة (جومار) — أحد مهندسى الجيش الفرنسى بالشرق سابقا - ومرخص الحكومة المندوب منها عامئذ لمباشرة نشر استكشافات المعهد العلمى المصرى، قنصل فرنسا

بالإسكندرية ليستأذنه فى استئناف المباحث العلمية والتاريخية التى بدىء بها أيام الحملة الفرنسية. وقد حزر منذ هذا الحين كل ما كان ينتظر أن محمد على سيبذله من الجهود لاستنبات الغراس الذى غرسته تلك الحملة على ضفاف النيل.

وكان من الأغراض التى يرمى إليها توثيق الصلة بين مصر وفرنسا بأواخى الشكر وقيود الامتنان لما ستقدمه الثانية إلى الأولى من وسائل الرقى العلمى وتمهده لها من طرق النقد الفنى والأدبى. وكان تعليم الأهالى الوطنيين من أقوى عوامل الإصلاح والحضارة فى مصر. وكانت الحكومة المصرية ميالة بالبداهة الى التذرع به لإنهاض البلاد من كبوتها ورفعها إلى المستوى الجدير بها أن تظهر فيه.

وأثناء وجود عثمان أفندى نور الدين بفرنسا كاشفه العلامة (جومار) بمشروع ابتكره لتحقيق ذلك الغرض، وهو إرسال بعثات مصرية إلى أوربا لطلب العلم فيها فتلقاه عثمان أفندى بالاستحسان وأطلع عليه سمو الوالى الذى لم يلبث أن أمر بتنفيذه، وقد نفذ فعلا منذ سنة ١٨٢٦ إذ عهد سموه إلى المسيو جومار إرسال أول بعثة مصرية فى فرنسا وكانت مؤلفة من أربعة وأربعين شابا من الأتراك والمصريين.

ولست أقصد هنا إثبات تاريخ هذه البعثة الفريدة فى بابها. بل أقتصر على القول بأن مديرها حصل بعد مضى سنة أو سنتين من تأليفها على نتائج جليلة ومزايا نافعة بتهيئته أحد عشر طالبا من أولئك الشبان لدرس أساليب الإدارة العسكرية والمدنية والسياسية، وثمانية لتعلم فن البحر والهندسة العسكرية والمدفعية، وإثنين لاستقصاء علوم الطب والجراحة وخمسة لدرس الزراعة والمعادن والتاريخ الطبيعى، وأربعة لتحصيل العلوم الكيميائية، وأربعة لممارسة فن الأيدروليك وصب المعادن، وثلاثة لمباشرة الحفر فى المعادن والطباعة، وواحد لإتقان فن الترجمة، وآخر لإجادة فن العمارة وقد اضطر خمسة من أعضاء البعثة إلى العودة لأسباب بعضها صحى والبعض الآخر يتعلق بعدم الكفاءة وقلة الأهلية.

وأخذ الطلاب يتواردون بعد ذلك إلى فرنسا فى كل عام وينضمون إلى طلاب البعثة الأولى، فبلغ عدد الذين قدموا إليها فى طلب العلم من سنة ١٨٢٧

إلى سنة ١٨٣٣ نحو ستين طالبا. سوادهم الأعظم من أبناء الفلاحين، وقد تخصص أربعون منهم لدراسة العلوم الآلية (الميكانيكية) وإثنا عشر لدراسة الطب والأقرباذين = صناعة الدواء =، وكنت أنا الذى جاء بهم إلى باريس. وإذا ضممنا إلى هؤلاء الطلاب سبعة من الحبشان وثلاثة من أبناء الذوات فإن مجموع طلاب البعثة حتى تلك السنة يبلغ مائة وأربعة عشر طالبا.

فماذا كانت نتائج هذه البعثات ؟ لست أزعم أن هؤلاء الطلاب جنوا من الثمرات ما كان مرجوا لهم أن يفوزوا به منها. ولكنى أستطيع التأكيد بأن نسبة الناجحين منهم تجاوزت الحد المعتاد وأن نجاحهم فى الامتحانات العامة التى لاسبيل فيها إلى المحاباة كان باهرا جداً، إذ أحرز بعضهم قصب السبق بإمتياز عظيم فى امتحانات مدارسنا الكبرى فتخرجوا منها مزودين بأجازة الليسانس أو الدكتورية فى العلوم أو بشهادة النبوغ فى علوم الطب والصيدلة.

ولايسعنى فى هذا المقام إلا أن أورد أسماء بعض النابغين على طريق التدليل والاستشهاد. وإذا كنت آثرتهم على غيرهم بإيراد أسمائهم فما ذلك إلا رجاء أن يكون هذا الإيثار منشطا للأخرين وحاثا على الجد فى تحصيل العلوم وأن يكونوا أهلا للتنويه بهم. أما أولئك الذين آثرتهم على غيرهم فأذكر فى مقدمتهم عبدى بك ومختار بك وقد تولى أحدهما رئاسة مجلس الحكومة والآخر إدارة المعارف العامة، وحسن بك الذى عهدت إليه نظارة البحرية، وأرتين بك وخسرو أفندى ويشغل أحدهما الآن المنصب الأول لكتابة السر والترجمة لسمو الوالى والآخر المنصب الثانى لها، وأمين بك مدير فاوريقة ملح البارود، واسطفان أفندى عضو مجلس الحكومة والشيخ رفاعة رافع أستاذ التاريخ والجغرافيا ثم ناظر مدرسة الترجمة، ومظهر ومصطفى المهندسان، ومحمد بيومى أستاذ الرياضيات، وحسن الوردانى ومحمذ مراد ومحمد إسماعيل المعلمون فى النقش والزخرفة والرسم، وأحمد يوسف مدير دار الضرب (الضربخانة)، وهو الذى كلف بالذهاب إلى فازوغلى للبحث عن الإبريز فى رمالها أو زار مناجم الذهب فى (مكسيكا) ، ومحمد نافع وأحمد الرشيدى وعشرة غيرهما من الأطباء الأساتذة بمدرسة قصر العين، وحسين الرشيدى مدير معمل الصيدلة وغير هؤلاء كثيرون منهم، المدفعيون ومنهم الموظفون فى الفاوريقات ومنهم المزارعون وغيرهم ممن امتازوا بالبراعة

وفاقوا الفوق العظيم فى العلوم والفنون التى تفرغوا لدراستها وتوفروا على استقصاء غايتها. وهم يبلغون النصف من عدد الطلاب الذين آثروا البقاء فى مصر ولا يزالون يقومون به يوميا من جليل الخدمة وجزيل الإفادة فذلك غنى عن البيان وأشهر من نار على علم. وإنما نخص بالذكر ثمرة من الثمار الغضة فازت فرنسا باجتنائها من وراء البعثة المصرية ألا وهى نشر اللغة الفرنسية والنفوذ الفرنسى فى مصر. وبحصول فرنسا على هذه الثمرة لن يأسف سمو الوالى محمد على ما كلفت البعثة المصرية من الجهود المتواصلة والكلف الباهظة إذ تكون فرنسا قد حصلت على ماتطمح إليه من حسن الجزاء تلقاء ما بذلته من العناية فى تعليم الشبيبة المصرية وتبريزها. شكرا من مصر لها عليإاكرامها مثوى أولئك الشبان، واعترافا بحسن صنيعها وجنوحا إليها بباعث الحب الصادق والولاء الخالص. أما العلامة (جومار) الذى يرجع إليه الفضل فى ظهور تلك النتائج الجليلة بما بذله فى سبيل ذلك من الهمة والغيرة والعناية والإخلاص فلن توفى مصر وفرنسا والعلوم ما هو جدير به وأهل له [١].

٦- تأسيس المدارس

فى سنة ١٨٢٧ أنشئت مدرسة أبى زعبل الطبية التى سنخصها ببعض البيانات عند الكلام على الطب. وقد أنشئت المدارس تباعا بعد ذلك، ولم يكن النظام فيها كلها متشابها. وكانت، تابعة لنظارات الحكومة على اختلافها، ولكن انحلال الرابطة بينها بعدم وجود نظام شامل لها أفادها فى بادىء الأمر فائدة لاتنكر، فقد قامت بينها قائمة التناظر والتنافس على وجه زج ببعضها فى طريق التقدم فقطعت منه أشواطا طويلة بخطوات حثيثة من غير أن يقيد سيرها فيه نظام مسنون من قبل . على أن المصريين لم يقبلوا على تعليم أبنائهم طائعين مختارين بل قاوموا التعليم وأقاموا فى طريقه العقبات وألقوا المعاثر كما فعلوا لتعطيل حركة التجنيد وحشد العمال لمزاولة الصنائع. وقد بلغ من كراهيتهم للتعليم أن بعض الآباء اعتادوا التمثيل والتنكيل بأبنائهم

(١) انى اغتنم هذه الفرصة لكى اؤدى إلى المسيو جومار ماهو حقيق به من المدح من جهة تستدعى مزيد الشرف له فلقد أرادت الحكومة المصرية أن تكافئه على متاعبه وأعماله الجليلة . فلم يكن من هذا العالم الجليل إلا أن رفض هذه التقدمة بعزة نفس وحسن قصد . بالرغم من أهمية المرتب الذى الح عليه بقبوله.

بترا للأصابع وسملا للعيون. منعا لقبولهم بالمدارس فى حين أن التلاميذ يعاملون بها معاملة مملوءة بالعطف والرعاية إذ تنفق الحكومة على شئونهم كافة من مسكن وغذاء ولباس بدون أن تتقاضى منهم درهما. بل هى فوق ماتقدم، تجرى عليهم الأرزاق والمرتبات وتعتبر المدة التى يقضونها بالمدارس من أدوار الانتقال المفضية بهم إلى المراتب الرفيعة المفضلة ، بلا ريب - على البيئات التى منها توافدت وفودهم. ولقد أدرك الآباء فيما بعد مايترتب على التعليم من المزايا المادية والمنافع الدنيوية. فكفوا عن المعارضة فى إرسال أبنائهم إلى المدارس التى شادتها الحكومة لهم بالمال الكثير.

٧- تنظيم التعليم العام

لما أتت المدارس التى تم تنظيمها وأحكم ترتيبها نهائيا بثمرتها الأولى، أدرك الناس أهميتها . فعهدت الحكومة بإدارتها إلى ناظر خاص، كان أول ما مارسه من أعمالها أن قسم التعليم ثلاث درجات شملت الدرجة الأولى المدارس الإبتدائية والثانية المدارس التجهيزية والثالثة الخصوصية.

وأنشئت مدارس ابتدائية فى الأقاليم وأطراف القطر فبلغ عددها بالوجه البحرى أربعين مدرسة وبالوجه القبلى ستا وعشرين، وفى كل مدرسة مائة تلميذ. تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثانية عشرة. والمدة المقررة للدراسة فيها ثلاث سنوات، يتجدد ثلث عدد التلاميذ فى كل سنة ويتعلمون المبادىء الأولية من اللغة العربية والحساب وغيرهما.

ومن المدارس الابتدائية تستمد المدارس التجهيزية تلاميذها، ومن هذه المدارس واحدة كبيرة جداً بأبى زعبل. وكانت قبلا بقصر العينى ثم نقلت منه لما خصص هذا القصر بالمستشفى العسكرى العام والمدرسة الطبية. أما المدرسة التجهيزية الثانية فبالإسكندرية. وفى المدرستين يتناول التعليم علوما أكثر مما يتناوله التعليم الابتدائى، إذ تعلم فيها اللغة التركية ومبادىء الرياضيات والجغرافيا والتاريخ والرسم وغيرها، والتلاميذ يقضون بها أربع سنوات ويتجدد عددهم فيها بنسبة الربع سنويا.

أما المدارس الخصوصية فهى: مدرسة الهندسة ومدرسة الطوبجية ومدرسة الخيالة ومدرسة البيادة ومدرسة الطب ومدرسة الطب البيطرى ومدرسة الزراعة ومدرسة اللغات والألسن ومدرسة الموسيقى ومدرسة

الفنون والصنايع.

وبالقطر المصرى تسعة آلاف تلميذ تنفق الحكومة على سكناهم وغذائهم ولباسهم، وتدفع لهم المرتبات الشهرية. وهم ينامون على أسرة حديد مفروشة بمرتبة من القش وأخرى من القطن ويصرف لهم فى كل عام طربوش وأربعة أقمصة وأربعة سراويل وأربع تكك وأربعة مناديل للجيب ومنديلان (فوطتان) لتجفيف الجسم من ماء الاستحمام وثلاثة مراكيب وصدريتان الخ.

والغذاء الذى يقدم إليهم صحى جيد وهم يتناولونه فى وجبتين الأولى قبل الظهر بساعة والثانية بعد غروب الشمس بساعة ودروسهم مقسمة حصصا بحسب الساعات ، ويتقاضون فى آخر الشهر مرتبا، فتلاميذ التعليم الإبتدائى يتقاضون فى السنة الأولى خمسة قروش شهريا، وفى السنة الثانية عشرة وفى الثالثة خمسة عشر قرشا. أما الذين يتلقون التعليم التجهيزى فيتقاضون فى السنة الأولى عشرين قرشا شهريا وفى الثانية خمسة وعشرين، وفى الثالثة ثلاثين وفى الرابعة خمسة وثلاثين ويقبض تلاميذ المدارس الخصوصية أربعين قرشا شهريا فى السنة الأولى، وخمسين فى الثانية، وستين فى الثالثة وسبعين فى الرابعة.

ولكل مدرسة ناظر توكل إليه إدارتها من الوجهة المادية وعالم لإرشاد تلاميذها.

الباب الحادى عشر

صحة المصريين وأمراضهم وطبهم وتنظيم المصلحة الطبية

(١)

تـربية المصريين – طـريقـة معيشتهم– إمساكهم عن المشروبـات– استعمال القهـوة والأفيون والحشيش– الحمامـات– نصائح الأجـانب المقيمين بمصر.

١– تربية المصريين

إذا تأملت المصرى أثناء تقلبـه فى طوار الحياة ، فإنك تجده منذ مبـارحته لحضن أمـه، عارى الجسم أو مستترا بخـرق من القماش الغليظ، ومعرضـا لاختلافات الطقس وتقلبات الفصول، فيصير منـذ ولادته سلبيا من الشعور بـالفواعـل الخارجية التى تـؤثـر قليلا أو كثيرا فى النظـام العضـوى لجميع الكائنـات. وتراه ينموا سريعا، ويترعـرع بدون أن تصيبه أمراض الخنـازير ولين العظام وغيرهـا. حقا تظهر عليـه أحيانـا، وهو فى سن الطفولـة أعراض مرضية فى ناحية البطن يدل على وجودها مايعترى هذا العضو من الضخامة إلا أن هذا الاستعـداد المرضى ينسب إلى قلة العنـاية بالأطفـال وإغفال أغلب شئونهم فى السنوات الأولى من حياتهم . كما يعـزى أيضا إلى الطريقة المتبعة فى تغـذيتهم ونوع اللبن الـذى تسـد به حلـوقهم آنـاء الليل وأطراف النهـار فيصابـون بسوء الهضم وينتهى الأمـر بهم ـ على توالى الأيـام ـ إلى تضخم أحشائهم وأمعائهم كما قلنا. وهذه الاستعدادات المهيئة للمرض لم تكن عامة، وإذا توافـرت فسرعان مـاتزول. لأن الغـلام لايكاد يبلغ الشهـر السادس أو الثامن من عمره حتى يدب ويدرج، فإذا بلغ من سنيه السـابعة أو الثامنة، وقد نمت قوى بدنه وعقلـه نموها المبكر، تراه وقد أصبح قـادرا على كفاية نفسه. ومنـذ هذا الـوقت تبتـدىء حياتـه فى ميـدان الجد والعمل، فتراه بـالقاهـرة

والإسكندرية وسائر المدن مغرما بالربح، يقدم إليك حماره لتقطع به المسافات الطويلة المحفوفة بالأخطار، ومن ذا الذى جاء للسياحة بمصر ولم يحمل عليه جماعة الحمارين (المكارية) حملاتهم العنيفة ؟ بل من منهم لم يعجب بخفتهم ونشاطهم وسرعة حركتهم مع عدم احتياجهم لشيء ما أثناء قطعهم الأشواط الطويلة والشقق البعيدة ركضا على الأقدام بلا حذاء وجريا على أرض تلظى بحرارة قيظ لايطاق؟

وإذا تقدم فى السن قليلا بعد ذلك، ورأى رفيقه فى أوصاب الحياة ومتاعبها غير كاف لقضاء حاجته وسد عوزه فسرعان مايطلب الانتظام فى سلك السواس(السياس) الذين ذكرنا عنهم أنهم يعتادون الركض منذ الصغر ويدربون أنفسهم عليه بحيث يستطيعون مجاراة الخيول فى سرعة ركضها زمنا طويلا. وهذه الرياضة - التى لا يشك أحد فى عنفها ومتاعبها التى لايحتملها غير المصريين — لاتصيبهم بما تصيب به غيرهم ممن يحاولون معالجتها من الضرر، إذ قصارى ماينجم عنها بالنسبة للمصرى أن أعضاء التنفس والعضلات فيه تنمو وتكتسب حجما كبيرا.

٢- طريقة معيشتهم

من أسباب قوة بنية المصريين ومتانة عضلاتهم ووثوق أساطينهم التزامهم جانب القناعة والاعتدال فى المآكل والمشرب وطريقتهم فى توزيع وجبات الطعام. فالفلاح فى الأرياف كالعربى فى الصحراء يعلم علم اليقين أن الغذاء الوفير الذى يدخل فى تركيبة الكثير من المواد الحيوانية والدسمة لايتفق وطقس القطر المصرى وحرارة الشمس الشديدة فيه. ويعلم أيضا بدافع من فطرته وتجاربه أنه إذا لم تحتو المعدة من الغذاء السهل الهضم سوى النزر اليسير، أدت أعضاء الجسم جميعا وظائفها بسهولة وانتظام، فضلا عن أن التنفس لاتعترضه العوائق وعن أن المفاصل تبقى لينة، فيحتمل الإنسان فى هذه الحالة بسهولة تامة لقطع أجواز الفلاة، لا يأخذ معه ذخيرة ليومه سوى كيس صغير يحتوى بعض الدقيق وقربة ماء صغيرة، فيعجن من الدقيق فى رؤبة (قصعة) صغيرة هى التتمة لما يحمله معه من المتاع مايلزم لعمل خمسة أو ستة أقراص من الخبز لاتتجاوز القطعة التى يصنع منها القرص حجم الجوزة، ثم يجفف الأقراص فى الشمس أو ينضجها على النار، وقد

يقترن هذا الغذاء بشىء من التمر الجاف فيكفى ذلك لإشباعه طول النهار.

وإذا كان الفلاحون المصريون لايبالغون فى التقشف مبالغة عربان الصحراء فيه بل إذا كان سكان المدن يتحرون فى طعامهم الأصناف اللذيذة التى يجهلها أولئك العربان، فلا ينهض هذا دليلا على أنهم ليسوا على جانب كبير من القناعة والاعتدال، إذ إنهم لايتناولون أبداً من الطعام إلا مايقوم بأودهم ولايلجأون إلى الأغذية المحرضة والتوابل المشهية التى يكثر الأوروبيون من أكلها لتحريك الشهية.

٣- الإمساك عن المشروبات

إمساك المسلمين عن تعاطى النبيذ والمشروبات الكحولية سبب آخر من الأسباب التى تقيهم شر الأمراض والآفات التى تتحيف سكان الأقاليم الحارة حتما إذا أقبلوا عليه.. وسواد المصريين لايعرفون من ضروب الشراب سوى الماء القراح ، أما المسيحيون واليّهود فيتعاطون الأنبذة بوجه عام،، والشراب المعروف بالعرقى بوجه خاص.

٤- قهوة البن والأفيون

قهوة البن من المنبهات التى ألف المصريون تعاطيها وتأثيرها فى النظام العضوى أخف وطأة بلا ريب من تأثير المشروبات المحرضة فيها، إلا أننى أعتقد أن اعتياد المسلمين شربها لايخلو من أثر ضار بصحتهم. وضررها هذا مؤكد بذوى المزاج السريع الانفعال والتهيج العصبى. ولايبعد عن الظن أن يكون هذا الشراب من بواعث العنة التى يشكو منها الكثيرون من الشرقيين غير أن لهذه العاهة - فيما نعلم - سببا أقوى من إدمان القهوة. ألا وهو استعمال الأفيون على وجه أصبح منتشرا معه بين المسلمين، ولا سيما الأتراك منهم. ويحدث الأفيون بفعله المحرض ضعفا فى الجهاز العصبى وخمودا فى أعضاء الجسم وأنه لمن حسن الحظ أن يكون الأفيون غير ماهو شائع الاستعمال بين المصريين ولكن من أقوى بواعث الأسف ماهو مشاهد من إقبالهم العظيم على الحشيش، وهو تلك المادة التى سبق لنا الكلام عليها والتى لايقل ضررها بالجسم عن ضرر الأفيون.

٥- الحمامات والدلك

سبق لى أن أفضت فى الكلام على الحمامات البخارية وعملية دلك الجسم وما ينجم عنها من جزيل الفوائد باعتبار أنها من وسائل الصحة أو طرائق العلاج من الأمراض ولست بمكرر فى هذا المقام ماسبق لى إيراده فى هذا الموضوع بل اقتصر على تحويل القارىء إلى ماأوردته من التفاصيل السابقة.

إن المصرى مدين بقوة بنيته واعتدال مزاجه إلى تمسكه بما ذكرته الآن من عاداته المختلفة كالقناعة والتقشف والأساليب المتبعة فى حياته ، والظروف الخاصة بالطقس والمحيطة بالمكان. فإلى هذه الأسباب بلا ريب يرجع انحصار الأمراض بمصر فى دائرة ضيقة جداً حتى أنهم لايعدون من الموتى فى مدينة القاهرة التى يتجاوز عددها ثلاثمائة ألف نسمة أكثر من ثمانية عشر إلى عشرين كل يوم.

ويسير المصريون الآن سيرا حثيثا فى سبيل الحياة الصحيحة. فإنه لايندر أن تجد بينهم أناسا تجاوزت أعمارهم المائة. وشهدت بنفسى شيخاً من هذا القبيل فى الثلاثين من عمره بعد المائة ولم يكن مصابا بعاهة أو مرض سوى الماء الساقط فى إحدى عينيه. وفى بلدة (كفر نجم) من إقليم الشرقية لايزال على قيد الحياة رجل فى الثالثة والعشرين بعد المائة من عمره حائزا تمام الصحة، وله جملة أبناء أكبرهم سنا فى الثمانين من عمره ، والثانى فى الرابعة والسبعين، والثالث فى السنة الثالثة والأخير لايتجاوز عمره بضعة أشهر. وزوجة هذا الشيخ من طهارة الذيل بما يدفع كل شك فى أن المولود الأخير الأخير من صلبه. واتفقت لذلك الشيخ الفانى حادثة فى غاية الغرابة وهى أنه لما بلغ الثانية والثمانين من عمره نبتت له ست أسنان جديدة اضطر بعد ذلك إلى خلعها لما كان يشعر به من الضيق والحيرة بوجودها.

٦- نصائح إلى الأجانب المقيمين بمصر

ماذكرته الآن من حسن تأثير قناعة المصريين فى صحتهم والحرص على أداء بعض الإجرياء = الإجراءات = الصحية يدعونى فى هذا المقام الى توجيه بعض النصائح إلى الأوربيين من ساكنى مصر والسياح الذين يجوبون أرجاءها. أذكر فى طليعتها التحاشى عن التغذى بما يدخل فى تركيبه الكثير من

الأصول الحيوانيــة لما هو معروف ومقرر فى العلم من أنها تفيض عـن حاجة الجسم إلى تعويض ما فقده، وتتجاوز القدر المناسب من التنبيه والتحريض، ثم الإمساك عن النبيذ الصرف والمشروبات الكحولية.

وتأثير المشروبـات الكحوليـة بـالبلاد الحارة فى صحـة متعاطيهـا ردىء للـدرجة القصـوى ولعل فى التجارب الكثيرة التـى قام البـاحثون بها فى هـذا الموضوع مقنعـا للناس كافـة بهذا الضرر، إذ غير خاف عليهم مـا لوحظ من أزدياد عدد الوفيات بمصر بنسبة مزعجة بين الأجانب الذين ألفوا تعاطى تلك المشروبات. ومما هو غنى عن البيان وإقامـة الدليل عليه لبداهته أن الإنجليز النازلين فى هذا القطر يهلكون بنسبة فاحشة جداً بالقياس على نسبة الوفيات فى الجاليات الإفـرنجية الأخـرى. وما ذلك إلا لأن الإنجليـز احتفظوا فى مصر بعادة إدمان المسكرات. وهى عادة لاتتفق وطقس البلاد التى جاءوا ليتخذوها مقاما لهم.

وهناك أمر آخر ينبغى أن يلاحظه الناس كافة ويعملوا به أثناء إقامتهم فى القطر المصرى، نريد به التوقى من تأثير الرطوبة واختلافات الطقس المتواترة الوقـوع فى هذا القطر. والسبيل الى هذه الـوقاية إنما هـو بالحرص على لبس الثياب المدفئة والإحجام عن النوم فى المخادع والغـرف المفتوحة النوافذ، أثناء النوم ، والاحتراز من الـرقاد فى ظل الأشجار كما يفعـل الفلاحون غـالبا فإن إهمال الاحتيـاطـات يفضـى فى كثير من الحالات الى ضعف الجسم وانحـلال قواه، ويسبب الأمراض الـروماتزمية والإصـابات الرمديـة وغيرها من أنواع الأمراض التى تهيىء حالة الجسم واستعداده إلى الإصابة بها.

ومن عادة الأهلين بمصر إذا أحسوا ببوادر أعراض مايلحقهم من مرض أو انحـراف فى الصحة أن يعللـوا مـا اعتراهم من ذلك ـ وهـو مـانذهب إلى أنـه الصواب بعينـه ـ نسداد المسام وقلـة افرازات الجلد. وسرعـان مايلجأون فى إزالة هذه الأعـراض إلى وسيلة لاريب فى حسن أثرها وصـدق فعلها، ألا وهى التوجه إلى الحمامات البخارية لاستثارة إفراز العرق الغزير من أبدانهم وهذا وحده يكفى لتبديد ماظهر من تلك الأعراض عادة. وأنى لأنصح بالاعتماد على الحمامات إلى من يشعـرون بما وصفته من مرض أو انحراف، واعتقـد يقينا أنها تفيد غالبا فى إيقاف أمراض جمة لولاها لسرت فى الأجسام وأنهكتها.

والاستحمام فى حمامات البخار مع ما يتخلله من دلك البدن كله بالكيس لمن أفضل الوسائل التى ينبغى للأجانب المقيمين بمصر أن يعتمدوا عليها لتحصين صحتهم من الأمراض الداهمة. ولقد سبق لنا الكلام على المزايا التى تنجم عنها من جميع الوجوه فلا حاجة إلى التكرار.

الأمراض المصرية

الطاعون . أمراض أعضاء الهضم: الدوسنتاريا- التهاب الكبد- البواسير.. الخ- الفتق- الأمراض الجلدية: الجذام - حب النيل- البرص- الحصبة.. الخ- الفرتيت. أمراض العيون: الرمد الصديدى- الشتراى انقلاب العين للداخل- الشعرة.. الخ. أمراض أعضاء التناسل ومجارى البول: الحصاة المثانية- الايدروسيل- المبارك أو الزهرى- الأمراض السرطانية- الأمراض الصديدية- الأمراض المخية- الأمراض العقلية- الأمراض العصبية- الروماتزم أو وجع المفاصل - النقطة- التيتانوس- الكلب.

أشرنا فيما سبق إلى أن المصريين ، بما هو معروف من مزاجهم وقوة بنيتهم وطريقة معيشتهم ، ليسوا عرضة إلا لليسير من الأمراض . ولكنهم إذن فى أمان من شرور الأمراض الجمة التى تدهم الأوروبيين والشعوب المتمدينة كانوا عرضة لأدواء = جمع داء = كثيرة غيرها، بعضها خاص بالمواطن التى يستقرون فيها والبعض الآخر مشترك بينهم وشعوب الأرض المختلف، وسنتكلم عليها فيما يلى:

٧- الطاعون

إذا لم يكن الطاعون أكثر الأدواء انتشارا فى مصر فهو على الأقل من الآفات الفتاكة أكثر من غيرها بالأرواح. بل هو من الأوبئة الكامنة فى بلاد الشرق، وعلى الخصوص فى أرض الفراعنة القديمة.

يجوز إذن القول بأن مصر مهد للطاعون، وأنها كانت ـ سواء فى أيام عزها القديم أو فيما تلاها من القرون ـ ميدانا لانتشار ذلك الوباء فيها وفتكه بأهلها أذرع فتك. فليس سقوط الحضارة المصرية من علوة مجدها القديم ولا إغفال القواعد الصحية التى كان المصريون أشد الناس حرصا على

اتباعها هما اللذان أولدا ذلك المصاب المخيف والطامة الكبرى، كلا بل إن أسباب انتشاره مابرحت فى أيامنا هذه كما كانت فى تلك العصور الغابرة سرا من الأسرار الغامضة. وهى كغيرها من أسباب أمراض وأوبئة شتى لاتزال مستعصية على المتصدين لمعالجتها بالبحث والتمحيص والاستقصاء.

ولم يكن الطاعون وباء كامنا فى مصر فقط، بل فى سائر البلدان الممتدة على السواحل الشرقية والجنوبية من البحر الأبيض المتوسط. ومع تفاوت درجات انتشاره فيها شدة وخطورة، فإنه لاتكاد تمر سنة حتى ينزل بكلكله على الشرق فى ميعاد واحد. والعادة أنه. إذا فشا بين الناس بادىء ذى بدء لايكون شديدا. فإذا انتشر بشكل وبائى. وهو مايحدث مرة فى كل ست سنوات أو ثمان أو عشر، فإنه يحصد الأرواح حصدا ، ويكون شأنه فى ذلك شأن الكوليرا إذا انتشرت وأحلت بهم بأسها فجعلتهم غرضا لسهامها وجزرا لسيوفها.

وليس الطاعون من الأوبئة المعدية الوبيئة. وسواد الأطباء الذين فحصوه فى السنوات الأخيرة ودرسوه درسا دقيقا يشاطروننا هذا الرأى. وقد كان هذا الاعتقاد ولايزال اعتقاد المسلمين لايحيدون عنه. لذلك تراهم لايوقون أنفسهم شر ملامسة المصابين بالطاعون والاتصال بهم. ومما يبعد عن الظن أن تكون أراؤهم فى هذا الموضوع مستمدة من الاتكال على القضاء والتسليم بما يأتى به القدر .. فإنه مما لايصح التسليم به أن يتعرض شعب بمحض اختياره للإصابة بداء يعرف أنه من الأدواء المعدية، إذا كان فى استطاعته أن يدرأه بلا معاناة إذ يكفيه مجانبة الموبوئين به.

أمراض أعضاء الهضم

٨- الدوسنتاريا

الدوسنتاريا من الأمراض الملازمة لمصر، وهى بعد الطاعون من أشدها فتكا بالمصابين بها، ويعرفها المصريون باسم الدوسنتاريا وعنصل البطن والسهلة، والإصابة بها فى الوجه البحرى أكثر تواترا منها فى مصر الوسطى والصعيد، والغالب عليها أن تكون فى أيام الحر حيث يأخذ انتشارها فى بعض

الأحيان شكلا وبائيا فتصيب العدد العظيم من الناس.

ذلك المرض الذى يكافحه الأهالى الوطنيـون بالشعوذة وطب الركة ودجل الدجالين. فتكون عاقبته وخيمة عليهم ، ويعالجه الأطباء الأوربيون بالطرق النافعة الناجعة وأخصها مضادات الالتهاب والحمية. والحمية شرط لابد منه فى نيل الشفاء التام.

أما الأمراض الأخرى لأعضاء الهضم فنادرة الوجود فى القطر المصرى.

٩- التهاب الكبد

يشاهد هذا المرض فى أحيان نادرة ، فهو أقل انتشارا مما يتبادر إلى الذهن، والسبب فى ذلك شـدة حرارة الطقس، وأكثـر النـاس تعرضـا للإصـابة بـه الأجانب بوجه عام والأوروبيون منهم بوجه خاص.

١٠- امتلاء المساريقا

أما الامتـلاء المعروف بـاسم امتلاء المساريقـا أو انسدادهـا أو احتقانها فقليل الشيوع أيضا. إذ لايشاهد إلا فى عدد قليل من الأطفال.

١١- الاستسقاء

ومما تتهيأ الفرصة كثيرا لمشاهدته أحوال الإصابة بالاستسقاء أو ترشيح البطن. غير أن هـذا المرض فى مصر لاينشأ عن الإلتهـاب المزمن فى البريتـون. وشأنه فى ذلك بمصر كشـأنه فيه بـالبلدان الأخرى. وتـزداد خطورتـه عادة بتأثير أحوال عـديدة كاحتقان الكبـد أو حدوث الأعراض التى تعـوق الدورة الدموية.

١٢- البواسير

أمـا البواسير فكثيرة الانتشـار فى مصر، بعكس الأمراض المتقـدمة، وعلـة انتشـارها على مـا يظهـر تفشى داء الـدوسنتاريـا فى هـذا القطر. والأهـالى الوطنيون يعالجون البواسير بوسائل تبعث كلها على العجب والدهشة. فإنهم متى شعروا ببروزها وتضخمها ، يستدعون الحلاق فيقطعها لهم بالموس.

١٣- الآفات الديدانية

وهنـاك أمـراض أخرى كثيرة الشيـوع والتفشى فى مصر يجمعهـا اسم

الآفات الديدانية. فإن أهالى القطر، من جميع الأسنان والأمزجة، معرضون للإصابة بها. وكثيرا ما تنتشر الديدان الباطنية فى جسم المصاب بها بحيث لايحصى عددها ولايحصر.

١٤- الفتق

الإصابات بالفتق شائعة فى مصر. وقد عزوا حدوثها إلى ماء النيل باعتبار كونه شرابا يشربه المصرى وينتفع به فى مرافقه كما عزوا إليه ما لاحصر له من الامراض ولاسيما داء الفتق الذى ينسبونه إلى استعمال الحمامات الساخنة الشائعة فى الشرق، ولكن يبدو لنا أن لاسبب من الأسباب المومأ إليها بصحيح، وأن لانصيب لهذا التعليل من الصواب. والذى نرتئيه أنه إذا كان لمياه النيل بعض التأثير فى ازدياد المرض، فإن هناك أسبابا أقوى من التى تقدم ذكرها، منها: بنية الأشخاص الذين نسيجهم الخلوى الشحمى رقيق جداً لايسد التجاويف التى تهبط الأحشاء منها سدا محكما، ومنها ارتخاء المجموع العضلى فى أجسامهم. وهذا الارتخاء يتسبب عن طبيعة مزاجهم وحرارة الوسط الذى يقيمون فيه، ومنها إدمان ركوب الخيل وهو ما لاغنى لسواد المصريين عنه.

وزعم بعضهم أنه لولا إحتياط الفلاحين بضغط بطونهم بالأحزمة العريضة الجلدية لبلغ عدد الإصابات بالفتق فى مصر مبلغا فاحشا. وهذا الزعم ظاهر البطلان. لأن القائلين به لم يلتفتوا إلى أن الضغط بمثل تلك الأحزمة على الحرقفتين والجزء الأعلى من البطن من شأنه أن لايرفع الأحشاء إلى فوق. فهو لن يأتى بالفائدة التى تعزى إليه. بل من شأنه أن يدفع الأحشاء التى يضغط عليها نحو النقط التى يحدث الفتق عادة فيها، إذا ثقلت عليها الأحشاء. وعليه فاستعمال الحزام كوسيلة لمنع الفتق لمن أقوى البواعث على حصوله وتفاقم خطره.

١٥- الأمراض الجلدية

الأمراض الجلدية شائعة فى مصر، وتبدو للناظر على أشكال مختلفة، وأكثرها شيوعا مرض الجذام الذى يصيب الأعضاء ومواضع التناسل وحب النيل والبرص والقوبة والحصبة والجرب وغيرها.

١٦- الجذام

يعرف هـذا المرض فى أوربا بأسماء مختلفة منهـا الفتق اللحمى (بروسير ألبان) ومرض جزائر (البرباد) وسرطان الخصية المصرى، وقد سماه العلامة (الار) بمـرض المجموع اللنفـاوى، وهو شـائع فى مصر وإن لم يكن خاصـا بإقليمها، ومـا سمى فى اللغة الافـرنجية باسم (اليفـانتيازيس) اشتقـاقا من اسم الفيل، إلا للشكل الذى تتشكل بـه الأجزاء المصابـة. من حيث إنه يجعل العضو المصـاب بهذا الداء شبيهـا برجل الفيل. وهـذه التسمية التى تليق إلى حـد ما بـالمرض إذا أصـاب السـاقين، لا محل لها إذا أطلقت عليـه فى حالـة إصابتـه أجزاء أخـرى من الجسم كالخصيتين مثـلا، ثم أن تسميته بأسماء الفتق اللحمى وسرطـان الخصية والقيلـة المائيـة لا تنطبق أيضا على حقيقـة الـواقع، كما سيتبين للقارىء عنـد ذكـر طبيعة المرض وشرح أعـراضه. أمـا تسميتـه بمـرض المجمـوع اللنفـاوى فغير صحيحـة كـذلك. لأن المجمـوع اللنفاوي لم يكن مركزا من مراكز الاضطرابات الباطنية.

إن الجذام الـذى اقترح بعضهم بحق تسميتـــه بـالارتشـاح أو الانتفـاخ الارتشاحى، إنما هو مـن الأمراض التى مركزهـا النسيـج الخلوى الذى تحت الجلد، فإن هــذا النسيج إذا وقع تحت تأثير ظروف مختلفة يـرجع أغلبها إلى أسبـاب التهيج، ينفذ إليـه مقدار يختلف قلـة وكثرة من المواد المصليـة التى تزداد تراكما بـازدياد نمو الأجزاء الصلبة. فمن هذين الظـرفين يتولد الجذام ويكون فى آن واحد نتيجـة الرشح وفرط النمو فى النسيج الخلـوى. يؤيد ذلك استئصال الغدد والعجر النـاجمة بالقطع عن هذين السببين ، فإن هذا القطع يفضى إلى إنسياب مقدار كبير من المواد الصلبة فيقل حجمها قلة محسوسة. ويؤيده أيضا تشريح الأجزاء الصلبة فإن هذا التشريح يجلى عن مثل النتيجة المتقدمة.

وتجرى الأحوال على هذا المثال. سواء اتســع نطاق الداء بالأطراف السفلى للجسم؛ أو اتخذ غـلاف الخصيتين مقرا لـه. وفى الحالـة الأخيرة على الأخص يبلغ الجذام فى الضخامــة وفرط النمــو أقصى مبلغ له. فلقــد رأيت أوراما من هذا القبيل تجاوز وزنها مــائة رطل. وأستأصلت بنفسى أورامــا مثلها بلغت من ضخامة الحجم مبلغا وصل معه قطرها الرأسى إلى أسفل الساق.

أما أسباب الجذام والظروف التى يتولد فيها، فهو ما لم يحققه المحققون حتى الآن، وغاية ما فى الأمر أن من الأسباب المختلفة التى يعزى إليها فرط نموه وتضخمه سببا ربما كان صحيحا وهو تأثير البرودة الرطبة والحمامات الباردة وكثرة الاغتسال إلى غير ذلك من الأسباب المختلفة التى من شأنها أن ترد العرق إلى مصادره . ولكن هذه الظروف لاتكفى وحدها لتوليد الداء. إذ لو كانت هى الموجدة له، لكان من أكثر الأدواء الباطنة شيوعا فى العالم خصوصا وأن العرق كثيرا ما تتعطل بمصر وظيفته بدون أن يترتب على توقفه ظهور ذلك الداء.

ولكى يأتى علاج الجذام بفائدة قاطعة ونتيجة حاسمة، تحسن المبادرة بعلاجه لمجرد ظهور علاماته. لأنه مادام فى دوره الأول يكون الأمل فى الشفاء منه، باتخاذ الوسائل الطبية الأصولية، أوثق وأدنى إلى التحقق. وعليه فمن الميسور الحصول على نتائج حسنة باستعمال مضادات الالتهاب والفصد واللبخات الملينة، وبحمل الأحزمة بعد وضعها فى المكان اللازم وضعا لائقا. أو إذا كان ثم ما يدعو إلى الاشتباه فى أصل المرض، وأن له ارتباطا بإصابة زهرية مثلا فتستعمل الأدوية الزئبقية. أما إذا مضى بعض الزمن على الإصابة فيعتمد فيها على قطع الجذام كذريعة يلتمس منها تخفيف الألم لا الشفاء التام من المرض. وأما إذا بلغ الداء الى الدرجة التى أشرنا إليها. أى إذا دهم الخصيتين وأحدث فيهما ذلك الانتفاخ البالغ ، فالوسيلة الفعالة فى الخلاص منه هى الاستئصال التام.

١٧- حب النيل

يطلق المصريون هذا الاسم على مرض خاص ببلادهم لايعدوها إلى غيرها، وقد أجمعت الآراء على أن سببه استعمال ماء النيل شربا.

ولم يكن حب النيل مرضا جلديا كما ذهب إليه العلامة (بونييه) وإنما هو بثور تخالف بطبيعتها وشكلها أنواع البثور الأخرى، إذ تشبه دمامل صغيرة ملتهبة مختلفة الأحجام تكون منضمة تارة وطورا متفرقة، وتحدث أكلانا يزعج المصاب بها. وقد تستحيل إلى دمامل كبيرة تنتشر على ظاهر الجسم كله وتتفشى فى الأجانب أكثر منها فى الوطنيين. ويتفق أوان ظهورها مع أوان فيضان النيل. ولا خلاف فى أن مياه النهر هى السبب فى حدوثها بدليل أنها

تزول بانتهاء الفيضان وانخفاض الماء.

وحب النيل أكثر شيوعا فى الوجه البحرى منه فى مصر الوسطى. فشأنه من هذه الجهة شأن الجذام. أما الوجه القبلى فالإصابة به نادرة جداً، ولم يستطع أحد حتى الآن تعليل هذه الخصية.

١٨- البرص

البرص أحد أمراض الشرق التى فقدت كثيرا من قوتها بتعاقب الأجيال ومضى الأحقاب. ومع هذا فإن بلاد الهند وبعض شطوط أفريقية والشام ومصر وعلى الخصوص جزيرة كريد مابرحت ملوثة بتلك الآفة. وكثيرا ما تشابه الأمر على الناس فخلطوا بين الجذام والبرص مع بون ما بين المرضين، والبرص يظهر فى شكلين أصليين دعيا إلى تسميتهما. الأول بالبرص الدرنى العربى، والثانى بالبرص الآكال اليونانى.

أما البرص الدرنى المشاهد فى مصر بوجه خاص فيظهر بشكل أجسام درنية صلبة صغيرة الحجم تنتشر فى النسيج الخلوى فتحدث نتوءا فى الجلد وتكسبه لونا ضاربا إلى الحمرة ويبتدىء المرض بالوجه والأعضاء ولايصيب الجذع إلا فى أحوال نادرة جداً. ويتبع فى سيره سير الأمراض الخنازيرية، مفضيا إلى أعراض واضطرابات تشبه ماتحدثه هذه الأمراض منها .. فمن ذلك أن الدرن يلتهب ويتقيح ويحدث جروحا تلتحم عن ندب بشعة المنظر. بل ربما أحدث تشويها فى الأعضاء أو أدى إلى فقدها وسقوطها إذا وصل الدرن إلى المفاصل.

أما البرص اليونانى الذى يقرب بطبيعته من الأمراض القوبية، فنادر الحدوث فى مصر. وهو ببلاد اليونان ألصق منه بأى بلد آخر ويحدث كالسابق اختلالا واضطرابا مختلفى الضعف والشدة فى النظام العضوى.

وكثير من الأطباء يعتبرون البرص مرضا معديا، ولكنه غير ما زعموه من ذلك. فإن الأبحاث التى قمت بها فى هذه الموضوع والمرضى الذين فحصت إصاباتهم فى مستشفياتنا وفى جزيرة كريد أقنعتنى وزملائى المصريين بأن المرض غير معد. وهذا الاقتناع يطابق الرأى السائد منذ زمان طويل بين شعوب الشرق.

١٩- الأمراض القوبية والخنازيرية

الأمراض القوبية موجودة بمصر ، ولكن الإصابة بها نادرة وإذا وقعت كان وقوعها فى جهات متفرقة ومتباعدة وهذا الوصف ينطبق على الأمراض الخنازيرية لسبب لا خلاف فى وجاهته، وهو المزاج الخاص بالمصريين وطبيعة الوسط الذى يعيشون فيه. وبما أنه ليس لهذه الأمراض من الصفات الخاصة مايميزها بعضها عن بعض، فقد اكتفينا بالكلمات السابقة عن الاسترسال فى وصفها والتوسع فى بيانها.

٢٠- الجدرى

الجدرى من الأمراض الجلدية الأكثر شيوعا فى مصر وفتكا بأهلها. على أنه فقد منذ بضع سنوات كثيرا من قوة انتشاره وشيوعه ، بفضل ما اتخذته الحكومة من الوسائل لإجراء عملية التلقيح على الأطفال. والمأمول أن ينتهى الأمر بانقطاع ضرر هذا الداء عن مصر كما انقطع عن الديار الأوروبية.

٢١- الجرب

الإصابة بالجرب من أكثر الإصابات شيوعا بين المصريين، وخصوصا فى صفوف الجيش. والأسباب المحدثة له فى مصر هى عينها فى كل قطر آخر.. وإذا كان هذا المرض أكثر شيوعا فى القطر المصرى منه فى غيرها، فإنما يرجع السبب إلى عدم احتفاظ الناس بالنظافة وإهمالهم وسائل الوقاية.

لمحة عن «كلوت بك»

نعم .. مصر لاتنسى أبناءها.. ولا تنكر ولا تتنكر لغيرهم من الذين عاشوا على أرضها من غير فساد أو إفساد أسمائهم وحفظت لهم إسهاماتهم..

ومن هؤلاء العالم الفرنسي الشهير «كلوت بك» الذى وفد إلى مصر سنة ١٨٢٥ ميلادية، ولسيرته مزايا منها أنه رتب الاسبتالية العظمى والمدرسة الطبية أحسن ترتيب. وبذل جهده فى ترجمة الكتب الطبية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.. وفى سنة ١٨٣٢ ميلادية ذهب إلى باريس وبصحبته اثنا عشر تلميذا من المصريين منتخبون من مدرسة «أبى زعبل»..

وهذه نبذة عن «كلوت بك» وعصره بقلم «عبده محمد لبيب» أحد تلامذة مدرسة «الألسن» بتكليف من سعادة الدكتور «محمد بك الدرى» وهذا الجزء متمم للكتاب «لمحة عامة إلى مصر» وتعريف بصاحبه الذى قدر له، معايشة المصريين وأحوالهم فى فترة تاريخية مليئة بالأحداث والمواقف.

أحمدك يـامن جعلت الأمم الغـابـرة مـوعظـة واعتبـارا لـلأمم الحاضرة وخصصت بعض أفراد النوع الإنسانى بمزايـا حسب ما لديه من الاستعداد، وأوضحت له بجليل آياتك خفايا طريق الغى من طريق الرشاد وأصلى وأسلم على نور الوجود وواسطة الفضل والجود، وعلى آله الكرام وأصحابه الأعلام.

وبعد فيقـول العبد الفقير المضطر إلى رحمة مـولاه الملتجىء إليه دون من عداه عبده محمد لبيب أحد تلامذة مدرسة الألسن التى طار صيتها فى الآفاق: بينما كنت عاكفـا على تحصيل المعارف والتظلل بظلهـا الوارف، وإذا بشمس الحكماء وقدوة الفضلاء الحائز قصب السبق فى مضمار العلوم الطبية لقمان عصره وبقـراط مصره. العلم الشهير الغنى عن البيان الـذى يعجز عن تعـداد فضائلـه اللسان ، ويكل عن الإحـاطة بوصف جليل معـارفه فكـرى. سعادة الدكتور البارع المتفنن محمد بك الدرى أمرنى بترجمة كتاب محتو على سيرة كلوت بك من اللغـة الفرنساوية إلى اللغة العـربية فأجبته إلى مطلوبـه وبذلت الجهد فى إنجـاز مرغوبـه. كيف لا ولصاحب هذه السيرة مـزايا تجل عن أن يحصرها الفكـر منها أنـه رتب الاسبتاليـة العظمى والمدرسة الطبيـة أحسن تـرتيب. وبذل جهـده فى ترجمة الكتـب الطبية من اللغـة الأجنبية إلى اللغـات العربية حتى استمد أبناء أوطاننا من معـارفه الجليلة أشهر العلوم خصوصا الأعمال الجراحيـة واستدعى لها جميع مـا يلـزم مقدمـا الأهم فـالأهم حتى تكـاملت فيهـا الآلات الطبيـة والجراحيـة والمادة الطبيـة والتـاريخ الطبيعى وغيرهـا مما تحتـاج إليـه من زوال فن الطب ومتعلقـاته. كـالقطع المرضيـة التشريحيـة الصنـاعيـة المزين بها الآن كل من قـاعـة الاكلينيك الجراحى والقاعات التشريحية المنسوبة إلى الدكتور (تيبير Thibert) حتى بلغت غاية الكمال، وطبع فيها عدة كتب طبية بعـد أن ترجمت من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية فتقدمت هذه المدرسة إلى الدرجة العليا وأصبحت كعبة معارف تتوارد إليها التلاميذ من سـائر القرى والبلدان فى ظل العائلة المحمديـة العلوية وما زالت كذلك حتى زاد تقدمهـا فى زمن الخديوى المفخم مليك مصر الجالب لها ثروتها والمعيـد لها نخوتها تـوفيقنا الأول الـذى نشر ألويـة المعارف فى هـذا القطر بعـد أن درست معا لمها . جعله اللـه دوحة مجد وإجلال وحفظ أنجـاله الكرام ووزراءه الفخام.

مقدمة مؤلف هذه النبذة التاريخية

اعلم أن التاريخ هو أجل العلوم نفعا وأعظمها فائدة فهو محط أنظار العقلاء وبغية الفضلاء. إذ هو المرشد الأمين الذى يوقفنا على أحوال الأمم الماضية ويبين أعمالهم الحسنة والقبيحة كى يتحلى الناظر فيه بالخطة الأولى ويتخلى عن الثانية فهو أعظم مرب وأجل مرشد لمن نظر فيه بعين الاعتبار.

ومن وعى التاريخ فى صدره   أضاف أعمارا إلى عمره

غير أنه قد وقعت فى بعض كتبه أغلاط أوجبها الخروج عن جادة الإنصاف من حب التقرب لأرباب العظمة وعدم معرفة طبائع العمران وغير ذلك من الأسباب التى يمنعنا ضيق المقام عن ذكرها ومن ثم عزمت على أن أتبع سبيل الصدق فى ذكر سيرة هذا الرجل الذى حاز المقام الأسمى حتى أنه نجح فى جميع مشروعاته وأحدث فى البلاد إدارات نجمت عنها فوائد شتى من المصالح العمومية ، حتى أصبحت تشابه البلاد الأوروبية - مع كونه لم يكن من رجال الإدارة . وإنما أسس كل ذلك بثاقب فكره وسامى إدراكه فهو الجدير بأن يقوم له المصريون بأنواع الشكر جزاء على ما له من جليل الأعمال كغيره من عظماء هذه الأمة الساهرين على منافعها ، ولم يكن هذا العالم الشهير من المبعوثين المسيحيين .مع أنه كان من أجل العالمين بالدين المسيحى الساعين فى نشر المعارف، ولا من قبيل بعض الذين يتخذون العلوم سلما للغنى ووسيلة للتعيش ليس إلا، وكان من سجاياه الانكباب على المطالعة فى العلوم والانهماك فى تحصيل المعارف حتى تحصل منها على ما يتعلق بجميع المنافع البشرية بسبب تفننه فى العلوم الطبية، ولنتعرض إلى سرد ما كان من هذا الرجل منذ سمحت الظروف ببروزه إلى عالم الوجود إلى أن اغتالته أيدى المنون مبينين ذلك فى مطلبين الأول يشتمل على بيان حالته منذ حاز صفة الوجود وزوال العلوم إلى أن نبغ فيها وعرف غثها من ثمينها والثانى على ما كان منه من جليل الأعمال بعد ذلك إلى أن انتقل من الدار الفانية إلى الدار الباقية ولنشرع فى ذلك فنقول:

المطلب الأول

ولد (الدكتور أنطون برتيلمي كلوت بك (Le Doctor Antoin Barth'elmy Clot) فى جرينوبل (Grenobel) لسبع خلت من شهر نوفمبر سنة ١٧٩٣ مسيحية، وكان من عائلة فقيرة جداً، وبهذه الواسطة لم يتحصل إلا على تعليمات ابتدائية وكان والده ضابطا بالجيش الطليانى. وأضطر إلى أن يعود إلى عائلته بعد واقعة (مارانجو Marango) لأجل الاستراحة مما عاناه من مشاق الحرب والمرض الذى ألم به منها ، وتوجه إلى بلدة تسمى (برينيول Brignoles) لأجل أن يعالجه هناك الدكتور (سابيه Sapay) الشهير الذى عرفه فى الجيش أيام الحرب المذكورة، وكان الدكتور المومأ إاليه مديرا لمستشفى البلدة المذكور المسمى (باسبتالية الصدقة L'hotel- Dien) ثم مات والده فى سنة ١٨١١ تاركا زوجته ونجله يتكبدان آلام الفقر وكان لهذا النجل (كلوت بك Clot--bey) رغبة شديدة فى تعلم فن الحكمة والجراحة حتى أنهه كان فى مدة طفولته يزاول تشريح مايعثر عليه من الحشرات فى مزارع (دوفينه Daufin'e) مع غاية من الحذاقة وشدة الرغبة ومازالت تنمو فيه هذه الرغبة كلما نما سنه حتى أن الدكتور (سابيه Sapay) الذى كان محبا لوالده ألحقه بوظيفة مساعد له فى الأعمال الجراحية وبعد مدة قليلة نبغ فى هذا الفن وظهرت نجابته حتى أصبح يجارى الدكتور المذكور فى صغار العمليات.

وفى هذه المدة كان منكبا على مطالعة الفنون الطبية فى كتبخانة هذا الدكتور، واستمر على هذه الحالة باذلا جده واجتهاده حتى أنه حفظ كتاب الجراحة المنسوب إلى (لافيه Lafaie) وبعد بقائه على هذه الحالة بضع سنين علم أنه لايجد فى هذه البلدة (برينيول Brignoles) وسائل التبحر فى هذه العلوم. فعزم على أن يتوجه إلى (مرسيليا Marseille) لكى يلحق با لمستشفى الذى بها فعارضته والدته وأقاربه وأحبابه بأنه مخطىء فى هذا الرأى فلم يصغ لقولهم ، وتوجه إليها منكسر الخاطر من أسف والدته وأقاربه وأحبابه على فراقه وتقبيحهم له هذا الرأى، وكان عمره وقتئذ يناهز تسع عشرة عاما ولم يكن معه سوى ثلاثين فرنكا ومنديله وفيه بعض لوازمه، وبعد مدة من

وصوله إليها نفد ما كان معه فعزم على أن يسافر فى سفينة يقال لها (هازار hasard) أى الصدفة بصفة جراح ولكن لم يحصل ذلك لأن قبطانها عين ابن أخيه لهذه الوظيفة وسافرت هذه السفينة ولم يعلم إلى أى جهة توجهت غير أن الأخبار أفادت أنها غرقت..

فاشتغل (كلوت بك Clot Bey) بأشغال لاتفيد، ثم اضطره احتياج المعيشة إلى أن يقيم عند حلاق له إلمام ببعض المسائل الجراحية الصغيرة فكان يشتغل بالفصد والعمليات الأولية ثم عاد جناب هذا الدكتور إلى حالة التلمذة، ورجع ثانيا إلى محله واشتغل بتحصيل العلوم بجد واجتهاد ثم حضر إلى المستشفى وطلب الانتظام فى سلك التلامذة فما تيسر له أن يقبل تلميذا خارجيا، ولكن لم يضعف هذا الأمر رغبته فى تحصيل العلوم بل زاده رغبة فى تحصيلها، وبعد ذلك حضر مرة ثانية وطلب الطلب الأول فحاز القبول، ولم يكن له فى ذلك الوقت معرفة بالعلوم الأدبية ولكن تحصل منها بعالى همته على درجة عظمى وقبل تلميذا داخليا، وحينما كان بالاسبتالية أدخل بمصلحتها بعض التحسينات الإدارية وتقدم فى العلوم تقدما ما أنبأ عن علو همته، ومع ذلك فكان فى العيش لايجد للرفاهية سبيلا ففى ذات يوم شديد البرد قابله أحد أصدقائه فوجده لابسا بنطلونا من القطن ويرتعد من ألم البرد فقال له بنوع مزاح . كيف تقابل البرد الشديد بهذا الملبس الخفيف فأجابه بتأسف بأنه آلمه والجليد أضر به فأعطاه جانبا من النقود كى يستعين بها على التخلص من هذه الآلام.

وفى أثناء هذه الأيام حصل امتحان فى المستشفى حاز فيه الدكتور المذكور قصب السبق، وشهد الحاضرون بقوة مدركته وعظمة استحضار ذاكرته حتى أن الحكماء الحاضرين قالوا له إنا نؤمل أن نراك دكتورا فى زمن قريب فكان هذا القول داعيا لزيادة رغبته فى تحصيل العلوم وقوة أمله فى الوصول إلى هذه الدرجة بعد أن كانت آماله متعلقة بما هو منحط عنها وعين حكيما صحيا فى سنة ١٨١٧ بعد أن تحصل فى المستشفى على علوم لم تتحصل عليها أقرانه، ولم يزل منكبا على الاشتغال بالعلوم ورافق أحد العلماء الروحانيين، وتعلم منه اللغة اللاتينية حتى تأهل للحصول على (شهادة العلوم الأدبية Diplome de bachelie 'es - lettre) ووقتئذ عين رئيسا

للأعمال التشريحية فى المدرسة الثانوية ثم عين جراح باشى داخلى بالمستشفى. فازداد جده فى مزاولة العلوم والاشتغال بهاوحضر إلى مدرسة الطب الخصوصية (بمونبلييه Montpellier) سنة ١٨٣٠ مسيحية لأجل أن يمتحن امتحان الدكتورية وكان يكفى تلامذة مدرسة الطب فى هذه الأوقات أن يكتبوا أسماءهم فى دفتر الحضور إلى المدرسة المذكورة كل ثلاثة أشهر ولم يكونوا ملزمين بالإقامة فى تلك البلد.ة بل كانوا يسافرون كل ثلاثة أشهر إلى أماكنهم أو حيث شاءوا على سبيل الإجازة والاستراحة متكبدين فى هذا السفر بعض المشقات وقد أعطيت رخصة (لكلوت بك Clot Bey)مقدارها ثلاثة أيام ولكن لم يعط له ما يعينه على ذلك فقطع راجلا مسافة ستين فرسخا حتى أجهده المشى فجلس على جانبى الطريق ليستريح فمرت عليه عربة يجرها جوادان من الخيل فهم باغتنام ركوب هذه العربة زاعما أن لا أحد بها فلم يشعر إلا وضربه قائدها بالسوط ضربة قوية جعلته طريحا على الأرض وعندما كان يقص هذا الفاضل هذه القصة المتقدمة كان يعد نفسه بكونه يمنع القائد من هذه الأعمال الوحشية متى نال مطالبه وساعده القدر وأصبح ذا بطش وثروة ولديه عربة - وقد عمل بهذا الوعد - ولما انتصب للامتحان بادر بعض مختبريه باكثار الاعتراضات عليه نظرا لما قاله فى مسألة النخاع الشوكى المسطرة ضمن أفكار (بروسيه Braussais) التى وضعها حديثا لأن أفكاره فى تلك المسألة كانت مباينة لأفكار أحد مختبريه الذى هو من علماء المدرسة المذكورة ولكن كان بين هؤلاء المختبرين رجل له القدم الثابت فى هذه العلوم ويدعى بالدكتور (للمنض Lallemand) له دراية تامة بعلم (الفسيلوجيا physiologie) أى علم وظائف أعضاء الإنسان فى حالة الصحة فمال إلى تعضيده فى دعواه وتأكدت بينهما المحبة من ذلك الوقت.

ولما رجع (كلوت بك Clot Bey) الى مرسيليا عين حكيما ثانيا بمستشفى (شاريتيه charit'e) الصدقة، وحكيما للجراحة بمستشفى الأيتام.

وأصبح من ذلك الوقت ذا شرف عال وشهرة عظيمة، ومعلوم أن الحسد يتبع الشرف تبع الظل للشمس كما قاله (بلوتارك plutarque) فنشأ من هذا ومن حسن سيرته ومحبة الكثير له إثارة حنق بعض الاشخاص عليه فتحير بين الصمت والكلام، ولكن التزم الأول لعلمه بضرر الثانى، وكان بين هؤلاء الأشخاص الفقراء القليلى العدد رجل طويل الباع فى الخديعة والاحتيال

فظفروا بواسطة النميمة التى هى سلاح السفلة والمارقين عن حوزة الشرف بعزلة من إدارة هذين المستشفيين، ولم يعتره لذلك غضب وحنق حتى يحاول الانتقام منهم. بل عوضا عن ذلك بذل جهده فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى الاحترام ونيل الشرف والرفعة. فدون فى مدة عشرين يوما مسألته المتعلقة باستعمال آلات الولادة فى الأحوال الخطرة حتى صار دكتورا فى فن الجراحة ومن هذه الحادثة يتضح أن مثل السيئة فى الهيئة الاجتماعية كمثل النبات الردىء الذى يوجد مع النبات الحسن.فإنه وإن كان يعوقه عن وصوله إلى الدرجة الحسنة لايؤثر فيه إذا كان مثمرا فالنجاح فى الخير كان ذريعة لارتداع من لهم فى الشر رغبة، وبعد مدة قليلة رأى أن، شهرته نمت بين العام والخاص وانعكس ما كان يحاوله الحساد من إخفاء صيته وشهرته.

وفى سنة ١٨٢٥ تيسر لهذا الدكتور بسعد طالعه التوجه إلى الديار المصرية التى أخذت وقتئذ تخرج من حضيض البربرية والتوحش إلى أوج التمدن والانتظام بهمة صاحب المعارف العالية والمدارك السامية رجل السياسة الوحيدة، وواسطة عقد العمران وزيادة الثروة والتمدن صاحب السيادة على تلك الأقطار المرحوم محمد على باشا . الذى سعى فى أن يجلب إليها التمدن والمعارف والصنائع الأوروباوية فإنه لما رأى عظم ثمرة الإرسالية الفرنساوية فى هذا القطر وجه أنظاره نحو فرنسا ورأى أن من المصلحة المهمة المحافظة على صحة جيشه. فأرسل من قبله إلى البلاد الفرنساوية أحد التجار الفرنساويين المدعو (تورنو Tourneau) لأجل أن يأتى بحكماء للجيش المذكور فقابل هذا الرجل الدكتور كلوت بك وعرض عليه التوجه إلى تلك الأقطار بوظيفة جراح باشى فلبى هذا الطلب بصدر منشرح رغما عن حسن تعيشه بمرسيليا واشتهاره الزائد لعلمه بأن هذه الوظيفة تخلد له المآثر الجليلة وتجعل له تاريخا حسنا نظرا لما يقوم به من جليل المنافع الصحية وغرس نبات العلوم فى أرض مصر غير مراع مصلحته الذاتية كغيره من أغنياء باريس وكتب معه شروطا تقضى بحريته فى العمل وأن يتبع ديانته المسيحية وعدم إجباره على السير مع الجيش خلاف ما كانت عليه قوانين اليونان أيام حدوث الحرب بينهم وبين الدولة العليا، ولنشرح الآن ما كان بعد ذلك من أعمال هذا الرجل فى المطلب الثانى على وجه الاختصار المفيد فنقول:

المطلب الثانى

قبل الشروع فى سيرة كلوت بك نقول : إن المرحوم محمد على باشا ماتقلد إدارة مصر إلا بقوة سيفه واتساع مداركه، وما كان يمكنه تثبيت سلطته عليها إلا بتلك القوة ومساعدة جيشه الجرار وقلعته الحصينة وعدد رجال هذا الجيش لم يكن أقل من مائتى ألف مرتبين بضباط أوروباوية وكان الجيش البحرى يزيد عدده عن عشرين ألف شخص ومع ذلك فلم يكن لكل من هذين الجيشين انتظام زائد، بل إن الأمة المصرية بتمامها كانت محرومة من فوائد العلوم الطبية والوسائل الصحية.

فلما شاهد هذا الأمر كلوت بك شرع فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى التخلص من هذه الحالة السيئة، ولكن لما تحقق أن نجاحه فى مآربه منوط بمساعدة المقربين إلى الوالى المرحوم محمد على باشا أشار عليهم بتشكيل ديوان للصحة لعظم فائدته، فنجح جناب هذا الدكتور فى ذلك كما نجح فى غيره من الأعمال، واتخذ فى هذا المشروع الترتيبات الفرنساوية نموذجا وأحدث أشياء ضرورية مثل الحكمة وممارسة الفنون الجراحية على الطراز الذى كان اخترع حديثا فى فرنسا وأنشئت فى هذه الأوقات المستشفيات العسكرية لضرورة الاحتياج فى إتمام النظام العسكرى إليها، ووضعت أيضا مصلحة الصحة البحرية وكان لجناب هذا البيك الاعتبار الزائد والاحترام الفائق بقطع النظر عن هذه الأعمال الجليلة، ولم تكن أهالى مصر وقتئذ متأهلة للقيام بما يلزم لهذه التنظيمات، ولذلك بعد أن عين لكل واحد من أنواع المستخدمين مثل التمورجية وغيرهم الأعمال التى يزاولونها شرع فى تعليم كل واحد منهم أشغال وظيفته ونظم الصحتين الشخصية والإدارية، وكان يعامل المستخدمين بهمة عليا مع زيادة نشاطه وحسن قيامه بما يعهد إليه من الأعمال، وسعى فى إزالة الامتياز الذى كان بين ضباط الجيش وحكمائه وطلب احترام العمال الذين بصحبته نظرا لكونه كان لايستخدم إلا أرباب الصدق، وأشهر المستشفيات العسكرية التى أنشئت حسب ما طلب البيك المذكور مستشفى أبى زعبل (وهى بلدة صغيرة على مسافة أربعة فراسخ من القاهرة) بقرب ميدان الخانكة. لأن جانبا عظيما من العساكر يبلغ عدده نحو

مائة ألف تقريبا كان بالجهة المذكورة، وقد اشتغل هذا الرجل العظيم بترتيب المستخدمين ووضع الاسبتاليـة والأدوات والبناء المحكم واعتنى اعتناء زائداً بإنشاء بستان للنبـات فى الساحة الداخليـة، وسعى فى إيجاد المدرسة الطبية التى أسسها سنة ١٢٤٣ هجرية والممارسة فى المستشفى المصرى.

وفى الحقيقـة أن ذلك ممـا تقضى المصلحة بـوجـوبه لأجـل اجتناء أبنـاء الأوطان ثمـرات العلوم الطبيـة ففاز بنجاحـه فى هذا الأمـر وأنشئت المدرسة المذكـورة غير أنه مـن سوء الحظ لم ينجم عن ذلك إلا فـائدة قليلـة رغما عن ضرورة وجود أطباء مصريين للجيش وسائر جهـات القطر حتى لا يحتاج إلى الاستمـداد من أوروبا المستلـزم للخضوع الأدبى لها الـذى هو أمـر صعب الاحتمال وقد بذلت نقود جمة لأجل الوصول إلى تلك الفائدة القليلة ولم يكتف كلوت بك بترتيب الجيش على غـاية النظام بل عمد إلى بث هـذه الفنون الطبية فى عقـول أبناء الأمـة المصريـة لما رأى فيهم من الاستعـداد الذى يـوجب لهم التضلع من المعـارف وتحسين مستقبل البـلاد كيف لا وهم سـلالة قـدمـاء المصريين الذين آمـدنوا أهل الكـرة فى الأزمنة السالفـة وبثوا العلـوم فى الأمة اليونـانية وحازوا تالـد المجد وعظيم الثروة فى مـدة الخلفاء العظماء ولما رأى الحساد نجـاح أعماله شرعـوا فى تحويل الوالى عن هـذا المقصد مـدعين عدم الوصول إليه لعدم وجود معلمين ماهرين. غير أن المرحوم محمد على باشا لم يوجـه لهذه الأقوال أذنـا واعية لعلمـه بمنشئها وانتصر كلـوت بك على هؤلاء الأعداء بما ظهر من تقـدم التلامذة فى الامتحان العمومى الـذى جعله فى آخر كل سنة مكتبيـة، وبذل فيه المصـاريف من مالـه الخاص وكان يحضر ذلك الوالى المعظـم ووزراؤه الفخام وقناصـل الدول واستعـان بثاقب فكـرته على إزالـة صعـوبـة التعليم بـإيجاد مترجمين يتلقـون الـدروس مع التـلامـذة ويترجمونها لهم من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربيـة وقرر الامتحان للتلامذة فى آخـر كل شهـر، وتـرجمت وقتئذ الكتب المشهـورة فى الحكمـة والطبيعـة والجراحة وغير ذلك بمجلس مؤلف من العلماء المشهورين وأنشىء تعلم علم الفنون والصنائع وتـرجم قاموس (نيستن Nysten) الطبى ولما كانـت فائدة علم الحكمة والطب متعلقـة زيادة تعلق بعلم التشريح الذى كـانت تعوق عن نشره فى هذا القطر العوائق بـذل جهده فى التحصل على الإذن بالتشريح حتى

تحصل على إذنٍ قاض بإباحة ذلك فى حالـة السر ـ على شرط أن يزاوله بغاية التفطن للاحتيـاج إليه وشرعوا فى التعود على تشريح الأجســام البشرية وأخذ نفور التلامذة من هذا الأمر ينقـص شيئا فشيئا لتعقلهم ضرورته تدريجيا، ولم تحصل فى مدة مزاولة دروس علم التشريح حادثة تكدر الخاطر سوى أن أحد التـلامذة أتى إلى الـدكتور كلـوت بك فى وقت الدرس وقـدم له عـريضة فبينما هو يتأمل فى معانيها وإذا بالتلميذ طعنه بخنجر فى جمجمته فلم يصبه فضربه ثـانية بجوار قلبـه ولإشراق طالع هذا الـدكتور لم تصبه أيضــا هذه الضربة لكـونه ثنى ذراعه وعند ذلـك أسرع التلامذة مبادرين إلى إيقـاف هذا الخائن وحالوا بينه وبين مايريده ومع ما للدكتور كلوت بك من حسن الدراية والاجتهاد فى نشر العلـوم لم يتمكن من إنشاء مـدرسة طبيـة تشابـه مدارس أوروبـا لنفرة الأهـالى من انتظام أولادهم فى سلكهـا. لولا أن قهـروا على ذلك والتزمت الحكومة بمصاريف مـن ينتظمون فيها وجلب المهمات اللازمة لهم وإيجاد مـايحتـاج إليـه التعليم العلمى من نحـو الأمـاكن مثل (انفتيـاتـرو amphitheatre) محل معـد لتـدريس التشريح وقـاعات الطبيعـة والتـاريخ الطبيعى والمعامل الكيماوية وغير ذلك من الأشياء ذوات الفائدة.

وفى سنة ١٨٣٢ ذهب هذا الدكتور إلى بـاريس وبصحبته اثنا عشر تلميذا مصريون منتخبون من متقدمى تلامذة المدرسة.

وعنـد وصولهم إلى المدينـة المذكورة طلب اختبـارهم فى الجمعية العلميـة الطبية وبحضور عظماء العلماء الأوروباويين فأسفر هذا الاختبار عن نجابة هؤلاء التلامـذة وعلو همة أستاذهم فى التعليم ، وكانت إجـاباتهم عن الأسئلة التى وجهت إليهم بـاللغة الفـرنســاوية لأنهم كـانـوا يتعلمونها فى المدرســة المصرية وقد أثبتت هـذه المجمعية أن هؤلاء الشبان وصلوا إلى درجـة تلامذة البلاد الفرنساوية.

وهاهـو محضر الامتحان الذى صـار إجراؤه فى ١٨ نـوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحيـة لـلاثنى عشر تلميذا المتخـرجين من مـدرســة أبى زعبل بـا لمجلس العلمى الطبى الملوكانى بباريس.

لما قدم كلوت بك إلى باريس وصحبته التلامذة المصريون الاثنا عشر الذين صدر أمـر حضرة والى مصر محمد على بـاشا بتـوجههم إلى فرنسـا بحث فى

نصبهم على الوجه الأسنى والطريقة الحسنى بجـادة الدراسة إلا أنه لما كانت رغبـة الباشـا المشار إليـه امتحان هـؤلاء التلامـذة فى أول الأمر حتى تظهـر ثمرات العلوم الطبية التى تحصلـوا عليها بمصر، وتبين حقيقة درجة المدرسة التى نشأوا فيها تداول صـاحب السعادة (كلوت بك Clot Bey) مع المسيو (جومار Jomard) أحـد أعضـاء جمعيـة المعـارف ومع المسيـو (بـرشيت Breshet) رئيس المجلس العلمى الملـوكـانى والمسيـو (بـاريـزيت Pariset) السكـرتير المستديم لهذا المجلس، وشرح لهم رغبـة ومقـاصد صـاحب مصر محمد على بـاشا، فكانت نتيجة مـا قرروه تشكيل لجنة مـركبة من حضرات المسيو (ديجينت Desgenetes) والمسيو (لارى Larrey) والمسيـو (ديبويترن Duputrea) والمسيو (برشت Breshet) والمسيو (أورفيلا Orfila) والمسيو (روستـان Rostan) والمسيـو (بيجـان B'egin) والمسيـــو (روش Roche) والمسيو (كلـوكيه J.Cloquet) والمسيـو (مـاجنـدى Magendie) والمسيو (سنسون Sanson) والمسيو (باريزيت Pariset) للامتحان فى العلوم الطبيـة ومن حضرة المسيو (جـوبير Jaubert) والمسيو (جـومار Jomard) للامتحـان فى اللغات الشرقية وقـد تقرر إرسـال خطابات إلى هـؤلاء الأعضاء متضمنة سؤالهم قبول هذا الطلب، وتحدد يـوم الامتحان فى الساعة الواحدة من يوم ١٨ نـوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحيـة بقاعـة جلسات الجمعيـة العلمية الطبية الملوكـانية وفى اليوم والساعة والمكـان المعينة اجتمع حضرات أعضاء اللجنـة ومعهم حضرة كلوت بك وبصحبتـه الاثنا عشر تلميـذا وكان قـد ذاع وشـاع خبر هذا الامتحـان وتكلمت به ألسنـة الجرائد بكل مكان فكنت تـرى الناس يتقاطرون من كل فج لحضور هذا الاحتفال الجليل. وقد وفد إليه كثير من أعيان أطباء عـاصمة فرنسا وجم غفير من رجال الجمعيـة العلمية وأمراء وأكابر باريس وفى مقـدمته حضرة البارون (ديبوا Le baron du bois) والدكتور (مارك Marck) الطبيب الخصـوصى لجلالة الملك، وقـد حصرت الأسئلة التى امتحنت فيها التلامذة فى المواد الآتية:

أولا : الكـلام على المخ والأذن الباطنـة والعين وخصـوصـا على البلوريـة والكاتراكتة والعملية اللازمة لها.

ثانيا : الكلام على الملتحمة وأمراضـها.

ثالثا: الكلام على القناة الأوربية وعلى تكوين الفتق الأوربى والعملية اللازمة له.

رابعا: الكلام على العجان وعنق المثانة وشرح أسباب وأعراض الحصاة وعمليتها على طريقة المسيو كلوت بك.

خامسا: شرح المفاصل الكتفية العضدية وخلع العضد ورده .

سادسا : الكلام على الجروح الناشئة عن الأسلحة النارية التى تستدعى عملية البتر وشرح هذه العملية.

سابعا: الكلام على تشريح الكبد وشرح تاريخ الالتهاب الكبدى.

وبعد أن تقررت الأسئلة انتخب المسيو (أورفيلا Orfila)لرئاسة اللجنة وصحبته حضرة البارون (ديبوترنDupuytren) والمسيو(باريزيت Pariset) كاتبا لها هنالك قام حضرة الدكتور كلوت بك بشرح أفكار والى مصر بخصوص هذا الامتحان، وأبان أنها مطابقة لأفكاره هو أيضا ثم قدم للهيئة قائمة بها الأسماء الآتية:

١- أحمد الرشيدى

٢- حسن الرشيدى

٣- محمد منصور

٤- إبراهيم النبراوى

٥- حسين الهيهاوى

٦- عيسوى النحراوى

٧- مصطفى السبكى

٨- محمد الشباسى

٩- محمد السكرى

١٠- محمد الشافعى

١١- أحمد بخيت

١٢- محمد على البقلى

وأول من دعى إلى الامتحان من هؤلاء التلامذة الشيخ منصور فسئل عن تركيب العين وعلى الخصوص البلورية وكيفية تكون الكاتراكتة وعن العملية اللازمة لإنقاذ المريض منها فأجاب وأجاد وسلب قلوب الحاضرين ببراعة أجوبته. فإنها كانت فى غاية السداد وصفق له الحاضرون استحسانا وكان كل يثنى عليه قلبا ولسانا.

ثم دعى حسين الهيهاوى فسئل فى شرح العجان وعنق المثانة وعن الأعراض التى تدل على وجود الحصاة المثانية وعن كيفية استخراجها بالطريقة التى كان يستعملها المسيو كلوت بك ولله دره فإنه سحر الألباب بقوة جوابه وشرح صدور الحاضرين بحسن إعرابه، ثم قام النبراوى فسئل فى تركيب المفاصل الكتفية العضدية وفى خلع الذراع وكيفية رده فأجاب بما أظهر قوته وأبان للناظرين ذكاءه وفطنته.

فلما شوهد من إجابة التلامذة مايدل على نجابتهم أراد حضرة البارون (ديبوترن) أن يتخذ أسلوبا غير الذى كانوا يتبعونه فى هذه الأسئلة. ودعا بالشيخ منصور مرة أخرى وسأله عما إذا كان من اللازم إجراء الشد المقابل أو التثبيت فى حالة رد خلع العضد أثناء حصول الشد الذى يستدعى مجهودات غير متساوية ومتنوعة وسأله أيضا عما إذا لم يكن من الضرورى تثبيت الشد المقابل وجعله غير متغير فأجاب الشيخ منصور بالإيجاب وشرح أسباب ذلك بالشرح الكافى وأيد أقواله بالدليل الوافى.

ثم دعا بحسين الهيهاوى وسأله عن وظيفة البلورية فى الإبصار وعن الطريقة التى يستغنى بها عن هذا العضو بعد عملية الكتراكته فأجاب ببديهة حاضرة وقريحة نيرة.

ثم سأل إبراهيم النبراوى عما إذا كان يلزم فى عملية الحصاة أن يكون الشق مناسبا لحجمها وعما يلزم إذا كان جرم الحصاة عظيما جداً.

فأجاب هذا التلميذ بقوله أن القثاطير = القسطرة = تدل على وجود الحصاة وتبين مقدار حجمها فإذا كانت الحصاة عظيمة لزم أن يكون الشق متسعا وإلا فإذا كانت كبيرة جداً وخارقة للعادة فى جسامتها لزم استعمال عملية الحصاة فوق العانة.

وعنـد ذلك سألـه البـارون المشار إليـه عن مقـدار المدة التى أقـامهـا فى الدراسة وعما إذا كانت الحصاة من الأمـراض العمومية بمصر، وسأله أيضا عما شاهده من أنواعها وعن الأسباب التى توجب حصولها.

فأجابه بقوله: إن لى خمس سنين فى الدراسة وأثناء ذلك شاهدت كثيرا من الحصوات التى تكاد أن تكون مرضا عـاما بمصر وينسبونها إلى تكوين مواد رملية تدخل مع الأغذية والمشروبات وتمر بـالكيلوس ثم تمتزج بالدم وتدور معه فى العروق ثم تدخل فى المثانة وهناك تكون نواة تكون أصلا للحصاة ثم قال: وعلى كل لانعتبر هذا الرأى حيث إنا للآن لا نعلم حقيقة أصل هذا الداء.

ثم قام كثير من هؤلاء التـلامذة وتكلموا على هذه المسألـة بما يدل على أنه يوجـد بمصر أناس يزاولون فيهـا عملية الحصاة الصغيرة بواسطـة توسيع قناة مجرى البول واستخراجها بطريقة المص (الجذب) وإذ ذاك تم الامتحان وكانت تلوح على جميع الحاضرين أمارات الفرح وعلامات الابتهاج حتى أنهم صفقوا أكثـر من مرة دلالة على سرورهم وانشراح صدورهم وقـد اختتم هذا المحفل العظيم حضرة البارون المومأ إليه بخطابة بليغة وهاك تعريبها.

أيها التلامذة بنو مدرسة أبى زعبل

إنا نعد أنفسنا سعداء حيث دعينا إلى مشاهدة ما اكتسبتموه بهذه المدرسة من المعارف ومانلتموه من النجاح فى ظلها الوارف. وناهيكم بها مدرسة فإنها حفظت بمصر آثار أزهار القواعد الطبية بعـد ما أصابها الذبول وأعادت ذكر اسمها بعد أن اعتراه الخمول، ولا غرو فإن ما غرس فيها من أصول اللطائف الطبية عادت على مصر ثمرته ورجعت إليها فـائدته. كيف لا وقد ألقت العناية الإلهية بمصر بين يدى حضرة المليك الأعظم والـداورى الأفخم أفندينا محمد على باشا الذى أخذ بزمامها وبحث فى مهامها فأقام ما اندرس من فخار بنيها ونشر ما طوى من رفاهية أهلها، وشيد بها ما قوضته أيدى الزمان من معالم الحضـارة والعمـران وأنشأ بها مـدرسة الطب الـذى هـو قطب دائرة حيـاة الحيـوان، وقـد انتخب لهذا المشروع الجليل والمقصـد الجميل النبيل حضرة العلامـة الأوحد والفهامة الشهير المفـرد صاحب المزايا الجليلة ليعيـد بهجة الطب كما كانت فى الأيـام التى ازدهت فيها مدرسة الاسكنـدرية الشهيرة. ألا وهو جناب المسيـو كلوت بك الذى يرجع إليه مـا نلتموه من النجاح، وينسب

له فخار ما رفع لكم من أعلام الفلاح، فلحضرته منا الشكر الجميل والثناء الجزى. هذا ونحن نشكركم معاشر الشبان المصريين فإنا رأينا من تقدمكم ما يدل على زيادة فضلكم فإنكم أصبتم الصواب ونطقتم بفصل الخطاب. مع انكم استعملتم لغة غير لغتكم بما دل على أن ماتعلمتموه هو على أساس متين ونبأ قوى حصين وأيضا فإن إجابتكم اليوم جعلت لنا أملا وطيدا فى انكم ستنهجون إن شاء الله منهج أجدادكم من أعاظم الحكماء وكبار الأطباء كابن سينا والرازى وأبى القاسم وإنكم ستسيرون بحوله تعالى على أثرهم حتى يقال نعم السلف وياحبذا الخلف وأظن أنه غير خاف عنكم أن هذا الطريق هو لكم محجة تقدم وكمال وتعظيم وإجلال، وبه تسمو صناعتكم إلى منتهى الشرف ويرتفع وطنكم إلى ذروة الترف وكأنى بكم وعما قريب تدعون إلى تشخيص ومعالجة الأدواء التى كأنها تعترض مصر حقدا لها على ثروة أهلها وخصوبة أرضها، ولكن لاتقصر همتكم على ذلك فقط بل يلزم أن يكون جدكم واجتهادكم فى توسيع نطاق العلوم التى تنتظر ذلك من مواظبتكم على العمل ومثابرتكم على هذه الصناعة ونطلب منكم البحث بهمة شديدة عن أسباب وطبيعة ومعالجة الأمراض الخاصة بدياركم وأهل وطنكم فاجيبوا سؤالها ولا تضيعوا فيكم آمالها.

إن هذه الجمعية العلمية التى انشرح خاطرها لقدومكم متشوقة لرؤية نتائج هذه الملحوظات التى أوردتها الآن على جيد فطنتكم ونير ذاكرتكم والله يهديكم سواء السبيل.

وكان كلوت بك يبادر إلى فعل ما تستلزمه المصلحة من التنظيم والإصلاح كلما سنحت له الفرص، ووقتئذ زاد الأمل فى اقتراب وجود معلمين وطنيين ذوى أفكار ثاقبة، وقد وصلت هذه الإصلاحات إلى الدرجة العليا ثم أمر بنقل المدرسة الطبية من أبى زعبل إلى القاهرة سنة ١٢٥٣ هجرية ثم افتتحت مدرسة للقابلات كى يتعلمن فن الولادة لزيادة أهميته، وقال المعلم (للمنض Lallemand) إن عادات المصريين كغيرهم من الأمم الشرقية لاتسمح بتولى الرجال ولادة النساء، ومن ثم كان يرى الحكماء فى الكشف عليهم موانع شديدة وحرمن وقتئذ من فوائد هذا الفن الجليل فشرع الدكتور كلوت بك بإنشاء مدرسة بالمحروسة لتعلم فن الولادة بعد أن لاقى صعوبات ظفر بهذا

الأمر واتضح جليل فائدته، ثم أضيف إلى المدرسة مستشفى للنساء ومدرسة للقابلات، وكانت التلميذات وقتئذ تعدن = تَزُرْن = المرضى فى نفس الأوقات التى يتلقى فيها الدروس وأصبحت النساء اللاتى تعلمن هذا الفن تعالجن النساء الأخريات، ولاريب فى أن هذا الأمر عظيم الفوائد يخلد للدكتور كلوت بك جميل الذكر وكان تعلم القابلات لا يسمح لهن بممارسة الحكمة زيادة عن وظيفتهن ولما وصلت المدرسة إلى درجة عليا واستعدت تلميذاتها لمباشرة هذا الأمر شرع الدكتور كلوت بك فيما يلزم المصلحة الإدارية من الترتيب والتنظيم فأتى بالقوانين الفرنساوية وعمل منها بمقتضى ما رآه موافقا للحكومة المحلية وأسست أماكن للاستشارة الطبية بالمحروسة والإسكندرية وأنشئت مستشفيات عظيمة جداً وجعل لكل قسم أجزاجية وأطباء وبنيت أيضا مستشفيات صغيرة فى جميع البلاد المشهورة من القطر المصرى كل واحد منها يشتمل على خمسة وعشرين سريرا، واستعمل التطعيم الجدرى (الدق) فى القطر المصرى للأطفال والغلمان وتكلف حلاقو القطر المصرى بمباشرته فى البلاد وبهذه الواسطة انقطع الوباء من الجيش والقرى وأخذت الحالة الصحية تتقدم يوما فيوما وقل عدد الموتى فإنه كان يموت قبل ذلك كل سنة ستون ألفا من الأطفال بمرض الجدرى، وغير حالة الإدارة ومراعاة وسائل الصحة تغييرا عظيما فى زمن قليل حتى تضاعف عدد سكان مصر فى مدة خمسة وعشرين عاما ولا ريب فى أن هذا العمل يبيض صفحات التاريخ ويبقى غرة فى جبين الدهر وقد ساعده وساعد الأقطار المصرية أيضا فى أيام الوباء العلاقات والارتباطات الودية التى كانت بينه وبين باريس.

ولنتكلم الآن على حالة المسيو (جومار Jomard) الذى جبل على حب الديار المصرية وبث العلوم والمعارف فى أنحائها فنقول: إن جنابه حضر إلى هذه القطر أيام أن احتلته الجيوش الفرنساوية بصفة كونه عضوا من جمعية علماء باريس، وكان هذا الرجل شبيها بالدكتور كلوت بك من حيث الشغف ببث العلوم والحب فى اتساع دائرة المعارف وفى سنة ١٨٢٦ استرضى المسيو (جومار Jomard) المذكور الوالى بمساعدة المسيو (دروفتى Drovetti) قنصل عموم فرنسا هنا فأرسل نجباء من فتيان المصريين إلى باريس كى يتضلعوا من العلوم والمعارف وينشروها فى قطرهم . فقورن سعيه بالنجاح

وأرسلت مائة شخص من الشبان ووكلت ملاحظتهم له، وهذا هو مبدأ تأسيس الإرسالية المصرية فى البلاد الفرنساوية ولم يزل ناظرا على هذه الإرسالية حتى مات في سنة ١٨٦٢ مسيحية وخرج من تحت إدارته أبطال نجباء فى العلوم والمعارف كسعادة على باشا مبارك وزير المعارف الحالى والمرحوم شريف باشا الذى كان وزيرا للخديوى السابق إسماعيل باشا والمرحوم مظهر باشا والمرحوم الدكتور محمد على بك ناظر المدرسة الطبية سابقا والمرحوم شافعى بك ولاينسى فضل المرحوم رفاعة بك الذى أسس مدرسة الألسن والمرحوم السيد أحمد أفندى الرشيدى والمرحوم السيد حسين أفندى الهيهاوى الذى كان ذا قوة حافظة عجيبة حتى أنه فى مدة دراسته بباريس كان يحفظ الدرس من أول مرة والتلامذة الفرنساويون تصحح وتكمل مانقص منهم عليه، وكان يخبرهم حرفيا بما قيل ولذلك اشتهر صيته فى الديار المصرية وبالخصوص فى المدرسة الطبية البحرية بإسكندرية فاستحصل على أمر من جنة مكان المرحوم محمد على باشا بأن لا يدخل أحد من الأوروبيين الخدمة إلا بعد بحثه بنفسه مع جمعية من رجال المعارف العظماء وبذلك ظهرت ثمرة أعمال ساكن الجنان محمد على باشا ظهور الشمس فى رابعة النهار ولنصرف عنان القلم إلى ذكر بعض ماكان من الدكتور كلوت بك فى الديار المصرية زيادة على ماسبق فنقول:

قد طرأت فى سنة ١٨٣٠ على مصر (الكوليره chol'era) فكان يموت بها من المحروسة فقط ٢٠٠٠ كل يوم، وإذ ذاك أبدى الدكتور المذكور من جليل الأعمال مايدل على إخلاصه وحسن اعتنائه.فإنه كان سببا للإنقاذ من مخالب هذا الوباء الشديد الوطأة فكان يمضى الليل والنهار فى معالجة المرضى واتخاذ الوسائل الواقية ووزع تلامذته فى أنحاء البلدة بعد أن مرنهم على العمل وشجعهم عليه بواسطة إقدامه على المضى وعدم خشية العدوى إلى أن تقشعت سحائب هذا الداء وخلت منه البلدة فسر ساكن الجنان محمد على باشا من حسن أعماله وشدة إخلاصه وأنعم عليه برتبة بك التى لم يعطها قبله لمثله، وأنعمت عليه الحكومة الفرنساوية فى هذا الزمن برتبة (ليجيون دنور L'egion d'honneur) ولما توجه إلى باريس بعد الاحتلال الفرنساوى أخذ معه الاثنى عشر تلميذا سابقى الذكر من مدرسة أبى زعبل

انتظموا فى أعضاء الجمعية العلمية فى ١٣ خلت من شهر نوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحية، وفى سنة ١٨٣٥ انتشر الطاعون (لبست La peste) بمصر القاهرة ففر بعض الأطباء وبعضهم ضرب على نفسه الحجر الصحى (كرنتينة Quaranttaine) ماعدا الدكتور كلوت بك وثلاثة من أقرانه وقد كتب فى ذلك الوقت إلى قنصل فرنسا المسيو (ميموتM.Mimaut) وقت أن كان بالإسكندرية يقول له: نحن أربعة رجال لانفتر عن مزاولة العمل ونرجوا أن يعيش منا واحد لأجل أن يبين بعض الملحوظات وكان عموم الناس يعتقدون عدوى هذا الوباء ولكن الدكتور كلوت بك أظهر خطأ هذا الاعتقاد الذى ربما يترتب عليه الضرر باقترابه من المرضى حال المعالجة، وقد طعم نفسه- أى لقح من دم الخراج (والمادة الفحمية La mati'ere du Charbon) بحضور تلامذته الذين جعلهم حكماء لقلة الأطباء وقتئذ والباعث على ذلك تشجيعهم على العلاج وإزالة الخوف من قلوبهم.

وكان يصوب سهام اللوم والتنديد من يعتقد العدوى. ففى ذات يوم كان يعالج مريضا نصرانيا قابضا على يده، وإذا بقسيس تليانى = إيطالى = أتى ليطعمه القربان الأخير فوجد هذا القسيس مغطى من رأسه إلى قدميه بقماش مشمع ماعدا عينيه اللتين كان موجودا أمامهما ثقبان فوضع عليهما نظارة من زجاج ولما اقترب من المريض ارتجفت أعضاؤه رغما عن شدة تحفظه فلامه الدكتور كلوت بك على هذه الحالة فقال كل أمرىء ورأيه.

ومكث على هذه الحالة باذلا جهده فى معالجة المرضى ستة أشهر. فأرسل إليه ساكن الجنان محمد على باشا الكبير هذا الكلام (لقد كسوت نفسك أيها العاقل ملابس الفخر بهذا العمل الجليل ولذلك جعلتك (جنرالا G'en'erale) ولما علمت الدولة الفرنساوية بما له من الفوائد أنعمت عليه برتبة (أوفيسيه دى لاليجون دنور (Officier de La l'egion d'honneur وأرسلت له جميع الدول التى إهتم بعلاج رجالها نياشين وفى سنة ١٨٤٠ سافر كلوت بك إلى فرنسا وأظهر هناك الكتابين اللذين ألفهما أولهما يشتمل على التأسيسات والترتيبات التى أسسها فى مصر، وثانيهما متعلق بالحوادث الوبائية، وكان هذا الكتاب مقدمة للإصلاحات التى اتخذت فى الحجر الصحى بعد نشره وفى هذه المدة تزوج ببنت أحد معتبرى تجار

مرسيليـا. وفضلا عن تأدية وظيفتـه المنوط بها كـان يعالج أعضاء العـائلة الخديـوية وعظماء رجـال الحكومـة السنيـة فكان مشهـورا بالاخـلاص فى المعالجة لايبتغى عليها جعـلا، ومن ثم كانت الأغنياء والفقـراء على حد سواء فى الورود عليه لأجل المداواة، وقد أرسل فى مأمـورية بمعية المرحوم إبراهيم باشـا فى مدة حـرب الشام وكانت تتـوارد إليه المرضـى من أقطـار تلك البلاد وشـاهد وقتئذ دمشق وديار بكر ثم انتقل إلى بيروت وصيدا وعكا وحيفا وجبل الكرمل ثم ذهب إلى الناصرة التـى كان الطاعون فيها وزار نـابلس واسبتالية الجرحى الذين فيها ثم توجـه إلى بيت المقدس وغزة ولم يخل فى هذه التنقلات من مداواة المرضـى وكان هذا الدكتور شديد الإخلاص إلى المرحوم محمد على بـاشا وعـالجه فى المدة الأخيرة حين استيلاء المرض عليـه علاجـا ينبىء عن حسن الصدق فى الخدمة ولازمـه مدة مرضـه وفى سنـة ١٨٤٩ مسيحية توفى المرحوم إبـراهيم باشا قبل أبيه ببضعـة شهور وكانت آمالـه متعلقة بتتميم مـاشرع فيه والـده من جليل الأعمال المفيـدة فقام بأعبـاء الخديـوية بعـده المرحوم عباس باش، ا وطلب منـه الدكتور كلوت وقتئذ الرخصـة بالتوجه إلى فرنسا فأعطاه إياها فتوجه إلى مرسيليا وأفكاره متعلقة بمصر متأسفا على ما أنشـأه من التأسيسات الجميلـة والترتيبات الجليلة ولما توفى المرحـوم عباس باشا سنـة ١٨٥٤ مسيحية وخلفه المرحوم سعيد باشـا نجل المرحوم محمد على باشـا عاد الدكتور كلـوت بك ثانية إلى الديـار المصرية لينظم إدارة الطب كما كانت أيام والده جنة مكان محمد على باشا فوصل إليها فى ١٧ يناير سنة ١٨٥٦ وكان عمر كلوت بك فى هذا الوقت ٦٣ سنة، وأخبر الوالى المرحوم بأن (كلوتشى بك Colucci Bey) و (فجرى بك Figuri Bey) و(بريجير بك Burguieres Bey) و(شـافعى بك Chafey Bey) و(محمـد على بك Mohamed Aly Bey) هم الذين يصلحون للقيـام بما يلزم لما أنشـأه من الترتيبات، وصـار كل منهم يتبادل رئاسة الطب والمدرسـة الطبية ولما ارتقى الخديوى السابق اسماعيل باشا إلى سدة الخديوية قام بإجلال ذوى الفضل الذين نبغوا فى العلوم الطبية.

ولما سـافر الـدكتور كلـوت بك إلى باريس سنـة ١٨٥١ وجد بها جمعيـة دولية صحية مشكلة لأجل تنظيم الحجر الصحى بالأمصار فنشر نبذة تتعلق

بهذا الموضوع ولمح فيها للأعمال الضرورية فأنعمت عليه الحكومة الفرنساوية برتبة (كومندورد ولاليجون دنور Commandeur de la L'egion d'honneur) ثم سعى فى أن يكون عضوا مراسلا فى هذه الجمعية ولكنه لم يوجه إلى ذلك ركاب الطلب حينما بلغه أن المعلم (للمنض Lallemand) طلبه. لأنه كان معلمه وظهيرا له ففضله على نفسه وأعرض عن طلب هذه الوظيفة.

وكان الدكتور كلوت بك لين العريكة لمن تحت رئاسته فخورا بوطنه محافظا على وسائل احترامه معظما للديانة المسيحية.فكانت رجال فرنسا الذين بمصر له عضدا قويا وقد تشكر له رئيس الكاثوليك على ما أجداه من الهمة فى جانب الديانة المسيحية وأنعم عليه (البابا جرجورا Papa Gr'egoire السادس عشر بجملة نياشين ولقبه البابا التاسع عشر (بكونت رومين Comte Romain) وهو ثابت لنجله اليوم وان لم يستعمله الدكتور كلوت بك وهذا اللقب عظيم الامتياز لدلالته على أن الملقب به لم يأخذ الرشوة البتة وتوجه فى سنة ١٨٦٠ مسيحية إلى مرسيليا ومكث فيها معظما بين أقرانه مألوفا لكل من عرفه وبعد زمن اغتالت أيدى المنون زوجته فأسف عليها وتوالت عليه عقب ذلك الأمراض حتى أنهكت جسمه وهدت قواه وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ فارق الدنيا وهو يشير بسبابته ويلوك لسانه قائلا.. الشغل.. الإنسانية اللذين قصر عليهما حياته. فليعتبر الناظر من هذه السيرة ويتيقن من أن العمل الجليل يخلد لصاحبه الذكر الجميل.

(جواب من كلوت بك Clot Bey إلى المسيو رانزى Ranzi بالقاهرة)

حضرة زميلى المحترم

طالما دعتنى رغباتى فى إنشاء العلوم الطبيـة بالديار المصرية أن أقف وأنا إذ ذاك بمعزل عـن الأعمال على كل ما يلم بـا لمصالح الصحية المختلفـة التى أحكمت نظامها وأدرت سياجها وكثيرا ما نادتنى أميالى الغريزية إلى رواج تلك العلوم أن أراقب سيرها وألاحظ بوارق فلاحها وعوامل كسادها.

وبينما أنا مضطرب البال كثير البلبال إذ اتصل فى بداية الأمر خبر مساعى أمير تلك البلاد فى استـدعائك وتصميمه على أن يعهـد إليك برياسـة المدرسة الطبية لتمـدها من وسيع علمك وترشـدها بغزيـر فضلك قطرت لذلك فـرحا وانشراحا وابتهجت مسرة وارتياحا، وأيقنت بالفوز المبين ووطنت نفسى على أن المولى جل شأنه سيكلل آمالـك بالنجاح الباهر ويجعلهـا غرة فى جبين هذا العصر الـزاهر ويلحقهـا بأعمالك السلف الجليلـة وأن وطنيك = مـواطنك = الدكتور (راجى Raggi) ليكون معوانا لك على نـوال هذه الغاية التى تسعى إليها وتدأب فى الحصول عليها.

وقد علمت بعد ذلك بقليل أنك لبيت أنت والـدكتور راجى ما عرض عليكما وإنكما قـد بلغتما مصر ولم يكن إذ ذاك قـد تنـوسـى شىء من حسن نتـائج امتحـان التـلامذة الـذين اختبرهـم وشهـد بطـول بـاعهم الأستـاذ (للمنض Lallemand) الشهير. لأنـــه لم يمض كبير زمن بين انفصـــالى عن أعمالى وبين التحاقك بوظيفتك. ومع ذلك فقـد وفقك الله إلى أن تقدر تلك الأعمال حق قدرها وتسبر غـور ماتجشمته من المتاعب وذللتـه من المصاعب وتعلم مبلغ الهمة التى بذلتها والعناية التى صرفتها للوصول إلى إيجاد هذا النظام الجديد وتقريره على وجه سديد يعود على الطلبة بالخير الجزيل والفضل العميم.

وقد أخذت بحول الله فى العمل فحـذوت فى سيرك البروجرام الذى قرر لك لعلك تعثر على إصلاح وتهدى إلى فلاح فانتهجت أقوم المسالك وظفرت بأنجع المناهج حتى إذا حانت ساعة الاحتفال بتحديد عهد هذا العمل الجليل ورفعت أعـلام البشـارة بنـوال الأمـانى أشركتنى معك فى ذلك اليـوم السعيـد وقمت

فشمرت عن ساعد الجد وطفقت تذكر للناس حسن صنيعي وتعرفهم بمنزلتي ومكانتي وتستلفت إلى زميل لم تكن رأته عيناك قوما بذلت النفس والنفيس حينا من الزمن فى سعادة وطنهم وخدمة بلادهم فأوجبت عليهم شكرى ودعوتهم إلى رفع ذكرى.

وإن الخلال الحميدة والمناقب الفريدة التى أبديتها فى زمان كثر حاسده وفشى فاسده لخليقة بأن أهدى إليها سويداء قلبى وأجعلها فرضى ونفلى وأنى أسألك أن تقبل وافر امتناني وعاطر ثنائى وتتيقن أنى لو قدمت إلى تلك البلاد وتشرفت بمقابلة الأمير كنت أول مطمح نظرى ومسرح فكرى لأصافحك يدا بيد وأبذل لك خالص الود.

وهذا جواب المسيو رانزى ردا على كتاب كلوت بك

كتبه إليه فى تاريخ ١٧ يوليو سنة ١٨٥٤

حضرة زميلى الأجل الأكرم

إليك جزيل شكرى ووافر امتنانى على ما قلدتنيه فى كتابك من حلل مجدك إقبالك وماكاشفتنى به من عظيم عنايتك وجليل رعايتك التى برهنت على أكيد مودتك وصادق محبتك وبعد: فإنى ما نبهت القوم يوم الاحتفال إليك وما عطرت الأندية بذكراك إلا قياما بما يفرضه على التاريخ الذى قيد اسمك توأما للمدرسة الطبية وعلما على جميع المصالح الصحية وإظهارا لسمو مكانتك فى القلوب وخطر شأنك فى النفوس، ورغبة فى تعريف التلاميذ الذين هم غرس يديك ونسيجك وحدك بما لك عليهم من الأيادى البيضاء والمنن الغراء كيما يقوموا ببعض الواجب فيوفوك حقك من الثناء الجليل والاعتراف بالجميل ولعمرى لقد كان ذكر اسمك جزية لا أرى بدا من تأديتها إليك وليس من العدل جحودها والتغاضى عنها.

ولقد علمت مقدار الحمل الثقيل الذى أخذته عى عاتقى وألقيت مسئوليته على نفسى يوم قبضت على زمام تلك المدرسة التى استوفيت أنت علاجها وأوضحت منهاجها. فأعملت فكرتى وأجهدت طاقتى وبذلت ما فى وسعى وصرفت جل اهتمامى عسى ربك أن يهدينى إلى طريقة تمكننى من إعادة ذلك المجد الذى فقدته بعد بعدك عنها ورد السمعة التى استلبها الدهر منها وكن

على يقين أنى سأواصل الليل بالنهار لالتماس هذه الضالة، وحاشا لله أن أدنس شريف عملك أو أقصر فى المحافظة على تلك النعمة المقدسة التى غرستها فى هذه البلاد وأنرت مشكاتها للعباد.

على أنه إذا أراد الله سبحانه فغير الأحوال وبدل الأشكال وأعاد للمدرسة الطبية المصرية تاجها القديم وزينها بعقدها النظيم فهنالك يزداد الأمل وثوقا بالنجاح، وتبرق ثانية بوارق الفلاح ولتعلمن أنه لو تم هذا الأمر ولو قبل مضى زمان عقد الاتفاق فلا يسعنى سوى أن أقابله بغاية الفرح والقبول فإنه يكون غاية المأمول ونهاية المسئول لما يترتب على ذلك من إهداء الحقوق إلى ذويها وإعطاء القوس باريها ولاتحسبن أنى أصير إذ ذاك خلوا من الأعمال فإن لى مقاما محفوظا بمدينة (فلورانسا Florence) لدى حضرة (الغراندوق Grand Due)

وإنى لمقيم على ولائك صادق فى إخائك متهالك فى محبتك، وليس هذا بالعجب العجاب فإن الأبرار من الناس قد عرفوا بخلوص النية وامتازوا بصفاء الطوية ومهما كان مآل هذا الحال فحسبى منه مانالنى من الشرف وعمنى من الفرح بسبب هذا التعارف ومبادلة مانحن عليه من التآلف على أنه وإن كان هذا الأمر قد ينشأ عنه انحلال فى عرى المودة وفتور فى روابط الاتحاد عند قوم لم تهذب نفوسهم، ولم تطهر من الدخل قلوبهم فإنا بفضل الله قد أصبحنا فى نعمة وحسن مآب.

زميلك المخلص فى مودتك

(رانزى)

خطاب للحضرة الخديوية السعيدية فى إعادة فتح المدرسة

سيدى الأعظم

مما جبر خـاطرى وأعـلا قدرى وشرح فى هـذا القطر صـدرى أن سدتكم العليـة لما جلست على تخت الحكـومـة المصرى تفضلت على بإعـادة افتتـاح المدرسة الطبيـة التى كنت أسستهـا فى الأيام الأوليـة وسلكت فيها بـالطرق المستحسنة مدة خمسة وعشرين سنة فأرى من واجب الشكر على تلك النعمة أن أظهـر لأعتابكم مـا أديته من يـوم فتحهـا من الخدمة ممـا رقته جـداول الامتحان العام عما اكتسبه التلامذة فى هذا العام.

هـذا. وكم لأعتابكم من المقـاصـد الجليلة الحائزة لكل فضيلـة المقرونـة بالانعـام والمنن العائدة على هـذا الوطن كمسـاعدة التجـارة وتلطيفها ورفع الأثقـال عن الرعيـة وتخفيفها وتسهيل السكـك الحديديـة لتقريب كل بعيـد وتسـهيل طرق السفر فى البر والبحر وتعـديل الأحوال فى فتح القنال وفعل ما يجب ذكره وتفـرض على سائر الـدول شكره. سيما وبحسـن الالتفات بعين العناية والنظر إلى المصلحة الطبيـة بكل رعاية يجب أن تلقب أيها الملك الكريم بلقب الفتو، وأن تعد سندا للإنسانية والمروءة.

خطبة كلوت بك عند فتح المدرسة ثانيا

أيها السادة الكرام

لايخفاكم ما اعترانى من الهيام وأنا فى هذا المحفل محاط بالذوات الكرام والعلماء الأعلام. فأحيطكم علما أنى أمضيت ثلاثين سنة تحت رعاية الشهم الفضيل والباشا الأعظم النبيل المضمز على نشر العلم وثمرته بين أهل مصر رعيته وبأمره أنشأت مدرسة الطب وحليت ثغرها وأعليت بين بقية المدارس قدرها وأرى الآن رجال تلامذتها الأول حولى باذلين غاية جهدهم فى مساعدتى على تجديدها وتقويتها وتعضيدها بما عندهم من الهمة الدالة على ما اكتسبوه المفصحة عن ثمرة العلم الذى طلبوه مما يظهر الفرق بين المدرسة السابقة وبين هذه المدرسة اللاحقة.

ولايخفاكم أيها السادة تلك الطرق المتبعة فى التعلم والتفنن الجارية عند أهالى الدول الساعين فى التقدم والتمدن. وهى منفعة اللغات الأجنبية وإدخالها فى هذه الديار المصرية فإنا نعلم علم اليقين أن شرطها جازم وفعلها متعدد ولازم. إذ بها يتوصل إلى ثمرات كثير من العقول ومعرفة حركاتها فى كل معقول ومنقول. فمن ثم أنشأت المدرسة الطبية، و جعلت فيها فرقة تجهيزية وقيدت ضمن دروسها اللغات الأجنبية انتظارا لنتيجة المدرسة التجهيزية الكبرى التى كان والى مصر الأعظم قد أمر بإنشائها لتدريب الشبان على الدخول فى المدارس الخصوصية الأخرى.

وتلك أعظم طريقة للقطر فى إحياء مهجته وإظهار رونقه وبهجته وإعادة ما كان على ما كان وتجديد ما سلف فى غابر الأزمان ولكن ماالعمل فى بعض العقول التى لاتتفكر ولا تطلع على ما قالته أهل الفراسة وأهل التاريخ فنتذكر ألم يلتفتوا إلى المدحة فى تلك العقول المصرية ولا يزالون مصممين لهم على عدم القابلية حتى يتركوهم على حالتهم مستغرقين فى فترتهم وجهالتهم

وينسون أنهم كانوا أول أمة أخـرجت للناس، وأشرف من رفعوا قواعد العلم على خير أســاس ، وأن رجــال اليــوم هم ذريـــة الأقــدمين ونتــاج الأوائل من المصريين الذين كانوا تاجا للأمم المتقدمة وإماما للدول المتعلمة (مصر) وكان قدماء اليـونان يرسلون طلبتهـم إليها ، ويرتكنون فى اكتســاب العلوم عليها، وكم تمتع أهلهــا فى أزمان الخلفــاء على أعظم حظوة وتخلصــوا فى مدتهم على درجــة جسيمــة مــن العلم والثـروة، ثم لما استــولت عليهــم الغـز وتملكتهم وأثقلتهم بأحمال الجور وأهلكتهم خبـت أنـوار مصــابحهــم وخمدت جـذوة قرائحهم لكن بجودة الحكومة وحسن التفاتها ونشرها التعليم فى البلد وسـائر جهـاتها لابد من تيقظ تلك القــرايح الخامدة وتليين هــاتيك الطباع الجامــدة ورجوع الفرع لأصلــه فى العلو وازدياده عنه فى الكبر والنمو ألا تــرى ما ظهر منهم فى زمن المغفـور له الحاج محمـد على باشــا كــالعساكـر التى اقتحمت الأخطار وانتشرت للحروب فى بعيـد الأقطار، وشـهدت لهم الدول بــالحماسة ولضباطهم بحسن السياسة والرياسة؟ أليسوا هم الفلاحون الذين تسلطت عليهم الغز وأهلكتهم وأتلفت طبـائعهم وتملكتهم حتى صاروا يـرتعبون من أدنى القواصة ويتذللون لأنذل البصاصة؟ وكذلك أصول التلامذة المخرجين من المدارس المصريــة المرسلين إلى البلاد الأوروبيــة مركـز الفنون والعلـوم ومعدن المنثور والمنظوم فإن رجال أوروبا عـرفوا قدرهم وحرروا الشـهادات الفائقــة لهم فلا وجــه حينئذ للأقــوال المبطلة والآراء المعطلــة التى تدعى بما لاتعى من أن العقول المصرية غبية. كــلا فإن المصرى لاعيب فيه إلا من تركه وإهماله وعدم تشغيلــه بالعلم واستعماله وبحسن إدارته وتــدريبه وتنقيحه وتهذيبه تزول عنه العيوب وتنكشف لــه الغيوب وتعود الخلقة لمادتها الزكية وفترتها الأصلية.

وعلى المعلمين الازديــاد فى الاجتهــاد وإرشاد الطلبــة إلى سبل الـرشــاد إذ بحسن الإدارة وجميل النصائح تـزكو العقــول وتجلى القرايح وتـرفع أعلام الطب على حصــون المدارس وتقام شعــائر الإنسانيــة فى المحافل والمجــالس وأســألكم أيها الســادة الأعضاء عما طولت فيما إليــه فى تلك المادة عولت فانكم إن نظـرتم إلى السبب الباعث إلى التطـويل وعلمتم الداعى إلى هــذا التأويل من ذكر ما أثبته وحققته ومــا صرفت عليه من نفسى وأنفقته تحقق لديكم عذرى

ووجب لكم شكرى.

وحيث إن مصلحة الطب لصحة العموم نافعة، وإنها للمروءة من الأمراض شافعة وإنكم ولاة أمرها وخزائن سرها وجهرها فلنا الأمل الزائد فى أن يتحصل القطر منها على جزيل الفوائد وإذا نظرنا إلى أهمية تلك المأمورية وما أحيل عليكم فيها من المسئولية رأينا أن اجتهادكم فرض لازم وفعل أمر واقع بعد جازم. لنكون قد أدينا التشكر لولى أمرنا الذى يسره الله لنا . فإنه أعزه الله وأكرم مثواه يحب العلم لرعيته والتمدن لأمته ويود أن أنواره تسرى على سائر بلاد هذا القطر المصرى.

خطبة امتحان تلامذة مدرسة الطب ألقاها الدكتور كلوت بك

فى الساعة التاسعة من صبيحة اليوم الحادى والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ١٢٧٤ هجرية الموافق ٦ أبريل سنة ١٨٥٨ مسيحية احتفل بامتحان تلامذة المدرسة الطبية احتفالا شائقا حضره صاحب السعادة وزير الداخلية مندوبا من لدن جناب الأمير وجملة من الوزراء وكبار الموظفين والعلماء الأعلام ولفيف من مشاهير الأطباء الأجنبيين فافتتح حضرة الدكتور كلوت بك الحفلة با لمقال الآتى:

سادتى: إنى أرانى سعيد الطالع لوقوفى هذا الموقف مرة أخرى أبرهن على ما حصلتم عليه من النجاح العظيم والفوز المبين فى هذه المدرسة التى كنت أول من تقلد زمامها وأحكم نظامها وأنى لآمل أن تكونوا فى خلال هذه المدة التى مضت عليها منذ تجديد عهدها وافتتاح أبوابها قد أحسنتم القيام بما كلفكم به حضرات الأساتذة الماهرين الذين أخذوا على أنفسهم تثقيفكم وإعلاء شأنكم وقاموا ببث روح العلم فيكم فإنى أعتبر فلاحكم غنيمة يحسن وقعها وتحلو عادة ذكرها وتطيب النفس بها ولاسيما فى هذا الوقت الذى أصبحت الراحة لى فيه من ألزم اللوازم لذهابى فى الشيخوخة وانحطاط قوتى.

ولست أرى من حاجة لتعريفكم بما يجب عليكم لمعلمكم من حسن الطاعة والامتثال وما ينبغى أن تتخلقوا به من مكارم الأخلاق ومحامد الخلال

وإياكم أنتم معشر التلامذة الذين أتممتم دروسكم وستبدأون بحول الله فى مزاولة صناعتكم أن تفرطوا فيما تلقيتموه عن أساتذتكم وتطرحوه وراءكم ظهريا. فإنهم جزاهم الله لم يقرروا ما قرروه إلا بعد أن سبروه بمعيار الحكمة وعرضوه على ميزان الاختبار. وحاذروا أن تقبلوا ما يتناقله البعض من الخرافات المعبر عنها عندهم بعلوم السحر والطلسمات التى لاتزال قائمة فى الشرق محترمة فيه حتى الآن، وقد يأباها العقل السليم ويمقتها الدين القويم ولا تألوا جهدا فى تتبع المتجددات الزمانية واقتباس الاكتشافات العلمية فلقد قال أبو الفنون الطبية: « العلم عسير والعمر قصير» فعليكم والحالة هذه أن تصرفوا عنان السعى وتبذلوا قصارى الهمة حتى تبلغوا شأن آبائكم الأولين وتعيدوا للمدرسة المصرية مجدها القديم، واعلموا أنكم مادمتم محافظين على دواعى ارتقائها مجدين فى مراعاة أسباب أعتلائها فقد أمنتم شر الانقلاب، وتجاوزتم العطب بعون الملك الوهاب فإن هذا التقدم الباهر الذى أحرزتموه ليس سببه فقط تضلع الأساتذة وتسابق التلامذة وإنما هو على الأخص ثمرة النظام ونتيجة الإتقان والإحكام.ولقد أسفت على عدم إمكان الوصول الى تأييد مستقبل هذه المدرسة وتثبيته على وجه يضمن بقاءها ويعمل على توسيع نطاقها وإعلاء شأن العلم فيها، ولكنا لانيأس من روح الله فإن لنا أملا وطيدا بأن حضرة الأمير الأبر سيقتفى سنن والده الخالد الأثر فيساعدنا على نوال هذه النعم، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ولقد أثنى أحد مشاهير الرجال على ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الأكبر حين قام بإنشاء هذه المدرسة فقال : «قد يجهل الإنسان أسماء الملوك الذين شيدوا الأهرام ولكنه لا ينسى أبداً أولئك الذين يطوقون الأعناق بهذه المنن الجسام».

■■■■